المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الامانة العامة
لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

العدد ٣٣ ـ السنة الثالثة عشرة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب - بغداد

العدد ٣٣ - السنة الثالثة عشرة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

• دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر •
الشارقة - الهاتف ٣٥٠٨٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

ترسل البحوث باسم مدير التحرير

ص.ب : (٤٠٨٥) بغداد ـ الجمهورية العراقية

مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب ت : (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١. الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (٥٠) دينارا، وفي خارج العراق (١٥٠) دولارا امريكيا .

٢. للمؤرخين في داخل العراق (٢٠) دينارا ، وفي خارج العراق (٦٠) دولارا امريكيا .

٣. لطلبة التاريخ في داخل العراق (١٠) دنانير ، وفي خارج العراق (٣٠) دولارا امريكيا .

شروط نشر البحوث في المجلة

١. ان يعتمد البحث الاسس العلمية في اعداد وكتابة البحوث .
٢. ان يكون منسجما مع اهداف اتحاد المؤرخين العرب .
٣. ان لا يزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة .
٤. ان لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة اخرى ، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير .
٥. تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية ، وباللغتين العربية والانجليزية .
٦. يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة ، ويفضل ان يكون مختصرا، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم .
٧. يطبع البحث على وجه واحد من الورقة ، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص ، ويقدم بنسختين .
٨. بالنسبة للبحوث المقدمة الى المؤتمرات او الندوات او كان مستلا من رسالة أو اشرف عليها مقدم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث .
٩. لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش في البحث الى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلا واحدا .
١٠. يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير في غضون خمسة أيام .
١١. رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبر عن آراء اصحابها مع التأكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى ، والبحوث التي ترد للمجلة لا تعاد الى اصحابها في حالة عدم نشرها .
١٢. يرجى تدوين اسم الباحث وعنوانه ، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية .

هيئة التحرير

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

المقدمـة

يسرنا ان نصدر هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي ، وهو يضم بحـوثا ودراسات متنوعة في تاريخ العرب القديم والحديث والمعاصر وجوانب من التاريخ العربي الاسلامي ، معبرين بذلك عن وجهة نظر نخبة من المؤرخين العرب الذين دونوا لنا ما جادت به عقولهم من ثمرات ووضعوها في خدمة تاريخنا العربي .

وفي هذا الوقت الذي تمر به الامة العربية من امتحان صعب في واقعها الراهن حري بنا نحن - المؤرخين - ان تكون لنا مواقف مشهودة في الساحتين العربية والعالمية للدفاع عن تاريخنا العربي والذود عنه ، ومن هنا فكر اتحادنا العتيد ان يعمل خلال هذا العام على تحقيق ثلاثة مؤتمرات عالمية وهي :

١ . مؤتمر عن اساليب الصهيونية ودورها في تشويه تاريخ الامة العربية .
٢ . مؤتمر عن التاريخ العربي والاسلامي في المناهج الاوروبية والامريكية
٣ . مؤتمر الحوار العربي الافريقي (التأثيرات العربية الاسلامية)

ومما لا شك فيه أن هذه المؤتمرات النوعية ستسهم في القاء الاضواء على التيارات والاهداف والانشطة التي تخطط لتشكيك العرب والمسلمين بذاتهم والعمل على تمزيق وحدتهم والنيل من تراثهم الخالد وجعل التاريخ الواحد تواريخ متعددة وتحويل الهدف القومي الذي يشد العرب جميعا الى اهداف عنصرية واقليمية وطائفية وعشائرية لا تخدم حركة التاريخ وهدفه المعبر عن اصالة هذه الامة .

وكلنا يعلم ان التاريخ ترجع له الشعوب في اوقات محنتها وان العرب اليوم احوج ما يكونون فيه الى استلهام تاريخهم ليقرأوا في صفحاته امجاد السلف ومآثـر الاجداد لتكون لهم بواعث القوة والنهوض لانتشال انفسهم من المتاهات التي خططت لها الدوائر الاستعمارية والصهيونية لتمزيق وحدتهم .

والتاريخ العربي هو صورة مشرقة لكل العرب وهو عقيدتهم الثابتة وان الافتراء عليه هو افتراء على تلك العقيدة وعلى الحقيقة التاريخية ومن هذا المنطلق فان الاتحاد وجد نفسه في هذه المرحلة الخطيرة التي تمر بها امتنا العـربية يخـطو تلك الخطوات الجريئة ليكون بمستوى مسؤوليته التي اولاها المؤرخون العرب له من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ،لكي يكون صوتا معبرا عن اماني المؤرخين واحلامهم في الدفاع عن قيم التاريخ العربي العظيم ومبادئه الاصيلة الخلاقة ، يقف بشجاعة واصرار بوجه كل هجمة شرسة تحاول الطعن في تلك الامانة ، وهي امانـة الاجيال في عنق اتحـاد المؤرخين العرب ، نرجو أن نكون عند حسن الظن وان يكون عملنا خدمة مخلصة ووفية للتاريخ العربي على اختلاف مراحله .

اننا في الوقت الذي نعلن فيه عن جانب من برامجنا وخططنا المستقبلية يحدونا الامل في ان يساهم زملاؤنا المؤرخون العرب منذ الآن في الجهود التي تؤدي الى ضمان نجاح

مهمة الاتحاد القومية وتحقيق الاهداف التي انشىء من اجلها لذا نرجو موافاتنا بالمعلومات والحقائق عن موضوعات هذه المؤتمرات لغرض تجميعها وتبويبها وتضمينها ورقة العمل الكبيرة المعدة لهذا الغرض .

كما يسعدنا ان ندعوكم للمساهمة في رفد مجلة المؤرخ العربي بنتاجاتكم العلمية .

وباصدار هذا العدد نعاهد المؤرخين العرب على المضي في خدمة التاريخ العربي بأمانة واخلاص .

والله ولـــي التوفيق .

أ.د. مصطفى عبدالقادر النجار

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

محتويـــات العدد (٣٣)

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

ان العرب مدفوعون في هبتهم القومية الى وعي تاريخي . فليكن هذا الوعي صحيحا متفتحا ، مستنيرا ، كي يكون لنا مصدر قوة دائمة وعاملا من عوامل البناء والانتاج والابداع ...

الثورة العرابية في مصر
١٨٨١ ـ ١٨٨٢

د.فاضل حسين
كلية الآداب/ جامعة بغداد

مقدمة

هناك بعض اوجه الشبه بين الثورة العرابيـة في مصر وثورة مـايس والحرب العراقية ـ البريطانية في ١٩٤١، من عناصرهما المشتركة:

١ـ الاستعمار البريطاني وقيام الثورتين ضده، باعتباره اصل البلاء.

٢ـ دور الجيش بالثورتين ، وتأييد الشعبين ، ثم حزنهما لفشلها.

٣ـ وجود الخديوي توفيق الذي انحاز الى الاستعمار البريطاني، يقابله وجود الامير عبدالاله الوصي على عرش العراق الذي عزل ثم عاد الى الوصاية بالحراب البريطانية.

٤ـ الاحتلال البريطاني لمصر الذي دام سبعين عاما ١٨٨٢ـ ١٩٥٢، يقابله اعادة الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩٤١.

سعيد باشا بن محمد علي باشا ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ :

كان صديقا لفردينـان دي لسبس Lesseps، وهو احد اقرباء اوجيني زوجـة نابليـون الثالث امبراطور فرنسا ، اعطاه سعيد باشا امتياز قناة السويس .

وفي عهده صدر قانون الاراضي سنة ١٨٥٨، وفيه صار الفـلاح المالك الحقيقي لما يفلحه من الارض . (وفي هذه السنة نفسهـا صدر قـانون الاراضي في الدولة العثمـانيـة في عهـد السلطان عبدالمجيد)، قبل ذلك كانت الاراضي الزراعية ملكا للدولة ، وكان محمد علي باشا الكبير يتصرف بها كما يشاء .

وفي عهده عقد اول قرض اجنبي (١٨٦٢) مع مصرف غوشن Goschen ، وقدره ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه ، زادت ديون مصر عند وفاته عن احد عشر مليون جنيه .

قناة السويس :

في ١٨٥٤ صدر أول اذن ابتدائي بحفر قناة السويس . اعطى سعيد باشا الاذن الى صديقه دي لسبس . وفي ١٨٥٦ حددت شروط امتياز قناة السويس . عارضت انكلتـرا اعطاء امتيـاز قناة السويس الى دي لسبس . وفي ١٨٥٨، وافق الباب العالي (الحكومة العثمانية) على اعطاء امتياز قناة السـويس الى دي لسبس . وكـانت مصر ولايـة عثمانية .

كان رأسمال شركة قناة السويس (٢٠٠) مليون فرنك ، مقسم الى (٤٠٠) الف سهم ، ثمن السهم الواحد (٥٠٠) فرنك .

في نيسان ١٨٥٩ بدأ العمل بحفر قناة السويس ، وانتهى في ١٧ تشرين الثاني ١٨٦٩ في عهد الخديوي اسماعيل .

بموجب امتياز قناة السويس وباتفاقية ١٨٨٨ الدولية اعلن حياد قناة السويس .

الخديوي اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ :

ابراهيم باشا هو ابن محمد علي باشا بالتبني(١)

في ١٨٦٦ اسس مجلس شورى النواب ، يمثل الارستقراطية الزراعية المصرية بصفة خاصة ..

بلغت نفقات حفلة افتتاح قناة السويس ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، اضيفت الى الديون المصرية .

في عهد اسماعيل اقيمت المحاكم المختلطة (١٨٧٦) لتحل محل الامتيازات الاجنبية ، وكان المفروض انها خطوة الى الامام ، ساعد نوبار باشا الخديوي اسماعيل في اقناع الدول ذات الامتيازات الاجنبية في تأسيس المحاكم المختلطة .

المسألة المالية :

ظهرت المسألة المالية المصرية نتيجة للديون الاجنبية التي بدأ باقتراضها سعيد باشا ، واضاف اليها الخديوي اسماعيل الكثير ، حتى تجاوزت في آخر المطاف المائة مليون جنيه :

١ ـ ديون سعيد باشا .

٢ ـ ديون اسماعيل باشا : صرف بعضها للنهوض بمصر وجعلها قطعة من اوروبا ، وصرف بعضها كرشاوى للسلطان العثماني عبدالعزيز وحاشيته للحصول على لقب «خديوي» وحصر وراثة العرش في ابنائه .

٣ ـ حفلة افتتاح قناة السويس .

في ١٨٧٥ بدأ التدخل الاجنبي في المسألة المالية . ارسلت انكلترا وفد كيف CAVE لدراسة الوضع المالي بطلب من الخديوي اسماعيل .

وفي ١٨٧٥ باع اسماعيل اسهم مصر في شركة قناة السويس الى انكلترا حين كان دزريلي رئيس وزرائها بنحو اربعة ملايين جنيه .

وفي ١٨ نيسان ١٨٧٦ توقف الخديوي عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية . وفي ٢ مايس ١٨٧٦ أقيمت لجنة صندوق الدين للاشراف على كيفية دفع الديون الى الدائنين الاوروبيين : انكليز وفرنسيين وغيرهم . وكان من أعضاء لجنة صندوق الدين الانكليزي السير افلن بيرنك Baring الذي اصبح بعد ذلك اللورد كرومر حاكم مصر الحقيقي ١٨٨٣ ـ ١٩٠٧ .

ثم بدأت المراقبة الثنائية الدولية : عين رفرز ولسن مراقبا انكليزيا ، وبلنير Blignieres مراقبا فرنسيا ، دخلا وزيرين في وزارة نوبار باشا ، ولسن للمالية وبلنير للاشغال ، وسميت بالوزارة الاوروبية لوجودهما فيها .

في ٢٣ آب ١٨٧٨ الف مجلس نظار (مجلس وزراء) مسؤول برئاسة نوبار باشا (ناظر النظار) وهو ارمني مصري .

وألفت لجنة تحقيق عن المخالفات المالية . طلبت هذه اللجنة حضور شريف باشا وزير العدل امامها لاداء شهادة فرفض واستقال .

حدث ان وزارة المالية اقترحت تسريح (٢٥٠٠) ضابط، وأنْ تأخرَ دفع رواتب الضباط والجنود فهجم بعضهم بزعامة الضابط لطيف سليم على نوبار وولسن . جاء الخديوي اسماعيل لانقاذهما . قيل ان الهجوم كان من تدبير الخديوي اسماعيل ، لذلك اقال الخديوي نوبار باشا وعين ولي عهده توفيق باشا رئيسا للوزراء ، ثم تلاه بالرئاسة شريف باشا .

فقدت الدول الاوروبية ثقتها بالخديوي اسماعيل فحاولت ان تطلب من السلطان عبدالحميد الثاني عزله . ولكن السلطان عزله قبل أن تتصل الدول الاوروبية وذلك لاثبات سيادة الدولة العثمانية على مصر ، تم العزل في ٢٥ حزيران ١٨٧٩، وفي ٢٦ حزيران عين توفيق باشا خديويا جديدا (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢).

عهد توفيق الى رياض باشا بتأليف الوزارة فألفها وادخل فيها عثمان رفقي باشا (من الشراكسة) وزيرا للحربية (ناظرا للجهادية) .

احمد عرابي
١٨٤٠ ـ ١٩١١

هو أحمد عرابي بن محمد عرابي احد مشايخ قرية في مديرية الشرقية في مصر . ذكر أحمد عرابي في نسبه ان اجداده كانوا يسكنون بطائح العراق ، وان نسبه يتصل بالامام موسى الكاظم (ع) .

دخل احمد عرابي كتاب القرية فحفظ شيئا من القرآن الكريم وتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، ثم تعلم مبادىء الحساب . مات ابوه وهو في الثامنة من عمره . ارسله اخوه الاكبر الى الازهر ومكث فيه اربع سنوات تعلم خلالها شيئا من الفقه والتفسير والنحو .

اراد الوالي سعيد باشا ان ينهض بالجيش المصري فأدخل فيه ابناء المشايخ والاعيان ومنهم احمد عرابي حين كان في الرابعة عشرة (١٨٥٥) وعين في عمل كتابي في فوج المشاة الأول ، ولكنه اراد الالتحاق بصفوف الجيش فعين بمرتبة عريف . ورقي الى رتبة ملازم في السنة التالية وصار يرقى بمعدل رتبة كل سنة حتى وصل الى رتبة عقيد (١٨٦٢) وصل الى هذه الرتبة «من تحت السلاح ـ الايلي ـ مسلكي» أي أنه لم يدخل مدرسة حربية ، درس احمد عرابي القوانين العسكرية واجتاز امتحاناتها بتفوق .

عرف احمد عرابي بكراهيته للشراكسة والاتراك المسيطرين على شؤون الجيش والبلاد دون المصريين الاصليين .

ويذكر عرابي في مذكراته ما كان بينه وبين سعيد باشا من حسن الصلة ، ومن محبة وعطف زوجة الوالي الأميرة انجه عليه ، وقد اختاره سعيد مرافقا له عند زيارته المدينة المنورة ، وكان سعيد باشا يميل الى المصريين في الجيش مما اسخط عليه بعض امراء الاسرة المالكة مثل الخديوي اسماعيل باشا وطبقة الاتراك والشراكسة، قال سعيد في احدى خطبه «حيث انني اعتبر نفسي مصريا فيجب علي ان اربي ابناء هذا الشعب واهذبه تهذيبا حتى اجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الاجانب» وكان احمد عرابي الفلاح المصري احد هؤلاء . وكان الخديوي اسماعيل يميل الى الشراكسة ويكره سعيد باشا ولذلك أبغض احمد عرابي ، وأبغض احمد عرابي اسماعيل والاستبداد .

في عهد الخديوي اسماعيل طلب ناظر الجهادية (الحربية) الامير حسين كامل بن اسماعيل باشا من ابيه ترقية احمد عرابي من رتبة عقيد الى رتبة عميد فقال اسماعيل انه «من بتوع سعيد باشا» وهكذا بقي احمد عرابي برتبة عقيد طيلة ولاية الخديوي اسماعيل . وفي اوائل ايام الخديوي توفيق رقي الى رتبة عميد .

في شهر شباط ١٨٧٨ وقعت مظاهرة الضباط ، ذلك ان عددا من الضباط توجهوا الى وزارة المالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة ، ولما حضر نوبار باشا ومعه رفرز ولسن وزير المالية هجم الضباط عليهما وضربوهما ، ولكن حضر الخديوي اسماعيل بنفسه وانقذهما وتفرق الضباط . وجهت تهمة تدبير المظاهرة الى عرابي ظلما وعدوانا فنقل الى الاسكندرية . فكر عرابي بخلع اسماعيل والتخلص من الاسرة المالكة واقامة الجمهورية . اتهم احمد عرابي الخديوي اسماعيل بتدبير المظاهرة لكي يتخلص من الوزارة الاوروبية .

الحركة الوطنية

ولدت حركة وطنية قوية بسبب التدخل الاجنبي في شؤون مصر ولا سيما ما يخص المسألة المالية (الديون والمراقبة الثنائية ولجنة صندوق الدين ولجنة التحقيق والوزارة الاوروبية) وفي الوقت نفسه قامت حركة عسكرية تمثل غضبة وطنية على الاجانب من الاتراك والشراكسة .. فمن هاتين الحركتين قامت الثورة الوطنية بزعامة احمد عرابي .

كان لهذه الحركة الوطنية مركزان هما مجلس شورى النواب والمركز الاهلي وهو بيت السيد البكري نقيب الاشراف حيث كان يلتقي الاحرار من العلماء والنواب وضباط الجيش الناقمين على الاوضاع العامة ولا سيما على طبقة الاتراك والشراكسة . وظهر جمال الدين الافغاني الذي دعا الى حلول الشورى محل الاستبداد يساعده تلميذه الشيخ محمد عبده . وكان هناك شريف باشا الذي دعا الى مسؤولية الوزراء امام النواب وهو تركي ومؤسس الحركة الدستورية في مصر .

حين سقطت وزارة نوبار باشا المسماة بالوزارة الاوروبية الف ولي العهد توفيق باشا الوزارة وفيها الوزيران الاوروبيان ، واصدر الخديوي امره بحل مجلس شورى النواب ولكن النواب رفضوا الانصراف ، بل قدم الوطنيون تحت اشراف شريف لائحة وطنية الى الخديوي وفيها يعترضون على اقتراحات ولسن التي كانت ترمي الى اعلان افلاس مصر وطالبوا الخديوي باقرار مبدأ مسؤولية الوزارة امام مجلسهم وبتأليف وزارة وطنية . وقع على اللائحة ستون من اعضاء مجلس شورى النواب وستون من العلماء وفي مقدمتهم شيخ الازهر ، ووقعها بطريرك النصارى وحاخام اليهود ، وعدد كبير من الاعيان والتجار والموظفين والضباط ، وافق الخديوي اسماعيل على اللائحة وفيها مسؤولية الوزارة امام مجلس شورى النواب . واستقالت وزارة توفيق واسندت الوزارة الى شريف باشا ولم يدخل الوزارة الجديدة الوزيران الاوروبيان فاحتج الاجانب على ابعادهما .

ثم عـزل الخديـوي اسماعيـل وتولى تـوفيق الخديوية واعاد شريف تأليف الوزارة .

ولكن الخديوي توفيق رفض اجابة طلب شريف بشـأن توسيـع مجلس شورى النـواب ووضـع الحكم عـلى اساس دستـوري فاستقـال . وحل رياض باشا محل شريف باشـا ، وكان في وزارة رياض عثمان رفقي باشا (من الشراكسة) وزيرا للحربية .

عثمان رفقي :

جعل عثمان رفقي اكثر الترقيـات في الجيش للشراكسة ، وأعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجنود «من تحت السلاح» لكي يبقى الشراكسة في الجيش هم العنصر السائد ، وشرع بعزل او اقصاء كبار الضباط المصريـين اذ عزل العقيـد الخيال احمد عبدالغفار ونقـل العميد عبـدالعال حلمي الى عمل في ديوان الوزارة وأحـل محلهما شركسيين . وصار يسخر الجنود بأعمال لا علاقة لهـا بالجنـدية مثـل حفر التـرع وزراعـة ارض الخديوي . وقد عارض احمـد عرابي ان يعمـل جنوده في حفر التـرعة التـوفيقية . وقلت عنـاية الوزارة بالامور العسكرية .

علم احمد عرابي ، حين كان مدعوا الى وليمة ، بما اراد عثمان رفقي بأحمد عبدالغفار وعبدالعال حلمي قبل أن ينشر فقال غاضبا «ان هـذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقي على هضمها» . وبعد تناول الطعام جاءه ضابط واخبره بأن كثيرا من الضباط ينتظرونه في داره .

عريضة الضباط الثلاثة :

ذهب عرابي الى داره فوجد عددا من الضباط منهم العميـد عبدالعـال بك حلمي حشيش أمـر الفوج السوداني والعميد علي بك فهمي الديب أمر فوج الحرس الخديوي في عابدين والمقدم محمد عبيد من فوج الحرس والعقيد أحمد بك عبدالغفار من فـوج الخيالة . ذكـر هؤلاء الضبـاط لاحمد عرابي اجتماعات الشراكسة وهم يتذكرون تاريخ دولة المماليك في كل ليلة بحضور عثمان رفقي باشا ويقولون انه قد حان الوقت لرد بضاعتهم اليهم . وقد فوض هؤلاء الضباط امرهم لاحمد عـرابي وأقسموا على ذلك .

كتبـوا عريضـة الى رئيس الوزراء مصـطفى رياض باشا شكوا فيها من تعصب وتحزب عثمان رفقي للشـراكسة واجحـافه بحقـوق الوطنيـين المصـريين وطلبـوا عزل رفقي وتعيـين غيره من الوطنيين المصريـين مكانـه ، وتعديـل القوانـين العسكرية لتضمن العدل والمساواة بـين الجميع بصـرف النظر عن الاجنـاس والمذاهب . وقـع العريضة العمداء احمد عرابي بك وعلي فهمي بك وعبـدالعال حلمي بـك . واتخـذوا الاحتيـاطات اللازمة للمحافظة على الخديوي تـوفيق والعائلة الخـديويـة والوزراء والبنـوك ، وبيـوت التجـار الاجانب والوطنيين ، وكذلك ضمان سلامة هؤلاء الضباط الثلاثة .

كان رفقي قد وشى بعلي فهمي عند الخديوي فحقد على رفقي . ثم تـأثر عـلي فهمي بشخص عرابي وافكاره .

قدم الضباط الثلاثة العريضة في ١٥ كـانون الثاني ١٨٨١ ، وكان عرابي هو الذي يتكلم باسم زميليه وباسم الضبـاط جميعا . غضب ريـاض باشا من العريضة وقال : «ان امر هذه العريضة مهلك» فقال عرابي : «اننا لم نطلب الا حقا وعدلا» ثم وعـد رياض بـالنظر في طلبـاتهم ، ثم حـاول اقناعهم بسحب العريضة ولكنهم اصروا عليها ، وغضب الخديوي تـوفيق اشد الغضب ، وطلب ريـاض باشـا رئيس الوزراء محاكمـة الضبـاط ووافق الخديوي على محاكمتهم .

حادث قصر النيل :

دعا وزير الحربية الضباط الثلاثة الى ديوان الوزارة في قصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفـاف الاميرة جميلة . شـك الضباط بـالأمـر ، واحتاطوا له واتفقوا مع ضباطهم وجنودهم على ان يـذهبـوا اليهم اذا تـأخـرت عـودتهم عن ساعتين .. قيل : أخبرهم بالمكيدة دي رنك قنصل فرنسا العام في القاهرة ، ولذلك طلب الخديوي من فرنسا ابعاده .

ثم ذهبـوا الى ديـوان الوزارة في أول شبـاط ١٨٨١ ، فـاعتقلوا واودعـوا السجن استعـدادا لمحاكمتهم ، وقد عقد لهم مجلس عسكري برئاسة رفقي باشا لمحـاكمتهم . علم الجنود بمـا حدث وكان اكثرهم وفاء لهم المقدم محمد عبيد فجمع جنده وساروا الى قصر النيل ولما اعتـرضه أمـر الحرس الجديد اعتقله . حاول الخديوي صدهم عما ارادوا القيام به فلم يسمعوا له .

هـاجم محمد عبيـد قصر النيـل ، ولاذ رفقي بالفرار من احدى النوافذ وهرب اعضاء محكمته . واعتدى الجنود عـلى من صادفهم من الضبـاط الاجـانب ، ثم عثـروا عـلى الضبـاط الثـلاثـة المحتجزين وفكوا قيودهم واطلقوا سراحهم . سار عرابي وزميلاه نحو قصر عابدين وقابلوا الخديوي توفيق واسمعوه شكواهم . وقد خشي الخديوي ان

يبطش بهم لأن جميع الجيش ايد عرابي وزميليه ، بل وافق على عزل رفقي ، وعين محمود سامي البارودي مكانه بناء على ترشيح الضباط الثلاثة له وأعادهم الى مناصبهم . ووعد الخديوي بأن ينظر في مطالبهم وان يعمل على انصافهم . أعرب الضباط الثلاثة عن امتنانهم وولائهم لشخص الخديوي واخلاصهم لعرشه وانصرفوا . وقد حقق البارودي بعض الاصلاحات فعلا .

ذاع اسم عرابي في جميع انحاء مصر . وكان الخديوي توفيق ينوي الاعتماد على الجيش للتخلص من رياض رئيس الوزراء . ولكنه حقد على عرابي وحسده على ذيوع صيته ، وصار الناس يذكرونه بلقب «الوحيد» وهو من الفلاحين استطاع ان يقاوم طغيان الطبقة الحاكمة من الاتراك والشراكسة .

الحزب الوطني :

زاد غضب العسكريين من سياسة رياض باشا رئيس الوزراء حين انقص عدد الجيش الى اثني عشر الفا اي اقل مما يقضي به الفرمان الذي ارسله السلطان الى الخديوي توفيق الذي قضى بجعل الجيش ثمانية عشر الفا . وقد ادى انقاص الجيش الى صرف عدد من الضباط والجنود فأصابهم العسر حين لم يمس الشراكسة شيء .

كافح رياض الصحافة بالتعطيل الوقتي والانذار والالغاء بتهمة اثارة الرأي العام . نشط قادة الحركة الوطنية في العمل على مقاومة رياض والتخلص من حكمه . وكانوا يجتمعون في بيت نقيب الاشراف السيد البكري . ثم نقلوا اجتماعاتهم الى حلوان . تألف حزب اطلق عليه اسم «جمعية حلوان» ثم صار يعرف «بالحزب الوطني» . كانوا يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ويعملون على منع الاجانب من التدخل في شؤون البلاد سياسيا وماليا .

وفي الوقت نفسه انتشر السخط في صفوف الجيش على رياض ووزارته . وهكذا التقى الوطنيون والعسكريون . وصارت الزعامة لأحمد عرابي .

مخاوف الضباط من انتقام رياض والخديوي :

سمع الضباط الوطنيون ان رياض باشا يفكر في الانتقام منهم . وكثرت الاشاعات والدسائس . واشيع ان الخديوي توفيق يستعد للبطش بهم . وكان الخديوي يكره محمود سامي البارودي لأنه فرض عليه فرضا ولأنه عامل الجنود والضباط بالحسنى . وكان الخلاف بين البارودي ورياض باشا شديدا . استقال البارودي أو أقيل وعين الخديوي داود يكن باشا صهر الخديوي وزيرا للحربية وهو شركسي . كان البارودي على صلة برجال الجيش وكان يخبرهم بكل ما تريد الحكومة بهم ، واتفق معهم على أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر منهم . وقد عارض عرابي وصحبه وزير الحربية الجديد .

احيط بيت عرابي وعبدالعال بالجواسيس . وطلب شخص مجهول الاذن على عرابي فلم يؤذن له وشوهد انه عاد عقب ذلك الى احد مخافر الشرطة وذهب عرابي الى منزل زميله عبدالعال فعلم انه حدث هناك مثل ما حدث عنده . فأيقنا ان حياتهما يتهددها الخطر . وقد جرت محاولة تسميم عبدالعال في بيته فعلا .

ارسل الخديوي من الاسكندرية قبل استقالة العميد علي فهمي بك رئيس الحرس الى زميليه في القاهرة ليقول لهما ان الخديوي يرغب في عزل البارودي ، وان الخديوي يعطف على مطالبهم قائلا : «انتم ثلاثة جنود وانا رابعكم» وكانت صلة الخديوي بهم ترجع الى ما قبل حادث قصر النيل وكان يبغي الاستناد اليهم لاحراج رياض باشا الذي كان يستند الى الاجانب .

كان اكثر الوطنيين نشاطا في الاتصال بعرابي سلطان باشا وشريف باشا .. وايقن الجميع، وطنيين وعسكريين، ان لا نجاة لمصر من سوء حالها الا بازاحة رياض عدو الدستور عن الحكم واجبار توفيق باشا على ان يسلم بالحكم الدستوري . ولم يكن ذلك ممكنا الا بالاستعانة بالجيش من اجل مصالح الامة السياسية العامة .

اعد احمد عرابي بيانا ارسله الى وجهاء البلاد يبين فيه اخطاء الحكومة واستبدادها ودعا الناس الى معاونته لتخليص البلاد مما هي فيه . ونشر افكاره بين علماء الامة ووجهائها وعمد البلاد ومشايخ العربان . وبين أن سبيله الى تحقيق اهداف مصر هو اسقاط وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه في الوصول بالبلاد الى الحرية المنشودة .

يوم عابدين :

في ايلول عاد الخديوي من الاسكندرية الى القاهرة . وكان الحزب الوطني قد أعد عدته للتظاهر في ساحة عابدين . فكتب احمد عرابي الى وزير الحربية يطلب اليه ان يبلغ الخديوي توفيق بأن افواج الجيش جميعا ستحضر الى ساحة عابدين في مظاهرة عادلة سلمية في الساعة الرابعة

بعد ظهر يوم الجمعة ٩ ايلول ١٨٨١ «لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها» .

ذعر الخديوي وذعر رياض باشا .. فدعا الخديوي رياضاً و«ستون» Stone باشا رئيس اركان الجيش (وهو اميركي) ورئيس ديوانه ليستشيرهم بالأمر . واستدعى الخديوي السير اوكلاند كولفن Colvin المراقب المالي الانكليزي لاستشارته فأشار عليه بالمقاومة .

توجه الخديوي الى قصر عابدين قبل حضور الجيش ومعه رياض وكولفن وستون ، واستدعى علي بك فهمي رئيس الحرس واشار عليه بالدخول الى القصر بفوجه والتحصن بالنوافذ العليا ودخل القصر من الباب الخلفي .

التقى عرابي في ميدان عابدين بالافواج الاخرى بقيادة العقيد احمد بك عبدالغفار والعميد عبدالعال بك حلمي وابراهيم بك نوري والمقدم فودة حسن وغيرهم من انصاره . قدرت المصادر المختلفة عدد الجند المحتشدين بـ (٢٥٠٠ ـ ٤٠٠٠) ومعهم المدفعية . ارسل عرابي يستدعي علي بك فهمي من داخل القصر وعاتبه ثم ذهب وعاد بفوجه وانضم الى الجيش فأصبح القصر خاليا من المقاومة . تجمع وراء الجيش آلاف من اهل القاهرة .

سار الخديوي الى حيث اجتمع الجيش ووراءه ستون باشا وبعض الضباط الوطنيين والاوروبيين . وكان معه أيضا السير جارلس كوكسن Cookson قنصل انكلترا في الاسكندرية ووكيل القنصل الانكليزي العام في القاهرة السير ادوارد ماليت الذي كان غائبا في اجازة .

تقدم الخديوي وتقدم عرابي على ظهر جواده حتى اذا اقترب من الخديوي صاح به الخديوي قائلا : «انزل» فترجل عرابي ومشى نحو الخديوي وأدى التحية العسكرية ، واشار اليه الخديوي ان اغمد سيفك فأغمده . همس كولفن في اذن الخديوي «هذه هي ساعتك» وكان يريد منه ان يقتل عرابي ، فأجاب الخديوي «نحن بين اربع نيران» فقال كولفن «كن شجاعا» فقال الخديوي «ماذا عسى ان افعل ، نحن بين اربع نيران ، انهم يقتلوننا» ثم طلب الخديوي من الضباط الآخرين ان يغمدوا سيوفهم ويعودوا الى اماكنهم فلم يفعلوا . خاطب الخديوي عرابيا «ما اسباب حضورك بالجيش الى هنا» قال عرابي «جئنا يامولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والامة وكلها طلبات عادلة» فقال الخديوي «وما هي هذه الطلبات» فقال عرابي هي :

١ ـ اسقاط الوزارة المستبدة. ٢ ـ وتشكيل مجلس نواب على النسق الاوروبي. ٣ ـ وابلاغ الجيش الى (١٨) الفا ، العدد المعين في الفرمانات السلطانية . ٤ ـ والتصديق على القوانين العسكرية التي امرتم بوضعها». قال الخديوي «كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي واجدادي ، وما انتم الا عبيد احساناتنا ، وانا خديوي البلد واعمل زي ما انا عاوز»[٢]. قال عرابي «لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا أو عقاراً ، فوالله الذي لا اله الا هو ، اننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم» .

التفت الخديوي الى كولفن قائلا : «أسمعت ما يقول» فأشار كولفن على الخديوي بالعودة الى قصر عابدين ، ثم جاء كوكسن ومعه مترجم لمناقشة عرابي قائلا له ان لا حق له في ان يطالب بالمجلس النيابي واسقاط الوزارة ، واما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تساعد على ذلك . اجاب عرابي ان الاهالي هم الذين انابوني عنهم لتنفيذ طلباتهم بواسطة هؤلاء الجند الذين هم اخوانهم واولادهم ، واننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ . واخذ كوكسن يروح ويغدو بين عرابي والخديوي حتى انبأه اخيرا بقبول الخديوي اسقاط الوزارة القائمة وانه سينظر في بقية المطالب فلابد في بعضها من مشاورة السلطان . وقبل الخديوي تعيين شريف باشا رئيسا للوزراء .

التمس عرابي ونفر من زملائه الاذن على الخديوي واعربوا له عن ولائهم وولاء الجيش له .

شريف باشا :

عارض شريف باشا في أول الأمر في قبول الوزارة محتجا بأنه لو قبل الحكم من دون قيد أو شرط فانه يضع نفسه تحت سلطة الجيش ، وهذا ما لا يرضاه ، ولذلك دارت بينه وبين عرابي وزملائه مفاوضات استمرت بضعة أيام . دعا عرابي رجال الحزب الوطني واعضاء مجلس شورى النواب المعطل وعرض عليهم الأمر وكان على رأسهم سلطان باشا . ذهب وفد من هؤلاء الى شريف باشا يرجون منه قبول الحكم فعرفوا انه يشترط ان لا يتدخل الجيش في شيء ، وان يرحل عرابي وعبدالعال بفوجيهما الى مكانين يختاران لهما ، وان يترك حرا في اختيار وزرائه لأن عرابيا طلب اعادة البارودي الى الوزارة ، وادخال مصطفى فهمي باشا في الوزارة .

قبل شريف تأليف الوزارة وادخل فيها محمود سامي البارودي وزيرا للحربية ومصطفى فهمي ،

وتعهد بالنظر في القوانين الخاصة بالجيش في مقابل ان يخضعوا لحكمه ويبتعدوا عن التدخل في شؤونه .

اخبر وزير الحربية عرابيا برغبة شريف بالسفر بفوجه الى رأس الوادي ، وان يسافر عبدالعال الى دمياط ، فقبل عرابي ذلك . وفي الرابع من تشرين الأول ١٨٨١ وافق الخديوي على دعوة مجلس شورى النواب . وفي الثامن من تشرين الأول سافر عرابي بفوجه الى رأس الوادي في مديرية الشرقية ، وكان قد سبقه عبدالعال بالسفر الى دمياط . وفي السادس والعشرين من كانون الأول افتتح الخديوي توفيق مجلس النواب وابدى سروره في اجتماع النواب لأجل ان ينوبوا عن الاهالي في الامور العائدة عليهم بالنفع . اما عن الدستور فكان على الخديوي ان يتنازل عن جانب كبير من السلطان المطلق الى نواب الامة .

موقف الدولة العثمانية :

كان الخديوي توفيق يخشى سياسة الدولة العثمانية . فقد فكر السلطان عبدالحميد الثاني بأن يرسل جيشا لاحتلال مصر ويعيد فيها نفوذ الدولة العثمانية ، كما كان قبل عهد محمد علي باشا ، ولكن انكلترا وفرنسا عارضتاه . وكان الأمير عبدالحليم بن محمد علي في الاستانة يدس الدسائس ويسعى لخلع توفيق وتولي حكم مصر بدلا منه ، ثم اوفد السلطان الذي كان يقاوم الحرية في بلاده وفدا الى مصر برئاسة علي نظامي باشا ليرى الاحوال في مصر . مكث الوفد اياما بمصر ثم رحل وكتب تقريرا يذكر فيه ان الخديوي يذكر ان البلاد هادئة وان رجال الجيش والزعماء يؤكدون ولاءهم للسلطان .

بين عرابي وبلنت :

في ١٢ كانون الأول ١٨٨١ تم لقاء بين احمد عرابي والمستر ولفريد سكاون بلنت Blunt، وهو سياسي ومستشرق وشاعر من احرار البريطانيين الذين يعطفون على الحركات الوطنية والدستورية الحرة . كان ينتمي الى حزب الاحرار الذي كان زعيمه وليم غلادستون Gladstone رئيس الوزارة البريطانية في تلك الفترة (١٨٨٠ ـ ١٨٨٥) . ولبلنت صداقات كثيرة مع رجال السياسة وأعضاء مجلس العموم ورجال الصحافة ، منهم محررو جريدة التايمس . كان مهتما بدراسة الدين الاسلامي وكتب كتاب مستقبل الاسلام . كان يجيد العربية وكانت زوجته الليدي آن بلنت تجيد العربية أيضا قراءة وكتابة . زار بلنت بعض البلاد العربية مثل مصر وتونس والجزائر وسوريا ونجد والعراق . كان له سكرتير شرقي هو القس لويس صابونجي .

في لقاء عرابي وبلنت جرى بينهما حديث ، وفيه اشار عرابي الى ارتياحه لتخلص مصر من مساوىء حكم الخديوي اسماعيل ومن دسائس الشراكسة ، ولكنه ابدى مخاوفه من سياسة انكلترا وفرنسا نحو مصر ، وعبر عن امله في ان تعطف انكلترا التي اعتبرها نصيرة الحرية والديمقراطية على حركة الحرية في مصر ، وقال عرابي انه يتوقع العطف من انكلترا ولا سيما من غلادستون الذي اشتهر بعطفه على الحرية في كل مكان اكثر مما يتوقعه من فرنسا التي احتلت تونس في ١٨٨١ .

قال بلنت يصف كيفية تعرفه الى عرابي وكيف كان تأثيره عليه : كان عرابي حينذاك في قمة صيته يتحدث عنه الناس في طول مصر وعرضها بقولهم «الوحيد» وكان الناس يتزاحمون على داره حيث يدعون ظلاماتهم بين يديه . وقال بلنت كان عرابي قد سمع عني انني ممن يعطفون على قضية الفلاحين وانني من اصدقائهم . وكانت في نفس عرابي مكانة عالية لبايرون الشاعر الانكليزي جد زوجة بلنت وهو الذي عمل من اجل حرية اليونان خلال عشرينات القرن التاسع عشر . ذكر عرابي في حديثه عن ولائه للخديوي توفيق طالما هو يحافظ على وعوده ولا يظهر اية محاولة لسلب المصريين حريتهم الموعودة .. قال بلنت ان أراء عرابي تقوم على اساس معرفته بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربي الموروثة من عهد حرية الاسلام ، وليس هناك شك في اخلاص الجيش والامة له . وقال عرابي لبلنت انني امثل الجيش لأن الظروف جعلت الجيش يثق بي ، وما الجيش الا ممثل الشعب وحاميه حتى يأتي الوقت الذي لا يحتاج فيه اليه ، ومتى تعلم برلماننا الكلام فسينتهي واجبنا .

قال بلنت : كشف لي عرابي عن فارق عقلي كبير بينه وبين مدحت باشا الذي كان بلنت قد قابله في دمشق حين كان واليا على الشام ، وقد فضل بلنت عرابيا على مدحت أبي الدستور العثماني . قال عرابي لبلنت انه لا يحب الاتراك الذين أساؤوا حكم مصر عدة قرون ولا يحب ان يسمع عن تدخل القسطنطينية في شؤون مصر الداخلية ، ولكنه يفرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان خليفة المسلمين وامير المؤمنين الذي تجب طاعته اذا عدل .

وقال بلنت تحدثت مع عرابي عن المراقبة

الثنائية ، مراقبة انكلترا وفرنسا فذكر دورها في تخليص البلاد من اسماعيل وفي تنظيم الشؤون المالية .

ذهب بلنت بعد مقابلته عرابيا الى صديقه الشيخ محمد عبده واقترح عليه ان يكتب برنامج الحركة الوطنية بالمعنى الذي ذكره عرابي كي يرسله الى غلادستون . وحدث بلنت ماليت قنصل انكلترا العام في مصر عن هذا الاقتراح فذكر انه يعتقد انه يحدث اثرا طيبا ، ثم وضع بلنت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وبعض الزعماء الوطنيين ، وبمعاونة سكرتيره الشرقي صابونجي ، برنامجا يتضمن آراء الحزب الوطني ، وقد عرض على محمود سامي البارودي فأقره ثم عرض على عرابي نفسه . ثم أرسله بلنت الى غلادستون في ٢٠ كانون الأول ١٨٨١ قائلا انه وضع على علم من ماليت وباقرار منه لما جاء فيه ، ورجاه ان يعطف على حركة قريبة من المبادىء التي يعتنقها غلادستون . ولكن غلادستون قال بعد ذلك انه انما كان ينفذ سياسة وضعتها وزارة دزريلي لاحتلال مصر .

تعيين عرابي وكيلا لوزارة الحربية :

خشيت الحكومة من اتصالات عرابي بوجوه المصريين وشيوخ العرب محرضا وداعيا الى مبادئه واغراضه ، فاستدعته من رأس الوادي واسندت اليه منصب وكيل وزارة الحربية في ٤ كانون الثاني ١٨٨٢ . يذكر عرابي انه فوتح في ان ينعم عليه برتبة لواء وبذلك يصبح باشا ولكنه رفض الرتبة لئلا يتهم بأنه يعمل لشخصه . ثم رقي بعد ذلك الى رتبة لواء فعلا .

في القاهرة كانت داره تمتلىء كل يوم بالناس الوطنيين والاوروبيين ورجال الصحافة من الاجانب والمصريين ورجال السياسة حتى لقبوا بيته بـ «بيت الامة» وصار يقصده كل متظلم يطلب معونته .

موقف الصحف الاجنبية :

كان اوكلاند كولفن العضو الانكليزي في لجنة المراقبة المالية وادوارد ماليت قنصل انكلترا العام في مصر يخوفان الخديوي من الدولة العثمانية والعرابيين ويضللان الرأي العام في بلادهما ويرسلان التقارير السرية الى وزارة الخارجية البريطانية . كانا يسيطران على الصحف بالسيطرة على مراسليها . وكان كولفن نفسه مراسلا لاحدى الصحف ، وكان مراسل التايمس يستقي منه المعلومات . وكانت شركتا رويتر الانكليزية . وهافاس الفرنسية يقبض كل منهما الف جنيه في العام من خزانة مصر ، لمحاربة القضية المصرية ! اخذ محررو الصحف في انكلترا وفرنسا يننددون بثورة مصر ويسخرون من نهضتها . وكانت انكلترا تتربص بالحركة الوطنية المصرية حتى يأتي الوقت المناسب لكي تعمل بمفردها دون فرنسا .

ازمة الميزانية والمذكرة المشتركة

اعد شريف باشا لائحة النظام الاساسي لمجلس شورى النواب . جاء في المادة الرابعة والثلاثين : لا يجوز للمجلس ان ينظر في جزية الباب العالي او الدين العام او في ما التزمت به الحكومة المصرية من امر الدين بناء على لائحة تصفية الديون أو المعاهدات التي عقدت بينها وبين الحكومات الاجنبية .

غضب النواب من اتفاق شريف باشا مع المراقبين الاجنبيين على هذه المادة ورفضوها واصروا على ان ينظروا الميزانية كاملة .

تولى المسيو غامبتا Gambetta رئاسة الوزارة الفرنسية في كانون الاول ١٨٨١، واتصل بوزير خارجية بريطانيا جورج غرانفل Granville طالبا اليه تضامن الدولتين في العمل سوية ازاء ما يجري في مصر . وفي الثاني من كانون الثاني ١٨٨٢ أرسلت الدولتان مذكرة مشتركة (سماها المصريون اللائحة) الى الخديوي توفيق جاء فيها : ان الحكومتين الانكليزية والفرنسية تريان ان بقاء الخديوي على العرش بالشروط التي قررتها فرمانات السلطان العثماني واعترفت بها الحكومتان هو الضمانة الوحيدة في الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام في مصر ، وقد عزمنا على ان نمنع كل اسباب الارتباك الداخلية والخارجية ، وان الخديوي سيستمد في هذا التأكيد ما يحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلده وشعبه .

في ٢٦ كانون الثاني ١٨٨٢ استقال غامبتا المتشدد وحل محله فريسنيه Freycinet المعتدل(٢). بعد المذكرة المشتركة اصر مجلس شورى النواب على موقفه في وجوب نظر الميزانية . ولما رأى النواب ان شريف باشا يميل الى موافقة الدولتين ذهب وفد منهم الى الخديوي وطلب عزله ، وتعيين رئيس وزراء يستطيع ان يسير مع النواب في سياستهم . في ٢ شباط ١٨٨٢ استقال شريف ، فنقم على الثورة وعلى عرابي . وعين محمود سامي البارودي بدلا منه ، وعين عرابي

وزيرا للحربية ومصطفى فهمي وزيرا للخارجية في وزارة البارودي هذه .

عرابي وزير الحربية :

انعم على عرابي برتبة الباشوية . كان عرابي في الوزارة اكثر من وزير فكانت الكلمة كلمته والرأي رأيه . بدأ عرابي في الوزارة بارسال كتاب الى جميع وحدات الجيش يعلن اليهم نبأ تعيينه . واخذ عرابي ينفذ القوانين الخاصة بالاصلاحات العسكرية التي كان يطالب بها من قبل . وتناول بالترقية كثيرا من المصريين في الجيش وحظي بالباشوية كل من علي فهمي وعبد العال حلمي وطلبة عصمت وعلي الروبي وحسن مظهر ويعقوب سامي وهم من انصاره . واظهر همة في اصلاح حصون السواحل ونظم احتياطي المدفعية ووزعه على تلك الحصون .

مؤامرة لقتل عرابي :

اراد المتذمرون الشراكسة من سياسة عرابي ان يقتلوه هو واصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية . في ١٢ نيسان ١٨٨٢ قبض على بعض الضباط المتآمرين ، وبعد عشرة ايام بلغ عدد المقبوض عليهم ثمانية واربعين كان من بينهم عثمان رفقي ، احيلوا الى مجلس عسكري لمحاكمتهم . قضى المجلس بادانة اربعين رجلا بينهم رفقي ، وحكم بتجريدهم من القابهم ونفيهم الى اعالي النيل الابيض في السودان . وذكر المجلس أن الخديوي اسماعيل هو الذي حرك المؤامرة ، واقترح ان ينظر مجلس الوزراء في مرتباته . ولكن الخديوي توفيق استبدل هذا الحكم بالنفي المؤقت .

كان الخديوي توفيق يعتقد ان البارودي طامع في عرشه . دعت الوزارة مجلس شورى النواب الى الاجتماع دون الرجوع الى الخديوي لتعرض عليه الأمر . انحاز سلطان باشا رئيس المجلس الى جانب الخديوي . وقدم البارودي استقالة وزارته . ثم طلب ممثلا انكلترا وفرنسا من الخديوي ان يجدد علاقته بالوزارة فبقيت في كراسيها .

المظاهرة البحرية :

رأى فريسنيه رئيس وزراء فرنسا ان تبتعد انكلترا وفرنسا عن التدخل المسلح في شؤون مصر . واقترح على انكلترا ان ترسل الدولتان سفنا من اسطوليهما الى مياه الاسكندرية وان تطلبا الى الدولة العثمانية ان لا تتدخل في شؤون مصر في ذلك الوقت ، ولكن فرنسا لا تعارض اذا حضرت بعثة عثمانية الى مصر بدعوة من الدولتين على ان يكون عملها محدودا وان تكون تحت مراقبتهما . ورأى فريسنيه ان تحاط روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا علما بما تتخذه انكلترا وفرنسا تجاه المسألة المصرية . واقترح جورج غرانفل وزير خارجية بريطانيا ان تدعى الدول الاوروبية الى ارسال سفن الى الاسكندرية تقف الى جانب السفن الانكليزية والفرنسية ، ولكن فرنسا عارضت ذلك . وكتبت انكلترا الى الدول تنفي اية نية من جانبها في احتلال مصر ، واكدت انها تريد اقرار السلام داخل مصر وانها سوف تترك مصر وشأنها اذا قضي على القلاقل فيها . وقد جاءت بعض سفن الاسطولين الفرنسي والانكليزي الى مياه الاسكندرية .

المذكرة المشتركة الثانية :

قدمت الدولتان الانكليزية والفرنسية مذكرة مشتركة ثانية في الخامس والعشرين من مايس ١٨٨٢ الى الخديوي تطلبان فيها اخراج عرابي من مصر مع احتفاظه بلقبه وراتبه ، وان يبعد عبد العال حلمي باشا وعلي فهمي باشا الى داخل القطر مع احتفاظهما بلقبيهما وراتبيهما ، وان تستقيل الوزارة القائمة .

رفضت الوزارة المذكرة المشتركة الثانية ، ولكن الخديوي توفيق قبلها ، فاستقالت الوزارة في ٢٦ مايس .

عرض الخديوي رئاسة الوزارة على شريف باشا فاعتذر . واخبر كبار رجال الجيش والشرطة بالاسكندرية الخديوي توفيق بأنهم لا يطمئنون لغير عرابي وزيرا للحربية . وقال سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب وبعض النواب للخديوي بحضور قنصلي انكلترا وفرنسا انه ما لم يوافق على اعادة عرابي وزيرا للحربية فان حياته (اي حياة الخديوي) معرضة للخطر . وفي ٢٧ مايس عقد اجتماع في دار سلطان باشا حضره عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي ومحمد عبيد وغيرهم . وحصل الاتفاق على المحافظة على الامن والهدوء وان يرفض الخديوي المذكرة المشتركة ويأمر بارجاع عرابي الى وزارة الحربية والا فيعزل (اي الخديوي) .

ولما ظهر عجز الخديوي عن تأليف وزارة ، ذهب في ٢٨ مايس الى دار عرابي وفد من القناصل عدا قنصلي انكلترا وفرنسا يطلبون ضمان حياة وأمن رعاياهم . وقابل هؤلاء القناصل الخديوي ورجوا منه اعادة عرابي الى وزارة الحربية حفظا

للامن وتفاديا للاخطار . وفي اليوم نفسه اجتمع في منزل سلطان عدد كبير من النواب والعلماء والاعيان وكبار ضباط الجيش والبطريرك والحاخام واتفقوا على ان يذهب وفد منهم الى الخديوي ويرجو منه اعادة عرابي وزيرا للحربية . فوافق الخديوي واصدر امره باعادة تعيين احمد عرابي وزيرا للحربية في ٢٨ مايس ١٨٨٢ . وفي الوقت نفسه استمر ماليت قنصل انكلترا العام في القاهرة في كيده ضد عرابي وجماعته .

بين عرابي والسلطان عبدالحميد الثاني :

في اليوم السادس عشر من تشرين الأول ١٨٨١ التقى عرابي مصادفة بأحمد راتب باشا احد رجال الوفد العثماني الأول وأحد المقربين من السلطان عبدالحميد الثاني في محطة الزقازيق وكان قاصدا مدينة السويس ليبحر منها الى الحجاز في مهمة وركب معه في عربة واحدة في القطار . اخبر عرابي احمد راتب بكل ما حدث حتى ذلك الوقت واظهر ولاءه للسلطان ، ولما عاد راتب الى استانبول كتب الى عرابي يخبره بأنه ذكره بخير عند السلطان .

ثم جرت مراسلات بين بعض رجال السلطان وبين عرابي ، ذكر احدهم محمد ظافر ان السلطان لا يعتمد على اسماعيل ولا حليم (المطالب بالعرش) ولا توفيق بل يعول على الرجل الذي يفكر في مستقبل مصر ويثبت الروابط التي تربطه بالخلافة .

وفي الثاني من حزيران ١٨٨٢ ارسل السلطان الى مصر مصطفى درويش باشا على رأس بعثة مؤلفة من (٥٨) شخصا لمعالجة الوضع فيها . وكان السلطان يسعى لاستعادة سلطة الدولة العثمانية في مصر . قال درويش في تقريره الى السلطان ان الجيش المصري كان مطيعا وانه حافظ على النظام العام . وطلب من السلطان نحو مائتي وسام للضباط والمدنيين ، وطلب لعرابي الوسام المجيدي من الدرجة الاولى . وقد انعم السلطان فعلا على عرابي بهذا الوسام . فزاد ذلك من حقد الخديوي وغيرته من عرابي .

مذبحة الاسكندرية

في اليوم الحادي عشر من حزيران ١٨٨٢ حدثت مشاجرة بين احد المصريين ومالطي من ساكني الاسكندرية وهو من رعايا الانكليز . كان المصري صاحب حمار ركبه المالطي وقتا طويلا ، ولما طالبه صاحب الحمار بالاجر لم يدفع الا قرشا واحدا فتخاصما على الاجر واستل المالطي سكينا طعن به المصري عدة طعنات فأرداه قتيلا .

تلقى المصريون الذين تجمعوا عقب الحادث الرصاص ينهال عليهم من بعض النوافذ والابواب القريبة ، واخذ المصريون ما اتفق لهم من العصي والحجارة وارجل المناضد وانهالوا على كل من صادفهم من الاوروبيين ضربا . استمرت المعركة نحو اربع ساعات . قدر عدد القتلى بـ ٢٣٨ قتيلا ، منهم ٧٥ من المصريين و١٦٣ من الاوروبيين .

قيل ان الفتنة كانت مؤامرة دبرها ماليت قنصل انكلترا العام في القاهرة وكوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية والخديوي توفيق وعمر لطفي محافظ الاسكندرية . ولم تثبت مسؤولية عرابي وزير الحربية وهو المسؤول عن الامن وكان وقت وقوع الحادثة في القاهرة .

العدوان الانكليزي على مصر

قررت انكلترا الانفراد باحتلال مصر وتحين الفرصة المناسبة لذلك . وكان امامها عقبتان : موقف فرنسا من المسألة المصرية ، وحق تركيا صاحبة السيادة على مصر . وفي مصر نفسها عقبة كبيرة هي الحركة الوطنية بزعامة عرابي .

بعث اميرال الاسطول الانكليزي في مياه الاسكندرية السير بوجمب سيمور Seymour الى حكومته يخبرها ان مصر اقامت تحصينا جديدا لاطلاق القنابل تجاه احدى سفن اسطوله ، وطلب زيادة سفنه فأجابته حكومته الى طلبه دون أن تستشير فرنسا . وكان غرانفل وزير خارجية انكلترا قد أكد الى الدول ان غرض بريطانيا من وجود سفنها في مياه الاسكندرية اقرار السلام في مصر وانه ليس لها مطمع ولا ترمي الى الانفراد بالعمل وان الحكومة البريطانية لم تفكر في انزال جنودها الى البر او احتلال البلاد احتلالا عسكريا ، وانها اذا اعيد الهدوء الى مصر ستترك مصر وشأنها وتسحب سفنها الحربية .

اقترحت فرنسا عقد مؤتمر دولي لحل المسألة المصرية للحيلولة دون انفراد انكلترا بالعمل . قبلت انكلترا الاقتراح وأبدت رغبتها في ان تشترك تركيا في المؤتمر . ولكن السلطان رفض المشاركة في المؤتمر . وفي ذلك الوقت جاءت بعثة درويش الى مصر .

ولما وقعت مذبحة الاسكندرية عادت انكلترا الى تخويف الدول من سوء الوضع في مصر ، وانه لا يمكن وضع تسوية مقبولة في مصر الا بالقضاء على عرابي والحزب العسكري .

في الثالث عشر من حزيران ١٨٨٢ غادر الخديوي توفيق القاهرة الى الاسكندرية للاصطياف . وقيل انه رغب في الابتعاد عن عرابي ، الذي بقي في القاهرة ، وليكون في حمى الاسطولين الانكليزي والفرنسي في الاسكندرية . وزادت هجرة المهاجرين من الاجانب الى خارج مصر .

بعد مذبحة الاسكندرية نصح قنصلا المانيا والنمسا الخديوي توفيق باسناد الوزارة الى رجل يرضى عنه العرابيون . فعرض الخديوي الوزارة على اسماعيل راغب باشا فألف الوزارة في ٢٠ حزيران وبقي عرابي فيها وزيرا للحربية . اعلن راغب باشا في منهاج وزارته نيته في ان يحكم البلاد حكما دستوريا وطنيا.

اجتمع مؤتمر الدول في استانبول في اليوم الثاني والعشرين من حزيران ، بدار السفارة الايطالية دون ان يحضر فيه مندوب عن السلطان . وضع المؤتمر ميثاق «البراءة من الغرض» أو «النزاهة» وفيه تتعهد الحكومات في كل تسوية يقتضيها عملها المشترك لتنظيم مصر بأن لا تسعى الى امتلاك شيء من اراضيها ولا الحصول على امتياز أو فائدة تجارية لرعاياها . واقترحت ايطاليا بأنه ليس لأية دولة ان تقوم بعمل انفرادي في مصر مادام المؤتمر منعقدا . واضافت انكلترا تحفظا الى اقتراح ايطالي يقول : «باستثناء ما تقتضيه الظروف القاهرة كضرورة محافظة كل دولة على ارواح رعاياها» . ثم اضافت انكلترا بعد ذلك الى تحفظها : «يعد من الظروف القاهرة تهديد قناة السويس او تغير فجائي أو مخيف يخشى منه على المصالح الخاصة» . واقترحت انكلترا على المؤتمر دعوة السلطات لأن يرسل جنود تركية الى مصر لما لها من القوة ما تسيطر به على الموقف وتقضي على استبداد العسكريين .

في السادس من تموز، ١٨٨٢ ارسل سيمور قائد الاسطول الانكليزي في مياه الاسكندرية الى طلبة باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية انه علم من مصدر رسمي ان مدفعين او اكثر اضيفا الى خطوط الدفاع البحرية وان استعدادات حربية يجري عملها ضد الاسطول الانكليزي وانه اذا لم توقف هذه الاعمال فان واجبه يقضي بأن يطلق مدافعه على الاعمال الجاري بناؤها . نفى طلبة باشا ما ادعاه سيمور . وفي العاشر من تموز تلقى طلبة باشا انذارا نهائيا بأنه لما كانت اعمال الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الاسطول الانكليزي آخذة في الازدياد فقد عقد العزم على ان ينفذ في اليوم التالي ما نواه من عمل ان لم تسلم اليه في الحال البطاريات الموضوعة في شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطىء ميناء الاسكندرية الجنوبي بقصد تجريدها من السلاح ، وهكذا جعلت انكلترا ما ادعته من اعمال التحصين «ظروفا قاهرة» لتبرير تدخلها .

اجتمعت الحكومة المصرية برئاسة الخديوي في مساء ذلك اليوم وقررت الاجابة على انذار سيمور محتجة على الانذار ورافضة اياه بقولها : نحن هنا في وطننا وبيتنا ، من حقنا بل من واجبنا ان نتخذ عدتنا ضد كل عدو ، ومصر الحريصة على حقوقها وعلى شرفها لا تستطيع ان تسلم دون ان تكره على ذلك بقوة السلاح . وقد اتفق الخديوي مع حكومته على هذا القرار .

ضرب الاسكندرية

في الساعة السابعة من صباح ١١ تموز ١٨٨٢ اطلق الاميرال سيمور اول قذائفه على مدينة الاسكندرية ، وكان مجلس الوزراء المصري قد قرر في الليلة السابقة ان لا تجيب الحصون المصرية الا بعد الضربة الخامسة من الاسطول الانكليزي . استمر الضرب بين الجانبين حتى نحو الساعة السادسة مساء . واستأنف الاسطول الانكليزي الضرب في اليوم التالي ، بلغ عدد ضحايا المصريين نحو ألفين . وحدثت حرائق في الاسكندرية . ثم انحاز الخديوي توفيق الى الانكليز . واختارت مصر الحرب تحت راية عرابي دفاعا عن حريتها . في انكلترا استقال جون برايت Bright من وزارة غلادستون احتجاجا على ضرب الاسكندرية .

الحرب المصرية ـ الانكليزية :

اعلنت الاحكام العرفية في مصر ابتداء من اليوم الحادي عشر من تموز ١٨٨٢. احتل الانكليز الاسكندرية ، منذ غادرتها الحامية المصرية ، واتخذوها قاعدة يزحفون منها الى داخل البلاد . اصدر الاميرال سيمور في اليوم السابع عشر منشورا باسم الخديوي يحث فيه الناس على الهدوء والنظام . وهكذا شرع الانكليز باحتلال مصر باسم الخديوي والدفاع عنه كحاكم شرعي امام الثائرين من بني شعبه . اصدر الخديوي في السادس عشر من تموز امرا بعزل عرابي من منصب وزير الحربية ، ونشر هذا الامر في الثاني والعشرين من تموز ، وعين عمر لطفي محافظ الاسكندرية وزيرا للحربية . وأرسل الخديوي في السابع عشر من تموز برقية الى عرابي

في كفر الدوار ، حيث اخذ يبني خطوط الدفاع عن مصر ، يطلب اليه فيها صرف النظر عن جمع الجنود والتجهيزات الحربية ، ويطلب اليه الحضور الى الاسكندرية ، فاذا حضر يقبض عليه واذا رفض يعلن عصيانه . قال عرابي انه لا يستطيع الحضور الى الاسكندرية لأن البريطانيين احتلوها .

صار شعار الشعب المصري في كل مكان «الله ينصرك يا عرابي» ارسل عرابي في اليوم السابع عشر من تموز الى يعقوب باشا وكيل وزارة الحربية (وهو من اصل يوناني) ومن المخلصين المتحمسين لعرابي والثورة الوطنية ، يعلن اليه خيانة الخديوي للبلاد ويدعوه الى عقد جمعية من الكبراء والعلماء للنظر في الامر واصدار قرار بشأن الخديوي . اجتمع يعقوب سامي في مقر وزارة الحربية بقصر النيل في القاهرة مع عدد من صفوة انصاره وتشاوروا في الامر واستقر رأيهم على دعوة مجلس من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين ، عرف هذا المجلس باسم المجلس العرفي . قرر المجلس العرفي في اليوم نفسه دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الاديان والعلماء ووجوه الامة ممن يوجدون في القاهرة للنظر في هذه الامور الخطيرة . انعقدت الجمعية وحضرها نحو اربعمائة عضو كان بينهم الامراء الموجودون في العاصمة ورؤساء الاديان وفي مقدمتهم شيخ الاسلام وقاضي قضاة مصر ومفتي الديار المصرية والنواب ووكلاء الوزارات والقضاة وكبار الاعيان والتجار . اتخذ اعضاء الجمعية قرارا خطيرا بالاستمرار في اعداد العدة للقتال مادامت سفن الانكليز في الشواطىء المصرية وجنودهم في الاسكندرية ، ورأت استدعاء الوزراء من الاسكندرية لسؤالهم عن حقيقة الامر ، وكان راغب باشا قد انحاز الى الخديوي ، واوفدت الجمعية لجنة من ستة مندوبين من اعضائها للسفر الى الاسكندرية لابلاغ الوزراء بقرار الجمعية .

لم تعبأ الامة بقرار عزل عرابي بل دعت له بالنصر قائلة : «الله ينصرك يا عرابي» ولم يعبأ عرابي بقرار عزله ، وقرر الدفاع عن مصر . وارسل عرابي الى يعقوب سامي باشا ليدعو الجمعية العامة للنظر في الأمر . وفي الثاني والعشرين من تموز اجتمعت الجمعية بوزارة الداخلية وكان اجتماعا خطيرا اعظم وأشمل من الاجتماع السابق شهده نحو خمسمائة من وجوه الامة المصرية وفي مقدمتهم ثلاثة من الامراء وشهده كبار علماء الازهر ، وكان من ابرز الحاضرين الشيخ محمد عبده ، وشهده كذلك بطريرك الاقباط وحاخام اليهود ، وشهده وكلاء الوزارات والنواب وعدد كبير من الباشوات وكبار الضباط وكبار موظفي الدولة الاداريين والقضاة ومديرو الاقاليم . ومن الاهالي شهده كبار التجار والاعيان ورؤساء العشائر من الاقاليم . تليت في الاجتماع فتوى شرعية بأن الخديوي ، بانحيازه الى العدو المحارب لبلاده ، يعد مارقا عن الدين . وقرر المجتمعون عدم الاعتراف بقرار الخديوي بعزل عرابي ووجوب بقاء يعقوب سامي في منصبه ، ووجوب توقيف اوامر الخديوي وما يصدر من وزرائه الموجودين معه لأن الخديوي خرج عن قواعد الشرع الشريف ، وقرروا وجوب عرض قرارهم هذا على السلطان بواسطة وكلاء الوزارات .

كان المجلس العرفي برئاسة يعقوب سامي باشا هو الذي يتولى شؤون الادارة العامة في البلاد .

بقيت تركيا على حالها من التردد ولم تصدر شيئا بشأن توفيق ولا بشأن عرابي . واذاع عرابي بلاغا قال فيه ان الخديوي انضم الى الانكليز فلا طاعة له على الناس .

كفر الدوار

رابط عرابي عند كفر الدوار (الميدان الغربي) بعد انسحاب الحامية المصرية من الاسكندرية . اختار المكان رئيس اركان الجيش المهندس محمود فهمي باشا وهو مكان منيع يقع على الخط الحديدي الى القاهرة ، وكان بعيدا بعدا كافيا عن مواقع الاميرال سيمور ، ولا يستطيع جيش مهاجم ان يبلغه الا عن الطريق الضيق الذي يمر منه خط السكة الحديد ، ولم يكن من الممكن اقتحامه من جهة الاسكندرية ، في حين كانت الدلتا مفتوحة للجيش بامداداتها ، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة ، استطاع هذا الموقع ان يثبت امام الانكليز بنجاح نحو خمسة اسابيع . لم يزد عدد الجيش النظامي عن تسعة عشر الفا ، كان منهم ثمانية آلاف في كفر الدوار ، وانضم الى الجيش النظامي المتطوعون . ساعد على الاعمال الدفاعية خمسة آلاف رجل من الاهالي . وكانت مصر كلها في قبضة عرابي . وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء ، حتى النساء ، بالخيل والحبوب والنقود للجيش . وقد شملت الحماسة الاقباط . ولم يكن في خزانة الحكومة مال لأن المراقب الانكليزي كولفن اخذ الاموال من الخزينة ونقلها الى الاسطول البريطاني قبل بدء الحرب ،

وكذلك الاموال الموجودة في صندوق الدين العام وكان قد نقلها الى الاسطول اعضاء لجنة الصندوق ايضا .

اخبر عرابي بلنت ان جميع النفقات التي لزمت لمائة الف جندي مصري اثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الشعب المصري . وكان من بين المتبرعين والدة الخديوي إسماعيل وزوجة رئيس الديوان الخديوي وزوجة رياض باشا ولم ينفق على الجيش اثناء القتال درهم واحد من خزانة الدولة .

تجلت حماسة الشعب للثورة والحرب فيما القاه البعض من ابنائه من الخطب وما نظموا من الشعر ، كان في مقدمتهم عبدالله النديم خطيب الثورة وكاتبها وصاحب جريدة الطائف ، والشيخ محمد عبده احد أفذاذ الحركة الاعلام .

سد محمود فهمي ترعة المحمودية ، وبذلك منع المياه العذبة عن الاسكندرية . وكان من رأيه سد ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الاسماعيلية والسويس وبورسعيد ، وكذلك سد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للانكليز ، ولعل تردد عرابي في سدها كان سببا من اسباب الخلاف بينه وبين محمود فهمي .

وكان من جملة القادة طلبة عصمت باشا قائدا لميدان كفر الدوار تحت امرة عرابي ، وعبدالعال حلمي باشا على دمياط ، ومحمود سامي باشا على الصالحية .

بعد ضرب الاسكندرية بأربعة أيام ، اجتمع مؤتمر الاستانة (١٥ تموز ١٨٨٢) وارسل الدعوة لاشتراك تركيا فيه ، وارسال جيش عثماني الى مصر . ولكن تركيا ترددت وماطلت .

عينت الحكومة البريطانية السير غارنيت ولسلي Wolseley[٤] قائدا عاما للحملة الانكليزية على مصر ، وقد وصل الاسكندرية في اليوم الثالث عشر من آب .

في اليوم السابع من آب اصدر الخديوي توفيق بلاغا يحذر فيه المصريين من تأييد عرابي الذي وصفه بالعصيان .

وفي المؤتمر ارادت انكلترا من تركيا ان تصدر قرارا ضد عرابي . ففي اليوم الثاني من آب تعهد سعيد باشا ان يعرض على المؤتمر صيغة قرار يعلن فيه السلطان ان عرابيا من العصاة . وفي العاشر من آب اعلن القرار .

وفي التاسع عشر من آب اذاع الجنرال ولسلي بيانا الى المصريين يقول فيه ان غاية انكلترا من ارسالها الحملة العسكرية الى مصر ما هي الا تأييد سلطة الخديوي .

في العشرين من آب استقال راغب باشا ، واسندت الوزارة الى شريف باشا ومن اعضائها رياض باشا للداخلية وعمر لطفي للحربية وعلي مبارك للاشغال .

التل الكبير

كان التل الكبير مركز الميدان الشرقي . دارت في هذا الميدان معارك في مجال اوسع وفي اعداد اكبر مما كان في كفر الدوار . اهمل عرابي واركان حربه هذا الميدان ، وذلك بسبب اطمئنان عرابي واصحابه الى حياد قناة السويس وحرصهم على ارضاء الدول بالمحافظة على ذلك الحياد . وفي الخامس من آب عقد مجلس ادارة شركة قناة السويس اجتماعا غير عادي اعلن فيه تمسكه بحياد القناة .

في السادس والعشرين من تموز ١٨٨٢ اخترق الانكليز قناة السويس من الشمال . وفي التاسع والعشرين وصلت الى السويس من الجنوب اربع سفن حربية ، وفي الثاني من آب انزل الانكليز جنودهم في السويس .

كانت خطة الحملة البريطانية غزو مصر من الشرق وكان ذلك يقتضي اقتحام قناة السويس واتخاذ الاسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة . وفي العشرين من آب بلغت السفن الانكليزية المقلة للحملة مدينة بورسعيد ، وفي هذا اليوم احتل الانكليز بورسعيد واقتحمت السفن الحربية قناة السويس ، ومنعت السفن التجارية من دخول القناة من الشمال ومن الجنوب ، واحتلوا كذلك في هذا اليوم مدينة الاسماعيلية وشرعوا بانزال عتادهم بها . ولما اراد عرابي سد قناة السويس وتعطيلها لم يستطع الجيش المصري . وصل ولسلي قائد الحملة البريطانية الاسماعيلية في الحادي والعشرين من آب ، وبدأ يعد العدة للزحف على الصحراء .

في الثالث والعشرين من آب حصل اول التحام بين الانكليز والمصريين وفي الخامس والعشرين دارت معركة عنيفة . وقد أصيب الدفاع الوطني بضربة شديدة حين اسر رئيس اركان الجيش المصري المهندس محمود فهمي باشا[٥] حين كان يلقي نظرة على الصحراء في اتجاه الاسماعيلية وهو بملابس مدنية فأحاطت به مجموعة من الجنود البريطانيين وظنته يتجسس فأخذ الى المعسكر الانجليزي . وفي الثاني والعشرين من آب هجم المصريون على مواقع الانجليز في القصاصين (معركة القصاصين الأولى) .

في السادس من ايلول وافق السلطان ، بضغط شديد من انكلترا ، على اعتبار عرابي عاصيا ونشر القرار في الصحف ، ونشر الخديوي الخبر على نطاق واسع في مصر وفي صفوف الجيش المصري . وكان السلطان عدو الحركة الدستورية يخشى حركة عرابي الدستورية .

في التاسع من أيلول وقعت معركة القصاصين الثانية . وكان عرابي ورجاله قد وضعوا خطة محكمة للهجوم على الانكليز ، ولكن سرق الخطة الضابط علي يوسف خنفس وارسل الرسم الاصلي الذي رسمه عرابي الى الجنرال ولسلي . وكان سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب السابق الذي انحاز الى الخديوي قد أفسد علي يوسف هذا وغيره من رجال الجيش . قاد الجيش المصري في هذه المعركة الفريق راشد باشا حسني . وكان من المتوقع ان يدخل المعركة محمود سامي البارودي قادما بجيشه من الصالحية ، ولكنه تأخر عن موعده . وكان رجال سعود الطحاوي احد شيوخ البدو هم الذين أضلوه عن وجهه في الصحراء فتأخر وصوله . وانقلبت المعركة من هجومية الى دفاعية . وقد أصيب بطلا المعركة علي فهمي وراشد حسني بجروح فخرجا من المعركة وارسلا الى القاهرة مع الجرحى .

استدعى عرابي علي باشا الروبي من مريوط قبل معركة التل الكبير بيوم وهو من اكبر المخلصين لعرابي . وكان لا يزيد جيش عرابي عن اثني عشر الف جندي من الجنود النظامية ، أما جيش ولسلي فكان يتألف من ثلاثة عشر ألفا .

في مساء الثاني عشر من ايلول تأهب ولسلي للزحف واختار الليل ليتقي حر النهار وليتخذ من الليل ستارا لخطته القائمة على المباغتة بدأ القتال في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين . فر افراد الجيش المصري مذعورين . وقد ثبت من القادة المصريين اربعة ضباط منهم العميد محمد عبيد الذي استشهد(٦) . وكان عدد قتلى المصريين الفين . واما عرابي فقد توجه نحو القاهرة محاولة منه للدفاع عنها .

تعزى اسباب اندحار مصر في حربها ضد الانكليز الى :

١ ـ تفوق الانكليز في العدد والسلاح والمهارة الحربية .

٢ ـ اعلان السلطان عبد الحميد الثاني عصيان عرابي الذي اثر على معنويات الكثيرين من افراد الجيش والشعب .

٣ ـ عدم سد قناة السويس بحجة حيادها واعتماد عرابي على وعود وتأكيدات دي لسبس مدير شركة قناة السويس له بأن الانكليز لن يمروا في القناة الا على جثته . وقد خشي عرابي وصحبه من غضب الرأي العام الاوروبي لو بادروا الى سد القناة واختراق حيادها قبل ان ينتهك الانكليز حيادها . وهكذا فضل عرابي مقتضيات السياسة على ضرورات الحرب .

٤ ـ انحياز الخديوي توفيق الى الانكليز واصداره البيانات ضد عرابي وصحبه واستعمال التهديد والرشوة فكسب بعض ضباط عرابي الى جانبه ، وقد وقف الى جانب الخديوي في هذا الامر سلطان باشا(٧) رئيس مجلس شورى النواب السابق ، وكان لموقفه اثر كبير على معنويات بعض الضباط وبعض افراد الشعب .

٥ ـ الرشوة التي دفعها الانكليز الى عدد من شيوخ البدو على جانبي قناة السويس ومنهم سعود الطحاوي الذي كان عرابي يثق به فضلله ، وذلك بنقل اخباره الى الانكليز ، ونقل اخبار كاذبة عن خطط الانكليز الى عرابي ، وقيل انه قبض من الانكليز خمسة آلاف جنيه أنكليزي **ذهبا** .

محاولة الدفاع عن القاهرة :

عاد عرابي الى القاهرة وقصد قصر النيل حيث كان المجلس العرفي منعقدا . ثم اطلع المجلس على كل شيء وشكا من الخيانة . وانضم الى المجلس بعض الامراء والكبراء وتشاوروا فيما يعملون . أيسلمون القاهرة الى الانكليز ام يدافعون عنها . وكان عرابي يريد الدفاع قائلا انه من الوجهة الحربية لم يزل الامل قويا فهناك حامية القاهرة في القلعة بمدفعيتها ، وحامية دمياط بقيادة عبد العال وفي امكانها التحرك اثناء الدفاع عن القاهرة ، وحامية كفر الدوار بقيادة طلبة الذي يستطيع ارسال المدد المطلوب . وتكلم الامير ابراهيم باشا احمد ابن عم الخديوي مؤيدا عرابي . حاول عرابي اتخاذ خط دفاعي امام المطرية شرقي عين شمس .

ولكن عرابي ادرك ما فعلته الخيانة وما فعله قرار السلطان باعلان عصيانه ، فقد انحلت العزائم وهرب الرجال ، وعاد اليأس الى نفسه ، فرأى أن الاولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من الخراب . وفضل هو واصحابه تقديم انفسهم فداء لمصر . ثم قرر المجلس العرفي ايقاف الحرب ، وارسلوا عريضة مع يعقوب سامي وعلي الروبي الى الخديوي في الاسكندرية يقدمون له الطاعة ويلتمسون منه الوساطة لدى الانكليز بعدم دخول القاهرة حفظا لها من الدمار . كان ذلك في ١٤ ايلول ١٨٨٢ . رفض الخديوي الطلب وسجن يعقوب سامي وعلي الروبي في الاسكندرية .

احتلال القاهرة :

في يوم الجمعة ١٥ ايلول ١٨٨٢ سلم عرابي وطلبة عصمت نفسيهما الى الجنرال لو Low القائد الانكليزي في العباسية كأسرى حرب . وفي اليوم نفسه دخل الجنرال ولسلي القاهرة بصحبة سلطان باشا نائبا عن الخديوي . واحتل الانكليز القاهرة . توقف عبدالعال باشا عن تسليم دمياط مدة اسبوع ثم اضطر الى التسليم .

وفي الخامس والعشرين سافر الخديوي توفيق من الاسكندرية الى القاهرة . اعتقل كبار رجال الجيش من الثوار وجميع زعماء الثورة من المدنيين الا عبدالله النديم (الذي اختفى) ، وكذلك اعتقل عدد كبير من العلماء وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده وعدد من النواب وعدد من الاعيان والتجار . انفض مؤتمر الاستانة بعد احتلال بريطانيا لمصر اذ لم يبق مبرر لاستمرار انعقاده .

لجان التحقيق والمحاكم

في الثامن والعشرين من ايلول ١٨٨٢ أصدر الخديوي امرا بتأليف لجنة تحقيق في القاهرة ، تكونت من عشرة اعضاء برئاسة اسماعيل ايوب باشا ، وكلفت باستجواب كل من اتهم بالعصيان او التعدي على سلطة الخديوي او اتيان اي عمل فيه اهانة له . وتألفت من هذه اللجنة لجنة فرعية للتحقيق في التهم المنسوبة لأهل الاقاليم والمدن وفي الوقت نفسه صدر امر من الخديوي بتأليف محكمة عسكرية برئاسة محمد رؤوف باشا لتحاكم من ترى لجنة التحقيق تقديمهم اليها ، وكان اعضاؤها من اصل تركي او شركسي الا واحدا ، وكانوا من الناقمين على عرابي وحركته . وألفت محكمة عسكرية تعاونها لجنتان للتحقيق في حوادث الاسكندرية وطنطا ، واختير اعضاؤها من انصار الخديوي الحاقدين على عرابي والثورة .

عرابي في السجن :

في الخامس من تشرين الأول نقل عرابي وصحبه من قشلاق عابدين الى بناء الدائرة السنية الذي احيل الى معتقل عام ، وفيه حجرة للجنة التحقيق . عوملوا في السجن معاملة سيئة ، ومنها حادثة ابراهيم اغا[٨] «توتونجي الخديوي» . ذهب ابراهيم اغا الى الخديوي توفيق ولثم يده ورجا منه ان يسمح له بأن يبصق في وجوه السجناء . ذهب ابراهيم اغا مع جماعة تتألف من عشرة اشخاص او اثني عشر شخصا في التاسع من تشرين الأول حوالي الساعة التاسعة والنصف مساء ودخلوا على عرابي في غرفته ، وقال ابراهيم : انا ابراهيم اغا ، أيها الكلب ، ايها الخنزير وبصق عليه ثلاث مرات . وحدث مع عبدالعال والشيخ محمد عبده الشيء نفسه .

الدفاع عن عرابي :

كان الخديوي توفيق يريد رأس عرابي . وكان الانكليز يريدون التخلص من عرابي بالموت . وكان ولسلي قد عزم على قتل عرابي لو ظفر به في التل الكبير . وكانت الحكومة الانكليزية تريد التخلص من عرابي بالموت على ان يأتي ذلك على يد الخديوي توفيق . وقال بلنت صديق عرابي ان غلادستون رئيس الوزارة البريطانية وغرانفل وزير خارجيته وهما من حزب الاحرار كانا مصممين على ذلك . وذكر بلنت ان جون برايت الوزير الذي استقال محتجا على ضرب الاسكندرية أسمع غلادستون احتجاجه على نية الحكومة البريطانية وصارحه بأن سوف يقرن اسمه بالعار في صفحات التاريخ لانحرافه عن مبادئه الانسانية . وكان الضغط الشديد من جانب الرأي العام البريطاني هو الذي صرف الحكومة البريطانية عن نيتها .

استعان بلنت بصديق له هو مستر بتن Button محرر جريدة التايمس . وزار بلنت مستر برودلي Broadley في بيته في التاسع عشر من ايلول واتفق معه على ان يكون هو محامي القضية وجعل له اجرا قدره ثمانمائة جنيه غير المصروفات ، وهو مبلغ كبير جدا بالنسبة الى ذلك الوقت . وطلب بلنت من غلادستون ان يقوم بالدفاع عن عرابي وصحبه محام انكليزي كفء وان يصحبه بلنت الى مصر ليجمع له المعلومات ، وان يرافقهما سكرتير بلنت الشرقي القس لويس صابونجي الذي يجيد عدة لغات منها العربية والانكليزية ، ويعرف الكثير عن احوال المتهمين واشخاصهم .

واستعان بلنت بمحام آخر يسبق بلنت الى مصر هو مارك نابيير Napier وسعى احد اللوردات من اصدقاء بلنت وهو اللورد دي لاوار Warr فحصل من غرانفل على تصريح يؤكد به ان الخديوي سوف يتيح كل فرصة معقولة للدفاع عن المتهمين . ابرق بلنت الى برودلي الذي كان قد ذهب الى تونس مقر عمله كمراسل صحفي ليسافر الى القاهرة في الحال[٩]. واختارت الحكومة البريطانية رجلين ليمثلاها في التحقيق هما السير تشارلز ولسن والمستر بيمان Beaman ، وكان كلاهما صديقين لبلنت .

سمح للمحامين برودلي ونابيير بمقابلة عرابي وقدما له كتابا من بلنت . ثم اعطى عرابي توكيلاً للمحامين . ذكر برودلي في كتابه ان عرابي طلب الى محامييه ان لا ينسيا اخوانه السجناء حتى ولو وجدوهم قد اجبروا على أن يرموه بالتهم او يشركوه معهم فيما يتهمون به .

ذكر محمد بن احمد عرابي لبرودلي ما يتعرض له هو وامه واسرته من اهانات متصلة على ايدي بعض خدم الخديوي واتباعه . هذا وقد ظل برودلي على اتصال بأسرة عرابي بعد نفيه وبعد وفاته وطلب اليهم ان ينظروا اليه بمثابة راعيهم بعد ابيهم .

التحقيق مع عرابي وصحبه :

في العاشر من تشرين الأول عقدت لجنة التحقيق اولى جلساتها ، واستجوبت احمد عرابي استغرق استجوابه ثماني جلسات وامتد بضعة أيام . كان بين التهم الموجهة اليه تدبير مذبحة الاسكندرية واحراقها ، وعدم مراعاة القانون الحربي ، وعصيان الخديوي :

١ ـ في الجلسة الاولى ناقشته اللجنة في موضوع مظلمته الى رياض باشا بشأن عثمان رفقي ، وعن حادث قصر النيل ، فقال ان الخديوي أصدر عفوه فكأن الاتهام لم يكن .

٢ ـ سئل عرابي عن ذهابه بالجند الى قصر الخديوي يوم عابدين ، ولماذا تجاسر على هذا الفعل المضاد للنظام العسكري ، فأجاب ان الاسباب التي دعت لذلك هي عدم الاخذ بالعدل والمساواة في المعاملات ، فاعتمد اعيان البلاد على ابنائهم رؤساء الجيش وتاقت انفسهم الى تشكيل مجلس نيابي يحفظ لهم حقوقهم ويدفع عنهم ما اصابهم من الظلم .

٣ ـ واتهمته اللجنة بانه نادى مع المنادين بخلع الخديوي في اليوم التالي لسقوط وزارة البارودي ، فاجاب انه بسبب تأثير المذكرة المشتركة التي قبلها الخديوي ولم يكن من الممكن قبولها ولو ادى ذلك الى خلع الخديوي . وسئل لماذا لم يغادر مصر مع علمه بقبول الخديوي للائحة (المذكرة المشتركة) ، فأجاب ان افكار الناس وقتها وحالة البلاد وشرف الامة منعتني من ذلك .

وسئل عن سبب رفضه امر الخديوي وعدم ذهابه الى الاسكندرية ، فأجاب ان الحرب التي وقعت لم يسبق لها مثيل وقد قامت بمقتضى قرار من مجلس مؤلف من الوزراء والذوات تحت رئاسة الخديوي بحضور اعضاء الوفد العثماني، ثم تحقق لهم ان انتقال الخديوي من سراي الرمل الى داخل الاسكندرية مع حصول المناوشات الحربية بين مقدمات الجنود المصريين والقوات الانكليزية ، اما ان يكون لأجل اخذه اسيرا واما لانحيازه الى العدو المحارب لبلاده .

٤ ـ وفي الجلسة الرابعة سئل عن صلته بعبدالله النديم وهل يعلم بأنه سافر الى الاسكندرية قبيل المذبحة لاثارة الفتنة فيها ، وعما كان يكتبه بجريدته الطائف ، فأجاب عرابي بأنه لم يعلم باثارة الفتنة ، ولم يكن له ان يمنع عبدالله النديم عن كتابة ما يشاء في جريدته .

وسألته اللجنة هل صدرت منه برقية ، حين كان بكفر الدوار ، الى راشد باشا قائد الميدان الشرقي والى محمود فهمي باشا رئيس اركان الحرب ، بردم قناة السويس وسد الترعة الحلوة ، اجاب عرابي ان البرقيات المتبادلة بيني وبين المسيو دي لسبس تعلن وتؤكد احترام قناة السويس مادامت على الحياد . ولما دخلت السفن الحربية الانكليزية القناة ولم تحترم حيادها ولما حدث الضرب منها في الاسماعيلية واتخذت القناة ميدانا للحرب ، طلب الى محمود فهمي باشا اتخاذ ما يمكن اجراؤه من التدابير الحربية وسد القناة الحلوة .

٥ ـ وفي الجلسة الخامسة قالت لجنة التحقيق ان مساعدات الامة له كانت اجبارا لها بالقوة . قال عرابي انه لا يتصور احد اصلا حصول تهديدات لمجلس مؤلف من اعيان الامة المصرية ورؤسائها يزيدون عن اربعمائة شخص . وذكر ان من الناس من تبرع بنصف ماله ومنهم من تبرع بماله كله . وذكر من تبرع بثلاثة آلاف اردب غلال وثلاثين رأسا من الخيل والف ومائتي ثوب من القماش . ومنهم من تبرع بألف وخمسمائة اردب غلال . ومن ضمن من تبرع دوائر العائلة الخديوية وفي مقدمتهم دائرة والدة الخديوي السابق اسماعيل ، ومنهم دائرة خيري باشا الذي كان في الاسكندرية مع الخديوي عند الانكليز ، ومنهم دائرة رياض باشا .

٦ ـ وفي الجلسة السادسة اطلعت اللجنة عرابي على كتاب وقع عليه بأنه رئيس الحزب الوطني مع عدم وجود احزاب . فأجاب عرابي ان مصر مأهولة بأجناس مختلفة وعناصر متنوعة وكل عنصر منهم يعتبر نفسه حزبا ، كما أن اهل البلاد الذين يطلقون عليهم لفظ «فلاحين» تحقيرا لهم هم الحزب الوطني وهم اهل البلاد حقا ، وقد أنابوني عنهم في طلب الحرية وحفظ حقوقهم .

٧ ـ وفي الجلسة السابعة اخبرت اللجنة احمد

عرابي عن وجود ورقة مسجل فيها سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديوي ، قال عرابي ان الورقة ليست بخطه . وقالت اللجنة انه بعد سقوط وزارة محمود سامي البارودي جرت كتابة محاضر بمنزل عرابي طالبة عزل الخديوي ، واحضار الاهالي والعلماء لأخذ تواقيعهم بالقوة . اجاب عرابي : عند تقديم المذكرة المشتركة من قنصلي انكلترا وفرنسا ، وقبلها الخديوي ولم تقبلها الوزارة ، حضر اعضاء مجلس النواب وتوارد الناس افواجا من المديريات والقاهرة والاسكندرية لرفض المذكرة المشتركة ورفض من يقبلها . ولما صدر العفو العام صرف النظر عن هذا الموضوع .

ثم استدعت اللجنة عددا كبيرا من المتهمين والشهود ، واهمهم زعماء الحركة من اصدقاء عرابي وهم علي فهمي وعبدالعال حلمي ومحمود سامي البارودي ويعقوب سامي وطلبة عصمت ومحمود فهمي . وقد نفوا جميعهم ما حاولت اللجنة الصاقه بعرابي من التهم . اما تهمة العصيان فكانت تتلخص اجوبتهم في انهم اطاعوا عرابيا بعد عزله وارجعوا ذلك الى رأي الامة ممثلة في المجلس العام الذي قرر بقاء عرابي واستمرار القتال وعدم اطاعة اوامر الخديوي .

واعترف محمود فهمي بأنه سلم نفسه الى الانكليز طائعا ولم يكن يريد ان يحارب .

التحقيق مع الشيخ حسن العدوي واحمد بك رفعت :

روى برودلي محامي عرابي ان رئيس اللجنة سأل الشيخ الضعيف البالغ الثمانين من عمره هل وقع على قرار بوجوب عزل الخديوي توفيق ، اجاب انه لم ير الورقة التي يتحدث عنها ولكنه قال له : «انك اذا احضرت الي ورقة تحتوي على مثل هذا المعنى فاني ابادر الى التوقيع عليها بحضورك الآن» . ثم طلب رئيس اللجنة الى الشيخ ان يغادر الغرفة، ثم اطلق سراحه على شرط ان يذهب الى قريته .

وروى برودلي ايضا ان رئيس لجنة التحقيق تناول عددا قديما من جريدة الطان الفرنسية وفيها مقال بقلم احمد رفعت يحتوي على مقارنة بين المدنية الفرنسية والرصاص الانكليزي . قرأ برودلي المقال وعلق انه لو كان بمكان احمد رفعت لفعل مثل ما فعل . وسأل رئيس اللجنة المتهم عن برقيته في تلك الصحيفة فيها دفاع عن عرابي فاعترف رفعت بأنه هو الذي ارسلها وذلك بأمر مجلس الامة الذي كان رئيس اللجنة نفسه (اسماعيل ايوب) عضوا فيه . وقال المتهم لرئيس اللجنة انه في يوم ١٨ آب ذهب رئيس اللجنة مع المتهم في قطار خاص الى عرابي بكفر الدوار ليعبر له عما يرجوه له من نجاح وان رئيس اللجنة تمنى لو اتيح له الاشتراك في القتال . وسأل الرئيس المتهم انه حين كان مديرا للمطبوعات كيف سمح لجريدة الطائف ان تنشر مقالات فيها طعن على الخديوي اجاب احمد بك رفعت : ان ما قالته الطائف وما قالته غيرها من الصحف كان نتيجة لقلق الرأي العام في مسلك الخديوي ، وان الطائف عبرت عما اعتاد ان يقوله حتى الصبية في الشوارع .

بعد يومين استؤنف استجواب رفعت بك فاطلعه رئيس لجنة التحقيق على صور برقياته الى استانبول فقال رفعت ان المجلس العام كان يريد اخبار الباب العالي بكل شيء وان احدى البرقيات كتبت بموافقة محمد رؤوف باشا رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمت عرابي .

محاكمة عرابي :

اوفدت الحكومة الانكليزية سفيرها في استانبول لورد دفرين Dufferin الى مصر لمعالجة الموقف ، فوصل القاهرة في ٦ تشرين الثاني ١٨٨٢ ، التقى دفرين ببرودلي ونابيير في الحادي عشر من تشرين الثاني فذكرا له ما وقع لهما منذ حضورهما الى مصر .

ابرق برودلي الى بلنت في لندن يقول له انه من الممكن الوصول الى تسوية طيبة . وبعد بضعة أيام ابرق ثانية الى بلنت يقول ان لديه ما يجعله يعتقد انه لو وافق عرابي ومحمود سامي وطلبة عصمت موافقة صورية على تهمة العصيان اي الاستمرار في الحرب على الرغم من اوامر الخديوي فان الحكومة المصرية توافق على نفيهم أو اعتقالهم خارج مصر . واقترح برودلي الموافقة على التسوية والا فان امامهم محاكمة طويلة لا يؤمن معها تقلبات الرأي العام . وكتب نابيير الى بلنت في السابع والعشرين من تشرين الثاني يقترح قبول التسوية .

وذكر برودلي في كتابه كيف دافعنا عن عرابي انه منذ السابع والعشرين مالت جميع الجهات الى تسوية للموقف . ثم اتفق على ان تكون التسوية كما يأتي :

تستبعد جميع التهم عن عرابي ما عدا تهمة عصيان اوامر الخديوي وتقديمه متهما بهذه التهمة ويعترف عرابي بها وتصدر المحكمة حكمها بالاعدام ، ولكن مرسوما خديويا بتعديل الحكم

يتلى في قاعة الجلسة يقضي بنفيه من مصر . ثم يصدر قرار بتجريده من لقبه وممتلكاته عدا ممتلكات زوجته . كان هذا الاتفاق من وضع اللورد دفرين . ويقول برودلي ان الحكومة المصرية قبلته مرغمة . ولم يكن عرابي ، حتى التاسع والعشرين من تشرين الثاني ، يعلم شيئا عن هذا الاتفاق . ولما ذهب اليه برودلي في صباح ذلك اليوم ومعه مترجمه قص عليه القصص وقال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قال عرابي ؛ كنت افضل المحاكمة لاسمع اوروبا قضيتي وقال اذا قبلت هذه الشروط فماذا عسى أن يكون مصير اخواني ، فأخبره برودلي انهم سيعاملون مثل معاملته . وقال عرابي انه مستعد ان يقبل نصح محاميه واكد له انه يفعل ذلك ابتغاء انقاذ اخوانه اكثر مما من اجل شخصه .

كان على برودلي ان يعيد تمثيل المهزلة مع المسؤولين وكان عليهم ان يبحثوا في القانون العثماني عن مادة تنطبق على مثل هذا العصيان فوجدوا ذلك في المادة (٩٦) من القانون العسكري والمادة (٥٩) من قانون العقوبات العثماني وقد تم ذلك في اليوم الثاني من كانون الأول ١٨٨٢، واتفق على ان تبدأ المحاكمة في اليوم التالي .

في اليوم المحدد تلا رئيس المحكمة ورقة جاء فيها : «احمد عرابي باشا : انت متهم الآن امامنا بناء على قرار لجنة التحقيق بجريمة عصيان الخديوي مخالفا بذلك المادة (٩٦) من القانون العسكري العثماني والمادة (٥٩) من قانون العقوبات العثماني ، فهل انت مذنب ام غير مذنب ؟» نهض عرابي واجاب قائلا : «ان محامي سوف يرد عني» . ونهض برودلي وتلا الترجمة الفرنسية لاعتراف عرابي وابرز الاصل العربي وعليه توقيعه .

اصدرت المحكمة حكمها بالاعدام على عرابي ، ثم تلي مرسوم الخديوي بابدال الحكم الى النفي المؤبد . واعيد عرابي الى السجن ريثما ينفذ الحكم .

نفي عرابي وصحبه :

زار المحاميان عرابيا في سجنه فوجدا ان اول ما قام به عرابي في السجن هو كتابته رسالة الى صديقه بلنت بشكره على ما قام به لانقاذه . وقد فرح اهل القاهرة فرحا عظيما ، فوزعوا الصدقات والملابس واطعموا الفقراء واقاموا الصلوات .

وفي اليوم التالي زاره محاميه برودلي مرة ثانية فاخبره عرابي انه لم يبق لديه ما يشغل باله الا قلقه على اخوانه السجناء ورغبته في ان يبين لأهل اوروبا حقيقة اعترافه الشكلي بعصيان امر الخديوي ، فوعده المحامي بأنه لن يألو جهدا في سبيل انقاذهم .

وكتب عرابي الى جريدة التايمس كتابا تاريخيا طويلا ذكر فيه ان انكلترا لن تستطيع تأخير الاصلاحات التي حارب في سبيلها ، وسيكون لمصر مجلس نواب . واثنى عرابي اعظم الثناء على بلنت .

بعد اربعة أيام من الحكم على عرابي قدم الى المحكمة العسكرية محمود سامي البارودي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي وطلبة عصمت فكان مصيرهم مثل مصير عرابي . وكذلك كان مصير محمود فهمي ويعقوب سامي بعد ثلاثة أيام .

اتفق على أن تكون جزيرة سيلان (سري لانكا) منفى عرابي وصحبه . وذهب برودلي وبيمان في الثامن من كانون الأول واخبرا عرابي بذلك فسر بالخبر .

كتبت صحيفة تروث Truth الانكليزية تمتدح عرابيا وتثني عليه وعلى حركته الوطنية فسر عرابي بما كتبت سرورا عظيما واعجبه اسمها «الحق» وقال انه يريد ان يعبر عن الحق في صحيفة «الحق» فذكر ما يرجوه من اوجه الاصلاح وضرورة وجود مجلس نواب كامل السيادة على أساس انتخاب حر . وقال اذا وافقت انكلترا على آرائي فلست ابالي بالنفي .

في الثالث عشر من كانون الأول ١٨٨٢ التقى السجناء وصارت غرفة عرابي ملتقاهم كل يوم ، وامتلأت الغرف بالزائرين من الاقارب القاهريين والقرويين ، واحضر الخدم ما يلزم من متاع في المنفى . وطلب برودلي ان يعد كل منهم قائمة بأسماء من يريد ان يرافقوه الى المنفى ليحملها الى وزير الداخلية اسماعيل ايوب باشا رئيس لجنة التحقيق الذي حل محل رياض باشا .

وفي الرابع عشر من كانون الأول صدر امر الخديوي توفيق باشا بمصادرة املاك الزعماء السبعة ، مع ترتيب معاش سنوي لكل منهم بقدر الضرورة لمعيشتهم . وفي الرابع والعشرين نشرت الجريدة الرسمية الوقائع المصرية امرا خديويا آخر بتجريد الزعماء من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف ومحو اسمائهم من سجلات ضباط الجيش المصري .

قدم عرابي لبرودلي مسبحته وبساطه هدية وذكرى .

وصرف لكل من الزعماء ثلاثون جنيها مقدما مما قرر صرفه لهم في سيلان . وقد أرسل الى عرابي بعض اصدقائه حقيبة ملأى بالملابس حين

كان القطار على وشك السفر . وكانت اسرته تعيش ، وهو في السجن ، على صدقات دفعها بعض محبيه سرا .

وفي اليوم السادس والعشرين من كانون الأول تأهب عرابي واصحابه للسفر ، وارسلت اليه بعض العظيمات (لعلهن من الاميرات) على يد برودلي كثيرا من الهدايا في حذر خوفا من الخديوي ، فأرسلت احداهن حقيبتين انكليزيتين كبيرتين ، واخرى مصحفا فخما ، وثالثة سجادة للصلاة ، ورابعة حقيبة ملأى بالملابس ، وخامسة سلة جميلة .

كان الامراء والعلماء والاعيان يجلون عرابيا ، وكتب الأمير ابراهيم باشا الى عرابي ، وهو بكفر الدوار ، واصفا اياه بحامي حقوق مصر . وكانت اميرات الاسرة الخديوية ، ما عدا زوجة توفيق وامه ، يعطفن على عرابي ويتحمسن لقضيته ، ومن بينهن الاميرة انجه هانم ارملة الوالي سعيد باشا التي اهدت الى عرابي خيمة زوجها ، وقدمت الى برودلي ونابيير هدايا غالية .

وروى برودلي حديثا دار بينه وبين الخديوي توفيق ، بعد ذلك ، قال الخديوي ان اوروبا اخطأت فهم آرائه فيما يتصل بالتحقيقات الاخيرة فهو لم يرد موت السجناء ، وكانت فكرة ابدال الحكم عليهم تجربة سارة للتسامح املتها عليه ارادته . وقال الخديوي ان عرابيا كان من خيار الرجال وانه لم يصدق لحظة قط ان عرابيا اراد ان يقتله .

في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم السابع والعشرين من كانون الأول ١٨٨٢ اقلعت السفينة مريوتمس (مريوط) بعرابي واصحابه من السويس وصلت السفينة الى ميناء كولومبو عاصمة سيلان في التاسع من كانون الثاني ١٨٨٣ .

صدرت بعد ذلك احكام اخرى على عدد كبير جدا من المصريين ، منهم الشيخ محمد عبده الذي صدر عليه حكم بالنفي الى بيروت لمدة ثلاث سنوات ، وعلى احمد بك رفعت بالنفي لمدة خمس سنوات (الى بيروت) . وقضي على طائفة من كبار الاعيان بتجريدهم من الرتب والامتيازات ، وان يقيم كل منهم في بلدة معينة تحت رقابة الحكومة المحلية . اما العلماء فقد قضي بتجريد عدد كبير منهم من رتبهم وشارات شرفهم وامتيازاتهم ، منهم الشيخ حسن العدوي . وقضي على عدد كبير من الموظفين والعمد والاعيان بمثل ذلك . كما فصل اكثر من مائتين وخمسين ضابطا من ضباط الشرطة .

الحياة في سيلان (سري لانكا) :

يقطن جزيرة سيلان عدد من المسلمين من اصل عربي او من اصل هندي . كان عدد نفوس الجزيرة حينذاك نحو ثلاثة ملايين ، منهم ٢٥٠ ألف مسلم .

في مساء ٩ كانون الثاني ١٨٨٣ دخلت باخرة المنفيين ميناء كولومبو عاصمة الجزيرة . قال ممثل حكومة سيلان ان الحكومة اعدت أربعة بيوت لذوي العائلات وفيها الخدم وكل اسباب الراحة وتموين ثلاثة أشهر . وفي صباح اليوم التالي العاشر من كانون الثاني خرج المنفيون من الباخرة الى البر فاستقبلهم خلق كثير من مسلمي الجزيرة واعيان البلاد .

نزل عرابي وعائلته في البيت المخصص لهم ومعهم طلبة عصمت وعبدالعال حلمي لانهما تركا عائلتيهما في مصر . ونزل محمود سامي في البيت المخصص لمحمود فهمي وعائلته لأنه ترك اهله واولاده في مصر أيضا . وانفرد كل من علي فهمي ويعقوب سامي في بيت لوجود عائلتيهما معهما . وكان عدد من رافق الزعماء السبعة من الاهل والخدم واحدا واربعين .

جاء اهالي كولومبو للسلام عليهم . وأولم لهم الكثير من وجوه الجزيرة والتجار الولائم استمرت بضعة أيام . وأولم عرابي واصحابه وليمة كبيرة لأعيان المسلمين والانكليز والوطنيين السيلانيين وكان عددهم مائتي شخص .

خصصت الحكومة المصرية لعرابي خمسين جنيها كل شهر ولكل من اصحابه ثمانية وثلاثين . وكان عرابي واصحابه يقضون اوقاتهم في القراءة والكتابة وتعلم اللغة الانكليزية وفي التزاور بينهم وبين حكام الجزيرة واعيانها .

وزار بلنت صديقه في منفاه وكانت معه الليدي آن بلنت ومعهما القس لويس صابونجي . واقام اهل المدينة اقواس النصر لضيف عرابي وكتبوا عليها بالانكليزية «مرحبا بالصديق الوفي المستر ولفريد سكاون بلنت» وأعدوا له مأدبة كبيرة شهدها اكثر من مائتي مدعو . اقام بلنت وزوجته اثنين وعشرين يوما في الجزيرة . اعاد بلنت الوئام بين عرابي ومحمود فهمي .

كانت حياة الزعماء في الجزيرة حياة رتيبة ولكنهم لم يشعروا بالملل . وفي ١٨٨٨ توفي صالح بن احمد عرابي وهو في الثالثة من عمره . وفي ١٩ آذار ١٨٩١ توفي عبدالعال حلمي ودفن في كولومبو . وفي ١٨٩١ زار السير توماس لبتن صاحب مزارع الشاي عرابيا ودعاه لزيارة مزارعه

على نفقته وله ان يصحب من يشاء من اخوانه (ذهب علي فهمي معه) فرحب عرابي بالزيارة ترويحا للنفس . وفي ١٨٩٢ انتقل عرابي الى مدينة كندي . وبقي فيها حتى عاد الى مصر في ١٩٠١. وكان قد سبقه اليها محمود سامي ويعقوب سامي وطلبة عصمت . ثم انتقل اليها علي فهمي . وبقي محمود فهمي في كولومبو . وفي ١٧ تموز ١٨٩٤ ذهب محمود فهمي الى كندي ونزل ضيفا على محمد عرابي بن احمد عرابي . وقد توفي في كندي ودفن فيها (١٨٩٤) .

ظل بعض اصحاب عرابي ، وهم قلة قليلة في مصر ، على الوفاء له فكانوا يرسلون اليه الرسائل ، منهم الشيخ محمد خليل الهجرسي وكان منفيا بالحجاز ولما انتهت مدة نفيه ، وهي خمس سنوات ، رفض ان يعود الى مصر حتى يعود عرابي وحتى يموت الخديوي توفيق او يعزل عن عرشه . وظل على الوفاء له من الانكليز محاميه برودلي فلم تنقطع كتبه اليه الا بعد وفاته (اي وفاة عرابي) وقد ارسل الى اولاده بعد وفاة ابيهم يذكر لهم انه على استعداد لمعاونتهم في المطالبة برد املاك أبيهم . وكان صديقه بلنت وزوجته الليدي آن يرسلان اليه الرسائل الملأى بالعطف والمودة وكانت آن Anne تكتب العربية في يسر[١٠].

في شباط ١٩٠٠ سمحت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة الى مصر حين ساءت صحته ، ومات في السنة نفسها . وفي تشرين الأول ١٩٠٠ توفي في كندي يعقوب باشا سامي ودفن بجوار قبر محمود فهمي باشا ، وكان قد صدر العفو عنه ولكن توفي قبل ان يبلغه النبأ . وأصيب محمود سامي باشا البارودي بارتشاح في القرنيتين افقده بصره وقرر الاطباء وجوب عودته الى مصر لمعالجته في المناخ الذي نشأ فيه ، وعفا عنه الخديوي عباس حلمي الثاني فعاد الى مصر في ايلول ١٩٠٠ وردت اليه ممتلكاته الموقوفة ومتجمع ريعها ولكن لم يعد اليه بصره ، وتوفي في ١٢ كانون الأول ١٩٠٤ .

وفي الثاني عشر من مايس ١٩٠١ زار سري لانكا ولي عهد انكلترا الذي صار بعد ذلك الملك جورج الخامس والتقى بعرابي ووعده بالسعي لدى الخديوي عباس الثاني بالعفو عنه ، وقد عفا فعلا عنه وعن علي فهمي وعاد عرابي الى مصر فوصلها في أول تشرين الأول ١٩٠١ بعد غيبة تسعة عشر عاما . وفي آب ١٩٠١ غادر علي فهمي جزيرة سري لانكا وبلغ القاهرة في اول ايلول ، وتوفي سنة ١٩١١[١١].

ايام عرابي الأخيرة في مصر ١٩٠١ ـ ١٩١١

نزل احمد عرابي في القاهرة في بيت اولاده . وعاش في مصر كما يعيش عامة الناس . هاجمته جريدة اللواء جريدة الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل . وقد استقر في اذهان جماعة الحزب الوطني تحت الاحتلال البريطاني ان عرابيا هو سبب النكبة وان «هوجة» اي ثورة أو تمرد عرابي هي التي جلبت الاحتلال . وكان هذا الحزب يريد ان يكسب الناس ولو على حساب الثورة العرابية .

ومما يؤسف له كثيرا ان احمد شوقي ، شاعر الامير الخديوي الذي لقب بعد ذلك بلقب امير الشعراء ، هجا احمد عرابي بقصيدة قال في مطلعها :

صغار في الذهاب وفي الاياب .. أهذا كل شأنك يا عرابي

زار عرابي بعد عودته الوزراء في بيوتهم قياما بالواجب فلم يرد احدهم له الزيارة . وتحاشى كبار الموظفين الاتصال به ، وأحس عرابي انه غريب في وطنه . بل كان هناك بعض الاشخاص القلائل الذين اقبلوا على داره مهنئين وصاروا يزورونه كما كانوا يفعلون ايام قوته ، ومنهم علي فهمي باشا زميله في الثورة وفي المنفى والشيخ محمد خليل الهجرسي والشاعر حافظ ابراهيم والدكتور محجوب ثابت . وزاره مرة واحدة محمود سامي بعد عودته بنحو اسبوع .

في تشرين الأول ١٩٠١ زاره صديقه بلنت ، وكان يزوره دائما كلما جاء الى مصر . وفي الرابع والعشرين من تشرين الأول هذا جمع بلنت بين عرابي وبين الشيخ محمد عبده بحديقته (اي حديقة دار بلنت) بمنطقة الشيخ عبيد بالمطرية شرقي عين شمس وقد شهد هذا اللقاء علي باشا فهمي .

وكان الناس البسطاء يقبلون عليه كلما رأوه . وكان وجهاء المدينة في الشوارع التي يمر بها ينهضون وقوفا اذا مر بهم في عربته وهم جلوس امام بيوتهم .

عاش عرابي في مصر عيشة المعسرين محروما من ملكه . قال عرابي لأحد ابنائه ان حركته سوف يقيض الله لها من يفهمها حق الفهم من ابناء الجيل القادم . وقد رشح محمود الخفيف نفسه لهذه المهمة فألف كتاب احمد عرابي الزعيم المفترى عليه (القاهرة ١٩٤٧) . في حينه لم ينصف عرابيا الا صديقه بلنت حين نشر سنة ١٩٠٧

كتابه بالانكليزية التاريخ السري لاحتلال انكلترا مصر ، وفيه ملحق تاريخ موجز لحياة عرابي وحركته قدمه عرابي لبلنت في ٢٦ آذار ١٩٠٣ .

كتب احمد عرابي مذكراته التي فرغ من كتابتها في ٢٦ تموز ١٩١٠، ونشر الجزء الأول منها بعنوان كشف الستار عن سر الاسرار . بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٦ نشرت دار الهلال مذكرات عرابي في سلسلة كتاب الهلال ، كتب مقدمتها اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية المصرية وألف عبدالرحمن الرافعي كتيبا عنوانه الزعيم احمد عرابي نشر في سلسلة «كتاب الهلال» في يناير ١٩٥٢ ، وفي ١٩٦٦ نشر عبدالرحمن الرافعي ، في سلسلة كتبه عن تاريخ مصر الحديث ، كتابا عنوانه الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ، الطبعة الثالثة .

في الحادي والعشرين من ايلول ١٩١١ توفي عرابي بعد اصابته بسرطان المثانة . ولم يكن لدى اولاده من المال ما يكفي لتجهيزه ودفنه ، فاضطروا الى عدم اعلان وفاته الى اليوم التالي حين قبضوا معاشه . وقد شيعه الالوف من المصريين الى مقبرة الامام الشافعي .

في عشرينات القرن العشرين دافع عن عرابي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وانتقد موقف عبدالرحمن الرافعي منه .

ملاحق البحث

١ ـ عبدالله النديم ـ ١٨٤٣ ـ ١٨٩٦ :

هو عبدالله بن مصباح الادريسي المعروف بعبدالله النديم ، كاتب وشاعر وخطيب وصحفي ووطني مصري . ولد بالاسكندرية وحفظ القرآن وحضر بعض دروس المشايخ . كان موظفا بالبرق وتاجرا ومدرسا . اشتغل بتنظيم الجمعيات من اجل الدعوة الوطنية .

أصدر صحيفة التنكيت والتبكيت، والطائف

اشترك بالثورة العرابية بقلمه ولسانه . وبعد فشلها عاش متخفيا تسع سنوات في مصر ، ثم عثر عليه ونفي الى يافا ثم عفي عنه ، عاد واصدر مجلة الاستاذ فترة قصيرة . ثم نفي ثانية (الى يافا) . ذهب الى استانبول وهناك التقى بجمال الدين الافغاني ومات فيها .

جمع بعض شعره ونثره في سلافة النديم في منتخبات السيد عبدالله النديم .

٢ ـ بلنت (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢) :

ولفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt من احرار البريطانيين الكارهين للاستعمار ، ناصر الحركات الاستقلالية في مصر والهند وايرلندا . كان مهتما بالدراسات الاسلامية ، والف كتاب مستقبل الاسلام (١٨٨١)* . كان يجيد العربية زار بلدانا عربية كثيرة وتعاطف مع الشعب العربي . اعجب كثيرا بأحمد عرابي حتى انه فضله على مدحت باشا ابي الدستور العثماني . ايد قضية مصر العادلة وعمل على تخليص عرابي** . اتصل برئيس الوزارة البريطانية غلادستون زعيم حزب الاحرار . ذكر بلنت في كتابه هذه التعابير : توسلاتي في داوننك ستريت (مقر رئاسة الوزارة البريطانية في لندن) ـ توسلاتي الى غلادستون . اتصل بجريدة التايمس وغيرها من الصحف وحرضها على تأييد القضية المصرية . واتصل باحرار بريطانيا لتأييد مساعيه ومنهم راندولف تشرشل والد الزعيم البريطاني المعروف ونستن تشرشل وتبرع الكثيرون منهم بالمال الذي دفعه بلنت الى برودلي محامي عرابي . وكانت زوجته الليدي آن بلنت تجيد العربية وتهتم بالخيول العربية وقد صحبت زوجها في سفراته في بلاد العرب . الجزائر وتونس ومصر وسوريا ونجد والعراق .

كتب بلنت كتابه Secret History of the English Occupation of EGYPT. واستعان بالشيخ محمد عبده الذي كان يسكن الى جوار دار بلنت في منطقته الشيخ عبيد في المطرية شرقي عين شمس.*** طبع الكتاب سنة ١٩٠٧ وفي مقدمته صورة مسيرة فيها لافتة كتب عليها «الله ينصرك يا عرابي» وصورة الشيخ محمد عبده كما كان ايام الثورة . في ١٩٢٨ ترجم الكتاب الى العربية سلامة موسى ونشره في حلقات في صحيفة البلاغ لصاحبها عبدالقادر حمزة ، ثم نشرت في كتاب كتب مقدمته عبدالقادر حمزة هذا . بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ نشرت الحكومة المصرية كتاب بلنت بالعربية في خمسة اجزاء صغيرة . اعيد طبع الكتاب بالانكليزية في ١٩٦٩ .

ونشر برودلي محامي عرابي كتابا بالانكليزية عنوانه : How We Defended Arabi (١٨٨٣) وعلى الغلاف عبارة «الله ينصرك يا عرابي» بالعربية والانكليزية .

بقي بلنت وفيا لعرابي كما بقي برودلي وفيا لعرابي واولاده . وقد زار بلنت عرابي وصحبه في سري لانكا . ذكر بلنت ان بعض الاجانب الاوروبيين كانوا ميالين لعرابي والقضية المصرية ، ومنهم السويسري جون نينيه Ninet الذي عاش في مصر اربعين سنة ، وألف كتابا عنوانه عرابي باشا (١٨٨٤)، ومنهم قنصل فرنسا العام في مصر وقت الحوادث العرابية دي رنك De Ring.

الهوامش والتعليقات :

١ ـ كان ابراهيم باشا ابن زوجة محمد علي باشا وقد تبناه محمد علي . اكد ذلك الامير عباس حليم وهو ابن محمد حليم باشا الذي طالب بعرش مصر في عهد الخديوي اسماعيل والخديوي توفيق . كان ذلك بعد سقوط الملك فاروق .

٢ ـ نشر بلنت في كتابه التاريخ السري كلمات الخديوي توفيق : «انا خديوي البلد واعمل زي ما انا عاوز» بلفظها العربي بحروف لاتينة .

٣ ـ كتب فريسنيه كتابا عنوانه المسألة المصرية La QuestionEgypte ولم يكن متحمسا للتدخل في مصر ، فاغتنمتها انكلترا فرصة للانفراد في التدخل .

٤ ـ عند حدوث غش او خيانة، صار المصري يذكر مثلا : «الولس كسر عرابي» اي ولسلي تغلب على عرابي بواسطة الخيانة ، وذلك بعدما كانوا يقولون «الله ينصرك يا عرابي» .

٥ ـ قال محمود فهمي عند محاكمته انه هو الذي سلم نفسه ، ولعل ذلك كان بسبب خلافه مع عرابي حول موضوع سد قناة السويس .

٦ ـ العميد محمد عبيد هو المقدم الذي انقذ عرابي وعلي فهمي وعبد العال من السجن في وزارة الحربية في قصر النيل عندما حاول عثمان رفقي محاكمتهم .

٧ ـ حقد محمد سلطان باشا على الثورة وعلى عرابي لأنه لم يدخل وزارة محمود سامي البارودي كوزير ولم يقنع بمنصب رئيس مجلس شورى النواب ، وكان يعتبر نفسه اعظم من عرابي . ندم بعد ذلك على مواقفه وأمل ان يعفو عنه عرابي .

٨ ـ اي الشخص الذي يعد الغليون للخديوي .

٩ ـ كان برودلي يعمل في تونس مراسلا صحفيا وكان يعرف العربية .

١٠ ـ في رسائل عرابي الى بلنت وردت هذه التعابير : «الى مهجة ارواحنا ومنقذنا المستر بلنت ، ادامه الله وابقاه» ـ «الى صديق وروح حياتي المستر ولفريد بلنت ، ادامه الله» «ادام الله لنا حياتك يا صديقي في سلام دائم : صديقك الخاضع لأمر الله احمد عرابي المصري» .

١١ ـ في ٣ تشرين الاول ١٩٠١ ادلى عرابي بحديث الى جريدة المقطم قال فيه انه سأل بعض افراد اسرته عن السخرة والكرباج فقيل له ألغيت ، وان الاموال تحصل بالحق والعدل ، والقانون سائد ، فقال عرابي هذا هو الاصلاح الذي كان غايتي . أثار حديثه السخط والفتور في بعض اوساط الرأي العام .

* بعد ذلك فكر بلنت مرة في اشهار اسلامه

** بعد نفي عرابي اتصل بلنت بالسلطات البريطانية ثم بالسلطات المصرية مراراً محاولاً إعادة عرابي الى حكم مصر .

*** كانت دار الشيخ محمد عبده في الأصل جزءاً من الضيعة التي اشتراها بلنت وتنازل عنها الى الشيخ محمد عبده ليبنى عليها الجدار .

ـ في عهد الخديوي حاول عباس حلمي الثاني حاول الشيخ محمد عبده الاعتذار والتقرب اليه ، وقد لام عرابي الشيخ محمد عبده على هذا الموقف .

اهم المصادر

١ ـ بلنت ، ولفريد سكاوين ، التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر ، ترجمة سلامة موسى (القاهرة، ١٩٢٨) .

٢ ـ الخفيف ، محمود ، احمد عرابي الزعيم المفترى عليه (القاهرة، ١٩٤٧)

٣ ـ الرافعي ، عبدالرحمن ، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ، (القاهرة، ١٩٦٦) .

٤ ـ الرافعي ، عبدالرحمن ، الزعيم احمد عرابي ، كتاب الهلال ، يناير ، ١٩٥٢ (القاهرة ـ ١٩٥٢) .

٥ ـ روتشتين ، تيودور ، تاريخ المسألة المصرية ، ١٨٧٥ ـ ١٩١٠ (القاهرة ـ ١٩٣٦) .

٦ ـ عرابي ، احمد ، مذكرات احمد عرابي ، كتاب الهلال ، (القاهرة ، ١٩٥٣) .

7 — Blunt, Wilfrid Scawen, Secret History of the English Occupation of Egypt (London, 1969)

8 — Broadley, A.M. How We Defended Arabi, (London, 1883)

٩ ـ لورد كرومر ، الثورة العرابية ، ترجمة عبدالعزيز عرابي (نجل الزعيم احمد عرابي) (القاهرة ١٩٥٨) .

١٠ ـ رفعت ، محمد ، تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة (القاهرة، ١٩٣٢) .

ولئن كان موضوع التاريخ اصعب من موضوعات العلوم الطبيعية ولئن كانت اجهزته اضعف من اجهزة سائر العلوم، فان هذه الصعوبة وهذا الضعف بالذات، يفرضان عليه ان يكون اكثر حرصا على انضباط اسلوبه ودقة طريقته، وأوفر تقيدا بقواعد صناعته، مما لو كان موضوعه أقرب مأخذا واسهل منالا ..

المدرسة التاريخية السودانية المنهجية

د.محمد سعيد القدال
كلية الآداب/ جامعة الخرطوم

تقديـــم

كتب ادونيس يقول «ان العصفور الذي يضرب الهواء بجناحيه لكي يطير يتصور انه لو لم يكن هناك هواء لكان طيرانه اسهل . والحقيقة انه لو لم يكن هناك هواء لما استطاع ان يطير ». وقد علق محمود العالم على هذا التصوير قائلا بانه لا سبيل الى التقدم والابداع في فراغ ، ولا سبيل الى التقدم والى القطيعة الجدلية الحقيقية الا من خلال الذاكرة التراثية . فلكي نطير ابعد من الهواء ، ولكي نتجاوزه ، لا نستطيع ذلك الا من خلال الهواء وبفضل الهواء وعلى الرغم من هذا الهواء .(١)

لعل في هذا النص ما يساعدنا على تخطي عقدة النقد . فالنقد عندنا ضعيف ان لم يكن معدوما اصلا . ففي المجتمع القبلي شبه الرعوي ، وفي المجتمع العائلي الاكاديمي ، يضعف النقد امام تلك الروابط . ويفهم النقد فهما ذاتيا بحتا . فهو اما تحامل أو هدم أو تقليل من شأن الآخرين . وقليلا ما يؤخذ على انه تعامل جدلي مع الانتاج الفكري من اجل المضي به قدما . فعندما نطرح المدرسة التاريخية السودانية للنقد ، فلكي نسير بفضلها ومرتكزين على انتاجها . لا أن نكون نسخة مكررة منها ، ومتباعدين عن نقدها في قدسية لا تخدم الانتاج الفكري وتطوره .

ولابد أن تنشأ اختلافات في اساليب التفسير التاريخي . وهي اختلافات ناتجة من التعقيد الملحوظ في مجرى التاريخ ، وصعوبة استنفاذ ما يتخلله من علاقات معقدة ومتشابكة بين الاشياء والظاهرات . غير أن السبب الاكثر تأثيرا هو اختلاف الاهداف غير المباشرة لدى المؤرخين . وهذه الاهداف ليست اهدافا فردية ذاتية ، بل هي تنقسم الى تيارات اساسها اختلاف المنطلقات الايديولوجية.(٢)

والايديولوجية «عملية ذاتية ، وبتعبير اعمق اجتماعية ، فأي رؤية لأي انسان هي جزء من حقل ايديولوجي يعيشه هذا الانسان ، اختاره او لم يختره ، تلقاه ارادة او لم يتلقه ارادة ، تنفسه بوعي أو بغير وعي ، ولكنه جزء من حقل ايديولوجي ، وبالتالي ذو بعد طبقي».(٣)

هذا البحث دراسة للمدرسة التاريخية السودانية من جانبيها المنهجي والايديولوجي . وهذا التقسيم فرضه اداء المدرسة التاريخية نفسها في تناولها للتاريخ . ويقع البحث في جزءين رئيسيين : الاول محاولة لتعريف المدرسة التاريخية السودانية ، ويسعى الجزء الثاني لتناول بعض الامثلة من اداء تلك المدرسة في تعاملها مع التاريخ .

(٢) ما هي المدرسة التاريخية السودانية :

نشأت المدرسة التاريخية السودانية في ظروف قريبة الشبه بتلك التي نشأت في ظلها المدرسة التاريخية العربية ، والتي كتب عنها الدكتور مروة قائلا :

«المدرسة التاريخية العربية نشأت وسط المثقفين العرب الذين انعتقوا من سيطرة البنى الاجتماعية التي سيطر عليها الحكم الاقطاعي العسكري العثماني المتخلف والمنحل تاريخيا ، واخذوا يتجهون للتعبير عن مصالح البرجوازية العربية النامية التي كانت مصالحها تزداد وثوقا مع الغرب الرأسمالي . وهذه الفترة هي ما عرفت بعصر النهضة . وقد اسهمت الدراسات التاريخية اسهاما ايجابيا في بعث وشحذ الشعور القومي وذلك بالتوجه الى الماضي في محاولة تقليد اساليبه ولكن في شيء من المبالغة المفرطة ، كما سعت الى بعث اصوله تحقيقا ونشرا وشرحا . وقد اجادت هذه المدرسة اصول البحث الاكاديمي الغربي ومنهجه التجريبي ، والذي بدأ يتعرض للنقد حديثا ويواجه دراسات تعتمد المنهج العلمي . وبدأ هذا الاتجاه الجديد يظهر على السطح بعد الحرب العالمية الاولى عندما تحولت الحوافز القومية السابقة الى انتفاضات وثورات وطنية مسلحة ، وتحولت حركة النهضة القومية الى حركة تحرير وطني تتعمق في الارض الجماهيرية شيئا فشيئا» .[٤]

فتحولت النظرة الى الماضي من مجرد تقليد اعمى جامد الى دراسة تفي بغرض هذا التحول .[٥] فالمدرسة التاريخية العربية نشأت في لخطة نهوض قومي ، لتعبر عنه وعن تطلعات البرجوازية التي كانت تقوده . ولم تكن المؤسسات الاكاديمية تحت نفوذ ذلك التحرك الجماهيري ، فوقع البحث الاكاديمي تحت نفوذ البرجوازية ، وكيفته مطرقة المنهج الاحادي تكييفا ليستقر في بوتقة الصراع الاجتماعي لخدمة تلك الطبقة . فالمدرسة التاريخية العربية لم تنشأ في فراغ ، ولم يتطور مسارها بعيدا عن الواقع . والمدرسة التاريخية السودانية نشأت في ظروف مشابهة ، وانعكست عليها ظلال المدرسة العربية .

ظهرت المدرسة التاريخية السودانية مع بروز الحركة الوطنية التي بدأت بين البرجوازية التجارية في المدن وطلائعها من المثقفين . واتجهت في بداياتها الاولى نحو تجميع التراث حتى يساعد على شحذ الشعور القومي . ولكنها ظلت اجتهادات شخصية ومبادرات متفرقة ، تستلهم مآثر المهدي حينا ، وتخوض في امجاد الماضي التليد حينا آخر ، وتشرئب نحو دراسات التراث الاسلامي الوافدة من مصر .[٦]

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت الدراسات الاكاديمية المنظمة في اروقة كلية الآداب . واتجهت هذه الدراسات الى اجلاء الحقيقة عن بعض جوانب الماضي الذي عمل الاستعمار على تشويهه وطمسه . كانت تعتمد في سعيها ذاك على امتلاك ناصية البحث الاكاديمي ، والوقوف على ادواته من وثائق واساليب كتابة.. الخ . ونشطت هذه المدرسة بعد استقلال السودان عام ١٩٥٦ ، وافرزت انتاجا متتابعا في الستينيات والسبعينيات ليغطي جوانب القصور في تاريخ البلاد .[٧] ولم تقتصر هذه المدرسة على السودانيين فقط ، بل شارك فيها غير السودانيين خاصة من البريطانيين الذين ساهموا بنشر دراسات عن تاريخ السودان ، او شاركوا في التدريس بجامعة الخرطوم ، أو اشرفوا على الدراسات الاكاديمية ، من امثال الاساتذة هولت وهل وساندرسون وغيرهم .[٨]

كان لنشأة المدرسة التاريخية السودانية في كنف الحكم البريطاني ان اتجهت الى الغرب تتلمس اساليب البحث فيه ، وتؤهل نفسها في مؤسساته . فأخذت بالمنهج التجريبي الذي سيطر على توجهات البحث الاكاديمي في جامعات الغرب الرأسمالي ، فتأثرت به ، وبجوانب القصور التي كانت تكتنفه .[٩] وانبهرت بايجابياتها وسعت الى تجويدها ، وهو سعي حميد ارسى قواعد ثابتة للبحث العلمي .

وقد اشار البروفسير يوسف فضل الى هذا الاثر الغربي قائلا : «ان اثر روح النقد الغربية واساليب البحث والكتابة الحديثة واضحة في مؤلفات معظم المؤرخين السودانيين المعاصرين ،

وهو اثر مفيد للغاية ونأمل أن يقود الى طريقة اكثر اتزانا ودقة في تقديم تاريخي للحقائق».(١٠) ويذهب الدكتور حسن عابدين الى القول بأن «المدرسة الحديثة منحت التاريخ قيمته الذاتية وحررته من عبودية التبعية للتاريخ الاوروبي» ويستمر ليقول: ان تجديد المدرسة الحديثة للمنهج العلمي ثورة اذ كشفت عن مصادر اولية جديدة.(١١)

واتخذت المدرسة التاريخية منهجا صارما في تحقيق الوثائق والتدقيق في امرها . وهذا اعطى البحث التاريخي ارضية صلبة يقف عليها . كما برزت لها جوانب ايجابية اخرى . فقد اشار البروفسير يوسف الى ان الدراسة التاريخية بدأت تتبنى وحدة الفكرة التي تحتوي على موضوع او فترة زمنية . كما بدأت تتحول من التركيز عموما على التاريخ السياسي نحو الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، واهتمت بدراسة الافكار والمؤسسات اكثر من قبل.(١٢)

ويعتبر البروفسير مكي شبيكة ـ طيب الله ثراه ـ رائدا لهذه المدرسة فقد ظل يقودها ويؤصل منهجها ويفرد ظله عليها ما يزيد على ثلاث حقب ، سواء بكتاباته أو محاضراته أو اشرافه على الدراسات العليا . وجاء من بعده مجموعة من المؤرخين من تلاميذه الذين ترسموا خطاه واخذوا بمنهجه ، ولكن كانت لهم استنتاجاتهم المغايرة وتميزهم الذاتي في حدود تلك الخطى وذلك المنهج .

وقد تناول الدكتور ابوسليم منهج البروفسير شبيكة قائلا: ان (كتاب السودان في قرن)(١٣) انجاز علمي بالغ الاهمية لانه يعتمد على الوثائق الاصلية التي وقف عليها . ولكن الجديد في الامر هو اخذ مكي لهذه الفترة من وجهة نظر تاريخية بحتة بما لها وما عليها . ثم يمضي ليقول «وهو قليلا ما يتعرض للنظريات والافكار او يتعرض الى وصف النظم وتحليلها لان همه الاكبر هو الحادث . والشخص الذي يظهر في الصورة هو المحرك للحادث». **وينتهي الى أن شبيكة «يعطي القارىء الحرية فيتركه ليصل الى مايراه من خلال ما يقرأ وعلى اساس ما يعطى من البيانات لا بما يعرضه عليه أو يمليه ، فيفصل بين الحقائق والآراء ويذكر اين وجد هذا واين وقف على ذلك»** .(١٤) .

تطرح علينا ملاحظات ابوسليم هذه بعض الاسئلة . فهل ما تعرض له بمثل الجوانب الايجابية لمنهج البروفسير شبيكة ، ام ما تعرض له يمثل سلبيات هذا المنهج ولكنه لم يفصح عن ذلك لجلال المناسبة فترك لنا مهمة ذلك الافصاح، ام هي خليط من هذا وذاك ؟ ان الاعتماد على الوثائق الاصلية هو اساس الدراسات التاريخية وهذا لا جدال حوله . اما ما ذكره عن «عدم التعرض للافكار والنظريات»، و«النظرة التاريخية البحتة بما لها وما عليها»، فهي لا تتفق مع الواقع ولا مع الممارسة العملية .

فكتاب البروفسير شبيكة لم تستقبله كل فئات المجتمع بلا انفعال . لقد تعرض مؤلفه الى بعض المضايقات وصل بعضها الى التعدي الجسدي من فئات لم يعجبها بعض ما جاء في الكتاب . كما ان الحياد المطلق يجعل المؤرخ آلة لا علاقة له بصراعات المجتمع الذي يعيش فيه ، بينما هو في واقع الامر ليس كذلك ان أي دراسة تاريخية هي موقف اجتماعي . وحتى الحياد المطلق موقف اجتماعي ايضا ، لانه يترك القارىء حائرا بين امور متشابكات ومصطرعات ، وقد تدفعه تلك الحيرة الى تبني الموقف الاضعف نتيجة ذلك الحياد . هل نحن ننادي بالمؤرخ الآلي الذي ينضح بالحقائق التاريخية المجردة ؟ وليس هناك دراسة تعطي «القارىء الحرية ليصل الى ما يراه» ، بل هي حتى في اسلوب ترتيبها للوثائق تفعل ذلك في اطار رؤية ايديولوجية . وهذا لا يعني الا يكون المؤرخ سياسيا . على ان السياسة كمفهوم آني وحلقي تفسد التاريخ . ولكن هناك فرق بين الانتماء الايديولوجي لمنهج من مناهج البحث، وبين اخضاع علم التاريخ لمتطلبات الصراع السياسي بين هذه الفصيلة او تلك من فصائل الحركة السياسية.(١٥)

وقد سعى الاستعمار البريطاني منذ سنواته الاولى الى تأسيس منهج تعليمي ينأى بالمثقف السوداني عن التفكير التأملي والتنظير، لان مثل هذا التفكير هو الذي يقود في النهاية الى نسف الاستعمار من قواعده . فها هو اللورد كرومر يؤكد على حكام السودان من الانجليز قائلا «ان الخطأ الاكبر في تعليم الفقراء كان الطموح الكبير في ادخال الدراسات الادبية . ان التعليم الابتدائي يجب .. أن يهتم بملاحظة الحقائق وليس بأي شكل من اشكال التفكير التأملي او الفكر».(١٦)

يتعرض ابوسليم الى موقف شبيكة من الروايات الشفاهية . فيرى انه قليل الثقة بها ، وان كان يعتمدها ويستشهد بها كعامل مكمل لما وقف عليه من وثائق . وقد اشار عبدالله علي

ابراهيم الى ان هذا القصور في التعامل مع الروايات الشفاهية يشمل كل المدرسة التاريخية . فكتب يقول «من الظواهر الغريبة في المدرسة التاريخية السودانية اهمالها التام لكل المحاولات الجارية لتطبيق منهج النقد التاريخي على الروايات الشفاهية في اعادة صياغة الماضي».[١٧] ولا شك ان ضعف المصادر المكتوبة وقلتها في السودان يجعل الاعتماد على الروايات امرا ملحا . ولعل البروفسير شبيكة قد اعتمد عليها ، لكنه تجاهل الاشارة الى المصادر التي استقاها منها .

فالمدرسة التاريخية السودانية لها صفات عامة اشترك فيها كل المؤرخين بدرجات متفاوتة . لعل من اهم جوانبها الايجابية :

(١) قدمت دراسات تاريخية فيها الخصوصية السودانية وعملت على دحض كتابات المؤرخين الاستعماريين والكشف عن تشويههم وزيفهم .

(٢) ركزت على الجوانب السياسية ، ولكنها بدأت ترتاد مجال الدراسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

(٣) أسست منهجا صارما للبحث يعتمد على الوثائق ودراستها واكتشافها وترتيبها ، والخروج منها بابحاث تعتمد على رصد الاحداث رصدا يتوخى الدقة .

فهي من الناحية المنهجية الاكاديمية قد اكتمل بناؤها او كاد . ولكنها واجهت نقدا في حقلها الاكاديمي هذا ، ليس في السودان بل وعلى امتداد الوطن العربي . فها هو الكاتب المصري صلاح عيسى يذهب الى ان الاكاديميين العرب قد خضعوا الى «رذيلة ضيق الافق ، فجاءت معظم اسهاماتهم مجرد قدرة مذهلة على حشد كمية مهولة من التفصيلات التي لا تنسجم في اي مسار او تخضع لاي مفهوم كلي شامل ، غير مدركين ان هذا (التجميع) المفتقر تماما لاي (تنظير) يؤدي نفس الدور الديماغوجي . فالتاريخ هنا لم يعد علما لفهم الماضي والتأثير في الحاضر وامتلاك المستقبل . ولكنه اصبح مجرد حواديت وحكايات يتسلى بها الناس ولا يفيدهم كثيرا الا يعرفوها . «على ان الكاتب يؤكد على عدم طرح ادوات البحث الاكاديمية جانبا او ازدرائها .[١٨] ولابد لنا ان نقف عند هذا النقد . ولن يجدي كثيرا اذا انبرينا لكاتبه واستنفرنا كل قبيلة التاريخ وطردناه من قداسة الاكاديمية . ان الوقفة عند حديثه اجدى من التحصن خلف جدران «الاكاديمية الرفيعة» التي لا تتعدى جدران قاعة المحاضرات ، بل قد تقف دون ذلك .

ويتناول الدكتور مروة الدراسات العربية الاكاديمية في رؤيتها للماضي ، فيرى انها «قاصرة عن كشف العلاقة الواقعة الموضوعية غير المباشرة ، بين القوانين الداخلية لعملية الانجاز الفكري وبين القوانين العامة لحركة الواقع الاجتماعي ، ولذا بقي تاريخ الفكر العربي - الاسلامي تاريخيا ذاتيا سكونيا أو (لا تاريخيا) لقطع صلته بجذوره الاجتماعية ، اي بتاريخه الحقيقي الموضوعي ». ثم يمضي ليوضح ان منطلقه الفلسفي لرؤية الماضي منطلق شمولي ، وهو نابع من واقع الصراع الاجتماعي الذي يعيشه مجتمعنا العربي . وهذا الموقف هو الذي يشكل نظرتنا للماضي ، ذلك ان الماضي لا يتغير ، الذي يتغير هو الحاضر وانه في حركته المتغيرة ينظر الى الماضي . وينتهي الى القول بان الاختلاف في النظر الى الماضي صادر من منطلقات اجتماعية لا فردية ، وموضوعية لا ذاتية . وعلينا أن نفرق بين الماضي وبين معرفة الماضي . فمعرفة الماضي اضافة خارجية تفد عليه من مصادر متعددة . فالموقف من الماضي في نهاية الامر موقف ايديولوجي ، والموقف الايديولوجي في الاساس موقف طبقي.[١٩]

ويذهب الدكتور رفعت السعيد الى القول باننا نحتاج ان نفرق - على حد تعبير فرانز روزنتال - بين كتابة التاريخ وفهم التاريخ لانهما امران مختلفان . واكد على اهمية التعامل مع اجزاء الحقيقة من نظرة شمولية موضوعية . وميز بين مدرستين أو منهجين في التاريخ : المدرسة الفردية والمدرسة العلمية . ولكنه يرى ان بينهما ظلالا متماوجة تأخذ من هذا وذاك ، وتقترب اكثر من هذا الطرف او ذاك ، على ان العين الفاحصة لا تخطئهما.[٢٠]

فالمدرسة التاريخية السودانية لا تعني منهجية اكاديمية فحسب ، وانما تعني الموقف الايديولوجي ايضا ، وهو الذي حكم في نهاية الامر توجهاتها واستنتاجاتها وتعاملها مع التاريخ . وعندما نتحدث عن هذه المدرسة فلا نعني استنتاجات موحدة ، او نسخا مكررة لامر واحد ، بل نقصد موقفا ايديولوجيا واحدا تفرعت منه عدة استنتاجات واجتهادات . فالموقف الطبقي واحد ، اما الاداء فتحكمه التفاوتات الذاتية ، مما فتح المجال للتشعب في اطار الموقف الايديولوجي الواحد .

وقد تميز هذا الموقف الايديولوجي في مجال البحث التاريخي بالسمات الاساسية التالية :

(١) الحشد الكبير للوثائق بعد تحقيقها وتنسيقها ، ثم الاعتماد عليها لتكون تاريخا بل ولتنطق بالتاريخ . ولكن الوثائق لا تنطق وانما تستنطق . هي المادة الاساسية في دراسة التاريخ ، ولكنها ليست هي التاريخ «ان الوثائق - اي وثائق - هي مجرد مصدر واحد من مصادر المعلومات التي يبني عليها المؤرخ استنتاجاته ، والبيروقراطيون من المؤرخين هم الذين يتصورون دائما ان الملفات الحكومية تحوي دائما الحقائق وان السجلات الحكومية لا تكذب .(٢١) وليس هذا تقليلا من قيمة الوثائق سواء كانت اثرية او شفاهية او مكتوبة . فبدون الاعتماد على الوثائق يصبح علم التاريخ خاضعا للتقديرات الذاتية البحتة والافتراضات المنشطة . ان علم التاريخ يشكل وحدة جدلية لا تنفصم لعنصرين اساسيين هما تجميع الوثائق وتصنيفها ودراستها من جانب ، ثم التوصل للتعليمات النظرية من الجانب الآخر . واي خلل يصيب هذه الوحدة الجدلية سيقود الى آثار سلبية على مسار البحث التاريخي . فالاعتماد اساسا على التجميع مع اهمال التنظير يؤدي الى مختلف النتائج السلبية الناجمة عن التناول الاحادي . والاعتماد على التنظير مع اهمال الوثائق ودراسة واقع الحال يقود الى نظريات جوفاء رمادية والى اقحام الوقائع قسرا في اطار تلك النظريات .(٢٢) فحتى تصبح الوثائق نابضة بالتاريخ لابد من دراستها في اطار عصرها . وهذا يحتاج الى تحليل ودراسة التركيب الاقتصادي - الاجتماعي للعصر . فنحن «لا نستوعب التراث الا في ضوء تاريخيته اي في ضوء حركته ضمن الزمن التاريخي الذي ينتمي اليه . اي لا نستوعبه الا من وجهة علاقته بالبنية الاجتماعية السابقة التي انتجته ، او الظروف التاريخية التي انتجت بدورها تلك البنية»(٢٣) فالتراث الماضي لا تتضح معالمه خارج تاريخيته . وعندما تبرز معالم ذلك الاطار تستنطق الوثيقة التاريخية وتصبح وسيلة لقراءة الماضي ، لا ان تصبح شيئا محنطا يقود الى «العدمية التاريخية» .

(٢) ويقودنا هذا الامر الى موقف آخر ، وهو افتقاد النظرة الشمولية للحدث التاريخي . ان افتقاد هذه النظرة يقف حائلا دون تلمس حركة التاريخ . كل النظريات خرجت من رؤية شمولية . ولعل اسطع مثال نظرية كروية الارض . فلولا رؤية الارض في اطار حركتها الشاملة مع الكواكب الاخرى لبقيت شيئا مسطحا ثابتا لا حراك فيه ، تشرق عليها الشمس وتغيب عنها . كيف استطاع العلماء رؤية الشمس في كرويتها ودورانها دون ان يكونوا قد خرجوا من محيطها ؟ ان تطور المعرفة البشرية ادى الى التناول الشمولي وهو الذي ساعد الانسان لمعرفة الظاهرة التي ظلت قائمة لملايين السنين دون التعرف عليها . فكانت نظرتهم الكونية الشمولية هي وسيلتهم الى تلك المعرفة .

وماذا فعل ماركس ليقف على قوانين حركة المجتمع غير تناوله الكوني لحركة المجتمع والابتعاد عن التنقيب تحت قدميه والانكفاء عليهما .

(٣) وانعدام النظرة الشمولية افضى الى التناول الاحادي للظاهرة التاريخية . فاصبح الحدث التاريخي يدرس معزولا عن الظروف الموضوعية التي شب فيها ، ويؤخذ مجردا من جدليته التي هي أساس حركته . ويواجه هذا المنهج رفضا متصاعدا حتى في الدوائر الاكاديمية الرأسمالية الغربية . فيعلن البروفيسور بترفيلد قائلا «توجد ادلة عديدة لوجود روح جديدة في الدراسات التاريخية ، والتي يمكن أن تعزى الى نفوذ ماركس . لقد اسهمت الماركسية في كل الدراسات التاريخية اكثر مما يعترف به غير الماركسيين ، لقد صححت الفهم القديم الذي يتحاشى القضايا الاساسية بمعالجة التاريخ كحقل لنشاط افكار مجردة» ويتبعه بروفسير فنلى معلنا «ان الماركسية قائمة في تجربتي الفكرية .. لقد وضع ماركس نهاية لأي فكرة تقول ان دراسة التاريخ هي نشاط مستقل ، ووضع نهاية للاستنتاج القائل بأن مختلف اوجه النشاط البشري اقتصادي وسياسي وثقافي وديني - يمكن معالجتها معزولة عن بعضها البعض» .(٢٤)

(٤) وانحصر جهد المدرسة التاريخية في دراسة البناء الفوقي : فدرست الافكار والانظمة السياسية وافنت جهدها فيها دون أن تغوص - إلا لماما - الى قاع البنية الاقتصادية - الاجتماعية، أي الى البناء التحتي . فوقفت عاجزة امام الكثير من الظواهر التاريخية أو تناولتها تناولا عابرا . إن تفسير أي ظاهرة تاريخية فكرية **أو سياسية أو اجتماعية** أو محاولة فهمها لن يتأتى دون الوقوف على الاساس الذي خرجت منه . اما هذه المدرسة فركزت همها على دراسة المؤسسات وتطور الافكار . فانتهجت اسلوب النظر الى تاريخ تطور الفكر على اساس انه تاريخ افكار فقط أو

انتاج فكر «شخصي» تنحصر علاقته بأشخاص منتجيه دون النظر الى أي علاقة له أو لهؤلاء الاشخاص بظروف العصر الذي ينتسبون اليه، ولا بخصائص المجتمع الذي عاشوا وفكروا ضمن علاقاته الاجتماعية ، وضمن الخصائص المتميزة لهذه العلاقات ، أي دون النظر الى صلة العملية الفكرية بعملية التفاعل بينهما وبين مجموعة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية.(٢٥)

هذه الخصائص الاربع تشكل موقفا ايديولوجيا واحدا . فما هي سماته ؟ اهم سماته ان مدخله الى التاريخ هو دراسة الفرد . فالتاريخ سجل لبطولات الافراد العباقرة الذين يحركون الاحداث باطراف اصابعهم . ويهمل هذا الموقف او يتجاهل دور الناس في صياغة الاحداث . ويذهب الى ان اهمال دور الفرد في التاريخ أو التقليل من شأنه يتعارض مع وقائع الاحداث التي صنعها بالفعل القادة . ولا احد يختلف معها في أن هذا التقليل والاهمال من دور الفرد يخالف الواقع ، ولكن التركيز المطلق على دوره يخالف ايضا واقعا آخر . ان التركيز على دور فرد ما او مجموعة افراد في التأثير على ظاهرة تاريخية معينة ليس هو المنهج الذي يمكن الاعتماد عليه في رؤية ظواهر التاريخ . ان هذا التركيز يغفل عشرات العوامل المعقدة التي اثرت على الظاهرة ، ويحصر المسألة في جوانب فرعية مهما كان تأثيرها فانها لا تستطيع ان تؤثر في الظاهرة التاريخية تأثيرا يقلبها من النقيض الى النقيض.(٢٦)

ان تركيز المدرسة التاريخية على دور الفرد هو من صميم الايديولوجية البرجوازية التي تمجد الذاتية ، بل ان الذاتية هي رونق تلك الايديولوجية في عهد ازدهارها وهي تنفلت من ربقة النظام الاقطاعي وعبودية الارض . وتقيم للانسان كينونته بعد ان كان مجرد وجود في دنيا الكنيسة . ولكن اي انسان ؟ انه الانسان البرجوازي الجديد . لذلك فهي تهمل او تتحاشى دور الجماهير وتخشى حركتها . وتهاب ان تغوص الى قاع الحركة التاريخية التي قد تكشف لها اصالة تلك الحركة الجماهيرية ، او تبرز لها المزيد من نماذجها الحية ، فيصبح امر الحاضر الى زوال ، ويصبح مصير البرجوازية ايضا الى زوال ، بينما هي تسعى الى تأسيس مملكتها والى الابد . فالطبقات المسيطرة ضد حركة التاريخ الجدلية الصاعدة المنتصرة . لذلك فان هذه الايديولوجية تقف مع سكون الحركة والحفاظ على الوضع الراهن ، والحفاظ على امتيازاتها وتفوقها التاريخي . فالذاتية تشكل العنصر الاساسي المكون لايديولوجيتها لان الفرد المتفوق والمسيطر في تلك اللحظة التاريخية ، وهو البرجوازي ، هو صانع الاحداث وهو الباقي والخالد ابدا . وحتى الدين المسيحي اضطر الى أن يكيف نفسه مع تلك الايديولوجية . فقد وضح ماكس فيبر وأرنولد توينبي كيف ان القيم البروتستانية الجديدة تدعم بقوة جوهر النظام الرأسمالي بتركيزها الجديد على الفرد . فساهمت في تأسيس دولة رأس المال وتراكم الارباح.(٢٧)

المدرسة التاريخية السودانية تنتهج الايديولوجية البرجوازية ، وهي غارقة فيها وتتنفسها بوعي أو بغير وعي ، ارادت ذلك أم لم ترد . فخلف كل موقف فكري تقبع قاعدة ايديولوجية صلبة . ويكون ذلك الفكر انعكاسا لها ومدافعا عنها ، وقد ينفلت منها نسبيا ، ولكنها تظل ممسكة بتلابيبه . فالمدرسة التاريخية السودانية جزء من حقل ايديولوجي كبير له تجلياته في مجال الادب والاقتصاد والسياسة ، فما هي معالم ممارساته في مجال تاريخ السودان ؟

(٣) المدرسة التاريخية في التطبيق :

نتناول هنا بعض الامثلة لنرى كيف مارست المدرسة التاريخية منهجها في دراسة تاريخ السودان . لعل في هذا ما يقارب المناقشة النظرية الى ارض الواقع .

أ ـ تقسيم تاريخ السودان الى حقب

قسم تاريخ السودان الى حقب وعهود وهي : العهد المروي الوثني ، الممالك المسيحية ، الممالك الاسلامية ، الحكم التركي ـ المصري ، الدولة المهدية ، الحكم الثنائي ، السودان المستقل . وهذا التقسيم تم على اساس البناء الفوقي دون المعالجة الشاقة للاساس المادي الذي قام عليه ذلك البناء . فأصبح التاريخ وقفا على دراسة الانظمة السياسية والتغييرات التي تطرأ عليها ، دون اي منطق داخلي يقنع باهمية ذلك التغيير ولزومه . وأصبحت هذه «الوصفة التاريخية» هي سمة الانتاج الاكاديمي . ان تغيير النظم السياسية والافكار امور لا يمر عليها البحث التاريخي مرورا عارضا . ولكن ذلك التغيير لا يعني بالضرورة تغييرا في البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية ، وقد يكون مطابقا لها . فلنا ان نسأل

هل تغير نمط الانتاج في المجتمع بانتقال البلاد من عبادة الالهة على ايام الدولة المروية الى اعتناق المسيحية ؟ وهل ادى القضاء على الحكم التركي ـ المصري وقيام الدولة المهدية على انقاضه الى تغيير نمط الانتاج وهياكل المجتمع ؟

ان هذا التقسيم تأسره الاحداث الساطعة ذات الوهج ، كانهيار امبراطورية أو انبثاق فكرة جليلة . ولكنه لا يهتم بالاساس الذي ادى لذلك الانهيار والانبثاق . وكأنما حدود هذا الانهيار والانبثاق تحكمه قوى وليس قوانين يستطيع الانسان أن يقف على امرها . ان التاريخ لابد ان يهتم بتلك اللحظات الحاسمة في تاريخ البشر ، ولكن التاريخ ايضا لابد ان يهتم بقدر اكبر بالذين صنعوا تلك الاحداث لا بالذين تصدوا لامرها بعد ان نضجت . ان التاريخ يصنعه اولئك الذين انتجوا وأسسوا البناء المادي للمجتمع . من الذي صنع مثلا تاريخ الفور والفونج ، هل هم ذلك الرهط من الناس الذين قاتلوا في المعارك وزرعوا وحملوا على كاهلهم كل أعباء الحياة ، أم ذلك النفر من السلاطين ووكلائهم من رجال البلاط ورجال الدين ؟ ان هذا التقسيم الفوقي لا يهمل امر ذلك الرهط في التاريخ بل ويهمل ايضا امرهم في الحاضر ، ويرى ان دورهم هامشي . وينصب جهده في المناورات والتكتيكات والصراعات الفوقية . وينظر الى صناع الحياة على ان ذاك عبد وهذا فلاح ، فكيف لعبد أو فلاح ان يصنع الحياة ويقيم اساسها المتين ؟ ان ملاك العبيد وامراء الاقطاع هم صناع التاريخ . انهم بحق قادة الاحداث التاريخية ولكنهم ليسوا صناع التاريخ .

وحلت «لعنة» التقسيم الفوقي هذه بالحقب نفسها ، فقسمت كل حقبة الى فترات زمنية . لنأخذ بعض الامثلة . قسمت فترة الحكم التركي ـ المصري الى عهود تطابق الفترات التي حكم فيها ولاة مصر : محمد علي ـ عباس ـ محمد سعيد .. الخ . وكأنما وفاة حاكم في مصر ومجيء آخر تؤدي الى تغيير في اسس النظام الاستعماري العثماني . صحيح أن ذهاب حاكم ومجيء آخر لابد ان يحدث تغييرات في تفاصيل الحكم وبعض تكتيكاته ، ولكن هذا التغيير لا يصبح اساسا لتغيير نظام الحكم وتقييم ادائه في البلاد وكأنما به فتحت صفحة جديدة .

بل ان تلك «اللعنة» تلاحق الامر حتى في عهد كل والٍ من الولاة . فتتحدث كتب التاريخ عن فترة خورشيد باشا وابوودان باشا وماحي بك.. الخ، وهم حكام السودان من الاتراك . وهكذا اقتصرت دراسة فترة الحكم التركي في السودان على دراسة السياسة الاستعمارية . ولكن ماذا عن تاريخ الشعب السوداني وتاريخ المجتمع السوداني ، وماذا كان يتم في احشائه من تغييرات وتحولات وردود افعال ؟ لا نجد شيئا ، اذ تحول التاريخ الى سجل لنشاط الحكام وتحركاتهم ورصد ادق التفاصيل عن حياتهم . حتى ان احد الكتب تتحدث عن والٍ تقاعد لاصابته بمرض «الناسور»! هذا تاريخ يبعث على الغثيان .[٢٨]

وقسم تاريخ الدولة المهدية (١٨٨٥ ـ ١٨٩٨) الى مناطق دارفور ، كردفان ، القضارف ـ القلابات .. الخ . وكانت كل دراسة رصد لنشاط الامراء والعمال : فترة حمدان ابوعنجة ، عثمان ادم ، يونس الدكيم.. الخ . وجمعت وثائق كل منطقة ورصدت ودرست على حدة . وتحولت كل دراسة الى موضوع عن الدولة المهدية قائم بذاته . حتى اصبح امامنا دراسات لدول مهدوية وليس دولة مهدية واحدة . واغلب تلك الدراسات رصد ممل . وتناول كل باحث موضوعة حسب تقديراته الذاتية . ووجد بعض تلك الدراسات طريقه للنشر ، والبعض لم ينشر بحمد الله.[٢٩] واصطفت تلك الدراسات ـ ما نشر وما لم ينشر ـ في مكتبة السودان ، لم يتسرب منها شيء ليؤثر في بنائنا النفسي وبلورة وعينا القومي والوطني . ونحن نصيح ان الدراسات قد ارهقت تاريخ المهدية ونطالبها بارتياد مجالات جديدة . نحن فعلا كتبنا الكثير عن تاريخ المهدية ، ولكننا لم ندرسه ، نحن رصدنا وثائقها واحداثها ووقفنا عند ذلك الرصد .

واستمرت لعنة التقسيم فحلت بفترة الاستعمار البريطاني (١٨٩٨ ـ ١٩٥٦). واخذت الدراسات تترى عن فترة ونجت وستاك وسايمز وغيرهم ، وهم حكام السودان من البريطانيين.[٣٠] وتذهب اغلب الدراسات الى الربط بين تغيير الحاكم البريطاني وتغيير السياسة البريطانية في السودان حسب رغبة ذلك الحاكم وتصوره ، كأنما السودان حظيرة خاصة به يعبث بها كيف يشاء . ويحتجون بانهم اطلعوا على الوثائق وهي التي أدت بهم الى تحديد تلك السياسات . صحيح ان حكام السودان من البريطانيين كانوا يتمتعون بدرجة كبيرة من الاستقلال اذا ما قورنوا بنظرائهم في المستعمرات البريطانية الاخرى . ولكن ذلك الاستقلال لم يكن يعني ان الحاكم البريطاني كان يبتدع سياسات

خارج الاطار العام للسياسة البريطانية ، وانما كان يبتدع تكتيكات متغيرة للسياسة البريطانية وهي تسعى لتلائم نفسها مع الاوضاع المتغيرة في المستعمرات . ولا شك ان كل حاكم قد ترك بصماته في كل مستعمرة . ولكن هذا لا يصبح اساسا لتقسيم السياسة الاستعمارية الى فترات تحددها تغييرات الحكام . ولم تتعرض اي من تلك الدراسات الى تحليل طبيعة الاستعمار البريطاني حتى تهتدي بذلك التحليل في دراستها لسياسته في السودان . ولكنها الايديولوجية التي لا ترى في التاريخ مدخلا سوى بطولات الافراد ورصد حركاتهم .

ما هي آثار هذا التقسيم على دراسة التاريخ ، وما هو المخرج منه ؟ ان تقسيم التاريخ الى فترات وفقا لتتابع الانظمة السياسية او الحكام امر هين على الباحث . فأغلب الوثائق التي في متناولنا تشير الى هذه الحقب وتفصل في امرها ، مما يجعل التعرف عليها ميسورا . وقد كتبت هذه الوثائق بمعرفة الحكام أو تحت نفوذهم ، فجاء معظمها سجلا لنشاطهم . وانحصر امر التاريخ في فئة محدودة هم الحكام والطبقة التي كانوا يحملون اعباء الدفاع عن مصالحها . ولكن ماذا عن تاريخ الفئات العريضة التي حملت عبء الانتاج الاجتماعي ، وماذا كتب عن تاريخ القوى العريضة التي زرعت وشيدت وقاتلت ؟ ومن الذي يحرك التاريخ ، هل هو مجمل الانتاج الاجتماعي او ما يفرزه من أبنية فوقية : دولة ، افكار ، قوانين ، أي البناء الفوقي الذي تحتكره تلك الفئة التي خلفت وثائق عن نشاطها ؟ ان المخرج من نفق الاغتراب التاريخي، هو البداية لدراسة تاريخ القوى المنتجة في المجتمع ـ البداية لدراسة التاريخ الحقيقي .

لنأخذ مثالا آخر نوضح به ما نذهب اليه :

ب ـ دخول الاسلام وانتشاره في السودان :

وتناولت المدرسة التاريخية دخول الاسلام الى السودان وانتشاره ، منذ تسربه البطيء في منتصف القرن السابع حتى تأسيس مملكة سنار الاسلامية (١٥٠٤)، ثم انتشار الطرق الصوفية على ايامها . ما الذي ادى الى ذلك الانتشار ؟ الامر لا يتعلق بكون الاسلام دينا سماويا ، وان انتشاره تم لصفاء افئدة الناس واستعدادهم لتقبل الدين الجديد . اذا كان الامر كذلك لكان انتشار الاسلام آليا ولما واجه المسلمون في سبيل نشره حروبات ومشاق . وليس الامر صراعا بين ديانات ، واحدة يضمحل شأنها واخرى صاعدة تحتل مكانها . فما الذي يؤدي الى ذلك الاضمحلال في بلد ما ، بينما يظل امر ذلك الدين ثابتا في بلد آخر ؟ فاعتناق اهل البلاد للمسيحية وقيام ممالكها في البلاد لا يشكل بمفرده حدا فاصلا في التاريخ ، ما لم يكن ذلك التحول مصحوبا بتحول في اصل التركيب الاقتصادي ـ الاجتماعي ، وان ذلك التحول في العقيدة كان الوعاء الايديولوجي للبناء الجديد . لذلك هناك حاجة لدراسة المجتمع قبل الممالك الاسلامية وفي ظل تلك الممالك ، للوقوف على التحولات التي كانت تتم في داخل نمط الانتاج ، وان نسعى لاكتشاف العلاقة بين البنية الجديدة والدعوة الجديدة ، والنفاذ الى اي مدخل آخر يكون مقنعا لذلك التحول . وهناك دراسات بدأت تنير الطريق ، واخرى تسترشد بهديها.(٣١)

وتتحدث الدراسات عن الصوفية التي دخلت البلاد ، واخذت تنتشر انتشارا واسعا منذ القرن السادس عشر . ما الذي مكنها من ذلك الانتشار ، هل لانها بلغت مملكة الفونج ووجدت التربة صالحة والجو مهيأ فكتبت لها الغلبة ؟(٣٢) فما هو وجه ذلك الصلاح وما هي ابعاد ذلك التهيؤ؟ ان العلاقة بين النهج الصوفي وواقع المجتمع الذي تقبله علاقة مفقودة . فكيف يستطيع فكر وافد ان يجد قبولا رائعا كالذي لقيته الصوفية ، ما لم يكن فيها ما يعبر عن نهوض الناس في لحظة تاريخية معينة . على ان العلاقة بين الفكر والواقع ليست علاقة ميكانيكية آلية . ان هذا المنحى في التناول يقود الى حتمية اقتصادية والى تفسير تقني للتاريخ . وهذا ما وضحه بروفسير لويس قائلا : «فحقيقة ان كل التفسير في العلوم ، والمسائل القانونية ، وفي مسائل الحياة اليومية هو تفكير حول العالم الخارجي ، مؤسساته ، قيمه ، اهدافه وافكاره ، لا يعني ان ذلك التفكير نسخة مكررة لما يتم التفكير فيه ، الفكر دائما انتقائي ، خلاق ، تفسيري ويسعى الى القيم . ويمكن أن يكون فقط منتسبا لما يفكر فيه ، ولكنه اذا كان مجرد انعكاس للاصل الذي ينبع منه ، مجرد نتاج لتلك الظروف فلن يكون فكرا بأي حال من الاحوال . وبما انه فكر فانه يمارس تأثيره المستقل على المادة التي يفكر فيها ، يفسرها ، يصل الى استنتاجات حولها ، يفهمها ، ثم يتصرف بناء على ذلك»(٣٣)

ان انتشار الصوفية لا يفسره اخلاص الرواد الاوائل وقوة عارضتهم . فهذه عوامل ذاتية مساعدة . ان التحولات السياسية والايديولوجية التي تفرض نفوذا بينا في توجيه المجرى العام

للتاريخ ، هي لحد كبير وليدة الظروف الاقتصادية المتجددة ، ولكن العلاقة بين تلك القوى جد شاقة ، فهي متشابكة ومعقدة ، والظلال تتماوج بين الموضوعي والذاتي . ولكن بدون الوقوف عليها وتمحيصها لا يستقيم التفسير ويبقى الامر مبتورا .

وهناك سؤال جد ملح : لماذا وجدت الصوفية دون التيارات الاسلامية الاخرى طريقها الى بلاد السودان ، وعلقت به حتى يومنا هذا ؟ هل هي مجرد الصدفة ؟ الصدفة وحدها لا تفسر الظاهرات التاريخية ، لان الصدفة لا تعمل في فراغ مطلق . ففي كل ميدان بمفرده توجد ضرورة داخلية وقانون ملازم يشقان لنفسيهما طريقا في اطار تلك الصدفة . وقد اشار انجلز الى انه بقدر ما يفلت نشاط اجتماعي معين ـ اي عدد كامل من الوقائع الاجتماعية ـ من مراقبة الناس الواعية ويخرج من تحت سلطانهم ، وبقدر ما يبدو هذا النشاط متروكا للصدفة ، بقدر ما تشق القوانين الداخلية الملازمة لنفسها طريقا في اطار هذه الصدفة بحكم الضرورة الطبيعية . فكل صدفة لها جذورها التاريخية .(٣٤)

ان الدراسات التي صدرت مؤخرا حول وثائق الارض في مملكتي الفونج والفور تشكل اساسا يساعد على تفسير ظاهرة انتشار الصوفية .(٣٥) فاغلب النشاط الاقتصادي ـ الاجتماعي في تينك المملكتين كان يقوم على الارض . ولعل التحولات التي كانت تحدث في الممالك المسيحية قد افضت الى نظام اقتصادي ـ اجتماعي عبر عن نفسه في البحث عن ايديولوجية جديدة . وربما كان واقع السودان الافريقي وضعف موروثه الثقافي الديني قد شكل تربة مناسبة لنمو تيار الزهد . ولا ننسى امر البلاد الاسلامية المجاورة وما كانت تفرضه حركة النشاط التجاري والقوافل التجارية من ضرورة ارسال طلائع تمهد الطريق لذلك النشاط وتلك القوافل . ربما نجد في تشابك كل تلك العوامل تفسيرا لتلك الظاهرة .

لنأخذ مثالا ثالثا :

ج ـ الغزو العثماني ـ المصري للسودان

وتناولت الدراسات التاريخية الغزو العثماني ـ المصري للبلاد والسياسات التي طبقها ذلك الاستعمار، والتي تحكمت في مصير السودان مدى نصف قرن من الزمان . وقد اعتمدت تلك الدراسات على وثائق ذلك العصر ، وتوصلت الى استنتاجات مختلفة حول الاسباب التي دفعت محمد علي لغزو بلاد السودان . فمن رأى ان السبب هو سعي محمد علي للبحث عن السودانيين لاسترقاقهم ، وللبحث عن الذهب.(٣٦) ومن رأى ان السبب سياسي ، اذ كان يهدف للقضاء على المماليك الذين فروا جنوبا واخذوا يؤسسون انفسهم في شمال السودان . وذهب فريق ثالث الى ارجاع اسباب الغزو الى تشابك عدة اسباب كلها مرتبطة بتطلعات محمد علي وطموحاته . واشتط فريق رابع الى تقديرات ذاتية ، اساسها ان محمد علي قرأ عن السودان فقرر غزوه . وهذه الاجتهادات ظاهرة حيوية في مجال البحث الاكاديمي ، ولكنها حصرت اجتهاداتها فقط في التعامل مع الوثائق ، فجاءت خلافاتها «مبارزة وثائقية» .

ان الاسباب التي قادت الى ذلك الغزو متشابكة . وهو كأي ظاهرة تاريخية يحتاج الى تناول شمولي لمعرفة كنهه ودوافعه . فنبحث عن اسباب الغزو في اوضاع العالم في مطلع القرن التاسع عشر ، وفي نمو السوق الرأسمالية العالمية التي بدأت تمد يدها لما وراء البحار . فالطبيعة العالمية للرأسمالية دفعت بها لترتاد كل فجاج العالم التي تيسرت لها سبل الوصول اليها . فأخذت الدول الاوروبية تتنافس سلميا في البحث عن اسواق لتصريف فائض انتاجها الصناعي . فكانت مصر ثم السودان مسرحا لذلك النشاط الرأسمالي في مرحلة المنافسة الحرة . والقت الدول الرأسمالية بثقلها ضد محمد علي ليتحول من سياسة «الباب المقفول» الى سياسة «الباب المفتوح» ، مما مهد مستقبلا الى تدفق رأس المال المالي الى مصر . هذه خلفية اساسية ، ودراستها مهمة لفهم اسباب الغزو وتوجهاته .

ونبحث عن اسباب الغزو في ظروف مصر في مطلع القرن ذاته بعد ان ضعضع الاستعمار الفرنسي قوة المماليك العسكرية . ثم جاء محمد علي على اكتاف التجار الذين كانوا يمثلون الطليعة النشطة للبرجوازية المصرية قائدة التحالف الشعبي . فواجه محمد علي المماليك عسكريا ، ثم اقتصاديا . فألغى الالتزام واعاد توزيع الارض ، فمهد الطريق لتطور البرجوازية المصرية التي كانت ارهاصات ميلادها تتعالى منذ القرن الثامن عشر . ثم اخذت البرجوازية تؤمن مواقعها السياسية والاقتصادية لتنفلت من قبضة الامبراطورية العثمانية ، ولتدرأ خطر الدول الاوروبية الطامعة في السوق المصري .

اما عن المناورات والصراعات الى ادت الى استيلاء محمد علي على السلطة ، فلها اهميتها

النسبية . ولكنها لم تكن هي العنصر الحاسم لما كان يجري من تحولات . ان انتقال مصر من نمط انتاج اقطاعي على ايام المماليك ، الى مرحلة انتقالية كانت تتهيأ فيها الارض لميلاد النظام الرأسمالي هي العنصر الحاسم . فسواء كان محمد علي أو غيره ، فسيكون الممثل لذلك التحول . ولكن كل حاكم لا شك سيترك خصوصيته على جبين التاريخ . ففي احشاء ذلك التركيب الاجتماعي وتجلياته السياسية تشكلت اسباب الغزو .

ونبحث عن تلك الاسباب ايضا في علاقة مصر ببلاد السودان الشرقي في القرن الثامن عشر ، وفي تطور النشاط التجاري بينهما . لقد خلق ذلك النشاط انطباعا في مصر عن ثروات السودان كما ونوعا . صورة زاهية سال لها لعاب البرجوازية وهي تلهث لتأسيس مملكتها الجديدة ، فألقت على تلك الصورة تمنياتها واحلامها . ونبحث عن اسباب الغزو ايضا في اوضاع مملكة الفونج في مطلع القرن الماضي . ان التناقض بين النظام السياسي والنشاط الاقتصادي التجاري ، قاد الى تدهور أوضاع تلك الدولة الى الحد الذي دفع ببعض زعماء القبائل المتحالفين معها الى السعي الى مصر طالبين من محمد علي التدخل في شؤونهم المصطرعة . بعد كل هذه الخلفيات نأتي لأخذ الوثائق .

ان اسباب الغزو متشابكة . وليس الهدف هو ترتيب تلك الاسباب بداية بالأهم ثم المهم . فهذا يدخلنا في مآزق التناول الأحادي ، ويدخلنا في مغالطات حول اي الاسباب كان اسبق . الأهم هو ان كل الاسباب دفعت الى ذلك الغزو . وذلك الغزو لم يكن من اجل تحقيق اهداف معدة بأسبقيات معينة ، وانما عوامل مركبة هي التي تفسر تلك الظاهرة التاريخية .

وليست الوثائق التي خلفها محمد علي هي الحجة في تحديد اسباب الغزو . فلم يكن محمد علي يكتب تاريخا ، ولا كان يحدد للاجيال اللاحقة الأسباب التي دفعته الى غزو السودان . فما كل ما يكتبه الحكام من رسائل يؤخذ على ظاهره ، ويحتج به عند كتابة التاريخ ، والا لوجدت الاجيال القادمة نفسها في تيه من كثرة ما يكتبه حكام اليوم من اكاذيب ومبالغات . فلم يكن محمد علي يكتب عن اسباب الغزو ، وانما كان يبعث بتعليمات الى حكام السودان يستحثهم على استغلال موارد البلاد ذات العائد السريع والتي لا يكلف نهبها جهدا وزمنا . فكان يستحثهم لنهب ما سهل حمله ، وهل هناك اسهل من ارسال حملات عسكرية لأسر الناس واسترقاقهم ، او اسهل من الحصول على المعادن اذا توفرت ؟ اما الزراعة والتجارة والصناعة فأمرها يختلف ، انها موارد يحتاج استغلالها الى وقت والى جهد تكتيكي طويل الامد . فالبحث عن اسباب الغزو يبدأ بتحليل المجتمع المصري وتركيبه الاجتماعي في اطار العصر . وفي ذلك المحتوى تعالج الوثائق لتصبح الوسيلة الى كتابة التاريخ ، لا ان تصبح هي التاريخ . وعند ذلك يمكن أن تنشأ عدة اجتهادات ، ولكنها اجتهادات قائمة على اسس موضوعية وليست نابعة من تقديرات ذاتية .

لنأخذ مثالا رابعا .

د ـ الثورة المهدية في السودان

ما هي اسباب هذه الثورة ؟ تذهب معظم الدراسات التاريخية الى انها ثورة دينية قامت من اجل اعلاء شأنه ، «فالحركة اساسا حركة اصلاح ديني»، وتستدل تلك الدراسات على هذا بكتابات المهدي التي خرج بها على الناس .[٣٧] وهنا نجد مثالا ساطعا للاعتقاد اليقيني في الوثائق ، والاخذ بها حجة مطلقة . ان البحث عن اسباب الثورة المهدية يتطلب منا اولا ان نميز بين اسباب الثورة والافكار التي عبرت عن تلك الاسباب . فقد يحدث خلط في بعض الاحيان فتؤخذ الافكار التي تعبر عن اسباب التغير في المجتمع على انها مصدر تلك الاسباب وليست انعكاسا لها . كل التغييرات في التاريخ كان لها مظهرها الايديولوجي . والحوافز المحركة في التاريخ كانت دائما ايديولوجية وغالبا دينية ، وهي التي انضوى الناس تحت لوائها وماتوا في سبيل الدفاع عنها . على أن هدف البحث التاريخي هو السعي لتفسير سيادة وانتشار بعض الافكار في زمن دون آخر .

ان الافكار لا تؤخذ معزولة عن الواقع الذي نبعت منه ، فهذا التناول يجعلها افكارا معلقة في الهواء . الفكرة لا تنتشر وتؤثر لجلالها وسموها وعظمتها الكامنة فيها «ككمون النار في حجرة»، بل لقدرتها في التعبير عن طموح المرحلة التاريخية المعينة . ذاك هو المصدر الأول لجلالها وسموها . فليست هنالك فكرة لها جلال مطلق وعظمة مطلقة ، مما يجعلها قادرة على العطاء في أي مكان وتحت أي سماء . ان دراسة الفكرة في واقعها الذي نشأت فيه هو الذي يجعلها تضيء في حقلها التاريخي .

يبدأ البحث عن اسباب الثورة المهدية بالرجوع الى الجذور وبالتناول الشمولي . نـدرس اوضاع السودان في ظل الاحتلال العثماني والتناقضات التي كانت تعصف به . ونجوس في اروقة التراث باحثين عن تجلياته المضيئة . ونتناول شخصية محمد احمد السوية التي مكنته من تجسيد ذلك التناقض وذلك الطموح .

واجه الاحتلال العثماني طوال الحقب الست من حكمه مقاومة مستمرة من السودانيين ، والتي تمثلت في عشرات الانتفاضات والهبات والمقاومة المسلحة . وكانت تلك المقاومة تنهـار ، ولكنها لم تتوقف . ومع فشلها كانت تفرز الحاجة الى بديل يلم اشتاتها ويوحد قواها ضـد الحكم العثماني الاجنبي . لم ينـاد اي منها «بتحـريـر العقيـدة الاسلامية» . هذا هو التـراث الذي قامت عليـه الثورة المهدية وكانت امتدادا له . فدراسة اسباب الثورة تبدأ بتحليل اوضاع المجتمع تحت سيطرة الاحتـلال العثمـاني ، ولا تبـدأ بتحليـل افكـار المهدي ، فهذه تأتي في مكانها المناسب . صحيح ان ما كتبه المهدي واذاعه من منشورات هو الذي حرك الناس ، ولكن ما كتبه في بضعة اشهر لم يكن ليحرك القوم ويدفعهم الى الثورة ، ما لم تكن تلك الافكار تعبر عن التنـاقض العميق في المجتمع ، فكانت تلك الافكار هي التعبير الايديولوجي عنه . وما كان للمهدي ان يجد ذلك القبول الرائع ، لو لم تكن فكرة المهدي المنتظر التي نادى بها تعبر عن الطموح التاريخي لأهل البلاد ، فكان محمد احمد المهدي هو التجسيد البشري لها .

وما الذي جعل فكرة المهدي المنتظر تجد تلك الاستجابة الفورية من مختلف فئـات المجتمع ، ولماذا هي دون سواها دفعتهم للثورة على الحكم الاجنبي ؟ لا يمكننا ان نقول ان سقوط اي فكرة دينية في بحر ساكن تدفع امواجه للتلاطم ، والا لارتاحت البشرية من عنائها منذ امد . اذاً ، ما الذي جعـل فئات الشعب السـوداني المختلفة : التجـار (الجلابـة) ، القبائـل الرعـويـة وشبـه الرعوية ، القبائل العـاملة في الزراعة ، عنـاصر المدن ، القطاع الكبير من رجال الصـوفية ، مـا الذي جعلهم يقبلون دعـوة المهدي المنتـظر رغم اختـلاف الاسباب وبعـد الشقـة بينهم ، وكيف عبرت فكرة المهدي المنتظر عن طموحاتهم رغم ذلك الاختلاف والتباعد ؟

كانت هناك تناقضات بين مختلف طبقات وفئات الشعب السوداني والحكم العثماني . كل طبقة او فئة لها تناقضاتها الخاصة بها . وكل طبقة او فئة كانت لها طموحاتها الخاصة بها ، وطمـوحاتهـا المشتركة مع المجموعات الاخرى . والصراع ضد الحكم العثمـاني كـانت تصحبـه ايضـا رؤيـة مستقبليـة . كـانت التجـارة تشكـل النشـاط الاقتصـادي الذي تشتـرك فيـه تلك الطبقات والفئات بدرجات متفاوتـة . واصبحت الكينونـة السياسية للسودان الموحد تشكل الاطار العـام للسـوق الداخلي ، والذي امتـدت فيه شـرايـين التجارة طولا وعرضا . وشاركت القبائل الرعوية وشبه الرعوية في ذلك النشاط ، واصبح لها دور تـؤديه في تلك السلسلة المتشـابكة من الحـركة التجارية . فالرزيقات ينقلون البضائع من بحـر الغـزال ، ويشترك الكبـابيش في التـرحيـل عبـر الصحراء الى مصر ، وللبجة دورهم في طريق بربر سواكن . ومراكز التجارة في الخـرطوم والابيض وبربر وسواكن على هامش ذلك النشاط ، ومنها من يعيش على فتاتـه . ولكل واحـدة من تلك الفئات حـظها من تلك المشـاركة . فـاصبح ذلك الخـط التجـاري يشكـل رابـطة جـديـدة خـارج اطار التشكيلات القبلية . ففي اطار الكينونة السياسية والنشاط التجاري ولد الاحساس برابطة الامة في مـرحلتها الجنينيـة . فـالعـداء للحكم الاجنبي والنفوذ الاجنبي صاحبه ميلاد شعور ايجابي ، هو الاساس لبروز افكار ذات طابع شمولي ، كانت هي البديل للحكم الاجنبي ، وتطورت فيما بعد الى شعور قومي . ولكن ضعف الاساس المادي في ذلك الحين ، افرز افكـارا شمولـيـة محدودة الابعـاد والرؤية . فكانت فكرة المهدي المنتظر هي التعبير عنها .

وما كان لتلك الايـديولوجيـة الا ان تنبع من داخـل الدين لما له من دور متشـابـك في حيـاة الناس . فأي برنـامـج سياسي في سـودان القرن التاسع عشر برنامج مستمد من التراث الديني . فهو الايديولوجية الوحيدة المتوفرة والتي في ظلها يمكن أن يفهم الناس امور دنياهم وتناقضاتها . فالعثمانيون اعداء الله . شعار بسيط يلخص كل الضغـائن والاحن ، ويـدفـع القـوم الى البـذل والفداء . ويجد هذا وذاك تحت ظلها مكانا له دون أن يفقد هويته . فالثورة المهدية لها ايديولوجيتها الدينية ، ولكن لها ايضا امتدادها وتشابكهـا في ابنية المجتمع الاقتصادية الاجتماعية.(٣٨) لننتقل الى مثال آخر :

هـ ـ السياسة البريطانية في السودان

تختلط دراسـة السيـاسـة البـريـطانيـة بالدبلوماسية البريطانية . بل وتؤخذ الدبلوماسية احيانا على انها السياسة . ولهذا نحتاج ان نفرق

بينهما ، وان نبين ان كنا نقصد السياسة ام الدبلوماسية : اما السياسة الخارجية فهي استراتيجية تعبر عن ايديولوجية معينة ، بينما الدبلوماسية تكتيك يسعى الى تحقيق اهداف تلك السياسة ، فهي تتقدم عندما يتطلب التقدم ، وتتراجع عندما يستدعي التراجع ، وقد تتخذ موقفا وسطا بين هذا وذاك . وقبل التعرض للدبلوماسية لابد من تحديد ابعاد السياسة الخارجية ومراميها . وهذا لا يأتي الا بدراسة الاوضاع الداخلية للبلد الذي يتبنى تلك السياسة . فالسياسة الخارجية انعكاس للتركيب الاقتصادي ـ الاجتماعي للمجتمع المعين وللقوى صاحبة الشأن فيه . ولكن هذا لا يعني انها انعكاس آلي جامد ، بل ان تلك الاوضاع هي اساسها المتين . فالسياسة الخارجية هي برنامج الطبقة الحاكمة في علاقاتها بالعالم . ومن اجل فهم هذا التصور نحتاج الى تحليل الطبقة المسيطرة . ان دراسة السياسة الخارجية بدون تحديد ذلك الاطار الداخلي تقود الى خلط وابهام حول مرامي تلك السياسة . ام هل نعتقد أن السياسة الخارجية لا علاقة لها بالبنية الاقتصادية ـ الاجتماعية ، او ان لها علاقة واهية ؟ اذا كان الامر كذلك فما الذي يحدد اتجاهات السياسة الخارجية ؟

تفهم السياسة الخارجية البريطانية من تحليل النظام الرأسمالي وتطوره . لقد مر النظام الرأسمالي في بريطانيا ـ واوروبا عامة ـ في القرن التاسع عشر بمرحلتين من التطور . المرحلة الاولى مرحلة المنافسة الحرة السلمية في الاسواق المحلية والعالمية . وهي المرحلة التي تميزت بتصدير فائض الانتاج السلعي الى اسواق العالم . وقد شهدت افريقيا في هذه الفترة مجيء العشرات من المغامرين المكتشفين والمبشرين والتجار والقناصل التجاريين من مختلف البلاد الاوروبية . كانوا يفتحون اسواقا جديدة لبضائعهم ويتعرفون على احوال القارة وامكانياتها.[٣٩] ومنذ سبعينيات القرن بدأت المرحلة الثانية ، وهي مرحلة الاحتكار وتصدير رأس المال المالي بدلا من السلع . وتميزت هذه المرحلة بالمنافسة المستعرة للحصول على المستعمرات وتهيئتها لاستقبال رأس المال المالي حتى يحقق أعلى درجات الربح . وفي كل من المرحلتين تحددت ابعاد معينة للسياسة الخارجية التي حكمت نشاط بريطانيا ، والدول الاوروبية عامة.[٤٠] وفي كلا المرحلتين ايضا تحددت ابعاد تلك السياسة باقل خسائر والى ابعد مدى . في هذا الاطار ، أو أي اطار آخر نصل اليه من تحليل المجتمع الرأسمالي ، يمكن دراسة الوثائق والتحكم فيها والاسترشاد بها ، لا ان تصبح هادينا وقائدنا ومنطلقنا ومنتهانا .

ولعل كتاب «السياسة البريطانية في السودان : ١٨٨٢ ـ ١٩٠٢» للبروفسير مكي شبيكة من اهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع.[٤١] وهو رصد محكم للوثائق البريطانية الخاصة بالسودان والرسائل الخاصة بالحكام البريطانيين . وقد كتب باهتمام فائق وتحتاج دراسته الى جهد . ويتناول الكتاب في فصوله الخمسة عشر مختلف جوانب النشاط البريطاني تجاه السودان حتى انتهى بغزوه وحكمه باتفاق بينها وبين مصر .

يبدأ الكتاب بعام ١٨٨٢ الذي يشكل بداية مرحلة جديدة وهامة بالنسبة لبريطانيا في وادي النيل . فقد تم في ذلك العام احتلال مصر عسكريا ، وبذلك تحقق واحد من اهداف السياسة البريطانية . ولكن الحفاظ على ذلك الانتصار يحتاج الى دبلوماسية مرنة . فأعلنت بريطانيا ان الاحتلال مؤقت حتى تهدأ المعارضة الاوروبية ولا تنهض لتتجمع ضدها كما فعلت مع نابليون بونابرت من قبل . وتشكل مصر قاعدة استعمارية بالغة الاهمية ، فسعت بريطانيا جاهدة للحفاظ عليها . فكيف لها ان تتدخل في السودان وهي التي اعلنت ان بقاءها في مصر مؤقت ؟ فمن اجل ابقاء المسألة المصرية ساكنة كان لابد من انتهاج دبلوماسية مرنة تجاه السودان . الأساس الثاني لتلك الدبلوماسية هو الثورة المهدية . تهدف السياسة البريطانية الى احتلال السودان كقاعدة استعمارية جديدة . ولكن غزو السودان في ذلك الحين ليس بالامر الهين والبلاد تجتاحها ثورة يقودها رجل صوفي استطاع توحيد اشتات المجتمع تحت راية المهدي المنتظر . فاذا كان لبريطانيا ان تخوض حربا في السودان فهناك احتمال الهزيمة أو الانتصار بثمن باهظ . وكيف لها اذا انتصرت ان تحقق استقرارا على انقاض ثورة شعبية لها توجهاتها الدينية ، وفي بلد شاسع مترامي الاطراف ؟ فما كان لها الا اتباع دبلوماسية مرنة تضمن تواجدها في السودان وتنأى بها عن مشاكله في تلك المرحلة . لقد تداخل امر السياسة والدبلوماسية تداخلا كبيرا ولكن الفصل بينهما ليس بالامر العسير . فهدف السياسة البريطانية هو احتلال السودان، وهدف الدبلوماسية هو تحقيق هذا الهدف بافضل الوسائل .

ان كتاب «السياسة البريطانية» دراسة للدبلوماسية البريطانية في السودان . فحملة

هكس وسياسة الاخلاء ومهمة غردون كلها معارك دبلوماسية . انها تحركات دبلوماسية تسعى للتدخل في شؤون السودان دون ان يكون ذلك التدخل متعارضا مع اعلانها السابق باحتلالها المؤقت لمصر و ولذلك اتسمت تلك التحركات بالتناقض والتعارض وهو سمة النشاط الدبلوماسي . اما السياسة فبقيت كما هي . ويتناول الكتاب جوانب اساسية في السياسة البريطانية . فالتدخل العسكري في شرق السودان ، وحملة الغزو التي ارسلت عام ١٨٩٦ تشكل خطا ثابتا للسياسة البريطانية . ويتناول الكتاب مهمة غردون في السودان في اربعة فصول من فصوله العشرة . وهذا لعمري احدث خللا في توازن الكتاب . فكيف يخصص ما يقرب من نصفه لدراسة غردون في السودان ، وهو الذي امضى عاما واحدا في البلاد ، ولم تكن مهمته الا جانبا واحدا من جوانب الدبلوماسية البريطانية ؟ وتتصدر الكتاب مقدمة عن تاريخ السودان منذ اقدم العصور حتى عام ١٨٨١، وهي مقدمة بلا جدوى وبعيدة عن افق الدراسة . ويليها فصل عن الثورة المهدية هو ايضا خارج عن دائرة الدراسة . اما دراسة السياسة البريطانية الاستعمارية ومنابعها فلا تجد مكانا في ذلك الحشد من الاحداث والتفاصيل الدقيقة والتي لا يخلو سردها من رتابة . ويجد الكاتب نفسه احيانا في حيرة امام بعض التحركات الدبلوماسية . فاستدعاء الحكمدار عبدالقادر باشا حلمي من السودان سيظل لغزا . لماذا ؟ انه حدث دبلوماسي لخدمة اهداف السياسة البريطانية ، وهو ينسجم مع بعثة استيوارت.[٤٢]

ولنأخذ دراسة اخرى هي كتاب البروفسير ساندرسون عن : «انجلترا واوروبا في اعالي النيل : ١٨٨٢ ـ ١٨٩٩»[٤٣] .. يعالج الكتاب الدبلوماسية البريطانية باستفاضة في هذه الفترة التي شهدت صراعا حادا بين الدول الاوروبية حول المستعمرات ، وكيف تشابكت الدبلوماسية البريطانية مع دبلوماسية الدول الاوروبية الاخرى في منطقة من اكثر المناطق حساسية في تاريخ الصراع الاستعماري . ولكن الكتاب ـ بجانب ادائه الاكاديمي الرفيع ـ يعالج تلك الدبلوماسية بمعزل عن الاتجاهات العامة للسياسة الامبريالية في تلك الفترة ، وبمعزل عن تحليل النظام الرأسمالي ذاته . ما الذي يحرك تلك الدبلوماسية ، وما هي اهدافها الخفية وما هي منطلقاتها ومراميها ؟ وكيف يمكن فهم الدبلوماسية في صعودهاوهبوطها وما قد يفرزه ذلك التأرجح من تناقضات دون أن نضع اصبعنا على المواطن الذي خرجت منه . ان وثائق وزارة الخارجية وزارة المستعمرات ومراسلات الساسة لن تكون مرشدا حقيقيا في الدراسة التاريخية ما لم توضع في اطار التركيب الاجتماعي الذي افرزها . اما خارج ذلك الاطار فهي تيارات متشابكة وتفاصيل قد لا تقربنا الى قرار بل هي حشد لا نملك القدرة على فرز الاساسي منه عن الثانوي .

وهناك دراسة جديدة بعنوان : «امبراطورية على النيل : السودان الانجليزي ـ المصري : ١٨٩٩ ـ ١٩٣٤» للبروفسير مارتن دالي[٤٤] والكتاب عرض سلس وجذاب للسياسة البريطانية في السودان من خلال دراسة خمسة من حكام السودان من البريطانيين . مما يجعل منه مرجعا اساسيا لدراسة هذه الفترة . ولكن اعتماد الدراسة على الوثائق الاستعمارية فقط قصر بها عن رؤية جوانب اخرى من هذه السياسة . وتتفق الدراسة مع الدراستين السابقتين في عدم تحليل السياسة الامبريالية ذاتها ، مما جعلها محصورة في تحليل سياسات الحكام البريطانيين في اطار سياسة استعمارية كأنها امر مقبول وقدر لا مفر منه . ولم يعد الامر المهم الصراع بين الشعب السوداني والاستعمار البريطاني ، وانما صراعات بين الحكام البريطانيين انفسهم حول تقديراتهم الذاتية للاشياء وحول ما يحبون وما يكرهون ، انها خلافات داخل البيت الواحد .

هذه ثلاثة نماذج مختلفة . فقد كتبت في ازمان مختلفة ، والعلماء الذين قاموا بها من اجناس مختلفة : السودان ـ انجلترا ـ امريكا . ولكن مدخلهم الى دراسة التاريخ واحد ، ومنهجهم واحد ، ولكن اداءهم متفاوت . فالمدرسة التاريخية السودانية موقف ايديولوجي واحد رغم تباعد الزمن واختلاف الاجناس .

(٤) خاتمــــة

لاتطمح هذه الدراسة في تقصي كل جوانب المدرسة التاريخية السودانية . بل غاية طموحها ان يكون في هذه النماذج مؤشرات توضح منهج هذه المدرسة وايديولوجيتها . ولا تستطيع هذه الدراسة بالضرورة ان تطرح البديل الجديد في دراسة التاريخ طرحا مستـوفيا . فـالمدرسـة التاريخية السودانية التي تناولنا منهجها ظلت تنتج قرابة نصف قرن ، وتمتلك كل الادوات التي تمكنها من ذلك الانتاج ونشره وتوجيهه .

فهل بمقدور دراسة كهذه ان تقدم البديل لكل ذلك الانتاج في هذا الحيـز المحدود مسـاحة وزمنا ، ام تسعى لفتح منفذ لتبادل الرأي وتحديد مؤشرات علهـا تساعـد البحث التاريخي مستقبلا ؟

(ا) هوامش البحث

(١) محمود امين العالم ، «ازمة الثقافة والمثقفين العرب» جريدة ١٤ اكتوبر . الاعداد : ٢٩/١١/٨٣، ٦/١٢/٨٣، ١٣/١٢/٨٣ .

(٢) حسين مروة ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية (بيروت، ١٩٧٩) الجزء الاول، ص٤٠ .

(٣) محمود امين العالم «الايديولوجية والاعلام» . اليسار العربي ، العدد ٤١، مارس ١٩٨٢، ص٢٤ ـ ٢٧ .

(٤) مروة ، ص٦ ـ ٨ وقد اخذنا بعض جوانب هذا النص بتصرف مع المحافظة على جوهره .

(٥) غالي شكري : النهضة والسقوط في الفكر المصري المعاصر (بيروت، ١٩٧٨) ص٢٩ .

(٦) من ابرز ممثلي هذا الاتجاه المؤرخ محمد عبدالرحيم . ومقالات مجلة الفجر لمحررها عرفات محمد عبدالله . وهناك ايضا بعض اشعار التجاني يوسف بشير .

(٧) اتجهت الجهود في البداية نحو دراسة تاريخ المهدية دراسة اقليمية تستوفي كل وثائقها . ثم انتقلت الى دراسة فترة الاستعمار البريطاني . ويمكن الرجوع الى قائمة البحوث بمكتبة السودان بجامعة الخرطوم للوقوف على تلك الاطروحات .

(٨) البروفسير ب.م هولت كان حتى عام ١٩٨٤ استاذا لكرسي تاريخ الشرق الاوسط بجامعة لندن . وله عدة مؤلفات ودراسات عن تاريخ السودان . وقد أسس دار الوثائق المركزية وكان أول مدير لها . اما البروفسير رتشارد هل فكان قبل تقاعده استاذا للتاريخ بجامعة درام . وعمل جاهدا على تأسيس مركز هام للوثائق السودانية هناك . والف كثيرا في تاريخ السودان بالذات في فترة الحكم العثماني المصري . وكان محاضرا بجامعة الخرطوم . اما البروفسير ن.ساندرسون فكان استاذا للتاريخ بجامعة لندن . وله ايضا عدة مؤلفات . وعمل محاضرا بجامعة الخرطوم . وكان أول مدير لشعبة ابحاث السودان التي تحولت الى معهد الدراسات الافريقية والآسيوية .

(٩) الحاج حمد محمد خير وميمونة ميرغني حمزة ، «الدراسات الاكاديمية والثورة المهدية»، دراسات في تاريخ المهدية (الخرطوم ١٩٨٢) ص٩٩ وما بعدها .

(١٠) YOUSIF FADL HASSAN. SOME ASPECTS OF THE WRITING OF HISTORY IN MODERN SUDAN. KHARTOUM. 1987 P29

(١١) حسن عابدين «خواطر وآراء حول كتابة تاريخ السودان»، بحث مقدم للمؤتمر القومي للتخطيط الثقافي الشامل . الخرطوم ١٩٧٩ .

(١٢) يوسف فضل ، جوانب ، ص٢٩ .

(١٣) صدر كتاب السودان في قرن في ظل الاستعمار البريطاني . فكان انجازا رائدا في مجال تاريخ السودان . ثم صدر عام ١٩٦٤ باسم السودان عبر القرون . وتتابعت طبعاته بعد ذلك .

(١٤) محمد ابراهيم ابوسليم . مكي الطيب شبيكة : ١٩٠٥ ـ ١٩٨٠ (دراسة قدمت في حفل تأبين البروفسير شبيكة . الخرطوم ١٩٨٠) . ص٢٥ ـ ٢٦، ٢٨ ـ ٣٩ .

(١٥) صلاح عيسى . البرجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة (بيروت، ١٩٨٤) ص٩٠ .

(١٦) تقرير الحاكم العام لعام ١٩٠٢، ص٥١ .

(١٧) ALI IBRAHIM, SUDANESE HISTORIOGRAPHY AND ORAL TRADITION A PAPER PRESENTED AT I.A.A.S. KHARTOUM, 1978, PAGE 1.

(١٨) راجع مقدمة صلاح عيسى لكتاب : ريتشارد ميتشل ، الاخوان المسلمون (بيروت، ١٩٧٨) ص٧٠ .

(١٩) حسين مروة ، النزعات ، ص ٦ ـ ١٧ .

(٢٠) رفعت السعيد ، كتابات في التاريخ (القاهرة ، ١٩٨٠) ص٧، ١٥ ـ ١٨ .

(٢١) صلاح عيسى ، البرجوازية ، ص٦٢ .

(٢٢) محمد سعيد القدال ، «الدراسات التاريخية العليا : بعض الملاحظات عن الحاضر والمستقبل» ، ندوة الدراسات العليا في الجامعات العربية (الخرطوم ١٩٨٣) ص١ .

(٢٣) حسين مروة ، النزعات ، ص٢٦ .

(٢٤) جون لويس ، ماركس والتاريخ (ترجمة محمد سعيد القدال بالآلة الكاتبة ، الخرطوم ١٩٨٢ ص١٢١ حاشية٦ .

(٢٥) حسين مروة ، النزعات ، ص٤٤ .

(٢٦) صلاح عيسى ، البرجوازية ، ص١٠١ .

(٢٧) جون لويس ، ماركس ، ص٥

(٢٨) راجع على سبيل المثال :

مكي شبيكة ، السودان عبر القرون (بيروت ، ١٩٦٥) وكذلك اطروحات الدكتوراه التي قدمت لجامعة الخرطوم مثل : محمد الامين سعيد (١٩٧٦)، بشير كوكو حميدة (١٩٧٧)، عوض عبدالهادي العطا (١٩٧٨) .

(٢٩) راجع على سبيل المثال الكتب التي نشرتها جامعة الخرطوم وهي :

ـ موسى المبارك الحسن ، تاريخ دارفور السياسي (بدون تاريخ) .

ـ محمد سعيد القدال ، المهدية والحبشة (١٩٧٣) .

راجع رسائل الماجستير بمكتبة السودان : جامعة الخرطوم عن الجزيرة ، بربر.. الخ .

(٣٠) راجع :

P.M. HOLT AND M.W. DALY, THE HISTORY OF THE SUDAN, (1979). GABRIEL WARBURG, THE SUDAN UNDER WINGATE LEIDEN, 1979.

(٣١) نشير هنا الى الدراسات الاساسية التالية :

YOUSIF FADL HASSAN, THE ARABS AND THE SUDAN (KHARTOUM, 1973).

مصطفى سعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٠) والى اطروحة الحاج حمد محمد خير لنيل درجة الدكتوراه (١٩٨٤) واطروحة عبدالسلام سيد احمد للماجستير ١٩٨٣ من جامعة الخرطوم .

(٣٢) راجع مقدمة البروفسير يوسف فضل لتحقيقه القيم لكتاب الطبقات (الخرطوم، ١٩٨٠) ص٨ ـ ٩ .

(٣٣) جون لويس ، ص٦

(٣٤) فردريك انجلز ، اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (موسكو ، ١٩٧٥) ص٢٣١ .

(٣٥) محمد ابراهيم ابوسليم ، الفور والارض ، وثائق تمليك (الخرطوم ١٩٧٥) .

R.S. O'FAHEY AND M. I. ABU SALAM. LAND IN DAR FUR CAMBRIDGE, 1983.

(٣٦) شبيكة ، عبر القرون ، ص٨٠

RICHARD HILL, EGYPT IN THE SUDAN : 1820 — 1881 OXFORD, 1959, P. 7 — 8

حسن احمد ابراهيم ، محمد علي في السودان (الخرطوم بدون تاريخ)

(٣٧) شبيكة ، عبر القرون، ص٢٢٦ .
ضرار صالح ضرار ، تاريخ السودان الحديث (بيروت ١٩٦٨) ص١١٩ ـ ١٢٢ .
حسن احمد ابراهيم ، تاريخ السودان الحديث (الخرطوم ١٩٧٩) ص٥١ ـ ٥٢ .
(٣٨) تناولت الثورة المهدية في بعض دراساتي وهي :
«الرؤيا الثورية في فكر المهدي» ، دراسات في تاريخ المهدية (الخرطوم ١٩٨٣) .
ـ السياسة الاقتصادية للدولة المهدية (جامعة الخرطوم ١٩٨٦).
ـ الامام المهدي : لوحة لثائر سوداني (جامعة الخرطوم ١٩٨٥) .
(٣٩) PAUL SATI AND RICHARD HILL : THE EUROPEAN IN THE SUDAN : 1834 — 1818 OXFORD, 1980.

يقدم هذا الكتاب نماذج اولئك الاوروبيين .
(٤٠) تناولت عدد من الدراسات تحليل المجتمع الرأسمالي ويمكن الرجوع الى :
ـ ق.آ.لينين . الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية (موسكو ، ١٩٧٤) .
ـ مكرم سعد . الدولار يحكم بريطانيا (القاهرة ١٩٥٥) .
(٤١) MEKKI SHIBEIKA. BRITISH POLICY IN THE SUDAN : 1882 — 1902 LONDON, 1952.

(٤٢) المصدر السابق ، ص٧٨.
ارسلت بريطانيا الكولونيل استيوارت الى السودان عام ١٨٨٢ وذلك مباشرة بعد احتلالها لمصر . واوكلت اليه مهمة دراسة احوال السودان وتقديم تقرير عنه . وكان هذا بداية التدخل البريطاني الفعلي في السودان .

مشكلة المضايق بعد الحرب العالمية الأولى

د.نوري عبدالبخيت السامرائي
كلية الآداب/ جامعة بغداد

نصت معاهدة لندن السرية لعام ١٩١٥ على أن تكون المضايق واستانبول من نصيب روسيا القيصرية اذا ما انتهت الحرب بتحطيم المانيا ونجاح الخطط الانكليزية والفرنسية . إلا أن وزير خارجية روسيا «سوزانوف» كان يشك في امكانية تطبيق ذلك . اذ قال : انه ليس لديه أي شك في أن المضايق واستانبول سوف لا يحتلها الجيش الروسي . ولم يتمكن من اخفاء معارضته وامتعاضه عندما أخبره سفير انكلترا وسفير فرنسا في العاصمة بتروغراد عن بدء حملة الدردنيل في ١٩ شباط عام ١٩١٥ اذ قال : لقد بدأت هذه العملية دون رغبتي[١] .

لقد اتضح للحلفاء بعد انتهاء الحرب صعوبة تنفيذ خططهم لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، خاصة وأن السلام الذي تم بموجب هدنة مدروسة في ٣٠ تشرين الأول عام ١٩١٨ كان فيه شيء من التساهل والعطف تجاه تركيا . على أن سفن الحلفاء الحربية دخلت الدردنيل وبحر مرمرة والبسفور . كما وصلت قواتهم البرية الى منطقة المضايق . أما حكومة تركيا الفتاة التي اختفى معظم زعمائها خارج الحدود فقد كانت على استعداد للاتفاق مع الحلفاء على أي شكل من اشكال السلام في الوقت الذي نشبت فيه ثورة قومية في الاناضول وظلت تكافح ضد الحلفاء حتى عام ١٩٢٢ مما كان له دور واضح في عرقلة تنفيذ خطط الحلفاء بشأن استانبول والمضايق .. ومما ساعد على ذلك قيام السلطة السوفييتية في روسيا اذ أخذ دورها يتعاظم ويؤثر تأثيرا قويا على تنفيذ سياسة الحلفاء .

كانت مشكلة المضايق احدى المشاكل الصعبة التي جابهت مؤتمر الصلح في باريس منذ انعقاده في عام ١٩١٩ . ذلك المؤتمر الذي لم يكن للوفد التركي أي أثر فيه . وكانت لجنة الاربعة الكبار التي تضم كلا من لويد جورج وكليمنصو وولسن واورلندو هي المسيطر الفعلي عليه . وكان أول مشروع تقدم به لويد جورج الى لجنة الاربعة حول هذه المشكلة هو منح اليونان الاشراف على البسفور والدردنيل لأنها ليست تلك الدولة البحرية القوية التي تتمكن من اغلاق المضايق في وجه أي دولة اخرى[٢] . وذلك ما يلائم انكلترا وفرنسا . لكن اقتراح لويد جورج هذا جوبه بمقاومة عنيفة من جانب ايطاليا وفرنسا لأن انفراد اليونان في السيطرة على المضايق تعني سيطرة انكلترا على المنطقة لوقوع اليونان تحت التأثير البريطاني في تلك المرحلة .

بعد ذلك تقدم لويد جورج في ٢١ مايس ١٩١٩ باقتراح آخر الى لجنة الاربعة بانتداب الولايات المتحدة الامريكية على استانبول والمضايق مع ارمينيا والاناضول وارمينيا الروسية واذربيجان وجميع مناطق القفقاس حتى يتم تقرير مصير روسيا[٣] . وكان لويد جورج يستهدف من توسيع الانتداب الامريكي بشموله هذه الاجزاء من الامبراطورية العثمانية والقفقاس وارمينيا ، أن يضع الولايات المتحدة الامريكية على خط المجابهة المتقدم ضد روسيا السوفييتية .. وهكذا لم تعرقل حدة الصراع الانكليزي ـ الامريكي والتناقضات الحادة بينهما محاولات الحكومة البريطانية والحاحها على

مساهمة الولايات المتحدة في تنفيذ خطط تقسيم الامبراطورية العثمانية وقبولها الانتداب ، ذلك أن انكلترا لا تملك القدرات المادية والعسكرية التي تؤهلها تحقيق الاستقرار في مناطق النفوذ التي اقترحها مجلس الاربعة الكبار . فقد أعلن أحد النواب في مجلس العموم البريطاني في ١٩١٩/١١/٢٧ قائلا : ان مجموع النفقات اليومية للجيش البريطاني المتواجد على سواحل البسفور والدردنيل تساوي ٢٤ ألف جنيه استرليني[٤].

لكن الرئيس ولسن رغم تأييده الانتداب الامريكي من حيث المبدأ ، لم يؤيد اقتراح لويد جورج بهذا الشأن . ووعد بدراسته بعد حصوله على موافقة الكونجرس الامريكي[٥] . وربما يفسر رفض الرئيس الامريكي اقتراح لويد جورج هذا بسبب تهديد الرئيس كليمنصو بترك المؤتمر اذا لم تمنح فرنسا حق الانتداب على آسيا الصغرى . كما اتضح اتفاق فرنسا وايطاليا لاحباط ذلك المشروع[٦] . وفي الواقع فان أهداف لويد جورج من اقتراحه اضافة الى السبب الاساسي المذكور أعلاه ، هو أن يزيد من شدة الخلافات بين ايطاليا وفرنسا من جهة والولايات المتحدة الامريكية من جهة اخرى باعتبارهم المنافسين لانكلترا في الصراع من أجل السيطرة على الممتلكات العثمانية وهذا مما عقد الوضع داخل المؤتمر وخاصة بعد أن رفض مجلس الاربعة الكبار اقتراح لويد جورج .

وكانت لجنة كنك كريين التي زارت كلا من بلاد الشام واستانبول وآسيا الصغرى وأرمينيا قدمت اقتراحاتها الى مؤتمر الصلح في باريس في ٢٨ حزيران عام ١٩١٩ وقد جاء فيها : قيام دولة أرمنية مستقلة ، بشرط أن تكون تلك الدولة تحت الانتداب لفترة زمنية طويلة حتى يصبح شعب تلك الدولة قادرا على تسيير اموره بنفسه . وتقترح اللجنة أن تكون الدولة المنتدبة هي الولايات المتحدة الامريكية . وقد قوبل هذا الاقتراح بالاستحسان من جانب الحلفاء ، حتى ان تركيا وان لم تعترف او تفكر بايجاد دولة أرمنية رأت أن الانتداب الامريكي هو الملائم لأرمينيا في حالة قيام تلك الدولة . أما بالنسبة لاستانبول والمضايق فنظرا لما تتمتع به من أهمية كبرى فلا يمكن أن تترك هذه الممرات لتتحكم في فتحها واغلاقها دولة واحدة ، بل يجب خضوعها للاشراف الدولي[٧] وأن تقام هناك دولة نفوسها مليونا نسمة تحت انتداب الولايات المتحدة باعتبارها أقوى الدول وتستطيع مقاومة أي محاولة للسيطرة على المضايق تقوم بها دولة اخرى[٨] . كما أوصت اللجنة اخضاع آسيا الصغرى - بنفوسها البالغة عشرة ملايين نسمة - للانتداب الامريكي بناء على رغبة الشعب التركي حسب ادعاء اللجنة[٩] . واقترحت مشروع قيام دولة واحدة تضم كلا من ارمينيا وآسيا الصغرى واستانبول والمضايق وأن تكون تلك الدولة تحت الانتداب الامريكي أيضا[١٠] . لكن جوفيز مساعد الرئيس ولسن في مؤتمر الصلح صرح في الأول من حزيران عام ١٩١٩ برفضه القاطع لمشروع الانتداب الامريكي على ارمينيا ، لكنه اردف قائلا : ان هذا يمكن أن يكون شيئا مقبولا اذا شمل مشروع الانتداب الامريكي العراق اضافة الى ارمينيا . وأعلن اسباب رفضه للانتداب على أرمينيا لأن ذلك سيكلف الحكومة الامريكية سنويا ١٠٠ ألف دولار مع الاحتفاظ بجيش امريكي هناك يتراوح عدده ما بين ٥٠ - ١٠٠ ألف جندي . وقال ان الانتداب الذي يكلف هذا المبلغ يمكن أن يكون مقبولا فيما اذا كان على منطقة غنية كالعراق مثلا[١١]. ولم تقتصر طموحات الولايات المتحدة في السيطرة على العراق فقط بل استهدفت بلاد الشام وشبه جزيرة البلقان ايضا . فقبل افتتاح مؤتمر الصلح في باريس وفي اثناء المحادثات الانكليزية - الامريكية في لندن في كانون الاول عام ١٩١٨ اعتبرت مسألة الانتداب الامريكي على المضايق واستانبول وارمينيا مرتبطة باقرار الانتداب الامريكي على مكدونيا[١٢]. وفي ٢٤ مارس عام ١٩١٩ أعلن أحد اعضاء الوفد الامريكي المدعو مايلس في مؤتمر الصلح بعد قيامه برحلة في الجبل الاسود : لا يمكن أن يستقر الامن والنظام في البانيا دون استلامها الدعم والمساعدة والحماية من احدى الدول الكبرى . لذلك يرى ان تكون البانيا دولة مستقلة لكنها تحتاج للحماية الانكليزية أو الامريكية[١٣] .

الا أن الولايات المتحدة لم تتمكن من تحقيق طموحاتها في السيطرة على المناطق الغنية والمهمة من الامبراطورية العثمانية بسبب المواقف المتشددة التي اتخذتها كل من انكلترا وفرنسا وايطاليا في الوقت الذي وافقت فيه على اقرار مشروع الانتداب الامريكي على المضايق وارمينيا ، على أساس أن تطبيق الانتداب على تلك المناطق يتطلب جهدا كبيرا في سبيل تحقيق الاستقرار وربما اللجوء الى الحرب في بعض الاحيان وأن هذه الامور لم تكن سهلة . لذلك اقتنع الانكليز والفرنسيون والايطاليون أن الولايات المتحدة الامريكية هي الدولة القادرة

لوجدها على القيام بدور المحارب والمساعد على تحقيق الاستقرار في هذه المناطق من الامبراطورية العثمانية . وبعد أن تستقر الاوضاع هناك عندها يمكن اعادة النظر في تقسيم تلك المناطق . لقد ظهرت هذه الافكار بصورة واضحة في التعليقات التي بعث بها مراسل صحيفة التايمس اللندنية في استانبول والتي جاء فيها : ارتفعت بعض الاصوات الداعية الى ارسال قوات الى الشرق الاوسط من الدول الحليفة وعلى العكس فليس هناك الاستعداد لدى تلك الدول للقيام بتلك المهمة فكل منها يحاول وبكل سرعة سحب جيوشه من ساحة الحرب ويريد حل تلك المشاكل بأقل جهد عسكري[١٤] . وأعلن المستر شرشل أن بلاده حتى كانون الثاني عام ١٩١٩ لازالت تحتفظ بحوالي ثلاثة ملايين جندي معظمهم على الاراضي الاجنبية .. وحتى منتصف صيف عام ١٩١٩ من المفروض أن لا يكون لدى الحكومة البريطانية مثل هذا العدد من الجند اذا لم تكن هناك حاجة ماسة في ارسال جيش بريطاني الى مناطق اخرى خارج الجزر البريطانية ، خاصة وأن بعض الشعوب أخذت تنظر الى بريطانيا بشيء من الحقد[١٥] . وهكذا فقد علق المستر شرشل الآمال على الجيش الامريكي في حالة القيام بأعمال عسكرية جديدة في الشرق الاوسط . وعلى هذا الاساس جاء اقتراح لويد جورج بترشيح الولايات المتحدة للانتداب على ارمينيا لأنه يتطلب ارسال ما لايقل عن ٢٠٠ ألف جندي امريكي الى هناك[١٦] . وأعلن الجنرال الامريكي بليس : أن الجيش الامريكي في الوقت الحاضر هو الوحيد الذي يملك الاستعداد للقتال واذا تجددت الحرب فسيقع العبء الاكبر عليه[١٧] . ولكن كلما ضعف احتمال الاعتماد على الجيش الامريكي وعدم الاستفادة منه كلما اشتدت معارضة كل من لويد جورج وكليمنصو واورلندو لطموحات الولايات المتحدة في السيطرة على الاجزاء الغنية من الامبراطورية العثمانية . فبعد استسلام المانيا نظرت كل من انكلترا وفرنسا الى الجيش الامريكي كجيش مهم وأساسي في الكفاح من أجل تثبيت مركز الحلفاء في الشرق الاوسط وفي الكفاح ضد السلطة السوفييتية . اذ كان الحلفاء بحاجة الى مئات الآلاف من الجنود الامريكان ، فقد أعلن مراسل صحيفة التايمس اللندنية في باريس : أن تطبيق نظام الانتداب على استانبول والاناضول وارمينيا يتطلب تقريبا ربع مليون جندي من الامريكان ويمثل هذا العدد الضخم عبئا كبيرا من الناحية الاقتصادية والسياسية[١٨] . وهذا مما جعل الرأسمالية الامريكية ترفض مشروع الانتداب الامريكي على هذه المناطق الواسعة والساخنة في الشرق الاوسط ، خاصة وان الرئيس ولسن قد أوضح أن قبول الانتداب يتطلب ارسال الجيش الامريكي الى تلك المناطق لتثبيت الانتداب عليها . لذلك فانه لم يقر قبول مشاريع الانتداب، بل أجل ذلك الى حين حصوله على موافقة الكونغرس الامريكي . فلم يعط وعدا قاطعا بقبوله وهذا مما أدى الى تعقيدات الموقف داخل مؤتمر الصلح خاصة بالنسبة لتوقيع معاهدة السلام مع تركيا .

وقبل مغادرة الرئيس ولسن باريس تم اتفاقه مع كل من لويد جورج وكليمنصو واورلندو في ٢٧ حزيران ١٩١٩ على تأجيل التوقيع على معاهدة الصلح مع تركيا حتى يتم القرار النهائي للحكومة الامريكية حول قبولها أو رفضها المساهمة في الانتداب على بعض مناطق الامبراطورية العثمانية[١٩] . وفي ٩ تشرين الثاني ١٩١٩ غادر الوفد الامريكي باريس متوجها الى بلاده وعلى رأسه الرئيس ولسن ولم يبق في مؤتمر الصلح الا السفير الامريكي في باريس والذي أعلن : ان وجوده في المؤتمر كمراقب لم تخوله حكومته بالمساهمة في مناقشات المؤتمر[٢٠] .

وقد اتضح بعد مغادرة الرئيس ولسن باريس أن تحفظاته حول قبول مشاريع الانتداب كانت على درجة كبيرة من الصحة . اذ رفض الكونجرس الامريكي التصديق على بنود معاهدة الصلح وجميع ملحقاتها خاصة مشاريع الانتداب[٢١] . فقد جوبهت مشاريع الانتداب الامريكي على بعض المناطق العثمانية بمعارضة شديدة من جانب اعضاء الكونجرس على اساس ان الفائدة الكبرى من حصيلة النصر على المانيا وحلفائها كانت من نصيب انكلترا وفرنسا بعد حصولهما على المناطق الغنية من الممتلكات العثمانية ، بينما أرادوا للولايات المتحدة أن تكون الدولة المنتدبة على تلك المناطق الفقيرة والقليلة الاهمية من الامبراطورية العثمانية كآسيا الصغرى وارمينيا[٢٢] . وأن التسليم بقبول الانتداب الامريكي على آسيا الصغرى يكلف الشعب الامريكي تضحيات جسيمة ، فقد أعلن عضو الكونجرس سميث في ٣ تشرين الثاني عام ١٩١٩ : ذكر خبراؤنا العسكريون الذين درسوا الموقف العسكري في آسيا الصغرى بأن الحاجة تقتضي ارسال ٢٥٠ ألف مقاتل الى آسيا الصغرى ولا يمكن تحقيق الاستقرار هناك الا بعد فترة زمنية تقدر بعشر سنوات على أقل التقديرات

وتحتاج هذه الفترة الى نفقات باهظة تقدر بمليار دولار في السنة .

فهل الشعب الامريكي على استعداد لقبول مثل هذه التضحيات ؟[٢٣] وأعلن امام الكونجرس في ٧ كانون الأول عام ١٩١٩ قائلا : إن تثبيت نظام الانتداب على أي جزء من آسيا الصغرى يحتاج الى ١٠٠ ألف جندي لمدة عشر سنوات ، أما اخضاع كل آسيا الصغرى للانتداب فيحتاج ذلك حسب تقارير خبرائنا العسكريين الى ٢٥٠ الف جندي ، وربما يتحطم هذا الجيش ولا نعلم ما نحتاج اليه بعد ذلك من جيوش واموال . ثم انهى خطابه بمعارضته الشديدة لمشروع الانتداب الامريكي على آسيا الصغرى والمضايق وارمينيا وقال : اذا ارسلنا ٢٥٠ الف جندي الى آسيا الصغرى فبعد فترة زمنية يتحتم علينا ارسال ٢٥٠ الف اخرى بعد أن تتم ابادة الدفعة الاولى[٢٤] .

وفي اجتماع الكونجرس الامريكي في ١١ تشرين الثاني عام ١٩١٩ خطب السناتور رج معارضا قبول مشروع الانتداب الامريكي على آسيا الصغرى حيث قال : يعني مشروع الانتداب الاحتلال العسكري لآسيا الصغرى . ويحتاج ذلك الى جيش كبير لكي يتم احكام السيطرة عليها . وفي هذه الحالة نحتاج الى نصف مليون جندي والى مليون كاحتياط لاستعباد شعوب تلك المناطق[٢٥] . وهناك عدد آخر من أعضاء الكونجرس أعلنوا سخطهم على انكلترا اضافة الى معارضتهم مشروع الانتداب الامريكي على تلك المناطق من الامبراطورية العثمانية ، وكانت وجهة نظرهم أن انكلترا سيطرت على المناطق الغنية من الممتلكات العثمانية ولم يبق للولايات المتحدة الا الاجزاء غير المهمة «البقايا» . وكشف أحد اعضاء الكونجرس في جلسة ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩ امام الكونجرس خارطة الاقاليم التي سيطرت عليها انكلترا نتيجة للحرب ، فذكر احتلالها مصر والعراق وفلسطين وافغانستان وفارس واقاليم آسيوية اخرى وان الهدف من وراء معاهدة باريس من ناحية واقعية هو تثبيت حدود الامبراطورية البريطانية ، وأن يوضع على كاهل الولايات المتحدة مهمة حماية تلك الحدود من الاعتداءات الخارجية والاخطار الداخلية تحت شعار عصبة الامم[٢٦] . ثم استطرد في خطابه قائلا : انتهت الحرب وخسرنا ربع مليون قتيل وبلغ حجم النفقات العسكرية ٣٠ مليار دولار ، حطمنا المانيا وزدنا من حدة الاستبداد البريطاني من أجل السيادة على العالم . ونعمل الآن من أجل تنظيم عصبة الامم لاستغلالها في خدمة الاستبداد البريطاني ، ولكي نفرض على حكومتنا واجب الحفاظ على حدود تلك الامبراطورية الواسعة[٢٧] . وعندما سئل لويد جورج من قبل أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني عن سبب تأجيل توقيع معاهدة الصلح مع تركيا . أجاب قائلا في ١٨ آب ١٩١٩ : ان عدم توقيع السلام مع تركيا لم يكن بسبب المماطلة من جانب حكومة الباب العالي وانما بسبب انتظارنا قرار الولايات المتحدة . اننا في انتظار الجواب الامريكي لكي نعرف هل أن الولايات المتحدة مستعدة لتلعب دورها الفعال في حماية الشعوب الذين في حالة عدم تقديم المساعدات اليهم وحمايتهم سوف يخضعون الى اضطهاد حاكم آخر وربما يتعرضون للمذابح ، ولذلك لا يمكن توقيع معاهدة السلام مع تركيا دون استلام الجواب الامريكي وان توقيع تلك المعاهدة سيتم على ضوء ذلك[٢٨] .

لقد كان المسؤولون البريطانيون يرون أن من مصلحة الامبراطورية البريطانية أن تساهم الولايات المتحدة في قبول الانتداب على آسيا الصغرى والمضايق وارمينيا ، وقد أعلن ذلك لويد جورج في مجلس العموم البريطاني . كما أوضح بنفس الوقت أهمية توقيع المعاهدة بالنسبة لمصلحة الامبراطورية البريطانية اذ قال : ليس هناك أي اتفاقية تهم الامبراطورية اكثر من معاهدة الصلح مع تركيا وأن مستقبل الامبراطورية يتعلق بتلك الاتفاقية[٢٩] . ولم تهدىء تصريحات لويد جورج من مخاوف أعضاء مجلس العموم البريطاني بعد أن اشتدت مطالبتهم بوجوب الاسراع بتوقيع معاهدة الصلح مع تركيا حيث كرر هذا المطلب الكثير من اعضاء المجلس المذكور[٣٠]. وهاجم بعضهم السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ولا سيما ممثلو الحزب الجمهوري في الكونجرس الامريكي الذين وقفوا ضد مشاريع الانتداب الامريكي على آسيا الصغرى وارمينيا[٣١] . ونشرت صحيفة التايمس اللندنية قائمة بأسماء أعضاء مجلس الكونجرس المعارضين لسياسة ولسن وعلقت على ذلك قائلة : ان هؤلاء الذين يتباكون على الشعب الايرلندي ولاتفيا واوكرانيا وشعوب الشرق المضطهدة لم يتكلموا شيئا عن الفلبين وهايتي وسان دومنجو ونيكاراجوا وكوبا والزنوج في بلادهم[٣٢] . ومع ذلك فلم تكن صحيفة التايمس متطرفة في انتقاداتها لاعضاء الكونجرس الامريكي لكي لا تثير فيهم روح المقاومة الشديدة

للمصالح البريطانية ، فكانت تتحفظ دائما في نشر ما يدور من نقاشات داخل الكونجرس وكانت تكرر دائمـا . ان انكلتـرا وحلفـاءهـا الاوروبيـين لا يقصـدون التدخـل في شؤون الولايـات المتحدة الداخلية وفي الصراع بـين الاحزاب الامـريكية ولكنهم يتمنون أن توافق الولايـات المتحدة عـلى بنود معاهدة الصلح المقترحة بالنسبة للممتلكات العثمانية(٣٣) .

وفي ١٩ تشـرين الثـاني عـام ١٩١٩، رفض مجلس الشيـوخ الامريكي التصديق على بنـود معاهدة الصلح فقد عارضها ٥٥ عضوا مقابل ٣٩ عضوا ، أيدوها . كما رفضها للمرة الثانية في ١٩ مارس ١٩٢٠، اذ صوت الى جانب المعاهدة ٤٩ وضدها ٣٥ .

وبعد فشل الحزب الديمقراطي في انتخـابات الرئاسة لعام ١٩٢٠ سقطت جميع خطط ولسن ولم يبق أي أمل لدى الحلفاء في أن يقر الكونجرس الامريكي خطط تقسيم الامبـراطورية العثمـانية التي اقترحتها لجنة الاربعة الكبار . وهكذا فشلت مشاريع الانتداب الامريكي المقترحة عـلى آسيا الصغرى وارمينيا والمضـايق واستانبـول ، كما تبـدد الامل لدى الحلفـاء في استغـلال الجيش الامريكي لحمايـة سواحـل البسفور والدردنيـل وجعله على خط المواجهة ضد روسيا السوفييتية . والواقع أن الوفد الامريكي كان قبل هذا الوقت بزمن طويل ينتهج سياسة التحفظ عند مناقشـة مشاكل آسيا الصغرى . ففي جلسة لجنة الاربعة الكبار في أول تشرين الثاني عام ١٩١٩ تم الاتفاق على تعيين الجنرال الانكليزي ميلين كقـائد عـام للجيوش الحليفة في آسيا الصغرى دون حضور الوفد الامريكي(٣٤) . وعلى هذا الاساس اصبح الاعتماد على الجواب الامريكي لتوقيع معـاهدة الصلح مع الحكومـة التركيـة شكليا ، بعـد أن اتضح لحلفاء امريكا موقفها من مشكلة المضايق وآسيا الصغرى وارمينيا مما فرض على انكلترا أن تضع مشروعا جديـدا بأسـرع وقت ممكن لحل مشكلة المضايق . لذلك وصلت في بدايـة تشرين الثـاني عام ١٩١٩ قـوة بريـطانية جـديـدة الى السـواحل الآسيـوية لمضيق البسفـور لتقـويـة الحامية البريطانية هناك . كما وصـل استـانبول قائد بريطاني جديد هو الادميرال «دي روبيرك» وبعـد بضعة أيـام صـرح لويـد جـورج في أن الاضـافات العسكـرية البـريطانية الى منطقـة المضايق تعني التهيؤ لسحب الاشراف الكلي على المضـايق من السلطة التـركيـة . وقـال : نحن موافقون على أن تكون بوابة البحر الاسود تحت اشراف الحلفاء بشـرط أن تكون مفتـوحة لكـل الامم ، وأن مهمة حمايتها لا يمكن أن تعود مرة اخـرى بيـد تلك الدولة التي أغلقتهـا في وجـه الحلفاء(٣٥) .

وفي ١٢ كانون الثاني عام ١٩٢٠ عقد مؤتمر لندن وساهم فيه لويد جورج وكليمنصو ، وكـان الهـدف من عقده اجـراء بعض التعديـلات على مشروع معاهدة الصلح مع تركيا بعد أن أعلنت الولايات المتحدة رفضها للبنود السـابقة . وقـد جرت مناقشات حادة وعنيفة داخل المؤتمر وكان كليمنصو أول المتكلمين فقدم مشروعا يقوم على أساس وضـع البسفور وبحر مـرمرة والدردنيـل تحت اشراف قوة من الحلفاء «An Allied Force» وسحبها نهائيا من السيطرة التـركية . الا انـه اعتبر اضافة مدينة استانبول الى منطقة المضايق خطأ كبيرا ورأى من الافضل اعتبارهـا منطقـة منفصلة عن المضايق . كما فضل وجود شخصية مرموقة على رأس حكومة آسيا الصغرى وقال : اذا كان السلطان مؤيدا لسياستنا فمن الافضل الاعتماد عليه لتسهيل ادارة المنطقة بواسطته ، وعلى هذا الاساس فمن الافضل ابقاء السلطان في استانبول بدلا من نقله الى مدينة بورصة(٣٦) .

وكان لويد جورج قد أعلن في أحد تصريحاته عن تأييده لفكرة ابقاء السلطان العثماني في مدينة استانبول وابقـاء العاصمـة تحت حكم السلطة التـركية لكي لا يثـير مشـاعـر المسلمـين . لكن السيطرة على المضايق لا تكون مضمـونة اذا لم تخضع مدينة استانبول لقوة دولية «Some Inter-national Force» حيث يعيش في تلك المدينة ٥٠٠ ألف تركي واذا ما تصرف هؤلاء كمالكين فيصبح بامكانهم أغلاق البسفور وهذا مما يسبب المشاكل للحلفاء حتى في حالة بقاء الدردنيل مفتوحا . لكن لويد جورج أردف قائلا : ان شعوب الدول الحليفة لا ترغب في أن تتحمل نفقات القوة العسكرية التي ستعمل من أجل الابقاء على المضايق مفتوحـة . لذلك فهو يقترح أن تكون منطقة المضايق منطقة تخدم نفسها بنفسها «Self Supporting» ولكن لا يمكن تحقيق ذلك دون أن تضاف اليها استانبول لأنهـا كميناء كبـير تملك امكانيـات مـاديـة من الضرائب والواردات تؤهلها للصرف وسد نفقات تلك الجيوش ، وهي ما لا يتحقق اذا لم تكن هناك سيطرة للحلفاء على سكان المدينة . ولهذا السبب اقترح لويد جـورج بأن تكـون استانبـول تحت سيـطرة قـوة دوليـة تتكـون من الفـرنسيـين والبـريطانيـين وحتى من الايـطاليـين والاتـراك

شريطة أن يكون على رأس تلك القوة قائد محايد . وبالنسبة للسلطان ووزرائه فان بقاءهم في استانبول مما يسبب المشاكل للحلفاء . لذلك يقترح لويد جورج إما نقلهم الى مدينة بورصة جميعا او ابقاء السلطان لوحده في استانبول في قصر يلدز للرئاسة وللخلافة الاسلامية وأن يكون له حرس خاص كحرس البابا في الفاتيكان بشرط احتلال الحلفاء المناطق المحيطة بالقصر والقرن الذهبي وافهامه بأن عاصمته مدينة بورصة . وان ذلك سيؤدي الى التقارب بين المسلمين والحلفاء وينسجم مع المطلب الذي تقدم به ممثل المسلمين الهنود عند انعقاد مؤتمر فرساي بوجوب الابقاء على السلطان في استانبول اذ لا يمكن أن يغض النظر عن هذا المطلب[٣٧] .

وقد أيد اللورد كرزن مشروع سحب استانبول من السلطات التركية وأكمل مشروع لويد جورج بقوله : اذا أبقينا السلطان في استانبول فسيكون من الصعب علينا اخراج الاتراك من منطقة ادرنة ، خاصة وان مؤتمر السلام قد أوصى بالابقاء على السيطرة الدولية على كل المنطقة الممتدة ما بين المضيقين يضاف الى ذلك يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن سياسة تركيا في المستقبل ستكون قومية بصورة دقيقة ويتضح ذلك من تصريحات مصطفى أتاتورك ، لذلك فاذا ما أبقينا السلطان في استانبول وتحت سيطرة القوميين فستندلع هناك وبدون شك الثورة والتي ستؤدي الى رد فعل على علاقة فرنسا مع تونس والجزائر وعلى علاقة انكلترا مع مصر والهند[٣٨] .

ان موجز آراء لويد جورج واللورد كرزن تقوم على أساس قيام قوات الحلفاء باحتلال المضايق واستانبول وادرنة ثم اخضاع هذه المناطق بعد ذلك للادارة الدولية ويمنع الاتراك حتى من السيادة الشكلية على استانبول وعلى كل المنطقة الاوروبية من الاراضي التركية . واما السلطان فيقترح ارساله الى مدينة بورصة على أن يسمح له من وقت لآخر بزيارة قصر يلدز «القصر البابوي» ـ حسب تعبيرهم ـ في استانبول كمقر للخلافة الاسلامية وهناك سيكون محاطا بجيوش الحلفاء . لقد أيد كليمنصو هذه المشاريع الانكليزية بالنسبة لاستانبول والمضايق وبالنسبة الى مقر السلطان حيث قال : يكفينا وجود بابا واحد في اوروبا . لكن تأييده للمشاريع الانكليزية مشروط بقيام الاتفاق بينهما بالنسبة للقضايا الاخرى المتعلقة بأوروبا والتي تخص فرنسا بالدرجة الاولى[٣٩] . وبعد أيام قليلة من انعقاد مؤتمر لندن تناقلت الصحافة الفرنسية والانكليزية . اخبار محاولات انكلترا وفرنسا لابعاد السلطان العثماني عن استانبول . فأدت هذه الانباء الى اثارة لجنة «الدفاع عن الخلافة الاسلامية» التي ينظمها المسلمون الهنود فقدمت عريضة احتجاج الى نائب الملك في الهند[٤٠] . وكانت الصحافة الفرنسية أكثر تطرفا من غيرها في انتقاداتها لتلك المشاريع باعتبارها تستهدف إحكام السيادة البريطانية على الشرق الادنى . كما تراجع كليمنصو عن مشروع ابعاد السلطان عن استانبول بعد رجوعه الى باريس[٤١] .

وبعد فترة قصيرة تراجعت انكلترا أيضا عن ذلك المشروع . بعد أن وجهت الاتهامات الى كل من لويد جورج واللورد كرزن من قبل وزير الحربية والمستر شرشل والفيلد مارشال فلسن وكيل وزير شؤون الهند ، اذ اتهمَ هؤلاء لويد جورج وكرزن باهمالهما مصلحة الامبراطورية البريطانية خاصة وأن مشاريعهما ستؤدي الى اثارة العرب ومسلمي الهند يضاف الى ذلك عدم توفر القدرات العسكرية لدى انكلترا في تلك الفترة والتي تمكنها من تحقيق تلك المشاريع . اذ تصور المستر شرشل بأن الوجود العسكري البريطاني في منطقة المضايق غير كاف لتنفيذ تلك المهمات[٤٢] .

وهكذا لم يتمكن لويد جورج من الاستمرار في الاصرار على رأيه لفترة زمنية طويلة . ففي ٩ كانون الثاني ١٩٢٠ وافق على مشروع ابقاء السلطان العثماني في استانبول بعد أن اقتنع معظم وزرائه بذلك[٤٣] .

وأخيرا اصبح لويد جورج من أشد المتساهلين مع تركيا . اذ كان يرى . أن اقرار معاهدة السلام مما يقوي من مركز السلطان في الاناضول ويضعف حركة التحرر القومي هناك المناوئة لمخططات انكلترا الاستعمارية في تركيا . وفي نفس الوقت فان ذلك سيسهل مهمة القضاء على السلطة السوفييتية . كما أن بقاء السلطان في استانبول مما يرضي المسلمين الهنود والعرب .

وهكذا فقد قرر مؤتمر لندن في ١٢ كانون الثاني عام ١٩٢٠ احتلال هذه المناطق من جانب قوات الحلفاء والتخلي عن مشروع الانتداب الامريكي على المضايق وابقاء السلطان العثماني في استانبول بصورة شكلية[٤٤] . وفي الجلسة الاخيرة لمؤتمر لندن التي عقدت في ٢١ كانون الثاني عام ١٩٢٠ قرر الحلفاء البدء بالمحادثات مع حكومة السلطان بعد الرفض الامريكي لمشاريع الانتداب على المضايق وارمينيا وآسيا الصغرى[٤٥].

وكـانت الانتصـارات التي حققتهـا السلطة السوفييتية ضد أعدائها في الداخل والخارج مما شجع تركيا على مناهضة الدول الحليفة . وجاءت انتخابات البرلمان التركي ، عام ١٩١٩ بأكثريـة لصالح الحركة القومية بقيادة كمـال أتاتـورك . حتى أن شرشل أسف لتلك النتيجة وقال : لقـد سمح الحلفاء للاتراك بادلاء أصواتهم ، لكن مما يؤسف له أن أصوات معظم الاتراك لم تأت كما كان متوقعـا[٤٦]. وفي ١٢ كانـون الثاني افتتـح المجلس الجـديد ، وقبـل افتتاحـه بقليل ، قـدم الصدر الاعظم مذكرة الى قائد جيوش الحلفاء في استـانبول تضمنت المـطالبة بـاستقلال تـركيـا واستعداد حكومة السلطان لقبول المسـاعدة من احدى الدول الكبرى[٤٧] .

كما أصبح لحركة الانـاضول سمـات حركـة التحرر القومي في حربها ليس ضـد اليونـان في منطقة ازمير وأظنة بل وضد القوات البريـطانية والفرنسية في منـطقة مـاراش في كانـون الثاني ١٩٢٠[٤٨]. وفي نفس الشهر انتصرت قـوة من الانصار الاتراك على قوة الحلفاء في منطقة اكباش الواقعة بين استانبول وغاليبولي[٤٩] . لذلك قامت انكلترا باجـراءات عملية لفـرض سيادتهـا على استانبول والمضايق قبل النشاطات الدبلوماسية وتـوقيع المعـاهـدة من جـانب السلطان مستغلة التسـاهلات التي أبـدتها الحـكومة الفـرنسيـة الجديدة برئاسة ميليران بعد سقوط كليمنصو عام ١٩٢٠ . فقـد طالب الانكليز السلطان بـاجـراء تغييرات على الوزارة التركية ، كما حاولوا توسيع شقة الخلافات بين السلطان واعضـاء البرلـمان حتى تنبأ شرشل باحتمال قيام ثـورة تؤدي الى مجزرة جديدة في استانبول[٥٠] .

وفي النصف الثاني من شهر شباط ١٩٢٠ زاد الانكليز بصورة ملحوظة من عدد قواتهم في منطقة المضايق . وقد تمت هـذه الاجراءات بعـد فترة قصيرة من الاعلان عن ابقـاء استـانبـول تحت ادارة السلطان حتى أن بعض المراقبين الاجانب صرحوا بأن بيان الحلفـاء وضـع بـطريقة تحقق شعار ـ أن لانكلترا حصة الاسد ـ[٥١] .

واستمـر البـريـطانيـون في استفـزازاتهم للسلطان ، فقد طالبوه بتعيين حاكم جديد لمدينة انقرة ومدينة بورصة وأن يبدي شيئا من الحزم ضد الكماليين وأن تجرى انتخابات جديدة لمجلس النـواب التركي وطالبـوا بالسـلاح المخـزون في استانبول وارجاع الداماد فـريد بـاشا كصـدر أعظم . وفي ٣ مارس استقالت حكومة علي رضا باشا وتم تعيين الداماد فريد باشا مكانه . وقد تم ذلك من جانب السلطان دون أخذ رأي الكماليين .

وبعد هذه الاجراءات قامت القوات البريطانية باحتلال استانبول في ١٦ مارس ١٩٢٠[٥٢] . دون مقاومة تذكر اذ لم يدع السلطان ولا وزراؤه للقتال وفر بعض اعضاء البرلمان الى الاناضول واعتقل بعضهم . ورغم أن احتلال استانبول تم بصورة شكلية باسم دول الحلفاء ، اذ أن البيان الموجه الى السلطان حول أسباب الاحتلال كان قـد تم تـوقيعه من قبـل القواد: الانكليـزي والفـرنسي والايطالي[٥٣] .

الا أنه في الواقع كانت القوى الحليفـة التي قـامت بعمليـة الاحتـلال تحت قيـادة الجنـرال الانكليزي ميلسن وعلى هذا الاساس فان احتلال القـوات البريـطانية لاستـانبول جعلهـا شبيهة بـالسـويس أو بـورت سعيـد . حتى صـرح المسؤولون الامريكان بسيطرة انكلترا على موقع استراتيجي مهم في كل العالم[٥٤] .

ولم تواجه انكلترا معارضة شديـدة من قبل حلفـائها . اذ كـان يهم فرنسـا بالدرجـة الاولى تحـطيم المانيـا فهي بحـاجـة مـاسـة للإسنـاد الانجليزي لتنفيذ سياستها في القارة الاوروبية . فاعتبرت هذا الاحتلال الانجليزي ملائما ومفيدا لتركيا ولجميع شعوب الشرق . فقد جاء في تعليق المجلة الفرنسية «اوروبا الجديدة» حول عمليـة الاحتلال البريطاني لاستانبول : أن مما يسعـد البشرية أن اصبح تحت حماية انكلترا كـل من فلسطين التي مزقتها الصراعات الدينية وبلاد ما بين النهرين التي حرم شعبها من لذة الحيـاة ، ونتمنى أن يمتد النفوذ البـريطاني ليشمـل بلاد فـارس التي ترزح تحت تسلط الحكم الرجعي . لذلك يمكن الجـزم بـأن قيـام الامبـراطوريـة البريطانية يمثل ضمانا أكيدا لشعوب الشرق من أجل عزهـا ورفاههـا . وعلى هـذا الاساس فمن الضروري أن تملك بريـطانيا حق السيـادة على شبكـة المواصـلات البريـة والبحريـة وبضمنها المضايق والممرات البحرية لحمـاية مصـالح تلك الامبراطورية[٥٥] . اما ايطاليا التي كانت بحاجة للاسنـاد البريـطاني لتنفيذ طمـوحاتهـا في بحر الادريـاتيـك فلم تعـارض خـطوات انكـلتـرا العسكرية . وبالنسبة للرفض الامريكي فلم يسبب لانكلترا أي مشكلة مهمة . أما المقاومة التركية فلم تعر لها أهمية اطلاقا وخاصة مقاومة حكومة كمال أتاتورك في الاناضول .

وبعـد أن تمت السيـطرة البـريـطانيـة عـلى استـانبول اصبـح السلطان وحيـد الدين تحت الضغوط البريطانية فحل مجلس النواب دون أن

يحدد موعدا لاعادة انتخابه واصبح الداماد فريد باشا رئيسا للوزارة . وبدأ السلطان نشاطه العلني ضد الثورة الكمالية في الاناضول فأحال كمال أتاتورك على التقاعد وأصدرت المحكمة العسكرية في استانبول حكم الاعدام بحقه غيابيا مع بعض أتباعه . وفي ٢٤ مارس ١٩٢٠ صرح لويد جورج : أن احتلال استانبول جاء بنتائج طيبة جدا(٥٦) .

وبعد أن استلمت انكلترا زمام المبادرة بسيطرتها على السلطان أملت على حكومته شروطها لتوقيع معاهدة الصلح . وبعد ما يزيد على أربعة أشهر على بدء الاحتلال البريطاني لاستانبول تم التوقيع على معاهدة الصلح ـ معاهدة سيفر ـ في ١٠ آب ١٩٢٠ بين حكومة السلطان من جهة والحلفاء من جهة اخرى . فقد وقعتها كل من انكلترا وفرنسا وايطاليا واليابان وبلجيكا واليونان وبولندا والبرتغال ورومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا .

وبموجب هذه المعاهدة تنازلت حكومة السلطان عن جميع السكان غير الاتراك ، فقسمت الامبراطورية الى مناطق نفوذ للدول الحليفة . كما انتهت السيادة العثمانية على البسفور والدردنيل ، فكانت المواد ٣٧ ـ ٦١ تتعلق بشؤون المضايق ، اذ وضعت بعد نزع سلاحها تحت الاشراف الدولي وتقرر أن تفتح في وقت الحرب والسلم للسفن الحربية والتجارية لكافة الدول وبدون تمييز . وتم تأليف «لجنة المضايق» لتنظيم الملاحة عبر المضايق . تتمتع تلك اللجنة بالاستقلال التام عن السلطة المحلية التركية في استانبول ، وتملك جهاز بوليس خاص ولها علمها الخاص وتقوم بجباية ضريبة المرور من كل السفن عند اجتيازها المضيق من أجل الانفاق على تنظيم خدمات الملاحة . وتضم اللجنة نوعين من الاعضاء : مجموعة الدرجة الاولى ويتمتعون بصوتين في اللجنة وهم ممثلو : الولايات المتحدة الامريكية اذا رغبت في ذلك وانكلترا ، فرنسا ، ايطاليا ، اليابان ، وروسيا بعد دخولها عصبة الامم . اما مجموعة الدرجة الثانية والتي تتمتع بصوت واحد فهي : اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، تركيا بعد دخول الدولتين الاخيرتين عصبة الامم . وعند ملاحظة اتجاهات وميول أعضاء لجنة المضايق ، نجد ان انكلترا قد دفعت للمساهمة في اللجنة تلك الدول التي وقعت تحت تأثيرها أو كانوا من حلفائها . كما مثلت اليابان في اللجنة على الرغم من أنها ليس لها علاقة بالمضايق ولا في ملاحة البحر الاسود ، وكان تمثيل اليونان ورومانيا وبلغاريا في اللجنة بدافع حصول انكلترا على أصوات تلك الدول نظرا لارتباطها بانكلترا وخاصة اليونان .

وكان البند الـ ٣٦ من بنود المعاهدة يتعلق بنفوذ الحكومة التركية والذي اقتصر على استانبول والمنطقة الاوروبية المحيطة بها . كما أنها وضعت شرطا لأجل ازاحة حكومة السلطان عن استانبول في المستقبل . فقد ورد في البند الـ ٣٦ : يلتزم الموقعون على تلك المعاهدة . بحق الوجود للدولة التركية في استانبول ، وان هذا الوجود لا يتعرض الى أي خطر وان هذه الدولة وسلطانها العظيم ستتمتع بكامل السيادة على هذه المنطقة . أي أن الحلفاء تعهدوا بالحفاظ على عاصمة الدولة التركية في استانبول . ولكن في حالة قيام حكومة السلطان بمحاولات الخروج على بنود المعاهدة أو ملاحقها وخاصة فيما يتعلق باحترام حقوق الاقليات العرقية والدينية ، يحق للحلفاء ادخال بعض التغييرات على بنودها . وفي هذه الحالة تلتزم الحكومة التركية بالاعتراف بالمواقف الجديدة التي ستتخذ بالنسبة لتلك المعاهدة(٥٧) .

ان تطرق معاهدة سيفر لمشكلة الاقليات الدينية والعرقية في الدولة التركية لدليل على عزم انكلترا على احتلال استانبول عندما يتهيأ الظرف الملائم لذلك . وقد أعلن القائد العام للقوات البريطانية في استانبول الادميرال روبك في ١٩ شباط ١٩٢٠ : أبقيت العاصمة الامبراطورية ـ استانبول ـ الى الحكومة التركية كبديل عن تعهد الباب العالي بالكف عن عملية قتل الارمن وايقاف الاعمال العسكرية في الاناضول والموجهة ضد قوى الحلفاء . وفي حالة خرقه تلك التعهدات ستجرى بعض التعديلات على بنود المعاهدة . ويظهر أن الانكليز أدركوا بصورة جيدة أن السلطان لا يملك أي نفوذ على الاناضول ولهذا فهو لا يتمكن من تنفيذ بنود معاهدة سيفر وهذا مما يعطي انكلترا حجة لكي تقوم بالاحتلال الشرعي لآسيا الصغرى بحجة مساعدة السلطان في القضاء على المتمردين ومن أجل احتلال استانبول قانونيا بحجة عدم تنفيذ السلطان شروط معاهدة سيفر .

وقد أعلن لويد جورج عن هذا المخطط في خطاب له في مجلس العموم البريطاني في ٢٦ شباط ١٩٢٠ اذ قال : تتمنى بريطانيا أن تتحقق حرية الملاحة عبر المضايق لجميع الامم وأن لا تراق الدماء في تركيا .. واذا ما قامت الحكومة التركية أو صدر عنها عمل قتل أو ابادة فسيتم احتلال العاصمة استانبول(٥٨)

وهكذا فان معاهدة سيفر جاءت بخطط كاملة لتقسيم الامبراطورية العثمانية واستعباد شعوبها ، لكن يمكن أن يقال عن هذه المعاهدة ، انها أضعف حلقة في مؤتمر فرساي ، اذ لم يكن من السهولة تنفيذ بنودها . ففي الوقت الذي وقعت فيه حكومة السلطان في استانبول على المعاهدة ، كانت هناك ثورة قومية في الاناضول بقيادة مصطفى كمال منذ عام ١٩٢٠ والذي قاد الشعب التركي في النضال من أجل تحقيق التحرر القومي والتخلص من الاستعمار الاجنبي ولم يعترف بشرعية معاهدة سيفر وقد نجحت في الاخير ثورة الاناضول في تحطيمها .

وقد حاولت انكلترا استغلال الجيش اليوناني في صراعها ضد الشعب التركي . الا أنه بعد مرور سنة على توقيع معاهدة سيفر اعترفت صحيفة التايمس اللندنية بأن مفعول معاهدة سيفر قد انتهى وان حكومة الداماد فريد باشا التي شكلت بدعم من الحلفاء في استانبول ليست لها أي أهمية وان الحكومة الوحيدة التي تمثل الشعب التركي هي حكومة كمال أتاتورك .. لقد فشلت الحكومة اليونانية في تثبيت مطاليبها في الاناضول بالقوة ضد كمال أتاتورك .. وأن احسن خدمة يمكن تقديمها لليونان هو أن نطالبها بالكف عن مطاليبها التي لم يعد من الممكن تحقيقها .. ان كل يوم من أيام الحرب بين تركيا واليونان يزيد من مصاعبنا ونفقاتنا في بلاد ما بين النهرين وكردستان وفي جميع مناطق الشرق الاوسط والهند(٥٩) . وبعد مدة شهر تقريبا كتب المعلق السياسي لصحيفة التايمس اللندنية مقالة أخرى حول معاهدة سيفر جاء فيها : لقد فقدت المعاهدة قيمتها والاهداف التي وضعت من أجلها ، كما تبددت الاحلام التي استهدفتها المعاهدة . فلم يعد هناك أي حاجة الى اللعب بالاوهام طالما أن ذلك يسبب المخاطر والازعاجات(٦٠) . وبعد النصر الحاسم الذي حققه الجيش التركي بقيادة مصطفى كمال ضد الجيش اليوناني بعد معركة سقاريا سنة ١٩٢٢ اعترفت حكومة لويد جورج بفشلها وقدمت استقالتها في تشرين الاول عام ١٩٢٢ وبعدها جاءت حكومة المحافظين برئاسة «بونر لوي» . فقررت الدعوة الى مؤتمر عالمي جديد لاعادة النظر في معاهدة سيفر، فانعقد هذا المؤتمر في مدينة لوزان منذ ٢٠ تشرين الثاني حتى ٢٤ تموز عام ١٩٢٣ . وقد وجهت الدعوة الى حكومة مصطفى كمال لحضور المؤتمر فمثلها وزير خارجيتها عصمت اينونو . كما اضطرت انكلترا الى دعوة روسيا السوفييتية للمساهمة في المؤتمر ، بعد أن أدرك الحلفاء صعوبة حل مشكلة المضايق بدون مساهمة روسيا السوفييتية وان ابعاد روسيا عن مشكلة المضايق غير ممكن . وحتى في مجلس العموم البريطاني ارتفعت بعض الاصوات ضد اصرار الحكومة البريطانية على عدم اشراك روسيا في حل مشكلة المضايق ، فقد أعلن النائب الليبرالي «كيف فورت» ان محاولات الحكومة البريطانية في ابعاد روسيا عن مناقشة مشكلة المضايق تمثل خطأ كبيرا في سياسة الحكومة البريطانية(٦١) وجاء في احدى تعليقات صحيفة التايمس حول هذه المشكلة : أن استغلال مسألة تهديد خطر البلشفية للعالم بدافع تحقيق المكاسب اصبح شيئا غير ممكن(٦٢) .

اشتد الصراع داخل المؤتمر بين كل من انكلترا وفرنسا وايطاليا من جهة وروسيا السوفييتية وتركيا الكمالية من جهة اخرى . وكان الوفد السوفييتي يهدف الى اضعاف سيادة الحلفاء على منطقة المضايق وسحب الجيوش الاجنبية من استانبول ومنع دخول البواخر الحربية الى البحر الاسود بالنسبة للدول غير المطلة على سواحله واعادة النظر في تشكيل لجنة المضايق وصلاحياتها . لكن تردد تركيا الكمالية وعدم ثبوت موقفها مما عرقل المشاريع الروسية . اذ أقرت معاهدة لوزان حق المرور عبر المضايق من البحر المتوسط الى البحر الاسود للسفن التجارية والحربية التابعة لأي دولة من دول العالم في وقت الحرب والسلم ، بشرط أن لا يتعدى غاطس سفنها الحربية على غاطس اسطول أقوى دولة على سواحل البحر الاسود . وهي روسيا السوفييتية . ولكن من ناحية عملية تتمكن انكلترا وفرنسا في آن واحد أن ترسل عبر المضايق الى البحر الاسود ذلك العدد من البواخر الحربية وكل منهما على حدة وفي هذه الحالة فان انكلترا وفرنسا تتفوقان على الاسطول الروسي في البحر الاسود . واعتمدت الدبلوماسية البريطانية في تبرير حق مرور سفنها الحربية عبر المضايق ودخولها البحر الاسود في وقت السلم والحرب على أساس مبدأ حياد البحر الاسود الذي أقرته معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ومؤتمر برلين لعام ١٨٧٨(٦٣) كما نصت المعاهدة على تجريد السواحل المحيطة بالمضايق من مظاهر التسلح . وأن يتم جلاء القوات الحليفة عن استانبول وأن يتم الاشراف على المضايق عن طريق لجنة دولية تضم عشرة اعضاء : انكلترا ، فرنسا ، ايطاليا ، اليابان ، بلغاريا ، اليونان ، رومانيا ، روسيا ، يوغوسلافيا ، تركيا والولايات المتحدة الامريكية

في حالة اقرارها لبنود المعاهدة . ويجب أن يكون مقر اللجنة مدينة استانبول .

لقد حاول الوفد السوفييتي من خلال وجوده في المؤتمر احباط اهداف انكلترا في فرض سيادتها على سواحل البحر الاسود ، تلك الاهداف التي اعترف بوجودها بعض أعضاء مجلس العموم البريطاني ، فقد جاء في خطاب النائب العمالي موريل : أن رفض انكلترا للمشروع الروسي القائم على أساس اغلاق المضايق في وجه السفن الحربية للدول غير المطلة على سواحل البحر الاسود ، جاء بسبب معارضته لاهدافنا الرامية الى تشديد الخناق على روسيا وعلى كل الشعوب الواقعة على سواحل البحر الاسود وفرض ما يشبه الحماية البريطانية عليها . كما أنه ضد طموحاتنا في تحويل البحر الاسود الى بحيرة بريطانية(٦٤). ثم تساءل النائب الليبرالي «كونفورت» عن مدى صحة ما نقلته صحيفة «يورك شاير بوست» حول عزم الحكومة البريطانية على بناء قاعدة بحرية على سواحل البحر الاسود في رومانيا على أساس أنها ضرورية لحماية المصالح البريطانية في العراق(٦٥) .

ان الموقف التركي غير الثابت في مؤتمر لوزان هو الذي ساعد انكلترا على تحقيق طموحاتها بالنسبة لمبدأ حرية الملاحة عبر المضايق في وقت الحرب والسلم وكذلك حقها في التعرض لسيادة تركيا في حالة عدم التزام السلطات التركية باحترام بنود المعاهدة .

فلم توقع الحكومة الروسية على المعاهدة على أساس ان ما جاء في بنود المعاهدة يشكل خطرا كبيرا على مصالحها ومصالح بقية الشعوب المطلة على سواحل البحر الاسود . وجاء التصريح السوفييتي هذا ردا على المذكرة المقدمة الى الحكومة السوفييتية من قبل سكرتير المؤتمر في ١٧ حزيران عام ١٩٢٣(٦٦) . ومن ناحية ثانية فان شدة الصراع بين الدول الحليفة داخل المؤتمر جعلها غير قادرة على تنفيذ كافة طموحاتها بالنسبة لآسيا الصغرى والمضايق وهذا مما اضطرها الى بعض التنازلات لصالح تركيا . ولم ينته الصراع بين دول الحلفاء بعد التوقيع على معاهدة لوزان في ٢٤ تموز عام ١٩٢٣ بل ازداد حدة من أجل السيطرة على الموارد النفطية في البلاد العربية وبلاد فارس .

الهوامش

١) مذكرات سوزانوف ـ برلين ١٩٢٧ ص ٢٧٤ (باللغة الروسية) .

2) D.L.L.Leoyd George — The Trunth about The peace Treaties Vol II, L 1938, P.1260

3) Papers relating to The foreign relations of The United States. The Paris peace Conference 1919. Washington 1947 Vol v. P.771 (p.p.c)

4 —Parliamentary Debates. House of Commons. Vol 121, P.1878.

5) P.P.C.p .765

6) P.P.C. p .762.

7) PP.C Vol xii, P.832.

8) Ibid, Vol xii p .843

9) Ibid, vol xii p .834

10) Ibid, vol xii p .839

11) P.P.C, Vol xi, p .261

12) Ibid, Vol xi, p .336

13) Ibid, Vol xi, P.185

14) Times 31 iii 1919

١٥) شرشل ـ الازمة العالمية ـ موسكو ١٩٣٢ جـ١ ص٢٤٥ (باللغة الروسية) .

16) Times 27, vi, 1919

17) P.P.C, Vol xi. P.38

18) Times1/ vi 1919

19) P.P.C, Vol vi, P.727

20) Ibid, Vol ix, P P 547, 559

21) Congressional Record, Vol xiii Pti, P.8802

22) Times, 2/ viii 1919

23) Congressional Record vol ix, Pti, P.63

24) Ibid, vol vii, pt8, P8058 — 8060

25) Ibid, P.8287

26) Congressional Record vol, viii, pti, P.8723

27 — Ibid, vol vol, viii, pti p.8728

28 — Debates, vol 119, p.2016 — 2017

29 — Ibid, p.2018

30) Debates, vol 119, pp2022, 2028

31 — Ibid, p.1620

32) Times 28/ viii/ 1919

33) ibid, 27 xi 1919

34) P.P.C Vol viii, p846

35) Pech. op. eit P92 — 93

36 — Documents on British Foreign Policy 1919 — 1939 Vol ii L1948, P728.

37 — Documents Vol ii P 728 — 730

38 — Documents Vol ii, P731 — 732

39 — Documents Vol ii P 731 — 732.

40) C.I. ch. Street — Life of Lord Reading, L1923, P 200

41) Temperly — AHistory of the peace Conferece of paris, L1924, vol vi p28 .

٤٢ ـ شرشل ـ الازمة العالمية ـ موسكو ١٩٣٢ ص٢٥٦ (باللغة الروسية) .

٤٣ ـ نفس المصدر ص٢٥٦ .

44 — Documents, Vol ii, P 728

45 — Documents Vol ii P 970

٤٦ ـ شرشل ـ الازمة العالمية، ص٢٥٧

47 — A. Pech. P103 — 104.

48 — A. Toynbee — Western question in Greece and Turkey . L1922 P227 .

49 — ibid P228

٥٠) شرشل ـ ص٢٥٧

51) A. Pech. P113 — 114.

52) A. Pech, P116 — 117

53) Ibid, P116

٥٤) صحيفة البرافدا ـ ٢٠/٣/١٩٢٠ موسكو .

55) Europe Nouvelle, No 20, 13/ vi/ P787.

56) War Memories of David Leoyd George 1 — vi L1933. 1936 — (The Truth about The peace Treaties) by David Leoyd George 1 — 11 L1938, Vol ii P1120

٥٧) تاريخ الدبلوماسية جـ ٢ موسكو ١٩٤٦ ص٩٥ (باللغة الروسية)
اعداد البروفيسور ف.م.خفوستوف والبروفيسور ي.مينتس باشراف الاكاديمي ف، ب بيترمكين ..

58) Debates, Vol 125, P275

59) Times, 2.xi. 1921

60) Times, 8. xii. 1921

61) Debates, Vol 159, P3343

62) Times, 28. xi. 1922

63) Times, 4. xii. 1922

64) Debates, Vol 159, P3265

65) Ibid, P 3342.

٦٦) تاريخ العلاقات الدولية وسياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية ١٧٨٠ ـ ١٩٥٧ موسكو ١٩٥٧ ص١٦٨ (باللغة الروسية) .

ان غاية التاريخ هي ادراك الماضي كما كان، لا كما نتوهم انه كان، وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب ان يكون او كما نريده ان يكون.

العراق وسياسة الدفاع المشترك والاحلاف الغربية
١٩٤٥ ـ ١٩٥٨

د ـ جعفر عباس حميدي
كلية التربية/ جامعة بغداد

أولا : التصرفات البريطانية في العراق خلال الحرب العالمية الثانية :

رغم ان معاهدة ١٩٣٠ العراقية ـ البريطانية قد مكنت العراق من تبوّء مكانته بين الدول المستقلة ذات السيادة ، والتمتع ببعض امتيازات الاستقلال ، ومنها قبول العراق عضوا في عصبة الامم عام ١٩٣٢، الا ان معاهدة ١٩٣٠ لم تحقق المطالب الوطنية في الاستقلال التام الناجز ، لانها منحت بريطانيا امتيازات واسعة قيدت الاستقلال الوطني ، ومنها ما يلي :

١ ـ الدفاع : تعهد العراق ان يقدم الى الحكومة البريطانية في الاراضي العراقية جميع ما في وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ، ومن ذلك استخدام سكك الحديد والانهر والموانىء والمطارات ووسائل المواصلات .

٢ ـ القواعد وحق المرور : تعهد العراق ان يؤجر لبريطانيا مواقع للقواعد الجوية في الشعيبة والحبانية ، وباعطائها الحق بمرور جيوشها عبر الاراضي العراقية .

٣ ـ الحصانات : تتمتع القوات البريطانية في العراق بالاعفاء من الضرائب وسلطة القوانين المحلية .

٤ ـ تدريب الجيش العراقي : احتكرت بريطانيا لنفسها حق تدريب الجيش العراقي وتجهيزه بالاسلحة والمعدات(١) .

ان هذه القيود على الاستقلال العراقي دفعت الحركة الوطنية الى نقد المعاهدة ووصفها بانها استبدلت الانتداب الوقتي بالاحتلال الدائم ، وزادت في اغلال العراق وعزلته عن الاقطار العربية ، وتركت العراق «فريسة بيد الاستعمار البريطاني»(٢) . وقد ظهرت خطورة المعاهدة على الاستقلال العراقي عند اندلاع الحرب العالمية الثانية فقد ارادت بريطانيا استغلال موارد العراق وموقعه الاستراتيجي لخدمة المجهود الحربي ، وقد استجاب نوري السعيد ، رئيس الوزراء آنذاك ، للطلبات البريطانية فبادر على الفور الى قطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا ، وسعى الى ادخال العراق في الحرب الى جانبها وارسال قوات عسكرية عراقية الى الحدود الليبية(٣)، لكن سياسة السعيد قوبلت بالمعارضة الشديدة .

تزعمت الحركة القومية المعارضة في العراق ودعت الى الوقوف على الحياد في الصراع الدولي ، والحصول على ضمانات من اجل الاستقلال لفلسطين وسوريا ، والالتزام بمعاهدة ١٩٣٠، فأثار ذلك الحكومة البريطانية التي طالبت العراق بقطع علاقاته الدبلوماسية مع ايطاليا بعد دخولها الحرب الى جانب المانيا . وقد ادى تطور الاوضاع السياسية في العراق الى الحرب مع بريطانيا في (٢ مايس ١٩٤١) والتي انتهت بالاحتلال البريطاني للعراق ودخول القوات البريطانية بغداد في (١ حزيران) .

أصبح العراق تحت الاحتلال البريطاني المباشر ، وأخذت بريطانيا تتصرف في شؤون العراق الداخلية ، بعد حصولها على الموافقة الشكلية من الحكومة العراقية ، فقدمت السفارة البريطانية مذكرة الى الحكومة العراقية في (٤ حزيران) زعمت فيها «ان الخطر المحدق بالعراق أصبح جليا خاصة بعد أن أرسلت الحكومة الالمانية قواتها الجوية الى سوريا ، وأنشأت ووسعت المطارات في مختلف الاماكن» وطالبت المذكرة باتخاذ الاجراءات الفورية التالية :

١ ـ اتخاذ الاجراءات المشتركة الضرورية للدفاع عن العراق .

٢ ـ ان يكون لبريطانيا مطلق الحرية خلال الحرب بان تضع قواتها البرية والجوية في أية نقطة (مركز) في العراق مما تجده ضروريا للدفاع المشترك .

٣ ـ تتخذ الحكومة العراقية خلال الحرب التدابير الفعالة لمراقبة الاجانب وان تقيم رقابة (سانسور) .

٤ ـ تمارس الحكومة البريطانية خلال الحرب بالتعاون مع السلطات العراقية سيطرة (مراقبة) عسكرية تامة على ميناء البصرة ومنطقة القاعدة العسكرية البريطانية وشط العرب والنقاط المؤدية اليه(٤) .

وطبقا لهذه المذكرة عملت بريطانيا على جعل العراق قاعدة عسكرية لقواتها في الشرق . ولتحقيق هذه الغاية وصل الى البصرة في (٢٣ مايس) قائدا القوات البريطانية المسلحة في الهند والشرق الاوسط ، الجنرالان كلود اوكنليك Sir Claude Aaclinlek وويفل Wavelاللذان اشرفا على تحركات القوات البريطانية من البصرة الى بغداد ، ومن ثم توزيعها في مناطق العراق المهمة ، في الموصل والبصرة وكركوك والفلوجة وحديثة والرطبة واماكن اخرى عديدة ، بحجة مساعدة الشرطة لحفظ الامن الداخلي(٥) .

اهتمت السلطة البريطانية بتوفير المستلزمات الضرورية لتواجد القوات البريطانية وتأمين الراحة والتموين لها . فعمدت الى توسيع ميناء البصرة وتطوير الثكنات العسكرية في البصرة والشعيبة والكوت والمسيب لاستيعاب الاعداد الضخمة من هذه القوات ، كما عملت على انشاء مطارات عسكرية في شمال العراق ، وتحسين وسائل النقل النهري والبري ، وبخاصة السكك الحديد . وعقد في ايلول مؤتمر في بغداد لسفراء بريطانيا وقادة جيوشها في الشرق الاوسط ، وقد اتخذ المؤتمر عدة توصيات لتطوير العراق كمنطقة حيوية للدفاع والمواصلات ، واستنادا الى هذه التوصيات بنيت أرصفة جديدة في ميناء البصرة ، وبذلت الجهود لتحسين خطوط السكك الحديد ، واكمال الشبكة اللاسلكية والتلغرافية ، واستخدم العمال العراقيون باعداد كبيرة لخدمة المجهود الحربي البريطاني وذلك بتشغيلهم لبناء الثكنات العسكرية ونقل التجهيزات الطبية والاغذية الضرورية . وقد أدت هذه الجهود الى توفير الخدمات لفرقتين هنديتين هما الثانية والعاشرة(٦) .

ازدادت أهمية العراق السوقية بعد التوغل الالماني في روسيا ، وخشي الحلفاء من هجوم على ايران عن طريق قفقاسيا . ولهذا قررت بريطانيا تقوية وجودها العسكري في العراق ، وتشكيل قيادة مشتركة لقواتها في العراق وايران في (ايلول ١٩٤٢) عرفت باسم«بايفورس» Paiforce مرتبطة مباشرة بالدائرة الحربية ، وعين السير ولسن ، الذي كان قد وصل الى بغداد في آب ١٩٤٢، قائدا لها . وأعقب تشكيل القيادة المشتركة وصول أعداد كبيرة من القوات البريطانية والحليفة لها ، فوصلت في شهر ايلول ١٩٤٢ الفرقة العسكرية الخامسة والفرقة العسكرية السادسة والخمسون البريطانيتان ، كما وصلت بعد ذلك الكتيبة السابعة المدرعة البريطانية من الهند والفرقة الخامسة الهندية والثالثة البولونية . وهكذا أصبحت القوات الاجنبية المتواجدة في العراق في نهاية عام ١٩٤٢ تضم فرقتين بريطانيتين ، وكتيبة مدرعة بريطانية وثلاث فرق هندية وكتيبة مدرعة هندية ، وفرقة بولونية وثانية تحت التدريب تضم اللاجئين البولونيين الذين وصلوا الى خانقين من ايران . وقد اثر هذا العدد الكبير من القوات الاجنبية على الاقتصاد العراقي ، وبخاصة في ظروف الحرب العالمية ، وزاد من تردي الاوضاع الاقتصادية وازدياد التضخم النقدي ، رغم ما يزعمه البريطانيون من ان وجود هذا الجيش قد خلق رخاء عاما لجميع طبقات الشعب(٧) .

وللتقليل من الآثار السلبية التي تركها الوجود العسكري البريطاني نشطت وسائل الدعاية البريطانية من صحافة وسينما ونواد لخدمة المصالح السياسية والعسكرية البريطانية ، ومن أهم هذه الوسائل تأسيس نوادي «اخوان الحرية» برئاسة البريطانية فرياستارك Freya Stark التي تمكنت من ضم المتعاونين مع البريطانيين الى هذه النوادي ، وتقول ستارك بهذا الصدد : «كان الانضمام الى جمعيتنا في تلك الفترة فيه نوع من الشجاعة ، وكان للجمعية شارة بحرف V للنصر

مع يدين متماسكتين» وتشير ستارك الى تخوف المتعاونين مع بريطانيا من الجماهير الشعبية فتقول : «كان الشباب يتساءل هل من الممكن وضع الشارة تحت السترة لكي لاتصبح علامة للاثارة ضدنا»[٨] .

أما الحكومة العراقية فقد خضعت كليا للسيطرة البريطانية الفعالة ، وقامت وزارة جميل المدفعي (٢ حزيران ١٩٤١) بتصفية دوائر الدولة من العناصر القومية وحل المنظمات والجمعيات القومية والغاء عقود المدرسين العرب ، وبخاصة السوريين والفلسطينيين ، واجراء تغييرات في السلك الدبلوماسي وقوى الامن الداخلي ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا . ولكن هذه الاعمال جميعها لم ترض بريطانيا ، فاستقال المدفعي وجاء بعده نوري السعيد الذي استمر في الحكم من (٩ تشرين الاول ١٩٤١ حتى ١٩ نيسان ١٩٤٤) واستجاب لكل الطلبات البريطانية فقام بقطع العلاقات الدبلوماسية مع حكومة فيشي الفرنسية ومع اليابان ، وقدم قادة الثورة الى المحاكم التي أصدرت حكم الاعدام عليهم ، وزاد عدد المعتقلين[٩] . وتعمد ابقاء الجيش العراقي ضعيفا[١٠] وعمل على ضم العراق في (تشرين الثاني ١٩٤٢) الى تصريح الامم المتحدة الذي وقعته حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي مع (٢٤) دولة اخرى والذي تضمن ما يلي :

١ ـ تقطع كل حكومة على نفسها عهدا بانها ستستخدم كافة مواردها العسكرية والاقتصادية ضد دول الميثاق الثلاثي والمنضمين اليه من الذين تكون تلك الحكومة في حرب معهم .

٢ ـ تقطع كل حكومة على نفسها عهدا بالتعاون مع الحكومات الموقعة على هذا التصريح وبعدم عقد هدنة أو صلح على حدة مع الاعداء[١١] .

وأعقب انضمام العراق الى هذا التصريح قيامه باعلان الحرب على دول المحور ، وجاء في بيان اعلان الحرب :

«نظرا الى الموقف العدائي الذي وقفته دول المحور منذ زمن طويل والى عملها المتواصل عن طريق صنائعها للقضاء على الحكومة العراقية المشروعة .. ونظرا الى تمادي دول المحور في موقفها المعادي .. والى مساعيها المستمرة لايجاد التفرقة بين أقسام سكان العراق بقصد تعريض الامن والنظام العام للخطر .. أصدر الوصي .. ارادته الملكية .. باعلان وجود حالة الحرب بين العراق وبين دول المحور اعتبارا من منتصف ليل ١٦/ ١٧ كانون الاول ١٩٤٣»[١٢] .

وبدخول العراق الحرب اصبحت جميع امكاناته المادية والعسكرية في خدمة المجهود الحربي للحلفاء ، وتحمل العراقيون شظف العيش والقيود الثقيلة التي تطلبتها الحرب من احكام عرفية وقيود على الحريات الفردية والصحفية . ومن اجل امتصاص النقمة الشعبية اخذت اجهزة الاعلام الحليفة تكيل الوعود للعراقيين بتحسين الاوضاع العامة اذا انتصر الحلفاء في الحرب . وعند انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء القى عبد الاله ، الوصي على عرش العراق، خطابا قال فيه :

«واننا بصفتنا من الامم المحاربة مع الحلفاء ، والمساعدة في المجهود الحربي مساعدة فعلية ، منذ نشوب الحرب لمسرورون فرحون بهذا النصر الذي أحيا آمال الامم المحبة للحرية والسلام»[١٣] .

وشارك العراق في مؤتمر الامم المتحدة الذي عقد في سان فرانسيسكو في (٢٦ نيسان ١٩٤٥) لوضع ميثاق المنظمة الدولية الجديدة ، والذي تضمن العمل على تجنيب الاجيال القادمة ويلات الحرب ،ووضع الاسس لحفظ السلام والامن الدولي ، وانماء العلاقات الودية بين الامم ، وتحريم الحروب كوسيلة من وسائل فض المنازعات الدولية ، ومنع الاعتداء على استقلال الدول الاعضاء ووحدة أراضيها ، والمساواة التامة في السيادة بين جميع الدول الاعضاء ، ونصت المادة (١٠٣) من الميثاق على انه «اذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الامم المتحدة وفقا لاحكام هذا الميثاق ، مع أي التزام دولي أخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق» ، كما نصت المادة (٤٣) من الميثاق على وجوب عدم وجود أية قوة اجنبية على أرض أية دولة عضو في الامم المتحدة الا في حالة الحرب أو وفقا لما تقتضيه احكام المادة (٤١) من الميثاق[١٤] .

ولهذا اعتقدت الحركة الوطنية بان توقيع العراق للميثاق سيؤدي بلا شك الى الغاء المعاهدة العراقية ـ البريطانية او تعديلها بما يضمن انسجامها مع بنود الميثاق الجديد .

ثانيا : انتهاء الحرب العالمية الثانية واشتداد المطالبة بالاستقلال التام والجلاء :

١ ـ الحركة الوطنية والعلاقات مع بريطانيا :

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية القى عبد الاله ، خطابا أوضح فيه خطة الحكومة العراقية في مرحلة السلم الجديدة على جميع

الاصعدة ، وفي السياسة الخارجية أوضح تمسك العراق بالسياسة التي وضعها الملك فيصل الاول ، التي انطوت ـ كما قال ـ على بعد النظر ، لكنه لم يوضح ما هي الاسس التي ستعتمد عليها سياسة العراق الخارجية ، وبخاصة مع بريطانيا . غير أن توفيق السويدي ، أول رئيس للوزارة العراقية بعد الحرب العالمية الثانية ، اعلن في منهاج وزارته التي شكلها في (٢٣ شباط ١٩٤٦) خطط الحكومة العراقية ، وجاء في المنهاج القول :

«ان علاقتنا الودية مع حليفتنا بريطانيا العظمى ترتكز على معاهدة التحالف العراقية ـ البريطانية . ولما كان قد مر على عقد هذه المعاهدة مدة ستة عشر عاما قطع فيها العراق شوطا بعيدا في سبيل التقدم والانشاء مسايرا في ذلك مواكب الامم الناهضة ، فقد أصبح من الضروري تعديلها لجعل الحلف القائم متناسبا مع تقدمه ، ومتسقا مع التطورات العالمية ضمن روح ميثاق الامم المتحدة ، لذلك ستقوم الوزارة بمفاوضة الحليفة بريطانيا بهذا الشأن»[١٥] .

أما الحركة الوطنية ، ممثلة بالاحزاب السياسية التي اجيزت في نيسان ١٩٤٦، فقد طالبت ببناء علاقة جديدة مع بريطانيا تنسجم مع التطورات التي شهدها العالم بعد الحرب . فقد دعا حزب الاستقلال الى تبديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية تبديلا يطمئن السيادة الوطنية ، ويؤدي الى جلاء القوات البريطانية ، والغاء عقود كافة الموظفين الاجانب ، والمؤسسات الاستعمارية الاجنبية[١٦] . وطالبت احزاب الوطني الديمقراطي والاتحاد الوطني والشعب بالغاء المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، واقامة العلاقات بين العراق وبريطانيا على أساس الصداقة والمنافع المتبادلة ، بما يضمن تعزيز كيان العراق واستكمال سيادته ، لأن معاهدة ١٩٣٠ أصبحت تتنافى ومقتضيات السيادة الوطنية ، ولا تتفق مع احكام ميثاق الامم المتحدة ولا تأتلف مع ظروف العالم الجديد ، وأن بقاء القوات البريطانية على أرض العراق يعتبر اعتداء على الكرامة الوطنية[١٧] . وأوضح حزب الاحرار سعيه للعمل على تعديل المعاهدة بالشكل الذي يضمن مصالح البلاد ويحقق أمانيها[١٨] .

وهكذا أصبح الغاء أو تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، مطلبا شعبيا ، وساهمت الصحافة العراقية في الدعوة الى استكمال سيادة العراق الوطنية وازالة اي قيد على استقلاله التام . وفي لندن صرح عبدالاله لمراسلي الصحف قائلا : «ان الناس في العراق يبحثون مسألة اجراء تغييرات في المعاهدة، والتغييرات المقترح اجراؤها في المعاهدة تجعلها تتفق مع الاحوال الحاضرة ، فالعراق يريد الحلف مع بريطانيا ولكنه يقتضي تغيير بعض بنودها»[١٩] .

وقد علقت جريدة «الوطن» على هذه التصريحات موضحة اجماع الحركة الوطنية والصحافة العراقية تقريبا على ضرورة تعديل المعاهدة لكي تنسجم مع التقدم الذي بلغته الحرية في العالم ومع المستوى الذي بلغه العراق في رقيه ، وقالت : «لقد لاقت معاهدة ١٩٣٠ عند عرضها على البرلمان وبعد ذلك مقاومة عنيفة من كل الاوساط الوطنية . ولقد عقدت هذه المعاهدة أيام كانت البلاد تعاني مساوىء الانتداب»[٢٠] وأوضحت جريدة «الرأي العام» بان المعاهدة بقيودها الثقيلة وأحكامها الجائرة التي أرهقت الشعب العراقي ، لم تعد تتفق والتطور العالمي في العلاقات من ناحية ووضع العراق الراهن واتساع نطاق الوعي القومي فيه من ناحية ثانية ، فتغير الظروف الدولية والاوضاع الداخلية اصبح يحتم تعديل هذه المعاهدة وتخليص العراق من قيودها[٢١] .

وازاء استمرار الضغط الشعبي لالغاء المعاهدة أو تعديلها قامت وزارة توفيق السويدي بتأليف لجنة من أربعة وزراء للنظر في أمر المعاهدة ، وقد وضعت اللجنة تقريرا أوضحت فيه ان معظم بنود المعاهدة لا يتفق بأي حال مع الالتزامات الجديدة التي ترتبت على العراق بوصفه عضوا من اعضاء الامم المتحدة ، وعليه لابد من الغائها والقيام بعقد معاهدة صداقة جديدة مع بريطانيا[٢٢] .

٢ ـ السياسة البريطانية في الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الثانية :

خرجت بريطانيا منتصرة في الحرب العالمية الثانية ، لكنها دفعت ثمن هذا الانتصار الذي أضعف كثيرا من قدراتها العسكرية ، ومن ثم من قدرتها على ادارة شؤون مستعمراتها الواسعة ، وبدا واضحا للعيان أن السياسة البريطانية سوف تتغير كثيرا تجاه المستعمرات ، وساعد على ذلك الفوز الذي أحرزه حزب العمال البريطاني في الانتخابات النيابية في عام ١٩٤٥ . واصبح هدف السياسة البريطانية الحفاظ على مصالحها السياسية والاقتصادية والعسكرية في الشرق الاوسط ، المتمثلة في أهمية المنطقة كمصدر أساسي من المصادر البترولية ، بالاضافة الى أهمية موقعها الجغرافي على مفترق الطريق من الشرق

الى الغرب بين اوروبا والهند ، ومن الشمال الى الجنوب بين روسيا وافريقيا ، الذي مازال ينطوي على جانب من الاهمية[٢٣]. ولهذا يمكن القول بأن السياسة البريطانية في الشرق الاوسط أصبحت بعد الحرب ترتكز على ركنين أساسيين هما :

١ ـ تشجيع دول الشرق الاوسط على عقد الاتفاقيات فيما بينها لضمان الامن والاستقرار ، ثم السعي الى جمعها في تنظيم واحد سمي «الكتلة الشرقية».

٢ ـ السعي الى عقد معاهدات ثنائية بين بريطانيا وحلفائها في الشرق الاوسط، تضمن لبريطانيا مصالحها الاستراتيجية عن طريق ضمان الدفاع المشترك والاستفادة من القواعد العسكرية .

ولتحقيق الركن الأول عملت بريطانيا على تشجيع العراق لعقد اتفاقيات ثنائية مع تركيا ومع الاردن .. وقد قوبلت سياسة بريطانيا لتشجيع عقد المعاهدات الثنائية بمعارضة الحركة الوطنية التي اتهمت بريطانيا بالسعي الى خلق كتلة شرقية تكون حصنا عسكريا للحفاظ على مصالحها ، وليسهل لها ضرب الحركة الوطنية في المنطقة والتدخل في الشؤون الداخلية للاقطار العربية، ووصفت السياسة العراقية بانها ذيل للسياسة البريطانية في الشرق الاوسط التي روجت لهذه المشاريع التي تخذل الاماني القومية وتعرض الجامعة العربية الى التفكك ، وتربط العراق والمنطقة برمتها بعجلة الاستعمار البريطاني مباشرة وبالسياسة الامريكية بالواسطة[٢٤] .

ولتحقيق الركن الثاني قامت بريطانيا اولا بعقد معاهدة التحالف والصداقة الاردنية ـ البريطانية في (٢٢ آذار ١٩٤٦) التي ألغت الانتداب البريطاني على الاردن ، لكنها سمحت لبريطانيا بابقاء قوات عسكرية مسلحة في الاماكن المقيمة فيها عند توقيع المعاهدة وفي أماكن اخرى يتفق عليها ، وعلى منح التسهيلات لحركة القوات البريطانية المسلحة وتدريبها ولنقل الوفود والاسلحة والذخيرة والمواد اللازمة لهذه القوات بطرق الجو والبر والسكك الحديد والموانىء[٢٥]. وقد استطاع الاردن الغاء هذه القيود والتخلص من السيطرة البريطانية على الجيش الاردني عندما تم عزل كلوب باشا من قيادة الجيش الاردني في عام ١٩٥٦ والغيت المعاهدة في عام ١٩٥٧.

وحاولت بريطانيا ثانيا عقد معاهدة للتحالف مع الحكومة المصرية ، وقد بدأت المفاوضات لتوقيع المعاهدة في عهد وزارة اسماعيل صدقي في (منتصف شباط ١٩٤٦) وارادت بريطانيا ضمان الاحتفاظ بقواتها العسكرية في مصر ، وبخاصة في منطقة قناة السويس ، وقد توصل الطرفان الى مشروع للمعاهدة عرف باسم «مشروع صدقي ـ بيفن» في تشرين الثاني ١٩٤٦ ونص على تنسيق الدفاع المشترك بين الدولتين ، واعطى لبريطانيا حق التدخل العسكري اذا هوجمت مصر، وقد قوبل هذا المشروع بمعارضة جماهيرية واسعة أدت الى استقالة اسماعيل صدقي في (٨ كانون الأول ١٩٤٦) وقبر مشروع المعاهدة[٢٦] .

وفي العراق حاولت بريطانيا عقد معاهدة جديدة لتحل محل معاهدة عام ١٩٣٠ التي أصبحت محل كراهية متزايدة من قبل الجماهير الشعبية ، واعلن صالح جبر ، رئيس الوزراء ، في مجلس النواب يوم (١٠ مايس ١٩٤٧) أن حكومته عازمة عزما أكيدا على تعديل المعاهدة . وقد ادى هذا الاعلان الى ردود فعل سلبية من قبل الاحزاب السياسية والجماهير الشعبية التي رأت بأن الحكومة العراقية لا تستطيع ان تقف تجاه بريطانيا موقف الند للند ، في وقت تعسكر فيه الجيوش البريطانية في العراق ويتدخل البريطانيون في شؤون العراق الداخلية والاقتصادية ، ولهذا فان تعديل المعاهدة في مثل هذا الوضع الشاذ لا يمكن ان يكون الا في صالح بريطانيا ، كما ان اجراء المفاوضات في ظروف تجتاز فيها قضية فلسطين أدق مراحلها يدل على محاولة بريطانيا صرف الرأي العام عن قضية فلسطين واشغاله بأمر المعاهدة ، أو استغلال فرصة انشغاله بقضية فلسطين لانجاز أمر المعاهدة على وجه لا يخلو من تقييد السيادة العراقية[٢٧] .

وبرغم المعارضة الشعبية بدأت المفاوضات في بغداد أولا ثم في لندن ثانيا ، وكانت بريطانيا تعلق الآمال على عقد هذه المعاهدة التي ارادتها ان تكون بداية لسلسلة من المعاهدات التي تنظم علاقات بريطانيا بدول الشرق الاوسط ، وتؤدي في النهاية الى ربطها بنظام دفاعي واحد يهدف بالاساس الى حماية المصالح النفطية البريطانية الواسعة[٢٨] . وقد انتهت المفاوضات الى التوقيع بالاحرف الاولى في (١٥ كانون الثاني ١٩٤٨) على المعاهدة التي سميت بـ «معاهدة بورتسموث» أو معاهدة «جبر ـ بيفن» والتي تضمنت الامور المهمة الآتية :

١ ـ الدفاع المشترك وتأليف هيئة استشارية دائمة مشتركة لتنسيق شؤون الدفاع بين الدولتين تعرف باسم «لجنة الدفاع الانكليزي العراقي المشترك» تقوم بوضع الخطط للمصالح السوقية المشتركة بين البلدين والتشاور الفوري عند وقوع تهديد بالحرب .

٢ ـ حرية استعمال القاعدتين الجويتين في الحبانية والشعيبة لبريطانيا بدون دفع اجور لقاء ذلك .

٣ ـ تقديم جميع التسهيلات والمساعدات للقوات البريطانية على الاراضي العراقية ومن ذلك استخدام السكك الحديد والانهر والموانىء والمطارات وخطوط المواصلات .

ويلاحظ على المعاهدة الجديدة انها أبقت القيود الثقيلة للمعاهدة السابقة ، وعدت انتصارا لبريطانيا ، بحيث وصفتها جريدة التايمس اللندنية بأنها اخذت مكانا يوازي مكان ميثاق سعد أباد ، وادعت بأنها ستكون أداة فعالة من أجل حفظ الامن في الشرقين الاوسط والاقصى[٢٩] . الا أن وثبة الشعب العراقي أدت الى سقوط المعاهدة وسقوط عاقدها صالح جبر ، واستمرت العلاقات بين البلدين تسير بموجب معاهدة ١٩٣٠ ، ولم تحاول بريطانيا بعد ذلك عقد معاهدة جديدة نتيجة لتضعضع مكانتها السياسية في المنطقة العربية عقب قيام الكيان الصهيوني .

ثالثا/ مشروع القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط :

تغيرت الظروف العالمية بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان من مظاهر هذا التغير نهوض الشعوب الآسيوية والافريقية لمكافحة الاستعمار بمختلف اشكاله ، واستقلال دول عديدة ، الامر الذي جعل بريطانيا تفقد مواقعها المهمة الواحد بعد الآخر ، وبخاصة بعد استقلال الهند والباكستان وغيرهما . كما شهدت هذه الفترة ازدياد الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي وازدياد حدة المنافسة بينهما على مناطق النفوذ ، يضاف الى ذلك ازدياد الكراهية والعداء لدول المعسكر الغربي في المنطقة العربية بسبب تأييدها الواسع والمكشوف للكيان الصهيوني في اغتصاب الارض العربية .

في مثل هذه الظروف خشيت الدول الغربية على مصالحها في منطقة الشرق الاوسط ، واصبح الغرب يسعى بسياسته في المنطقة لتحقيق غرضين هما :

١ ـ الحفاظ على المصالح البترولية الواسعة في المنطقة العربية ، وبخاصة بعد اكتشاف كميات كبيرة من النفط في منطقة الخليج العربي .

٢ ـ الاستفادة من الاهمية الاستراتيجية للشرق الاوسط ، والتي ظهرت في تصريحات الامريكيين ، ومنها تصريح الرئيس الامريكي ترومان في نيسان ١٩٤٦ الذي قال فيه : «ان منطقة الشرق الاوسط تعتبر منطقة اقتصادية واستراتيجية في آن واحد» وتصريح الرئيس الامريكي ايزنهاور في بداية الخمسينات الذي قال : «ليست هناك منطقة استراتيجية مهمة اكثر من منطقة الشرق الاوسط»[٣٠] .

ولهذا حاولت الدول الغربية الثلاث (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) تأمين الاستقرار في المنطقة فأصدرت ما سمي «البيان الثلاثي» في (٢٣ ايار ١٩٥٠) الذي أعترف بحق الاقطار العربية والكيان الصهيوني في الاحتفاظ بمستوى معين للقوات العسكرية من أجل المحافظة على الامن الداخلي والدفاع عن النفس ، وأيد ضمان حدود الدول العربية والكيان الصهيوني . وقد وجد العرب في البيان مسا بكرامتهم ، واقرارا واعترافا بوجود «اسرائيل» دولة قائمة في الشرق الاوسط[٣١] . وقد قوبل البيان بالمعارضة العربية واصدر مجلس الجامعة العربية بيانا في (١٢ حزيران ١٩٥٠) أكد فيه بان الاقطار العربية وحدها هي صاحبة الحق في الحفاظ على الامن والاستقرار في المنطقة ، وأوضح البيان بأن الوسيلة الناجعة لبلوغ ذلك هي حل المسائل المعلقة على أساس من العدل والحق ، والاسراع بتنفيذ قرار الامم المتحدة الداعي الى عودة الفلسطينيين الى ديارهم وتعويضهم عن الخسائر التي لحقت باملاكهم وثرواتهم . وانتقد توفيق السويدي ، رئيس الوزراء العراقي ، البيان موضحا بان الهدف من ورائه خدمة مصالح الكيان الصهيوني والتدخل في شؤون الاقطار العربية[٣٢] .

ولعل اخفاق الغرب في مساعيه للتعاون مع العرب يرجع بالاساس الى عدم تفهمه للمطامح القومية العربية ، وللقلق الناجم عن قيام الكيان الصهيوني ، أو حاجة الامة العربية الى اقامة نوع من الاتحاد او التعاون العربي لدرء الاخطار الخارجية ، فقد نظر الغرب الى الشرق الاوسط من خلال مصالحه فقط واعتبره جزءا متمما لسياسته الاوروبية وميدانا ملحقا بميادين الحرب الباردة التي كان يخوضها . ومن هذا المنطلق أقرت

الولايات المتحدة بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا وتركيا فكرة انشاء ما سمي «مشروع القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط» وحاولت اقناع مصر لتكون عضوا مؤسسا في المشروع(٣٣) .

وقد سلمت الدول الاربع في (١٣ تشرين الأول ١٩٥١) مذكرة الى حكومات مصر وسوريا والعراق ولبنان والاردن والسعودية ، وفي (١٠ تشرين الثاني ١٩٥١) أصدرت الدول الاربع بيانا تضمن الاعلان عن قيام القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط، وتضمن البيان الامور المهمة الآتية :

١ ـ ان الدفاع عن الشرق الاوسط أمر حيوي للعالم الحر ، وان الدفاع ضد العدوان الخارجي يكفل فقط عن طريق التعاون بين الدول التي يهمها الأمر .

٢ ـ ان وظيفة قيادة الشرق الاوسط هي مساندة الدول التي ترغب الاشتراك في الدفاع عن الشرق الاوسط ، وتنمية قابلية كل دولة كي تصبح قادرة للوقوف ضد اي عدوان خارجي ، وان هذه القيادة لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء .

٣ ـ ان تحركات القوات الموضوعة تحت تصرف القائد العام للشرق الاوسط داخل اراضي الدول المشتركة في الدفاع عن الشرق الاوسط تتم فقط بعد موافقة الدولة أو الدول المعنية ـ طبقا لاستقلالها وسيادتها(٣٤) .

أثار نشاط الدول الغربية ومساعيها لتكوين منظمة القيادة العليا للدفاع عن الشرق الاوسط ، الاتحاد السوفييتي الذي أدرك ان هذا التنظيم الاقليمي العسكري موجه ضد المصالح السوفييتية في المنطقة واعتبره عملا عدوانيا ضده ، فقدم مذكرة الى الحكومة العراقية والحكومات العربية الاخرى في (٢١ تشرين الثاني ١٩٥١) أوضح فيها أن الهدف من خلق القيادة المشتركة هو خدمة الاستعدادات الحربية للدول الاستعمارية ، ولفت نظر الحكومة العراقية الى ان اشتراكها في القيادة المذكورة سيسيء الى العلاقات القائمة بين العراق والاتحاد السوفييتي ، ولقضية السلام والامن في منطقة الشرقين الاوسط والادنى(٣٥) .

وعلى الصعيد الداخلي ، قوبلت الدعوة لقيام القيادة العليا للحلفاء بمعارضة شعبية واسعة عبرت عنها الاحزاب السياسية في بياناتها والصحافة الوطنية في تعليقاتها التي تدعو فيها الى الحياد في الصراع الدولي ، واصدرت مجموعة من السياسيين بيان الحياد في (١٩ آذار ١٩٥١) الذي جاء فيه :

«ان أعظم نعمة نبتغيها هي نعمة السلام والتخلص من الاستعمار والتمتع بحياة سياسية حرة والحصول على استقلال كامل غير منقوص، وضمان تمتع الشعب العراقي بحقوقه الدستورية البرلمانية التي مازال محروما من التمتع بها ورغبة منا في تحقيق ذلك نعلن ان الانحياز الى أية كتلة من الكتلتين المتنازعتين ، سواء أكان ذلك في الحرب الباردة القائمة بينهما أو الاصطدام المسلح الذي يحتمل أن يقوم ، يعرض البلاد العربية عامة والعراق خاصة الى اخطار جسيمة تجلب الينا الكوارث والدمار وتلقي بابنائنا الى التهلكة او قد تودي بكياننا في سبيل مطامع استعمارية لا شأن لنا بها .

والشعب العراقي راغب كل الرغبة في التعاون مع الشعوب العربية الاخرى وجميع الشعوب المحبة للسلام لتأليف جبهة تقف من هذا الصراع القائم والاصطدام المسلح عند نشوبه موقف الحياد التام»(٣٦) .

استقطبت الدعوة الى الحياد الجماهير الشعبية الواسعة ، وتحددت اهداف الحركة الوطنية بالامور التالية :

١ ـ الغاء معاهدة ١٩٣٠ العراقية ـ البريطانية .

٢ ـ جلاء الجيوش الاجنبية عن العراق جلاء تاما .

٣ ـ رفض مشروع الدفاع عن الشرق الاوسط وكافة المشاريع الاستعمارية الهادرة لسيادة العراق .

٤ ـ تحريم الدعاية للحرب وافساح المجال امام المنظمات الوطنية لممارسة نشاطها في سبيل السلام والاستقلال(٣٧) .

وقد دفع الموقف الشعبي الرافض للمشاريع الاستعمارية والداعي للحياد الحكومة العراقية الى الاعلان عن رفضها رسميا القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط .

رابعا : منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط والاتفاقية التركية ـ الباكستانية :

بعد فشل محاولة الدول الغربية ضم الاقطار العربية الى مشروع القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط ، اقترح المستر ونستون تشرشل، رئيس الوزارة البريطانية ، انشاء منظمة للدفاع عن الشرق الاوسط ، ودرس هذا الاقتراح في اثناء الزيارة التي قام بها للولايات المتحدة في شهر كانون الثاني ١٩٥٢ ، وصدر بيان مشترك أكد فيه الجانبان الامريكي والبريطاني على ضرورة

تحقيق اهدافها المشتركة بانشاء منظمة للدفاع عن الشرق الاوسط بأقرب فرصة ممكنة[٣٨] .

ومن أجل التعرف على موقف حكومات منطقة الشرق الاوسط ، توجه جون فوستر دالاس ، وزير الخارجية الامريكية ، يرافقه هارولد ستاسن ، مدير وكالة الامن المشترك ، وعدد من الشخصيات الامريكية الى المنطقة ، فزار مصر والاردن وسوريا ولبنان والعراق والعربية السعودية والهند والباكستان وتركيا واليونان وليبيا . وفي بغداد اجرى دالاس في (١٧ ايار ١٩٥٣) مفاوضات مطولة مع توفيق السويدي ، وزير الخارجية آنذاك ، حول الدفاع عن الشرق الاوسط، والنشاط الشيوعي ، وايجاد الظروف المساعدة لما سمي «الاعتراف بواقع قيام اسرائيل»، مقابل تعهد الولايات المتحدة بتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية للعراق وسائر الاقطار العربية[٣٩] .

وبعد انتهاء جولة دالاس في الشرق الاوسط وعودته الى بلاده شرح انطباعاته عن نتائج زيارته في خطاب له في التلفزيون في (١ حزيران ١٩٥٣) وجاء فيه :

«ان منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط هي فكرة للمستقبل أكثر منها فكرة ممكنة التحقيق فورا ، فان الكثير من بلدان الجامعة العربية مشتبكة في نزاعاتها مع اسرائيل ومع بريطانيا العظمى أو فرنسا ، ولذلك لا تبدي اهتماما بخطر الشيوعية السوفييتية ، وعلى أي حال فهناك اهتمام اكثر في البلدان القريبة من الاتحاد السوفييتي ، وبصورة عامة نجد أن بلدان النطاق الشمالي تدرك هذا الخطر .. وتوجد رغبة غامضة في قيام منظمة للامن الجماعي ، ولكن ينبغي أن لا تفرض هذه المنظمة من الخارج ، بل ينبغي لها أن تنمو وتزداد الرغبة لها من الداخل بدافع المصير المشترك والخطر العام .

وبينما تنتظر الحكومة الامريكية تأسيس منظمة الامن لهذه المنطقة فانها تستطيع اثناء ذلك ان تساعد في تقوية الدفاع المشترك لتلك البلدان التي ترغب بتقوية نفسها لا احداها ضد الاخرى ، وضد الغرب ، ولكن لتقاوم التهديد المشترك لكافة الشعوب الحرة»[٤٠] .

وهكذا انتهى حلم قيام منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، واستعيض عنها بفكرة النطاق الشمالي لتطويق الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتي ، وكانت الخطوة الاولى في سبيل تحقيق تلك الغاية عقد المعاهدة التركية ـ الباكستانية على أن يتبع ذلك اقامة حلف دفاعي باشراف الولايات المتحدة وتأييد بريطانيا وفرنسا يضم الباكستان وتركيا والعراق وايران . وقد وصفت هذه الخطة بانها تجديد لميثاق «سعد أباد» استبدلت فيها افغانستان بباكستان ، بحيث تنشأ قوة عسكرية تستطيع الوقوف بوجه الاتحاد السوفييتي ، وتضم ما يقرب من مليون جندي مجهزين بالاسلحة الحديثة التي ستجهزها الولايات المتحدة لجيوش دول الحلف[٤١] .

أثارت الانباء حول مشروع المعاهدة التركية ـ الباكستانية واحتمال ضم العراق اليها الاحزاب السياسية والصحافة الوطنية في العراق التي اعلنت شجبها لكل المشاريع الحربية . وكتبت جريدة «صوت الاهالي» مقالا افتتاحيا بعنوان «مقاومة مشاريع الشرق الاوسط من أهداف الشعوب العربية» قالت فيه ان الخطة الجديدة للدفاع عن الشرق الاوسط تقوم على ناحيتين هما :

١ ـ تكوين جسر يربط باكستان وايران وتركيا عن طريق المعاهدات الثنائية مع امريكا ، بعد ان ضعف النفوذ البريطاني في الاقطار المذكورة تجاه النفوذ الامريكي .

٢ ـ فرض «اسرائيل» بصورة نهائية على الدول العربية والتمهيد لعقد صلح معها بالضغط على الدول العربية بمختلف الطرق .

ودعت الصحيفة الشعب العربي الى مقاومة مشاريع الشرق الاوسط بكل قوة لما فيها من تهديد لامنه وتعريض وطنه لاخطار الحروب التى لا مصلحة له فيها ، اضافة الى انها تسمح للكيان الصهيوني ان يزدهر ويثبت كيانه الدولي وسط الوطن العربي[٤٢]. وفي الاتجاه نفسه كتبت جريدة «لواء الاستقلال» مقالا بعنوان «هل هنالك مؤامرة لاجراء الصلح مع اسرائيل المعادية وضمها مع العرب الى منظمة الدفاع المشترك عن الشرق الاوسط» ادانت فيه الحكومات العربية المتعاونة مع الغرب موضحة بان الشعب العربي لن يتهاون مطلقا في كل ما من شأنه مسالمة اعدائه ومصالحة جلادي اخوانه وغاصبي أقدس بقعة من بقاع وطنه ومعرضي كيانه الى الاخطار المحتمة[٤٣]

استمرت الصحافة العراقية في انتقاداتها لمشروع المعاهدة التركية ـ الباكستانية، واتهمت الحكومة العراقية بالتحضير للانضمام الى تلك المفاوضات فرد فاضل الجمالي ، رئيس الوزراء ، في مؤتمر صحفي عقده في (٢٤ شباط ١٩٥٤) على الصحافة موضحا بان اتفاق تركيا والباكستان لا

يضر البلاد العربية والاسلامية ، وان العراق لم يدع للانضمام الى الاتفاق ، ولم يطلع على بنوده ، واذا دعي فسينظر في الامر على ضوء «المصلحة الوطنية» ، ومتى ما رأى ان مصالحه الوطنية تدعوه الى اتخاذ اجراء ما فلن يكون ذلك سريا . وتحدث عن التسليح موضحا بأن مصادر السلاح في العالم معروفة اما من روسيا أو الغرب ، وأن تركيا والباكستان قررتا بصراحة وعزمتا على التسلح من الغرب والبلاد العربية غير مسلحة وهي لا تريد أن تتعاون مع هذه الجهة او تلك فمن اين ستتسلح وما هو مصيرها ؟[٤٤].

فسرت تصريحات الجمالي بانها لجس النبض تمهيدا لربط العراق بالكتلة المقترحة ، وقالت جريدة «العمل» ان «الغموض الواضح في قول الرئيس يشير الى انه لا يستطيع الآن ان يحدد موقفه من موضوع الحياد ، بل ان كلام الرئيس يشم منه .. جر العراق بالتدريج نحو المعسكر الانكلو ـ امريكي .. فالدكتور الجمالي سيتعاون مع الغرب في سبيل التسلح ، فلماذا لا يتسلح من روسيا مثلا ويقف الى جانبها اذا كان هو على هذه الدرجة من حب السلاح والتسلح ، وهناك دول تبيع السلاح بلا معاهدات وبلا مشاريع دفاع .. ومن المؤسف ان يورط الدكتور الجمالي نفسه ووزارته ويدفع العراق في حضن الامريكان والانكليز»[٤٥] .

وقامت الصحافة الحزبية والوطنية بنشر المقالات الضافية عن مشروع المعاهدة التركية ـ الباكستانية ، ونشر بيانات الاحزاب ومذكراتها وبرقيات الجماهير الشعبية الداعية الى عدم زج العراق في مثل هذه المشاريع، وقد اجمعت الاحزاب والصحافة على الامور الآتية :

١ ـ ان الامة العربية قررت بصورة حاسمة ان تتحرر من الاستعمار والروابط الاستعمارية بجميع اشكالها وصيغها ، واعادت الى الذاكرة رفض الشعب العربي في مصر والعراق لمعاهدتي صدقي ـ بيفن ، وبورتسموث ، وحذرت الحكومة العراقية من التورط بأي التزام يرفضه الشعب .

٢ ـ ان الشعب العربي ينشد السلام قبل كل شيء ، كما تنشده بقية شعوب العالم ولذلك يهمه تأمين نفسه من اخطار المشاريع الاستعمارية ، والابتعاد عن ويلات الحرب ، وعدم التضحية بالمصالح القومية في سبيل مصالح الاستعمار العالمي . ولذلك تحذر الحركة الوطنية الحكومة العراقية من زج العراق بأي حلف استعماري باسم «الدفاع المشترك» أو أي اسم آخر ، وتحميلها المسؤوليات الخطيرة التي تنجم عنه .

٣ ـ الدعوة الى الوقوف على الحياد في الصراع الدولي ، وعدم الانحياز الى المعسكر الغربي ، وتحذير الفئات الحاكمة الداعية الى الانحياز الى الغرب من مغبة السير في خطط الاستعمار ، وتحميلها مسؤولية ربط الجماهير الشعبية في حرب لا مصلحة لها فيها[٤٦] .

وانتقلت المعارضة ضد مشروع المعاهدة التركية ـ الباكستانية الى المجلس النيابي ، فتحدث عدد من النواب عن مخاطر زج العراق في الاحلاف الحربية ، ودعوا الحكومة الى اليقظة بالنسبة للاحداث العربية والعالمية ، ونبهوا الى الاتصالات التي تجريها الحكومة مع تركيا وباكستان ، وطالب النائب حسن عبدالرحمن بالحياد في السياسة الدولية لأنه السياسة السليمة بالنسبة للاقطار العربية . وقال النائب رمزي العمري ان مسألة الدخول في أية اتفاقية عسكرية لغرض الدفاع خارج حدود الدول العربية مسألة خطيرة ومهمة جدا ، وقال ان الشعب يجد دول الغرب تعارض أمانيه وتقف حجر عثرة في سبيل تحقيق كل آماله . ورد فاضل الجمالي ، رئيس الوزراء ، على النواب المنتقدين زاعما بأن المعارضة تخلق شيئا من لا شيء وتقوم بمهاجمة ذلك الشيء ، وأضاف بان العراق لم يطلب اليه ولن يطلب منه الانضمام الى مشروع الاتفاقية التركية ـ الباكستانية[٤٧] .

وأوضح تقرير خاص للشرطة موقف الرأي العام من مشروع الاتفاقية التركية ـ الباكستانية ، وجاء فيه :

«يبدو من أحاديث الجمهور ـ وأخص منهم الطبقة المثقفة في البلد ـ أن الرأي العام غير مهيأ لتقبل فكرة دخول العراق في الحلف الباكستاني التركي . وقد صرح المعتدلون من المتحدثين بهذا الموضوع ان الحكومة ملزمة ـ اذا كانت تنوي بالفعل تحقيق مثل هذه الفكرة ـ ان تهيىء الرأي العام لها مدة طويلة عن طريق الدعايات والاقناع والاجتماع برجال السياسة وتبادل الآراء معهم ، واستمزاج رأي الاحزاب ومحاولة أخذهم بالحسنى وصرف المبالغ اللازمة للصحف لنشر الآراء الايجابية حتى ولو كان ذلك سيستلزم الانتظار لمدة طويلة .. أما السير بالمشروع قبل التمهيد له فانه قد يؤدي بأكثر احتمال ـ كما يقول ـ الى خلق جو من الفوضى والشغب قد يكرر حوادث معاهدة بورتسموث وقد يكون أكثر منها تأثيرا على الاستقرار والامن في الزمن الآتي القريب»[٤٨] .

ان هذه المعارضة الشعبية الواسعة اجبرت حكومة فاضل الجمالي على صرف النظر عن الانضمام الى الجهود الجارية لعقد المعاهدة بين تركيا والباكستان ، واستمرت المفاوضات فقط بين تركيا والباكستان وانتهت الى توقيع المعاهدة في (٤ نيسان ١٩٥٤) والتي تضمنت أمورا عدة أهمها :

١ ـ يتعهد الطرفان المتعاقدان بالامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر ، وكذلك عدم الانضمام الى أي حلف أو نشاط يوجه ضد الطرف الآخر .

٢ ـ التشاور في الامور الدولية التي تمس مصالحهما المشتركة ، والتعاون المشترك لحماية مصالح الطرفين .

٣ ـ التشاور في شؤون الدفاع المشترك للطرفين ، ويجري تعاونهما فيما يلي :

أ ـ تبادل المعلومات للانتفاع مشتركا من الخبرة والتقدم الفنيين .

ب ـ العمل على قدر الامكان على توفير حاجة الطرفين من منتجات الاسلحة والعتاد .

جـ ـ في حالة هجوم دولة على أخرى يقوم الطرفان بالتعاون بينهما(٤٩) .

وقد اثارت هذه المعاهدة قلقا واضحا في العديد من اقطار الشرق الاوسط ، واشارت التقارير الصحفية الى ان هذه المعاهدة ما هي الا النواة ، اذ تهدف الى جر بعض الاقطار الاخرى في المنطقة لتشكيل منظمة دفاعية واسعة النطاق في الشرق الاوسط»(٥٠) . ووصف ولدمار غلمن Golleman، سفير الولايات المتحدة في العراق آنذاك ، المعاهدة بأنها كانت الخطوة الاولى نحو تحقيق فكرة دالاس عن النطاق الشمالي ، كما كانت قاعدة لميثاق بغداد(٥١) .

خامسا/ اتفاقية المساعدات الامريكية للعراق :

اتجهت وزارة فاضل الجمالي الاولى (١٧ ايلول ١٩٥٣) في السياسة الخارجية نحو الغرب ، وبخاصة الولايات المتحدة ، ومن مظاهر هذا التوجه اسراع الحكومة العراقية الى الاتصال مع الحكومة الامريكية للحصول على المساعدة العسكرية . ويذكر فاضل الجمالي بان طلب المعونة العسكرية كان منذ أيام الوزارة السابقة ، وزارة جميل المدفعي السابعة(٥٢) . وقد أوضحت الحكومة الامريكية للعراق ، بصورة سرية ، في (٥ كانون الثاني ١٩٥٤) بانها راغبة في تقديم المساعدة للعراق ، اذا انضم الى الجهود الجارية لعقد المعاهدة بين تركيا والباكستان ، وطلبت من رئيس الوزراء الاجابة على طلبها خلال اسبوعين(٥٣) .

تسربت انباء الاتصالات السرية الى الصحافة ونشرت جريدة اليقظة نبأ بعنوان «مساعدات عسكرية امريكية للعراق» . نقلت فيه عن وكالة رويتر قيام الولايات المتحدة ببحث عقد اتفاقية للمساعدات العسكرية للعراق ، واضاف النبأ ان خبراء السياسة الخارجية والشؤون الاستراتيجية في الولايات المتحدة رأوا ان فكرة انشاء ميثاق للدفاع المشترك عن الشرق الاوسط أصبحت ميتة ، وعلى ذلك قرروا تسوية الامر مع الحكومة المهتمة بالامر في سبيل عقد اتفاقيات منفصلة معها لمدها بالمساعدات العسكرية(٥٤) . ونشرت جريدة صوت الاهالي أنباء النشاطات الامريكية تحت عنوان «هل ستعرض أمريكا على العراق مشروع اتفاق عسكري» اشارت فيها الى قيام الولايات المتحدة بالتفاوض مع بعض دول الشرق الاوسط لتقديم مساعدات عسكرية لسد الثغرة الدفاعية في المنطقة ، وان المفاوضات في هذا السبيل لازالت جارية مع العراق ، ونقلت عن جريدة النيويورك تايمس الامريكية قولها ان امداد العراق بالسلاح يدعو الى التعاقد مع مصانع السلاح البريطانية ، وذلك لتجنب مشكلة تسليح العراق بسلاحين مختلفين امريكي وبريطاني(٥٥) .

أثارت هذه الانباء الصحفية الاحزاب السياسية والمعارضة البرلمانية ، فتساءل أحد النواب ، وهو عبدالرزاق الحمود ، عن صحة هذه الانباء وحذر الحكومة من الاقدام على مثل هذا الامر لأن فيه استفزازا للشعب العراقي . فرد فاضل الجمالي ، رئيس الوزراء ، في المجلس النيابي في يوم (١٦ كانون الثاني ١٩٥٤) زاعما عدم صحة هذه الانباء وعدم حصول أي اتفاق(٥٦) . كما أثارت الانباء الصحفية العناصر الصهيونية في الولايات المتحدة ، التي احتجت بشدة على تقديم المساعدات العسكرية للاقطار العربية .

استمرت الاتصالات بين العراق والولايات المتحدة ، ونشط موسى الشابندر ، السفير العراقي في واشنطن في اجراء هذه الاتصالات مع المستر بايرود ، مسؤول الشرق الاوسط في وزارة الخارجية الامريكية ، واخبار الحكومة العراقية عن نتائجها . وعن مقابلته المستر بايرود في (٢٥ كانون الثاني ١٩٥٤) أرسل البرقية الآتية :

«أبدى مستر بايرود أسفه الشديد على التأخير وعلى الضجة التي أثيرت في الصحف . أكد لنا

مجددا بأن ذلك لن يؤثر على القضية . قلنا له ان التأخير يفسح المجال للشغب وقد يضر المصلحة المشتركة»(٥٧) .

وعن مقابلته المستر بايرود في (٩ شباط ١٩٥٤) ارسل البرقية الآتية : «قابلنا اليوم المستر بايرود . على اثر كتاب ارسله خمسة وثلاثون من أعضاء الكونغرس الى وزير الخارجية محتجين على منح الدول العربية المساعدات العسكرية بحجة أنها ما تزال بحالة حرب مع اسرائيل . قال لنا انه لا تأثير للاحتجاج على جوهر الموضوع . وان كان هذا يعرقل الاسراع في البت فيه . ان الحكومة الامريكية تفضل التريث حتى يتم الاتفاق بين تركيا والباكستان ، وان الحكومتين المذكورتين ستفاتحان العراق في هذا الموضوع . وبعدئذ ستتصل الحكومة الامريكية بالعراق»(٥٨) .

وعن مقابلته المستر بايرود في (١٣ شباط ١٩٥٤) أرسل البرقية التالية : «قابلنا مساء أمس المستر بايرود . أخبرنا بمقابلة سفيرهم في بغداد لفخامة الجمالي وابلاغه استعداد الولايات المتحدة الامريكية لاسداء المساعدات اذا قرر العراق الانضمام الى الاتفاق التركي الباكستاني . يعتقد بأن اللجنة الامريكية التي ستسافر الى الباكستان لدرس احتياجاتها العسكرية ستمر بالعراق في طريق العودة لنفس الغرض اذا رغبت الحكومة العراقية في ذلك»(٥٩) .

يتضح من الاطلاع على نصوص هذه البرقيات الامور الآتية :

١ ـ استمرار الاتصالات بصورة سرية بين الولايات المتحدة والعراق لعقد اتفاقية المساعدات العسكرية ، وان هدف الجمالي في تكذيب وجود مثل هذه الاتصالات هو بقصد التمويه لامتصاص النقد الشعبي .

٢ ـ ربط الولايات المتحدة بين اتفاقية المساعدات العسكرية للعراق وبين الجهود الرامية لضم العراق لمشروع المعاهدة المنوي عقدها بين تركيا والباكستان .

لم تستطع وزارة الجمالي الاولى عقد الاتفاقية فقد استقالت في (٢٧ شباط ١٩٥٤) واعاد الجمالي تشكيل الوزارة للمرة الثانية في (٨ آذار) فاستمرت الوزارة باجراء الاتصالات مع الولايات المتحدة ، وانتهت المفاوضات الى تبادل الرسائل مع السفير الامريكي في (٢١ نيسان ١٩٥٤) وفيها وافقت الولايات المتحدة على منح العراق مساعدات عسكرية تتناسب من حيث النوعية والتوقيت والكمية مع التطورات الدولية في المنطقة ، واشترطت الولايات المتحدة في الاتفاقية على العراق الامور التالية :

١ ـ ان لا تستعمل الحكومة العراقية المعدات والمواد والخدمات التي قد تزود بها الا لغرض المحافظة على الامن الداخلي ، والدفاع المشروع عن النفس ، وان لا تقوم بأي عمل اعتدائي ضد أية دولة اخرى .

٢ ـ ان توافق الحكومة العراقية على المساهمة مساهمة تامة ، بقدر ما تسمح بها طاقتها البشرية ومواردها وتسهيلاتها وأوضاعها الاقتصادية العامة ، لتنمية وادامة قوتها الدفاعية والقوة الدفاعية للعالم الحر .

٣ ـ تقوم الحكومة العراقية بتجهيز حكومة الولايات المتحدة وحلفائها ، بأية معدات أو خدمات مما يفيض عن احتياجات العراق نفسه ، أو أية مساعدات اخرى قد يتفق عليها وذلك لغرض زيادة مقدرتها على الدفاع عن النفس الفردي او الجماعي .

٤ ـ ان حكومة الولايات المتحدة قد تلتمس الحكومة العراقية تسهيل انتاج وتصدير مواد أولية أو شبه أولية مصنوعة مما قد توجد في العراق الى الولايات المتحدة ، والتي تحتاجها الاخيرة بسبب نقص أو احتمال حصول النقص في مواردها بموجب شروط وأحوال يتفق عليها(٦٠) .

من الاطلاع على الاتفاقية يمكن القول بأن الولايات المتحدة اشترطت عدم استعمال هذه المساعدات ضد «اسرائيل» لان كل عمل يقوم به العراق ضد الكيان الصهيوني يعتبر من وجهة نظر الولايات المتحدة من أعمال العدوان ، وهذا بالضد مما ذكره فاضل الجمالي في مذكراته حينما قال :

«حاول الامريكان الحصول على وعد خطي بألا تستخدم هذه الاسلحة ضد اسرائيل ، فرفضنا ذلك رفضا باتا ، وقلنا بأنا نتعهد بألا تستخدم هذه الاسلحة في أي عدوان على أية جهة كانت بل نستخدمها للدفاع عن حقوقنا وحقوق العرب»(٦١) .

ولا أدري ماذا يفهم الجمالي من عدم استخدامها في أي عدوان على أية جهة كانت ؟ وهل هو لا يدرك مفهوم العدوان من وجهة النظر الامريكي ؟ كما لا يوجد نص رسمي يؤيد ادعاء الجمالي في استخدام الاسلحة للدفاع عن حقوق العراق والعرب . يضاف الى ذلك ان الاتفاقية الزمت العراق ان يضع موارده البشرية والاقتصادية ، وبخاصة النفط ، لخدمة

الاستعدادات الحربية للولايات المتحدة وحلفائها في منطقة الشرق الاوسط .

حاولت الحكومة العراقية تضليل الرأي العام بعدم نشر نصوص الاتفاقية ، وأصدرت البيان الرسمي الآتي :

«رغبة في توسيع تشكيلات الجيش العراقي وتقويته . كانت قد طلبت الحكومة العراقية في آذار ١٩٥٣ مساعدات عسكرية من الولايات المتحدة الامريكية . وبعد اتصالات مستمرة يسرنا أن نعلن ان حكومة الولايات المتحدة قد وافقت على تزويد الجيش بالمساعدات العسكرية بدون أية شروط أو التزامات سياسية أو تحالفية»(٦٢) .

علقت جريدة صوت الاهالي على البيان موضحة ان تسليح العراق تسليحا حقيقيا يتنافى مع مصالح الولايات المتحدة وغاياتها الاستعمارية في العراق ، لان الاستعمار هو العقبة الوحيدة امام تسليح الجيش العراقي وتقويته ، لذلك لابد من أن تكون هناك شروط لاعطاء المساعدات العسكرية ، مما يزيد في انتقاص حرية العراق وانتقاص استقلاله ، وان هذه المساعدات العسكرية معناها :

١ ـ دخول العراق في فلك السياسة الامريكية وتحمله كل ما يتبع تلك السياسة من مسؤوليات خطرة على استقلاله وكيانه .

٢ ـ ان قبول المساعدات العسكرية ليس الا خطوة تمهيدية للتعاون من أجل تنظيم الكتلة العسكرية التي مازالت امريكا تسعى لتنظيمها لادخال العراق في الحلف التركي ـ الباكستاني ، وتحقيق التعاون فيما بينها لخدمة الاستعمار .

٣ ـ ان قبول المساعدات يحد من حرية العراق واستقلاله ، ولذلك لابد من نشر المذكرات التي تبودلت حول المساعدات الامريكية لتنوير الرأي العام الذي بات قلقا بشأن هذه المساعدات(٦٣) .

وكتبت جريدة لواء الاستقلال مقالا بقلم محمد صديق شنشل الذي أوضح بأن الولايات المتحدة قد اتخذت من هذه المساعدات وسيلة للتدخل في شؤون الدول الكبرى كبريطانيا مثلا ، فكيف نصدق البيان الحكومي الذي يدعي ان هذه المساعدات قد تقرر منحها للعراق بدون اية شروط او التزامات سياسية أو تحالفية ؟ وطالب الحكومة ان تعلن للرأي العام جميع ما يتصل بالاتفاق ، وان تتقيد باحكام الدستور في عرض نصوص الاتفاق على مجلس نيابي يقر الشعب مشروعيته ، وأوضح بان عدم نشر نصوص الاتفاق وما التزم به العراق يخالف احكام الدستور ويدل على استهانة بالغة بعقول الناس والرأي العام(٦٤) .

لم تعرض الاتفاقية على مجلس الامة لتشريعها ، وحجة الجمالي بان الاتفاقية لا تحتاج الى عرض على المجلس لأنها لا تلزم العراق بشيء سوى المحافظة على المواد وعدم بيعها او تسليمها لجهة أخرى وعدم استخدامها لاغراض عدوانية ، وانها ليست ملزمة لأي من الطرفين ، ففي أي وقت شاء أحد الطرفين يستطيع انهاءها ، وهي ليست سرية فقد أذيع بيان رسمي عنها ، وجرت اتصالات مع عدد من رجال السياسة حولها بما في ذلك بعض المعارضين ، وأوضح الجمالي بانه اذا كان هناك لزوم لعرضها على المجلس النيابي فيقع على عاتق نوري السعيد لان وزارته استقالت في اليوم التالي لتوقيع الاتفاقية ولم تجابه المجلس ، ثم جاءت وزارة ارشد العمري التي حلت المجلس النيابي ، ثم وزارة نوري السعيد التي اجرت انتخابات نيابية ثانية(٦٥) .

ومهما يكن من أمر فقد قوبلت الاتفاقية بمعارضة جماهيرية واسعة ، وأجمل تقرير خاص للشرطة موقف الرأي العام منها فاشار الى ظهور نشاط محسوس بين طلبة الكليات ، الذين اخذوا يعقدون الاجتماعات في نوادي الكليات وقاعاتها لبث الدعاية ضد الاتفاقية ، واوضحوا بان ما تدعيه الحكومة من عدم وجود التزامات من قبل العراق ما هو الا بقصد تضليل الشعب وخداعه لسلب حريته وربطه بعجلة الاستعمار . ورفعت بعض الملصقات في بعض الكليات تندد بالاتفاقية ، واصدرت بعض الاحزاب والمنظمات السياسية بيانات هاجمت فيها عقد الاتفاقية هجوما شديدا(٦٦) .

سادسا : ميثاق بغداد :

يبدو أن نوري السعيد قد أدرك أهمية تنظيم التعاون مع الدول الغربية ، كما أدرك بان السبل الكفيلة لاحلال صيغة جديدة للتعاون مع بريطانيا ، تحل محل معاهدة ١٩٣٠ التي أصبحت وشيكة الانتهاء ، هي ايجاد تنظيم اقليمي يشترك فيه العراق مع بريطانيا وبعض دول الشرق الاوسط . فاعلن في شروطه لتولي الوزارة والتي قدمها الى الملك في (٣١ تموز ١٩٥٤) بان سياسته الخارجية يجب أن تهدف الى ضمان سلامة العراق وان تنسجم مع التطورات العالمية ، وخاصة الاتفاق التركي ـ الباكستاني ، والاتفاق المصري ـ البريطاني ، اللذين أوجدا حالة سياسية يجب على العراق الانتباه لها والاهتمام بها . ولذا فان سياسته الخارجية ترتكز على الاسس التالية :

١ ـ انهاء المعاهدة العراقية ـ البريطانية لعام ١٩٣٠ .

٢ ـ الحرص على تعزيز علاقات الاخوة والصداقة مع البلاد العربية .

٣ ـ العمل على توثيق العلاقات مع الدول المجاورة ، وتعزيز التعاون بينها وبين الدول العربية لدفع الخطر الصهيوني .

شكلت وزارة نوري السعيد الثانية عشرة في (٣ آب ١٩٥٤) وبعد يومين من تشكيلها وصل الى العراق صلاح سالم ، وزير الارشاد القومي المصري ، واجرى مباحثات مع نوري السعيد . ويقول نوري السعيد في روايته لما جرى في المباحثات ان صلاح سالم أوضح بان مصر قد وقعت بالاحرف الاولى على معاهدة الجلاء مع بريطانيا ، وان مصر قبلت بعودة الجيوش البريطانية الى قاعدة القنال اذا هوجمت الدول العربية وتركيا ، وفي مثل هذه الظروف على مصر والعراق ان يتعاونا لتسيير بقية الدول العربية .

ويقول نوري السعيد انه اوضح لصلاح سالم سياسة العراق في المنطقة ، وبأن له خصمين هما :

١ ـ الخطر الصهيوني ، وخطة العراق تجاهه تستند دائما على جلب اكثر ما يمكن من الدول الاسلامية لمساندته ضد هذا الخطر .

٢ ـ الشيوعية خطر يتعاون عليه العالم كله .

كما يذكر نوري السعيد اتفاق وجهات النظر العراقية والمصرية ، على ان يقوم هو بزيارة القاهرة لاستكمال المباحثات[٦٧] .

ولتحقيق أهداف نوري السعيد في السياسة الخارجية استطاع الحصول على قرار من مؤتمر وزراء الخارجية العرب الذي عقد في القاهرة في (١٢ كانون الاول ١٩٥٤) نص على التعاون مع الدول الغربية على الاسس التالية :

١ ـ حل القضايا العربية حلا عادلا .

٢ ـ توفير القوة اللازمة للبلاد العربية كي تحافظ على سلامتها وكيانها من أي عدوان ، دون ان يكون في ذلك اي انتقاص لسيادتها[٦٨] .

بدأ نوري تحركاته ، فزار القاهرة لكن زيارته جاءت بنتائج عكسية حيث بدأت اجهزة الاعلام المصرية بمهاجمة خطط السعيد متهمة إياه بأنه يريد الانضمام الى الاتفاقية التركية ـ الباكستانية ، ويعمل على تخريب الجامعة العربية .

وزار نوري لندن واجرى اتصالات مع الساسة البريطانيين ، ادخلت السرور الى نفس انتوني ايدن، وزير الخارجية البريطانية آنذاك ، لانها كانت منسجمة مع المخططات الانكلو ـ امريكية في المنطقة[٦٩] . وفي طريق عودته زار نوري تركيا واجتمع مع عدنان مندريس ، رئيس وزرائها ، واتفق الجانبان على التفاهم من أجل تأمين الاستقرار وتكوين جبهة أمن مشتركة . وقد اورد السفير الامريكي في بغداد النقاط التي اتفق عليها الطرفان، كما رواها نوري السعيد للسفير وهي :

١ ـ ان سلامة تركيا والعراق تتطلبان انشاء تعاون مع جيرانهما ، وان احسن حل لذلك يتم باشتراك جميع الدول العربية مع ايران والباكستان .

٢ ـ وان المحاولات ستبذل اثناء المحادثات التي كانت كل من تركيا والعراق مزمعة على اجرائها مع مصر ، وان تسعى الدولتان لاشراك مصر بهذه المجموعة .

٣ ـ يستمر الاتصال بين تركيا والعراق على أمل ترتيب محادثات مع سوريا وايران والباكستان .

٤ ـ أوضح نوري بان دور العراق في الخطة الدفاعية سيكون :

أ ـ حماية الممرات الشرقية ضد الهجمات البرية المعادية .

ب ـ حماية آبار النفط ضد الغارات الجوية والذرية .

٥ ـ كما أوضح نوري لمندريس بأنه يجب اتخاذ التدابير ضد الدعايات الشيوعية والصهيونية التي تستهدف منع التقارب بين البلاد العربية وتركيا . فوافق مندريس على هذا ، وأضاف بأن التدابير التي سبق ان اتخذت ، ولا سيما في العراق ومصر ، قد سببت ارتياحا عظيما في تركيا .

٦ ـ وأخيرا تم الاتفاق على ضرورة المساعدات المتبادلة في الحقل الاقتصادي بصورة اكثر فعالية مما جاء بالاتفاقية السابقة حول التعاون الاقتصادي الثقافي المعقودة سنة ١٩٤٦[٧٠] .

وصل مندريس الى بغداد في (٦ كانون الثاني ١٩٥٥)، وصدر بيان مشترك اعلنت فيه الدولتان رغبتهما في توسيع التعاون بينهما وعقد اتفاق يرمي الى التعاون لصد أي اعتداء يقع عليهما من داخل المنطقة او خارجها . وعاد مندريس الى بغداد ثانية في (٢٣ شباط ١٩٥٥) وتم التوقيع في اليوم التالي على «ميثاق التعاون المتبادل بين العراق وتركيا» الذي تضمن الامور المهمة الآتية :

١ ـ التعاون بين الدولتين لغرض صيانة سلامتهما والدفاع عن كيانهما وفقا لاحكام المادة (١٥) من ميثاق الامم المتحدة .

٢ ـ التعهد بعدم التدخل بأي شكل من الاشكال في الشؤون الداخلية لاحدهما الاخرى ، وفض النزاع بينهما بالطرق السلمية .

٣ ـ التأكيد على أنه ليس في احكام هذا الميثاق ما يتناقض بالالتزامات الدولية التي ترتبط بها احداها مع دولة أو دول ثالثة ، وان لا يدخلا في أية التزامات دولية تتعارض وهذا الميثاق .

٤ ـ يكون هذا الميثاق مفتوحا للانضمام اليه من قبل أية دولة من دول الجامعة العربية وغيرها من الدول التي يهمها أمر السلم والامن في هذه المنطقة بصورة فعالة ، والمعترف بها اعترافا كاملا من كلا الفريقين الساميين المتعاقدين .

٥ ـ يشكل مجلس دائم من الوزراء للعمل ضمن نطاق اهداف هذا الميثاق ، وذلك عندما يبلغ عدد الدول الاطراف في هذا الميثاق ما لا يقل عن الاربعة ، ويقوم المجلس بوضع نظامه الداخلي .

٦ ـ يكون هذا الميثاق نافذا لمدة خمس سنوات ، ويعتبر مجددا لمدد أخرى كل منها خمس سنوات ، ولأيّ طرف متعاقد ان ينسحب بابلاغ الاطراف الاخرى تحريريا برغبته في ذلك قبل ستة أشهر من انتهاء اية من المدد المذكورة اعلاه ، ويبقى الميثاق في هذه الحالة نافذا بالنسبة للاطراف الاخرى .

أعلن ايدن ، وزير الخارجية البريطانية تأييده للميثاق تأييدا كاملا ، وأعرب عن أمله في توسيعه ليصبح حلفا للشرق الاوسط بأكمله ، كما أعلن عن رغبته في انهاء المعاهدة العراقية ـ البريطانية لعام ١٩٣٠ للتخلص من «صيغة المعلم والتلميذ» التي اصبحت تتنافى مع تزايد الشعور القومي[٧٦] . فوقعت بريطانيا مع العراق الاتفاق الخاص «Special Agreement» في (٤ نيسان ١٩٥٥) الذي انهى مفعول معاهدة ١٩٣٠، وانضمت بريطانيا الى الميثاق العراقي ـ التركي في اليوم التالي . وقد اوضح الساسة البريطانيون في مجلس العموم الدوافع التي دفعت بريطانيا للانضمام الى الميثاق ومنها استثمار النفط وظهور الحركات القومية والقنبلة الذرية التي خلقت وضعا جديدا يتطلب اعادة النظر في السياسة البريطانية وتكييفها لتناسب الحالات المستجدة الخاصة والظروف الدولية العامة ، وتؤدي الى بناء العلاقات مع اقطار المنطقة على اساس المشاركة مع دول ذات سيادة وعلى قدم المساواة ، وان انضمام بريطانيا للميثاق يعزز من نفوذها ويرفع من صوتها في شؤون الشرق الاوسط[٧٢] . وتبع انضمام بريطانيا انضمام ايران وباكستان الى الميثاق ، فأصبح عدد الدول المشاركة فيه خمس دول فألف المجلس الوزاري الدائم للميثاق الذي أصبح يعرف باسم «ميثاق بغداد Baghdad Pact» وعقد اجتماعه الاول في بغداد يومي (٢١ و٢٢ تشرين الثاني ١٩٥٥) بحضور ممثلين عن الدول الاعضاء .

أما موقف الولايات المتحدة من الميثاق ، فقد اعلن دالاس ، وزير الخارجية الامريكية ، ان الولايات المتحدة تعتبر هذا الامر خطوة بناءة جدا ، وسعيا في تجاه بناء ما يسمى بـ «النطاق الشمالي» الذي كانت تركيا والباكستان من رواده الاوائل[٧٣] . ورحبت الصحف الامريكية بعقد الميثاق فوصفته جريدة النيويورك تايمس بأنه ميثاق جديد للدفاع عن الشرق الاوسط يهدف الى ضم الدول العربية وتركيا تحت رعاية الدول الغربية[٧٤] . ورحبت الواشنطن بوست بانضمام بريطانيا للميثاق وقالت ان دخول بريطانيا قد وسع ميدان الدفاع لمنظمة الناتو North Atlantic Pact الى حدود المحيط الهندي[٧٥] ونشرت النيويورك تايمس مقالا موسعا أوضحت فيه ان بعض القادة العسكريين من الامريكان يحبذون الانضمام الى الميثاق للحيلولة دون تسرب النفوذ الشيوعي الى منطقة الشرق الاوسط بعد أن تأيدت الاخبار بعزم بعض الاقطار العربية على استيراد الاسلحة وارسال بعثات فنية للتدرب لدى «دول الستار الحديدي» ويضع الخبراء الامريكيون أسبابا عدة تبرر دخول الولايات المتحدة الى الميثاق منها :

١ ـ لعدم وجود نظام دفاعي عام في الشرق الاوسط .

٢ ـ لما كانت تركيا والعراق وبريطانيا والباكستان حلفاء فمن المحتمل أن تقوم قوات هذا الحلف في المستقبل بحركات عسكرية اذا داهمها الخطر غير أنها تفتقر الى التنسيق اللازم الامر الذي سيلحق الضرر بكل منها .

٣ ـ تشكل منطقة (زاكروس) والممرات الجبلية بين العراق وايران حصنا منيعا للدفاع عن مناطق النفط ولذلك فتحصين تلك المناطق سيحبط محاولات الغزو الشيوعي .

٤ ـ لا يتطلب انضمام الولايات المتحدة الى هذا الميثاق ارسال جيوش أو تهيئة قيادة امريكية للقوات المحلية ، ويمكن اناطة امر القيادة بموجب اتفاق خاص بتركيا لانها اكبر دول الحلف وأقواها .

٥ ـ يؤدي دخول الولايات المتحدة الى الحلف زيادة فعالية الاعضاء ويهيىء خططا محكمة ، كما

يـؤمن تجهيـزات كـافيـة لمعـدات الجيـوش المحلية(٧٦).

وحث نوري السعيد السفير الامريكي في بغداد لاقناع حكومته بالانضمام الى الميثاق لأنه سيظهر لموسكو بوضوح شعـور الولايات المتحـدة تجاه جهودها لأحداث الفوضى في الشرق الاوسط ، كما ان دخـول الولايات سيقـوي من معنويـات دول الميثاق ويشجع المترددة على الانضمام ، علما بأن انضمامها لا يزيد زيـادة حقيقية في التـزاماتهـا المالية(٧٧) .

ولم تـؤد هذه الجهـود الى اقنـاع الولايـات المتحـدة بالانضمـام الكـامـل للميثـاق بعـد أن أصبحت عضوا مراقبا فيه . وقـد اوفد الرئيس الامريكي مبعوثا خاصا هو المستر نيلسون روكفلر في كـانـون الثـاني ١٩٥٦ لزيـارة دول الشـرق الاوسط ، وبعد عودته قدم تقريرا جاء فيه :

«ان الاحـلاف العسكريـة هي محل كـراهية متزايدة في الوقت الحاضر بسبب الهجوم الفعال الذي يشنـه الروس في سياستهم الخـارجيـة .. وأشير الى حلف بغداد الذي اعتبره دالاس نجاحا كبيرا للدبلوماسيـة الامريكيـة وهذا مـا يدعيـه البريطانيون ايضا .

صحيح أن حلف بغداد يبدو منيعا على الورق والخرائط فهو يربط أربع دول من أقطار الشرق الاوسط في اتحاد عسكري واحد وصديق لنا ذي ميول طيبة نحونا .. وفي الوقت نفسـه لم تنضم معـظم الدول العربيـة الى الحلف لايمانهـا بان الحلف بمـوجب طبيعتـه منـاهض لمصـالحهـا القومية»(٧٨) .

وأوضـح السفـير الامـريكي في بغـداد بـان اجتماعا عقـد في واشنطن في شبـاط ١٩٥٦ بين الرئيس الامـريكي ايـزنهـاور ورئيس الوزارة البريطانية ايدن ، كما عقد اجتماع أخر مع سفراء الدول الاعضاء في الميثاق لدى الولايات المتحدة لمنـاقشة مشـاكـل الشـرق الاوسـط وانضمـام الولايات المتحدة للميثاق لكن الحكومة الامريكية أصرت على موقفها بعدم دخول الميثاق لانه يثير المشاكل مع «اسرائيل» ويزيد في حدة معـارضة مصر ، لا سيما وان الجو في الشرق الاوسط قد بلغ ذروة التأزم فمن الافضل تجنب القيام بأي عمل يزيد في تعقيد الامور ، وان تبقى الولايات المتحدة على هامش الميثاق محتفظة بحرية العمل(٧٩) .

وينقـل تـوفيق السـويـدي رأي دالاس بـان الولايات المتحدة راغبة كل الرغبة في دخول الميثاق كعضـو ، غير أن هـذا الدخول يستلزم مـوافقة الكونغرس الذي فيه عدد لا بأس به من الاعضاء يشترطون لموافقتهم على هذا الدخول اصدار بيان أو وضع تعهد صريح تلتـزم بموجبـه الحكومـة الامريكية بضمـان «دولة اسرائيـل» في وضعها الراهن وحدودها الحاضرة والحكومة غير مستعدة لهذا التعهد(٨٠) .

استمر العراق بالضغط على الولايات المتحدة لدخول الميثاق ، وخـلال احداث السـويس حثها نوري السعيد لدخول الميثاق مـوضحا المخـاطر الناجمة عن عدم الاستقرار في الشرق الاوسط . وقـابل سفـراء دول الميثـاق في واشنـطن وزيـر الخارجية الامـريكية للتـأثير عليه لكن الولايات المتحدة لم تغير موقفها من الميثـاق . وقد ابـرق السفـير العراقي الى حكـومته مـوقف الولايـات المتحدة بالبرقية التالية :

«قابل سفـراء ميثاق بغـداد عدا البـريطاني المستـر دالاس بحضور المستـر هوفـر والمستـر رونتـري . استعرضنـا واياهم خـطورة الحـالة الراهنة في الشرق الاوسط . أجابنا بأني أؤكد لكم بخاصة للعراق بان امريكا ستقوم فعليا بدرء أي خطر يهدد سلامة واستقلال بلادكم وانها لا تتردد بدخول حـرب اذا اقتضى الأمر . وجـدت المستر دالاس ومساعديه مهتمين جدا الاهتمام بـوضع العراق الخاص وبميثاق بغداد بشكل عام»(٨١) .

من الاطلاع على الموقف الامريكي تجاه الميثاق يمكن القول :

١ ـ شجعت الولايـات المتحدة دول الشـرق الاوسط السائرة في فلك السياسة الغربية وحثتها على الانضمام للميثاق العراقي ـ التركي ، الذي اعتبرته تنفيذا لفكرة دالاس عن النطاق الشمالي .

٢ ـ لعبت الولايات المتحدة دورا انتهازيا ، فلم تنضم الى الميثـاق خشية من فقـدانها صـداقة الاقطار العربية المعارضة له ، فكانت بموقفها هذا تتبع سياسة «اللعب على الحبلين» .

٣ ـ اثـر المـوقف الصهيـوني عـلى المـوقف الامـريكي، فقد طالبت العنـاصر الصهيونيـة في الولايات المتحدة بالحصول على ضمانات للكيان الصهيوني مقابل انضمام امريكا لميثاق بغداد .

٤ ـ يبدو ان بعض ساسة الولايات المتحـدة اعتبروا ميثاق بغداد نجاحا للسياسة البريطانية في الشـرق الاوسط، في الوقت الذي كـانت فيـه امريكا تسعى لزحزحة حليفتها والحلول مكانها ، ولذلك لم يسر هؤلاء ان يجدوا بـريطانيـا تجدد قواها في الشرق الاوسط .

وعـارضت فرنسـا ميثاق بغـداد ، وهـاجمت الصحافة الفرنسية الميثاق بشدة بحجة انه ادى

الى ازدياد التوتر في الشرق الاوسط ، والى العمل على تفكيك الجامعة العربية ، لأنه بعيد عن تأمين الامن والسلم والتعاون في المنطقة ، واثار مخاوف الصهاينة من احتمال ازدياد القوة العراقية ازديادا هائلا[٨٢] وقد أجمل تقرير للسفارة العراقية في باريس الموقف الفرنسي بالقول :

«ان الموقف الذي وقفته صحف فرنسا من الميثاق المذكور يعود الى أنها لا تزال تحاول الاحتفاظ بمكانة فرنسا السياسية التي تهدف من ورائها الاشتراك في وضع السياسة التي ترسم مصير الشرق الاوسط وتريد ان تحتفظ بمكانة تشبه المكانة التي تحتلها امريكا وانكلترا في العالم العربي وذلك بغية المحافظة على المصالح الفرنسية في افريقيا الشمالية . وان عدم اطلاع فرنسا على الميثاق المذكور جعلها تعلن الحرب عليه ..»[٨٣]

وقوبل الميثاق بمعارضة شعبية واسعة على صعيد العراق والوطن العربي[٨٤]. ودافع عاقدو الميثاق عن وجهة نظرهم فأوضح فاضل الجمالي بأنه لم يحو شيئا جديدا بالنسبة للعراق وهو استمرار للسياسة التي سار عليها العراق منذ عهد الملك فيصل الأول التي ترمي الى التعاون مع جيرانه في شؤون الدفاع ، وان انضمام بريطانيا للميثاق يهدف الى ضمان مساعدة الغرب في الحصول على السلاح[٨٥]. وبرر برهان الدين باش اعيان ، وزير الخارجية بالوكالة عند عقد الميثاق ، سياسة العراق في التعاون الاقليمي بالامور الآتية :

١ ـ وضع العراق الجغرافي والعسكري ، لأن استراتيجية العراق الدفاعية مرتبطة كل الارتباط باستراتيجية جارته .

٢ ـ ان تعاون العراق والاقطار العربية الاخرى مع الدول الاسلامية من شأنه ان ييسر حل القضايا العربية وفقا للمصلحة العربية ، لا سيما قضية فلسطين .

٣ ـ ان تعاون العراق مع الغرب كان قائما فعلا بوجود المعاهدة العراقية ـ البريطانية لعام ١٩٣٠، وان انهاء هذه المعاهدة لم يكن بالامكان عمليا تحقيقه الا باحدى طريقتين ، فإما أن تحل محلها معاهدة ثنائية جديدة بين العراق وبريطانيا ، أو ان يستعاض عنها بميثاق دفاعي يضم دولا متعددة ، وقد فضل العراق الطريقة الثانية لأن الميثاق يحقق للعراق عنصر التكافؤ في العقد اكثر مما تحققه المعاهدة الثنائية بين دولتين أحداهما صغيرة والاخرى دولة كبرى .

٤ ـ ان مدة الميثاق قصيرة وهي خمس سنوات فقط قابلة للتجديد أو الانسحاب.

٥ ـ ان الاتفاق دفاعي ، ويقتصر في هذه الناحية على تنسيق خطط الدفاع بين الدول المنضمة اليه كل منها داخل حدودها . وان العراق لا يقوم بارسال قوات عراقية الى خارج حدوده ولا بقبول قوات اجنبية داخل اراضيه .

٦ ـ ان سياسة التعاون مع الغرب التي انطوى عليها الميثاق كانت انعكاسا للسياسة التي انطوت عليها اتفاقية الجلاء المصرية ـ البريطانية . ولم تقدم الحكومة على عقد الميثاق الا بعد حصولها سلفا على موافقة اكثر السياسيين العراقيين من اعضاء مجلس الامة ، وفي مقدمتهم رئيسا مجلسي (النواب والاعيان) ورؤساء الوزارات السابقين وبعض وزراء الخارجية السابقين ايضا[٨٦] .

ومهما كانت المواقف متباينة تجاه ميثاق بغداد ، الا أنه يمكن القول بأن دول الميثاق قد حافظت على أمنها الاقليمي وتعاونت فيما بينها لتنسيق سياستها ودفاعها في المنطقة ، غير أنه مكن بريطانيا من الاستمرار في التدخل حتى في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء ، وفرض هيمنتها وآراءها في السياسة الخارجية على اعضائه ، كما أن دول الميثاق فشلت في الوقوف مع المصلحة العربية أو مصلحة الدول الاسلامية وبخاصة عند الهجوم الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ او للدفاع عن القضية الفلسطينية ، كما فشل الميثاق في الدفاع عن الفئة الحاكمة في العراق عند قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ والتي اطاحت بالنظام الملكي واعلنت الجمهورية العراقية التي انسحبت من الميثاق عام ١٩٥٩ .

سابعا/ مشروع ايزنهاور ١٩٥٧ :

استغلت الولايات المتحدة فقدان بريطانيا لمركزها في الشرق الاوسط في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، فارادت الحلول محلها لملء ما سمي بالفراغ في الشرق الاوسط ، فتقدم الرئيس الامريكي ايزنهاور بمشروع الى الكونغرس في (٥ كانون الثاني ١٩٥٧) تضمن النقاط الآتية :

١ ـ ترى الولايات المتحدة ان استتباب الامن في الشرق الاوسط ، كما هو في أوروبا الغربية وفرموزا ، أمر حيوي بالنسبة لها .

٢ ـ مطالبة الكونغرس باتخاذ قرار بشأن استخدام القوات المسلحة الامريكية في الشرق الاوسط عند الضرورة لأن مثل هذا القرار سيمنع الاتحاد السوفييتي من القيام بأي عمل عدواني في هذه المنطقة .

٣ ـ ستتوفر للشرق الاوسط درجة معقولة من الاستقرار ، بحيث يمكن حل المشكلات السياسية للمنطقة[٨٧] .

قررت الحكومة العراقية ارسال وفد على مستوى عال لاجراء مشاورات مع المسؤولين الامريكيين حول النقاط التي تضمنها المشروع الجديد ، واستطلاع الاتجاه الجديد للسياسة الامريكية في الشرق الاوسط ، ورأس الوفد العراقي عبد الاله ، ولي العهد ، وضم في عضويته علي جودت الايوبي وصالح جبر وتوفيق السويدي وفاضل الجمالي ، من رؤساء الوزارات السابقين ، بالاضافة الى أحمد مختار بابان ، نائب رئيس الوزراء واللواء الركن غازي الداغستاني كخبير عسكري .

اجتمع عبد الاله بالرئيس الامريكي ايزنهاور ، واجرى الوفد العراقي اتصالات متعددة مع كبار موظفي وزارتي الخارجية والدفاع . ويصف علي جودت ما دار في المباحثات بقوله :

«شرح اعضاء الوفد أسباب الاضطراب في الشرق الادنى ، وكان مرده ولا شك الظلم الذي أصاب البلاد العربية في قضية فلسطين على صورة تحفظ حقوق العرب وكرامتهم .. فكانت الاجوبة كلها غموضا وتمنيات .. وطالب الوفد وزير الخارجية باعطاء الاسلحة والعتاد الضرورية لاكمال نقائص الجيش العراقي ، فأجاب الوزير الامريكي انه يستغرب من الحاح العراق على امريكا بتقديم السلاح وتكديسه ، فاجابه الخبير العسكري (غازي الداغستاني) ان العراق لا يلح عليكم بطلب الاسلحة لتكديسها وانما هو يطلبها لاكمال تجهيز الفرقة التي تألفت أخيرا بحسب الخطة المقررة بموجب ميثاق بغداد ، وبعلم من الحكومة الامريكية التي سبق وعدها بالمساعدة على تأمين حاجات هذه الفرقة»[٨٨].

ويذكر فاضل الجمالي ، الذي كان المتحدث باسم الوفد بأنه طالب الولايات المتحدة بالضغط على العدو الصهيوني للانسحاب من الاراضي المصرية بسرعة ، ولم تكن مطالبة الجمالي هذه تنطلق من الحرص على تحرير الارض العربية ، وانما كما يقول «لأن الحكومة السورية أعلنت ان تصليح مكائن النفط لن يسمح به الا بعد جلاء اسرائيل تماما من الاراضي المصرية وغزة»[٨٩] .

ويبدو أن الطرفين العراقي والامريكي اتفقا على مواصلة التباحث في بغداد ، فوصل المستر ريتشاردز ، مبعوث الرئيس الامريكي الخاص الى بغداد في (٦ نيسان ١٩٥٧) وقدم ايضاحات للحكومة العراقية حول مشروع ايزنهاور زاعما بان المشروع لا ينص على تدخل القوات الامريكية في أمر أية دولة من دول الشرق الاوسط الا اذا تعرض ذلك البلد الى الخطر الشيوعي وطلب مساعدة الجيش الامريكي ، واعلن ريتشاردز استعداد حكومته للدخول في اللجنة العسكرية لميثاق بغداد ، وصدر بيان مشترك عن المباحثات تضمن قبول العراق لمشروع ايزنهاور بحجة ضرورة التعاون للدفاع عن مصالحهما المشتركة ، وان هدف الولايات المتحدة ليس اقامة قواعد عسكرية او اقامة اية منطقة نفوذ لها في العالم ، وتعهدت الولايات المتحدة للعراق مقابل موافقته على الانضمام لمشروع ايزنهاور تقديم مساعدات عسكرية اضافية اليه ، وتجهيزه بمساعدات لتعضيد قوات الامن الداخلي العراقية[٩٠].

وبموجب هذا الاتفاق وقعت الولايات المتحدة مع العراق في (١٠ حزيران ١٩٥٧) على اتفاقيتين تعهدت بموجب الاولى باجراء المسوح والتحريات الفنية اللازمة لانشاء طريق يربط العراق مع تركيا[٩١]. وتعهدت بموجب الثانية باجراء المسوح والكشوف المقتضية لتأسيس شبكة المواصلات السلكية بين العراق وتركيا وايران وباكستان . كما استلم الجيش العراقي مدفعية واجهزة الكترونية ، واستلمت الشرطة العراقية بعض التجهيزات الحديثة[٩٢].

قوبل انضمام العراق لمشروع ايزنهاور بمعارضة شعبية عراقية وعربية واسعة ، وأصبح هدف الحركة الوطنية في العراق التحرر من قيود ميثاق بغداد ومشروع ايزنهاور ، وقد تحقق هذا الهدف بالقضاء على النظام الملكي واعلان الجمهورية العراقية في ١٤ تموز ١٩٥٨ .

ثامنا : الخلاصـــة :

١ ـ رغم حصول العراق على استقلاله الاسمي ودخوله عصبة الامم في عام ١٩٣٢، الا ان بريطانيا استمرت بالتدخل في شؤونه الداخلية ، وبلغ هذا التدخل ذروته عندما ارسلت بريطانيا قواتها لاسقاط حكومة الثورة في العراق في عام ١٩٤١، واحتلالها العراق احتلالا مباشرا ، واتخاذه قاعدة لجيوشها في الشرق مع وضع كل امكانيات العراق البشرية المادية لخدمة المجهود الحربي البريطاني .

٢ ـ وقفت الحركة الوطنية في العراق بكل قوتها ضد استمرار الهيمنة البريطانية على العراق بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وطالبت بالغاء معاهدة ١٩٣٠ وجلاء الجيوش الاجنبية ، اما بريطانيا التي خرجت منتصرة في هذه الحرب فانها ارادت تنظيم علاقاتها مع العراق والاقطار العربية الاخرى على أساس الدفاع المشترك مما يمكن بريطانيا من المحافظة على مصالحها في المنطقة .

٣ ـ شهدت هذه الفترة نشاطا امريكيا واسعا في منطقة الشرق الاوسط ، ورغم ما يبدو ظاهريا من توافق وانسجام بين سياسة بريطانيا وامريكا في المنطقة ، الا ان الاخيرة كانت تحاول الحلول محل بريطانيا في المنطقة ، أو على الاقل مشاركتها امتيازاتها ، وبخاصة البترولية .

٤ ـ ساهمت بريطانيا والولايات المتحدة في خلق الكيان الصهيوني وامداده بعناصر القوة والبقاء ، الامر الذي دفع العرب ، وبخاصة الجماهير الشعبية ومنظماتها السياسية الى تعرية السياسة الانكلو ـ امريكية في المنطقة ، فخشيت الدولتان على مصالحهما في المنطقة العربية وقامتا بطرح مشروع القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط بهدف ضمان ابقاء الاقطار العربية في تلك السياسية الانكلو ـ امريكية .

٥ ـ دفعت النشاطات البريطانية ـ الامريكية حول ربط الاقطار العربية بمشاريع الدفاع المشترك الغربية الجماهير العربية الى طرح شعار الحياد في السياسة الدولية لأن معالجة أي طرف دولي لا يخدم مصلحة العراق والامة العربية .

٦ ـ استغلت الولايات المتحدة تولي فاضل الجمالي رئاسة الوزارة العراقية في ايلول ١٩٥٣، وهو من المتعاونين معها ، لتحقيق فكرتها عن النطاق الشمالي ، والذي بدأت بالتمهيد له بعقد الاتفاقية التركية ـ الباكستانية ، فحاولت اقناع العراق بالانضمام الى الاتفاقية المذكورة مقابل تقديم المساعدات العسكرية له ، لكن الجماهير الشعبية احبطت الخطة الامريكية ، فاضطرت امريكا الى عقد اتفاقية المساعدات العسكرية المشروطة مع العراق .

٧ ـ تغير اتجاه السياسة العراقية من التعاون مع الولايات المتحدة في عهد فاضل الجمالي ، الى التعاون الوثيق مع بريطانيا بعد تولي نوري السعيد الوزارة في آب ١٩٥٤، فعمل نوري على تكوين ميثاق بغداد الذي اعتبر نجاحا للسياسة البريطانية في الشرق الاوسط .

٨ ـ فقدت بريطانيا مكانتها السياسية في الشرق الاوسط بعد العدوان الثلاثي على مصر ، وحاولت الولايات المتحدة استغلال النقمة على بريطانيا في المنطقة العربية للحلول محلها فطرحت مشروع ايزنهاور الذي رحبت به الحكومة العراقية وانضمت اليه رغم المعارضة الشعبية .

٩ ـ اخفقت كل الجهود الامريكية والبريطانية بربط العراق في حلقة المشاريع الغربية ، حيث قضت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ على احلام الدولتين ، ووضعت الاساس للاستغلال السياسي الناجز .

الهوامش

١ ـ وزارة الخارجية العراقية ، معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا العظمى الموقع عليها في ٣٠ حزيران ١٩٣٠، مع الملحق وتبادل المذكرات ، (بغداد ـ مطبعة الحكومة ـ ١٩٤١).

٢ ـ عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية ، جـ ٣ (بيروت ـ ١٩٧٤) ص ٥٢ ـ ٥٤

٣ ـ د. صلاح العقاد ، في المشرق العربي المعاصر ، (القاهرة ـ ١٩٧٠) ص٢٢٠

٤ ـ مذكرة السفارة البريطانية المرقمة س٢٥٢ في ٤ حزيران ١٩٤١ ملفة الديوان الملكي المرقمة ت/٢/١، المركز الوطني لحفظ الوثائق .

5 — Longrigg, S.H., Iraq 1900 — 1950, A political Social, And Economic History, (Oxford, 1953) p.298

6 — Ibid, PP, 299 — 300

7 — Ibid, P. 361.

8 — Stark, Freya, East is West, London, (1947) P.164.

9 — Birdwood, Lord, Nuri As — Said, **study** in Arab Leadership, (London, 1959), P.192. Kirk, George, The Middle East in The war 1939 — 1946, (Oxford, 1954), P. 157.

١٠ ـ جرالد دي غوري ، ثلاثة ملوك في بغداد ، (بغداد ـ ١٩٨٣)، ص٢٣٨ .
١١ ـ وثائق انضمام العراق الى تصريح الامم المتحدة الموقع عليه في واشنطن في ٢ كانون الثاني ١٩٤٢، (بغداد ـ مطبعة الحكومة ـ ١٩٤٣) ص١٦ .
١٢ ـ المصدر نفسه ، ص١٢ .
١٣ ـ الحسني ، تاريخ الوزارات ، جـ ٦، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
١٤ ـ المصدر نفسه .
١٥ ـ محاضر مجلس النواب ، الاجتماع الاعتيادي لسنة ١٩٤٥، ص٢٠٥ .
١٦ ـ حزب الاستقلال ، النظامان الاساسي والداخلي، (بغداد ـ ١٩٤٦) في تقرير للتحقيقات الجنائية في ٨/٦/١٩٤٦ عن اجتماع حزب الاستقلال في سينما الملك غازي في ٧/٦/١٩٤٦، ملفه حزب الاستقلال ٤١/١٠٧ .
١٧ ـ منهج الحزب الوطني الديمقراطي ونظامه الداخلي (بغداد ؟) منهاج حزب الاتحاد الوطني (بغداد ـ ١٩٤٦)، جريدة الوطن ١٩ شباط ١٩٤٦ و١٦ آذار ١٩٤٧، جريدة صوت السياسة ٢٩ آذار ١٩٤٧ .
١٨ ـ منهاج حزب الاحرار (بغداد ـ ١٩٤٦) .
١٩ ـ جريدة مانشستر كارديان البريطانية ١٤ تموز ١٩٤٥، اقتباسا من George Kirk, The Middle East 1945 — 1950, (London, 1954), P. 149.

٢٠ ـ مجلة الوطن ، ٢٠ تموز ١٩٤٥ .
٢١ ـ جريدة الرأي العام ، ٤ مايس ١٩٤٧ .
٢٢ ـ تقرير اللجنة الوزارية ، ملفة «تعديل معاهدة التحالف العراقية ـ البريطانية»، المرقمة غ/١١٦٩/١١٦٩/٥ وزارة الخارجية .

23 — Woodhouse, British Foreign Policy Since The Second War (Taylor Ganeet Evans) P. 93 .

٢٤ ـ جريدة الوطن ، ٢٥ نيسان ١٩٤٧، جريدة السياسة ٢٢ مايس ١٩٤٧ .
٢٥ ـ د.علي المحافظة ، العلاقات الاردنية ـ البريطانية من تأسيس الامارة حتى الغاء المعاهدة (١٩٢١ ـ ١٩٥٧)، (بيروت ـ ١٩٧٣)، ص١٣٤ .
٢٦ ـ د.عبدالعزيز نوار ، تاريخ العرب المعاصر ، جـ ١، (بيروت ـ ١٩٧١) ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .
٢٧ ـ جريدة الرأي العام ، ١١ مايس ١٩٤٧، جريدة صوت السياسة ١٢ و١٨ نيسان ١٩٤٧، جريدة لواء الاستقلال ٢٠/١/١٩٤٨ .

28 — Williams, Francis, Ernest Bevin, Portrait of Great Englishman (Anchor, 1958) P. 258, The Daily Telegraph, Jan, 16, 1948 .

29 — The Times, Jan, 16, 1948 .

٣٠ ـ د.أحمد نوري النعيمي ، تركيا وحلف شمال الاطلسي، (عمان ـ ١٩٨١) . ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .
٣١ ـ بيير روندو، مستقبل الشرق الاوسط ، (بيروت) ص١٥٩ .
٣٢ ـ علي المحافظة ، المصدر السابق ، ص٢١٣ .

33 — Eden, Sir Anthony, The memoirs of The Rt. Hon Sir Anthony Eden, (Cassell, 1960) PP. 248 — 250.

٣٤ ـ د.النعيمي ، المصدر السابق ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .
٣٥ ـ مذكرة الحكومة الروسية الى الحكومة العراقية المرقمة ٧١ في ٢١ تشرين الثاني ١٩٥١ . ملفة بعنوان «المذكرة الروسية» مرقمة غ/٢٦١٢/٢٥١٩/٣ وزارة الخارجية .

٣٦ ـ جريدة صوت الاهالي، ٢٣ آذار ١٩٥١ .
٣٧ ـ جريدة الجبهة الشعبية ، ١٦ و٢٩ تشرين الأول ١٩٥١، جريدة لواء الاستقلال ٨ تشرين الثاني ١٩٥١ .
٣٨ ـ علي المحافظة ، المصدر السابق، ص٢١٨ .
٣٩ ـ الحسني ، الوزارات العراقية ، جـ ٩، ص٣١ .
40 — Gallman, Waldemar J, Iraq under General Nuri, My Recollections of Nuri Al — Said, 1954 — 1958, (Johns Hopkins, 1964), P. 22.

٤١ ـ جريدة صوت الاهالي ، ٢٨ تشرين الأول ١٩٥٣ .
٤٢ ـ المصدر نفسه ، ٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٣ .
٤٣ ـ جريدة لواء الاستقلال ، ٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٣ .
٤٤ ـ جريدة صوت الاهالي ، ٢٤ شباط ١٩٥٤ .
٤٥ ـ جريدة العمل ، ٢٥ شباط ١٩٥٤ .
٤٦ ـ جرائد صوت الاهالي ، لواء الاستقلال ، اليقظة ، الشعب للاشهر كانون الثاني وشباط وآذار ونيسان ١٩٥٤ .
٤٧ ـ جريدة لواء الاستقلال ، ٢١ آذار ١٩٥٤ .
٤٨ ـ تقرير خاص للتحقيقات الجنائية المرقم س ١٩١٧ في ١٨/٣/١٩٥٤، ملفة «شؤون الطلبة» المرقمة ٦، جـ ١ .
٤٩ ـ جريدة الشعب ، ٢٣ نيسان ١٩٥٤ .
٥٠ ـ جريدة لواء الاستقلال ، ١٠ نيسان ١٩٥٤ .
51 — Gallman, Op. Cit, P. 22.

٥٢ ـ فاضل الجمالي ، ذكريات وعبر من العدوان الصهيوني واثره في الواقع العربي ، (بيروت ـ ١٩٦٤)، ص٥٨ .
٥٣ ـ برقية سفارة واشنطن المرقمة ١ في ٦/١/١٩٥٤، ملفات وزارة الدفاع ، ملفة موسى الشابندر ، رقم الدعوى ٦٤/٥٨ .
٥٤ ـ جريدة اليقظة ، ٥ كانون الثاني ١٩٥٤ .
٥٥ ـ جريدة صوت الاهالي ، ٧ كانون الثاني ١٩٥٤ .
٥٦ ـ محاضر مجلس النواب ، الاجتماع الاعتيادي لسنة ٥٣/١٩٥٤، ص٢٠٠ .
٥٧ ـ برقية سفارة واشنطن المرقمة ٢ في ٢٦/١/١٩٥٤، ملفة موسى الشابندر السابقة .
٥٨ ـ برقية سفارة واشنطن المرقمة ٣ في ٩/٢/١٩٥٤، الملفة السابقة .
٥٩ ـ برقية سفارة واشنطن المرقمة ٤ في ١٤/٢/١٩٥٤، الملفة السابقة .
٦٠ ـ وزارة الخارجية العراقية ، مجموعة المعاهدات والاتفاقيات الثنائية بين العراق والدول الاجنبية (بغداد ـ ؟) ص ٧٣ ـ ٧٦ .
٦١ ـ الجمالي ، المصدر السابق ، ص٦٠.
٦٢ ـ جريدة الشعب ، ٢٦ نيسان ١٩٥٤ .
٦٣ ـ جريدة صوت الاهالي ٢٦ نيسان ١٩٥٤ .
٦٤ ـ جريدة لواء الاستقلال ٢٦ نيسان ١٩٥٤ .
٦٥ ـ وزارة الدفاع ، محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة ، جـ ٣، (بغداد ـ ١٩٥٩)، ص١٠٩٦ .
٦٦ ـ تقرير خاص للتحقيقات الجنائية المرقم س ٢٩٤٩ في ٢٨/٤/١٩٥٤ . ملفة «اتحاد الطلبة العراقي» المرقمة ٥/٣/٦ .
٦٧ ـ خطاب نوري السعيد في مجلس النواب يوم ٦ شباط ١٩٥٥، وقد نشر في كراس «حقائق في السياسة العربية يبحثها مجلس النواب العراقي» ، (بغداد ـ مطبعة الحكومة ـ ١٩٥٥) .
٦٨ ـ جريدة الجريدة البيروتية ١٥ شباط ١٩٥٥ .

69 — Eden, Op. Cit., PP. 219 — 220 .

70 — Gallman, Op. Cit, P. 39

71 — Eden, Op Cit, P. 220 .

72 — Parliamentary Debates, House of Commons, Official Report, Vol. 539, No 67, Monday, 4 April, 1955,

وقد قام حسن الدجيلي بترجمة الجلسة كاملة طبعت في كتاب بعنوان «ميثاق بغداد»، انظر المناقشات ، ص٩ ـ ٩٨ .

73 — Gallman, Op. Cit, P. 39 .

74 — The New York Times, Jan. 7, 1955.

75 — Washington Post, March, 31, 1955.

76 — The New York Times, Oct., 2, 1955.

77 — Gallman, Op. Cit, P.53.

٧٨ ـ «التقرير السري الذي كتبه المستر نيلسون روكفلر مبعوث ايزنهاور الخاص ع/٢٦٤٧/٣٠/١٤» ملفات وزارة الخارجية .

79 — Gallman, Op. Cit, P. 73.

٨٠ ـ توفيق السويدي ، مذكراتي ، نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية ، (بيروت ـ ١٩٦٩) ص٥٥٦ .

٨١ ـ برقية سفارة واشنطن المرقمة ١هـ في ٥/١٢/١٩٥٦، ملفة موسى الشابندر السابقة .

82 — France Soir, Feb. 26, 1955, Le Monde, Feb. 26, 1955 and March, 1, 1955.

٨٣ ـ كتاب السفارة العراقية في باريس المرقم ١/١٤/٨٤ في ١٠/٣/١٩٥٥ الى وزارة الخارجية ، ملفة «المطبوعات الفرنسية ١٩٥٥» المرقمة د/٢١٥/ ٢١٥/ ٦٠٠ .

٨٤ ـ للاطلاع على موقف الحركة الوطنية في العراق وكذلك الموقف العربي من ميثاق بغداد انظر رسالتي للدكتوراه الموسومة «التطورات والاتجاهات السياسية الداخلية في العراق ١٩٥٣ ـ ١٩٥٨ «بيروت ـ ١٩٨٠» .

٨٥ ـ فاضل الجمالي ، المصدر السابق ، ص٦٤ .

٨٦ ـ محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة ، جـ ٤، ص ١٣١٧ ـ ١٣١٨ .

٨٧ ـ الحسني ، الوزارات ، جـ ١٠، ص٥١.

٨٨ ـ علي جودت ، ذكريات علي جودت ، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨، (بيروت ـ ١٩٦٧) . ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

٨٩ ـ محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة ، افادة الجمالي ، جـ ٣، ص١١٠٠ .

٩٠ ـ جريدة الحرية ، ٩ نيسان ١٩٥٧ .

٩١ ـ جريدة الزمان ، ١١ حزيران ١٩٥٧ .

92 — Gallman, Op. Cit, P. 80. .

ان المواقف المتخذة من الماضي تتأثر بمعتقدات الحاضر وآمال المستقبل

الدول الكبرى والنضال من اجل الاستقلال في صربيا في بداية القرن التاسع عشر

الدكتور هاشم صالح التكريتي
كلية الآداب / جامعة بغداد

كانت صربيا في مطلع القرن التاسع عشر بلدا متأخرا خاضعا للاحتلال العثماني يعيش الاتراك في مدنه فقط اما الريف فيقتصر سكانه على الصربيين وكان يضم الى جانب الفلاحين الذين يؤلفون الاغلبية الساحقة من سكانه عددا ممن يشتغل بالحرف والتجارة ولكن نشاط هؤلاء كان موجها لسد حاجات المدينة الصربية فقط . ولم تكن الاراضي الصربية موحدة من الناحية الادارية ففي حين كانت نواتها الاساسية تؤلف باشوية قائمة بذاتها هي باشوية بلغراد كانت اجزاؤها الاخرى موزعة على ثلاث باشويات هي البوسنة وفيدين وليسكوفاتس .

وصربيا بلد جبلي تغطي ارضه الغابات ولهذا فان اساس النشاط الاقتصادي فيها كانت تربية الحيوانات ولاسيما الخنازير .وكان الصربيون يصدرون ماشيتهم ويبيعونها على نطاق واسع في اسواق البوسنة والهرسك والنمسا بحيث اصبحت تجارة الماشية المصدر الرئيسي للدخل بالنسبة الى القسم الموسر من الفلاحين الصربيين . اما التجارة الداخلية فكان تطورها مرتبطا بظهور الاسواق المحلية والاسواق الموسمية ولاسيما التابعة منها للاديرة . ومع تطور التجارة الداخلية بدأت المدن بالنمو وبرزت من بينها بلغراد التي اخذت تتحول الى مركز كبير للتجارة الداخلية والخارجية .

اما عن الزراعة وملكية الارض فقد لوحظ في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قيام صراع بين اصحاب الاقطاع العسكري العثماني التقليديين الذين كانوا يسعون الى تحويل الارض التي بحوزتهم الى ملك خاص لهم يستخدمون فيها عمل الفلاحين التابعين لهم وبين الانكشارية الذين كانوا حتى ذلك الوقت قد تحولوا الى جنود منفلتين فأخذوا يعملون على اخضاع الفلاحين والاستحواذ على اراضيهم بمختلف السبل ونجح قسم منهم في امتلاك اراضي واسعة فتحولوا الى ملاك اعتياديين للارض غير ملزمين بتأدية الواجبات المفروضة على صاحب الاقطاع العسكري . وهكذا اصبح خضوع الفلاحين الصربيين مزدوجاً لاصحاب الاقطاع العسكري الذين احتفظوا بحقهم في الارض وبالالتزامات المفروضة على الفلاحين لصالحهم وللملاكين الجدد الذين كان يطلق عليهم اسم « تشتلوك صاحبي » .

لكن التطور الاقتصادي والاجتماعي كان يجري في الريف الصربي فاخذت العلاقات السابقة بالتحلل وظهرت بين الفلاحين عناصر تشتغل بالتجارة وتربية الماشية لغرض البيع

وبذلك تكونت في الريف فئة موسرة اصبحت ذات نفوذ كبير لاسيما وان ممثلي الادارة الذاتية في الريف كان يجري اختيارهم من بين صفوفها .

ومع ذلك فان التطور الاقتصادي والاجتماعي كان يصطدم بالسيطرة العثمانية وبالاستغلال الذي فرضه العثمانيون على صربيا ولهذا نجد الصربيين يعملون بكل السبل للتخلص من السلطة العثمانية التي رأوا بها مسا بكرامتهم الوطنية وسلبا لذاتهم القومية . ولهذا فقد شارك الصربيون على نطاق واسع في الحرب الروسية العثمانية ١٧٨٧ ـ ١٧٩٢ وشكلوا على اراضي النمسا التي اشتركت الى جانب روسيا في هذه الحرب فصائل عسكرية من المتطوعين ، في حين تزعم التاجر كوتشي انجلكوفتش فصلا كان يعمل في داخل صربيا ذاتها ، وقد كان تأثير انجلكوفتش هذا كبيرا الى درجة بحيث اطلق على نضال الصربيين ضد العثمانيين انذاك اسم « حرب كوتشي » نسبة اليه ، لكن النمسا لم تلبث ان تخلت عن الصربيين فقد اعادت للدولة العثمانية بموجب معاهدة صلح سيستوف ١٧٩١ جميع الاراضي الصربية التي احتلتها اثناء الحرب ولم تتضمن المعاهدة المذكورة بالنسبة الى صربيا الا العفو عن الصربيين الذين شاركوا في الحرب وضمان امنهم وسلامتهم ، غير ان الاضطرابات التي قام بها الصربيون من جهة ونزعة السلطان سليم الثالث الاصلاحية وتوجهه الى الاصلاح فعلا من جهة ثانية ساعدت على تقدم المفاوضات بين قادة الصرب والحكومة العثمانية ولم تلبث هذه المفاوضات ان انتهت في ١٧٩٤ باصدار السلطان فرمانا منع فيه تواجد الانكشارية و« التشتلوك صاحبي » من التواجد على اراضي باشوية بلغراد ومنعهم من جمع الجزية من السكان كما نظم الفرمان جباية الجزية لصالح السلطان واصحاب الاقطاع العسكري الذين اصبح من حقهم وحدهم العيش في بلغراد ، ومنح سكان الباشوية الحق في اختيار الموظفين الاداريين في الارياف على ان يصادق الباشا على هذا الاختيار واعطى للصربيين الحق في ممارسة التجارة بحرية وغير ذلك . وفي ١٧٩٦ صدر فرمان آخر وسع حقوق الاستقلال السياسي لباشوية بلغراد .

وهكذا بدا كما لو ان امكانات واسعة قد انفتحت امام الصربيين للتطور الاقتصادي والسياسي والثقافي الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا اذ لم يلبث الانكشارية الذين اخرجوا من باشوية بلغراد ان انضموا الى باشا فيدين بازواند اوغلو الذي كان يناهض الاصلاحات التي ازمع السلطان سليم الثالث القيام بها والذي شكل قواتا كبيرة استطاعت في ١٨٠١ الاستيلاء على باشوية بلغراد فقتل حاكمها ووضعت تحت حكم اربعة من قادة الانكشارية فقام هؤلاء بالاقتصاص من الصربيين واعادوا الـ «تشتلوك صاحبي» وقتلوا العناصر البارزة من الوطنيين الصربيين والغوا جميع الحقوق والامتيازات التي منحها للصربيين فرمان ١٧٩٤ و« شددوا من استغلال الفلاحين وفرضوا ضرائب جديدة وتعسفوا في جبايتها وقضوا عمليا على الحكم الذاتي في الريف الصربي وغير ذلك »[١]

رد الصربيون على ذلك بتشكيل فصائل مسلحة بدأت تشن كفاحا مسلحا ضد العثمانيين . وعقد الثوار في بداية شباط ١٨٠٤ اجتماعا تقرر فيه القيام بانتفاضة عامة وتنصيب جورجي بتروفتش المعروف في صربيا باسم قره جيورجي زعيما لها . لقد كان قره جيورجي هذا تاجرا منحدرا من اوساط الفلاحين شارك في الحرب الاخيرة بين النمسا والدولة العثمانية فاكسبه ذلك خبرة عسكرية كانت الى جانب شجاعته المشهودة وذكائه الفطري تجذب اليه حب السكان وتعاطفهم .

اتخذت الانتفاضة منذ البداية طابعا جماهيريا حيث شملت كل باشوية بلغراد واخذ عدد الثوار يزداد بسرعة حتى بلغ في نهاية آذار ١٨٠٤ ما يقرب من ٤٨ الف شخص[٢] . وتألفت القوة الاساسية للانتفاضة من الفلاحين، في حين كانت قيادتها من ممثلي الادارة الريفية المحليين ورجال الدين وكبار التجار .

كانت حكومة السلطان سليم الثالث تعاني وضعا صعبا بسبب القلاقل القائمة في انحاء الامبراطورية الاخرى كما انها كانت تعد الانكشارية انذاك خصومها السياسيين بسبب وقوفهم ضد اصلاحات سليم الثالث ولذلك فانها لم تجابه الانتفاضة بحزم وفضلت الوقوف موقف المتفرج طالما ان الانتفاضة موجهة ضد الانكشارية الذين كانوا في الواقع لا يعترفون بسلطة الباب العالي والذين عادوا الى السلطة في الباشوية رغم ارادة السلطان ، ولهذا استطاع الثوار تحقيق انتصارات كبيرة وتمكنوا حتى اواسط آذار ١٨٠٤ من السيطرة على تسع من اصل احدى عشرة منطقة تتألف منها باشوية بلغراد كما فرضوا حصارهم على اكبر مدن الباشوية، بلغراد وسميديريغو وبوزاريفاتس .

لم يطالب الثوار في المرحلة الاولى من الانتفاضة وهي المرحلة التي استمرت حتى ١٨٠٦ بالاستقلال وتأسيس دولة قائمة بذاتها بل وجهوا كفاحهم ضد تعسف الانكشارية فطالبوا بطرد الحكام الانكشاريين الاربعة الذين اغتصبوا السلطة في الباشوية والغاء ملكية الـ « تشتلوك صاحبي » وبان يقر لهم بالحق في اختيار السلطات المحلية وكذلك باشاعة العدالة في فرض الضرائب وضمان الحرية الشخصية للتجار[٣] . ومع ان هذه المطاليب لم تخرج من حيث الجوهر عن حدود الادارة الذاتية التي منحها للصربيين فرمان ١٧٩٤ الا ان السلطات العثمانية رفضتها لأن الصربيين طالبوا بان يجري عقد الهدنة بين الجانبين بضمان من احدى الدول الاوروبية الكبرى .

لقد كان قادة الانتفاضة يدركون بانهم لن يستطيعوا بجهودهم الخاصة وحدها تحقيق النصر واجبار الحكومة العثمانية على الاقرار بمطالبهم ولهذا فانهم كانوا يتطلعون الى مساندة الدول الاوروبية الكبرى وتوجهوا في اول الامر الى النمسا المجاورة لصربيا حيث اتصل في ٨ آذار ١٨٠٤ مندوبون عن قره جيورجي بسلطات الحدود النمساوية وطلبوا الموافقة على تزويد الثوار بالذخيرة او السماح لهم بالحصول عليها من التجار وكذلك السماح لعوائل الثوار باللجوء الى الاراضي النمساوية[٤] .

كانت الامبراطورية النمساوية التي تحادد الاراضي العثمانية في اوروبا تعمل باستمرار على توسيع نفوذها في البلقان وتسعى بدأب الى توسيع ممتلكاتها هناك على حساب الاراضي العثمانية وقد دفعها ذلك الى ان تشن طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر سلسلة من الحروب على الدولة العثمانية . وبما ان المناطق التي يقطنها الصرب كانت تؤلف المسرح الرئيسي للعمليات العسكرية في هذه الحروب فقد كانت النمسا تسعى لاستخدام الصرب الخاضعين للدولة العثمانية حلفاء لها في تلك الحروب وكان الصربيون من جانبهم يوقتون انتفاضاتهم ضد السيطرة العثمانية مع هذه الحروب . وكانت انتفاضاتهم هذه تحظى على الدوام باهتمام السلطات النمساوية التي كانت تبذل كل جهد ممكن لاستغلالها من جهة ولتلافي اخطارها المحتملة المتمثلة بالتأثير الثوري الذي يمكن ان تبديه على السلاف من رعايا الامبراطورية النمساوية من جهة اخرى .

ولم تكن الانتفاضة الجديدة لتختلف عن سابقاتها في اثارة اهتمام السلطات النمساوية التي كانت تراقب بيقظة كل ما يجري على الاراضي الصربية المتاخمة للنمسا ، فقد كان لابد للاضطرابات التي حدثت في هذا الاقليم العثماني وعلى هذا القرب من الاراضي النمساوية ان تثير قلق النمسا لاعتبارات عديدة منها انها كانت تهدد تجارتها مع صربيا والاقاليم العثمانية الاخرى المتاخمة لها وتتطلب جهودا اضافية لمراقبة الحدود وضمان عدم اختراقها بالاضافة الى الخطر الذي تشكله على سلطة آل هابسبرج بتأثيرها الثوري على الرعايا الصربيين في الامبراطورية النمساوية ، والتأزم الذي يمكن ان تحدثه في العلاقات النمساوية ـ العثمانية[٥] في وقت كان فيه الوضع الدولي غير ملائم للنمسا بسبب توسع نابليون والهزائم المتكررة التي لحقت بها على يده . ولابد ان نشير هنا ايضا الى ان اعتقاد السلطات النمساوية بحتمية فشل الانتفاضة لعب هو الآخر دوره في تحديد موقف الحكومة النمساوية منها يؤكد ذلك ما جاء في رسالة كتبها مستشار الدولة النمساوي الى وزير الحرب بتاريخ ٦ نيسان ١٨٠٤ فقد جاء فيها قوله : « ان جمهرة المسيحيين التي تتألف من ١٠ ـ ١١ الف شخص فقط لها خصوم يساوونها في العدد من الاتراك الذين يؤلفون في واقع الامر قوة كبيرة الى درجة لا يستهان بها . وفضلا عن ذلك ونتيجة لما يعرفه الجميع من تهيب الفئة الاولى ومهارة الثانية في استخدام السلاح والتعود على العمليات الحربية فان التركي الواحد يتفوق على الدوام على حفنة من الرعية .. وطالما ان فوائد نظام الحياد الصارم الذي التزمنا به سابقا في جميع الحالات المشابهة التي حدثت في الاقاليم التركية قد تأكدت بالممارسة وان التعليمات التي اصدرتها المراجع القيادية المختصة والتي صادق عليها وزير الحرب تطابق بشكل تام النظام المذكور اعلاه فان مستشارية الدولة لا تجد اي شيء اخر غير ان تعبر عن رغبتها بان لا يجري التخلي عن هذا النظام في المستقبل ايضا بأي حال من الاحوال[٦] .

وهكذا فان السعي لابعاد الاقاليم النمساوية عن تأثير الانتفاضة الثوري والحرص على عدم استفزاز الدولة العثمانية واثارة حفيظتها والاعتقاد بحتمية فشل الانتفاضة الى جانب الوضع الدولي غير الملائم للنمسا حددت جميعها موقف الحكومة النمساوية من الانتفاضة الصربية وجعلتها تعلن حيادها تجاهها وتعتبرها

حدثا داخليا يهم الدولة العثمانية وحدها . وعلى اساس هذا الموقف ايدت المراجع العليا في النمسا تصرف ضابط الحدود النمساوي عندما رفض مطاليب الثوار التي اشرنا اليها بحجة عدم وجود تعليمات لديه بهذا الشأن .

غير ان ذلك لا يعني بأن السلطات النمساوية التزمت بدقة وطيلة فترة الانتفاضة بالحياد الصارم الذي تحدث عنه مستشار الدولة النمساوي فقد كان عليها ان تأخذ بنظر الاعتبار موقف رعاياها الصربيين الذين كانوا يتعاطفون مع ابناء جلدتهم على الجانب الآخر من الحدود ومواقف الدول الاخرى ولاسيما روسيا التي كانت تساند الثوار ، فالاسناد الروسي للانتفاضة من شأنه ان يزيد من مكانة روسيا ونفوزها في صربيا ولدى عموم السلاف في شبة جزيرة البلقان الامر الذي ينعكس سلبيا على نفوذ النمسا ومخططاتها في المنطقة .

ولهذا نجد النمسا تخرج في بعض الاحيان عن خط الحياد وعدم التدخل الذي اعتمدته في سياستها تجاه الانتفاضة، فقد غضت الطرف مثلا عن الثوار عندما كانوا يدخلون الاراضي النمساوية ويتوجهون الى اقربائهم الصربيين هناك لشراء السلاح ولاسيما في الايام الاولى للانتفاضة ولكنها حرصت على ان يجري ذلك بهدوء وبطريقة لا تثير الدولة العثمانية[٧]. كذلك سمحت الحكومة النمساوية بلجوء عوائل الثوار الى الاراضي النمساوية ولكنها فرضت عليهم عددا من القيود منها ان يعبروا الحدود بمجموعات صغيرة وغير مسلحة وان يستقروا في الاماكن التي تحددها لهم السلطات وفوضت سلطات الحدود باطلاق النار على اية مجموعة تعبر الحدود بسلاحها[٨] .

ومع ان موقف النمسا هذا لم يكن بمستوى ما كان الثوار يطمحون اليه او يتوقعونه فانهم لم يقطعوا صلتهم بالحكومة النمساوية بل على العكس دأبوا على تقرير هذا الصلة حتى ان قره جيورجي اقترح رسميا على الحكومة النمساوية ان يضع الاراضي الصربية تحت سلطة الامبراطور النمساوي بعد تحريرها من العثمانيين[٩] .

غير ان الحكومة النمساوية رفضت هذا الطلب وفضلت الاستمرار في سياسة عدم التدخل التي انتهجتها منذ قيام الانتفاضة للاعتبارات التي ذكرناها علما بان النمسا لم تكن تستطيع انذاك انتهاج سياسة المجابهة مع الدولة العثمانية لانها كانت منشغلة بالصراع العسكري مع نابليون وهو الصراع الذي تكبدت فيه هزائم قاسية . وهذا هو في الواقع السبب الاساسي الذي اجبر النمسا على الاحجام عن انتهاز الفرصة والاستيلاء على صربيا ودفعها الى العمل على انهاء الانتفاضة بسرعة جهد الامكان فاخذت تعمل على تقريب وجهات النظر بين الثوار والسلطات العثمانية في بلغراد مستغلة كون الثوار في بداية الانتفاضة لم يتخلوا عن تبعيتهم للسلطان بل اقتصروا على المطالبة باخراج الانكشارية من باشوية بلغراد وبمنحهم الاستقلال الذاتي ضمن الدولة العثمانية . وتأتي في هذا السياق محاولة مصالحة الثوار الصربيين مع السلطات العثمانية في بلغراد حيث دعت سلطات الحدود النمساوية في نهاية نيسان ١٨٠٤ بدعوة ممثلين عن الجانبين ثم اللقاء بينهم على الاراضي النمساوية لكنه انتهى بالفشل بسبب عدم موافقة العثمانيين على تنفيذ مطالب الصربيين[١٠] .

وقد اثار هذا الفشل استياء النمساويين الى درجة ان ممثل سلطات الحدود النمساوية الذي حضر اللقاء « حذر الصربيين باشد الاشكال حزما بان لا يجرأوا باي حال على السماح بنقل اية ذخائر عبر حدود الامبراطورية (النمساوية) والا فانهم لن يفقدوا كل مساعدة من جانب النمساويين فحسب وانما ستتخذ بحقهم ايضا تدابير في غاية القسوة[١١] » . وقامت وزارة الخارجية النمساوية بعد فشل هذا اللقاء بارسال كل ما تجمع لديها من امور ووثائق عن الانتفاضة الصربية الى السفير النمساوي في اسطنبول وطلبت منه ان يعلم الحكومة العثمانية بكل الاحداث وان يسعى خلال ذلك الى تحقيق ثلاثة اهداف هي : تعزيز ثقة الباب العالي بموقف النمسا الودي من الدولة العثمانية والسعي لحماية الثوار المسيحيين من الملاحقة والعقاب الذي قد يتعرضون لها بسبب ما ابدوه من ولاء للامبراطور النمساوي والتأكيد على ضرورة انهاء العمليات العسكرية[١٢] .

ومن الناحية الاخرى اتخذت الحكومة النمساوية جملة من الاجراءات التي اساءت الى الانتفاضة الصربية وجعلت وضع الثوار يزداد حرجا وهدفها من ذلك على ما يبدو الضغط عليهم ودفعهم الى انهاء الثورة والتصالح مع العثمانيين وكان اهم هذه الاجراءات منع المشاجرة مع الاقاليم الثائرة في نفس الوقت الذي سمح فيه رسميا بتجهيز باشا بلغراد بالمواد الغذائية[١٣].

واذا ما علمنا بان باشوية بلغراد الثائرة كانت محاطة من كل الجهات بالاراضي العثمانية باستثناء الجهة التي تتاخم النمسا ادركنا مقدار الحرج الذي سببه هذا الاجراء للثوار .

بعد ان اتضحت للثوار بهذا الشكل حقيقة الموقف النمساوي وبعد ان اقتنعوا بان النمسا لن تؤلف الحليف القوي الذي املوا بالاستفادة من مساعدته بادروا الى الاتصال بروسيا علهم يجدون فيها ما لم يجدوه في النمسا فتساعدهم على تحقيق الاهداف التي يصبون اليها . وهكذا توجهوا في ٣ أيار ١٨٠٤ الى السفير الروسي في اسطنبول ايتالينسكي برسالة طلبوا فيها مساعدة وحماية الامبراطور الروسي والتمسوا من الحكومة الروسية ان تسند امام الباب العالي طلبهم بمنح صربيا استقلالا ذاتيا داخليا كذلك الذي تتمتع به ملدافيا وولاكيا والمناطق اليونانية الواقعة تحت حماية روسيا(١٤) .

وفي ايلول من السنة ذاتها ارسل الثوار الى بطرسبورغ وفدا برئاسة احد زعماء الانتفاضة . وقدم الوفد في تشرين الثاني ١٨٠٤ الى وزارة الخارجية الروسية التماسا تحريريا طلب فيه مساعدة روسيا في انشاء دولة صربية مستقلة على غرار جمهورية الجزر السبع تزيد من الاتاوة السنوية التي تدفعها للسلطان وتحارب معه عندما يطلب ذلك(١٥) . وطلب الصربيون ايضا المساعدة بالاموال والسلاح وتعيين قنصل روسي ، في صربيا لكي يكون وسيطا وضامنا عند عقد الصلح مع العثمانيين(١٦) .

لقد جاءت مطاليب الثوار الصربيين هذه ملائمة بشكل عام بالنسبة الى روسيا التي حملتها الظروف التي استجدت في البلقان في مفتتح القرن التاسع عشر على تغيير سياستها تجاه الدولة العثمانية . فمحاولة فرنسا بعد ثورة ١٧٨٩، ولاسيما بعد بروز نابليون الاستيلاء على حوض البحر المتوسط ومجابهة بريطانيا للتوسع الفرنسي هناك ادت الى تفاقم الصراع بين بريطانيا وفرنسا في الشرق الادنى وظهر احتمال استيلاء هاتين الدولتين على الاراضي العثمانية في البلقان والتغلغل في منطقة المضايق الامر الذي دفع روسيا ومعها النمسا الى العمل على المحافظة على الدولة العثمانية وحماية ممتلكاتها في تلك المنطقة لان بقاء الدولة العثمانية الضعيفة هناك افضل بالنسبة الى هاتين الدولتين اللتين لهما مصالح ومخططات واسعة في البلقان من الاستحواذ على المنطقة من قبل بريطانيا او فرنسا او كلتيهما معا .

ومع ازدياد خطر الغزو الفرنسي للبلقان وتنشيط نابليون لدعايته الموجهة الى شعوب تلك المنطقة في مفتتح القرن التاسع عشر كثفت روسيا من نشاطها لمجابهة هذا الخطر وقامت بجملة من الاجراءات في هذا السبيل . وكان على روسيا من اجل مقاومة الدعاية الفرنسية التي كانت تداعب الآمال التحررية لشعوب البلقان ان تتخذ من المواقف ما يستجيب لآمال تلك الشعوب ومصالحها القومية . وفي الوقت نفسه كان على الحكومة الروسية ان تتحسب لاحتمال انهيار الامبراطورية العثمانية بسبب التوسع الفرنسي في جنوب شرق اوروبا فتسعى لأن تؤمن لنفسها دورا فاعلا عند تقسيم الممتلكات العثمانية في اوروبا . ومن الناحية الاخرى كان على روسيا ان تحسب حساب الدولة العثمانية طالما ظلت قائمة لاسيما وانها كانت انذاك تقف في معسكر واحد مع روسيا ضد التوسع الفرنسي مما يحتم على روسيا ان تحافظ عليها ضد نوايا نابليون التوسعية حتى لو أدى ذلك الى الحد من الآمال التحررية للشعوب البلقانية . يضاف الى ذلك كله ان روسيا وجدت نفسها مضطرة لأن تحرص على عدم اثارة شكوك الدول الاوروبية الاخرى ولاسيما بريطانيا والنمسا اللتان كانتا تنظران بعين الريبة الى كل نشاط تقوم به روسيا في البلقان .

لقد اعتقد الكسندر الاول بان من الممكن تحقيق هذه الاهداف المتعارضة عن طريق احجام الحكومة الروسية في الظرف الراهن عن اعطاء اية وعود او الادلاء باية تصريحات وان تستعيض عن ذلك بالاعلان عن عزمها على السعي لدى الحكومة العثمانية لاقناعها بمنح بعض مناطق القسم الغربي من شبه جزيرة البلقان استقلالا ذاتيا واسعا . وقد حاولت روسيا بالفعل ان تجسد ذلك عمليا فبذلت جهودا مكثفة هدفها التوصل بالطرق الدبلوماسية الى تحسين وضع الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية ولاسيما منح الاستقلال الذاتي الداخلي للمناطق التي يكون وضعها حرجا وتسود فيها نزعات استقلالية قوية .

من هنا جاء طلب الثوار الصربيين الذين لم يطرحوا مسألة استقلال صربيا استقلالا تاما بل اقتصروا على المطالبة بالاستقلال الذاتي متوافقا مع السياسة الروسية في تلك المرحلة . وكان تصرف المسؤولين الروس في هذه القضية منسجما مع تلك السياسة ايضا فقد «قابلت الحكومة الروسية اعضاء الوفد الصربي بالترحاب وقدمت لهم مساعدات مالية ووعدت باسنادهم دبلوماسيا(١٧)». ونصح الوفد بعدم

القاء السلاح والتوجه في نفس الوقت الى الحكومة العثمانية طلبا لموافقتها على ان تحكم صربيا من قبل موظفين صربيين ويسحب جميع العسكريين الاتراك منها وفي مقابل ذلك يدفع الصربيون اتاوة سنوية يجري تحديدها بدقة ويلتزمون بحماية بلادهم والمناطق المتاخمة لها من العصاة ويتعهدون بالمشاركة في الحروب الى جانب الدولة العثمانية بخمسة آلاف جندي[١٨] .

وقد استجاب الثوار الصربيون فيما بعد (أيار ١٨٠٥) لهذه النصيحة فوجهوا الى اسطنبول وفدا يحمل الى الحكومة العثمانية هذه المطالب ومعها مطاليب اخرى تتعلق بممارستهم التجارة والصناعة وتحديد التزامات الفلاحين وغير ذلك من الامور[١٩] . وبرت الحكومة الروسية بوعدها للوفد الصربي باسنادهم دبلوماسيا فطلبت من سفيرها في اسطنبول ايتالينسكي في كانون الاول ١٨٠٤ ان ينصح الباب العالي باسم الامبراطور الروسي بان يمنح الصربيين امتيازات مشابهة لتلك التي تتمتع بها ولاكيا وملدافيا حيث سيكون عليهم ان يزيدوا الجزية السنوية التي يدفعونها للحكومة العثمانية ويلتزموا بان يقدموا للسلطان عند قيام الحرب قوات عسكرية تتناسب مع عدد سكان اقليمهم وامكاناته المادية ويحصلون في مقابل ذلك على الحق في ان يحكمهم رئيس وموظفون صربيون يختارونهم هم بانفسهم وطلب من ايتالينسكي خلال ذلك « ان يحرص على ان لا يبقي لدى الوزارة التركية اي شك في ان بلاطنا يتدخل في الشؤون الداخلية لتركيا او ان لدينا نوايا خفية في هذا الشأن[٢٠] » .

لقد رفضت الحكومة العثمانية هذا الاقتراح بالطبع لأنها كانت تدرك بان السماح بانشاء كيان سياسي في بعض مناطق الامبراطورية العثمانية معناه التعجيل بانهيارها كما انه يؤدي الى تقوية نفوذ روسيا السياسي بين رعايا السلطان في البلقان . وعندما حاولت الحكومة الروسية الحصول على اسناد بريطانيا للخط السياسي الذي تنتهجه في البلقان وللتغييرات التي تريد ان تحدثها هناك جوبهت هذه الخطوة بارتياب شديد من جانب الحكومة البريطانية لانها رأت فيها ما يدل على « عزم بلاطنا على ان يكافىء نفسه على حساب تركيا » كما جاء في التقرير الذي كتبه في ٢٥ كانون الاول ١٨٠٤ المبعوث الروسي نوفوسيلتسيف عن المحادثات التي اجراها مع رئيس الوزراء البريطاني بت[٢١].

ازداد التوتر في جنوب شرق اوروبا في ١٨٠٥ بسبب النجاحات الملحوظة التي حققها الثوار[٢٢] الصربيون وكذلك بسبب اشتداد نوايا فرنسا التوسعية في المنطقة فقام صراع دبلوماسي حاد بين روسيا وفرنسا كل منهما تريد ان تجذب الدولة العثمانية الى جانبها وتجعلها تتحالف معها وقد اثر ذلك على موقف روسيا من الانتفاضة الصربية وجعلها تقصر مساعدتها للثوار على الاسناد الدبلوماسي كي لا تستفز الدولة العثمانية .. وكان النصر في الجولة الاولى من هذا الصراع لصالح الروس اذ وقعت الحكومة الروسية مع الدولة العثمانية في ٢٣ ايلول ١٨٠٥ على معاهدة اكدت التزام الدولتين بحماية المضايق بصورة مشتركة ونصت على حرية مرور السفن الحربية الروسية خلال البوسفور والدردنيل وغلقهما امام السفن الحربية العائدة للدول التي لا تقع على البحر الاسود[٢٣] . لكن فرنسا عادت فحققت ارجحية واضحة عندما انتصر نابليون في اوسترليتز وعقد مع النمسا صلح برسبورغ في ٢٦ كانون الاول ١٨٠٥، فقد استولت فرنسا بموجب هذا الصلح على استريا وكوثور ودالماشيا في البلقان مما تسبب في تغيير توازن القوى في المنطقة لصالح فرنسا فاثر ذلك على الحكومة العثمانية التي اخذت تسعى للتقرب من فرنسا لاسيما وان استيلاء فرنسا على مناطق جديدة ، في البلقان زاد من خطرها على الممتلكات العثمانية هناك . وقد اثار موقف الحكومة العثمانية هذا من جهة والوضع الجديد لفرنسا في البلقان والذي يمكنها من اقامة علاقات مباشرة مع شعوب تلك المنطقة من جهة اخرى القلق الشديد لدى الحكومة الروسية التي بادرت الى اتخاذ عدد من التدابير لمواجهة الوضع الجديد الذي اسهمت في خلقه ايضا النجاحات الكبيرة التي حققها الثوار الصرب في ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ بحيث لم تعد الانتفاضة مقتصرة على باشوية بلغراد بل تعدتها وشملت المناطق المتاخمة لها[٢٤] .

غير ان روسيا لم يكن بمقدورها ان تمضي في تنفيذ مخططاتها في البلقان متجاهلة الدول الاخرى ولاسيما بريطانيا . وعندما ظهر ان بريطانيا لا تروقها مخططات روسيا ومشاريعها في البلقان اقتنعت الحكومة الروسية بان حل المسألة البلقانية على النحو الذي تريده امر لا يمكن تحقيقه بالطرق الدبلوماسية ولهذا فقد قررت اللجوء الى وسائل اكثر فعالية لاسيما وان فرنسا زادت من نشاطها المعادي لروسيا في الدولة العثمانية وسفيرها في اسطنبول سباستياني

انهمك في تحريض الحكومة العثمانية ضدها . وهكذا احتلت روسيا امارتي الدانوب في تشرين الاول ١٨٠٦ بحجة حماية حقوق وامتيازات الامارتين ، وردت الحكومة العثمانية على ذلك باعلان الحرب على روسيا في كانون الاول من السنة ذاتها متذرعة بعدة اسباب منها المساعدة التي تقدمها روسيا للثوار الصربيين[٢٥] .

دخلت الانتفاضة الصربية مع قيام الحرب الروسية ـ العثمانية مرحلة جديدة فقد دفع ضعف الاستعداد العسكري لروسيا وقلة قواتها المخصصة للعمليات العسكرية ضد الدولة العثمانية الحكومة الروسية الى اشراك الشعوب البلقانية في الحرب فشكلت منهم فصائل من المتطوعين وعلقت منذ بداية الحرب اهمية كبيرة على المساعدة التي يمكن ان يوفرها الثوار الصربيون في هذا المجال ، وكان هؤلاء قد احرزوا في ١٨٠٦ كما المحنا نجاحات عسكرية لا يستهان بها كان من نتيجتها ان وافقت الدولة العثمانية تحت الحاح روسيا على ان تبدأ مع الصربيين محادثات الصلح اذا ما خففوا من مطاليبهم فاقترح هؤلاء ان تكون الشروط التالية اساسا للمحادثات[٢٦] .

١ ـ يعترف الصربيون بانهم رعايا الباب العالي ويدفعون له مرة في السنة جزية يحدد مقدارها فيما بعد .

٢ ـ تدفع الجزية الى الموظف الذي ينتدبه الباب العالي (المحصل) او الى ساعديه .

٣ ـ يتقلد الصربيون جميع الوظائف الادارية والمالية الاخرى ويمارسون مهماتها تحت اشراف ممثلي الباب العالي .

٤ ـ يسحب من باشوية بلغراد جميع الانكشارية الذين لا يطيعون الباب العالي ومن هم على غرارهم من الفصائل المسلحة ، ويلتزم سكان صربيا بالدفاع عن قاطع الحدود العثمانية الذي يوضع تحت تصرفهم .

وافقت الحكومة العثمانية على اعتبار هذه الشروط اساسا للتفاوض مع المندوب الذي ارسله الثوار الى اسطنبول لهذا الغرض بيوتر ايتشكو . وتمكن ايتشكو هذا من التوصل الى صلح مع العثمانيين عرف بـ « صلح ايتشكو » نسبة اليه . وقد اقرت الحكومة العثمانية للصربيين في هذا الصلح بالحكم الذاتي شرط ان يدفعوا جزية سنوية . ومع ان ما حققه الصربيون في هذا الصلح كان اكثر مما كانوا يطالبون به في بداية الانتفاضة الا انهم قرروا بعد قيام الحرب الروسية ـ العثمانية التخلي عنه ومواصلة القتال والتعاون مع القوات الروسية للتخلص نهائيا من السيطرة العثمانية . والواقع ان الثوار كانوا قد توجهوا منذ آذار ١٨٠٦ اي حتى قبل ان تبدأ الحرب بين روسيا والدولة العثمانية الى القائد العام للجيش الروسي في منطقة الدنيستر الجنرال ميخلسون طالبين المساعدة فارسل ميخلسون الى صربيا ضابطا وكلفه بان يستوضح حاجات الثوار وان يبدي المساعدة لهم[٢٧] . وعلى هذا الاساس وسع الثوار من عملياتهم فاستولوا على بلغراد وشاباتس وهما آخر قلعتين كان العثمانيون مايزالون يحتفظون بهما في صربيا . وفي آذار ١٨٠٧ قتل الثوار باشا بلغراد وهو في طريقه الى اسطنبول وقتلوا المحصل ايضا وقاموا بمذبحة كبيرة ضد الاتراك في بلغراد وشاباتس[٢٨] وفي الوقت نفسه حقق الثوار نجاحات ملحوظة الى درجة بحيث اصبح قره جيورجي «سيد الباشوية » بلا منازع[٢٩] . وكان ذلك كله يعني ان الثوار قرروا القطيعة التامة مع الدولة العثمانية ، وبالفعل فقد عقد قره جيورجي مؤتمرا لقادة الثورة تقرر فيه مواصلة الحرب بالتحالف مع روسيا .

جاءت هذه التطورات متوافقة مع التغييرات التي جرت في الوضع الدولي وفي مواقف الحكومة الروسية من الشؤون البلقانية فقد اضطر الكسندر الاول بعد الهزيمة الساحقة التي منيت بها القوات الروسية في معركة تريلاند في ١٤ حزيران ١٨٠٧ الى التحالف مع نابليون فوقع معه في ٧ تموز من العام ذاته معاهدة تلست التي حولت روسيا من عدو لفرنسا الى حليف لها ضد بريطانيا .

لقد كان لصلح تلست انعكاسات مهمة على الوضع في جنوب شرق اوروبا فقد فقدت روسيا بنتيجته المواقع الاستراتيجية والسياسية المهمة في شرق البحر المتوسط ، وفي الوقت الذي ادت فيه الحرب القائمة بين روسيا والدولة العثمانية الى غلق المضايق امام الاسطول الروسي المتواجد في البحر المتوسط ادى انهاء روسيا لحلفها مع بريطانيا وتحالفها مع فرنسا الى تحول الاسطول الانجليزي الى قوة معادية وبذلك انحصر الاسطول الروسي بين قوتين معاديتين وانقطعت خطوط مواصلاته . ولكي يعوض الكسندر الاول عن هذه الاخفاقات العسكرية والسياسية ويبرر في نظر الاوساط الحاكمة في روسيا حلفه مع فرنسا الذي كانت تلك الاوساط تعارضه اخذ يسعى

للتوسع الاقليمي في البلقان بوساطة فرنسا ومساعدتها لاسيما وان نابليون شجعه على ذلك عندما طرح عليه في لقائهما في تلست فكرة تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وقد تضمنت معاهدة تلست بالفعل مادة سرية احتوت مخططا للقضاء على الدولة العثمانية حيث اتفق الامبراطوران الروسي والفرنسي على العمل سوية لتجريد الدولة العثمانية من الاغلبية الساحقة من ممتلكاتها في اوروبا[٣٠] . وفي اللقاء الجديد الذي تم بين الامبراطورين في ارفورث في نهاية ايلول ١٨٠٨ ناقش الجانبان خططا محددة لتقسيم الامبراطورية العثمانية او اقتطاع بعض اقطارها . واعترف نابليون في الميثاق الذي وقعه مع الكسندر الاول في هذا اللقاء بحق روسيا بالاستيلاء على ولاكيا وملدافيا وفنلندا[٣١] . وكان هدف نابليون من كل ذلك هو ان يشغل روسيا بمطامعها التوسعية في البلقان والشرق الادنى فيضعف بذلك مواقعها على حدودها الغربية الامر الذي يسهل مساعيه لبسط السيادة الفرنسية التامة على اوروبا ، كما ان اثارة المسألة الشرقية من شأنه ان يؤدي الى تعميق الخلافات بين روسيا وحلفائها السابقين فيعيق بذلك انشاء تجمع جديد معاد لفرنسا .

لقد ادى انسحاب الاسطول الروسي من بحر الادرياتيك والبحر الايوني وتسلم فرنسا المناطق التي نص صلح تلست على انتقالها اليها هناك الى اضعاف مواقع روسيا في البلقان فانقطعت علاقاتها الوثيقة مع الجبل الاسود وانهارت خطط انشاء دولة مستقلة في القسم الغربي من شبه جزيرة البلقان . ومع ذلك فقد كانت روسيا المشتبكة في حرب مع الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي بامكانها في حالة انتصارها على الامبراطورية العثمانية ان تساعد رعايا تلك الامبراطورية على التخلص من سيطرتها . والواقع ان الثوار الصرب لم يحصلوا من اي من الدول الاوروبية الاخرى على العون الذي حصلوا عليه من روسيا وذهبت جهودهم في هذا السبيل ادراج الرياح فحتى الاقتراح الذي طرحه قره جيورجي في آب ١٩٠٩ على نابليون بان يضع صربيا تحت حمايته وعرضه عليه في تشرين الاول من السنة ذاتها ان يسلمه عددا من الحصون الصربية املا في الحصول على الاسناد من فرنسا لم تؤد الى نتيجة[٣٢] . ولهذا فقد كثف الثوار الصربيون من حملاتهم مع الحكومة الروسية والقيادة العسكرية الروسية بعد قيام الحرب الروسية ـ العثمانية ١٨٠٦ ـ ١٨١٢ وساعدتهم الاحداث التي جرت في اسطنبول في ١٨٠٧ وتمخضت عن عزل السلطان سليم الثالث ثم قتله وتولي مصطفى الرابع اولا ثم محمود الثاني العرش العثماني في صيف ١٨٠٨، على تحقيق نجاحات بارزة أخرى . وقد تبلورت الاتصالات بين الثوار والحكومة الروسية في حزيران ١٨٠٧ فيما يسمى بميثاق قره جيورجي ـ باولوتشي الذي جسد صلات في غاية الوثوق بين الجانبين فقد نص على ان تضع روسيا صربيا تحت حمايتها وتعين فيها حاكما كفوءا « يقود الشعب الى نظام لائق ويحكم الارض الصربية ويضع دستورا على اساس اعراف الشعب » على ان يجري اقرار هذا الدستور وتعيين السلطات العسكرية والمدنية باسم القيصر الروسي وعلى ان تقدم روسيا لصربيا مساعدة عسكرية وسياسية وتتضمن عدم اقامة نظام القنانة الاقطاعي فيها[٣٣]، وفي ٢ آب ١٨٠٧ وصل الى بلغراد ممثل دبلوماسي روسي هو رودوفينيكين ومع وصوله ازدادت المساعدة الروسية للثوار فارسلت لهم السلطات الروسية السلاح والمال والخبراء العسكريين كما ساعد رودوفينيكين الثوار في اقامة صلات خارجية ولعب دورا بارزا في تحجيم دور العناصر الموالية للنمسا بين قادة الانتفاضة[٣٤] . وعندما تجددت العمليات العسكرية في صربيا في ١٨٠٩ وانضم سكان الجبل الاسود الى القتال ضد العثمانيين وتحرج موقف الثوار حين تغلبت القوات العثمانية عليهم واستولت على مدينتي بوزاريفاتس وياجودينا اللتين تسيطران على الطريق المؤدي الى بلغراد بادرت القوات الروسية الى انجاد الثوار وانقذتهم من الانحدار التام بالنصر الذي حققته على العثمانيين في منطقة الدانوب[٣٥] . وابدى الثوار الصرب لروسيا من جانبهم مساعدة ملحوظة فقد كانوا يمتلكون قوات عسكرية لا يستهان بها اخذت تحارب الى جانب الجيش الروسي . وكان ذلك اعتبارا آخر مضافا الى الاعتبارات التي جعلت روسيا تسعى للتوصل الى حل يرضي الثوار الصرب ولهذا فان جميع مسودات المعاهدات وشروط الهدنة التي وضعتها الحكومة الروسية والقيادة العسكرية الروسية لإنهاء الحرب طيلة الفترة من ١٨٠٨ والى ١٨١٢ كانت تتضمن شرطا اعتبرته الحكومة الروسية اساسيا وهو « تأمين مصير صربيا » كأساس للتسوية السلمية مع الدولة العثمانية . وكانت روسيا آنذاك ترى بان ذلك يتحقق بان تقوم في صربيا دولة مستقلة فعليا تدفع للباب العالي جزية معتدلة وتضم بالاضافة

الى باشوية بلغراد كلا من صربيا الجنوبية والاراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر تيموك ويحكمها امير صربي يتولى منصبه بالوراثة، وتعيد سلطته دستور ومجلس شيوخ يلعب فيه ممثل روسيا دورا كبيرا ويسيطر على نشاطه[٣٦]. وهكذا كان على الدولة الصربية المنشودة ان تكون قاعدة ارتكاز لروسيا يمكن ان تستغلها في صراعها مع النمسا وفي توسيع المواقع الروسية على حساب الممتلكات العثمانية في البلقان .

غير ان الظروف لم تلبث ان اضطرت روسيا الى ان تغير موقفها هذا فقد اخذت العلاقات الروسية ـ الفرنسية بالتوتر الى الحد الذي اصبح فيه قيام حرب جديدة بينهما في المستقبل القريب امرا حتميا ، ولذلك فقد كان لابد للحكومة الروسية ان تعقد الصلح مع الدولة العثمانية استعدادا للحرب الجديدة مع فرنسا . وللتوصل الى ذلك كان عليها في اثناء المفاوضات التي اجرتها مع العثمانيين في خريف ١٨١١ ـ ربيع ١٨١٢ ان تخفف من مطالبها تجاه الدولة العثمانية . وقد انعكس هذا الموقف الجديد بالنسبة للقضية الصربية في موافقة روسيا على ان تبقى سيادة السلطان قائمة في صربيا وان يدفع الصربيون جزية معتدلة ولكنها اصرت على ان تقوم في صربيا ادارة مدنية ذاتية مستقلة عن الباب العالي[٣٧] .

وقد استطاع المفاوضون الروس اقناع المندوبين العثمانيين في اثناء المفاوضات بالخطر الذي يؤلفه نابليون على الدولة العثمانية فكان ذلك الى جانب الوضع الداخلي في الدولة العثمانية التي انهكتها الحرب الطويلة والاضطرابات الداخلية المستمرة من الاسباب التي دفعت الحكومة العثمانية الى الموافقة على شروط الصلح فوقعت المعاهدة الخاصة بذلك في بوخارست في ٢٨ أيار ١٨١٢ وبذلك انتهت الحرب الروسية العثمانية التي كانت قائمة منذ ١٨٠٦ .

التزمت الدولة العثمانية في معاهدة بوخارست بالعفو عن جميع الرعايا العثمانيين الذين شاركوا في الحرب واستولت روسيا بموجبها على بسارابيا بحيث امتدت حدودها حتى نهر بروث والضفة اليسرى من نهر الدانوب وساحل البحر الاسود . وقد اعادت المعاهدة ولاكيا وملدافيا الى الدولة العثمانية على ان تقوم هذه الاخيرة بتنفيذ جميع الامتيازات التي منحتها لهما معاهدة ياسي ، كما اعادت روسيا الى الدولة العثمانية جميع المناطق والقلاع التي احتلتها في آسيا . اما بالنسبة للقضية الصربية فقد نصت المعاهدة على منح الصربيين العفو العام على ان يجري تدمير جميع القلاع والتحصينات التي اقاموها اثناء الحرب اما القلاع الاخرى التي كانت قائمة قبل الحرب فتعاد الى الحكومة العثمانية . لقد اقرت المعاهدة بان الصربيين هم رعايا للسلطان يدفعون له الجزية لكنها الزمت الباب العالي من الناحية الاخرى بان يستجيب لطلب الصربيين ويمنحهم الحق في ادارة شؤونهم الداخلية وحددت مقدار الجزية التي يدفعونها للسلطان سنويا[٣٨] .

لم ترض معاهدة بوخارست الصربيين تماما لأنها لم تستجب لكل ما كانوا يطالبون به فلم يتحدد فيها بدقة وبشكل ملموس التزام الباب العالي بمنحهم الحكم الذاتي المحلي ولم يحط هذا الحكم بضمانات كافية كما ان تسليمهم القلاع العسكرية في المدن الى القوات العثمانية يشكل خطرا دائما عليهم . يضاف الى ذلك ان المعاهدة لم تحدد مساحة المنطقة التي سيطبق فيها الحكم الذاتي الداخلي الذي منح للصربيين . ومع ذلك فان التزام الحكومة العثمانية في معاهدة دولية بمنح الصربيين استقلالا ذاتيا داخليا لعب في المستقبل دورا ملحوظا في نضالهم من اجل الاستقلال التام واثر ايجابيا في تأسيس دولة صربية مستقلة ذلك انه كون سابقة قانونية استند عليها الصربيون في نضالهم المقبل .

ومع ان معاهدة بوخارست لم ترض الثوار الصربيين الا انهم دخلوا في بداية ١٨١٣ في محادثات مع ممثلي الحكومة العثمانية لتنفيذ ما جاء فيها بخصوص صربيا . وقد اطال العثمانيون المحادثات عمدا ثم شنوا في صيف السنة ذاتها هجوما عاما على صربيا مستغلين انشغال روسيا بحربها مع فرنسا واستطاعت القوات العثمانية ان تكسر مقاومة الثوار وتقمع الانتفاضة وتعيد السلطة العثمانية الى صربيا فاضطر قره جيورجي الى الهرب الى الامبراطورية النمساوية . وكان مما ساعد العثمانيين على ذلك الهوة الاخذة بالاتساع بين قادة الانتفاضة وجمهرة الفلاحين الصربيين من جهة والخلافات التي اخذت تشتد بين قادة الانتفاضة انفسهم من جهة اخرى .

وبعد ان قمعت الانتفاضة الصربية عادت تبعية الفلاحين لاصحاب الاقطاع واجبر الفلاحون على السخرة لصالح اصحاب الارض فساءت احوال الصربيين وازدادت معاناتهم الامر الذي ادى الى قيام انتفاضة جديدة في منطقة تشاتشاك في خريف ١٨١٤ غير ان السلطات العثمانية تمكنت من اخمادها . وحاول الصربيون

الحصول على اسناد ممثلي الدول الاوروبية المجتمعين في مؤتمر فينا لكن محاولتهم هذه باءت بالفشل الامر الذي دفع من بقي من قادة الصربيين الى العمل على الاعداد لانتفاضة جديدة . وقامت الانتفاضة بالفعل وانتخب لزعامتها ميلوش ابرينوفتش وهو احد قادة الانتفاضة الاولى ، واحرز الثوار النصر على باشا بلغراد ثم توجهوا الى الحكومة النمساوية طالبين السلاح لتعزيز الانتصارات التي حققوها غير ان النمسا رفضت مساعدتهم واغلقت حدودها مع صربيا الامر الذي دفع الصربيين الى التوجه الى روسيا التي تدخلت دبلوماسيا لدى الباب العالي لصالحهم . وكان من نتيجة هذا التدخل الروسي ان قامت بين الثوار الصربيين والحكومة العثمانية محادثات تمخضت عن عقد الهدنة بين الجانبين في آب ١٨١٥ ثم عقدت بين الطرفين اتفاقية شفهية اعترفت الحكومة العثمانية بموجبها بميلوش ابرينوفتش اميرا على صربيا ونظمت مقدار الجزية ومنحت الصربيين الحق في المشاركة في المحاكم الى جانب الموظفين العثمانيين[٣٩] . لكن الجانب العثماني لم يقدم اي ضمان لهذه الاتفاقية كما ان مساحة المنطقة التي كانت تسري عليها سلطة ميلوش ابرينوفتش كانت اقل من مساحة المنطقة التي خضعت لقره جيورجي في حينه . ولهذا فان الانتفاضة الجديدة لم تحقق الا نجاحا جزئيا حيث انها لم تؤد الى قيام دولة صربية مستقلة وهو ما كان يسعى اليه الصربيون ولذلك فقد ظلت الاتصالات قائمة بين الطرفين وزار وفد من الصربيين اسطنبول في ايلول ١٨١٥ . ومع ان الحكومة العثمانية لم تطمن مطاليب الوفد الا انها اصدرت في بداية ١٨١٦ عددا من المراسيم قضت بان يدفع الصربيون الضرائب على دفعتين وان تكون لتجارهم حرية التجارة في الدولة العثمانية وان يقتصر وجود الحاميات العسكرية العثمانية على المدن وان يخرج منها الانكشارية وان يشترك ممثلو الادارة المحلية مع الموظفين العثمانيين في تقلد الوظائف الادارية والقضائية في النواحي والاقاليم وان يسمح بانشاء مجلس دائم يكون لكل ناحية ممثلها الخاص فيه[٤٠] .

لقد قامت الحكومة العثمانية بهذه التنازلات بسبب خشيتها من قيام انتفاضة جديدة في صربيا وخوفها من ان تتدخل روسيا في النزاع القائم بينها وبين الصربيين لاسيما وان دور روسيا في اوروبا ونفوذها فيها اصبح كبيرا جدا بعد الانتصار على نابليون . واستغل ميلوش ابرينوفتش الظروف فتخلص من منافسيه وعلى رأسهم قره جيورجي الذي عاد الى صربيا في صيف ١٨١٧ . وكان مقتل قره جيورجي وانفراد ميلوش ابرينوفتش بالزعامة سببا في نزاع شديد استحكم بين اسرتيهما وفرض طابعه على التطورات اللاحقة في صربيا لسنوات طويلة لاحقة . ثم توصل ميلوش ابريتوفتش الى ان ينتخب في تشرين الثاني ١٨١٧ اميرا وراثيا لصربيا فانفرد بالسلطة وحكم البلاد بيد من حديد وبدأ يسعى للحصول على اعتراف الحكومة العثمانية بسلطته الوراثية.

غير ان الحكومة العثمانية لم تتخل ابدا عن الامل في اعادة صربيا الى سلطتها المباشرة ولذلك فانها كانت ترفض بكل شدة الاعتراف بالاستقلال الذاتي للامارة الصربية ولكن روسيا كانت تضغط عليها باستمرار مطالبة بتنفيذ ما التزمت به بموجب معاهدة بخارست، ودخلت مع السلطات العثمانية اكثر من مرة في محادثات حول هذه القضية من ذلك مثلا الاتصالات التي جرت بين الجانبين في ١٨١٦ و١٨٢٠ والتي لم تؤد الى أي نتيجة بسبب اصرار الجانب العثماني على رفض منح الصربيين الاستقلال الذاتي [٤١] وعندما ادت التعقيدات التي اثارتها الانتفاضة اليونانية في ١٨٢١ الى توتر العلاقات الروسية ـ العثمانية ـ قدمت الحكومة الروسية في ١٧ آذار ١٨٢٦ انذارا طالبت فيه بان تسحب الدولة العثمانية قواتها من ولاكيا وملدافيا وان تعيد لصربيا جميع الحقوق التي منحتها اياها معاهدة بخارست لسنة ١٨١٢ فاضطرت الحكومة العثمانية الى الاذعان والتزمت بموجب ميثاق اق كرمان الذي وقعه الطرفان في ٧ تشرين الاول ١٨٢٦ بان تتفق مع مندوبين عن صربيا حول التدابير الواجب اتخاذها لتنفيذ جميع الامتيازات التي وفرتها معاهدة بخارست للصربيين وان تصدر فرمانا خاصا بذلك ينفذ خلال ثمانية عشر شهرا [٤٢] ولكن الحرب الجديدة التي قامت بين روسيا والدولة العثمانية في ١٨٢٨ اعاقت تنفيذ هذا الميثاق الى ان وقعت معاهدة ادريانول (ادرنه) في ١٤ ايلول ١٨٢٩ التي تأكد فيها حتى روسيا في حماية صربيا والتزمت الحكومة العثمانية بموجبها بتنفيذ جميع ما تضمنه ميثاق اق كرمان بشأن صربيا وباعادة النواحي الست التي كانت قد اقتطعتها منها واصدار فرمان يضفي الصفة الشرعية على استقلالها الذاتي [٤٤] واصدر السلطان بالفعل

فرمانا وجهه الى باشا بلغراد واعلن فيه تنفيذ جميع المعاهدات والاتفاقيات القائمة بين روسيا والدولة العثمانية بشأن صربيا ثم تطلب الامر قيام محادثات بين روسيا والصربيين من جهة والسلطات العثمانية من جهة اخرى حول تفاصيل تنفيذ هذا الفرمان وحول اعادة الاراضي التي اقتطعت من صربيا في عام ١٨١٣ وتمخضت هذه المحادثات عن اصدار فرمان جديد ففي ١٥ آب ١٨٣٠ وعن اعتراف الباب العالي بميلوش ابرينوفتش اميرا وراثيا لصربيا.

لقد نص فرمانا ١٨٢٩ و١٨٣٠ على ان تكون السلطة العليا في الامارة الصربية للدولة العثمانية وعينا المبلغ الواجب على صربيا دفعه مقابل تمتعها باستقلال ذاتي داخلي كامل واعترفا بميلوش ابرينوفتش اميرا لها ووعد الجانب العثماني بموجبهما باعادة المناطق المقتطعة الى صربيا بعد ان يتفق مفوضون عثمانيون وروس يرسلون الى هناك لهذا الغرض على تعيين حدود هذه المناطق كذلك نص الفرمان على حق الامير بان تكون له قوات عسكرية للمحافظة على النظام في الامارة واكدوا على حق الصربيين في ان يتاجروا بحرية في الامبراطورية العثمانية وان يؤسسوا مستشفيات ومدارس ومطابع ودوائر للبريد واقتصر وجود الحاميات العثمانية على ست قلاع ولم يكن من حق الاتراك العيش خارج القلاع وكان عليهم ان يبيعوا ممتلكاتهم الموجودة خارجها (٤٥).

بعد ذلك اخذ ميلوش ابرينوفتش يضم بالتدريج اجزاء من النواحي الست المقتطعة رغم معارضة الباب العالي ثم دبر اشعال انتفاضة في شرق صربيا فاضطرت الحكومة العثمانية الى اصدار مرسوم آخر في تشرين الثاني ١٨٣٣ اقرت فيه بضم النواحي الست الى الامارة الصربية الامر الذي ادى الى زيادة مساحتها بمقدار الثلث وتحدد في الفرمان الجديد ايضا المبلغ الواجب على صربيا دفعه بمقدار (٢٣٠٠,٠٠٠) قرش.

وهكذا تحدد الوضع السياسي لصربيا كامارة تتمتع باستقلال ذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية وقد ظل هذا الوضع قائما حتى عام ١٨٧٨ عندما قرر مؤتمر برلين الاعتراف بها دولة مستقلة عن الدولة العثمانية.

الهوامش

(١) Akademiya Nauk SSSR. Institut Slavya novedeniya, Istoriya Yuogoslavii, T.1, pod red. Yu V. Bromley I drug. Moskva 1963. Str.310.

(٢) Jhid P. 310

(٣) S.A. NIKITIN, Narody Balkanskovo poluostrova v 1789 — 1815 (Novaya istoria Tom vtoroy 1789 — 1870, pod red. I.S Galkina idrug) Mosicva 1958, Str. 183.

(٤) V.V. Zelenin, Pervoe Serhskoe Vostanie i Avstriya 1804 — 1807 — (IZ istorii ohshchestvennykh dvizheniy i Mezhdunarodnykh otnosheniy . Shornik statey v pamyat akademika Evgeniya Viktorovicha Tarle) Moskva 1957 Str 347.

(٥) جاء في رسالة لاحد قادة قوات الحدود النمساوية في معرض حديثه عن مطاليب الثوار الصربيين ورفضها من جانب سلطات الحدود النمساوية قوله : « لقد كان تصرف قيادة لواء الحدود صحيحا تماما عندما رفضت بحجة مقبولة ، منح الذخيرة (للثوار)، ان الانتقال الينا لا يمكن السماح به ايضا لأنه يمكن ان يكون سببا في انتقال الاضطرابات من ذلك الجانب (من الحدود) الى جانبنا وفي حدوث اعمال تطرف سيكون قيامها حتميا بسبب ذلك او في دفع الباب العالي الى ان يطرح (بحقنا) اتهاما بخرق معاهدة الصلح »_ Quoted in Zelenin, op. cit p.347.
ومعاهدة الصلح المقصودة هنا هي معاهدة سيستوف التي عقدت بين النمسا والدولة العثمانية في ٤ آب ١٧٩١ .

(٦) Quoted in Zelenin, op. cit p. 348.

(٧) انظر حول ذلك : Zelenin, op. cit p. 348.

(٨) Ihid .pp. 348 — 349.

(٩) William Miller, the ottoman Empire and its Successors 1801 — 1927 Kondon and Edinhurgh 1966, p.50
انظر تفاصيل هذا الاقتراح وغيره من التوجهات المماثلة في : Zelenin, op. cit. pp. 349 — 350

(١٠) Istoriya Yuogoslavii vol 1. p. 312

(١١) Quoted in Zelenin, op. cit. p. 352

(١٢) Ihid pp. 352 — 353

(١٣) Ihid p. 353, Prin. 23 pp. 353 — 354.
والحقيقة ان النمسا واصلت ضغطها على الثوار وكان هذا الضغط يزداد بمقدار ما كانت تزداد النجاحات التي يحققونها ، فبعد ان استولوا على بلغراد في ١٨٠٧ انبرت الحكومة النمساوية لتحذيرهم واعلنت لهم بانهم لن يستطيعوا الاعتماد على اسنادها الدبلوماسي امام الباب العالي الا اذا التزموا في كل شيء بما يشير به ممثل الدولة العثمانية . وعندما لم يمتثل الثوار لذلك وقتلوا ممثل الحكومة العثمانية زادت الحكومة النمساوية من حرصها على منع اية علاقة تجارية مع الثوار وافهمتهم بان عليهم « ان لا يأملوا باي اسناد من جانب النمسا طالما انهم يرفضون اي اتفاق مع تركيا » : Zelenin, or. cit .p. 354
لكن موقف النمسا هذا لم يعد شديد التأثير على الثوار الصرب لأن الانتفاضة الصربية كانت قد دخلت مرحلة جديدة بعد نشوب الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في ١٨٠٦ وما تبع ذلك من قيام القوات الروسية وفصائل الثوار الصربيين بعمليات عسكرية مشتركة ضد العثمانيين وتكثيف المساعدة الروسية للثوار .

(١٤) Istoriya Yuogoslavii vol 1. p. 312

(١٥) V.P. Grachev i I.S.Dostyan, Formiro vanie Serhskovo natsionalnovo gosudarstva v period pervovo Serhskovo vosstaniya 1804 — 1813 gg. — (Fornirovanie Natsionalnykh nezavisimykh gosudarstv na balkanakh (Konets XVIII — 70 e gody XIX v.) Moskva 1986, Str. 98.

(١٦) I.S. Dostyan, rossiya i balkanskiy vopros. Iz istorii russko — blakanskikh politicheskikh svyazey v pervoy treti XIX v., Moskva 1972, Str. 50.

(١٧) Nikitim, narody Balkanskovo poluostro va.. str. 184.

(١٨) Grachev ! .Dostyan, op. cit. p. 99

(١٩) Istoriya Yuogoslavii, T. 1, p. 312.

(٢٠) A.A. Chartoryyskiy A. Ya. Italinskomu 4 (16) dekahrya 1804 j — (Vneshnyaya politika Rossii XIX i nachala XX veka Dokumenty Ros-siyskovo Ministirstva inostrannykh del) Scriya pervaya 1801 — 1815 jj. Tom II. Moskva 1961, prim. 130 str. 671 — 672 (gal a VPR)
رسالة تشارتوريبيسكي الى ايتالينسكي في ٤ (١٦) كانون الاول ١٨٠٤ « سياسة روسيا الخارجية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وثائق وزارة الخارجية الروسية » المجموعة الاولى ١٨٠١ ـ ١٨١٥ ، الجزء الثاني موسكو ١٩٦١ ، هامش ١٣٠ ص ٦٧١ ـ ٦٧٢

(٢١) Zapis hesedy N.N. Novosiltseva S premer ministrom velikohritanii pittom 13 (25) dikabrya 1804 g. (VPR) Seriya 1, Tom II N. 79, Str. 240
مذكرة ن.ن. نوفو سيلتسيف عن محادثته مع رئيس وزراء بريطانيا العظمى بت ١٣ (٢٥) كانون الاول ١٨٠٤، « سياسة روسيا الخارجية » المجموعة الاولى ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٠، رقم الوثيقة ٧٩ .

(٢٢) انظر حول ذلك : Istoriya yuogoslavii, vol. 1., p. 313

(٢٣) انظر نص المعاهدة باللغات التركية والفرنسية والروسية في : (VPR) Seriya 1, Tom II No 184 Str. 582 — 594.
« سياسة روسيا الخارجية » المجموعة الاولى، الجزء الثاني، ص ٥٨٢ ـ ٥٩٤، رقم الوثيقة ١٨٤ .
انظر ايضا : M.S. Anderson, the Great powers and the Near East 1774 — 1923, Documents of modern history, London 1970, pp. 25 — 27.

(٢٤) Istoriya Yuogoslavii vol .1. p. 314.

(٢٥) M.S. Anderson, the Eastirn Question 1774 — 1923, A study in International relations, Glasgow 1970, p. 48

(٢٦) Grachev i Dostyan, op. cit p. 103

(٢٧) Istoria Yuogoslavii, vol .1, p. 314.

(٢٨) Ih:d p. 314, Anderson, the Eastirn Question.. p. 48.
محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠٤ .

(٢٩) W.M. Gewehr. the Rise of Na'ionalism in the Balkanx 1800 — 1930, Archon Books. 1967 pp. 18 — 19.

(٣٠) Harold temperley, England and the Near East , the Crimea, London 1964, pp. 48 — 49.

(٣١) V.P. Potemkim ! drujie, Istoriya diplo matii, tom 1, Moskva 1959, Str. 477

(٣٢) Anderson, the Eastern Quertion ... p.49

(٣٣) Dostyan, Rossiya i Balkanskiy vopros ... p.p. 67 — 68

(٣٤) Istoriya Yuogoslavii vol. 1 .PP. 319 — 320, Grachev Dostyan, op. cit p. 104.

(٣٥) Nikitin, Narogy Balkanskovo polvostro va v 1789 — 1815 ... p. 185

(٣٦) Dostyan, Rossiya i Balkanskiy vopros... p. 70

(٣٧) Instruktsiya glavnoko manguyušhchevo Moldavskoy armiey M.I. Kutuzova russkim predstavitelyam na pussko — Turets Kikh mirnykh pere govorakh 18 (30) aprilya 1812 g. (VPR) SERIYA 1, tom VI No 154 Str. 381 — 382.

تعليمات القائد العام للجيش العامل في بلدافيا م.اي. كوتوزوف للمندوبين الروس الى محادثات الصلح بين روسيا والدولة العثمانية ١٨ (٣٠) نيسان ١٨١٢ « سياسة روسيا الخارجية » المجموعة الاولى الجزء السادس ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ الوثيقة رقم ١٥٤ .

(٣٨) Anderson, the Great powers... pp. 28 — 29, Diplomaticheskiy Slovar, Tom 1, Moskva 1960, Str. 228. Grachev i Dostyan, op. cit. p. 110.

(٣٩) S.A. Nikitin ,Borha narodov Balkanskovo poluostrova 3a natsionalnuyu nezavisimost v 1815 — 1847 — (Novaya istoriga tom vtoroy 1789 — 1870 pod red I.S. Galkina i drug) Moskva 1958, Str. 346

(٤٠) I.S. Dostyan, Borha 3a priznanie avtonomii Serhskovo knyazhestva — (Formirovanie natsio nalinykh nezavisimykh gosudarstv na balka nakh (konets XVIII 70 e jody XIX v.) Moskra 1986 Str. 112.

(٤١) Gewehr, op. cit. p. 20

(٤٢) انظر حول ذلك Dostyan, Borha 3a priznanie avtonomii Serhskovo knyazhestva ... pp. 116 — 118.

(٤٣) انظر نص الميثاق في : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص: ٢١٠ ـ ٢١٧ ، انظر ايضا : Diplo- maticheskiy slovar, Tvol. 1. p. 27, Dostyan, Borha 3a priznanie avtonomii serhskovo knyazhestva... p. 118

(٤٤) Diplomaticheskiy slovar, vol 1, p. 24

(٤٥) Dostyan, Borha 3a priznanie avto nomii Serhskovo knyazhestva... pp. 119 — 120

حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض بطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ من ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » .

ابـن خلدون

بحوث التاريخ العربي الاسلامي

العلاقات الثقافية بين المغرب والاندلس

د. صالح محمد فياض ابو دياك
كلية الآداب ـ جامعة اليرموك

تعود العلاقة الثقافية بين المغرب والاندلس منذ فتح الانـدلس سنة ٩١ هـ / ٧١١ م الى سقوطها في ربيع الاول سنة ٨٩٧ هـ / كانون الثاني سنة ١٤٩٢ م . فقد بدأت الهجرة المغربية منذ قيام دولة الاسلام فيها ، وكان من بين افرادها عدد من العلماء والادباء .

وقد نجد من العسير التحدث عن العلاقات الثقافية بين البلدين في القرن الاول للهجرة ، فهي فترة مضطربة كان المسلمون فيها جنودا محاربين . اما القرن الثاني فقد اتسم باستقرار القبائل العربية والمغربية وادى هذا الاستقرار الى الاختلاط بالسكان ونتج عن ذلك جيل جديد هضم العربية وثقافتها .

اما القرن الثالث للهجرة ، فقد ساد فيه المذهب المالكي بالاندلس ونمت بذور العلم والادب واسهم الجيل الجديد في رعايتها وتطورها لاسيما في القرن الرابع للهجرة ، فالقيروان اصبحت منذ قيام الدولة العباسية قاعدتها السياسية بينما كانت قرطبة عاصمة اموية منذ قيام الفرع المرواني بتأسيس دولتهم على يد الامير عبدالرحمن الداخل ، الامر الذي ادى الى حدوث منافسة علمية بين الحاضرتين شملت ميادين اللغة والادب والفقه والقراءات والتصوف ، وكان لعلماء البلدين دور كبير في اثراء العلوم بمختلف اصنافها عن طريق الرحلات العلمية القائمة فيما بينهما ، ويظهر هذا واضحا من خلال قراءتنا للكتب القديمة التي تشير الى ارتياد الاندلسيين لمدن المغرب خاصة في القرن الثالث للهجرة ، حيث كانت الحلقات العلمية المنعقدة فيها وجها من وجوه الاتصال البشري بين البلدين ، لأن بحر الزقاق قضى بالجمع بين علماء البلدين ، كما لعبت القيروان في هذه المرحلة دورا بارزا ، فكانت محطة لعبور اهل المشرق للاندلس ، وعبور اهل الاندلس للمشرق ، وفي هذا الصدد يقول المقري :

(حصر الارتحـال لا يمكن بوجـه ولا حال)[١] .

وتميز القرن الرابع بظهور ثقافة اندلسية مميزة ايام الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنـه الحكم المنتصر وحفيده هشام المؤيد[٢] . ونبـغ في هذه الفترة عدد من العلمـاء في مختلف العلوم ، ففي ميدان التاريخ برز للوجود المؤرخ ابوبكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية ، الذي الف كتابا سمـاه « تاريـخ افتتاح الانـدلس » تنـاول فيـه الاحداث التاريخية التي مرت بها الاندلس منـذ الفتـح الى وفـاة الامـير عبدالله بن محمـد بن عبدالرحمن الاوسط سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢م وتولى حفيده من بعده عبدالرحمن الناصر .

اما في مجال الفقه ، فقد قدم الى القيروان عدد من ابنائها فقهاء المالكية للاندلس ، من هؤلاء الفقيه محمد بن الحارث الخشني القروي المتوفي سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م الذي عاش في القيروان ثم انتقل الى الاندلس بدعوة من الخليفة الاموي الحكم المنتصر الذي طلب منه تأليف كتاب سماه (قضاة قرطبة) الذي يعد من المصادر الاساسية في معرفة الحياة الاجتماعية في الاندلس في العصر الاموي ، اذ كثيرا ما يشير الى عادات الاندلسيين ولباسهم ولغتهم مثل اشارته المهمة الى انتشار اللغة الاعجمية او الرومانسية (Romance) اي الاسبانية العامية بين الاندلسيين لدرجة ان بعض القضاة كانوا يتقنونها ويناقشون المتهمين فيها اثناء محاكمتهم(٤)، الى جانب العديد من كتب العلماء والفقهاء والمؤرخين ممن يستفاد من مؤلفاتهم في القضاء والادب والتاريخ والعلوم الاخرى .

واتسع نطاق المعرفة في القرن الخامس الهجري وتعددت الاختصاصات ، وبرز في ميدان التاريخ في هذا القرن ، ابومروان بن حيان بن خلف بن حسين القرطبي الذي عاش من سنة ٣٧٧ ـ ٤٦٩هـ / ٩٨٧ ـ ١٠٧٦م ، والذي يعد بحق من اعظم مؤرخي اسبانيا الاسلامية بسبب كثرة مؤلفاته في هذا الميدان ، كان من ابرزها كتابه المسمى بـ (المقتبس في اخبار الاندلس)(٥) او (المقتبس في تاريخ رجال الاندلس) او (المقتبس من انباء اهل الاندلس) . تناول فيه تاريخ الاندلس من الفتح العربي سنة ٩١ هـ/ ٧١١م الى نهاية حكم الخليفة الحكم المنتصر ، ويفهم من عنوان الكتاب، ان ابن حيان استفاد من المؤرخين الذين سبقوه امثال ابن القوطية وابن الفرضي والخشني وغيرهم ، وقد اضفى على كتابه شيئا من نتاجه الذي ظهر واضحا في تعليقاته وآرائه فأصبح الكتاب قيما وشهد بقيمته ابومحمد علي بن حزم القرطبي الذي عاش من سنة ٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٣م، والذي عرف بكثرة مؤلفاته منها ، طوق الحمامة في الالفة والآلاف، وهو اول دراسة نفسية تحليلية لعاطفة الحب والمحبين(٦)، الى جانب العديد من مؤلفاته في مختلف العلوم . وظهر في هذا القرن العالم المتصوف ابوبكر محمد بن الوليد الطرطوشي الملقب بأبي رندقة(٧) صاحب كتاب (سراج الملوك(٨)) الذي الفه اثناء وجوده بمصر وقدمه هدية الى الوزير الفاطمي المأمون البطائحي زمن الخليفة الفاطمي الآمر ، وقد تناول فيه الصفات التي يجب ان يتحلى بها الملوك والاعمال التي ينبغي ان يقوموا بها في اوقات السلم والحرب وتميز هذا القرن بأن اصبحت قرطبة مركزا من اهم المراكز الحضارية في الاندلس وقبلة الانام لكثرة وجود العلماء فيها واشتهار اهلها بالتمسك بالسنة حتى صار عملها يسمى بـ (العمل القرطبي) الذي اصبح في بلاد المغرب .

وامتاز الاندلسيون بصفة عامة والقرطبيون بصفة خاصة بالحرص على طلب العلم والتفاني في اقتناء الكتب ، ومن ثم انتشرت المكتبات بين سائر الاوساط في المجتمع ، وكثر الوراقون والنساخ ، وتنافس الناس في اقتناء المخطوطات ، وتباهوا في امتلاكها .

والملاحظ ان المنافسة العلمية لم تبق مقصورة على علماء الاندلس ، بل تعدتها الى المنافسة بين علماء بر العدوة وعلماء الاندلس ، يقول الشقندي (اسماعيل بن محرم) سنة ٦٢٩ هـ /١٢٣٢ م (لولا الاندلس لم يذكر بر العدوة ولا سارت عنه فضيلة)(٩)، وقوله هذا ناتج عن المنافسة التي كانت قائمة ما بين ابن الربيب(١٠) القيرواني وابي المغيرة عبدالوهاب بن حزم الاندلسي(١١) ، ولا تخلو هذه المنافسات من صراع سياسي كان قائما بين ما يسمى بالحزب الاندلسي والحزب البربري ، تجلى هذا الصراع فيما بعد ما بين المرابطين بزعامة يوسف بن تاشفين من جهة وبين الاندلسيين الممثلين في ملوك الطوائف من جهة اخرى ، عندما قام الامير يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠م بعبوره الاخير الى الاندلس بهدف توحيد البلاد المغربية والاندلسية لمواجهة خطر النصرانية ، واستطاع الامير يوسف القضاء على ملك امراء الاندلس وان يستبدل بهم قوادا من المرابطين ، امثال محمد بن عائشة ، وابي عبدالله محمد بن الحاج ، وابراهيم المعروف بابن تعيشت وغيرهم ، ولكن حكمهم للاندلس لم يطل بسبب استنزاف قواهم العسكرية في حروبهم المستمرة مع الاسبان ، مما اضطرهم الى طلب مساعدة الاندلسيين ، لكن الاندلسيين تنكروا لهم وتحولوا عنهم ، وقاموا بالثورات ضدهم وطروا ولاتهم مستعينين بالقشتاليين(١٢) . ولما تم لهم ما ارادوا تفرغوا لتسيير شؤون بلادهم بأنفسهم ولكنهم لم يستطيعوا الصمود طويلا امام الهجمات الاسبانية المتكررة فاستصرخوا بالموحدين الذين قاموا على انقاض المرابطين فهبوا لنجدتهم ، ثم استصرخوا من بعدهم بالحفصيين

خاصة اهل بلنسية عندما سقطت مدينتهم في يد الاسبان في ١٧ صفر ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨م ، بارسال وفد عنهم برئاسة ابي عبدالله بن الآبار القضاعي ، الذي نظم قصيدة يستصرخ بها الامير ابا زكريا الحفصي عرفت بالسنية مطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا
ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا(١٣)

وفيها يستعرض ما اصاب اهل الاندلس عامة واهل مرسية خاصة من نكبات وكوارث على ايدي القشتاليين والارغونيين فيقول :

ياللجزيرة اضحى اهلها جزرا
للحادثات وامسى جدها تعسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
الا عقائلها المحجوبة الانسا
مدائن حلها الاشراك مبتسما
جذلان ، وارتحل الايمان مبتئسا(١٤)

وبحكم المجاورة كان الارتباط قويا بين البلدين ، وكان للاحداث السياسية والعسكرية اثر كبير في تقوية هذا الارتباط ، يضاف لذلك ما بذله رجال الفكر والادب من جهود في تقوية العلاقات الثقافية بين ابناء القطرين ، فكان حقا علينا تسجيل اعلامهم ممن وفدوا الى ديار البلدين واستقروا فيها الى ان توفاهم الله . بغية مساعدة الباحثين والدارسين ممن يقومون بالبحث والدراسة في تراثهم الحضاري .

من هؤلاء العلماء :

* احمد بن عمر بن محمد بن عاشر الاندلسي(١٥)، اتخذ من الزهد منهجا اثناء وجوده في الجزيرة الخضراء حيث سكن في بيت باحدى صوامعها (المآذن)، وفتح كتابا لتعليم القرآن الكريم ، ثم انتقل الى فاس فمكناس ، عاش بمنزل اخته بفاس مدة ثم غادرها متجها الى مكناس وهو شاب ليستقر نهاية بسلا ويتعيش بما ينسخه من الكتب ، وكان يلقب بالشاب الصالح .

مكث زمنا في زاوية ابي زكريا قرب الجامع الاعظم بسلا وهو يزاول مهنة النسخ ويدخر منها ما وسعه ادخاره من المال ، الى ان تمكن من شراء منزل بسلا ، وبعد استقراره توافد عليه الزوار ، واثنى عليه عدد من الصلحاء امثال ابن عرفة بقوله : (ما ادركت مبرزا في زماننا هذا الا الشيخ...) وقال عنه ابو عبدالله ابن صعد التلمساني في كتابه (النجم الثاقب فيما لاولياء الله تعالى من المناقب) . كان احد الاولياء الابدال ، معدودا في كبار العلماء منقطعا عن الدنيا واهلها ..) .

اعتمد في تدريسه على كتاب احياء علوم الدين للغزالي ، والنصائح للمحاسبي ، وكان يوصي بقراءتها كل من يزوره ، كما اهتم بالفقه والزم تلاميذه قراءته واستنساخه واقتناءه وراجت هذه الكتب واصبحت مصدر عيش لنساخها لاقبال القراء على قراءتها . صفاته ، كان يلبس الخشن من الثياب ويقتصد في الطعام ويحسن التواضع مع طلابه فكان يقول لهم دائما ، انا واحد منكم ، ولست لكم بشيخ ولا استاذ ، فاقرأوا كتب الفقهاء ، ولا تقتدوا بآرائي التي لا تصل بقيمتها العلمية الى قيمة كتبهم ، ولست قدوة ولا اماما يتبع . ظل ابن عاشر حريصا على الاخذ بنظريات وتعاليم الغزالي دون ان يعمل على تكوين مذهب خاص به ، فكان يرى ان تأثير السلوك اقوى من القول ، ولذا تراه صامتا يميل الى العزلة يلبس الملابس البالية احيانا يرضى بالقليل من الطعام ، وكان يقلقه تكالب الناس على مفاتن الدنيا وشهواتها وذاع صيته بين الناس وعرفوه بالولي الصالح صاحب المناقب ، ووصل خبره الى السلطان ابي عنان بن السلطان أبي الحسن المريني فأراد مقابلته لكنه امتنع عن اللقاء به ودارت بينهما رسائل تضمنت نصح وارشاد الولي للسلطان ومما جاء فيها : (... وليعلم امير المؤمنين انه لا يخلصه احد من خدامه ولا من حشمه ، بل يفرون منه يوم القيامة ويفر منهم ،

ولا عليك في هذا الامر الا ان تراقب الله تعالى وانت مقبل على الله عز وجل) فرد عليه الامير ابوعنان بخطاب جاء فيه : « وصلني كتابكم الذي ذكرتني بموعظتـه ، وعرفتني مصـالح نفسي بنصيحته . اعرب بلسان الصـدق ، ودعاء الى سبيـل الحق وايقظ من النومة ، ونبه من الغفلة، فجـزاك الله خيرا يا أيها القاصد وجه الله تعالى العظيم في سره وجهره ، الواقف عند حدود الله عز وجل في نهيه وامـره ، لقد نصحتني ومـا غششتني ونـدبتني لسعادتي ومـا كـذبتني فـالله اسـأل ان ينـور بصيرتي ويأخذ للخير بناصيتي ، ويسلك بي فيما قلدني سبيل اوليائه المتقين ، ويعينني على القيام بأمور عباده المسلمين .. الخ[١٧] .

نستدل من هاتين الرسالتين مدى حرص ابن عاشر في تطبيق الشريعة ، ومدى احساس الامير بصـدق قوله والثقـة به ممـا ورد في عباراتـه . والمـلاحـظ ان ابـن عـاشر تـوفي سـنـة ٧٦٥ هـ / ١٤٦٩م ودفن بـالقـرب من سـاحـل المحيط الاطلسي حيث جرت على مقربة من ضريحه احداث مهمة بين المغاربة والاسبان ايام المنصور السعدي الملقب بالذهبي .

* اسماعيل بن يوسف بن محمد، ولد سنـة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م بغرناطة وغـادرها مـع ابيه ـ علـى الاكثر ـ الى بجـاية ، ثم استقـر بفاس . وكانت مغادرته للاندلس في عهـد الامير يـوسف الاول (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ) . ١٣٣٢ ـ ١٣٥٤م .

ويروى لنا انه غادرها مرغمـا ، ويظهـر هذا واضحـا من قوله : « فلولا ان هـلاك الملوك بني عمي .. لسرت اليه على رأسي لا على قدمي[١٨] » ويوافق الرحيل عهد الامير أبي الحسن المـريني وقـد نبغ صـاحب الترجمـة في عهد الامـير أبي عنان[١٩] الذي قربـه في جملة العلماء والادبـاء والشعـراء ، وكان مشهـورا بحب العلم واهله ، جماعة للكتب ، مثيبا للشعراء ، استمرت صلته بالدولة المرينية طول حياته ، سواء كانت علاقته بـالسـلاطين انـفسـهـم او الكـتـاب والوزراء والحجاب . تلقى علومه الاولى في غرناطة ، ولكن شيـوخه الذين ذكـرهم في فهرستـه كـانـوا من المغـرب ، او من الانـدلسـيـين المقيمـين فيـه او الاندلسيين اثناء ترددهم عليه او اثناء رحلاتهم الى الشرق وعودتهم منه ، فمن شيوخه محمد بن محمد بن داود الصنهاجي « ابن أجروم[٢٠]» ، والقـاضي الفـقيـه الحسن بـن عـثـمـان[٢١] الونشـريسي ، والقـاضي محمـد بن احمـد[٢٢] الفشتالي والفقيه سعيد بن أبي العافية المكناسي ، وممن اجازه من الاندلسيـين ابوسعيد فرج بن التغلبي الغـرناطي ، وابـوالقـاسـم عبـدالرحمن الاموي ، وغيرهم كثير .

زيادة على ذلك كان يتصل بالوفود الغرناطيـة الاندلسية ، ويلتقي بالعلماء والادباء يستجيزهم علومهم ويستنشـدهم اشعـارهم ، ويستكتبهم رسـائلهم ويدون ذلك ويجمعـه ويحرص عليـه . وممن تتلمذ على يديه واخذ الاجازة عنه ، سعيد بن ابـراهيم السـدراتي الشهـير بشهبـون ، وعبدالرحمن الجادري . وله عدد من المؤلفات ، بعضهـا مفقود والذي نعـرفـه منهـا ، « شـرح البردة »، « وعرائس الامراء ونفائس الوزراء »، « وتأنيس النفوس في تكميـل نقط العـروس » ، « وبرنامج او مشيخة ابن الاحمر »، « والمنتخب من درر السلوك في شعـراء الخلفـاء الاربعـة والملوك » نظم وشرح على غرار كتاب لسان الدين « رقم الحلل » . ذكـر في « سـلوة الانفـاس »، و« نيل الابتهاج ». و« فريد العصر في شعـر بني نصر » ، و« مشاهير بيوتات فاس » ، و« حديقـة النسـرين في اخبـار بني مـرين » و« روضـة النسـرين في اخـبـار بنـي عبـدالوادي وبـنـي مـرين[٢٣] » ، و« مستودع العـلامة ومستبـدع العلامة[٢٤] » و « نثير فوائد الجمان في نظم فحول الزمان[٢٥] .» .

* احمـد بن محمـد بن حسن ابن الغمـاز الخزرجي البلنسي ، من اهل بلنسية ، هاجر الى تونس ايام استيلاء العدو الاسبـاني على بلده ، وكان يحسن الكتابـة فعين كـاتبا للعـلامة عند السلطان ابراهيم ابن السلطان يحيى عبدالواحد بن ابي حفص، وكانت نهايته الموت لوشي الوشاة بـه عنـد السلطان فهلك تحت العـذاب سنـة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م ودفن بتونس[٢٦] .

* احـمـد بن طاهـر بـن عـلي بن يـحيـى الانصـاري ، تلقى علومه الاولى في تـونس ، ثم انتقل الى بر العـدوة فلقي بقلعة بني حمـاد ابا مروان الحمداني ، وببجـاية ابـا احمد المقـري وغيرهما . روي عن ابن عبدالله المازري الذي اجازه كتابة ، وتعلم وعلم في قلعة بني حماد من اعمال سطيف بالمغرب الاوسط ، واستفاد منـه خلق كثير[٢٧] .

* احمد بن عبدالله بن خميس بن معاوية بن نصرون الازدي ، من مواليد مدينة بلنسية تلقى علومـه الاولى في الدين والادب في بـلده وبـرع فيهمـا ، ثم رحل عن بلده متـوجهـا الى المغـرب الاوسط ونزل في جزائر بني مزغنة ، فنشر العلم فيها الى ان وافته المنية وهو فيها سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م او سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م[٢٨] .

* احمد بن خالد ابوالعباس من اهل مالقه ، اخذ علومه الاولى في الاندلس ، ثم انتقل الى مراكش كان اصوليا مشاركا على طريقة المتقدمين ، له المام في الطب والطبيعيات والالهيات ، اخذ عنه ابوالعباس الغبريني شيئا من علم المنطق ، وقرأ زملاؤه من الطلبة على يديه كتاب (الارشادات والتنبيهات) لابن سينا من بدايته الى نهايته ، كان على جانب كبير من الخلق والعفاف رغم ضعف حاله وتوفي في بجاية سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م ودفن بحومة أسيون بالمقبرة المسمية (بزاد رخص) نسبة للشجرة الكبيرة الموجودة فيها ، والتي لا يوجد في الناحية من الشجر في كبرها[٢٩] .

* ابراهيم بن يوسف الوهراني ، يرجع بأصله الى قبيلة بني حمزة التي سكنت مدينة سيلة الواقعة في المغرب الاوسط ، ولد في الاندلس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م ونشأ بها واخذ عن شيوخها منهم الاديب ابواسحاق بن خفاجة[٣٠]، ثم غادرها ملتحقا بتلمسان فأخذ عن ابن غزلون صاحب ابي الوليد بن خفاجة ، ثم عاد الى الاندلس ومكث مدة بمدينة مالقه ثم عاد الى فاس بالمغرب الاقصى وبقي بها الى ان توفاه الله سنة ٥٦٤ هـ /١١٦٨ م[٣١] .

* احمد بن محمد بن حسن ابن الغماز الانصاري ابوالعباس ، ولد في عاشوراء يوم العقاب[٣٢] الاثنين ١٤ صفر سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م في ناحية جبان من اعمال مدينة بلنسية تلقى علومه الاولى فيها ورحل الى بر العدوة فنزل بمدينة بجاية من المغرب الاوسط ولقي فيها عددا من المشايخ منهم : ابوبكر ابن محرز ، وابوالمطرف بن عميرة المخزومي ، وابوالحسن بن ابي النصر وغيرهم ، وعين على خطة العدالة والعمل بعلم العقود ، وخطة القضاء وخطة الامامة في جامع المدينة الاعظم ، عرف بضبط احكامه وصرامته في قول الحق ومناصرته وضربه على ايدي الظلمة من عمال المدينة ، وكان السلطان ينفذ له احكامه ويعينه على تطبيق سياسته الهادفة الى تحقيق العدالة . وحدث وهو في خطته ان انضم جيش بجاية الى جيش افريقية (تونس) في حملة حربية لحصار مدينة مليانة الواقعة في الاقليم الغربي للمغرب الاوسط عندها اصبحت البلاد شبه شاغرة من الجند مما هيأ الفرصة للعابثين المفسدين فقاموا بعمليات سلب ونهب في المدينة وانتشرت الفوضى فيها ، فقام الفقيه ابوالعباس يأمر الناس بمقاومة الاشرار ، والوقوف بجانبه فأمرهم بحفر الخنادق وتشييد الاسوار المتداعية وظهر من عقله وفضله ونبله وجده واجتهاده مادل على حنكته وحزمه وقدرته في التغلب على الصعاب ، وبعد رجوع الجيش من مهمته ، استدعي للحاضرة واوكل له السلطان خطة القضاء فيها فقام بواجبه خير قيام وانجز الكثير من القضايا خاصة ما كان منها مؤجلا ، واحبه الناس لنزاهته وصرامته ، وسمت منزلته عند الخليفة المستنصر بالله ، ومكث فيها مدة قام بواجبه خير قيام ثم عزل نفسه عنها بسبب كبر سنه .

وجلس للرواية والتصحيح الى ان مات يوم عاشوراء سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م في تونس ودفن فيها[٣٣] . ومن نظمه بالزهد :

هو الموت فاحذر ان يجيئك بغتة
وانت على سوء من الفعل عاكف
واياك ان تمضي من الدهر ساعة
ولا لحظة الا وقلبك واجف
وبادر بأعمال تسرك ان ترى
اذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وله :

اما آن للنفس ان تخشعا
اما آن للقلب ان يقلعا
أليس الثمانون قد اقبلت
فلم تبق في لذة مطمعا
تقضي الزمان ولا مطمع
لما قد مضى منه ان يرجعا
يا ويلتاه لذي شيبة
يطيع هوى النفس مهما دعا
بعدا وسحقا له اذا غدا
يسمع وعظا ولن يسمعا[٣٤]

وله ايضا قوله :

يا صاحب الهم ان الهم منفرج
كم من امور شداد فرج الله
اليأس يقطع احيانا بصاحبه
لا تيأس فان الفاتح الله[٣٥]

* احمد بن ابي طالب اللخمي ابن الريس ابي العباس من بيت العزفي المشهورين بسبته ، كان شاعرا رقيقا نال مكانة زمن الموحدين فكان مسؤولا عن المدينة ، اشاد به اخوه ابوالقاسم في كتابه المسمى بـ (الاشادة في المشتهرين من المتأخرين بالاجادة) قال : هو اخي الذي باخائه ازهى وانتخي ، وكبيري المقهر باجلالي وتوفيري ، ولولا خوفي من ان يلزمني ما لزم مادح نفسه ،

لاطنبت في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها ابناء جنسه .. دخل غرناطة سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م وبقي فيها الى ان توفاه الله في شهر ذي الحجة سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧م.[٣٦]

احمد بن يوسف الفهري اللبلي[٣٧] المكنى بأبي جعفر وابي العباس[٣٨] . قرأ بالاندلس على مشايخ من افضلهم الاستاذ ابوعلي عمر الشلوبين[٣٩]، ثم ارتحل الى العدوة فنزل بجاية واستقر بها يقرىء الطلبة القرآن وعلوم اللغة ، ثم ارتحل الى المشرق للحج ، وعند اداء الفريضة قفل راجعا الى تونس التي اتخذها دار قرار بقي فيها الى ان توفاه الله دون ان تذكر مصادرنا تاريخ وفاته .

من مؤلفاته : شرح (الفصيح) لثعلب ، قال الغبريني : رأيت له تأليفا في الاذكار وله عقيدة في علم الكلام ، وتأليفا سماه (الاعلام بحدود الكلام[٤١]) .

* احمد بن الحسن بن احمد بن الحسن القضاعي ابوجعفر ، اصله من انده[٤٢] من مدينة بلنسية رافق ابن جبير[٤٣] في تأدية فريضة الحج ، وسمعا بدمشق من ابي الطاهر الخشوعي واجاز لهما ابومحمد ابن ابي عصرون وابومحمد القاسم بن عساكر وغيرهما ، ودخلا بغداد وتجولا مدة ، ثم قفل الاثنان الى المغرب ، فسمع منهما عدد من طلاب العلم المغاربة ، وكان القضاعي له معرفة بالطب وله تقييد مفيد فيه ، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم وخاصة الفقه الذي اخذه عن جده لامه القاضي عبدالحق بن عطية المكنى بأبي محمد ، توفي ابوجعفر القضاعي بمراكش سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢م او سنة ١١٧٣م ولم يبلغ الخمسين من عمره[٤٤] .

* احمد بن محمد القرشي الغرناطي ابوالعباس ، تميز بحفظه فكان يعد من كبار الحفاظ وكان يحفظ تفسير الثعالبي في شرح القرآن[٤٦]، له اعتناء بالرواية والبحث عن الاخبار ومعرفة الرجال من اهل عصره ومن الذين سبقوه ، وكان اعلم الناس بالكتب المصنفة واحفظهم لاسمائهم وكانت له فصاحة لسان وعذوبة بيان ، جال في مختلف بقاع المغرب ثم رجع الى الحاضرة افريقية ولم يزل عاكفا على التدريس والتذكير مشتغلا بعلم الرواية والتفسير الى ان مات بتونس سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م اما عن مولده فلم تسعفنا المصادر التي بين ايدينا بمعرفته[٤٧] .

* احمد بن علي المليانى المراكشي المكنى بأبي العباس اتخذه السلطان[٤٨] ابويعقوب يوسف المريني كاتب علامته لكنه كان يطالب جملة من اشياخ مراكش بثأر عمه الذين كانوا سببا في قتله ، فترصد لهم حتى كتب كتابا الى نجل السلطان مزورا على لسان ابيه يأمره بقتل المشايخ المحتجزين عنده ، وكان المليانى يطالب بثأره منهم ، وتم له ما اراد وهرب الى تلمسان واستجار بملوك بني زيان ثم فر من تلمسان الى الاندلس ونزل غرناطة وبقي فيها الى ان توفي سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ودفن بمقبرة البيرة[٥٠]. من صفاته النباهة ، وقرض الشعر ، وحسن الخط ، ولكن فعلته نزعت الثقة من صدور السلاطين بكتابهم من شعره قوله :

العز ما ضربت عليه قبابي
والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما اهداه غصن براعتي
والمسك ما ابداه نقش كتابي
فالمجد يمنع ان يزاحم موردي
والعزم يأبى ان يضام جنابي[٥١]

* احمد بن عبدالله بن محمد بن الحسين بن عميره[٥٢] المخزومي المكني بابي مطرف من اهل جزيرة (شقر[٥٣]) سكن بلنسية مدة وكتب عن ولاتها ، وبذا قرانه وتفوق على من سلفه في علم البلاغة ، ورحبت به العديد من الدويلات الاسلامية أنذاك ، فقد ولي خطة القضاء في مدينتي اريوله وشاطبه في الاندلس ، كما وليها في المدن التالية : سلا ، مكناس من بر العدوه ، وقسنطينه وقابس من بلاد افريقية . سكن بجاية مدة طويلة من الزمن واقرأ بها ودرس ، له معرفة واسعة في الفقه واصوله ، وبالحديث معقولة ومنقولة ، وله ادب جيد ومؤلفات حسنة دلت على حسن منهجه . يقول الغبريني بشأن مؤلفاته : (ما رأيت من الكتاب ما اعجبني مثل كتب الفقيه ابي المطرف الا كتب ابي جعفر بن عطية[٥٤]، والكتاب كثر وكتب هذين الرجلين عندي مقدمة على غيرهما »[٥٥]. والذي اشهر ابي المطرف جمعه بين الناحية العلمية والادبية فكتابته جامعة بين كتابة العلماء والادباء وبهذا المسلك تميز عمن[٥٦] سواه من الكتاب والادباء ، كما اجاد في العلوم الفقهية ، ويظهر ذلك واضحا في اجابته على اسئلة الطلبة الذين كانوا يقرأون عليه تلحيقات السهروردي وهي من مغلقات اصول الفقه عند الذين لم يمارسوا علم الاصول ولم يتعرضوا لاقرائها الا من اتصف بالذكاء المتوقد . عين زمن

الامير المنتصر الحفصي قاضيا على مدينة قابس ، ثم استدعاه الامير حتى أصبح من خواص حضرته ومن فقهاء دولته . توفي بتونس ليلة الجمعة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م ومولده في جزيرة شقر بالاندلس في شهر رمضان سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م[٥٧].

* ابراهيم بن زرعة ، اندلسي ، مولى قريش يكنى ابا زياد ، روى عنه سحنون ، توفي بافريقية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م[٥٩] واستوطن قرطبة الى ان توفي فيها . حدث عن ابيه ، وعن عبدالله بن محمد الرعيني ، وابي الغصن السوسي ، وجماعة من مثلهم ، عرف بالمبالغة في القول ، قال عنه اخوه تمام بن محمد التميمي : كل شيء رواه اخي ابوسعيد عندكم بقرطبة عن ابيه فهو كاذب لم يسمع من ابيه حرفا[٦٠] .

* جعفر بن محمد بن شرف الشاعر الشهير المتقدم تربى بالقيروان ثم سافر مع ابيه بعد هجرة بني هلال للمغرب ، ودخل الاندلس ونزل في مدينة المرية ، واتصل بملوك الطوائف وانخرط في دواوينهم فعلا قدره وذاع ذكره ، ونال خطة الوزارة ، له تآليف جيدة في التاريخ والاخبار والامثال والاشعار من شعره في وصف الحرب قوله :

انا زكبنا من الظلماء جانحة
كأننا من دجاه تمتطي نوبا
سل النجوم هل ارتابت بصحبتنا
لما اثرن اليهن القنا السلبا

ومن منشور حكمه : (العالم مع العلم كالناظر يستعظم منه ما يرى وما غاب عنه اكثر .. الفاضل في الزمن السوء كالمصباح في البراح ، قد كان يضيء لو تركته الرياح[٦١]).

* جابر بن محمد قاسم بن حسان الام ابومحمد الاندلسي الوادي آشي ، نزيل تونس . ولد بالاندلس سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م حج ودخل الشام والعراق قرأ لأبي عمرو واخذ علم السماع من ابن القبيطي وعزالدين عبدالرزاق ورجع الى المغرب واستوطن تونس سمع منه ابنه وتوفي سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤م[٦٢] .

* الحسيني الشريف ابوالقاسم السبتي ، ولد بسبته سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م وتوفي بغرناطة سنة ٧٦٠هـ ١٣٥٨ م وهو يزاول منصب القضاء ، يعد من اعلام العلم والادب في سبته ايام العزقيين ، فقد ولع بالدراسات اللغوية والادبية والفقهية فكانت كتبه رائدة للادباء والفقهاء ، وانتقل من سبته الى غرناطة فاتصل بملوكها النصريين فقربوه اليهم وولوه القضاء واشتغل بتلقين العلم والادب ولمع اسمه في غرناطة حتى صار يطلق عليه الشريف الغرناطي . كان مهتما بدراسة الشعر ميالا الى النقد مندفعا الى شرح الغامض وتأويل المبهم مطبوعا على حسن العبارة وبلاغتها ، شرح كثيرا من القصائد والمتون فهو شارح الخزرجية في العروض ، وشارح تسهيل مالك، وشارح مقصورة حازم التي جعلها سبيلا للانطلاق الى دراسة بلاغية قيمة امتاز بوضع بصماته في التحليل والتعليل فهو يؤيد ويعارض معتمدا على القواعد حينا وعلى الذوق احيانا يربط بين النصوص الادبية من الجانب الفني ومن الجانب المعنوي . يشعر القارىء بمتعة عقلية في شعره ناتجة عن مقدرته في النقد وكفاءته العلمية ودقته في الملاحظة، ويظهر ذلك في شرحه لمقصورة حازم المعروفة بكشف الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، والمقصورة هذه من نظم ابي الحسن حازم بن محمد القرطاجني نسبة الى قرطاجة الاندلس رحل الى تونس واتصل باميرها ابي زكريا ثم بولده المستنصر ، فمدحه وتقرب اليه فاستخدمه في بلاطه[٦٣] .

* سعيد بن شعيب يكنى ابا عثمان من اهل القيروان ، كان رجلا صالحا كثير التلاوة متفرغا للعبادة ، يقوم بالوعظ والارشاد للناس ، توفي في ٢٨ ذي الحجة سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨م ودفن يوم الاثنين بعد صلاة العصر في مقبرة الربض في مدينة قرطبة وصلى عليه ابنه، وفي اليوم نفسه توفيت ام المؤمنين المؤيد بالله ودفنت يوم الثلاثاء في القصر بمدينة قرطبة[٦٤] .

* سعيد بن علي بن محمد بن عبدالرحمن بن زاهر الانصاري البلنسي[٦٥] يكنى بأبي عثمان ، ولد ببلنسيه سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١م أخذ علومه الاولى في الاندلس على الفقيه ابي عبدالله محمد بن نوح الغافقي وابي جعفر احمد الانصاري المعروف بالحصار[٦٦] ، وابي علي حسن المعروف بابن الزلال[٦٧]، ثم رحل الى المغرب واستوطن بجاية واقرأ فيها وروى واسمع واخذ عنه ، واستفيد منه ، له علم بالقراءات وحظ من اللغة العربية ، محكم الرواية ، متقن الدراية ، كان يميل للزهد والنسك قليل الاختلاط بالناس عمل باقراء القرآن رواية وتفهيما وتعليما . توفي في الثلث الاخير من ليلة الاثنين لجمادي الاولى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م وهو يمارس خطة العدالة ،

ودفن بخارج باب امسيون بمقبرة الفقيه القاضي ابي محمد عبدالله بن حجاج .

* سيدة بنت عبدالغني بن علي العبدرية، ام العلاء ، معلمة فاضلة من اهل غرناطة نشأت بمدينة المرسية ، لم تذكر مصادرنا تاريخ ولادتها ، توفيت بتونس سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م قال عنها ابن الآبار : علمت في بيوت الملوك ونسخت كتاب الاحياء للغزالي بخطها الجميل ، وكانت تبذل جهدا كبيرا في فك الاسرى(٦٨) .

* سعيد بن محمد العقباني التلمساني، ولد سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م بعقبان احدى قرى الاندلس المسمى نسبة اليها ، وقد هاجر مع اسرته الى تلمسان التي استقر فيها الى ان توفاه الله سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨م، عرف بالنباهة والنبل والمهارة في العلوم التطبيقية ، الى جانب تطلعه في الفقه المالكي .

اما شيوخه ، فقد اخذ عن ابني الامام ابي زيد وابي موسى وتفقه عليهما واخذ الاصول عن الامام الابلي ويذكر انه ولي القضاء بمدينتي بجاية وتلمسان مدة لا تقل عن اربعين عاما . ويذكر صاحب نيل الابتهاج بأنه اندلسي هاجر الى تلمسان وابرز شيخوه الحافظ السطي الذي اخذ عنه علم الفرائض، وكان يسمى برئيس العقلاء . من ابرز تآليفه في الفقه ، شرح على ابن الحاجب الاصل ، وشرح على الحوفي ، وفي التفسير له تفسير سورة الفتح او الفاتحة ، وتفسير سورة الانعام . وفي علم الكلام له العقيدة البرهانية في اصول الدين ، وفي اللغة له شرح بردة البوصيري في مدح الرسول . وفي الرياضيات له شرح التلخيص في الجبر والمقابلة لابن البناء ، وشرح قصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة ، وفي المنطق له شرح جمل الخونجي .

اما تلاميذه ، ابنه قاسم ، وابن مرزوق الحفيد ، وابراهيم المصمودي ، وابويحيى الشريف ، وابوالعباس بن زاغو ، ومحمد بن عقاب الجذامي . عرف الامام سعيد العقباني باتقانه لمهنة القضاء وتفوقه في المباحث القضائية ، وكان قد تولى قضاء بجاية ومراكش وسلا ووهران وتلمسان ، وقد اكسبه القضاء ومهارته في الرياضيات قوة على الجدل والمناظرات وصل فيها الى درجة الشريف التلمساني وكان كلاهما من المجتهدين بالمذهب(٦٩) .

* شعيب بن الحسين الاندلسي المعروف بأبي مدين ، ولد باحدى القرى من ضواحي اشبيلية سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٥م . توفي والده وهو حدث السن فكفله اخوته ، وعمل نساجا بينما كان يرغب في تلقي دراسته . فحفظ القرآن، ثم تابع دراسته بالمغرب متنقلا ما بين طنجه وسبته ومراكش . ثم استقر بفاس . فتتلمذ على ابن حرزهم الذي لقنه تعاليم الغزالي .

ولكي يضمن موردا للعيش عمل بالنساجة من وقت لآخر ، ساعده هذا العمل في بناء منزل في سفح جبل زلاغ بالمغرب الاقصى ، ثم اتصل بأساتذة آخرين كأبي يعزى وابي عبدالله الدقاق وابي الحسن الشاري ، وكان لهؤلاء وغيرهم من الشيوخ البارزين اثر كبير في توجيهه . قام بزيارة للبقاع المقدسة ، ورحل الى بغداد واخذ الحديث عن عبدالقادر الجيلاني الذي البسه الخرقه . وعندما عاد الى المغرب استقر ببجايه فزاول التدريس واخذ يبث تعاليمه التي سرعان ما اكسبته شهرة في مراكز اخرى من المغرب العربي ، مما اثار حقد بعض الفقهاء فأوغروا صدر الخليفة المنصور الموحدي واتهموه بالتشيع فاستدعاه الخليفة للمثول بين يديه ولبى الدعوة وبالقرب من تلمسان فارق الحياة ودفن باحد مساجدها المسمى بمسجد العباد سنة ٥٩٤هـ /١١٩٧م ، ومازال ضريحه مزارا لسكان المنطقة هناك .

تأثر في تصوفه بعبد السلام بن مشيش الذي كان تلميذا للشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية التي تفرعت الى عدة فروع منها ، الكتانيون ، والكزازيون ، والعيساويون والناصريون وغيرها من الطرق . من تعاليمه ، الانعزال الكلي عن مخالطة الناس وتعظيم الاولياء ، احتقار الناس . اما المبدأ الاول فلم يحترم قط بصفة شاملة من ارباب الزوايا والطرق « ابتداء من الشاذلي ومن اتى بعده من الاولياء(٧١) اما الثاني ، فجمع عليه ، بينما الثالث تختلف صورة مغالاته واعتداله .

من اقواله : اياك ان تميل الى غير الله فيسلبك لذة مناجاته ، من رأيته يدعي مع الله حالا لا يكون على ظاهرة منه شاهد فاحذره ، لا يصلح سماع هذا العلم الا لمن جمعت له اربعة ، الزهد ، والعلم والتوكل واليقين ، اجعل الصبر زادك والرضى مطيتك والحق قصدك ووجهتك ، من اشتغل بطلب الدنيا ، ابتلى فيها بالذل ، قلوب اهل الدنيا محل للغفلة والوسواس وقلوب العارفين محل للذكر والاستيناس ، بالمحاسبة يصل العبد الى درجة المراقبة ، من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس

عليه ، ما عرف الحق من لم يؤثره وما اطاعه من لم يشكره ، من استكان الى غير الله بسره نزع الله الرحمة من قلوبهم عليه وألبسه لباس الطمع فيهم ، احذر محبة المبتدعين فهو ابقى على دينك واحذر محبة النساء فهو ابقى على قلبك(٧٢) . هذه الكلمات هي نبذة مختارة من اقواله تضمنت جوا من المعاني لو تعرضنا لشرحها لطال بنا الشرح وخرجنا عن المقصود .

اثنى عليه ابو عبدالله محمد بن التلمساني في كتابه (النجم الثاقب فيما لاولياء الله تعالى من المناقب) بقوله : كان الشيخ سيدي ابومدين فردا من افراد الرجال وصدرا من صدور الاولياء الابدال ، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة . واثنى عليه محيي الدين ابوبكر بن العربي الحاتمي الطائي المعروف بابن سراقة قال : ان الشيخ ابامدين لم يمت حتى تقطب قبل ان تغرغر بثلاث ساعات .

* عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد بن اصبغ بن حسين بن سعدون السهيلي المكنى بأبي الحسن وابي زيد ولد بأشبيليه ، فقد بصره وهو في السابعة عشرة من عمره ، من اهم تصانيفه كتاب (الروض الانف) وقد اصاب واجاد فيه ، وكتاب (الاعلام بما أبهم في القرآن من الاسماء والاعلام) وكتاب (الفرائض) وغيرها من المؤلفات الاخرى . استدعاه صاحب مراكش الموحدية فمكث عنده ثلاث سنين ، اقبل عليه الطلبة خلالها اقبالا حسنا ، بقي فيها الى ان توفي سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤ م أو سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥م(٧٥) وله بضع وسبعون سنة ودفن فيها . اما عن سبب تسميته بالسهيلي فترجع الى نسبته لقرية قريبة من بلدة مالقة سميت بسهيل الكوكب ، لأنه لا يرى في جميع بلاد الاندلس الا من الجبل المطل على هذه القرية . تولى قضاء الجماعة بالاندلس فحمدت سيرته .

قال ابوجعفر بن الزبير عنه : كان السهيلي واسع المعرفة غزير العلم نحويا متقدما لغويا عالما بالتفسير وصناعة الحديث ، عارفا بالرجال والانساب وبعلم الكلام واصول الفقة حافظا للتاريخ القديم والحديث صاحب اختراعات واستنباطات مستغربة . روى عنه الحديث كل من ابوالحجاج ابن الشيخ ، والحافظ ابومحمد القرطبي ، وابنا حوط الله ، وابومحمد (بن) غلبون وأبوعمرو (بن) عيشون وابوالحسين ابن السراج ، وابومحمد (بن) عطيه وابوالحسن الشاري ، وابوالخطاب بن خليل وهو آخر من حدث وله شعر كثير(٧٦) .

* عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عامر بن ابي عامر المعافري ، من اهل قرطبة ، اصله من الجزيرة الخضراء ، وهو والد المنصور بن أبي عامر ويكنى ابا حفص، سمع الحديث وكتبه عن محمد بن عمر بن لبانه(٧٧) واحمد بن خالد ، ومحمد بن فطيس وغيرهم ، رحل الى المشرق فأدى الفريضة وكان من اهل الخير والدين والصلاح ، اثنى عليه الراوية محمد الباجي(٧٨) قال : كان خير صديق انتفع به وينتفع بي ، مات بعد اداء فريضة الحج ، ودفن بمدينة طرابلس المغرب بموضع يقال له رقاد بالمغرب الادنى - تونس الآن(٧٩) .

* عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عبدالله الحجري نسبة حجر ذي رعين الحميري الاندلسي المري ، يكنى بأبي محمد ولد في فنشاير من عمالة المرية بالاندلس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م، جال في مختلف المدن الاندلسية مثل : اشبيلية وقرطبة ، فلقي فيها ابا القاسم بن بقي ، وابا الحسين بن مغيث وابن مكي ، وباشبيلية ابا الحسن شريح واحمد بن عبدالله بن صالح المقرىء . كان غاية في الورع والصلاح والعدالة ، تولى امامة الصلاة والخطبة بجامع المرسية ، وكان من المشهورين في علم القراءات ، عرضت عليه خطة القضاء فأبى، وعندما سقطت مدينة مرسية رحل الى مدينة فاس ومنها الى مدينة سبته سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م حيث مكث بها اكثر من غيرها من المدن المغربية ، ثم غادرها متوجها الى مدينة مراكش التي اتخذها دار قرار الى ان وافته المنية فيها سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤م وبها دفن . من مؤلفاته برنامج شيوخه الذي اطلع عليه ابن رشيد السبتي وسماه بـ (الجامع) من تلامذته ، ابوعمر ومحمد بن عيشون ، ومحمد بن احمد الاندرشي ابن اليتيم ، ومحمد بن محمد اليحصبي ، ومحمد بن عبدالله بن الصغار القرطبي ، والشرف محمد بن عبدالله المرسي ، ومحمد بن احمد بن مجزر ، وعبدالرحمن بن القاسم السراج، وابو الخطاب بن رحية واخوه عثمان(٨٢) ، وعلي بن الفخار الشريشي وغيرهم .

* عبدالله بن محمد بن عبدالبر الكلشيتاني من اهل قرطبة . كان رجلا صالحا غني بالعلم . سمع : من ابن القزاز وابراهيم بن قاسم بن

هلال، وبقي بن مخلد ومطرف بن قيس ، ومحمد بن وضاح ، وابراهيم بن لبيب ، وكان من الملازمين لمسجد القيروان توفي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢م(٨٣) .

* عبدالرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي الشاعر ، من اهل القيروان يكنى أبازيد قدم الاندلس ، حدث عن ابيه ، ونقل عنه غير واحد من شعر ابيه وحديثه . نسب اليه شرب الخمر توفي بمدينة قرطبه(٨٤) .

* عمر بن يوسف بن عمروس بن عيسى : من اهل اشبيلية ، يكنى أبا حفص، كان رجلا صالحا ، ثقة ضابطا لكتاباته ، سمع من يحيى بن عمرو وغيره ، وسمع بمصر من محمد بن عبدالله بن الحكم واخيه سعد ، وابراهيم بن مرزوق ، ومحمد بن عزيز الابلي ، وخرج من القيروان فسكن سوسة بتونس وتوفي ودفن فيها سنة ٢٩٠هـ ٩٠٢م(٨٥) .

* عبدالبر بن فرسان ، الغساني المعروف بابن فرسان والمكنى بأبي محمد من اهل وادي آش بالاندلس ، امتاز بحسن كتاباته وجودة شعره وكان من الاعلام البارزين في زمنه ، انتقل الى افريقية بالمغرب فكتب للامير يحيى بن اسحاق بن غانية اللمتوني الصنهاجي(٨٦)، وصاحبه في حروبه وفي احدى المعارك اصيب بجراح مثخنة كانت سبب موته(٨٧) .

* عبدالرحمن بن احمد بن محمد الازدي ، ابوجعفر المعروف بابن القصير ، من فقهاء وادباء غرناطة تنقل في بلاد الاندلس ، ثم غادرها متجها الى مدينة فاس وافريقية ، وعين قاضيا بمدينة توزر من بلاد الجريد بتونس ، لكنه لم يلبث طويلا فقد غادر تونس عن طريق البر متجها الى مكة قصد الحج. لكنه وقع في كمين نصبه الافرنج للمركب ، فنشب قتال عنيف بينهما ، فابلى فيه ابوجعفر بلاء حسنا واسفر عن استشهاده ومعه جماعة من المسلمين .

له تآليف وخطب ورسائل ومقامات ، وبرنامج يشتمل على رواياته، وكتاب في مناقب علماء عصره(٨٨) .

* عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن الصقر الانصاري ، ابوزيد فاضل اندلسي ، له عناية بالتاريخ ، اصله من سرقسطة الاعلى او ما يسمى بالثغر الاعلى ، ولد سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م في مدينة بلنسية ونشأ في مدينة المرية ، ومنها انتقل الى عدد من المدن الاندلسية لتلقي العلم ، فأخذ عن علماء قرطبة واشبيلية ومالقة وسبتة ، وانتقل الى مدينة فاس ثم استقر في مدينة مراكش وبقي بها الى ان توفي سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨م .

من مؤلفاته : (مختصر السير والمغازي) في جزء واحد و (منتخب سير المصطفى)(٨٩) .

* عبدالرحمن بن محمد السلمي الاندلسي المكناسي ، كنيته ابومحمد ، اصله من قبيلة مكناسة ، لذلك لقب بالمكناسي ، مهر في صناعة الكتابة وقرض الشعر ، تعلم اللغة العربية وآدابها في مدينة المرسية بالاندلس ، مات في مراكش دون سن الاكتهال سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥م له (ديوان الرسائل) تداوله القراء وتنافسوا في اقتنائه ، وله (مقامات) في اغراض شتى ، وكان يعد من نجوم البلاغة في الاندلس(٩٠) .

* عبدالرحمن بن يخلفتن بن احمد ، ابوزيد الفازازي القرطبي ، نزيل تلمسان مهر في قرض الشعر وعلم الكلام والفقه، وكان شديدا على اهل البدع ، عمل كاتبا عند سلاطين المغرب والاندلس، ولد بمدينة قرطبة ومات في مدينة مراكش سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، له عدة قصائد في مدح الرسول، وكتاب يسمى بـ (الرسائل المتقبلة)(٩١) .

* علي بن محمد بن علي القرشي البسطي ابوالحسن ، الشهير بالقلصاري ، عالم بالحساب ، فرضي فقيه من فقهاء المالكية وهو آخر من له التآليف الكثيرة من ائمة الاندلس ، ولد بمدينة بسطة Baza بالاندلس سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م(٩٢). وسمي بالبسطي نسبة اليها تعلم الفقه بها ثم انتقل الى مدينة غرناطة فاستوطنها ثم رحل الى المشرق وتجول في اقطاره ثم عاد الى تونس واستقر بمدينة باجة بتونس الى ان توفاه الله بها سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦ م(٩٣) وبها دفن . من مؤلفاته ، « النصيحة في السياسة العامة والخاصة » و «شرح الارجوزة الياسمينية » في الجبر والمقابلة و « كليات الفرائض»(٩٥) و « بغية المبتدىء وغنية المنتهي » و «قانون الحساب » و« كشف الاسرار »(٩٦) و« انكشاف الجلباب » و «رسالة في قانون الحساب » و« اشرف المسالك الى مذهب مالك » و « هدية الانام في مختصر قواعد الاسلام » و« شرح ايساغوجي » في المنطق و« الضروري في علم المواريث » وغير ذلك من المؤلفات الاخرى في النحو والعروض واللغة والادب والجبر .

* علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك بن سعيد العبسي المدلجي ابوالحسن نورالدين بن سعيد المغربي ينتمي الى اسرة من المؤرخين هي اسرة بني سعيد التي حكمت قلعة يحصب او قلعة بني سعيد من اعمال غرناطة في القرن السادس والسابع الهجري وتسمى اليوم (AL-Calalareal) وقد تضافر افراد اسرته على كتابة تاريخ شامل للاندلس في مدة استغرقت اكثر من مائة عام . وكان ابوالحسن علي بن سعيد هو أخر افراد هذه الاسرة . ولد بقلعة يحصب الواقعة قرب غرناطة بالاندلس سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م تلقى علومه الاولى في غرناطة ، ونبغ في الشعر والادب والتاريخ ، غادر بلده متجها الى تونس ثم غادرها متجها الى المشرق فزار مصر والعراق والشام . وفي مصر نزل ضيفا على سيف الدين بن سابق المملوكي الذي دعاه الى مقره بالقصبة الواقعة على نهر النيل ، وهناك شاهد الورد والنرجس فترجل وقال :

من فضل النرجس فهو الذي
يرضى بحكم الورد اذ يرأس
اما ترى الورد غدا قاعدا
وقام في خدمته النرجس !؟

وأعجب بقوله الحاضرون من المماليك فأنعموا عليه . وسنحت له الفرصة في مصر بلقائه مع كمال بن العديم رسول حلب ، الذي عمل على اقناع سيده لاستدعائه ، واستدعاه صاحب حلب ، ثم استدعاه صاحب دمشق السلطان المعظم ابن الملك الصالح ، ومكث عنده مدة ثم تحول الى بغداد ، ومنها رجع الى تونس وعمل في بلاط السلطان ابي عبدالله بن المستنصر فنال مكانة عنده ، وقد أختلف في مكان وفاته فبعضهم يرى انه توفي بدمشق وبعضهم الآخر يرى انه توفي بتونس سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٥م [٩٧]. من ابرز مؤلفاته (المغرب في حلى المغرب[٩٨])، و(المطربات[٩٩])، و(الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة[١٠٠]) ، و(الطامع السعيد في تاريخ بني السعيد[١٠١]) ، و(وصف الكون ، وبسط الارض[١٠٢]) ، و (القدح المعلى[١٠٣])، و (المرزمة[١٠٤]) .

اما مؤلفاته في اللغة العربية فمن ابرزها ، (المقرب) وهو كتاب قيم امتاز بكثرة شروحاته وكتاب (الايضاح) وهو شرح جزء من كتاب الله العزيز سلك فيه مسلكا في الايراد والاصدار والاعذار لم يسبقه احد خاصة فيما يتعلق بالالفاظ ثم المعاني ، ثم ايراد الاسئلة الادبية على انحاء مستحسنة ، وتدل تآليفه النحوية على ان له مشاركة في علم المنطق ولاجل ذلك حسن ايراده فيها تقسيما وحدودا واستعمال الادلة .

اما الشعر فقد برع فيه مثلما برع في النحو من نظمه قوله :

كما تدنست بالتخطيط في كبري
وصرت مغرى برشق الراح واللعس
رأيت ان خضاب الشيب استر لي
ان البياض قليل الحمل للدنس

* عمر بن عبدالله بن محمد السلمي ، شاعر ، من القضاة اصله من جزيرة شقور (١٠٥) بالاندلس ، مولده بأغمات بمراكش سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٦م ، سكن مدينة فاس بعد أبيه ، وولي قضاء اشبيليه وغيرها ، توفي باشبيلية سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦م، امتاز بقرض الشعر ، في غزله رقة تتمثل بقوله :

اذا اعرضت تسود الاماني
وأن اقبلت تبيض الهموم

* عمر بن خلف بن مكي الصقلي ابوحفص، قاض ومحدث ولغوي ، من كبار الاعلام بالاندلس ، هاجر الى تونس وتولى خطة القضاء والامانة فيها ، امتاز ببلاغته وفصاحة لسانه فكان خطيبا مصقعا . الف عدة مصنفات منها : (تثقيف اللسان) توفي سنة ٥١٠ هـ / ١١٠٧م ولم تذكر مصادرنا تاريخ ومكان وفاته[١٠٨] .

* عمر بن محمد بن حمد بن خليل ابوعلي ، السكوني ، مقرىء من فقهاء المالكية اشبيلي نزل بتونس له كتب منها « التمييز لما اودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز[١٠٩] » الاربعين مسألة في اصول الدين على مذهب اهل السنة »[١١٠] » الحق العوام فيما يتعلق بعلم الكلام»[١١١] » شرح على منظومة الاقصري في التوحد » » المنهج المشرق في الاعتراض على كثير من اهل المنطق »[١١٢]. توفي بتونس سنة ٧١٧هـ ١٣١٧م[١١٣] .

* عبدالله بن ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن جعفر ، ابومحمد ، الاموي المعروف بالاصيلي . عالم بالحديث والفقه من اهل اصيلة في المغرب ، اصله من كورة شذونة ، ولد اصيلا من بر العدوة ، تلقى علومه الاولى فيها ، ورحل الى بلاد كثيرة في المشرق وكان أخر البلاد التي دخلها بغداد سنة ٣٥١هـ / ٩٦١م وعاد منها الى الاندلس ايام الخليفة المستنصر[١١٤] ، واستقر في

افريقية الى ان توفي فيها سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م .

من مؤلفاته : كتاب « الدلائل على امهات المسائل » في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة .

* عبدالله بن بلكين او بلقين بن باديس بن حبوس الصنهاجي آخر ملوك غرناطة من الدولة الصنهاجية التي حكمت بعض الاقطار الاندلسية زمن ملوك الطوائف وليها بعد وفاه جده باديس بن حبوس سنة ٤٦٥ هـ ـ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٠م واستمر حكمها الى ان جاء الامير يوسف بن تاشفين المرابطي واخذها منه وعين عليها واليا من قبله ونفاه هو وأخاه تميم ومعهما ابن عباد الى اغمات بمراكش فاضمحل ملك بلكانة او بلقانة من صنهاجة بالاندلس وبقي في مدينة اغمات الى ان توفي سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م ودفن فيها .

من مؤلفاته : كتاب « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة » رآه النباهي صاحب كتاب (قضاة الاندلس) واخذ عنه بعض مواده التاريخية ، ونشر كتابه باسم مذكرات الامير عبدالله[١١٦] .

* عبدالله بن محمد بن عيسى الانصاري ابومحمد المالقي ، شاعر اصله من مدينة مالقه ، تعلم بها ثم انتقل الى مراكش وكان شيخ الطلبة فيها ، لمع اسمه بين الادباء والعلماء بالحاضرة مراكش ، فاستدعاه الخليفة الموحدي عبدالمؤمن واوكل اليه بعض المناصب في الدولة ، وبعد موته انتقل لخدمة ابنه ابويعقوب يوسف فكان صاحب الخطابة والامامة عنده ، له قصائد كثيرة اهمها قصيدته المسماة « انجم السياسة[١١٧] . توفي سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨م ويرجح انه دفن بمراكش[١١٨] .

* عبدالله بن محمد بن احمد التلمساني ابن الشريف ، من علماء المالكية، اشتهر في تلمسان ، قام بتأليف عدة كتب منها « شرح معالم اصول الدين[١١٩] للفخر الرازي ، « شر لمع الادلة» للجويني[١٢٠] توفي غريقا بالبحر وهو منصرف من مالقه الى تلمسان[١٢١] .

* عبدالله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان البخاري الخزرجي يكنى اباالقاسم كان معاصرا لابن خلدون ، ادركه ابن الاحمر ، ولد سنة ٧١٨ هـ/ ١٣١٨م بمدينة مالقة[١٢٢] واصل سلفه من قرطبة ، نشأ وتعلم بمدينة مالقة . التي كانت تحت سلطان بني الاحمر والذي عمل جده رئيسا للكتبة الذين يعملون في بلاط بني الاحمر . اتصف ابن رضوان بسداد الرأي وأجادة القلم مما ساعده في تولي مناصب سياسية وكتابية عدة عند بني الاحمر وبني مرين ، فقد عمل في بلاط السلطان ابوالحسن علي بن عثمان المريني ، واشترك معه في معركة طريف سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م، ولما تم الامر لابنه السلطان ابي عنان فارس سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م عين ابن رضوان كاتبا للعلامة ، وبقي في هذا المنصب الى ان توفي السلطان ابوعنان ، وتولى بعده اخوه السلطان ابوسالم ابراهيم سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م فعينه رئيسا للكتاب ، وفي عهده الف كتابا اسماه بـ «الشهب اللامعة في السياسة النافعة[١٢٣] ». وقتل السلطان ابراهيم في اواخر سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م ونظم قصيدة في مدح السلطان ابي فارس عبدالعزيز المريني وهي مولدية رفعها له في عام ٧٧٣هـ / ١٣٧١م قوله :

قف بالديار فهذه اعلامها
يهدي اليك مع النسيم سلامها
واذا وقفت بها فحيي ربوعها
وذر المدامع يستهل غمامها

والقصيدة طويلة يبلغ عدد ابياتها مائة واثنين من الابيات يختمها بقوله :

وأهنأ بميلاد الرسول مسرة
خفقت على دين الهدى اعلامها
واخلد ودم ما خلدت امداحه
كالمسك ينفح بدؤها وختامها

وكان من الكتاب البارزين الى جانب سعة علمه بالحديث والاصول والفروع ، من انشائه رسالة كتبها للسلطان ابي عنان التزم بها حرف السين يطلب فيها انعام السلطان عليه بقرية آجلي من حوز فاس جاء فيها : « اسدد بهم سهم الاستعطاف لقرطاس الاسعاف باسم القدوس . واسترفع بالسلام للمستودع لسيد بأس البؤس . واستوهب السلام ـ سبحانه ـ لسلطان المسلمين ... ويختمها بقوله .. مسرى النسيم لسلطانك سعدا سرورا ، وسهما لاستئصال فساد المفسدين مسددا ! توفي ابن رضوان بأزمور ـ الدار البيضاء ـ الآن سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨٠[١٢٤] .

* عبيدالله بن احمد بن محمد ، ابويحيى الزجالي القرطبي، اديب اندلسي، ولد بقرطبة سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، وتوفي بمراكش سنة

٦٩٤هـ / ١٢٩٥م، من مؤلفاته: « ري الاوزام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » . استخرج منه بن شريفة كتابا سماه « امثال العوام في الاندلس[١٢٥] .

* عبيدالله بن علي بن عبيدالله بن غلنده الأموي بالولاء المكنى بأبي الحكم ، مارس الشعر والطب معا . ولد في مدينة سرقسطة[١٢٥] سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، خرج منها مع أبيه وجده عندما استولى عليها النصارى قاصدين قرطبة ، ولكنه لم يطل المكوث فيها فغادرها متوجها الى اشبيلية ، وكان الى جانب علمه وادبه ، بارعا في علم الطب وذاع صيته بين الناس واستدعاه السلطان عبدالمؤمن الموحدي للعمل عنده طبيبا ثم انتقل من بعده الى خدمة ابنه الخليفة أبي السعيد . عرف عنه حسن الخط وضبط الشكل مما ساعده في كتابه العهود توفي بمراكش سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م.[١٢٦]

* علي بن محمد بن علي المكنى بأبي الحسن ، يقال له ابن الفخار ، من بني الحاج اديب اندلسي من ابرز الكتاب والادباء بالاندلس ، كان ابوه فخارا ، ولد باشبيلية وتعلم فيها ، واختير لمنصب القضاء لمدينة مورو (Moron) الواقعة بالقرب من اشبيلية سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨م وغلبت عليه صنعة الكتابة فعمل بها في الاعمال الديوانية في المدن الاندلسية اشبيلية وغرناطة ومرسية، ولكنه ترك هذه الصنعة وغادر الاندلس متوجها الى مراكش بالمغرب واستقر هناك الى ان توفي .

من اهم مؤلفاته : برنامج شيوخه الذي سماه « الايراد لنبذة المستفاد من الرواية والاسناد بلقاء حملة العلم في البلاد ، على طريق الاقتصار ». وكتاب آخر سماه « جنى الازاهر النضيرة ، وسنا الزواهر المنيرة ، في صلة المطمح والذخيرة ، بما ولدته القرائح من المحاسن في هذه المدة الاخيرة » . وكتاب « اقتفاء السنن في انتقاء اربعين من السنن » اخذها عن اربعين شيخا ، وشرح الكافي لابن شريح[١٢٨] .

* علي بن محمد بن حسن الانصاري الاشبيلي ، ابوالحسن الجياني ، قاض اندلسي، من الكتاب، له نظم حسن اصله من جيان[١٢٩] Jaan) استقضي بحصن القصر من بلاد اشبيلية مدة واستكتبه الخليفة الرشيد الموحدي، ثم تسلم خطة الاشراف على بلاد حاحة التابعة لمراكش، وشرع في الجمع بين تفسيري الزمخشري وابن عطيه ، ومات قبل اتمامه ، توفي بتامطريت بالمغرب الاقصى سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م[١٣٠].

* عبدالملك بن محمد بن مروان بن ابي يعلا من بني زهر ابومروان يسميه الغربيون (Avenzoar) أو (Abenzonr) وهو من مواليد اشبيلية، تعلم الطب على والده محمد بن مروان بن زهر ، وتمكن من مزاولته وهو ابن سبع عشرة سنة ، يعده بعضهم اشهر اطباء اسبانيا المسلمة ، وهو اول طبيب مختص متعمق في تخصصه سجل اسمه في سجلات الاطباء من المسلمين والمسيحيين على السواء في العصور الوسطى .

لقي حظوة لدى المرابطين والموحدين ، فقد كان طبيبا خاصا لأمير المؤمنين عبدالمؤمن بن علي الذي قلده وظائف عالية ، ومنحه شرف (محضر الترياق) وتحضير الترياق كان عملاً مقصورا على الطبيب المفضل من اطباء البلاط ، وقد الف للامير كتاب (الترياق السبعيني) من تاليفه: كتاب « التيسير في المداواة والتدبير » الذي الفه لتلميذه ابن رشد ، وقد اضفى على هذا المؤلف شيئا من افكاره الشخصية ذات الفائدة التاريخية ، وترجم الكتاب الى اللغتين اللاتينية والعبرية ، ومن تاليفه كتاب «الاقتصاد » الذي الفه بناء على طلب الامير ابراهيم اخي امير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين ، وكتاب الاغذية والادوية ، الذي اهداه الى الخليفة عبدالمؤمن بن علي ، وله العديد من الكتب في مختلف الفنون والآداب ويعد هذا الطبيب من المخضرمين الذين عاصروا دولتي المرابطين والموحدين وعاشروا ملوك هذه وتلك وتوفي في المغرب سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م[١٣٢] .

* عبدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد بن ابي عبيدة الابادي ابومحمد. ويعرف بابن الرميمي بن ذي الوزارتين عبدالله . كان ممن اجتمعت فيه صفات من الفضائل ، فكان شهما كريما اديبا لبيبا ، شاعرا بارعا ، فارسا رائعا ، قرأ على الاستاذ ابي الشرف ، والاستاذ ابي القاسم بن الاصفر الحارثي ، وتأدب على يديه ، ولد سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م بمدينة المرية ، وتوفي بتونس ولم تكشف لنا المصادر التي بين ايدينا عن تاريخ وفاته . من نظمه :

هل للمعاهد بالمرية عودة
يا حسنها من بلدة ومعاهد
اجريت خيل الانس في ميدانها
طلقا مزيدا والزمان مساعدي

حتى اذا قدر جرى بفراقها
بدلت من اخوانها بأباعد
ياليت موتي كان قبل فراقها
فالموت خير من شماتة حاسد(١٣٣)

* عبدالله بن احمد بن عبيدالله بن محمد بن احمد بن عبيدالله النفزي القرطبي ، ولد بمدينة قرطبة وتلقى علومه الاولى فيها على يد القاسم بن محمد بن احمد بن الطيلسان ، الذي قرأ عليه كتابه السنن وعندما اطمأن لفهمه اياه اجاز له روايته . اما عن طلابه فكان من ابرزهم ابن الفخار ، ومن اهم مؤلفاته : « زهرة البساتين ونفحة الرياحين ، في غرائب اخبار العلماء المسندين ، ومناقب «آثار الفضلاء المهتدين » « التبين عن مناقب من عرف قبره من الصحابة والتابعين والعلماء الزاهدين » توفي بسبتة في غرة ربيع الثاني سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م(١٣٥) .

* علي بن محمد بن عبدالحق الزرويلي ابوالحسن الصغير ، بضم الصاد وفتح الغين وتشديد الياء ، فقيه من كبار الفقهاء والحفاظ ، كان مجلسه من اعظم المجالس بفاس يحضره الجم الغفير من خيرة الطلبة وعلية الفقهاء ، ويقصده الناس من اقاصي البلاد ، وولي قضاء تازة بالمغرب الاقصى على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، ثم ولي قضاء فاس في ايام حفيده أبي الربيع سليمان . وعضده السلطان فانطلقت يده في محاكمة اهل الجاه فقد عرف عنه عدم المحاباة بامكانه لا يفرق بين الصغير والكبير والقوي والضعيف ، وقد سبب مسلكه هذا فتنة بين السلطان أبي الربيع سليمان وبين وزيره عبدالرحمن بن يعقوب الوطاسي حيث ان ابا الحسن كان قد اقام حد الشرب على احد سفراء السلطان ابن الاحمر ، فاحتج هذا السفير وقصد الوزير عبدالرحمن وشكا اليه القاضي ، وحجته ان هذا مما لا يعامل به سفراء الدول ، فكاد الوزير يوقع بالقاضي لولا ان حال السلطان بينهما مما حمل الوزير على شق عصا الطاعة ، غير ان كيده رجع الى نحره . وبالاضافة الى عمله كان يدرس بجامع الازدع احد جوامع فاس ، وكان من الائمة البارزين في الفتيا ترد اليه الاسئلة من مختلف نواحي المملكة المغربية ، فيجيب عليها .

والى جانب عمله في الفتيا مارس العمل السياسي فذهب بسفارة الى الاندلس للبحث في امور متعلقة بين البلدين ، وهناك تهافت الناس عليه للاخذ عنه ، وطلب منه التدريس ففعل فأعجب الناس به من مؤلفاته : تقاييد على رسالة ابن ابي زيد القيرواني وتقاييد على التهذيب تداولها الفقهاء ، ومجموعة الدر النثير في النوازل والاحكام ، وغيرها من المؤلفات الاخرى . توفي سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩م دون ذكر لمكان الوفاة(١٣٦) .

* علي بن ابي الرجال الشيباني يكنى أبا الحسن وينسب الى القيروان وان لم يكن منها ، وانما هو من مدينة تاهرت عاصمة الاباضية الواقعة الآن في القسم الغربي من الجمهورية الجزائرية . كان عالما رياضيا فلكيا منجما واديبا شاعرا ، نشأ في قرطبة ، ثم غادرها متجها الى تونس ، وهناك عاش مدة من الزمن في كنف المعز بن باريس بتونس وبقي فيها الى ان توفي سنة ٤٢٥هـ / ١٠٣٣ وبها دفن اثنى عليه ابن رشيق بقوله : اقام سوق العلم والادب وجعل ذكره باقيا وجده ساميا وايده من النصر والتوفيق ، بما فيه رضا الخالق والمخلوق فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . برع في علم الفلك ، من اهم مؤلفاته : (البارع في احكام النجوم) نقله الى الاسبانية ، يهوذا بن موسى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، ثم نقله من الاسبانية الى اللاتينية الرجوي وايجيديوس التبالدي ، وطبعت بالبندقية سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

و «ارجوزة في الاحكام الفلكية » طبعت في آخر كتاب « كفاية الطالب في الاحكام الفلكية » لغزال موسى ، وشرحها احمد بن الحسن بن القنفذ القسنطيني سنة ١٣٧٣هـ /١٩٥٣م. ولعل ابا الحسن هذا هو الذي اعان ابا سهيل الكوفي في الارصاد الفلكية التي اجريت في بغداد سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م. اما مؤلفاته في الادب، فقد روى لنا عنه ابن رشيق بعض مقطوعاته الشعرية التي تساعدنا في التعرف على شخصيته الادبية ، من اقواله في الحنين الى اهله :

ولي كبد مكلوجة من فراقكم
اطامنها صبرا على ما اجنت
تمنتكم شوقا اليكم وصبوة
عسى الله ان يدني لها ما تمنت
وعين جفاها النوم واعتادها البكا
اذا عن ذكر القيروان استهلت

وفي الوصف قوله :

فضل الانام بفضل علم واسع
وعلا مقالهم بفضل المنطق
وحكى لنا وشي الرياض وقد وشت
اقدامه بالنقش بطن المهرق
وحض على التمتع بلذات الحياة قبل قدوم المنية

بقوله :
باكر الراح ودع عنك العذل
واسع الصحة من قبل العلل
واغتنم لذة يوم عاجل
فالمنايا ضاحكات بالامل

وفي الغزل قوله :
خليلي ان لم تساعداني فاقصرا
فليس يداوي العتاب المتيم
تريدان مني المسك في غير حينه
وغضى ريان ورأسي اسحم

وفي شكواه من الدهر واهله قال :
امسى الزمان زمانة العقل
فاخش الاله وحل عن الجهل
واعلم بأن في الحساب غدا
تجزى بما قدمت من فعل(١٣٨)

* عبدالحق بن عبدالرحمن بن عبدالله بن حسين بن سعيد بن ابراهيم الازدي الاشبيلي المكنى بأبي محمد ولد باشبيلية سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م، وتوفي ببجاية سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م كان فقيها عالما بالحديث وعلله ورجاله، موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع واخذ القليل من الدنيا ، مشاركا في الادب وقول الشعر . صنف عدة دواوين خاصة في الزهد اطلع عليها الغبريني ولم يخبرنا عن عناوينها وقد اورد نماذج عدة من الشعر .

تولى الخطبة وصلاة الجماعة بجامعها الاعظم، وعمل في علم العقود ، وتولى القضاء ببجاية لمدة وجيزة زمن ابن غانية المعروف بالميورقي اللمتوني . وكان ليله مقسما اثلاثا ، ثلثا للقراءة، وثلثا للعبادة ، وثلثا للنوم . مما ساعده في التأليف، كان من ابرز مؤلفاته « الاحكام الكبرى ، في الحديث والاحكام الصغرى فيه » وله كتاب « العافية في علم التذكير » « التهجد » « اختصار الرشاطي » « الحاوي » وهو كتاب في اللغة مكون من ثمانية عشر مجلدا . استفاد من كتابه « الاحكام الصغرى » ابوعبدالله بن القطان مزوار الطلبة بالمغرب الذي قام بتأليف مؤلفه بعنوان « بيان الوهم والابهام الواقعين في كتاب الاحكام » اما صفاته ، فكان على جانب كبير من الخلق والكرم بالاضافة الى جلال العلم وكمال الفهم(١٤٠).

* علي بن محمد بن عبدالحق بن الصباغ العقيلي يكنى بأبي الحسن من اهل غرناطة برز في علم العقود ، وذاع صيته بين الناس ، رحل الى المغرب تاركا الاندلس لاسباب نجهلها لعدم ذكر ابن الاحمر لها(١٤١) ، وعمل كاتبا عند السلطان أبي عنان. كما اوكل تدريب ابنه ابي زيد عبدالرحمن على امور السلطنة وكان مسؤولا عما يرد الى دار السلطنة ويخرج منها من كتب .

امتاز بحسن اخلاقه وسعة اطلاعه في مختلف الفنون من اهم مؤلفاته ، جليس الاديب ، وانيس الغريب، وغيره من المؤلفات الاخرى الدالة على رسوخ قدمه وعلو كعبه ، توفي زمن السلطان ابي عنان. من اشعاره في مدح السلطان أبي عنان اثناء انتصاره على السلطان ابي سعيد عثمان الزياني والذي انشدها ليلة يوم الاثنين التاسع لذي الحجة سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م مطلعها :
بشرى لدولتك الغراء في الدول
حيطت بها الملة البيضاء في الملك
انت الذي صنعت ايدي القضاء له
ما ليس ايدي البيض والأسل

* عبدالله بن سعيد الوجدي نسبة الى وجدة ، كان من الفقهاء البارزين ، حافظا لمسائل الرأي حدث عنه ابوالعرب عبدالوهاب بن محمد التجبني وغيره ، توفي بمدينة بلنسية سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م(١٤٢) .

* عبيدالله بن عبدالمجيد بن عمر بن يحيى الازدي يكنى بأبي الحسن ، ولد في مدينة رنده سنة ٦٠٨هـ / ١٢٠٤م، رحل الى بر العدوة واختار بجاية مقرا له ، كان صاحب كرامات مستجاب الدعوة لكنه لم يتأثر بما كان موجودا من افكار واعمال صوفية مخالفة للشريعة الاسلامية نال منزلة عند الامراء والوزراء لم يتدخل في شؤونهم، لكنه كان محبوبا لديهم وطلباته مستجابة عندهم فقد حدثت له حادثة مع المتصوف ابي الحسن الفقير المعروف بالطيار باختلافه معه على عدة امور ، فرفع امره لصاحب تونس فأمر بنفيه من بجاية بالمغرب الاوسط الى المغرب الاقصى . واما هو فقد بقي في مدينة بجاية الى ان توفاه الله في النصف الاول من ليلة الثلاثاء السابع من رجب سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م ودفن بعد صلاة العصر بالمقبرة الواقعة بالقرب من الباب الجديد احدى ابواب بجاية واصبح قبره مزارا للعامة يتبركون به(١٤٤) .

* علي بن عبدالله بن محمد الانصاري القرطبي المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن نطرال اخذ الفقه وعلوم اللغة عن عبدالحق بن توبه ، وابن الشراط، وله مناظرات ، ومجادلات علمية مع ابي العباس بن مضاء . ولي قضاء

مدينة أبدة[١٤٥] بالاندلس ووقع في الاسر وهو يزاول مهنته عند احتلال الفرنج لها سنة ٦٠٩ هـ /١٢١٢م[١٤٦] .

* عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن فتوح النفزي المكنى بابي الحسن من أهل شاطبة وقبره بحومة رابطة المتمني خارج بجاية توفي ليلة الخميس في مستهل جمادي الاولى من عام ٦٤٢ هـ ـ ١٢٤٤ م كان من اهل العلم والفضل والدين مستبحراً متفنناً عالماً بالفقه واصوله وعلوم العربية من نحو وصرف وادب وله مشاركة في علم المنطق وتقييد على (كتاب المفصل) وله اختصار على (حلية الاولياء) لابي نعيم[١٤٨] عرف بالزهد والورع والميل الى العزلة فكان اذا مشى لايعرف من على يمينه او يساره ولا يتكلم مع احد الا في امر ديني خرج من بلده عند استيلاء العدو عليها متجهاً الى بجاية واستقر فيها الى حين ولكنه مالبث ان مات ودفن فيها[١٤٩] .

* عبدالله بن حجاج بن يوسف المكنى بأبي محمد من بيت علم ، تلقى علومه الاولى على ابي بكر بن العربي ، عين قاضيا على جزائر بني مزغنه ، وبها نشأ ، ثم عين في بجاية في المنصب نفسه بدلا من القاضي عبدالله بن ابراهيم الاصولي[١٥٠] .

عرف عنه الصدق في القول والاخلاص في العمل والمشاورة لأهل العلم ، كان ينفق جرايته في البر والاحسان والتصدق على الفقراء والمساكين ، ويأكل ما يأتيه من ممتلكاته في الجزائر التي ورثها عن أبيه ، توفي سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م، وخلف خمسة من الاولاد ، عبدالرحمن وعبدالواحد ، واحمد ، ومحمد عمر ، وكلهم كانوا من اصحاب الخير والفضل مارسوا مناصب القضاء مثل ابيهم ، ويشيد الغبريني بقوله : « وبالجملة بيتهم بيت كريم ، واحوالهم جارية على النهج القديم والصراط المستقيم[١٥١] » .

* عبدالرحمن بن محمد بن ابي بكر بن السطاح ، اصله من الجزائر ، رحل الى اشبيلية وقرأ بها ولقي ابا الحسين بن زرقون وابابكر بن طلحه وابا عبدالله محمد بن علي بن طرفه روى عنهم جميعا ، واجازه ابوالحسين ابن زرقون اجازة خاصة وعامة ، خاصة فيما نص عليه وعامة فيما لم يعينه . وكتب له ذلك بخط يده في ذي القعدة سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م وهو اول من ادخل نسخة من كتاب « الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار » لابي عبدالله محمد بن سعيد بن زرقون المتوفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٨٩م ، ادخله الى بر العدوة .

امتاز بجودة الخط وحسن الضبط ، اتخذ من بجاية مقراً له وزاول فيها خطط العدالة وناب عن القضاة في الانكحه ، توفي سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م ببجاية ولم تذكر المصادر التي بين ايدينا تاريخ مولده[١٥٧] .

* علي بن موسى بن علي ، ابوالحسن بن النقرات ، الانصاري الساطي الجباني ، نزيل فاس وخطيبها ، من كبار الائمة ومن الادباء البلغاء اليه ينسب الكتاب الموسوم بـ « شذرات الذهب في الكيمياء » وعرف عند الناس بتقواه وزهده توفي سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م ولم تحدد لنا المصادر مكان دفنه[١٥٩] .

* عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن موسى بن سليمان بن علي بن عبدالملك بن يحيى بن عبدالملك بن الحسن بن عميرة بن طريف بن اشكورنة الازدي بن برطلة ابومحمد[١٦٠]. ولد بمدينة مرسية سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وفيها ترعرع ولما ترعرع بجامع مرسية ولم تتعد مدة ولايته لها اكثر من خطبة واحدة ، قدم الى مدينة تونس سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م ومكث فيها مدة ثم غادرها متوجها الى الحجاز لاداء فريضة الحج سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وعاد من حجه الى الحاضرة (تونس) وبقي فيها الى ان توفي ظهر يوم الاحد ٢٦ جمادي الاخيرة سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م ودفن ظهر يوم الاثنين بحومة المصلى الواقعة غرب المدينة وكانت جنازته مشهورة لكثرة ما حضرها من اهل الخير والصلاح[١٦١] .

* علي بن يحيى بن القاسم ابوالحسن الصنهاجي الجزيري ، فقيه مالكي من ريف المغرب ، رحل الى الاندلس وولي قضاء الجزيرة الخضراء فنسب اليها ، له كتاب « المقصد المحمود في تلخيص العقود » ويسمى بوثائق الجزيري ، توفي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ولم تشر مصادرنا الى مكان وفاته[١٦٢] .

* عبدالله بن راجح التونسي ، عرف بحسن هندامه وكثرة تواضعه وحسن خلقه وعذوبة الفكاهة عنده ، ولكن الى جانب هذه الصفات ، كان ثرثارا لا يصلح لمجالسة السلاطين وقعت بينه وبين السلطان ابي الحسن المريني جفوة اضطر على اثرها الى مغادرة المغرب والرحيل للاندلس سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م توفي يوم الخميس ثالث

شعبان سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م وقد ناهز السبعين ، ودفن بالروضة الواقعة بالقرب من باب البيرة بالاندلس .

قال عنه ابن خاتمة : « حدثني الشريف الاديب ابوعبدالله بن راجح التونسي مقدمه علينا بالمرية قال : سجن القاضي ابوعبدالله بن عبدالسلام شابا وسيما لحق تعين عليه ، فانشدته مداعبا » .

اقاضي المسلمين حكمت حكما
غدا وجه الزمان له عبوسا
سجنت الدراهم ذا جمال
ولم تسجنه اذ غصب النفوسا

فأجابه برقعة كتب عليها ، انما شكاه لي ارباب الدراهم ، دون ارباب النفوس(١٦٤) .

* الفتح بن محمد بن عبيدالله من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب ، يكنى أبا نصر ويعرف بابن خاقان .

صفاته : كان عذب الالفاظ قوي المعاني كثير التجوال لم يدع بلدا من بلدان الاندلس الا وزارها ، كان معاصرا للكاتب ابي عبدالله ابن ابي الخصال ، وكان يعاقر الخمرة ، اقام عليه القاضي ابن عباض الحد بسبب جلوسه في مجلسه وهو مخمور ، كان على خلاف مع ابن باجة ابي بكر آخر فلاسفة الاسلام بجزيرة الاندلس بسبب ازدرائه اياه .

شيوخه ، روى عن ابن سليمان بن القصيرة ، وابن عيسى بن اللبانة ، وابي جعفر بن سعدون الكاتب وأبي الحسن بن سراج ، وأبي خالد بن بشتغير ، وأبي الطيب بن زرقون ، وأبي عبدالرحمن بن الطاهر ، وابي محمد بن عبدون ، وأبي الوليد بن حجاج . من أشعاره في مدح ابي يحيى بن الحاج :

اكعبة علياء وهضبة سؤدد
وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئا لملك زارفقك نوره
وفي صفحتيه من مضائك اسطر
واني لخفاق الجناحين كلما
سرى لك ذكر او نسيم معطر

من نثره قوله:... كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذي منة وغناء ، امر بانفاذه فلان .... الى ان يقول وامره ان يراقب الله تعالى في اوامره ونواهيه ، وليعلم انه زاجره من الجور وناهيه ، وسائله عما حكم به وقضاه وانفذه وامضاه .. الخ .

وفاته : توفي بمراكش ليلة الاحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة وعشرين وخمسمائة ، وجد قتيلا ببيت من بيوت فندق من فنادقها ، وقد ذبح وعبث به ولم يعرف بقتله الا بعد ثلاث ليال من وقوع الجريمة .

اما صاحب حلي المغرب (جـ ١ ص ٢٥٤) فيرى ان عدم تعيينه بمنصب من مناصب الدولة المرابطية رغم بلاغته يعود الى ذم الاحساب ، او عدم رضى امراء المرابطين عنه ، فيقال ان علي بن يوسف دس له من قتله باحد فنادق مراكش . ويرى ابن خلكان بانه توفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م وابن الآبار يرى ان قتله كان ليلة عيد الفطر سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م(١٦٥).

* محمد بن الحارث بن اسد الخشني(١٦٦)، قيرواني(١٦٧)، اختلف في تاريخ مولده(١٦٨) ، درس في بلدة الحديث عن احمد بن زياد ، واحمد بن نصر ، ثم قدم الى الاندلس سنة ٣١١هـ او سنة ٣١٢هـ / ٩٢٣ أو ٩٢٤م فنزل بقرطبة فسمع من اهل الحديث فيها امثال قاسم بن اصبغ (ومحمد بن عبدالملك بن ايمن وغيرهما) وكان حافظا للفقه عالما بالفتيا مبرزا في القياس دخل في خدمة الامير الحكم المستنصر فولاه المواريث في مدينة بجانة بالاندلس ، وخطة الشورى في مدينة قرطبة ، وفي تلك الاثناء الف كتب عدة في الفقه والقضاء كان من ابرزها كتابه المسمى بـ (تاريخ قضاة قرطبة) الذي تحدث فيه عن حالة القضاء وسير القضاة من الفتح الاسلامي الى سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م. ضمنه اشارات عن الحياة الاجتماعية في الاندلس منذ فتحها الى عهد الامير الحكم وقام بتأليفه بايحاء من الامير ، بعد ان وضع تحت تصرفه خزانة كتبه وما تحويه من المصادر والوثائق في ديوان الخلافة وسجلات القضاة والاوراق الخاصة لبعض الافراد ، واهم من ذلك ما اخذه من الروايات والاخبار التي كانت ذائعة على الالسن بين طبقات اهل قرطبة منها ما كان يحكى في قصر الخلافة وبيوت السرات ، ومنها ما كان يتناقله الجمهور والقصاص في طرقات قرطبة وأرباضها واحيائها التي يحتشد فيها عامة الناس .

من مؤلفاته الفقهية الاخرى : اخبار الفقهاء والمحدثين ، الانفاق والاختلاف في مذهب مالك ، وغيرها من المؤلفات . توفي وهو يبيع العطارة في قرطبة في شهر صفر سنة ٣٦١هـ آب ٩٧١م بعد ان كان يعيش عيشة مترفة في ظل الامير الحكم(١٦٩) .

* محمد بن ابراهيم بن خلف الاندلسي المالقي المكنى بأبي عبدالله والملقب بابن الفخار ، ولد

سنة ٥١١هـ / ١١١٧م بمالقة في الاندلس .

أخذ علومه الاولى من أبي بكر بن العربي ، ومن أبي جعفر البطروجي ، وأبي عبدالله بن الاحمر ، وشريح بن محمد[170]، ومحمد بن محمد بن عبدالرحمن القزشي وغيرهم . اثنى عليه ابن الآبار بقوله : كان صدرا في الحفاظ معروفا بسرد المتون والاسانيد مع معرفة طيبة بالرجال يستخدمها في انجاح مهامه العلمية ، كما برع في حفظ الغريب من القول ، اخذ عنه عدد من العلماء العلوم السمعية ، امثال أبي سليمان بن حوط الله حيث يقول عن ابن الفخار انه حفظ في شبيبته سنن أبي داود . استدعي الى حضرة السلطان الموحدي ليناظره ويسبر غوره ، توفي في شعبان سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م ويرجح انه دفن بمراكش[171] .

* محمد بن عبدالله بن الغازي بن قيس ، من مدينة قرطبة يكنى أبا عبدالله ، تلقى العلم في صغره على ابيه ، ثم غادر الاندلس متجها الى المشرق حيث المراكز العلمية ، فنزل البصرة وفيها التقى بالعالم أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ، وأبي الفضل العباس بن الفرج الدياشي ، وابي اسحاق ابراهيم بن خداش ، وابي موسى عيسى بن اسماعيل العتكي وجماعة سواهم من اهل الحديث ورواد الاخبار والاشعار واصحاب اللغة والمعاني ، وبعد الانتهاء من مهمته العلمية عاد الى الاندلس، واقبل الناس ينهلون من علمه من شعر ونحو وادب وحديث وغيره من الفنون الاخرى ، وفي اواخر عمره هم بالذهاب الى الحج ، فخرج من الاندلس متوجها الى طنجة وهناك مكث ما يقارب السنة ، ولكنه فارق الحياة قبل ان يكمل رحلته[172] .

* مصعب بن محمد بن مسعود الخشني الجياني الاندلسي يكنى بأبي بكر وبأبي ذر ، ويعرف كأبيه بابن ابي الركب ، تمرس في علم الحديث والسير والنحو والشعر ، ولد في مدينة جيان ولم تذكر مصادرنا تاريخ مولده[173] ، نشأ وتجول في العديد من البلدان بالمغرب والاندلس واستقر به المقام بفاس وبقي فيها الى ان توفاه الله، له عدة مؤلفات منها، « شرح غريب السيرة النبوية »[174] . (شرح الايضاح) (شرح الجمل) .

* محمد بن حيون بن عمران الانصاري ، من اهل طليطلة ، يكنى ابا عبدالله سمع بمكة من ابن غراس وغيره من المكيين ، وسمع بمصر من عبدالله بن جعفر بن الورد ، وابن السكن ، توفي بطرابلس، وهو في طريقه للمشرق سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م ، وكانت كتبه عند احد اصحابه الطرابلسيين ابي عبدالله بن مفرج[175] .

* محمد بن عبدالرحمن بن أبيه القطني يعرف بأبن عوضة ويكنى ابا عبدالله من اهل قرطبة سمع من احمد بن سعيد ، واحمد بن مطرف[176]، ومحمد بن معاوية القرشي ، وأبي عيسى والتميمي وغيرهم . كتب عنه غير واحد ، رحل الى المشرق بغية الحج ، توفي وهو في الطريق بالقرب من مدينة اشير الواقعة بعمالة سطيف بالجزائر الآن سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١م[177] .

* محمد بن هشام بن الليث اليحصبي ، من اهل القيروان يكنى ابا عبدالله سكن قرطبة ، روى الحديث عن يحيى بن عمر ونظرائه من مشايخ القيروان ، وروى عنه بعد الاجازة برواية الحديث عبدالله بن محمد بن عثمان ، واحمد بن ابراهيم بن فتح ، وخلف بن محمد وغيرهم[178] .

* محمد بن احمد بن محمد الفارسي ، من اهل القيروان ، يكنى ابا عبدالله ويعرف بابن الخراز ، سكن قرطبة سمع بالقيروان من احمد بن زياد ، واحمد بن محمد القصري ونظرائهما من رجال افريقية ، وحج فلقي بمكه العقيلي، وابن الاعرابي وغيرهما ، وسمع بالاسكندرية من علي بن عبدالله بن أبي مطر . وقدم الاندلس فكان متجولا بين المدن الثلاث قرطبة وشذونه واشبيلية ، ثم استقر بقرطبة واخذ عنه الحديث كثير من اهلها، امثال اسماعيل بن اسحاق ، وعبيدالله بن الوليد ، وسلمان بن عبدالرحمن ، اخذ عليه ضعف خطه توفي يوم الثلاثاء ٨ من ذي القعدة سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م دفن يوم الاربعاء بمقبرة الربض بعد ان صلى عليه القاضي اسحاق بن سليم الذي كان اعور[179] .

* محمد بن الحسين بن محمد بن اسد بن محمد بن ابراهيم بن زياد بن كعب بن مالك التميمي الحماني من بني سعد بن زياد بن تميم الطبي يكنى ابا عبدالله ولد سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م جاء الى الاندلس قادما من المغرب سنة ٣٣١هـ / ٩٤١م وكان حافظاً للاخبار ، عالما بالانساب ، شاعرا محسنا ملماً بالأدب، ولي الشرطة وعاش الى ان كبر سنه ، توفي يوم الاثنين لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣م ودفن يوم الثلاثاء بعد صلاة العصر في مقبرة الربض بقرطبة ، بعد ان صلى

عليه الوزير القاضي عبدالرحمن بن عيسى بن فطيس[١٨٠] .

* محمد بن علي بن ظنة السهي الاندلسي يسمى بظنه او بالذال بدلا من الظاء وهو اسم رومي تفسيره (سيد) وقد يكتب بواو ونون فيسمى ذونه . كان قاضي بلده ، توفي عندما كان قادما من الحج في ارض المغرب قبل وصوله لأرض الوطن .

* محمد بن احمد بن محمد بن رشد الاندلسي ، ابوالوليد ، الفيلسوف المولود بقرطبة سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م[١٨٢] والمسمى عند الافرنج (Averroes) عني بكلام ارسطو وترجمه الى اللغة العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة وصف نحو خمسين كتابا منها (فلسفة ابن رشد) و (التحصيل) المتضمن لاختلاف مذاهب العلماء و(الحيوان) و(فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) و(الضروري في المنطق) و(منهاج الادلة) (تهافت التهافت) وغيرها من المؤلفات الاخرى . كان دمث الاخلاق، حسن الرأي ، عرف الخليفة المنصور بن عبدالمؤمن الموحدي قدره ، فجعله من خواص ندمائه، واتهمه خصومه بالزندقة والالحاد فأوغروا صدر الخليفة المنصور ، فغضب عليه بعد الرضى عنه فنفاه الى مراكش وامر باحراق بعض كتبه ، ثم عاد ورضي عنه وسمح له بالعودة الى وطنه ، فعاجلته الوفاة بمراكش سنة ٥٩٨هـ / ١١٩٨م، نقلت جثته الى مدينة قرطبة .
اشاد به ابن الآبار بقوله : كان يفزع الى فتواه في الطب كما يفزع الى فتواه في الفقه وكان يلقب بالحفيد تمييزا له عن جده ابي الوليد محمد بن احمد المتوفي سنة ٥٢٠هـ / ١٢٢٦م .

* محمد بن عبدالرحمن بن علي بن محمد التجيبي يكنى ابا عبدالله ، من اهل اشبيلية تجول في بلاد الاندلس طلبا للعلم ، ثم حج ولقي الحافظ السلفي وغيره ، استوطن تلمسان وبها توفي في جمادي الاولى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م[١٨٣] .

* محمد بن احمد بن ابراهيم ، الصدفي الاشبيلي ، له نظم حسن وموشحات رائعة قرأ على الاستاذ الشلوبين وغيره ، ومدح الملوك ، ورحل من الاندلس فقدم ديار مصر ، ومدح بها بعض من كان يوصف بالكرم ، فوصله بنزر يسير ، فكر راجعا الى المغرب ، وتوفي ببرقة من المغرب الادنى ، وكان من النجباء في النثر وجيدا في النظم من نظمه قوله :

ما بي موارد امس بل مصادره
اللحظ اوله واللحد آخره
ارسلت طرفي مرتادا فطل دمي
روض من الحسن مطلول ازاهره[١٨٤]

* محمد بن احمد بن محمد الاموي ابوالقاسم المعروف بابن اندراس من اهل مرسية (Murcie) لم تفصح مصادرنا عن مولده ، استوطن مدينة بجاية (Bougie) مهر في صناعة الطب ، وعين طبيبا خاص للولاة ، وذاع صيته في هذه المهنة حتى بلغ مسامع الامير المستنصر محمد بن يحيى الحفصي فاستدعاه الى تونس ، وعينه عنده في البلاط فكان من ندمائه واطبائه ، له (ارجوزة) نظم فيها بعض الادوية المفردة من قانون ابن سينا وتوفي بتونس سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م[١٨٥] .

* محمد بن ابراهيم بن احمد بن اسود ابوبكر الغساني ، قاض مفسر من بيت علم وورع ، من اهل (المرية) بالاندلس رحل الى مصر وعاد الى بلده واستقضي بمرسية مدة طويلة ثم صرف عنها ، سكن في مدينة مراكش وبقي فيها الى ان وافته المنية سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٢م[١٨٦] وكان من ابرز مؤلفاته مؤلف في تفسير القرآن[١٨٧] .
من مؤلفاته : « اكمال الكمال » للقاضي غياض على صحيح مسلم وحاشيته على كتاب الشهاب للقرافي في « الاصول »[١٨٨] .

* محمد بن ابراهيم بن عبدالله بن مالك بن ابراهيم بن محمد بن مالك بن ابراهيم بن يحيى بن عباد النفزي الحميري الرندي ، ابوعبدالله المعروف بابن عباد ولد بمدينة رندة سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م، غلب عليه التصوف ، وعاش متنقلا بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر اخيرا بفاس الى ان توفي بها سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وهو يزاول خطة الامامة والخطابة في جامع القرويين ، وله عدة مؤلفات اهمها : « الرسائل الكبرى » تبحث في التوحيد والتصوف والآيات المتشابهة[١٨٩] . (غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية) ويعرف بشرح النفزي على متن السكندري و « كفاية المحتاج » و « الرسائل الصغرى » « شرح اسماء الله الحسنى » « افادة المرتاد بالتعريف بالشيخ ابن عباد »[١٩٠] .

* محمد بن محمد بن احمد الانصاري

ابوعبدالله ابن الجنان من اهل مرسية ، كان محدثا ، راوية ضبطا في روايته ، كاتبا بليغا في كتابته ، دينا خيرا فاضلا ، كان مفرطا في القماءة حتى يظن رائيه بأنه طفل ابن ثمانية اعوام ، استكتبه بعض امراء الاندلس فكان يتبرم من ذلك ويقلق حتى خلصه الله منها ، خرج من بلده مرسية عند احتلال العدو لها سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م، ونزل بأريولة الى ان دعاه صاحب سبتة الرئيس ابوعلي ابن خلاص فوفد عليه فأجل وفادته ، ثم توجه الى افريقية فاستقر بجاية، وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته ، روى الحديث وهو في بلده مرسية عن ابي بكر بن خطاب، وابي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وابي الربيع بن سالم ، وابي عيسى بن ابي السداد ، وابي علي الشلوبين وغيرهم .

كتب له ابوالمطرف بن عميرة برسالته الشهيرة التي اولها « تحييك الاقلام تحية كسرى، وتقف دون مداك حسرى » وهي طويلة اجابه بما نصه : « ما هذه التحية الكسروية ؟ وما هذا الرأي وهذه الروية ؟! تنكيت من الاقلام ؟ او تبكيت من الاعلام ؟ او كلا توجه القصد اليه.. » ومن نثره رسالة كتب بها من الاندلس الى سيد الكونين محمد عليه السلام وهي : « السلام العميم الكريم ، والرحمة التي لا تبرح ولا تريم والبركة التي اولها الصلاة وأخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيد بالعصمة والايد والقوة ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفا ومروة.. » . يصفه صاحب الدراية بقوله: « الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الاديب ، ابوعبدالله ابن الجنان ، من اهل الرواية والدراية والحفظ والاتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل ابي المطرف بن عميرة المخزومي.. » .

من شعره قصيدته الدالية التي مطلعها :

يا حادي الركب قف بالله يا حادي
وارحم صبابة ذي نأي وابعاد

ومن مخمساته في مدح الرسول هذا التخميس :

الله زاد محمدا تكريما
وحباه فضلا من لدنه عظيما
واختصه في المرسلين كريما
ذا رأفة بالمؤمنين رحيما صلوا عليه وسلموا تسليما(١٩١)

* محمد بن محمد بن عبدالله بن معاذ اللخمي الفلنقي ، ابوبكر ، عالم بالقراءات من ادباء اشبيلية اقام مدة في قلعة بني حماد الواقعة بالقرب من مدينة سطيف بالجزائر ، ثم رحل عنها قاصدا فاس استقر فيها الى ان توفي سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م من كتبه « الايماء الى مذاهب السبعة القراء » وارجوزة سماها « لؤلؤة القراء(١٩٢) » .

* محمد بن محمد بن احمد بن زى الكلبي ، ابوعبدالله ، شاعر من كتاب الدواوين السلطانية اندلسي من اهل غرناطة فيها ولد سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م وترعرع، نبغ في الادب والشعر منذ صغره ، عينه امير المسلمين ابوالحجاج يوسف بن الاحمر النصري كاتبا في قصره ثم غضب عليه وضربه بالسوط دون معرفة السبب ، فغادر غرناطة قاصدا المغرب ، نزل فاس على السلطان أبي عنان بن أبي الحسن المريني ، فنال مكانة عنده واصبح من اخص كتابه وهو الذي املى عليه « ابن بطوطة » رحلته فكتبها سنة ٧٥٦هـ / ١٣٢١م، وهو صاحب كتاب « تاريخ غرناطة » الذي وقف على اجزاء منه ابن الخطيب ، واستفاد من مادته التاريخية وبعد ابوه من اعلام الناس البارزين فهو من بيت علم وادب ، بقي في فاس الى ان توفي سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م(١٩٣) .

* محمد بن هانىء بن محمد بن سعدون الازدي الاندلسي ، يكنى بأبي القاسم يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفره ، يعد من ابرز شعراء المغاربة بدون منازع وهو عندهم كالمتنبي عند اهل المشرق ، وكانا معاصرين لبعضهما . ولد بمدينة اشبيلية سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٨م وحظى عند واليها ـ دون ان تشير المصادر لاسمه ـ لكن الاشبيليين اتهموه بميله لمذهب الفلاسفة وبنزعة في شعره نزعة اسماعيلية ، فأساؤوا القول في الولي وابن هاني ، فأمره بالرحيل عن اشبيلية ، فرحل الى افريقية والجزائر في المغرب ، وهناك اتصل بالمعز العبيدي (معد بن اسماعيل) واقام عنده في مدينته المنصورية الواقعة بالقرب من القيروان ، لكن المعز لم يطل المكوث في المغرب ورحل الى مصر بعد فتحها على يد قائده جوهر الصقلي ، فودعه الشاعر ابن هانىء وكر راجعا الى اشبيلية ليأخذ اسرته ويلحق به ، وفعلا تم له ما اراد ولكن لم ينجح من الغدر المحتوم فقد قتل ببرقة في ليبيا وهو في طريقه الى مصر دون ان يعرف القاتل .

وله ديوان شعر ، من شعره في وصف اساطيل الفاطميين على عهد المعز لدين الله الفاطمي بأفريقية « ٣٤١ ـ ٣٦٢هـ » = ٩٥٢ ـ ٩٧٢م .

اما الجواري المنشآت التي سرت
لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها
ولكن ضمت عليه اسود
ولله ما لا يرون كتائب
سوقه تحذو بها وجنود
وان الرياح الذاريات كتائب
وان النجوم الطالعات سعود(١٩٥)

* محمد بن يحيى بن باجه ، وقد يعرف بابن الصائغ، ابوبكر التجيبي الاندلسي السرقسطي من فلاسفة الاسلام ينسب الى التعطيل ومذهب الحكماء . ولد في سرقسطة ، واستوزه ابوبكر بن ابراهيم والي غرناطة ثم سرقسطة وذهب الى فاس واتهم بالالحاد ، ومات في المدينة مسموما ولما يبلغ سن الشيوخة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م ويسميه الفرنج (Avenpace) وكان الى جانب علمه بالفلسفة والطب والفلك والموسيقى والطبيعيات ، كان شاعرا مجيدا عارفا بالانساب ، شرح كثيرا من كتب آرسطاليس ، الف في الطب كتابا سماه « اتصال العقل » ذكر ابن أبي اصيبعة في كتابه « طبقات الاطباء » .

فقد الأصل المكتوب باللغة العربية لكنه ترجم الى اللاتينية والعبرية ونقل عنهما . من اشعاره عندما حضرته الوفاة قوله :

اقول لنفسي حين قابلها الردى
فراغت فرارا منه يسرى الى يمنى
قري، تحلي بعض الذي تكرهينه
فقد طالما اعتدت الفرار الى الاهنى(١٩٦)

* محمد بن يحيى بن هشام الخضراوي الانصاري الخزرجي ، ابوعبدالله المعروف بابن البرذعي ولد في الجزيرة الخضراء سنة ٥٧٥هـ / ١١٨٠م وتوفي بتونس ٨٤٦هـ / ١٢٤٨م من مؤلفاته : « النخب » يبحث في مسائل فقهية مختلفة ، ومكون من عدة اجزاء ، و« الافصاح في شرح كتاب الايضاح(١٩٧) » غرة الاصباح في شرح ابيات الايضاح » .

* محمد بن يحيى بن محمد الغساني البرجي الغرناطي المكنى بأبي القاسم ، أديب من أعيان الكتاب الاندلس . ولد في مدينة برجه (Berja) الواقعة شرقي الاندلس سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م، نشأ ودرس في مدينة غرناطة ، وبعد اتمام دراسته انتقل الى مدينة فاس وتولى خطة الكتابة عند السلطان أبي المريني ، واصبح صاحب الانشاء والسر في دولته وسمي بذي الوزارتين ، وبعد ممارسته للمهنة تركها بعد ان غادر مدينة فاس متوجها الى مكة لاداء فرضة الحج وبعد اتمامها عاد الى فاس حيث تسلم قضاء الجماعة في المدينة ثم ترك المهنة بعد تركه المدينة متوجها الى مدينة بجاية (Bougie) بالمغرب الاوسط فعمل ببلاط السلطان أبي يحيى ثم ابنه محمد ، ورحل مع نجله محمد هذا الى تلمسان ، واختاره السلطان ابويحيى قاضيا على عساكر جنده ، وبقي في هذه الخطة الى ان وافته المنية ببجاية سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م ودفن فيها ، وكان يتقن الى جانب عمله كثيرا من المهن اليدوية يستعين فيها على حياته المعيشية عند الحاجة(١٩٩) .

* محمد بن يخلفتن بن احمد الفازازي البربري التلمساني ، المكنى بأبي عبدالله اعتبر من القضاة والكتاب البارزين ، امتاز بتبحره في فقه مالك . له شعر رائق وكتابات بليغة اتخذه الخليفة محمد بن يعقوب الموحدي كاتبا من كتاب دواوينه ، ولي القضاء بمرسيه شرق الاندلس ، واعيد الى مهنة الكتابة عند الامير محمد بن يعقوب الموحدي سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م ثم غادر بلاطه متوجها الى قرطبة ، وهناك تسلم خطة القضاء فيها وبقي يمارسها الى ان توفي بالمدينة سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ودفن فيها(٢٠٠) .

* مكي بن ابي طالب حموش بن محمد بن مختار الاندلسي القيسي ، يكنى بأبي محمد ولد بمدينة القيروان سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م، تلقى علومه الاولى فيها ، ثم غادرها متجها الى مدينة قرطبة بالاندلس سنة ٣٩٣هـ /١٠٠٢م وخطب في جامعها ودرس ، توفي بمدينة قرطبة سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م من اهم مؤلفاته : « مشكل اعراب القران(٢٠١) » « الكشف عن وجوه القراءات وعللها(٢٠٢)» وغيرها من المؤلفات .

* محمد بن احمد بن ابراهيم بن عيسى بن جراح الخزرجي من اهل جيان ، ويعرف بالبغدادي لطول سكناه فيها ، روى الحديث عن ابي علي الغسان ، وابي محمد بن عتاب ورحل حاجا فلقي ابا الحسن الطبري المعروف بالكيا ، وابا طالب الزينبي ، وابابكر الشاشي وغيرهم ، وكان فقيها مشاورا ، اخذ عنه الحديث ابوعبدالله النميري وابومحمد بن عبيدالله توفي بفاس سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م(٢٠٣).

* محمد بن عبدالله (بن محمد بن عبدالله) بن سعيد بن علي بن احمد السلماني نسبة الى سلمان وهو حي من مراد عرب اليمن القحطانية دخل الاندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشام ، اما لسان الدين لقب من الالقاب المشرقية لقب به ولم يفصح عن سببه ووقته ، وهذه الالقاب وما يماثلها كانت شائعة بالمشرق وخاصة في مصر ، ولد لسان الدين في مدينة لوشه (Loja)[٢٠٤] في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣ هـ الموافق لـ ١٦ نوفمبر ١٣١٣م، درس في غرناطة ، وشغف بالعلوم الطبية والفلسفية ، ويرجع الفضل في تنمية هذه الرغبة عنده الى العالم المشهور يحيى بن هذيل ، كما برع في قرض الشعر ، وتجلى نبوغه في الادب العربي وهو في باكورة شبابه . ولم يقتصر عمل ابن الخطيب على الناحية العلمية بل تعداها الى الناحية السياسية فعمل في البلاط الغرناطي وبفضل مهارته وذكائه اصبح الوزير الاول لأبي الحجاج يوسف الاول وابنه محمد الخامس الغني[٢٠٥] بالله ولم يقتصر نشاط ابن الخطيب السياسي على مملكة غرناطة فحسب . بل امتد الى بلاط المغرب المريني بفاس وبلاط بني زيان بتلمسان ، وبلاط الحفصيين بتونس ، واجادت سياسته مع الممالك الاسبانية المسيحية مثل قشتاله واراجون والبرتغال، يشهد على ذلك الرسائل العديدة المتبادلة بين هذه الممالك وبينه بصفته وزير غرناطة مكتوبة باللغتين العربية والقشتالية[٢٠٦] . والى جانب نشاطه السياسي مهر في صناعة الطب والشعر والكتابة ، ويظهر هذا واضحا في قوله :

الطب والشعر والكتابة * سماتنا في بني النجابة

وعرف عن ابن الخطيب انه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف يساعده في ذلك ارق اصابه بينما يخصص النهار لشؤون الحكم والسياسة ولهذا لقب (بذي العمرين). ولم يقتصر نشاطه على الميدان العلمي ، فقد اختلطت حياته العلمية بالحياة السياسية ، فاستفاد من مركزه السياسي بالاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة في قصر الحمراء واستخدم مادتها التاريخية في مؤلفاته . لكن مواهبه العلمية كان لها الاثر الكبير في تقوية مركزه السياسي ، وذلك عن طريق الرسائل والقصائد والحكم والنصائح التي كان يرسلها الى ملوك عصره من المسلمين والمسيحيين ، فكان لها تأثير كبير عليهم وكثيرا ما استجابوا لنصيحته . وفي سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م حدث انقلاب في مملكة غرناطة ادى الى خلع سلطانها محمد الغني بالله ، وتولية اخيه اسماعيل بن يوسف مكانه . وقد تمكن السلطان المخلوع من الفرار الى المغرب الاقصى ، والالتجاء الى سلطانه أبي سالم ابراهيم المريني وصحب السلطان محمد الخامس الى المغرب بعض افراد حاشيته ومماليكه ووزرائه بالذكر وزيره لسان الدين بن الخطيب . وقد رحب بهم سلطان المغرب وانزالهم في بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية . ودامت مدة النفي في المغرب ثلاث سنوات (٧٦٠ ـ ٧٦٣هـ) = ١٣٥٨ ـ ١٣٦١م ولم يخلد فيها ابن الخطيب الى الراحة والخمول ، بل عكف على القراءة والكتابة والتأليف وقرض الشعر ، والتنقل بين البلدان المغربية لمشاهدة آثارها والاتصال بعلمائها . ثم انتهى به المطاف الى مدينة سلا (بجوار مدينة الرباط) حيث استقر بها وبضاحيتها « شالة » (Chella) مرابطا بجوار اضرحة ملوك بني مرين . وتشاء الاقدار ان يصاب ابن الخطيب في اقرب واعز الناس اليه فتموت زوجته وام اولاده التي كانت تقيم معه في بلاد الغربة ، وهناك تشتد الامه ، وتغمره موجة من الحزن والتصوف تظهر آثارها في شعره ونثره ، من قوله :

روع بالي وهاج بليالي
وسامني الثكل بعد اقبال
ذخيرتي حين خانني زمني
وعدتي في اشتداد اهوالي

لكن الكوارث لم تحد من نشاطه العلمي المتمثل في تآليفه العديدة في مختلف العلوم والفنون منها : اللمحة البدرية في الدولة النصرية[٢٠٧]، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب[٢٠٨]، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار[٢٠٩]، الحلل في نظم الدول[٢١٠]، كناشة الدكان بعد انتقال السكان[٢١١] الاحاطة في تاريخ غرناطة[٢١٢]، المكاتبات الدبلوماسية بين غرناطة وفاس في القرن الرابع عشر للميلاد ، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل احتلام من ملوك الاسلام . اما عن موته ، فقد اتهم بالزندقة وتمت محاكمته بمحضر رجال الدولة الغرناطية والمرينية وفقهاء البلدين ، وقاموا بتعذيبه امام الملأ ثم اعادته الى سجنه وعرف ارجل نهايته فنظم وهو في السجن قبل موته ابياتا بين فيها مصيره بقوله :

بعدنا وان جاورتنا البيوت
وجئنا بوعظ ونحن صموت
وانفاسنا سكنت دفعة
كجهر الصلاة تلاة القنوت

وكنا عظاما فصرنا عظاما
وكنا نقوت فها نحن قوت
فقل للعد اذهب ابن الخطيب
وفات ومن ذا الذي لا يفوت

وحكم عليه بالقتل ونفذ الحكم في اوائل ربيع الثاني سنة ٧٧٦هـ / آب ١٣٧٤م(٢١٣) .

* محمد بن عبدالله بن خالد البجائي يكنى بأبي عبدالله معروف بابن النباش ، كان طبيبا مواظبا على علاج مرضاه، وله معرفة جيدة في العلوم الطبيعية والفلسفية ، اتخذ من مدينة مرسية بالاندلس مقرا ، ولم يشر ابن أبي اصيبعة عن تاريخ وفاته ، ولعله توفي في اواخر القرن الخامس للهجرة(٢١٤) .

* محمد بن الحسين التميمي الطبني يكنى بأبي مضر ، غادر مدينة طبنه بالمغرب الاوسط قاصدا الاندلس سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م في عهد الفاطميين ، ونزل على المنصور بن أبي عامر بالاندلس ، فأكرمه وعينه على شرطته ، وكان صاحب دراية في الشعر واخبار العرب وانسابهم حدثت له حادثة مع المنصور ، مؤداها ان جارية المنصور غنت في حضرة سيدها بوجود الطبني بيتين من الشعر للطبني وهما :
حننت نلبية الرصافة عنا
وهي اشهى من كل ما يتمنى
هجرتنا فما اليها سبيل
غير انا نقول كانت وكنا

فطرب ابومضر الطبني لذلك وطلب منها اعادتها ، فغضب المنصور وأومأ لخصيانه بقتلها ووضع رأسها في طست ، ثم قال له المنصور : مرها فلتعد غناءها . فادرك خطأه وندم على فعلته لأنه كان سببا في قتلها . من شعره في الرثاء ، قال يعزي المنصور بوزيره المقتول حسن بن أحمد .
لاشك ان سجال الحرب مختلف
فيما روى مذ كانوا ومذ عرفوا
هون عليك فنصر الله يعقبه
يارب كره الى المحبوب ينصرف
ياعزة السعد الميمون طائره
لا تكترث فاليك النصر ينعطف

توفي بالاندلس في كنف الدولة العامرية سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣م(٢١٥).

* محمد بن احمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الاشبيلي المكنى بأبي بكر(٢١٦) المولود سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١م . ويرجع بأصله الى مدينة « أبدة » من عمل جيان والمدينة وما ولاها ملك لليعمريين بالاندلس ، قرأ باشبيلية واخذ علومه الاولى عن الفقيه أبي العباس، وابي محمد عبدالرحمن بن علي بن احمد الزهري(٢١٧)، وابي العباس احمد بن محمد بن مقدام الرعيني(٢١٨) ، وابي حفص عمر بن عبدالله بن عمر السلمي(٢١٩)، وابي عمران موسى بن حسين القيسي(٢٢٠) الزاهد ، وابي الحجاج ابن الشيخ(٢٢١)، وابي ذر مصعب بن محمد الخشني(٢٢٢) ، وابي الحسن بن خروف النحوي ، وابي الحسين ابن جبير ، وابي القاسم الملاحي وغيرهم ، واجاز له من اهل المشرق ابومحمد بن يونس بن ابي البركات الهاشمي وابوعمر عثمان بن عبدالرحمن محمد الانصاري الحرستاني ، وابوالحسن المؤيد بن محمد بن علي الطوسي وغيرهم(٢٢٤) . وكان اذا قرأ الحديث يسنده الى ان ينتهي الى النبي ، ثم اذا انتهى الاسناد رجع الى ذكر رجاله ، فيبدأ من الصحابي الذي يروي عنه ، فيذكر اسمه ونسبه وصفته وتاريخ ولادته ووفاته وسيرته ثم يتلوه التابعي ولايزال ينتقل من شخص لآخر الى ان ينتهي الى شيخه . عرف بسعة علمه ودرايته في الرواية ، ومعرفته في القراءات ، ولي صلاة الفرائض والخطبة بالجامع الاعظم ببجاية ، ومارس فيها الى جانب امامته قراءة القرآن واسماع الحديث وذاع صيته حتى وصل الى الامير الحفصي المستنصر بالله فاستدعاه، ولما مثل بين يديه طلب منه ان يقرأ شيئا من القرآن ، فقرأ الآية الكريمة (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت ..) فاستصوب قصده واستحسن قراءته . وكانت له ذاكرة حديدية عرف بقوة الاستظهار فقد بلغ مما حفظه من الاحاديث عشرة آلاف حديث باسانيدها . وبرع في فنون اللغة وتقصي اوضاع النحاة وضروب المقالات ، امتاز بحسن نظمه ، له قصيدة في توضيح مقاصد الحج على قافية الغين هي :
ايا سائر نحو الحجاز قصده
الى الكعبة البيت الحرام بلاغ
ومنه الى قبر النبي محمد
يكون له بالروضتين مراغ
فبلغت ما املت كم ذا اراغه
اناس نسوا قصد السبيل فراغ

كل ظاهري المذهب ، توفي بتونس سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١ م(٢٢٥) .

* محمد بن عبدالله بن داود بن خطاب الغافقي الاندلسي ، ابوبكر ، اديب ، كاتب عالم بأصول الفقه ، ولد بمدينة مرسية واستكتبه ملوك غرناطة ثم رحل الى تلمسان وعمل كاتبا عند السلطان يغمراسن بن زيان وبقي في وظيفته الى ان مات سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م(٢٢٦) .

* محمد بن محمد بن ابراهيم بن عيسى بن داود الحميري المالقي المكنى بأبي عبدالله تقلب في مناصب سياسة عدة ، واخيرا استقر به المطاف بالمغرب ، ورغم استقراره الا انه كان كثير الشكوى قلقا يشعر في الغربة دائما من قوله :

يانازحين ولم افارق منهم
شوقا تأجج في الضلوع ضرامه
غيبتكم عن ناظري وشخصكم
حيث استقر من الضلوع مقامه
رمت النوى شملي فشتته نظمه
والبيت رام لا تطيش سهامه

* محمد بن احمد بن أبي الفضل سعيد بن صعد الانصاري الاندلسي المكنى بأبي عبدالله ، نزل بتلمسان وسمي بها .

من اهم مؤلفاته : النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المفاخر والمناقب ، رتبت الاعلام فيه على حروف المعجم مثلما فعل ابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) وهو كتاب جد مفيد يقع في اربعة مجلدات(٢٢٨) .

* المقري الجد ابوعبدالله ، ولد في عهد امير المسلمين ابي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن الذي حكم تلمسان ما بين سنة ٧٠٧ ـ ٧١٨هـ / ١٣٠٧ ـ ١٣١٨م بعد فك الحصار الذي ضربه عليها السلطان ابوالحسن المريني .

ورث عن ابيه خزانة كتب تحتوي على مجموعة متنوعة من مختلف العلوم والفنون ، فانكب على دراستها منذ بواكير شبابه ، ساعده في ذلك اتصاله بعلماء تلمسان منهم ابوزيد وابوموسى المعروفين في كتب الطبقات والتاريخ بابني الامام ، كان يحضر المجالس العلمية التي كان يعقدها السلطان ابوتاشفين عبدالرحمن بن ابي حمو بمشوره(٢٢٩) بتلمسان درس المقرى الجد على ابن مرزوق العجيسي وعلى غيره من علماء تلمسان ، وكانت الثقافة في ذاك العصر شمولية تشتمل على مناهج العلوم العقلية والشرعية والادبية مع الاشواق الروحية والاذواق الصوفية حتى ان الباحث في افكار ذلك العصر يخيل اليه ان الفكر الصوفي غزا النحاة والشعراء والفقهاء على اختلاف مشاربهم . ففي الاندلس واقطار المغرب كان النفوذ للمالكية في الفقه والتشريع ، والاشاعرة في التوحيد والعقائد، فان هؤلاء واولئك لم يكونوا بمعزل عن الذوق الصوفي والمساهمة في الادب الروحي ، ويستشف من قصائد المقري بانه كان من هذا النوع من العلماء سواء في رسالته المسماة بالحقائق والرقائق او تائية التي يعارض فيها تائية ابن الفارض، وهي تعطينا صورة واضحة عن الجو الفكري الذي كان يعيش فيه ، فقد غادر تلمسان متجها نحو بجاية حاضرة الحفصيين يومذاك ، تاركا السياسة منكبا على العلم ، وبعد مكوثه مدة غادرها عائدا الى بلده تلمسان(٢٣٢) ليقوم برحلة الى المشرق قصد تأدية فريضة الحج وذلك سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م وبعد الانتهاء من اداء الفريضة توجه الى دمشق وهناك التقى بعلمائها منهم ، شمس الدين بن قيم الجوزية ، ثم تابع سيره نحو القدس فنزل بها واخذ عن علمائها فكانت هذه الرحلة سببا في ربط الاسانيد عند اهل المغرب والاندلس بأسانيد علماء مصر والحجاز والشام . ومع الاسف لم نستطع القاء الضوء الكافي على رحلته بالمشرق لفقدان فهرسة شيوخه التي سماها (نظم اللآلىء في ملوك الامالي) ولما عاد الى تونس وجد خصومة سياسية وقعت بين ابي الحسن المريني وابنه ابي عنان في الحصول على السلطة ، ومات الاب وبقي الابن ، وعين السلطان ابوعنان المقري الجد قاضي الجماعة بفاس ، واصبح فيها عمدة القضاء والتدريس ونال مكانة مرموقة بسبب عدله وضبط احكامه، واعجب به السلطان ابوعنان فعينه الى جانب وظيفته مدرسا في المدرسة التي سميت باسمه ثم كلفه بالقيام بسفارة للاندلس سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م، وهناك استقر بغرناطة ولم يرد ان يعود الى فاس مما اثار حفيظة السلطان ابي عنان وهدده بالقتل ان لم يرجع ، ولكن ابن الخطيب رجا السلطان بالعفو عنه فوافقه على ذلك ، ورجع الى المغرب وعينه اميرا للجند اثناء رحلته الى قسنطينة والزاب واثناءها اصيب بمرض فرجع الى فارس وهناك فارق الحياة سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م ونقل جثمانه الى تلمسان حيث دفن فيها .

من اهم مؤلفاته : كتاب القواعد الشهير في الفقه ، وكتاب الظروف والتحف ، وكتاب عمل من طب لمن حب ، وكتاب المحاضرات، ونظم اللآلىء في اسلاك الامالي ، وغيرها من المؤلفات الاخرى ولعل الرجل اثر في بعض ممن نبغوا من بعده امثال

الشاطبي في كتابه الموافقات والاعتصام ، كما اثر بابن الخطيب ، وابن خلدون وغيرهما من العلماء الذين اثنوا عليه ثناء حسنا عند الاشارة الى شيوخهم في مؤلفاتهم(٢٣٣) .

* مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن المرحل السبتي ، نسبة الى سبتة مولده بمالقه بالاندلس سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م، يرجع باصوله الى قبيلة مصمودة البربرية ، ينتمي لبني مخزوم بالولاء نزل جده الخامس في وادي الحجارة بمدينة فرج مما ساعده في المكوث بسبتة يتعاطى فيها صناعة التوثيق ، ثم ما لبث ان ترك هذه المهنة وعين قاضيا على بعض جهات المدينة ، لكنه ما لبث ان غادر المدينة متجها الى مدينة فاس وهناك اتصل بأمير المسلمين يعقوب المنصور المريني ، ومكث في المدينة حتى وافته المنية سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م ودفن خارج باب الحيسة احد ابواب مدينة فاس مهر في القراءات القرآنية ، وفي الادب والشعر ، فكان يتمتع بذاكرة قوية في حفظ الشعر رغم كبر سنه ، من شعره وقد جاوز الثمانين من عمره قوله :

يا ايها الشيخ الذي عمره
قد زاد عشرا بعد سبعينا
سكرت من اكواس خمر الصبا
فحدك الدهر ثمانينا

ومن شعره في وصف مدينة سبتة قوله :
اخطر على سبتة وانظر
الى جمالها تصبو الى حسنه
كأنها غناء وقد القي
في البحر على بطنه

وله ايضا :
ابت همتي ان يراني امرؤ
على الدهر يوما له ذا خضوع
وما ذاك الا لأني اتقيت
بعز القناعة ذل الخضوع

ومن نظمه مجيبا ابن الاحمر عندما كتب الى امير المسلمين يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني مستنجدا اجابه بقوله :

شهد الاله وانت يا ارض اشهدي
انا اجبنا صرخة المستنجد
ولما دعا الداعي وردد صوته
قمنا لنصرته ولم نتردد

والقصيدة طويلة ورائعة، رد عليها ابن الاحمر الملقب بابن المرابط بقصيدة بمثل طولها ، مطلعها :

قل للعداة وللبغاة الحسد
يعقوب والدنا مكان محمد
وبنو مرين كلهم اخواننا
والدين اخى بين امة احمد

من شيوخه ، ابوالعباس احمد بن علي بن محمد المعروف بابن الفحام أخذ عنه علم القراءات ، واخذ عن القاضي أبي القاسم بن بقي ، وابي الحسن الدباح ، والنحوى ابي علي الشلوبين .

من مؤلفاته : التبين والتبصير لكتاب التيسير ، في قصيدة لامية الالف عارض بها الشاطبي ، ونظم غريب القرآن ، لابن عزيز في ارجوزة ، ونظم قصيدة في الفرائض، ثم اختصار اصلاح المنطق لابن الغربي وكتاب (الفصيح) وشرحه ، ورتب الامثال لأبي عبيد على حروف المعجم(٢٣٤) .

* محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد الحميري الحجري . بفتح الحاء وسكون الجيم الرعيني ، نسبة الى حجر ذي رعين ويعرف بابن خميس التلمساني . ولد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م تلقى علومه فيها ، ونبغ في الفقه والادب والشعر ، رحل الى مدينة سبتة واقام عند امرائها من بني العزفي الذي مدحهم في اشعاره ، ثم غادرها قاصدا الاندلس فنزل بمدينة غرناطة في اواخر سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، عاش في كنف وزير دولة بني الاحمر ابي عبدالله بن الحكيم الذي مدحه ابن خميس في كثير من شعره واثنى عليه في كثير من نظمه ، والى جانب موهبته الشعرية كان صاحب مهنة يدوية ، فقد صنع قدحا من الشمع، على ابدع ما يكون في شكله . عرف بتعاطيه للحشيش والخمر وان كان يفضل الاولى على الثانية وهذا ما يظهر في شعره واضحا .

دع الخمر واشرب مدامة حيدر
معتقة خضراء لون الزبرجد
يعاطيكها بدر من الانس اغير
يميل على غصن من الباب املد
هي البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت بالرجل يوما ولا اليد
ولا عبث القسيس يوما بدنها
ولا قربوا من ونها نفس ملحد

ومن اقواله :... واشرب من مدامة حيدر . وهو حيدرة بن يحيى من علماء بغداد له فتوى في اباحتها وكان يستبيحها قولا وفعلا(٢٣٦) .

* محمد بن احمد بن محمد بن محمد بن فرج بن شقر اللخمي . من اهل المرية بالاندلس ، يكنى

بأبي عبدالله ويعرف بالطرسوني ، أخذ عن ابي الحسن بن ابي العيش القراءات السبع ، وتعلم عليه العربية ، وتأدب على يديه ، رحل الى الحاضرة غرناطة ، فأخذ بها عن الاستاذ ابي جعفر بن الزبير ، واخذ عن الشيخ الصوفي ابي تمام غالب بن حسن بن سيد بونة[٢٣٧] الخزاعي ، واصهر اليه بأن تزوج احدى بنات عمومته ، كما اخذ عن الاستاذ ابي الحسن علي بن عمر بن ابراهيم الكناني القبجاتي ، وابي الحسن بن سمعوت، وابي عبدالله بن رشيد ، وابي جعفر بن الزرياب وغيرهم . واخذ بتونس عن المقرىء ابي عبدالله محمد بن احمد بن عبدالكريم بن جماعة التنوخي المهدي ، وعنه الف كتابه الموسوم بـ(تحصل الكفاية من الاختلاف في الواقع بين التيسير والتبصرة والكافي والهداية) . وهو كتاب قيم لا غنى للباحث عنه ، وله مساجلات شعرية بينه وبين ابن خاتمة منها ، قوله :

ولما كان بسط الخد حتما
لعزة قدرك الاعلى على محلا
وكان البعد يمنع ذاك مني
بعثت لكم مكان الخد نعلا

كان فيه فطنة وذكاء ، قال له يوما رئيس الكتاب ، ابوالحسن بن الجياب عندما عين مؤدبا قصد اللمز به هل وقفت على كتاب الجاحظ في المؤدبين ، فقال نعم ، ورأيت كتابه في الكتاب. تعلق في خدمة سلاطين غرناطة وبقي في خدمة البلاط الغرناطي الى ان حصلت جفوة بينه وبين الوزير ابي عبدالله محمد[٢٣٩] ، فاضطر الى ترك غرناطة والسفر الى المغرب متظاهرا للحج ولما علم وهو في المغرب الادنى بتونس بخبر موت الوزير كر راجعا الى غرناطة ولكن وافته المنية بالقرب من بونه (عنابة) سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م[٢٤٠] .

* محمد بن احمد بن حيان الاوسي الانصاري ابوعبدالله، الشيخ المقرىء المحدث الراوية الشاطبي نسبة الى مدينة شاطبة التي ولد فيها سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م واخذ علومه الاولى عن جماعة من القراء والمحدثين ، والادباء والفقهاء، امثال ، ابي عبدالله السوسي[٢٤١] وابي محمد بن برطلة[٢٤٢] ، وابي اسحاق بن عياش ، وابي عبدالله القحطاني ، وابي الحسن حاتم وغيرهم . اجازه عدد من علماء المشرق والمغرب ، منهم ابوالحسين بن السراج من بجاية ، رحل الى المشرق وابتدأ فهرسته باسماء شيوخه على حروف المعجم ولم يكملها . توفي ضحى يوم الجمعة الحادي عشر من رجب عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م ودفن بعد الصلاة بمقبرة جامع القصر داخل مدينة تونس[٢٤٣]

* محمد بن عبدالله الانصاري الاشبيلي السبتي ابوعبدالله او ابوعبيدالله، ولد باشبيلية يوم عيد الفطر سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م اخذ عن ابي الحسن علي ابن الديباج ، وابي فضل المقرىء وابي محمد بن ستاري ، وابي عبدالله بن المحل السبتي ، وابي الحسن الزيات ، توفي في ١٤ ذي القعدة سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م ببلدة سبتة[٢٤٤] .

* محمد بن محمد بن احمد بن سلبطور الهاشمي ، من اهل المرية يكنى ابا عبدالله من وجوه البلد واعيانه اخذ علم التلاوة عن ابي محمد بن محمد الحمي ، وتأدب على القاضي ابي الحسن علي بن ابي العيش ، وعلي ابي عثمان سعد بن ليون . عرف بعدة خصال جعلت السلطان ابا الحجاج الغرناطي يوكل اليه قيادة اسطول المنكب طوال فترة حكمه . وقد برع في نظم الشعر من اشعاره في مدح السلطان ابي الحجاج عند قدومه الى وادي الغيران الواقع بالقرب من مدينة المرية قوله :

اثغرك ام سمط من الدر ينظم
وريقك ام مسك به الراح يختم
ووجهك ام باد من الصبح نير
وفرعك ام داج من الليل مظلم

ومما ينسب اليه قوله :

قف وناد بين تلك الطلول
اين الآلاء كانوا عليها نزول
اين ليالينا بهم والمنى
نجنيه غضا بالرضى والقبول

رحل الى المغرب مستجيرا بسلطانها المريني خوفا من سلطان غرناطة وكان ذلك سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م نظم ابياتا من الشعر رد فيها على مولاه ابوالقاسم محمد بن خاتمة ردا على جواب بعثه اليه قال :

اعد ذكر تلك الليالي القصار
فقد قدح الشوق زند اذكار
وفاضت دموعي بفرط ولوعي
وبين ضلوعي هوى شب نار
فكم ذا اقاسي وقلبك قاس
ومالي أسي لطول النفار
أترضى مماتي وانت حياتي
اذا لم توات فكيف اصطبار
اطلت التجني واسهرت جفني
فكم ذا اعني لبعد المزار

توفي في آخر شوال سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥م[٢٤٧] ويظن انه دفن بمدينة فاس .

* محمد بن عباد المكنى بأبي عبدالله ولد ونشأ بمدينة رنده ، لكننا لم نعرف تاريخ ولادته ، درس القرآن الكريم على يد والده وحفظه وعمره سبع سنين ، درس اللغة العربية على يد خاله عبدالله القريشي ، واخذ علم القراءات على طريقة نافع بن العالم أبي الحسن الرندي ، وتابع دراسته في مدينتي فاس وتلمسان والتقى بعلماء الحاضرتين منهم ، قاضي الجماعة بمدينة فاس الغشتالي .

من صفاته ، شدة الحياء، وقول الحق والميل للسكوت ، سافر الى مدينة سلا بالقرب من الرباط وهناك التقى مع المتصوف احمد بن عاشر واقام معه سنين عديدة ، ولعله تأثر فيه فقويت نزعة التصوف عنده ، اشتغل ابن عباد مدة بتدريس عدة كتب منها ، مختصر ابن الحاجب ، ومقامات الحريري ، وفصيح ثعلب ، واشتغل في الخطابة والامامة بجامع القرويين مدة خمس عشرة سنة . وله شرح على حكم ابن عطاالله . وقال عنه الشيخ القسطنطيني : هو عند اهل فاس بمثابة الشافعي عند اهل مصر . واختلف ابن عباد في سلوكه عن المتصوفة ، فكان يلبس الثياب الخشنة ويستعمل الطيب ، شهد له بالولاية، توفي بمدينة فاس سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ودفن فيها[٢٥٠] .

* محمد بن احمد بن محمد بن عبدالله بن يحيى بن أبي بكر عبدالرحمن ـ الثائر بجيان ـ بن يوسف بن سعيد بن جزي الكلبي الغرناطي ، المتوفي بفاس سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م يكنى بأبي عبدالله ، من اهل غرناطة ، عمل كاتبا في بلاط السلطان أبي الحجاج يوسف ، ولكن ابا الحجاج غضب منه وابعده عنه ، مما اضطره للرحيل الى المغرب ، واستقر عند السلطان ابي عنان الى ان وافته المنية ودفن فيها .

كان من البارزين في علم الاصول والفروع والحديث، عارفا بضروب الشعر، قديمه وحديثه . من اشعاره في مدح السلطان الغرناطي ابي الحجاج يوسف بن ابي الوليد اسماعيل بن ابي سعيد فرج بن ابي الوليد اسماعيل بن الحجاج يوسف الشهير بالاحمر بن بكر محمد بن احمد بن محمد بن خميس بن نصر الخزرجي عندما كان يعمل في بلاطه مطلعها :

قسما بوضاح السنا الوهاج
من تحت مسدول الذواب داج
وبأبلج بالمسك خطت نونه
من فوق وسنان اللواحظ ساج

وتعد هذه القصيدة من غرائب قصائده .

وله قصيدة يمدح بها نفسه مطلعها :

لعلك لي عن حسن عهد مكافىء
فيسرع نحوي ودك المتباطىء
فديتك لايذهب بك البعد للتي
يسر بها منا حسود وشانىء

ومن انشائه ما كتبه الى السلطان ابي عنان فارس بن ابي الحسن علي بن ابي سعيد عثمان بن ابي يوسف يعقوب بن عبدالحق يهنئه بشفاء ولده وولي عهده ابي زيان محمد من مرض ألم به بدأها ببيتين من الشعر :

ماذا عسى ادب الكتاب يوضح
من خصال مجدك وهو الزاهر الزاهي
وما الفصيح بكليات موعبها
كاف فيأتي بأنباء وانباء

وينتقل الى كتابة رسالته : ابقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعادة .. القدح المعلى ، ولزاهر كماله التاج المحلي . تجلى من حلاه نزهة المخاطر . ويختمها بقوله ... وتتلى من محامدك الآيات البينات ، وتتوالى عليك الالطاف الالهيات ، بمن الله وفضله . والسلام الكريم يعتمد المقام العلي ، ورحمة الله وبركاته[٢٥١] .

* محمد بن عبدالله بن ابي بكر بن عبدالله بن عبدالرحمن ، ابوعبدالله القضاعي البلنسي الملقب بابن الآبار[٢٥٢]، ولد سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م في مدينة بلنسية[٢٥٢] الواقعة بشرق الاندلس ، درس على والده وعلى غيره من علماء المدينة ، عني بالحديث وجال في الاندلس ، وكتب في مختلف الفنون ، كان بصيرا بالرجال عالما بالتاريخ واماما في اللغة العربية ، فقيها في علم الفقه، له معرفة في البلاغة والانشاء .

من مؤلفاته : الحلة السيراء وهو عبارة عن مجموعة من تراجم الامراء والكبراء نشره دوزي مولر، المعجم في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي بن سكرة، طبعه كوديرا سنة ١٨٨٤م واعتمد ابن الآبار في تصنيف كتبه على مؤلفين عدة ذكر بعضهم في مؤلفاته منهم ابن حبيش (٥١٨ ـ ٥٨٤ هـ = ١١٢٥ ـ ١١٨٩م) قاضي مدينة استجه[٢٥٣]، وعبدالله بن سفيان التجيبي المتوفي سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، وابوعمر بن عياد

الكردي (٥٤٣ ـ ٦٠٢ هـ = ١١٤٩ ـ ١٢٠٦م) واحمد بن هارون النفزي (٥٤١ ـ ٦٠٨ هـ = ١١٤٧ ـ ١٢١٢م) من اهل شاطبة ، ومن كتبه ايضا (تحفة القادم) و (ايماض البرق) ، وعندما حاصر ملك اراجوان خايميي مدينة بلنسية ، فر ابن الآبار منها متجها الى تونس طالبا العون من سلطانها بقصيدة نظمها سميت بالسينية مطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا
ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وبقي يعمل في البلاط الحفصي بتونس كاتبا له ، ثم حدث ان غضب عليه السلطان ، فترك ابن الآبار تونس واستقر في مدينة بجاية حيث كتب كتابه (اعتاب الكتاب) ذكر فيه من عوتب او اعتب من الكتاب وعفي عنهم ، ثم رفعه الى السلطان ابي زكريا مستشفعا ولي عهده المستنصر بالله ، فعفا عنه السلطان واعاده الى الكتابة .

ولما مات السلطان ابوزكريا وخلفه ابنه المستنصر بالله سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م عاد ابن الآبار الى غطرسته مما اوغر صدور زملائه عليه فنسبوا له قصيدة طعن فيها الخليفة المستنصر يقول في مطلعها :

طغا بتونس خلف
سموه ظلما خليفة

فلما سمع الخليفة بالخبر استدعاه فايقن بالهلاك، فقال لغلامه : خذ البغلة وامض بها حيث شئت ، وقتل في ٢١ محرم سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م وحرقت جميع مؤلفاته .

نبغ في الشعر الى جانب الادب من قوله :

امري عجيب في الامور
بين التواري والظهور
مستعمل عند المغيب
ومهمل عند الحضور

ومن قوله في الغزل :

مر قوم الخد مورده
يكسوني السقم مجرده
شفاف الدر له جسد
بأبي ما اودع مجسده
في وجنته من نعمته
جمر بفؤادي موقده
ريم يرمي عن اكحله
زرقا تصمي من يصمده

وحصلت ما بينه وبين علي بن شلوبين المعافري البلنسي مساجلة شعرية ، قال ابن شلوبين فيه :

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع الناس
صادرة عن الآبار
اوليس فارا خلقة وخليفة
والفا مجبول على الاضرار

فأجابه ابن الآبار :

قل لابن شلوبين مقال تنزه
غير يجاريك الهجاء فجار

والقصيدة طويلة[٢٥٤] .

* ورقاء بنت ينتاب تلقب بالحاجة ، شاعرة اندلسية من اهل طليطلة ، سكنت مدينة فاس وكانت حافظة للقرآن بارعة الخط[٢٥٥].

* يوسف بن يحيى بن يوسف الازدي المعروف بالمقامي[٢٥٦]، من اهل قرطبة ، يكنى ابا عمر واصله من طليطلة ، سمع من يحيى بن يحيى، وسعيد بن حسان ، وروى عن عبدالملك بن حبيب رحل الى مصر ، فسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي ، وبمكة من علي بن عبدالعزيز ، ودخل صنعاء فسمع بها من ابي يعقوب الديري صاحب عبدالرزاق وغيره ، وانصرف الى الاندلس ، وكان حافظا للفقه ضليعا فيه فصيحا بصيرا باللغة ، اقام بعد انصرافه بقرطبة اعواما ، ثم انصرف الى المشرق لمدة اربع سنوات ايام الامير ، عبدالله بن بلقين[٢٥٧]، فسكن مصر ، وسمع الناس منه بها ، وذهب مذهب الحجازيين في الفقه ، امتاز الى جانب علمه بفقه البدن ، توفي بالقيروان سنة ٢٨٨هـ / ٩٠١م وصلي عليه بباب مسلم ، وكان المقدم للصلاة حمديس القطان[٢٥٨] .

من مؤلفاته : فضائل عمر بن عبدالعزيز ، فضائل مالك ، الرد على الشافعي في عشرة اجزاء .

* يحيى بن احمد بن محمد بن حسن بن القس الزندي النفزي الحميري، ابوزكريا المعروف بالسراج ، الاندلسي الفاسي ، عالم بالحديث كان مسند فاس في عصره ، انتهت اليه رئاسة الحديث بفاس[٢٥٩] التي ضمت رفاته .

* يحيى بن عبدالجليل بن عبدالرحمن بن مجبر الفهري ، ابوبكر ، شاعر المغرب في زمنه ، عالي الهمة من اهل بلش بمالقة وتسمى اليوم (Velezmalaga) نزل مراكش واتصل بالملوك والامراء وله فيهم شعر كثير توفي بها[٢٦٠] .

* يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني الاندلسي الجياني ، ابوزكريا ولد سنة

٢١٣هـ / ٨٢٨م، تبحر بالفقه المالكي عالم بالحديث من موالي بني امية من اهل جيان نشأ بقرطبة وسكن القيروان ، ورحل الى المشرق ثم استوطن سوسة وتوفي فيها سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م وبها قبره[٢٦١] له مصنفات بلغت اربعين مصنفا منها (المنتخبة) في اختصار المستخرجة ، وهو كتاب فقهي ، وكتاب (اهمية الحصون) و (الوسوسة) و (النساء) و (فضائل المنستير والرباط) و (الرد على الشافعي) و (الرد على الشكوكية) و (احكام السوق) وهو كتاب مطبوع .

* يحيى بن يحيى بن ابي عيسى كثير بن وسلاس الليثي بالولاء ابومحمد ولد بطنجة سنة ٦٥٢هـ / ٧٦٩م، يعد عالم الاندلس في عصره ، ويرجع بأرومته الى قبيلة مصمودة البربرية الموجودة بطنجة، رحل الى قرطبة وتلقى فيها علومه الاولى، ثم انتقل الى المشرق، فسمع الموطأ من الامام مالك ، واخذ عن علماء مكة ومصر وعاد الى الاندلس، فنشر فيها مذهب مالك ، وعلا شأنه عند السلطان فكان لا يولي قاضيا في اي بقعة من بقاع الاندلس الا بعد مشورته واختياره ولكنه لم يمارس ولاية القضاء ، وكان يختار رجال القضاء ممن هم على مذهبه . قال الامام مالك عنه هذا عاقل اهل الاندلس توفي بمدينة قرطبة سنة ٢٣٤ هـ ٨٤٩م[٢٦٢] .

وبعد ، يتبين لنا من هذا البحث مدى اهمية العلماء في صنع الوحدة الثقافية والازدهار العلمي بين البلدين ، فكانت القيروان محطة لعبور اهل المشرق للاندلس وعبور اهل الاندلس للمشرق وفي نقل التراث الحضاري المشرقي الى البلدين ، وفي ايجاد مدارس لتدريس في مدن المغرب والاندلس ينهل منها الطلبة علومهم المختلفة بالاضافة الى عقد الحلقات العلمية بين العلماء والادباء ، حتى اصبحت مدن البلدين اشبه بالبصرة والكوفة وبغداد وغيرها من المدن الاسلامية ، مما ادى الى اتساع المعرفة وتعدد الاختصاصات ، ونمو الفقه المالكي وسيطرته على المذاهب الاخرى بفضل علمائه في كلا البلدين حيث كان المذهب الرسمي لشعب البلدين ، ومازال الى يومنا هذا المذهب السائد في المغرب كله .

الهوامش

١ ـ المقري، احمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق ـ احسان عباس ، ط بيروت سنة ١٩٦٨ جـ ٥ ص ٥ .

٢ ـ العبادي ـ احمد مختار، من التراث العربي الاسباني ، نماذج لاهم المصادر العربية والحوليات الاسبانية التي تأثرت بها ، عالم الفكر، مج (٨) ع (١) ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٧٧ الكويت ص ٤١ .

٣ ـ Talabi — Mohamed, Lesrelations entre L'Ifriqiya et l'Espagnemusulmane au III/Ives. Cahires detunisie Tomexv III/1970. P.69 — 70.

٤ ـ الخشني ، ابوعبدالله محمد بن الحارث القروي ، قضاة قرطبة ، نشر روبيرا مدريد ١٩١٤، ص ٩٦، ١٢٨، ١٣٩، تحقيق ابراهيم الابياري ، دار الكتاب ـ بيروت ط (١) ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢م، ص ١٣٩، وانظر ايضا : العبادي ـ احمد مختار ، من التراث العربي ص ٣٩ وما بعدها .

٥ ـ انخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي، تعريب ـ حسين مؤنس ط (١) القاهرة ١٩٥٥م، ص ٢٧١ .

٦ ـ اهتم المستشرقون بنشره وترجمته، منهم بتروف (Petrof) الروسي ، نيكل Nyke الامريكي ، وبريشه Bercher الفرنسي وغوسيه جومث GarciaGomez الاسباني، راجع العبادي ، من التراث العربي ص ٥١ .

٧ ـ الشيال ـ جمال الدين، اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٥ .

٨ ـ طبع سراج الملوك في القاهرة عدة طبعات ، اقدمها طبعة بولاق سنة ١٢٨٩م، واهتم المستشرقون به ، امثال دوزي الذي نقل اجزاء كثيرة منه في كتابه المعروف باسم (بحوث في تاريخ وادب اسبانيا) الجزء الثاني ، كما نقل منه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في كتابه (اسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي) وترجمة المؤرخ الاسباني الذي ترجم الكتاب كله الى الاسبانية وقدم له دراسة مفيدة . راجع :

— Recherches Sur l'histoire et Laliterture de Es pagne, Amester dam 1965.
— L'Es pagne musulmane auxeme siecle, Paris 1932.
— Alarcon: Lampara de los principes, 2Tomes (Madrid) 1931.

٩ - راجع، المقري، نفح الطيب جـ ٥ ص ١٨٦ .

١٠ - ابن الربيب ، هو ابوعلي الحسن بن محمد بن احمد التميمي تلميذ القزاز توفي سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م. راجع
Chedly — Bouyahia, Lavie Literaire en Ifriqiya
leszirides. Tunis 1972, P.102.

١١ - راجع، المنجد- صلاح الدين، فضائل الاندلس، دار الكتاب بيروت ١٩٦٨م.

١٢ - راجع ، سالم - عبدالعزيز ، مدينة مرسية، مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية العدد (٣) سنة ١٩٦٩م ص ١٠ وما بعدها .

١٣ - الزركشي، ابوعبدالله محمد ابراهيم ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق - محمد ماضور ، المكتبة العتيقة تونس سنة ١٩٦٦م، ص ٢٧ .

١٤ - عبدالعزيز - سالم ، مدينة المرسية ص ١٨ .

١٥ - راجع ، ابن عاشر الحافي ، تحفة الزائر ، مخطوط بالخزانة العامة الرباط ورقة ٢ - ١٠، ابن علي محمد الدكالي ، الاتحاف الوجيز، مخطوط بالخزانة العامة الرباط، ورقة ٤١، المقري، احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٩١ ترجمة (الولي بن عاشر) .

١٦ - حدثنا عبدالله حدثني ابي ثنا ابوالمغيرة ثنا صفوان حدثني شريح يعني ابن عبيد قال ذكر اهل الشام عند علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو بالعراق فقالوا : العنهم يا أمير المؤمنين . قال : لا اني سمعت رسول الله (ص) يقول : الابدال يكونون بالشام وهم اربعون رجلا كلما مات رجل ، ابدل الله مكانه رجلا يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الاعداء ويصرف عن اهل الشام بهم العذاب . حديث شريف رواه الامام احمد المسند - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ط (١) سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م جـ ١ ص ١١٢ ، وعن الابدال ايضا راجع ، المسند جـ ٥ ص ٣٢٢ .

١٧ - راجع ، حركات ابراهيم ، الحياة الدينية في المعهد المريني ، البحث العلمي ١٦/س ٢٩ - ٣٠/ع، الرباط ١٩٧٩م ص ٢٢٤، دعوة الحق، ٢/ع ٧/س نوفمبر ١٩٦٣ جمادي الثانية ١٣٨٣ هـ ص ٨ - ٩ .

١٨ - ابوالوليد - اسماعيل بن الاحمر ، نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان ، تحقيق محمد رضوان الديه ، مؤسسة الرسالة (١) دمشق ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م ص ٧ وما بعدها .

١٩ - فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبدالحق، تولى الامارة بعد ابيه الأمير ابي الحسن علي بن عثمان سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م، ومات خنقا سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م .

٢٠ - عرف بأبن اجروم النحوي المقرىء الشهير ويكنى بـأبي عبدالله سنـة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م ومات بفـاس سنة ٧٢٣هـ / ١١٢٣م أخذ عن أبي جيان وعنه اخذ محمد بن علي الغساني وله غير الآجرومية ، شرح حرز الاماني في القراءات ونظم في قراءة نافع سماه البارع . راجع، عبدالله كنون، النبوغ المغربي في الادب العربي ط (٢) بيروت ١٩٦١م ص ٢١٠ .

٢١ - ابوعلي الحسن بن عثمان بن عطية الونشرسي ، كان فقيها عدلا من اهل الحساب والقيام على الفرائض، وله عناية بفروع الفقه ولد سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م راجع ، المقري ، نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

٢٢ - من قبيلة قشتاله سكنت الجزء الشمالي الغربي من مدينة فاس ، ويرى بعضهم بأنه ينتسب الى مدينة قشتاله بالاندلس ومنهم خيرالدين الزركلي ، ويرى كنون انه مغربي وان قشتاله احدى قبائل صنهاجه البربرية . راجع، كنون - عبدالله ، ذكريات مشاهير رجال المغرب - عبدالعزيز الشتالي، دار الكتاب اللبناني بيروت ص ١٥ - ١٦ .

٢٣ - نشرة - بروفنسال في المجلة الآسيوية اكتوبر ديسمبر ط ١٩٢٢م، ثم عاد نشره - عبدالوهاب بن منصور الرباط ١٩٦٢ .

٢٤ - ذكر فيه من تولى العلامة من الكتاب عن الملوك ، وطبع الكتاب بتطوان - نشر المركز الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، تحقيق - محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت الطنجي .

٢٥ - جعله في فصلين الاول لعدد من شعراء المشرق ، والثاني لعدد من شعراء المغرب ، وجعل الفصـل الثاني في قسمين : احدهما لشعراء الاندلس والثاني لشعراء المغرب (بر العدوة) تحقيق - محمد رضوان الدايه ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٥م .

٢٦ - راجع ، ابن الاحمر ابوالوليد ، مستودع العلامة ومستبدع العلامة ، تحقيق - محمد التركي التونسي ، محمد بن تاويت الطنجي ، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط ، تطوان ١٩٦٤م ص ٣٢ .

٢٧ ـ بونار ـ رابح ، المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١ص ٢٧٣ .

٢٨ ـ المرجع نفسه ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

٢٩ ـ راجع ، ابن الخطيب، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، طبع باسم تاريخ اسبانيا ، نشر ـ ليفي بروفنسال سنة ١٩٥٦ ص ٤٩ ـ ٥٠، الغبريني ـ ابوالعباس احمد بن احمد بن عبدالله ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق ـ عادل نهويض، نشر ـ لجنة التأليف والترجمة بيروت ط (١) ابريل ١٩٦٩ م ص ٧٣ .

٣٠ ـ كان يدعى بصاحب الخمريات ، وقد ابدع في شعره بوصف مجالس الانس والسرور والوصف عامة له مساجلة شعرية مع ابن الزقاق وابن عائشة في وصف بستان قال :
لله نوريه المحيا   تحمل نارية الحميا . عنه، راجع، نفح الطيب جـ ٤ ص ١٤، تاريخ الفكر الاندلسي، ص ١٧ .

٣١ ـ راجع، المغرب العربي تاريخه وثقافته ص ٣١٨ .

٣٢ ـ قال النباهي في كتابه (تاريخ قضاة الاندلس) ص ١٢٢ ـ ١٢٣ (ومن القضاة بالعدوة الغربية والقبلية ، الفقيه الجليل ، ابوالعباس احمد بن محمد بن الغماز ، قاضي الجماعة بافريقية . تقدم على عدة شروط اهمها : ان يكون على رأيه في الدخول على الخليفة ، وهناك شروط اخرى وافقه السلطان عليها . راجع ، النباهي ، قضاة الاندلس ط ـ بيروت سنة ١٩٦٦م ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

٣٣ ـ وقعة العقاب المشهورة بالاندلس سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م كانت بين جيوش المسلمين وعلى رأسهم الناصر لدين الله محمد بن يعقوب بن عبدالمؤمن وبين الفرنج بقيادة الفونس ملك قشتاله ، وقد استشهد في هذه المعركة عدد كبير من المسلمين .

٣٣ ـ اكد ابن قنفذ في كتبه الوفيات هذا التاريخ ، راجع ابن قنفذ الوفيات ط ١٩٤١م ص ٥٣ .

٣٤ ـ راجع ، عنوان الدراية ص ١١٩ ترجمة رقم (٢٤)، نفح الطيب جـ ٤ ص ٣١٦ ـ ٣١٩ .

٣٥ ـ المصدر نفسه ص ٣١٦ الحاشية .

٣٦ ـ كنون عبدالله ، النبوغ المغربي ص ٢٦٦ .

٣٧ ـ نسبة الى لبلة بفتح اوله ثم السكون ، ولام اخرى ، قصبة كورة بالاندلس تقع الى الشرق من اكشونية والى الغرب من قرطبة ، وهي مدينة برية بحوية فيها من الثمار والزروع الشيء الكثير وتعرف بالحمراء . راجع ، مادة لبلة ، ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبدالله بن عبدالله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار احياء التراث العربي بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م جـ ٥ ص ١٠ .

٣٨ ـ له لقاء مع القاضي ابن دقيق العيد اثناء تجواله في بلاد المشرق دارت بينهما مناقشات نحوية . راجع ، المقري، نفح الطيب سنة ١٩٤٩م جـ ٢ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

٣٩ ـ هو عمر بن محمد بن عبدالله الازدي ابوعلي الشلوبين او الشلوبيني ، من كبار العلماء باللغة والنحو ولد بمدينة اشبيلية سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م وينسب الى حصن الشلوبين بجنوب الاندلس . له تصانيف منها : (شرح المقدمة الجزولية) و(القوانين) وغيرها توفي سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م. راجع، الدراية ص ٣٢٥ حاشية رقم (٢) .

٤٠ ـ هو احمد بن يحيى بن زيد بن سيار ، الشيباني بالولاء ، امام الكوفيين في النحو واللغة ، له تصانيف منها، الفصيح توفي سنة ٥٩١ هـ / ٩٠٣م، من مؤلفاته كتاب (التجنيس) وكتاب (وشي الحلل) وغير ذلك من المؤلفات الاخرى . راجع ، الدراية ص ٣٢٥ حاشية رقم (٣) .

٤١ ـ راجع ، الغبريني، الدراية ص ٣٢٥، ترجمة رقم (١٠٢) نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٠٨ ترجمة رقم ١٢١.

٤٢ ـ انده بالضم ثم السكون: مدينة من اعمال بلنسية بالاندلس كثيرة المياه والشجر المثمر وخاصة التين ، وقد نسب اليها كثير من اهل العلم منهم : ابوعمر يوسف بن عبدالله بن خيرون القضاعي الاندي ـ راجع مادة انده ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ١ ص ٢٦٤ .

٤٣ ـ هو ابوالحسين محمد نبغ في علم الجغرافية من اهم مؤلفاته في هذا الميدان رحلته المسماة رحلة ابن جبير والى جانب ذلك نبغ ايضا في الشعر فكان شاعرا محسنا يقول المقطعات الجميلة ذات المعاني الفلسفية .

الناس مثل ظروف حشوها صبر   وفوق افواهها شيء من العسل

تغر ذائقها حتى اذا كشفت   له تبين ما تحويه من دخل

راجع تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٢٣، ١٢٩ .

٤٤ ـ راجع ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٨٣ ترجمة رقم (١٧٩) .

٤٥ ـ تصدر للتدريس في عاصمة الحفصيين بتونس فأقرأ بها العلوم الاسلامية ، وله مؤلفات كثيرة من اهمها « تفسير » للقرآن، وكتاب له في الطبقات اسماه « المشرق في علماء المغرب والمشرق » توفي بتونس سنة ٦٩٢هـ /١٢٩٢م ورد اسمه فيه احمد بن عبدالله القرشي...) .

٤٦ ـ يقصد (الكشف والبيان في تفسير القرآن) لابي اسحاق الثعلبي المتوفي سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣م .

٤٧ ـ راجع ، الدراية ص ٣٤٧ ترجمة رقم (١٠٧) .

٤٨ ـ بويع سنة ٨٦٥هـ / ١٢٥٨م وقتل سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦ م.

٤٩ ـ المزوار او امروار ، كلمة بربرية ومعناها الابن الاكبر ، ثم تطور هذا المعنى واصبح له معان مختلفة راجع ، العبادي، احمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس الاسكندرية ١٩٦٨م ص ١٨٢ .

٥٠ ـ نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ .

٥١ ـ راجع ، نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

٥٢ ـ بفتح العين وكسر الميم الممدود . راجع بن شريفة ـ محمد، ابوالمطرف احمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره الرباط سنة ١٩٦٦م .

٥٣ ـ بلدة تقع في شمالي شرقي مدينة ابدة ، شمال غربي جبال شقورة ، كانت ايام الدولة الاسلامية من اعمال ولاية جبان ، وهي بضم الشين وسكون القاف كما ضبطها ابن خلكان في كتابه الوفيات جـ ١ ص ١٧ ، وكما ضبطت في المصادر الاندلسية وتعرف اليوم باسم (Alcira) وهي تحريف اسباني للكلمة العربية (الجزيرة) التي اطلقها العرب على هذه المدينة الواقعة على نهر شقر الذي يحيط بها . راجع ، ابن شريفة ، ابو المطرف احمد بن عميرة ص ٤٦ ، مادة شقر في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٥٤ .

٥٤ ـ الوزير ابوجعفر بن عطية القضاعي ، اصله من طرطوشه بالاندلس، هاجر الى المغرب ونزل بمراكش واستقر فيها ايام المرابطين فاستكتبه امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ثم استكتبه ولداه من بعده تاشفين واسحاق ، ولما قامت دولة الموحدين على انقاض دولة المرابطين استكتبه مؤسسها الخليفة عبدالمؤمن بن علي ، ولكن الوشاة اوغروا صدر الخليفة فنكبه وكانت نكبته اشبه بنكبة ابن الخطيب عند المرينيين . راجع ، نفح الطيب جـ ٥ ص ١٨٣ وما بعدها .

٥٥ ـ الغبريني ، الدراية ص ٢٩٩ .

٥٦ ـ وصفه ابن سعيد في (القدح) بقوله : شيخ كتاب زماننا وامام ادباء اهل آواننا ، راجع ، الدراية ص ٣٠١ .

٥٧ ـ المصدر نفسه ص ٢٩٨ ترجمة رقم (٩٢) .

٥٨ ـ لعله ابراهيم الزاهد الذي ترك كتبه عند ابن عمرو وامره بتحبيسها بعد مماته . راجع ، القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك الرباط جـ ٤ ص ٢٣٧ .

٥٩ ـ راجع ، المصدر نفسه والصفحة .

٦٠ ـ الفرضي تاريخ علماء الاندلس ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ جـ١ ص ٩٩ ترجمة رقم ٣٠٧ .

٦١ ـ راجع ، حسن حسني عبدالوهاب ، مجمل تاريخ الادب التونسي من فجر الفتح العربي لافريقية الى العصر الحاضر ، مكتبة المنار ـ تونس د ـ ت ص ١٧٧ ـ ١٨٠ .

٦٢ ـ الصفدي ـ صلاح الدين خليل ايبك ، الوافي بالوفيات ـ تونس ـ د ـ ت ص ١٧٧ ـ ١٨٠ .

٦٣ ـ محمد عبدالعزيز الصباغ ، ابوالقاسم السبتي ، دعوة الحق ٤/ع ٩/س شوال ١٣٨٥ هـ / فبراير شباط ١٩٦٦م، الرباط ص ١٠٦ ـ ١٠٩، النباهي ، قضاة الاندلس ص ١٧١، الزركلي خيرالدين الاعلام ، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ط (٦) ١٩٨٤ جـ ٥ ص ٣١٨ .

٦٤ ـ ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ترجمة رقم ٥٧٥ .

٦٥ ـ ورد في غاية النهاية لابن الجزري جـ ١ ص ٣٠٣ بانه سعيد بن علي بن زاهر ابوعثمان البلنسي ، شيخ مشهور قرأ على ابن نوح والحصار . قرأ عليه احمد بن محمد بن الغماز ومحمد بن مشيلون .

٦٦ ـ الحصار لقب لعدد من الاعلام منهم : خلف بن ابراهيم بن سعيد القرطبي ، استاذ ورحالة ثقة ، كان من كبار المقرئين في عصره ، توفي سنة ٥١١هـ /١١١٧م، ومنهم احمد بن علي بن يحيى ، ابوجعفر الانصاري ، استاذ عارف من كبار المقرئين توفي سنة ٦٠٩هـ /١٢١٢م وقد قارب الثمانين من عمره وهو المطلوب لدينا ، ومنهم علي بن محمد ابوالحسن ، فقيه مالكي اشبيلي الاصل ، منشأه بفاس ، توفي سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م راجع ، الدراية هامش (٢) ص ٢٦٦ .

٦٧ ـ الحسين بن احمد بن يوسف بن فتوح ، الشيخ ابوعلي بن زلال البلنسي الضرير ، استاذ علامة ، قرأ على ابن هذيل وطارق بن موسى ، قرأ عليه سعيد بن علي بن زاهر ، واجاز له السلفي . انتهت اليه استاذية الاقراء لاتقانه وتحقيقه وتجويده توفي سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م. راجع ، الدراية هامش ٣ ص ٢٨٩ .

٦٨ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٣ ص ١٤٨.

٦٩ ـ التنكبتي ، احمد بابا السوداني ، نيل الابتهاج، مصر سنة ١٣٥١هـ ص ١٦٦، ابن مريم ، ابوعبدالله محمد بن محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني، تحقيق ـ محمد بن ابي شنب ، الجزائر ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ص ١٠٦ ، ١٢٢، الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر سنة ١٩٠٦م جـ١ ص ٢٠١ ـ ٢١٣، المازوني ، الدرر الكامنة في نوازل مازونه (مخطوط) المكتبة الوطنية الجزائر نسخ محمد بن الصديق المشرفي سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م جـ١ الورقات ٤٧٣ ـ ٤٩٠ بونار ـ راجع ، سعيد العقباني ، الاصالة ١/ع ١/س ذو الحجة ١٣٩١ هـ / جانفي كانون الثاني ١٩٧٢ الجزائر ص ٦٥ ـ ٧٢ .

٧٠ ـ يقال له حصن قطنيانة .

٧١ ـ الدراية ص ٢٢ .

٧٢ ـ راجع ، ابن قنفذ ، انس الفقير وعزالحقير ص ١٦ وما بعدها .

٧٣ ـ هو ابوعبدالله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن ابي بكر الصنهاجي ، اصله من قرية تعرف (حمزة) من حوز قلعة بني حماد ، قرأ ببلده بالقلعة ، وقرأ ببجاية ، ولاه الموحدون قضاء الاندلس والمغرب في عدة اماكن ، منها الجزيرة الخضراء الى سنة ٦١٣هـ /١٢١٦م وسلا سنة ٦٢٨هـ /١٢٣٠م وهي سنة وفاته للمزيد، راجع ، الغبريني ، الدراية ص ٢١٨، الزركلي ، معجم البلدان جـ ٧ ص ١٦٩ .

٧٤ ـ في الاصل (ابن سعد) والمثبت في تذكرة الحفاظ والديباج المذهب (ابن سعدون، راجع، الذهبي ، ابوعبدالله شمس الدين محمد ، تذكرة الحفاظ صحح عن النسخة القديمة ـ ط ـ دار التراث العربي ـ د ـ ت. جـ ٤ ص ١٣٤٨ ترجمة رقم (١٠٩٩) ابن فرحون ، الديباج ص ١٥٠ .

٧٥ ـ الداوودي محمد علي ، طبقات المفسرين دار الكتب العلمية بيروت ط (١) ١٩٨٣م جـ ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤، الذهبي ، ابوعبدالله شمس الدين ، تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ١٣٤٨ وما بعدها ترجمة رقم (١٠٩٩) .

٧٦ ـ نفس المصدر والصفحة .

٧٧ ـ لعله محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني المعروف بأبي بكر ، صحب المعتمد بأغمات ووقع بينهما مساجلات شعرية دارت حول هدية متواضعة قدمها المعتمد لابن اللبانة مرسل له بيتين من الشعر يقول فيهما :

اليك النزر من كف الاسير وان تقنع تكن عين الشكور

تقبل ما يذوب له حياء وان عذرته حالات الفقير

فرد عليه ابن لبانه بعد امتناعه عن اخذ الهدية قائلا :

تركت هواك وهو شقيق ديني لئن شقت برودي عن غدور

ولا كنت الطليق من الرزايا اذا اصبحت اجحف بالاسير

راجع ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٩٦ .

٧٨ ـ هو ابومروان محمد بن احمد بن عبدالملك اللخمي ، الباجي من اهل اشبيلية ولي القضاء بها واصله من باجه افريقية ذهب الى المشرق لاداء فريضة الحج سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م توفي بمصر بعدما دخل الشام في ٢٨ ربيع الاول سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ومولده سنة ٦٣٤ هـ /١٢٣٦م . راجع ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٨٠ .

٧٩ ـ راجع ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٦٤٦ ترجمة رقم (٢٨٠) .

٨٠ ـ الذهبي ، تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ١٣٧ ترجمة رقم (١١١)، الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ١٢٤ .

٨١ ـ هو ابوعبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي ، رحالة شهير ، ومن الائمة الحفاظ الوعاة والخطباء المصاقع . ولد بسبتة سنة ٦٥٧هـ ١٢٥٨م وبها نشأ وتوفي بفاس في محرم فاتح عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م ودفن بمطرح الحلة من القباب راجع ، عبدالله كنون، ص ٢٠٦ .

٨٢ ـ هما الشيخان المحدثان الحافظان اللغويان الاديبان ابوعمر وعثمان ابو الخطاب عمر ابنا الحسن بن علي بن محمد الجميل بالتصغير ، ثم عرفا بعد بابني دحية لانتسابهما الى دحية الكلبي الصحابي الجليل ، واصلهما من سبتة ، كانا علمين شهيرين في حفظ الحديث والمعرفة بعلم اللغة وايام العرب واشعارها . للمزيد راجع، كنون، النبوغ المغربي ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

٨٣ ـ راجع ، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس، جـ ١ ص ٢١٩ ترجمة رقم (٦٥٧) .
٨٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٦٨، ترجمة رقم (٨١٢) .
٨٥ ـ المصدر نفسه ص ٣٢١ ترجمة رقم (٩٤٥) .
٨٦ ـ بنو غانيه من قبيلة مسوفة يمتون بصلة القرابة الى بني تاشفين اجراء المرابطين ، وقد امتلكوا جزر البليار في عهدهم . تمكن يحيى بن غانيه اخو علي من اخذ مدينة بسكرة من الموحدين بعد استئناف الحرب معهم التي فقد فيها اخوه علي سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٥م راجع ، سالم ـ عبدالعزيز ، المغرب الكبير ـ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ جـ ٢ ص ٨٠٢ وما بعدها .
٨٧ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٣ ص ٢٧٣ .
٨٨ ـ الزركلي، الاعلام جـ ٣ ص ٢٩٤، ابن فرحون ، الديباج المذهب ص ١٥٢ .
٨٩ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٣ ص ٣٢٧ .
٩٠ ـ المرسي صفوان بن ادريس التجيبي ابوالبحر ، راجع عنه ، زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر ، تحقيق ـ عبدالقادر محداد ، دار الرائد العربي بيروت (١٩٨٠م) ص ٧٦ .
٩١ ـ مخطوط في شستر بني اللون تحت رقم (٤٨٢٥ / ١٣)، ابن قاضي شبهة ، الاعلام مخطوط الزركلي ، الاعلام جـ ٣ ص ٣٤٢ .
٩٢ ـ ورد في نفح الطيب ان مولده سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م راجع ، نفح الطيب ، دار صادر بيروت ١٩٦٨م جـ ٢ ص ٦٩٤ .
٩٣ ـ المصدر نفسه والصفحة ، الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ص ١٠ .
٩٤ ـ مطبوع .
٩٥ ـ مطبوع .
٩٦ ـ مطبوع .
٩٧ ـ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٤٥٣، الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ص ٢٦ ، ابن القاضي ، ابو العباس ، احمد بن محمد المكناسي ، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال ، تحقيق ـ محمد الاحمدي ابوالنور ، دار التراث العتيقة ـ تونس القاهرة ط (١) سنة ١٩٧١ جـ ٣ ص ٧٥ ـ ٧٦ .
٩٨ ـ يبحث في تراجم بعض الشخصيات البارزة في الاندلس من العصر الاموي حتى نهاية الموحدين ، نشر د ـ شوقي ضيف بعض هذه القطع في جزئين من مجموعة ذخائر العرب بعنوان (رايات المبرزين Labanderas cam peone) تحدث فيه عن بعض شعراء الاندلس من القرن العاشر الى الثالث عشر الميلادي . واهدى ابن سعيد هذا الكتاب الى حاكم القاهرة على ايامه موسى بن يغمور في عهد السلطان الصالح نجم الدين ايوب وابنه تـوارنشاه . راجـع ، العبادي ـ احمد مختار ، من التراث العربي الاسباني ، مجلة الفكر ٨/مج ١/ع الكويت ١٩٧٧ م ص ٦٢ .
٩٩ ـ يبحث في الادب وهو مطبوع .
١٠٠ ـ مطبوع .
١٠١ ـ يبحث في تاريخ بيته وبلده .
١٠٢ ـ كلاهما في الجغرافيا (مطبوعان) .
١٠٣ ـ الكتاب مطبوع وهو مختصر في تراجم بعض شعراء الاندلس .
١٠٤ ـ وهي مجموعة من الكراريس التي تتضمن فوائد ادبية واخبارية .
١٠٥ ـ بفتح اوله ، وبعد الواو الساكنة راء : مدينة بالاندلس شمالي مرسية ، وبها كانت دار امارة همشك احد ملوك تلك النواحي . راجع مادة شقورة في ياقوت الحموي معجم البلدان جـ ٣، ص ٣٥٥ .
١٠٦ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ص ٥٢ ، المنوني ـ محمد ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان ١٩٥٠م ص ١٧٢ .
١٠٧ ـ مخطوط في ١٥٢ ورقة في مكتبة ولي الدين جارالله باستنبول تحت رقم (١٧٢٥) علق عليه الميمني بانه صالح للنشر .
١٠٨ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ص ٤٦ .
١٠٩ ـ مخطوط .
١١٠ ـ مطبوع .
١١١ ـ مطبوع.
١١٢ ـ مخطوط في (٤١) ورقة كبيرة موجود في خزانة فيض الله باستنبول تحت رقم (٢٣٩) قال عنه الميمني في فهرسته بأنه صالح للنشر وقد اطلع المقري على (فهرسته) ونقل منها وهي لاتزال مخطوطة .
١١٣ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ص ٦٣ .
١١٤ ـ هو الحكم المستنصر الذي تولى الحكم بعد موت ابيه الخليفة الناصر سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦٢م الذي وقف امام توسع النصارى في الشمال الاسباني . راجع ، سالم عبدالعزيز ، تـاريخ المسلمـين وآثارهم في الانـدلس ، دار المعارف ـ لبنان ١٩٦٢م ص ٢٩٠ .
١١٥ ـ راجع، الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ٦٣ .
١١٦ ـ قام بنشر هذه المذكرات المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلة الاندلس الاسبانية سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ م ثم

نشرها بعد ذلك في كتاب مستقل في مجموعة ذخائر العرب ١٩٥٥م. راجع، الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ٧٥ ، العبادي ، عالم الفكر ٨/ج ١/ع ـ ص ٥٥ ، النباهي، تاريخ قضاة الاندلس ، ابن سودة عبدالسلام بن عبدالقادر، دليل مؤرخ المغرب الاقصى جـ ١ ص ١٥٩ .

١١٧ ـ مخطوطة موجودة في المكتبة الكنونية بطنجة في المغرب . قوبلت على نسخ اخرى ونشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٤٨م ص ٤٢ وما بعدها وعدد ابياتها ثمانٍ وتسعون بيتا كلها تدور حول تدبير الملك وسياسته .

١١٨ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ١٢٣ .

١١٩ ـ مخطوط موجود في جامع الزيتونة بتونس .

١٢٠ ـ مخطوط موجود بدار الكتب المصرية .

١٢١ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ١٢٧ .

١٢٢ ـ مدينة تقع على شاطيء البحر بين الجزيرة والمريه . راجع ، مادة مالقه في ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٥ ص ٤٣ .

١٢٣ ـ كتاب مطبوع في مقدمته ما يسمى بالامامة الابراهيمية .

١٢٤ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ابن الاحمر ابوالوليد اسماعيل ، كتاب نثير الجمان ، تحقيق محمد رضوان الديه ، ص ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٤٧، محمد الفاسي بن رضوان، دعوة الحق ٧/ع ٤/س ص ٦٤ .

١٢٥ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ١٩١ .

١٢٥ ـ سرقسطة بفتح اوله وثانيه ثم قاف مضمومة ، وسين مهملة ساكنة ، وطاء مهملة . بلدة مشهورة بالفواكة تقع على ضفة النهر الكبير الذي ينبع من جبال القلاع ، كما اشتهرت بصنعة السمور وطرزها بعد نسجها وهي ثياب رقيقة تعرف السرقسطية ، راجع ، مادة سرقسطة في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٣ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

١٢٦ ـ نفح الطيب جـ ٣ ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨، الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ١٩٢ .

١٢٧ ـ مطبوع .

١٢٨ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ٣٣٢ .

١٢٩ ـ بالفتح ثم التشديد ، وآخره نون ، مدينة لها كورة واسعة بالاندلس ، تتصل بكورة البيرة وتقع الى الشرق من مدينة قرطبة التي تفصلها عنها سبعة عشر فرسخا . راجع ، مادة جيان في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٥ .

١٣٠ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٤ ص ٣٣٣ .

١٣١ ـ يوجد مخطوط منه بمكتبة باريس تحت رقم ٢٩٥٩ ويتألف من (١٤٠) ورقة .

١٣٢ ـ عبدالله العمراني ، الموحدون والحضارة دعوة الحق ٤/ع ٩/س شوال ١٣٨٥هـ ، فبراير ١٩٦٦م ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

١٣٣ ـ ابن القاضي ، ابوالعباس احمد بن محمد المكناسي ، درة الحجال في اسماء الرجال جـ٣ ص ٤٣ ترجمة رقم (٩٤٤) .

١٣٤ ـ ابوعبدالله محمد بن علي الفخار البيري ، كان شيخ النحاة بالاندلس غير مدافع واخذ عنه عدد كبير من طلاب العلم امثال الشاطبي ابي اسحاق صاحب شرح الالفية والوزير بن زمرك وغيرهما. راجع ، نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٥٥ .

١٣٥ ـ ابن القاضي ، درة الحجال جـ ٣ ص ٦٧ ـ ٦٨ .

١٣٦ ـ ابن القاضي ، درة الحجال جـ ٣ ص ٢٤٣ ترجمة رقم (١٢٦٠)، كنون، النبوغ المغربي ص ٢٠٤ .

١٣٧ ـ يوجد من هذا الكتاب نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم (١٥١٦) كتب بالخط الشرقي الواضح وسطرتها ٢٩ سطرا وحجمها ١٩٠/٢٦٠ ملم ، وتجد في الصفحة الاولى من المخطوط نص كتبه محمد بن خوجه يشير الى تحبيسها على اولاده ثم على جامع كتشاوه بالجزائر العاصمة بتاريخ اواسط جمادي الثانية لعام ١٢٣٩هـ .

١٣٨ ـ راجع ، افرام البستاني ، دائرة المعارف جـ ٢ ص ٢١٠ ، ابن رشيق ، العمدة ط (٢) القاهرة سنة ١٩٥٥ جـ ١ ص ١٥ ، رابح بونار ، علي بن ابي الرجال القاهرتي القيرواني مجلة الاصالة ٦/ع ١/س ذو الحجة ١٣٩١هـ / جانفي ١٩٧١م، دعوة الحق ٢/ع ٧/س نوفمبر ١٩٦٢ م جمادي الثانية ١٣٨٣هـ الرباط .

١٣٩ ـ علي بن محمد بن عبدالملك الكتامي الحميري الفاسي ابوالحسن من حفاظ الحديث ، ولد بفاس واقام بمراكش ، له مؤلفات فقهية ومشاركات في حلقات علمية . راجع ، ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٢٨ .

١٤٠ ـ راجع ، الغبريني ، الدراية ص ٤١٠ ، الكتبي بن شاكر ، فوات الوفيات سنة ١٢٩٩م جـ ١ ص ٥١٨، نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٥٥ .

١٤١ ـ ابن الاحمر ، اعلام المغرب والاندلس ، « نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان » ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

١٤٢ ـ بونار ـ رابح ، المغرب العربي تاريخه وثقافته ص ٣٣٧ .

١٤٣ ـ بضم اوله وسكون ثانيه معقل حصين يقع بين مدينتي اشبيلية ومالقة . راجع، مادة رنده في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٣ ص ٧٣ .

١٤٤ ـ الغبريني، الدراية ص ١٠٧ .

١٤٥ ـ بالضم ثم الفتح والتشديد : اسم مدينة بالاندلس من كورة جيان ، تعرف بأبدة العرب اختطها الامير عبدالرحمن

بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك ، وتممها ابنه محمد بن عبدالرحمن . راجع ، مادة أبدة في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ١ ص ٦٤ .
١٤٦ ـ الغبريني ، الدراية ص ٨٣ ، الذهبي ، العبر في خبر من غبر ط ـ الكويت ـ د ـ ت ـ جـ ٥ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .
١٤٧ ـ بلدة في الاندلس ومنها الامام ابي محمد بن خلف بن ابي القاسم بن احمد الرعيني ثم الشاطبي ، راجع ، الياس ـ سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمصرية مطبعة سركيس ، مصر ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨ ص ١٠٩١، مادة شطب في ياقوت الحموي معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٤٣ .
١٤٨ ـ هو الحافظ المؤرخ ابونعيم احمد بن عبدالله بن احمد الاصبهاني ، ولد سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م في اصبهان وروى عن ابن فارس وطبقته قال ابن النجار : هو تاج المحدثين واحد أعلام الدين ، من كتبـه حلية الاوليـاء وطبقات الاصفياء عشرة اجزاء . قال ابن ناصر الدين، ولما صنف كتاب الحلية حملوه الى نيسابور فبيع بأربعمائة دينار) توفي سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م راجع، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٤٥ الغبريني ، الدراية ص ١٩٣ هامش (٣) .
١٤٩ ـ الغبريني ـ الدراية ص ١٩٣ ترجمة رقم (٤١) .
١٥٠ ـ هو ابوعبدالله محمد بن ابراهيم الفهري المعروف بالاصولي ، من اهل بجاية رحل الى المشرق، اتصل بأهل العلم والحل والعقد في المشرق ، ولي قضاء الحواضر بالاندلس وفي المغرب وخاصة مراكش وبجاية فقد عين لولاية القضاء في مدينة بجاية ثلاث مرات وصرف عن اخرها سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١ م توفي ببجاية بين عيد الاضحى والفطر سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م. راجع، الدراية ، ص ٢٠٨ ترجمة رقم (٤٩) .
١٥١ ـ الدراية ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ، ترجمة رقم (٧٠) .
١٥٢ ـ يقال له ابوزيد، اصله من مدينة الجزائر ، انتقل الى الاندلس فنزل باشبيلية واخذ من علمائها ، ثم انتقل الى مرسية وجلس للاقراء فيها سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م، ثم عاد الى بجاية بالمغرب الاوسط سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م . راجع ، الدراية ص ٢٦٣ هامش رقم (١) .
١٥٣ ـ هو ابوالحسن ، محمد بن محمد بن سعيد بن زرقون ، قرأ على أبيه محمد بن سعيد وقرأ عليه ابراهيم بن وثيق . راجع ، ابن الجزري ، غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٤ .
١٥٤ ـ هو محمد بن طلحة بن محمد بن حزم ، ابوالاشبيلي النحوي ، امام عارف ، اثنى عليه ابن الآبار بقوله كان استاذ حاضرة اشبيلية بدون مدافع . مات في صفر سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م وعمره ثلاث وسبعين سنة . راجع ، الجزري ، غاية النهاية جـ ٢ ص ١٥٧، الدراية ص ٢٦٣ هامش (٣) .
١٥٥ ـ ورد أسمه في بعض المصادر باسم ابوعبدالرحمن .
١٥٦ ـ الكتاب لابي عبدالله محمد بن سعيد بن زرقون المتوفي ٥٨٦هـ / ١١٩٠م وهو والد المترجم له رقم (١٤٨) .
١٥٧ ـ راجع ، الدراية ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ترجمة رقم (٨٢) .
١٥٨ ـ بالفتح ثم التشديد ، وآخره نون ، مدينة كبيرة تتصل بكورة البيرة وتقع الى الشرق من قرطبة التي تبعد عنها ٢٧ فرسخا ينسب اليها عدد من العلماء الاجلاء منهم ، الحسين بن محمد بن احمد الغساني ويعرف بالجياني . راجع مادة جيان في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٥ .
١٥٩ ـ راجع ، الدراية ص ٢٨٦ هامش رقم (٢) ابن الجزري ، غاية النهاية جـ ١ ص ٥٨١ .
١٦٠ ـ هو الذي حمل بيعة شريف مكة ابن نمي من انشاء ابن سبعين الصوفي للخليفة الحفصي المستنصر والذي تلقب بأمير المؤمنين بعد ان كان يسمى بالامير . راجع ، ابن خلدون ، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب، نشر البارون رسلان الجزائر ١٢٦٧ هـ / ١٨٥١م جـ ١ ص ٤١٧ وما بعدها .
١٦١ ـ الغبريني الدراية ص ٣٢٢ وما بعدها .
١٦٢ ـ راجع ، الغبريني، الدراية ص ٥٨ هامش (١) الزركلي، الاعلام جـ ٥ ص ٣٢ .
١٦٣ ـ شاعر مجيد من قوله في قرية بيش احدى قرى الاندلس لما بات فيها قال :

لله منزلنا بقرية بيش   كاد الهوى فيها ادكارا بي يشي

رحنا اليها والبطاح كأنها   صحف مذهبة بابريز القشي

راجع ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٠٢ ترجمة رقم (٦٨٤) .
١٦٤ ـ نفح الطيب جـ ٦ ص ٨٥ .
١٦٥ ـ المقري ، نفح الطيب ، جـ ٧ ص ٢٩ ، ص ٢٨ ـ ٤٢، بن سوده عبدالسلام بن عبدالقادر ، دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ط (٢) سنة ١٩٦٠ جـ ١ ص ٢٧٨ .
١٦٦ ـ بضم الخاء وفتح الشين المعجمة وفي آخره نون ينتهي كما يقول السمعاني الى قبيلة او قرية . اما القبيلة فهي خشين ، وهي بطن من قضاعة وخشين هذا الذي به عرفت القبيلة هو : خشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الكافي بن قضاعة ، واما القرية المعروفة باسم : خشين فهي موضع بافريقية . ولم نعلم اهو منسوب للقبيلة ام الى القرية لأن السمعاني لم يفصح عن ذلك . راجـع ، الخشني ، قضاة الانـدلس ، تحقيق ابراهيم الابياري بيروت ط (١) سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م جـ ٧ ـ ١٧ .
١٦٧ ـ يلقب بالقروي نسبة الى القيروان وهي اكثر ترجيحا من نسبته الى قرية خشين . راجع ، المصدر نفسه جـ ٧ وما بعدها .

١٦٨ ـ ذكر الابياري بأن ابن فرحون ذكر مولده فيما بين سنة ٢٢٩هـ / ٨٤٣م أو ٣٠٠ هـ / ٩١٢م ولم يرد في كتاب الديباج لابن فرحون ذكر لمولده . راجع ، ابن فرحون ، الديباج المذهب ، دار الكتاب ، بيروت د ـ ت ص ٢٥٩، الخشني ، قضاة قرطبة ، تحقيق الابياري ص ٧ ـ ١٧ .
١٦٩ ـ راجع ، قضاة قرطبة ، تحقيق الابياري ، ص ٧ ـ ١٧ الذهبي ، تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ١٠٠١ ـ ١٠٠٢ ، نفح الطيب جـ ٣ ص ٢٣٦ ترجمة رقم (١٤٨)، ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس جـ ١، ص ١١٢ ـ ١١٣ ، ترجمة رقم (١٤٠٠) .
١٧٠ ـ شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقرىء المحدث (٤٥١ ـ ٥٣٩ هـ = ١٠٥٩ ـ ١١٤٤م) وهو من تلاميذ ابن حزم واتباع فرقته التي عرفت بالحزمية ، راجع ، تاريخ الفكر الاندلسي ص٢٢٧ .
١٧١ ـ راجع ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ جـ ٤، ص ١٣٥٥ ترجمة رقم (١١٠٢) .
١٧٢ ـ راجع ، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس جـ ٢، ص ٢٢ ـ ٢٣ ترجمة رقم (١١٥٢) .
١٧٣ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٧، ص ٢٤٩، زاد المسافر ص ١٠٥ .
١٧٤ ـ طبع في جزئين، نشره (بولس بروزله) وسماه شرح السيرة النبوية .
١٧٥ ـ راجع ، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس جـ ١، ص ٦٤ ترجمة رقم (١٢٧٦).
١٧٦ ـ احمد بن مطرف من جزيرة شقر من كورة بلنسية وهو اديب وكاتب وقاضي . راجع ، نفح الطيب جـ ٣، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ ترجمة رقم (٣٥٢) .
١٧٧ ـ ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، جـ ١ ، ص ٩٦ ترجمة رقم (١٣٦٥) .
١٧٨ ـ المصدر نفسه جـ ١، ص ١١١ ترجمة رقم (١٣٩٦) .
١٧٩ ـ ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس جـ ١، ص ١١٢ ترجمة رقم (١٣٩٩) .
١٨٠ ـ ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس جـ ٢، ص ١١٨ ترجمة رقم (١١٤٠٦) .
١٨١ ـ السلفي ، صدرالدين ابوالطاهر احمد بن محمد ، اخبار وتراجم اندلسية (معجم السفر) تحقيق ـ احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ط (٢) ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م ، ص ١٣٢ .

١٨٢ ـ الزركلي ، الاعلام، جـ ٥، ص ٣١٨، النباهي ، قضاة الاندلس، ص ١١١، تاريخ الفكر الاندلسي، ص ٢٤، الدراية ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ هامش رقم (٦)، المنذري ، التكملة لوفيات النقلة ـ بشار عواد ، النجف ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
١٨٣ ـ الدراية ص ٣١٠ هامش (١٠) .
١٨٤ ـ نفح الطيب جـ ٢، ص ١٦٠ .
١٨٥ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٥، ص ٣١٨ .
١٨٦ ـ ورد خطأ في كتاب نفح الطيب جـ ١ ط بولاق ـ القاهرة ص ٣٥٢ بان وفاته سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م .
١٨٧ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٥، ص ٢٩٥، الداودي، شمس الدين محمد بن علي بن احمد ، طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية بيروت ط (١) ١٩٨٣م جـ ٢ ص ٥١ ترجمة رقم ٩ .
١٨٨ ـ الزركلي ، جـ ٥، ص ٢٩٧ .
١٨٩ ـ المرجع نفسه والصفحة .
١٩٠ ـ رسالة صغيرة في خزانة الرباط (٩٨٤ د) تبحث في سيرته .
١٩١ ـ المقري، نفح الطيب جـ ٧ ص ٤١٥ وما بعدها ، الدراية ص ٣٤٩ ترجمة رقم (١٠٨) .
١٩٢ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٧ ص ٢٤ .
١٩٣ ـ نفس المصدر ص ٣٧ .
١٩٤ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٧، ص ١٣٠، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٦٣ ـ ٦٤، نفح الطيب جـ ٣، ص ٤٤٣ .
١٩٥ ـ بونار ـ رابح ، المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ص ١٨١ .
١٩٦ ـ تاريخ الفكر الاندلسي، ص ١٢٢، الزركلي ص ١٢٧، نفح الطيب، جـ ٣، ص ٤٦٧ .
١٩٧ ـ مازال مخطوطا لم يطبع بعد ، راجع ، الزركلي جـ ٧، ص ١٣٨ .
١٩٨ ـ اصل سلفه من حصن البراجلة ، نزل بها اولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، وعند خلع دعوة المرابطين كان لجدهم يحيى رياسة ونفوذ ، وقد انفرد بالتدبير، ذكره ابن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام ، عندما تعرض لذكر الثوار ايام للمتونين ، قال ان القاضي ابا الحكم يوسف بن جزي كان رأس الفتنة ، ثم اردف بقوله بانه يشك في هذا .. راجع ، ابن الاحمر ، الاعلام هامش (١) .
١٩٩ ـ الزركلي جـ ٧، ص ١٣٩،
٢٠٠ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٧، ص ١٤٣ .
٢٠١ ـ مطبوع جزءان .
٢٠٢ ـ مخطوط .
٢٠٣ ـ عرف بكثرة مؤلفاته كان من ابرزها (اسرار الايمان) في سفر واحد . عنه راجع ، نفح الطيب ، جـ ٢ ص ١٥٦ هامش رقم (٣) .

٢٠٤ ـ بالفتح والسكون ، وشين معجمة ، مدينة بالاندلس تقع غربي البيرة على نهر من انهار غرناطة يسمى بنهر سنجل بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ ، راجع مادة لوشة في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٥، ص ٢٦ .

٢٠٥ ـ بويع على اثر وفاة ابيه سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، ودبرت مؤامرة ضده ادت الى نفيه مع وزيره ابن الخطيب ونزلا ضيفين على السلطان المريني ابي سالم، والقى ابن الخطيب بين يدي السلطان المريني قصيدة مطلعها :

سلا هل لديها من محبرة ذكر

وهل اعشب الوادي ونم به الزهر،

راجع ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون جـ ٧، دار العلم بيروت د ـ ت ص ٣٠٦ .

٢٠٦ ـ حسبنا ان نشير الى النصائح التي ارسلها الى ملك قشتالة بدور القاسي باللغة الاسبانية والتي اوردها المؤرخ المعاصر (لويث دي ايالا) في تاريخه لملوك قشتالة .

٢٠٧ ـ يتناول الكلام عن مملكة غرناطة ، وصفات اهلها وعاداتهم وتاريخ ملوكهم ، ويقع في جزء واحد طبع في القاهرة سنة ١٣٧٤هـ .

٢٠٨ ـ يصور حياة ابن الخطيب في هذه الفترة التي قضاها في المنفى ، ففيه نجد وصفا لمشاهداته في البلاد المغربية مع ذكر الاحداث السياسية التي مر بها في تلك الفترة ، وهذا الكتاب مكون من ثلاثة اجزاء ، نشر الجزء الثاني منه، د. مختار العبادي ، والاستاذ ابراهيم الكتاني في القاهرة ١٩٦٧م .

٢٠٩ ـ عبارة عن رسالة في وصف بعض مدن المغرب والاندلس، كتب في اسلوب فيه المقامات ، نشر الجـزء الخاص بالاندلس المستشرق الاسباني سيمونيت Simmonet والجزء الخاص بالمغرب المستشرق الالماني مولر (Muller) ونشرت الرسالة كلها تحت عنوان (مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس) من قبل الدكتور العبادي الاسكندرية ١٩٦٨ .

٢١٠ ـ هو ارجوزة تاريخية تتناول تاريخ الدول الاسلامية، وقد اهداه الى السلطان ابي سالم ابراهيم المريني ، والكتاب مطبوع في تونس في جزء واحد سنة ١٣١٧هـ .

٢١١ ـ هو عبارة عن مجموعة الرسائل السلطانية من املاء ابن الخطيب على لسان سلطان غرناطة موجهة الى سلطان فاس ، نشرها د. محمد شبانه القاهرة ١٩٦٨م .

٢١٢ ـ عبارة عن تراجم لملوك وامراء علماء غرناطة ، نشرها عبدالله عنان في جزئين غير كاملين في مصر .

٢١٣ ـ راجع ، نفح الطيب جـ ٤، ص ٤٠٤ وما بعدها ، عنان ـ عبدالله ، لسان الدين ابي الخطيب ص ٢٩ ، وما بعدها ، العبادي ، من التراث الاسباني ، عالم الفكر مج (٨) ص ٥ وما بعدها .

٢١٤ ـ ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء جـ ٣، ص ٨٠، بونار ـ رابح ، المغرب العربي تاريخه وثقافته ص ٢٧٧ .

٢١٥ ـ رابح ـ بونار ، المغرب العربي ص ٢٩٢ ، ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب جـ ١، ص ٢٠١ .

٢١٦ ـ ذكره الذهبي في كتابه (العبر) انه توفي سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م قال عنه : وابن سيد الناس الخطيب الحافظ ابوبكر محمد بن احمد بن عبدالله بن محمد اليعمري الاشبيلي ولد سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .... راجع، العبر جـ ٥، ص ٢٥٥ .

٢١٧ ـ مسند الاندلس في زمانه ، روى صحيح البخاري سماعا عن ابي الحسن شريح ، وعاش بعد سمعه اياه ثمانين سنة . قال الحافظ الذهبي : وهذا شيء لا اعلمه وقع لاحد بالاندلس ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م، عنه ، راجع، الدراية ص ٢٩١ هامش رقم (٢) .

٢١٨ ـ هو ابوالعباس احمد بن محمد بن احمد بن مقدام الرعيني الاشبيلي ، من كبار المقربين كان من الادب والزهد بمكانة مهمة ، اخذ الناس عنه كثيرا ، توفي بين العيدين سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م عن ٨٨ سنة وقيل عن ٨٧ سنة . راجع ، غاية النهاية جـ ١، ص ١٠٤ ، العبر جـ ٥، ص٩، شذرات الذهب جـ ٥، ص ١٢ .

٢١٩ ـ عمر بن عبدالله بن محمد .. شاعر من القضاة ، اصله من جزيرة شقورة بالاندلس ، ولد بأغمات جنوب مراكش بالمغرب الاقصى ، وتوفي باشبيلية سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦م . راجع، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس ط سنة ١٣٠٩هـ ص ٢٨٦ .

٢٢٠ ـ مات سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م ونوه به الذهبي قال : كان عبدا صالحا زاهدا . راجع غاية النهاية جـ ٢، ص ٣٣٤ .

٢٢١ ـ هو يوسف بن محمد بن عبدالله بن يحيى بن غالب ، ابو الحجاج البلوى ، ولد بمالقة سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م تولى الخطابة بها ، وبنى في بلده خمسة وعشرين مسجدا من ماله الخاص، من مؤلفاته (الف باء) في مجلدين ت سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، راجع ، الدراية ص ٢٩١ الهامش رقم (٦١) .

٢٢٢ ـ من العلماء البارزين بالنحو والحديث والسير يعرف بأبي ركب ، حامل لواء اللغة العربية بالاندلس ، تداولت تصانيفه كثير من الاقطار ، توفي بفاس سنة ٦٠٤ هـ ١٢٠٧م وله سبعون سنة ، راجع ، العبر جـ ٥، ص١١ .

٢٢٣ ـ هو علي بن محمد بن خروف ، الحضرمي الاشبيلي ، درس الكلام والاصول ، وبرع في اللغة العربية وانقطع لها ، واصبح من ائمتها البارزين ، وتصدر لاقرائها طول حياته باشبيلية وقرطبة ورندة بالاندلس ، وفاس وسبتة بالمغرب . رحل الى المشرق واقام مدة بحلب . له شرح مشهور لكتاب سيبويه، وأخر الجمل الخونجي ، توفي في اشبيلية سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م. راجع ، فوات الوفيات جـ ٢، ص ٨٠، ابن الزبير ترجمة رقم (٢٤٥)

٢٢٤ ـ مقرىء محدث، انتهى اليه علو الاسناد بنيسابور ورحل اليه من الاقطار علماء عدة في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م. راجع ، الدراية ص ٢٩٥ هامش رقم (١٣) .

٢٢٥ ـ راجع ، الدراية ص ٢٩٥، شذرات الذهب جـ ٥، ص ٢٩٨، تذكرة الحفاظ جـ ٤، ص ٥٠ ترجمة رقم (١١٥١) .
٢٢٦ ـ ابن مريم ، البستان ص ٢٢٧ ، الدراية ص ٣٠ هامش (١) .
٢٢٧ ـ المقرىء ، نفح الطيب ، دار صادر بيروت جـ ٦ ، ص ٢٣١ .
٢٢٩ ـ كلمة بربرية تعني القصر ومازالت مستخدمة في المغرب الاقصى الى يومنا هذا .
٢٣٠ ـ هو ابن مرزوق شمس الدين ابوعبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر التلمساني المولود بتلمسان سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠م والمتوفي بمصر سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩م، وصاحب كتاب المسند الصحيح الحسن في ذكر مآثر مولانا ابي الحسن .
٢٣١ ـ نسبة الى ابي الحسن الاشعري ، وقد ساد هذا المعتقد في المغرب الاقصى ايام الحكم المريني له .
٢٣٢ ـ بكسرتين ، وسكون الميم ، وسين مهملة ، وبعضهم يسميها تينمسان بالنون بدل اللام تقع في المغرب الاوسط ، منها ابوالحسين بن احمد بن خطاب بن خليفة التلمساني قدم الى بغداد سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م، راجع ، مادة تلمسان في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٢، ص ٤٤ .
٢٣٣ ـ زمامة ـ عبدالقادر ، المقري الجد ، دعوة الحق، عدد (٢) س (٢) شعبان ١٣٨٥هـ ديسمبر كانون الاول ١٩٦٥م ص ٩٦ ـ ١٠٠ .
٢٣٤ ـ ابن القاضي، ابوالعباس احمد بن محمد المكناسي ، ذيل وفيات الاعيان ، المسمى درة الحجال في اسماء الرجال ، تحقيق ـ محمد الاحمدي ابوالنور ، ط ١ دار التراث ـ تونس ـ القاهرة ١٩٧١م جـ ٣، ص ١٩ ـ ٢٦ . ترجمة رقم (٩١٥) بن شقرون محمد بن احمد ، مظاهر الثقافة المغربية ، مطبعة الرسالة الرباط د ـ ت ص ٥٩ وما بعدها الزركلي ، الاعلام ، جـ ٥ ص ٢٦٣ وما بعدها .
٢٣٥ ـ الوزير الشهير ابوعبدالله الحكيم ، الرندي ذو الوزارتين (السيف والقلم) ولد بمدينة رنده بالاندلس سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م رحل الى المشرق فنزل بمصر والحجاز والشام ، أخذ في رحلته هذه عن مشايخ عدة منهم ، ابواليمن بن عساكر اثناء التقائه به في الحرم الشريف ، وابوالعز عبدالعزيز بن عبدالمنعم الحراني المعروف بابن هبة الله ، وابو الصفاء خليل بن ابي بكر الحنبلي ، عند لقائه به في القاهرة وغيرهم الكثير اما شيوخه في بلده رنده فمنهم ، الاستاذ النحوي ابا الحسن علي بن يوسف العبدري السفاح ، الذي اخذ عنه اللغة وقراءة القرآن بالروايات السبع وعن الخطيب ابوالقاسم ابن الايسر ، وغيرهما له قصائد عدة منها قصيدة طويلة مطلعها :

هل الى رد عشيات الوصال   سبيل ام ذاك من ضرب المحال

راجع، نفح الطيب جـ ٢، ص ٦١٨ .
٢٣٦ ـ ابن القاضي ، درة الحجال ، جـ ٢ ص ٢٧ ـ ٣٧ ، ترجمة رقم (٤٧٦) .
٢٣٧ ـ هو ابوجعفر بن عبدالله بن محمد بن سيد بونه ، الخزاعي من اهل قسطنطانية من اعمال دانية بالاندلس ، تعلم القراءات القرآنية على ابن هذيل وابن نعمة بمدينة بلنسية، غادر الاندلس قاصدا المشرق لتأدية فريضة الحج، وبعد الانتهاء منها نزل بالاسكندرية اخذ عن السلفي وغيره ، وحفظ نصف المدونة ، ومهر في التفسير والحديث ، ولقي اثناء رحلته للحج بالمغرب ابا مدين شعيب ، وتأثر به ، ومال الى الزهد واعرض عن الدنيا ، توفي سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م عن سن عالية ، شهد جنازته خلق كثير من مختلف الجهات بالاندلس ، وبقي ضريحه مزارا يتبركون بزيارته الى ان سقطت دانية والمنطقة الشرقية من الاندلس بيد الاسبان . راجع ، المقرىء نفح الطيب جـ ٢ ص ٦١٨ .
٢٣٨ ـ هو علي بن عمر بن ابراهيم بن عبدالله الكناني القيجاطي ، ابوالحسن ولد سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م، قدم الى غرناطة من المغرب سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م واخذ يدرس في جامعها الاعظم فنون عدة منها ، الفقه والنحو والادب والقراءات القرآنية ، كما عمل في خطة القضاء في الحاضرة نيابة عن بعض القضاة ، وكان يعد من كبار الاساتذة في اللغة والادب والقراءات القرآنية ، له عدة تآليف في الشعر والنثر ، من شعره قوله :

روض المشيب تفتحت ازهاره   حتى استبان ثغامه وبهاره

والقصيدة طويلة بلغ تعدادها ثمانية وعشرين بيتا ، توفي في غرناطة سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م وحضر جنازته السلطان الغرناطي ورجال الدولة . راجع ، المصدر نفسه جـ ٥، ص ٥٠٧، ترجمة رقم (٢٤) .
٢٣٩ ـ هو الوزير لسان الدين بن الخطيب وقد سبق التعريف به .
٢٤٠ ـ ابن القاضي ، درة الحجال ـ جـ ٢، ص ٧٥ ـ ٧٦ ترجمة رقم (٥١٨).
٢٤١ ـ لعله هو الذي انشد للمعتضد بن عباد حينما تصرمت ايامه قائلا :

تطوى المنازل علما ان ستطوينا
فشعشعيها بماء المزن واسقينا

راجع، نفح الطيب جـ ٤، ص ٩٦٠ ترجمة رقم (٥٥٤) من الملاحظ ان هذه الكلمة مازالت متداولة على السنة العامة في المغرب فيقولون لصاحب الطلعة البهية (مشعشع) مشاهدات الباحث .

٢٤٢ ـ سبق التعريف به من شعره قوله :

بأربعة ارجو نجاتي وانها لا كرم مذخور لدي واعظم

شهادة اخلاصي وحبي محمدا وحسن ظنوني ثم اني مسلم

راجع، نفح الطيب جـ ٢، ص ٢٢٧ .

٢٤٣ ـ ابن القاضي ، درة الحجال جـ ٢ ، ص ٢٥٤ ترجمة رقم (٧٣٧) .

٢٤٤ ـ راجع ، المصدر نفسه ص ٢٥٩ ترجمة رقم (٧٤٤) .

٢٤٥ ـ ورد في كتاب درة الحجال جـ ٢، ص ٨٩ ابن شلبطور .

٢٤٦ ـ السلطان فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبدالحق يكنى بأبي عنان ، تولى الامارة سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ومات مقتولا حنقا من قبل وزيره الحسن بن عمر الفـودودي سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧م. راجـع ، ابن الاحمر ، اسماعيل ، روضة النسرين ، المطبعة الملكية الرباط ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ص ٢٧ .

٢٤٧ ـ ورد في كتاب نفح الطيب جـ ٢، ص ٨٢ بأن وفاته كانت سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤م .

٢٤٨ ـ راجع ، ابن القاضي، درة الحجال جـ ٢، ص ٨٩ ـ ٩٠ ترجمة رقم (٥٢٨)، نفح الطيب جـ ٦، ص ٨٢ .

٢٤٩ ـ بضم اوله وسكون ثانيه ، معقل حصين بالاندلس من اعمال تاكرنا ، وهي مدينة قديمة تقع على نهر جار وتقع بين اشبيلية ومالقة ، راجع ، مادة رنده في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ٣، ص ٧٣ .

٢٥٠ ـ حـركات ـ ابـراهيم، الحياة الدينيـة في عهد بني مـرين ، دعوة الحق ع (٢) س (٧) جمـادي الثـانيـة ١٣٨٣هـ / نوفمبر ١٩٦٣م الرباط ص ١١ .

٢٥١ ـ راجع ، ابن الاحمر ، نثير الجمان ص ٢٦٩ـ ٢٨٣، العسقلاني ، الدرر الكامنة ، دار الكتب الحديثة القاهرة جـ ٤، ص ٢٨٢ ترجمة رقم (٤٣٠٤)، نفح الطيب جـ ٥، ص ٥١٤ ترجمة (٢٦)، الزركلي ، الاعلام جـ ٧، ص ٣٧ .

١٥٢ ـ كلمة الآبار تعني صانع الابر ، والابرة هي المسلة والجمع ابر وآبار . راجع العبادي، عالم الفكر مج (٧) ع (١) ابريل مايو ١٩٧٧ م ص ٦١ وما بعدها .

٢٥٢ ـ السين مهملة مكسورة وياء خفيفة ، مدينة مشهورة تقع شرقي مدينة تدمير وشرقي مدينة قرطبة ، وهي مدينة برية وبحرية ذات اشجار وانهار تعرف بمدينة التراب ، راجع ، مادة بلنسية في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ١، ص ٤٩٠ .

٢٥٣ ـ بالكسر ثم السكون ، وكسر التاء ، اسم لكورة بالاندلس متصلة باعمال رية الواقعة في الجنوب الغربي من مدينة قرطبة تقع على نهر سنجل ذات اراضي واسعة ، راجع ، مادة استجه في ياقوت الحموي ، معجم البلدان جـ ١، ص ١٧٤ .

٢٥٤ ـ راجع ، ابن الاحمر ، مستودع العلامة ومستبدع العلامة تطوان ص ٧٨ ، عبدالعزيز ـ عبدالمجيد ، ابن الآبار ، حياته وكتبه ، تطوان ١٩٥١م ، الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها ص ٤٠٤ ترجمة رقم (٤٧١) نفح الطيب، جـ ٢، ص ٥٨٩ ترجمة رقم (٢١٨) نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٤٦٧ ترجمة رقم (٣٢٢) جـ ٤، ص ١١٩ ترجمة رقم (٥٨٥) العبادي ، عالم الفكر مج (٨) ع (١) ص ٦١ وما بعدها .

٢٥٥ ـ الزركلي ، الاعلام جـ ٨ ، ص ١١٤ .

٢٥٦ ـ سمي بالمغامي نسبة الى بلدة مغام من اعمال طليطلة ومغام كسحاب مثلما ضبطه الرشا وقيل كغراب ، كما ضبطه السمعاني ، اما اللباب فقد اقتصر على الضم ، راجع ، الزركلي الاعلام ، جـ ٨، ص ٢٥٧ .

٢٥٧ ـ هو عبدالله بن بكلين ـ او بلقين بن باد يس بن حبوس الصنهاجي ـ سبق التعريف به .

٢٥٨ ـ راجع ، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس جـ ٢، ص ٦٤ ، الديباج ص ٣٥٦ ، نفح الطيب جـ ٢، ص ٥٢٠ ترجمة رقم ٢١٠ ، الاعلام جـ ٨، ص ٢٥٧ .

٢٥٩ ـ ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب ص ٣٤٦ ، نيل الابتهاج هامش ص ٣٥٦ ، الاعلام جـ ٨ ص ١٣٦ .

٢٦٠ ـ زاد المسافر ، ٩ ـ ١٥ ، الاعلام جـ ٨ ، ص ١٥٢ .

٢٦١ ـ الاعلام جـ ٨، ص ١٦٠ .

٢٦٢ ـ الديباج ص ٣٥٠ ، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس جـ ١ ، ص ٤٤ ، الاعلام جـ ٨، ص ٧٦ .

دراسات في التنظيمات العسكرية لجيش التسلط البويهي على الخلافة العباسية

٣٣٤ هـ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٤م

د. عبدالجبار ناجي
كلية الآداب / جامعة البصرة

المبحث الاول
الجذور التاريخية لتكوين الجيش البويهي

تعد الفترة التي سيطر فيها البويهيون الديالمة على مقاليد السلطة في بغداد ، الى حد كبير ، امتدادا تاريخيا للفترة التي سبقت ذلك التي ساد فيها تغلغل العناصر الاجنبية في جيش الخلافة العباسية واستحواذها على الشؤون العسكرية والادارية . وقد برز نفوذ هؤلاء الاجانب في الجيش بشكل خاص حينما افلح القواد الاتراك في التآمر على قتل الخليفة العباسي المتوكل بحيث صاروا قوة متنفذة يتدخلون في اتخاذ القرارات المهمة وعلى رأسها مسألة اختيار الخلفاء او عزلهم .

وقد اعادت فترة انتعاش الخلافة العباسية القصيرة ، المتمثلة بتسنم الموفق والمعتضد والمكتفي مقاليد امور الدولة السياسية ، الى الدولة العباسية هيبتها وتأثيرها من جديد عندما وجه هؤلاء الخلفاء ضربة قوية للنفوذ التركي في الجيش والادارة ، لكن سرعان ما عادت الاوضاع الى سابق عهدها خلال فترة خلافة المقتدر بالله . وتعاظم نفوذ العناصر الاجنبية في الجيش العباسي بصورة اكبر على اثر تولية ابن رائق منصب امير الامراء ، اذ عمل هذا جاهدا على تجريد الخليفة والوزير من اهم الصلاحيات والامتيازات .

يرجع تاريخ تغلغل الديالمة ، كعنصر عسكري ، في صفوف الجيش العباسي الى حوالي الربع الاول من القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي ، وعلى وجه التحديد اثناء تصدي قائد الخليفة العباسي المقتدر بالله ، هارون بن غريب ، للتمرد الذي تزعمه مراد ويج الديلمي في المشرق . فقد استأمن الى هارون هذا نفر من عسكر الديالمة خلال تلك الحوادث . ويبدو ان هارون لم يول اهتماما كبيرا في الاعتماد عليهم في الحروب وذلك لانهم قد اثبتوا عدم قدرتهم وغير جديرين بالثقة

لضعف صمودهم « لأنه يعلم انهم يستأمنون ويسلمونه[1] ومن المحتمل ان هؤلاء الديالمة صاروا ضمن فرقة خاصة في الجيش تدعى (الساجية) اذ ترد اشارة الى ان الوزير ابن مقله قلد سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م ماكردر الديلمي من الساجية اعمال المعاون في الموصل وديار ربيعة[2] . غير ان نفوذهم السياسي والعسكري اخذ يتعاظم بصورة ملحوظة خلال العشر سنوات التي سبقت الغزو البويهي للعراق ، اي ابان فترة امير الامراء من سنة ٣٢٤هـ - ٣٣٤هـ / ٩٣٥ - ٩٤٥ م . ففي سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م اختلف جيش بجكم التركي ، امير الامراء ، فعقد الديلم الامر الى بلسوار بن مالك بن مسافر الكنكري لكن الاتراك عارضوا تنصيبه وهجموا عليه وقتلوه . والمهم في هذه الحادثة ان الجند الديالمة الذين كانوا مع بلسوار قد هربوا من بغداد على اثر مقتل اميرهم وتوجهوا نحو البصرة فانضموا الى جيش ابي عبدالله البريدي ، امير البريدين في البصرة . ويضيف ابن الجوزي الى ما ذكره مسكويه بالنسبة الى ارتفاع نجم الديالمة وتسلطهم ان اهالي بغداد اجتمعوا في شهر شوال من تلك السنة في جامع دار السلطان وتظلموا من اعمال الديالمة الوحشية « ونزولهم في دورهم بغير اجرة وتعديهم عليهم في معاملاتهم[3] ... » وقد وقع نتيجة لذلك اشتباك بين الناس والديالمة قتل فيه جمع منهم ، ووردت اشارة اخرى الى ان احد الديالمة وهو ابوالعباس اسكورج (او اشكورج) الديلمي كان متقلدا الشرطة في بغداد سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م. وان ابن شيرزاد، امير الامراء بعد توزون، قد قلد ينال كوشه اعمال المعاون في مدينة واسط سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وكان ينال كوشه هذا اول من دخل في طاعة احمد بن بويه عندما توجه من الاهواز الى بغداد في سنة ٣٣٤هـ .

لقد الم بالعراقيين خلال فترة تعاظم النفوذ التركي والديلمي صنوفا من الاذى والمحن الاجتماعية والاقتصادية . وقد ادت النزاعات والصراعات السياسية والعسكرية المستمرة بين زعماء الجند الاتراك والديالمة الى ارباك الاوضاع الادارية والاقتصادية فسقطت هيبة المؤسسات الادارية ، واهملت الاراضي الزراعية فتهدمت السدود وانبثقت البثوق وفاضت الحقول المنتجة فندرت المواد الغذائية الاساسية وارتفعت اسعارها . ورافق هذه الاحوال السيئة استثمار الطامعين والمتمردين هذه الفرص فطمعوا الى الاستقلال بالمناطق التي ضمنوها .

يمثل الغزو البويهي للعراق اول احتلال وتسلط عسكري اجنبي ديلمي على البلاد من النواحي السياسية والادارية والاقتصادية استمر حوالي مائة واربع عشرة سنة ، خضع فيها العراق الى سيطرة الجنود الديالمة الذين تشكلوا في بداية الامر على هيئة هجرات بدوية من منطقة جنوب غربي بحر قزوين ، ابتداء من منتصف القرن الثالث للهجرة - التاسع للميلاد تقريبا . وصار هذا الغزو الحلقة الاولى ضمن سلسلة من التسلط الاجنبي الذي اعقب ذلك كالتسلط السلجوقي والمغولي والتركماني والعثماني .. الخ .

ظهور البويهيين وتوسعهم

يرجع اصل الاخوة البويهيين الثلاثة الذين قادوا الغزو الديلمي باتجاه العراق الى منطقة الديلم . والديلم اصطلاح استخدمه الجغرافيون والمؤرخون العرب استخداما مزدوجا جغرافيا واثنولوجيا . فالتحديد الجغرافي للديلم بانه منطقة تقع الى الجنوب الغربي من بحر قزوين. عموما وهي منطقة واسعة تضم خمس كور هي : خراسان وقومس وجرجان والديلمان والخزر . اما التحديد الخاص للديلم فهو ذلك الاقليم الذي حده من الجهة الغربية بعض من اذربيجان وبعض من الري اما من الجبهة الجنوبية فيحده بحر قزوين وبعض من اذربيجان وبعض من الري ويحده من الجانب الشرقي ما تبقى من الري وطبرستان ويحده من الشمال بحر الخزر وجيلان والقسم الغربي من طبرستان[4] . ولقد ارتبط هذا التحديد الجغرافي للديلم بمنطقة جغرافية اخرى قريبة هي جيلان اوكيلان سكنها شعب يعرف بالجيل . وبذلك صار كل من الديلم والجيل مرتبطين ارتباطا اثنولوجيا، وهما يذكران غالبا سوية (الديلم والجيل). وفيما يتعلق بانساب هذين الشعبين هناك روايتان ترجع الاولى منهما الى ابي اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي (المتوفى ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م في كتابه (التاجي في اخبار بني بويه) اذ جاء فيه ان الديلم والجيل اخوان يرجع نسبهما الى اصل عربي وبالتحديد الى قبيلة بني ضبه . وكان لقبيلة بني ضبه العربية سيادة على المنطقة الشمالية من بلاد نجد الى جوار ديار بني تميم . ويقول الصابي ان ذرية كل من هذين الاخوين ، ديلم وجيل ، منسوبة الى هذه القبيلة ثم انقسموا في البلاد واختلطوا بالناس

وسكنوا القرى فغلبت عليهم الفارسية وانمحت عنهم(٥) العربية . فالرواية كما يزعم الصابي ترجع نسب البويهيين الى اصل عربي بصورة عامة وعدناني بشكل اخص على اعتبار ان بني ضبه يرجع نسبهم الى ضبه بن اد بن اياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وان هذه القبيلة كانت تعرف في كتب الانساب باحدى القبائل التي اطلق عليها جمرات العرب . والواقع ان عددا من المؤرخين الرواد لم يأخذوا رواية الصابي هذه مأخذا جديا وشككوا بها معتمدين على الحقيقة بان مؤلف كتاب التاجي انما كان يهدف من وراء كتابة كتابه التخلص من العقاب المحتم الذي فرضه عليه احد الامراء البويهيين ، عضد الدولة . وانه سوف يسجن الى الابد ان لم يكتب تاريخا يذكر فيه محامد البويهيين وفضائلهم بصورة مبالغة فضمنه حقا مجموعة غير قليلة من الاكاذيب والاباطيل(٦) . فالتناقض بين في كلمات الصابي على ان البويهيين من بني ضبه وان اولادهم تفرسوا بعد مخالطتهم الناس ونسوا العربية في الوقت نفسه تشير الروايات الاولى الى ان اسماءهم كانت فارسية مثل فناخسرو وما كان بن كاكي واسفار بن شيرويه وسالار وخس وفيروز شاه ومرداويج ووشمكير وسيرخ .

فضلا عن ذلك فان هؤلاء لم يكن يعرفوا العربية وان عاداتهم وتقاليدهم كانت فارسية وقد استمر وجود هذه السمات والخصائص عند البويهيين حتى نهاية دولتهم . اما الرواية الاخرى ، وقد كتبت ايضا للتزلف من البويهيين ، فقد ارجعت نسبهم الى بهرام جور بن يزدجرد الملك الساساني . والهدف منها ، كما هو واضح، ابراز انتماء البويهيين الارستقراطي وانهم من طبقة الملوك الساسانيين(٧) . والتفسير الاكثر صحة لاصل البويهيين ما ذكر بانهم ينتمون الى عائلة ديلمية فقيرة وان بويه ، والد الاخوة البويهيين الثلاثة ، كان صعلوكا فقيرا يعيش على صيد الاسماك . وان احمد بن بويه ، الذي تلقب بعد غزو بغداد بلقب معز الدولة ، اشار في احدى المرات مفتخرا بنسبه وانه كان يحتطب الحطب على رأسه(٨) .

مر تاريخ العلاقة السياسية بين الديلم والدولة العربية الاسلامية بمرحلتين : المرحلة التي سبقت دخولهم الاسلام ، اذ انهم كانوا يدينون بالزرادشتية ، والمرحلة اللاحقة التي اعتنقوا فيها الدين الاسلامي . وكانوا في كلتا المرحلتين يمثلون اتجاها معاديا للسلطة المركزية ، ووقفوا موقفا متمردا . فالمعروف تاريخيا ان منطقة الديلم وطبرستان صارتا من بين المناطق الخاضعة لحركات التحرر العربية منذ ايام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) ففي سنة ٢٢ هـ او ٢٣هـ / ٦٤٢م او ٦٤٣م افتتح القائد العربي نعيم بن مقرن مدينة همذان وافلح في السيطرة على جميع بلاد همذان الامر الذي جعل اهلها يطلبون الصلح من القائد العربي فاستجاب لطلبهم. لقد دفع هذا العمل العسكري الناجح بالديلم واهالي الري واذربيجان الى ان يجتمعوا ضد نعيم ووقعت معركة احرز فيها نعيم نصرا حاسما وبذلك صار الطريق مفتوحا لفتح الري وقومس وجرجان وطبرستان واذربيجان . اذ طلب ملوك هذه البلدان الصلح فكانت مثلا شروط نعيم مع صاحب الري ان :

أ ـ يعطى له الامان على الجزاء طاقة كل حالم في كل سنة ، اي الجزية .

ب ـ ان ينصح اهالي الري العرب ويدلوهم ولا يغلوا او يسلوا . بمعنى ان لا يتمردوا .

ج ـ ان يقروا المسلمين يوما وليلة .

د ـ ان يفخموا العرب المسلمين فمن شتم مسلما او استخف به يستحق العقوبة ومن ضرب مسلما قتل(٩) .

والواقع ان المرحلة الاولى من العلاقة بين الديلم والعرب منذ افتتاح الديلم حتى تقريبا سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤ اتسمت بسمة واحدة الا وهي تمرد الديلم المستمر على السلطة المركزية وخروجهم على نصوص الاتفاقيات وشروط الصلح المتفق عليها كلما سنحت لهم الفرصة بذلك مثلما حدث سنوات ٦١هـ /٦٨٠ و ٩٨ هـ / ٧١٦ .

واثناء خلافة مروان بن محمد ، وخلافة ابي جعفر المنصور سنة ١٤٣/ ٧٠٦ ، وخلافة المعتصم سنة(١٠) ٢٤٤هـ / ٨٣٨ . ويتبين من مجريات احداث هذه السنوات ان العلاقة بين الديلم والدولة الاموية ثم العباسية كانت متغيرة ، وانهم كانوا يتحينون المناسبات للاعلان عن خروجهم عن بنود الصلح وتمردهم على السلطة .

وقد حدث تغير هام في سمات المرحلة الثانية التي تبتدأ من حوالي سنة ١٧٥هـ / ١٩١ عندما اعتنق الديلم الاسلام على يد يحيى بن عبدالله . غير ان اعتناقهم الاسلام هذا لم ينه حالات التمرد والتآمر على الدولة العربية ، والدليل على هذا ان الخلفاء العباسيين كانوا يجهزون باستمرار الحملات العسكرية ضدهم فقد وجه الخليفة هارون الرشيد جيشا بقيادة الفضل بن يحيى

لقتال يحيى بن عبدالله ومن تبعه من الديلم . وفي سنة ٢٥٠ هـ / ٨٥٤م تحالف اهل طبرستان والديلم على قتال الطاهريين ، عمال الخليفة المستعين في هذه المناطق . وابتداء بهذه السنة برز الديلم واهالي طبرستان كقوة سياسية تحت زعامة الحسن بن زيد ضد الطاهريين والعباسيين ، وقد افلح سليمان بن عبدالله خليفة محمد بن طاهر العامل ، على الحاق الهزيمة بالحسن سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥ ، وتوالت الهزائم على الديلم بعد ذلك مثلما حدث في سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧ و ٢٥٥هـ / ٨٦٨ غير ان الظروف بعد عودة مفلح التركي الى بغداد قد ساعدت الديلم عل استعادة قوتهم ففي سنة ٢٥٦ هـ ٦٨٩ م استطاع الحسن على التغلب على الري ، وبعدها بثلاث سنوات تغلب على قومس . فصار وجها لوجه امام قوة الصفارين وفي سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤ تغلب على طبرستان(١١) . فالحوادث السابقة توضح بجلاء ان الديلم الذين كانوا في المرحلة الاولى من علاقتهم بالدولة العربية يتمردون وينتهكون شروط الاتفاقيات لاسيما عدم دفعهم الخراج بشكل ظاهر ويهدفون الى عرقلة السيادة العربية على المنطقة ، صاروا خلال هذه المرحلة قوة توسعية تحت زعامة الحسن الاطروشي اذ خرجوا من الديلم باتجاه طبرستان والري وتغلبوا على مناطق نفوذ الطاهريين .

اخذ دور القيادة الزيدية في العقد الاول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي يضعف ليحل محلها قيادات ديلمية محلية اذ وردت اسماء عدد من هؤلاء القواد الديالمة من امثال ليلى بن النعمان وما كان بن كاكي واسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار . وقد لعب مرداويج دورا عسكريا وسياسيا بارزا بعد ان حقق النصر على اسفار فاصبح سيد الموقف في الديلم والقوة المتنفذة فيها واسس امارة تعرف بالامارة الزيارية . وكان مرداويج هذا ضد العرب ، وقد اشار المؤرخون الى انه كان يهدف من وراء تحركاته السياسية وتوسعاته العسكرية الوصول الى عاصمة العباسيين ، بغداد ، وانهاء السيادة العربية وارجاع سيادة دولة العجم(١٢) . ولذلك فانه دخل في تحالف مع القرامطة لتشديد الحصار على العباسيين ، واصطدم بجيش العباسيين سنة ٣١٩/ ٩٣١ في نواحي همدان وسيطر على الجبل باسره الى منطقة حلوان . فاضطر قائد الجيش العباسي هارون بن غريب الى الانسحاب الى دير العاقول .

يشير الصابي ان بويه كان في جيش حمد بن الناصر الزيدي ، وانه قد ابدى مهارة بقتل احد القادة(١٣) الديالمة . والظاهر انه لم يكن للاخوة البويهيين الثلاثة ، علي وهو الاكبر والحسن وهو الاوسط واحمد وهو الصغير الذي غزا بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، دورا سياسيا مهما اثناء الاحداث التي برزت عندما ضعف دور القيادة الزيدية ، اعني خلال تصارع القوى الديلمية المحلية السابقة الذكر . فكانوا جنودا تابعين لاحد القادة الديالمة ثم تحولوا الى جيش ما كان بن كاكي وبعد اندحاره في القتال ضد مرداويج صاروا في صفوف جيش مرداويج .

وقد قلد مرداويج علي بن بويه عددا من القادة الديالمة الاعمال الادارية ، فكانت الكرج من حصة علي . ويبدو انه سرعان ما اخذ يشك في نوايا علي بن بويه فأمر اخاه وشمكير بالقبض عليه ، ووصلت الاخبار الى علي فغادر الري متوجها الى الكرج(١٤) . وبذلك فان هذه المرحلة تعد الخطوة الاولى في هجرة البويهيين باتجاه الجنوب بعيدا عن قبضة مرداويج، وكذلك تعد الخطوة الاولى في تكوين جيش خاص بالبويهيين .

لقد ساعدت علي بن بويه في مسيرته نحو الكرج والمناطق الاخرى عدة ظروف منها : علاقته الودية بالحسين بن محمد الملقب بالعميد ، وهو والد الوزير المشهور ابوالفضل بن العميد ، كذلك قدرته العسكرية والادارية ، وحسن تصرفه مع اهالي المدن التي افتتحها . والاهم من ذلك الظروف السياسية السائدة انذاك في المنطقة التي تحرك فيها . اذ كان السامانيون آنئذ، وهم قوة سياسية متنفذة ، مشغولين الى درجة كبيرة في مكان آخر من بلاد ما وراء النهر . وكانت الخلافة العباسية تعاني من ازمات سياسية داخلية متمثلة بصراع الاداريين فيما بينهم من اجل الوصول الى منصب الوزارة من جهة وفيما بينهم وبين قادة الجيش الاجانب امثال مؤنس الخادم من جهة اخرى . وهناك ظروف ادارية مواتية ايضا اذ اولت الخلافة في بغداد مسؤولية الاشراف على اعمال الخراج والمعاون في كل من بلاد فارس وكرمان الى ياقوت ، وابنه المظفر الاشراف على ولاية اصبهان . والظاهر ان الاثنين ، ياقوت وابنه ، كانا قاصرين عسكريا وغير متأهبين من الناحية العسكرية لصد التوغل البويهي . فلم يبق امام علي بن بويه سوى مرداويج الذي الح في طلب علي وعرقلة مسيرته باتجاه الجنوب .

كيف استطاع علي بن بويه تكوين جيش قادر على الغزو ؟ للاجابة على هذا السؤال الهام لابد من تتبع مسيرة علي بن بويه العسكرية فانه اولا افلح في دخول الكرج والسيطرة عليها ، وان اول عمل قام فيه استخراج الاموال وتوزيعها على بعض القادة الديالمة الذين هربوا من مرداويج . وكانت حصيلة هذا العمل ان هيأ قوة تقدر بنحو ثلاثمائة رجل . فتمكن بواسطة هذه القوة فتح مدينة همدان . هنا ايضا قام بجمع الاموال الكثيرة التي اعطته فرصة جذب الجنود الى صفه . سار بجيشه هذا نحو مدينة اصبهان التي كانت انذاك خاضعة اداريا الى عامل الخليفة العباسي ، المظفر بن ياقوت . وقد التقى الطرفان في موضع يبعد مسافة ثلاثة فراسخ من اصبهان، وفي هذه الاثناء تهيأت لعلي بن بويه ظروف مساعدة هي :

١ ـ استئمان عدد من الجنود الديلم والجيل الذين كانوا في صفوف جيش المظفر بن ياقوت عندما بلغتهم انباء معاملة علي للجند والارزاق الجيدة التي كان يدفعها .

٢ ـ بانضمام هؤلاء الجند صارت كفة علي العسكرية هي الارجح .

فانتصر في المعركة واستولى على اصبهان . ولما علم بان مرداويج يهدف الى التوجه نحو اصبهان لمنازلته قرر ترك المدينة والتوجه نحو ارجان ، وكانت تابعة اداريا الى عامل الخليفة وهو ابن ياقوت الاخر ابومحمد بكر بن ياقوت . ولم يقو ابوبكر محمد على مواجهة تقدم علي بن بويه فاضطر الى الانسحاب نحو مدينة رامهرمز تاركا مدينة ارجان تقع في ايدي البويهيين . فدخلها علي وجيشه واستخرج منها الاموال التي يحتاجها لدفع ارزاق جنده ثم تركها متوجها نحو شيراز ، كان ياقوت عامل الخليفة على شيراز متهورا في تصرفاته فارهق الاهالي بطلب الاموال للانفاق على جنده ، كما انه عامل اهالي المدينة معاملة سيئة . وقد لعبت هذه العوامل دورا بارزا في اضعاف الجبهة العسكرية لياقوت فاستغلها علي بن بويه . كان اللقاء العسكري الاول بين الطرفين في مدينة نوبندجان اذ حقق علي انتصارا على جيش ياقوت . في الوقت نفسه تزايد حجم جيش علي على حساب جيش ياقوت ، حينذاك ارسل اخاه الحسن بن بويه برفقة قوة عسكرية نحو كازرون واعمال فارس الاخرى من اجل استخراج الاموال اللازمة وقد افلح الحسن في تحقيق غرضه .

بعد هذه الانتصارات العسكرية التي حققها علي واجه تحالفا قويا يتألف من مرداويج وياقوت ، لذلك بادر مسرعا الى الانسحاب من مدينة نوبندجان متوجها نحو كرمان ، ومدينة اصطخر والبيضاء . وتقابل بالقرب من موضع يقع في الطريق الى كرمان ، مرة اخرى مع جيش ياقوت ووقعت معركة فاصلة بين الطرفين في ٢٢ جمادي الاخرة ٣٢٢هـ / ٩٣٣ حددت مستقبل البويهيين العسكري . فقد كان جيش ياقوت يتألف من حوالي سبعة عشر الف رجل من الساجية والحجرية والمصافية والديلم . بينما كان جيش علي بن بويه يتكون من ثمانمائة رجل من الديلم . وكسب علي الجولة ايضا واخذ عددا من جنود ياقوت اسرى ، ثم تقدم نحو مدينة الزرقان وبعدها الى مدينة دبنكان . وقد انضم اليه وهو في طريقه عدد من الجنود فاحسن اليهم . وتوجه الى شيراز فعسكر في ضواحيها واعطى اهلها الامان ، ووجه اخاه الاصغر احمد الى المدينة لاقرار اوضاعها .

توجه اهتمام علي بعد ان حصل على هذه الانتصارات للحصول على موافقة الخليفة بشرعية ما كسب من مناطق ، ودخل في مراسلات مع الوزير ابن مقله حالفا اغلظ الايمان بالطاعة وباذلا مبلغا يقدر بثمانية آلاف درهم من اجل الحصول على موافقة الخليفة ، لكنه احتال على رسول الوزير فتسلم الخلعة واللواء دون ان يسلم المبلغ الذي وعد به .

وقد ارسل مرداويج جيشا من اصفهان مكونا من ٢٤٠٠ رجل من الجيل والديلم لمهاجمة علي من جهة الاهواز لقطع الطريق على البويهيين ويكون حاجزا بين علي والعراق فيبقى امامه منفذا واحدا هو كرمان . وكانت الاهواز آنئذ خاضعة لابي عبدالله البريدي ، لكنه انسحب منها ، تاركا امرها لمرداويج . وبانسحاب ابي عبدالله البريدي وياقوت صار علي وجها لوجه امام جيوش مرداويج . ولم يحدث تصادم عسكري بينهما اذ توصلا الى اتفاقية فيما بينهما .

لم يبق امام البويهيين لغزو العراق سوى قوة البريدين وياقوت وقد وقعت معركة بينهما في مدينة عسكر مكرم انهزم فيها ياقوت نحو مدينة رامهرمز ، بينما صار البريدي مضطرا الى طلب الصلح .

وبذلك اصبح علي بن بويه القوة المتنفذة الوحيدة ، وان عددا من جنود مرداويج من الديلم والاتراك تركوا خدمته بعد مقتله . والانضمام الى جيش علي فازداد حجم جيش البويهيين(٢٥) .

اذن فان الغزو البويهي اتبع خطا استراتيجيا ضيقا ولم يخرج البويهيون عنه كثيرا ، فابتدأ

بالكرج ـ همذان ـ اصبهان ـ ارجان ـ نوبندجان ـ اصطخر ـ البيضاء ـ دبنكان ـ شيراز ـ الاهواز . واقتصر دورهم على المحافظة على المكاسب التي حصلوا عليها على طول هذا الخط العسكري ولم يلعبوا ، كما هو الحال بالنسبة الى السامانيين ، اي دور عسكري ثغري . وبقيت هذه السمة ملازمة للبويهيين، فعندما وزع علي الممتلكات على اخويه ، فانها كانت تقع ضمن هذا الخط ايضا . وعندما غزوا بغداد وسيطروا على العراق مائة واربع عشرة سنة لم يقوموا باي عمل خارج حدود العراق لصد هجمات البيزنطيين مثلا .

وكان تركيب جيش علي بن بويه خلال هذه المرحلة من الغزو مؤلفا بشكل رئيسي من الديلم والجيل . وكان جيشا صغيرا ، غير ان انتصارات علي على جيش ياقوت وابنه ساعدت على توسيع حجم الجيش وتنويع عناصره ، فضم ، بعد مقتل مرداويج ، الاتراك ايضا .

اما اقتصاد البويهيين فانه لم يكن حتى هذه الفترة اقتصادا منتجا انما هو اقتصاد قائم على توفير ارزاق الجند فقط ، وهناك عدة روايات تشير الى دور عامل الصدفة في توفير الاموال وسد افواه جنده عندما كان علي يواجه اوقاتا عصيبة جدا . فان علي بن بويه حينما دخل مدينة اصبهان جمع الاموال الكافية لسد ارزاق ورواتب جنده ، كذلك فعل حينما دخل مدن اخرى . ويذكر مسكويه انه عندما غزا شيراز ضاقت احواله المالية ، وجنح على اثر ذلك الجند واخذوا يطالبونه بارزاقهم ، ولم يكن لديه ما يكفي لسد افواههم لذلك « اشرف امره على الانحلال » . ولعبت الصدفة دورها اذ عثر في دار ياقوت على اموال كثيرة « فسر به وانفقه في رجاله وثبت امره بعد ان اشفى على الانحلال[١٦] ... » ان هذه المسألة الحيوية ستكون لها تأثيرات هامة في سياسة البويهيين الاقتصادية بعد غزوهم العراق ، اذ ادت الازمة المالية التي واجهها احمد بن بويه ، معز الدولة ، الى ظهور مشاكل ومتاعب سياسية مع جنده الديالمة والاتراك وصارت من العوامل الاساسية في ضعفهم وانهاء تسلطهم . فقد ورد ان معز الدولة هذا قد توسع نتيجة افتقاره للاموال في اقطاع الجند الاقطاعات وزاد في ارزاقهم « فتعذر عليه ان يدخر ذخيرة لنوائبه او يستفضل شيئا من ارتفاع ولم تزل مؤونته تزيد ومواده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حد منه بل يتضاعف تضاعفا متفاقما وادى ذلك على مر السنين الى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من اموالهم[١٧] » .

★ ★ ★

وضع الجيش العباسي قبيل غزو البويهيين :

كانت التوقعات التي تصورها الخليفة العباسي الراضي بالله بمنحه محمد بن رائق الصلاحيات السياسية والادارية في سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥ بتقليده منصب امير الامراء غير واقعية ولم تتحقق . فلم يتمكن ابن رائق او من جاء بعده كامير للامراء امثال بجكم التركي وكورتكين وتوزون وابن شيرزاد ، وهم من القادة الاتراك ايضا ، التغلب على المصاعب المالية التي كانت في الاساس العامل المهم في ايجاد هذا المنصب الجديد . فقد تزايد النفوذ الاجنبي التركي والديلمي في الجيش العباسي خلال فترة العشر سنوات التي سبقت الغزو البويهي . والواقع ان جميع هؤلاء القادة العسكريين الاجانب فشلوا في التغلب على السبب الاساسي في خلق هذه الازمة المالية الا وهو تصاعد اطماع الجنود الاتراك والديالمة وانقسامهم على انفسهم وتنازعهم وفساد احوالهم .

كان توجه الخليفة الراضي في الاعتماد على ابن رائق لحل الازمة المالية توجها مدروسا ، فابن رائق كان متسلطا على اعمال البصرة وواسط ومقتدرا من الناحية المالية لما حصل عليه من اموال هاتين المدينتين المنتجتين . في المقابل فقد واجه الخليفة مصاعب جمة ادارية ومالية ، اذ انه استوزر خلال سنتين فقط اربعة وزراء ، وقد اثبت جميعهم فشلا في تهيئة ارزاق العناصر العسكرية الاجنبية فقد اغرى محمد بن علي بن مقلة الجند الساجية بتوزيع اموال كثيرة عليهم غير انه في الواقع فشل في حل المشكلة المالية فكان ضحية للغلمان الحجرية الذين قبضوا عليه سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥، كما عجز عبدالرحمن بن عيسى عن تمشية الامور واحتاج الى اموال ، وفشل الكرخي في السيطرة على الازمة المالية فانتهى امره بالعزل ايضا ، ولم يبق الوزير الرابع ـ سليمان بن الحسن بن مخلد، الا اياما قليلة ثم عزل . فكان لابد للخليفة الراضي بالله ان يجد في البحث عن شخصية تتمكن من السيطرة على الامور وسد افواه الجنود الحجرية والساجية فكان امام عدة خيارات :: اما ان يستدعي الحمدانيين ، وهم القوة العربية المتنفذة في الموصل والجزيرة ،

وكانوا يبذلون قصارى جهودهم في المجال العسكري الثغري وصد هجمات واعتداءات البيزنطيين . واما ان يستعين بالبريدين في البصرة الذين صاروا قوة لا يستهان بها ، غير ان الخليفة لم يكن يميل اليهم لما عرفوا به من اهتبال الغرض لصالحهم . لذلك توجه الى ابن رائق فـ« اذكره بما ضمن من القيام بالنفقات وازاحة علة الجيش والحشم ومسئلته[١٨] .. ». وقلده امرة الامراء .

هل افلح امير الامراء في مهمته والسيطرة على تمرد العناصر في الجيش العباسي ؟ الجواب كلا . اذ انه، سواء كان ابن رائق أو من جاء بعده كبجكم التركي ، لم يستطع السيطرة على الامور السياسية والمالية والعسكرية ، فازدادت اضطرابات ونزاعات الجند الاتراك والديالمة ، وسادت حالة من الفوضى والضعف على الجيش العباسي . ففي السنة التي تسلم فيها ابن رائق المنصب شغب الجند الحجرية في بغداد وحاصروا دار الخلافة ولم يهدأوا الا بعد ان ارسل امير الامراء القواد الاتراك[١٩] لصدهم . وبعد سنة واحدة ٣٢٥/ ٩٣٦ شغب الحجرية ايضا على امير الامراء وهو في طريقه الى واسط لمقاتلة البريدين الامر الذي دفعه الى ان يطرد الكثير منهم من جيشه فتزايدت حركة اضطرابهم وحملوا السلاح ضده ، فحاربهم وقتل قسما منهم وهرب الباقون ، فنهبت دورهم واملاكهم[٢٠] . وعلى اثر مقتل بجكم في ٣٢٩/ ٩٤٠ اضطرب جيشه فمال الديالمة الى كنكري الديلمي وقلدوه امرة الامراء ، لكن الاتراك لم يرضوا به[٢١] فقتلوه . ولم يتمكن البريدي الذي استولى على بغداد من ان يحد من طموحات الجند ، الذين اجتمعوا عليه وطردوه من العاصمة وقلدوا امرة الامراء الى كورنكيج ، لكنه لم يبق طويلا حتى شغب عليه الجند ووقع قتال بينهم ولم يجد امير الامراء الاموال اللازمة لسد افواههم[٢٢] . وفي سنة ٣٣٠/ ٩٤١ شغب الاتراك على ابن رائق الذي عاد ثانية فاستولى على بغداد ، ولم يستطع الصمود تجاه تمرد الاتراك فهرب الى الموصل وتسلط الديالمة على الوضع فقتلوا كل من وجدوه في دار السلطان[٢٣] .

كما ان الحسن بن عبدالله بن حمدان لم يفلح في الحد من تمرد الجند فكان الاتراك يطالبونه بارزاقهم باستمرار الى ان اجبر على ترك معسكره فاضرم الاتراك النار فيه ونهبوا ما تبقى من اموال[٢٤] . وشغب الجند سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ ثم اجتمعت كلمتهم على تنصيب ابن شيرزاد ، الذي نجح مؤقتا في دفع أرزاقهم ، لكنهم في نهاية الامر شغبوا[٢٥] عليه .

ايضا فان امير الامراء لم يحقق الامان والسلام للاهالي، فاعتمادا على ما ورد من معلومات، فان الناس قد تعرضوا الى صنوف من الاذى والظلم ، ونظرا لانعدام الامن الداخلي وتفرد الديالمة والاتراك كثرت اللصوصية واعمال النهب والسلب . واعتدى الجنود الديلم والاتراك على التجار والموسرين فاندفعوا هاربين من بغداد . وتضاعفت الضرائب على الاهالي ، وارتفعت اسعار المواد الغذائية الاساسية بالنظر الى شحتها . وقد شارك الجنود الديالمة الاهالي في دورهم ومنازلهم دون ان يدفعوا اجرا مقابل ذلك . ومن بين النماذج العديدة التي صورها المؤرخون عن الوضع في بغداد عامة واحول الجند بشكل خاص نذكر الحوادث الآتية : ففي سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠ طالب الديلم تجار بغداد بدفع الاموال ، وفرض ضامن الزوارق الصاعدة الى بغداد من البصرة ، والمنحدرة من بغداد الى البصرة قيودا قاسية على التجار ، ويعقب الصعولي قائلا انه « فتح على الناس ابوابا من البلاء عظاما[٢٦]... » . وفي السنة ذاتها ثار اهالي بغداد على الجنود الديالمة واجتمعوا في دار السلطان وتظلموا من معاملة هؤلاء الجنود واعتداءاتهم ، ومنعوا امام الصلاة في المسجد الجامع من اقامة الصلاة . وعندما حاول الديالمة الوقوف بوجه الاهالي وقع اصطدام بين الطرفين قتل فيه جمع[٢٧] من الديالمة . واشتد الغلاء وارتفعت اسعار الحنطة والشعير والخبز في سنوات ٣٣٠/ ٩٤١ و ٣٣١/ ٩٤٢، ونتيجة لاضطراب الاحوال في هذه السنة هرب الكثير من تجار بغداد برفقة الحجاج الى بلاد الشام ومصر[٢٨]، وازدادت اعمال اللصوصية حتى ان الناس اخذوا يحرسون بيوتهم بانفسهم ليلا ، ودفعت هذه الظروف الناس الى ترك بغداد ، ويعقب الصولي على ذلك قائلا ان الاهالي « لو آمنوا لخرج اضعاف من خرج[٢٩] » . ويصور مسكويه الوضع الداخلي للعاصمة وتمرد الجنود بسبب ارزاقهم فيقول ان امير الامراء عندما اشتدت عليه الضائقة المالية « اخذ في المصادرات وقسط على الكتاب والعمال والتجار وسائر طبقات الناس مالا لارزاق الجند[٣٠] ... » .

خلاصة القول ان استحداث منصب امير الامراء لم يأت بحلول شافية للسيطرة على تمرد الجند الاجانب . وفي هذه الاوقات بالذات كان البويهيون يخططون الى غزو بغداد فلم يجدوا امامهم مقاومة كبيرة من قبل الجيش، بالرغم من الحقيقة ان البريدين في البصرة قد قاوموا التقدم

البويهي حتى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ التي قتل فيها ابوعبدالله البريدي فصار الطريق مفتوحا امام البويهيين . كما جابه البويهيون مقاومة جدية من قبل الحمدانيين ، ومع انهم لم يفلحوا في صد الغزو البويهي لكنهم ظلوا يشكلون قوة سياسية يعد لها حساب خلال فترة الغزو . فبعد فترة قصيرة فقط من دخول معز الدولة بغداد توجه ناصر الدولة الحمداني بحملة عسكرية من الموصل ضد البويهيين ، ونزل في سامراء ، بينما عسكر اخوه ابوالعطاف جبير بن عبدالله في باب قطربل ببغداد حيث استقبله اهالي بغداد . وكادت الاوضاع العسكرية تميل الى صالح الحمدانيين فتكون نهاية الغزو البويهي لاسيما وان معز الدولة كان في ظروف اقتصادية عسيرة . الا ان الصدفة شاءت ان يدبر معز الدولة حيلة عسكرية نجحت في احباط هجوم الحمدانيين(٣١) وكذلك واجه الغزو البويهي للعراق مشكلة سياسية جديدة متمثلة بظهور عمران بن شاهين في البطائح ، وقد شكلت نشاطاته السياسية خطرا كبيرا على سيادة(٣٢) البويهيين .

★ ★ ★

المبحث الثاني :

تنظيم الجيش خلال فترة التسلط البويهي :

من المعروف تاريخيا ان استخدام العناصر الاجنبية في الجيش العباسي لم يقتصر على فترة التسلط البويهي انما يرجع الى فترات تاريخية اقدم من تلك . فقد ادخل الاتراك في الجيش مثلا منذ خلافة المأمون ثم اخذ يتزايد عددهم خلال خلافة المعتصم ، وبدأ يتعاظم نفوذهم السياسي والعسكري والاداري بعد موت الخليفة الواثق . اعتمد الخليفة المأمون ومن بعده المعتصم على العنصر التركي نتيجة عدد من العوامل من بينها كفايتهم الحربية وشجاعتهم في ساحات القتال وولائهم المطلق واخلاصهم للخليفة . وكان هؤلاء الاتراك فرسانا مشهورين اثبتوا مقدرة فائقة في المعارك التي جرت في الساحات المكشوفة والمناطق البعيدة عن العاصمة . غير انهم بمرور الزمن واجهوا تحديات جديدة لم ينجحوا كثيرا في مواجهتها واخص بالذكر منها المعارك التي وقعت في مناطق تكثر فيها الانهار والقنوات والترع الصغيرة او المناطق المكتظة بالنخيل والبساتين منهم لم يظهروا مثلا مقدرة حربية متميزة في حروب البطائح او في المعارك النهرية في جنوب العراق ، او مناطق البساتين حيث بساتين النخيل في واسط والبصرة .. الخ .

ومن الجانب الآخر فان الحاجة الى ادخال عنصر المشاة من الديالمة الرجالة في الجيش العباسي قد كان هو الآخر موجودا قبل فترة غزو البويهيين لبغداد ، وبشكل ادق عندما اتسع الطلب على الجنود المرتزقة فمنذ القرن الثالث للهجرة ـ التاسع للميلاد . وقد استخدم الديالمة ، كما هو الحال في الاتراك ، كحرس في القصر او بلاط الخليفة ، فضلا عن الاعتماد عليهم في الفرق العسكرية المعروفة آنذاك .. عندئذ بدأ تدفق الجنود الديالمة من منطقة قزوين الجبلية باتجاه بغداد ، غير ان اعدادهم ، مع ذلك ، لم تكن كثيرة بحيث تجعلنا نفسر هذه الحركة على انها هجرة ديلمية او تجمع عنصري ديلمي كما هو الحال في الجنود الخراسانية او الفراعنة او المغاربة .

وهناك ما يبرهن على وجود عنصر الديالمة في الجيش العباسي منذ حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة فاعتمادا على قائمة المصروفات التي اوردها الصابي في كتابه (الوزراء) التي عدد فيها العناصر المختلفة التي كانت تعمل كحرس في قصر الخليفة والتي تتقاضى لقاء ذلك الرواتب ، فمن بين هذه العناصر مجموعة اطلق عليها اسم « اصحاب المصاف بباب العامة(٣٣) » وهي اشارة الى اولئك الجنود الذين كانوا يصطفون في صحن الاستقبال داخل القصر . ومن المحتمل ان هؤلاء صاروا النواة المركزية لتشكيل فرقة المصافية التي يتردد ذكرها كثيرا في احداث القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد . ولعله من الصحيح القول بان الديالمة قد انضموا الى هذه الفرقة . كما ورد في القائمة ذكر لمجموعة اخرى تعرف(٣٤) بالطبرية والديالمة ، ويقصد بهم الجنود الوافدين من طبرستان والديلم . علاوة على ذلك فقد ورد في احداث سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢م ذكر لشخص اسمه علي بن وهسوذان الديلمي وكان هذا متنفذا ومتقلدا اعمال المعاون في اصبهان خلال ايام الخليفة المقتدر(٣٥) . ومنذ خلافة المقتدر فصاعدا نجد ذكر اسماء جنود وقادة ديالمة في الجيش العباسي وجيوش امير الامراء والبريديين والحمدانيين من امثال ابوالحسن بن فنا خسرو الديلمي وكان متقلدا اعمال الشرطة ، وماكرد الديلمي وكان قائدا في الجيش ، وبلسوار بن مالك ، وكورتكين الديلمي وقد تقلدا امرة الامارة ، واسكورج الديلمي وكان ايضا متقلدا للشرطة(٣٦) .

لكن اعدادهم ، كما قلنا ، ليست كثيرة ، لذلك فان اهمية دراسة الجيش خلال فترة التسلط البويهي تكمن في ان الديالمة الرجالة صاروا

يشكلون العمود الفقري بل العنصر الاساسي فيه سواء كان ذلك من حيث تنظيماتهم العسكرية واساليبهم في القتال ام من حيث خططهم وانتماءاتهم القبلية . ولقد وصف الديالمة ايضا بنزعتهم الحربية ، وكانت السمة المميزة لتجهيزاتهم الحربية في ميدان القتال منذ الفترات التاريخية القديمة استعمالهم السيف والرمح والجوبين (الرمح القصير) . وعلى عكس الجنود الاتراك فان الديالمة لم يبرعوا في الحروب كفرسان انما كمشاة ورجالة . وقد ظلت هذه السمات العسكرية هي السمات البارزة في تنظيماتهم ومعداتهم خلال فترة التسلط البويهي .

من الواضح ان الديالمة قد شكلوا العنصر الاساسي في جيوش الزعامات او التكوينات الديلمية القبلية التي برزت على مسرح الاحداث في منطقة قزوين كجيش اسفارين شيرويه وما كان بن كاكي ومرداويج بن زيار والاخوة البويهيين . اذ تحدثنا الروايات التاريخية ان علي بن بويه عندما هرب من قبضة مرداويج بن زيار كان برفقة عدد من القواد الديالمة الذين لحقوا به واعلنوا تمردهم على مرداويج وكان عددهم اربعين رجلا . غير ان عليا بعد ان غنم الاموال في مدينة الكرج افلح في جذب اعداد اخرى ، فذكر انه حينما اراد ترك المدينة عرض رجاله ، فكانوا ثلاثمائة رجل فقط مما يشير الى تنامي قدرته العسكرية . وقد تزايدت اعداد جنده بشكل اكبر عندما حالفه الحظ في العمليات العسكرية التي جرت بينه وبين جيوش ياقوت وابنيه بالقرب من مدينة اصبهان ، اذ استأمن اليه حوالي اربعمائة رجل من الديلم والجيل فارتفع العدد الى حوالي سبعمائة رجل . ثم انضم اليه مائة رجل وهو في طريقه الى مدينة النوبندجان فصار العدد ثمانمائة رجل[٣٧] . وقد تهيأت ظروف مالية جيدة لعلي كما ساعدت عوامل شخصية مثل حسن معاملته لاتباعه ودفعه ارزاقهم بانتظام على جذب اعداد اخرى من الديالمة حتى انه صار باستطاعته ان يجهز حملة عسكرية في سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥ وبرفقة اخيه الاصغر احمد بن بويه نحو كرمان ، وكانت هذه الحملة تضم كبار الديلم وقوادهما وبلغ عدد الرجالة الديالمة فيها الفا وخمسمائة ديلمي وحوالي خمسمائة من الجنود[٣٨] الاتراك . وعتمادا على ما اورده العوفي في كتابه (جوامع الحكايات) ان تعداد جيش احمد بن بويه ، معز الدولة ، حينما غزا بغداد كان حوالي عشرين الفا من الديالمة والاتراك[٣٩] . ومع ذلك فاننا لم نعثر على استشهاد آخر بعد هذا التاريخ (اي ٣٣٤ هـ) يؤيد فكرة استمرار تدفق الجنود الديالمة من منطقة قزوين والانضمام الى جيش البويهيين في العراق[٤٠] ، ومن المحتمل ان تدفقهم استمر في جيوش التكوينات البويهية في بلاد فارس . وهناك اشارة تفيد ان شرف الدولة البويهي عندما توجه نحو بغداد على اثر استسلام صمصام الدولة سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م كان على رأس جيش كبير بلغ عدد الجنود الديالمة فيه نحو تسعة عشر الفا (١٩,٠٠٠) رجل علاوة على ثلاثة آلاف من الجنود الاتراك . ويصف الروذراوري جيش شرف الدولة هذا بانه كان يتألف من ثلاثة عشر الف رأس جمل ، وكان عدد الجمال المعدة لعسكره اكثر من ذلك العدد ، وكان عدد غلمان خيوله الفا وثمانمائة غلام[٤١] . والملاحظ ان رقم (١٩٠٠٠) ديلمي هذا يمثل مجموع الديالمة الذين كانوا معه أصلا والديالمة الموجودين في جيش صمصام الدولة والذين انضموا اليه .

ومن الجانب الآخر فان الانتصارات العسكرية المتكررة التي رافقت تقدم جيش علي بن بويه واستيلائه على مناطق ومدن متعددة في بلاد فارس قبل غزوه العراق كانت عوامل مشجعة لفتح المجال امام استخدام العنصر التركي في الجيش . ولعل الحاجة الى استخدام الاتراك الى جانب الديالمة الرجالة صارت قائمة اثناء المعارك التي دارت بين الديلم وجيوش ياقوت وابنيه في المناطق المكشوفة ، فضلا عن ذلك فان جيش مرداويج الزياري هو الآخر كان يضم في صفوفه الجنود الاتراك . وتبين الروايات ان هؤلاء القادة الاتراك لم يكونوا على وئام مع مرداويج وذلك بسبب معاملته الخشنة ، الامر الذي دفعهم الى التآمر عليه وقتله . فلجأ عدد من هؤلاء القادة وجنودهم الى علي بن بويه فضمهم الى عسكره . كما انضم الى علي ايضا عدد آخر من القادة والجنود الاتراك على أثر انتصاره على ياقوت[٤٢] . وعلى هذا الاساس فان الحملة العسكرية التي ارسلها علي تحت قيادة اخيه الاصغر احمد بن بويه ضد كرمان كانت تضم حوالي خمسمائة من الاتراك .

وكان جيش معز الدولة الذي غزا فيه بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ يضم الديلم والجيل والاتراك ، وحول نتائج هذا الغزو يذكر مسكويه ان الديلم والجيل والاتراك نزلوا دور اهالي العاصمة « فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة .. وصار رسما عليهم[٤٣] » . ومن الطبيعي القول بان اولئك الاتراك الذين كانوا في صفوف جيش امير الامراء قد انضموا ايضا الى جيش معز الدولة ، علما بانهم في بداية الامر اضطربوا واستتروا

خوفا على مصيرهم من البويهيين ولذلك فانهم وقفوا الى جانب ابن شيرزاد وناصر الدولة الحمداني ضد معز الدولة والتسلط البويهي ، واخص بالذكر طائفة الاتراك التوزونية الذين ظلوا منضمين الى جيش الحمدانيين[٤٤] .

ويبدو ان هناك عوامل عديدة دفعت البويهيين ، بمرور الزمن بعد غزوهم ، الى تقليل اعتمادهم على ابناء جلدتهم الديالمة بينما عززوا علاقتهم بالاتراك وقربوهم ومنحوهم ثقة اكبر لاسيما على اثر تمرد الديالمة وشغبهم في سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ على معز الدولة ، والتمرد الخطير الذي تزعمه روزبهان بن ونداد الديلمي سنة ٣٤٥هـ / ١٠٥٣ . فقد لعب الجند الاتراك دورا كبيرا في ترجيح كفة معز الدولة والقضاء على هذا التمرد في الوقت الذي انضم فيه عدد من الديالمة الى صفوف المتمردين .[٤٥] . ومنذ هذه الفترات زاد اقبال البويهيين على اقتناء الجند الاتراك فاخذت تتزايد اعدادهم في الجيش ، اذ يحدثنا المؤرخون ان عددهم في الجيش الذي توجه لاخماد تمرد روزبهان كان يضم تسعمائة رجل ، لكنه يقفز في سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦ الى حوالي ثلاثة آلاف رجل[٤٦] .

وعلاوة على هذين العنصرين الرئيسيين في جيش البويهيين هناك عناصر اخرى من بينها العرب . فقد ورد ذكر الاعراب في احداث سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦، اذ كانوا في صفوف جيش ابي جعفر الصيمري ، وزير معز الدولة ، وكانت اعدادهم[٤٧] حسبما ورد كثيرة . وقد استعان الحبشي بن معز الدولة بالعشائر العربية في سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ اثناء تمرده على اخيه بختيار واعلان انفصاله عنه . واعتمد عليهم في وضعهم على افواه الانهار ليصدوا هجوم بختيار عبر البطائح ـ البصرة[٤٨] . كما ورد ذكرهم في الجيش البويهي اثناء هجوم القرامطة على الكوفة سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥ وقد افلحوا في صد هذا الهجوم[٤٩] . واستعان فخر الدولة البويهي في حربه ضد بهاء الدولة بزعيم عشائر بني أسد وبيس بن عفيف الاسدي ، الذي شارك في عدد كبير من اعرابه .[٥٠] . ومما تجدر ملاحظته ان الغزو البويهي للعراق قد رافقه من الجانب الآخر هجرات قبلية عربية واسعة صوب منطقة الفرات الاوسط بشكل خاص ، وقد قامت هذه القبائل العربية بدور هام في الاحوال السياسية التي سادها الاضطراب خلال المراحل الاخيرة من حكم معز الدولة، فيحدثنا ابن الجوزي ان المهلبي ، وزير معز الدولة ، قد اعتمد على عشائر بني مزيد ، وهم من قبيلة بني اسد ، لحماية منطقة سورا وسوادها[٥١] . كما كانت قبيلة بني عقيل ، في تلك الاثناء ، تفرض سيطرتها على عدد من مدن وقرى الفرات الاوسط ، وقد اعتمد البويهيون عليهم كثيرا في حماية هذه المنطقة . واتسعت حماية بني مزيد كثيرا لتشمل مدينة الكوفة والجامعين وقصر بن هبيرة . كما لعبت قبائل بني خفاجة وبني عبادة دورا سياسيا في سلسلة احداث هذه الفترة من القرن الرابع[٥٢] للهجرة .

والاكراد عنصر آخر من العناصر التي دخلت في صفوف الجيش البويهي . ومما يجدر ملاحظته ان هناك عددا من الفرق الكردية كالجوانية والشاهجانية قد كانت ضمن جيوش بعض الامارات العربية والتكوينات السياسية الاخرى كامارة الحمدانيين والعقيليين والبريديين والمزيديين ، مما يبرهن على الفكرة ان اشتراكهم في الجيش في العراق كان موجودا قبل واثناء فترة التسلط البويهي . وقد ورد ذكر الاكراد سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م خلال الحملة العسكرية التي جردها عضد الدولة بقيادة كوركير بن جستان وعابدين علي ضد القنص والبلوحي في كرمان . وكان جيش عابد بن علي كثيفا يتألف من الديلم والجيل والاتراك والاعراب والاكراد والزط والرجال السيفية . ويبدو ان الاعتماد على الاكراد والعناصر الاخرى التي ورد ذكرها في الرواية كالزط والرجال السيفية كان في اوقات معينة كجنود مرتزقة ولم يدخلوا في التنظيم العسكري البويهي الدائم .

لذلك يتبين بان الديالمة الرجالة والاتراك الفرسان كانا العنصرين البارزين في جيش التسلط البويهي على العراق ، غير ان هذين العنصرين كانا في نزاع حاد ومنافسة قوية ، وان تاريخ هذه الفترة يوفر لنا الكثير من الامثلة على التصارع العسكري بين القواد و« جنود الديالمة والاتراك قد ادت بمرور الزمن الى ان تتعاظم لتتحول الى معارك وحروب جلبت المصائب والويلات على الاهالي . والحقيقة ان البويهيين ، كما هو الحال في التكوينات الديلمية المحلية في منطقة قزوين ، ركزوا في المرحلة الاولى لغزوهم على رعاياهم الديالمة بالدرجة الاولى ووثقوا بهم كثيرا ، وان الغلمان الاتراك ، او كما كان يطلق عليهم غلمان الدار ، العبيد منهم والاحرار ، كانوا يشكلون القوة البارزة كحرس او خدم الامراء البويهيين المقربين ، وكانوا يرتبطون بهؤلاء بروابط الولاء . ولذلك فان شعورهم تجاه سيادة العنصر الديلمي كان شعورا يشوبه الخوف وعدم

الثقة ويوضح مسكويه هذه الحالة ، خوف الاتراك من تفوق الديالمة ، خلال الايام الاولى من نجاح معز الدولة في غزو العراق . اذ اضطر الجند الاتراك الموجودون في الجيش العباسي الى الاختفاء والاستتار من الديالمة ثم مسارعتهم الى مناصرة ناصر الدولة الحمداني(٥٣) .. لكن الاحوال قد اخذت تتبدل لصالحهم بعد ان اعتلى الامراء البويهيون كرسي الامارة وصاروا المتسلطين الفعلين على الشؤون السياسية والادارية والعسكرية والاقتصادية . حينئذ وجدوا انفسهم وجها لوجه امام مشكلة اجتماعية وسياسية مع ابناء جلدتهم ، وانه من الصعب عليهم ان يستمروا في التعامل مع الديالمة على اساس ان الجميع متساوون في الحقوق وانهم ينتمون الى عائلة واحدة . ولهذا فان معز الدولة مثلا كان يعاني كثيرا من عدم احترام الجند الديالمة له ، جنودا وقادة . وفي سنة ٣٣٤ هـ اي بعد فترة وجيزة جدا من غزوه بغداد قام الديالمة بتمرد وشغبوا عليه « شغبا قبيحا وكاشفوه بالاسماع وخرقوا عليه بالسفه الكثير(٥٤) ... » ويشير مسكويه ايضا ان خال معز الدولة اسفهدوست كان ، بسبب انتمائه العائلي وكبر سنه ، لا يبدي اي احترام او اكتراث لمعز الدولة وكان « يكثر الدالة عليه ويقل الهيبة له ، وكان يزري عليه في كثير من افعاله(٥٥) . وورد ايضا ان عماد الدولة البويهي لم يكن يثق بقواده الديالمة ولم يشعر بامان معهم لجشعهم المادي ولانهم كانوا يعتقدون بانهم افضل نسبا وعائلة منه ، ولعل هذا العامل يعد العامل الرئيسي في جعل البويهيين يختلقون لانفسهم نسبا رفيعا يتصل بالملوك الساسانيين . والظاهر ان هذا الشعور المملوء بالريبة وعدم الاطمئنان اخذ ينمو عند الامراء البويهيين بحيث انهم اصبحوا يتوجسون المخاوف من تمرد ابناء عمومتهم . وتزايد هذا الشعور بعد ان وقعت مثل هذه الحوادث فعلا ، مما ولد فجوة واسعة وتنافرا ملحوظا بين البويهيين من جهة وبين القواد والجنود الديالمة من جهة اخرى وقد دفعت هذه الظروف البويهيين الى محاولة اشباع طلبات الديالمة باستمرار فنتيجة لتمرد الديالمة سنة ٣٣٤هـ جد معز الدولة الى تلبية مطاليبهم بتوفير الاموال اللازمة واستخراجها من الناس ومصادرة اموالهم واملاكهم واقطع قواده وخواصه الضياع السلطانية وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد وحق بيت المال في ضياع الرعية فصارت اكثر اراضي السواد لهؤلاء الجند(٥٦) . ومع ذلك فان سياسة توزيع الاقطاعات والاراضي لغرض سد افواه الديالمة وترضيتهم لم تنفع كثيرا ولم تأت بنتائج بعيدة المدى ، على العكس انها اضرت بالوضع الاقتصادي وزادت من عجز الاحوال المالية وبالنتيجة ادت الى تخلخل نظام دفع ارزاق الجند ، فوقعت المنافسة واندلع التصارع بين الديالمة والاتراك ، ويعقب مسكويه على هذه الوضعية قائلا ان الازمة المالية وتمرد الديالمة قد ادت بالضرورة الى تقريب الاتراك والاعتماد عليهم « والاستظهار بهم على الديلم(٥٧) » . ويعد التمرد العسكري الذي تزعمه روزبهان الديلمي في شيراز والاهواز سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦ عنصرا جديدا آخر في تشجيع الامراء البويهيين على اتخاذ قرارات عسكرية جدية ضد الديلم فالتمرد بحد ذاته شكل ازمة عسكرية مزعجة لمعز الدولة وذلك لأن الجنود الديالمة الذين كانوا يمثلون العمود الفقري لجيشه مالوا عاطفيا الى جانب روزبهان . وبالفعل فقد اتخذ بعضهم اجراء سريعا في مهاجمة جيش الوزير المهلبي ثم الالتحاق بالمتمردين ، ويذكر مسكويه ان الديالمة اضطربوا على معز الدولة « اضطرابا شديدا واظهروا اشياء كانت في نفوسهم عليه من العتب والاستبطاء وكاشفوه وواجهوه بكل ما كره واخذوا يستأمنون(٥٨)... » واجبرت هذه الظروف الحرجة معز الدولة الى زيادة الاعتماد على جنده الاتراك في الوقت الذي زاد فيه تسرب الديالمة من الجيش . ولعب سبكتكين الحاجب التركي دورا مهما في ضبط الامور في بغداد . وما ان انتهى معز الدولة من كبحه تمرد روزبهان حتى اتخذ اجراء شديدا ضد الديالمة بطرده اولئك الذين سبق ان استأمنوا الى روزبهان من جيشه واسقط عنهم الارزاق ، وعهد بمسؤولية انجاز هذا الاجراء الى وزيره المهلبي . وبالمقابل فانه رقى جميع الاتراك مرتبة ومنحهم الاموال وجازاهم بالاحسان « فقود منهم جماعة واستحجب جماعة ونقب جماعة ورفع كل طبقة الى ما هو اعلى منها(٥٩) ... » وفوق ذلك فانه سمح للاتراك بان يعيروا الديالمة بالتمرد وشق عصا الطاعة ، وقبض على جماعة من قوادهم ، ونفى الديلم الروزبهانية (نسبة الى روزبهان) ليوفر الاموال(٦٠) . ايضا فانه خصص للاتراك المكافآت والمنح من خلال اتخاذ بعض الاجراءات المالية فقد امر « تسبيب ما يستحقونه على واسط والبصرة والاهواز واخرجهم طبقة بعد طبقة على النوبة لاستيفاء اموالهم ولمن وراءهم من رفقائهم المقيمين وان يقام لهم نزل يأخذونه راتبا في كل يوم الى ان يستوفي

ماله ومبلغه عشرة دراهم لكل غلام في كل يوم وعشرون درهما لمن كان نقيبا واراد ان ينفعهم عاجلا لا مؤبدا(٦١) ... » .

وفي الوقت الذي بدأ فيه توتر العلاقات بين معز الدولة والديالمة على اثر تمرد روزبهان يزداد ، صارت علاقته مع الاتراك اكثر ودية ، واخذ يتصاعد نفوذهم بسرعة ايام ولايته وولاية ابنه بختيار . والواقع ان معز الدولة قبل موته اوصى ابنه بمداراة الديلم ، لكنه في الوقت ذاته اوصاه بان يعتمد في اعماله على الاتراك وان يجعلهم النواة المركزية في جيشه « جمرة عسكره(٦٢) » بمعنى تقليل الاعتماد على الديلم . وعلى اية حال فان بختيار ، المعروف بضعفه الاداري وفشله السياسي ، خالف وصية والده حينما تبوأ السلطة في سنة ٣٥٦هـ /٩٦٧، لاسيما تلك المتعلقة بالجند الديلم ، اذ سارع في نفي كبار قادتهم طمعا باموالهم مما زاد في شغبهم وتمردهم والحاحهم في توفير الاموال لارزاقهم الاضافية المجتمعة لمدة اربعة شهور وهي الاموال التي تعود البويهيون على دفعها بمناسبة البيعة وتسلم السلطة . وعلاوة على هذه المطاليب فانهم طالبوه ايضا باعادة اخوانهم الديالمة الذين سبق ان طردهم معز الدولة من الجيش ، اولئك الذين عرفوا بالديالمة الروزبهانية . ويبدو ان الاتراك لم يثقوا كثيرا بموقف بختيار الضعيف ، لاسيما بعد ان اتسع نفوذهم ، فالتفوا وراء زعيمهم سبكتكين الحاجب ورفضوا الوقوف الى جانب بختيار لانقاذه من ورطته مع الديلم فاضطر الى التحصن بقصره مجابها التحالف التركي الديلمي ضده . ولم يفلح في التغلب على المأزق الا بعد ان رضخ لشروط الديالمة بان يدفع لهم ثلث الرزقة التي سبق ان وعدهم بها .. واثبت في سجل الديوان كل من كان نسبه الديلمي صريحا من اولئك الذين سبق ان اسقطوا من الخدمة(٦٣) . ومن الجانب الآخر فقد قاد تنازل بختيار هذا الى ان يتمرد الاتراك ايضا ، وحرضوا الغلمان من الحجرية في قصر بختيار ان يلتحقوا بهم ليجتمع شملهم وطالبوا بختيار بصرف الاموال الاضافية بمناسبة البيعة وتسلمهم السلطة ، وطالبوه ايضا برفع الزيادات من الاموال التي سبق ان منحها لهم معز الدولة ، وان يتبع في اجراءات الترقية والمراتب العسكرية في الحجابة والقيادة والنقابة نفس الاسس التي وضعها معز الدولة .. وقد ضمن بختيار لهم ذلك مكرها(٦٤) .

ان سياسة الامراء البويهيين الارتجالية والمتذبذبة مع جندهم الديالمة والاتراك بتقريبهم جماعة دون اخرى تعد السبب الاساسي في تفاقم توتر العلاقات بين هذين العنصرين وتصارعهما . ولقد حاول عبثا بختيار ان يوحد صفوفهما في سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١ وذلك عن طريق ربطهما ببيته وعائلته برابطة المصاهرة ، فزوج احد ابنائه المرزبان بابنة بختكين القائد التركي ، وزوج ابنه الاخر بابنة قائد تركي آخر هو بكتمور ، واقسم على الولاء المتبادل بينه وبين سبكيكين الحاجب والقادة الكبار الآخرين(٦٥) . غير ان هذه السياسة لم تدم طويلا اذ انه بعد مرور ثلاث سنوات فقط انقلب بختيار على الاتراك وتغير موقفه تجاههم فاشتعلت الفتن بين هؤلاء والديالمة . وقد اتخذ بختيار موقفا مؤيدا للديالمة ضد الاتراك متغافلا عن الروابط التي اراد من خلالها توحيد جبهة الاتراك . فسارع بعد ذلك الى القبض على القواد الاتراك . ويبدو ان الازمة المالية التي كان يواجهها هيأت ظروف هذا التبدل في العلاقة ، وان بختيار عندما ضاقت احواله المالية طمع في الاستحواذ على الاموال التي جمعها بعض القواد الاتراك فتآمر للاستحواذ على اموال وممتلكات بختكي التركي ، صاحب الاهواز ، وحاول ان يبذر عوامل الشقاق بين القواد الاتراك انفسهم وبين سبكتكين هادفا من وراء ذلك الى التخلص منه وبذلك يصبح بامكانه الاستحواذ على امواله واقطاعاته . غير ان سياسته واجهت اخفاقا ، ولم تجلب له الا زيادة في الاضطراب والفوضى(٦٦) .

واستمرت هذه السياسة المتقلبة في علاقة البويهيين بكل من الديلم والاتراك في الفترات اللاحقة لموت بختيار ، ففي سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩ بعد ان تسلم بهاء الدولة السلطة في بغداد مال الديلم الى صمصام الدولة فاجبرت هذه الظروف بهاء الدولة الى ان يميل نحو الاتراك ليدعم بهم سلطته باعتبارهم الاقوى عسكريا والاكثر اخلاصا من الديالمة(٦٧) .. ولما استعاد صمصام الدولة سلطته في بلاد فارس سنة ٣٨٥/ ٩٩٥ اصدر اوامره بقتل جماعي للجنود الاتراك في شيراز، وقد افلت جماعة من هؤلاء بالتخلص من القتل والهرب الى كرمان وبلاد السند(٦٨) .. غير ان نتائج سياسة عدم الموازنة هذه في فترة امارة صمصام الدولة ما فتئت ان اثبتت فسادها وفشلها . وذلك لأن الديالمة الذين صاروا هم اصحاب السطوة والنفوذ ابدوا جشعهم المعتاد مستغلين نفوذهم الجديد وذلك بالالحاح في المطالبة بالاموال .

ومن الناحية الاخرى فان هذه السياسة ، سياسة المحاباة لجانب دون آخر ، جاءت بنتائج

عسكرية سلبية ، اذ زادت من حدة التوتر والانقسام في صفوف الجيش ، فعندما يتعاظم نفوذ الديالمة يكون الاضطهاد نصيب الاتراك والعكس صحيح . وقد تنامى نفوذ بعض هؤلاء الى درجة جعلت موقف الامير البويهي ضعيفا جدا ، ففي عدة مرات اجبر القادة والجند الاتراك الامير البويهي ، لاسيما خلال الفترات الاخيرة من التسلط ، الى ترك العاصمة هاربا والى قطع الخطبة باسمه من على منابر الجمعة . وفي احدى المرات واجه الامير البويهي ضائقة مالية مستعصية لم تمكنه من توفير الاموال لسفره خارج بغداد فتفضل عليه الاتراك بستين دينارا لهذا الغرض[٦٩] . وحدث في سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ ان ضربوا الامير البويهي بالحجارة واجبروه على ترك بغداد[٧٠] . كذلك ارغم الاتراك سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ الامير البويهي على ترك العاصمة ورفضوا تلبية طلبه بمنحه مدة ثلاثة ايام فقط لكي يستعد بها على ترك قصره . فاضطر لذلك الى ان يغادر قصره في منتصف الليل تاركا اياه ليكون عرضة للنهب[٧١] .

★ ★ ★

ذكرنا انفا ان الديلم والجيل اشتهروا بنزعتهم الحربية ، كما عرف الاتراك بشجاعتهم وولائهم . وفي الوقت الذي اشتهر فيه الاتراك كفرسان ونشابة ماهرين ، وصف الديالمة الرجالة بشهرتهم في استعمال انواع من الاسلحة اهمها السيف والدرع ، والفؤوس الحربية والسهام . كما انهم استخدموا ، بمهارة ، نوعا من المزاريق او الرماح القصيرة (تسمى الجوبينات او الزوبينات وبالفارسية زوبينيات) وتستعمل للطعن او لرمي[٧٢] الاعداء . ويبدو ان الجوبين هذا يتميز عن الرمح العادي الذي كان معروفا ومستخدما عند العرب بانه قصير . واعتمادا على رواية المقدسي البشاري يمكننا القول بان الديالمة الرجالة كانوا يحملون هذا السلاح ، الجوبينات ، دائما وخاصة اثناء عقد المجالس والاجتماعات القبلية ، فيقول ان للديالمة « مجالس في السكك والاسواق مرتفعة يجتمعون بها بايدهم الزوبينات وعليهم الاكسية الطبرية[٧٣] .. » وقد بقي الجوبين والدرع من السمات الحربية المميزة للديالمة خلال فترة التسلط البويهي وكانوا يحملون الجوبينات اثناء المناسبات في قصور البويهيين . واستعمال الديالمة ايضا سلاحا آخر يدعى الناوك او الناووك وهو عبارة عن انبوبة ترمى منها نبال صغيرة ، وكان سلاحا مؤثرا ومربكا لصفوف الجهة المقابلة في المعركة . وساد في جيش البويهيين استخدام المنجنيق لضرب الاسوار المحاصرة بالحجارة والنار ، كذلك شاع استخدام النفط في العمليات الحربية وكان يطلق على الجنود المتخصصين في هذا الصنف من القتال بالنفاطين[٧٤] .

كانت الخطة العسكرية الرئيسة المتبعة في جيش البويهيين تتركز على ان يرتب الاتراك الفرسان وهم يحملون النشاب في مقدمة الجيش . وان الديالمة الرجالة كانوا يتقدمون نحو العدو على هيئة صفوف متراصة ، فاذا تمكن الجانب الآخر من اختراق هذه الصفوف المتراصة باتجاه مؤخرة المشاة فان ذلك التشكيل سيتعرض الى اضطراب وتفكك وربما تكون الهزيمة . فيعقب الروذراوري على هذه الاستراتيجية قائلا « ان الديلم اذا اضطربت تحبيتهم بانت عورتهم[٧٥] » . وفي الوقت الذي تتجلى فيه مهارة الديالمة وانسياب حركتهم في المناطق المحصورة كالبساتين والغابات والحدائق فان الاتراك الفرسان يفضلون بل يبرعون في القتال في الميادين المكشوفة اذ تتمكن فرسانهم من المناورة والتكتيك ، لذلك فانهم لا يحققون نجاحات ملموسة في حرب الحدائق والبساتين او المناطق المحصورة . ففي حوادث سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣ اثناء نزاع بختيار والاتراك ، كان بختيار وجنده الديالمة معسكرين في واسط في منطقة مكتظة بالنخيل وكان الاتراك محاصرين هذا الوضع ولم يتمكنوا مهاجمته وذلك لأنه « لامجال لخيل الاتراك فيه » بينما احتمى الديالمة الرجالة بين النخيل واخذوا يراوغون الاتراك كتكتيك لادامة الوقت[٧٦] ووصول النجدات .

وعلى كل فان استراتيجية ترتيب الفرسان في مقدمة الجيش كان في بعض المرات يؤدي الى كارثة عسكرية مثلما حدث في سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ اثناء القتال بين بختيار وعضد الدولة . فقد كان جيش عضد الدولة معسكرا على شاطىء النهر ، وكان جيشا يسوده النظام والترتيب . بينما رتب بختيار جيشه على هيئة صفوف مضطربة وجعل الفرسان امام الرجالة ، وقد علق مسكويه على هذا التشكيل القلق قائلا « وهذا شيء ما فعله احد قط ولا تجهله عوام الناس حتى لعاب الشطرنج[٧٧] . ومن الامثلة الاخرى على سوء هذه الاستراتيجية ما وقع سنة ٣٦٧هـ /٩٧٧ م في المعركة التي جرت بين جيش بختيار وجيش عضد الدولة في قصر الجص ، اذ ورد ان تعبئة بختيار كانت على عادة الديلم في تعبئة الرجالة الديالمة على هيئة صفوف ، غير ان نتائج المعركة كانت الى صالح عضد

الدولة ، وفشلت استراتيجية الخيل امام الرجالة[٧٨] . واعتاد الديالمة في كل معركة المتعلق نصب خيمة اثناء القتال ، فطالما هذه كانت الخيمة مائلة فان القتال مستمر لكنها اذا ما قلعت فانها اشارة الى الفشل والهزيمة ، فيذكر مسكويه الى هذه العادة الحربية صراحة في احداث سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤ قائلا ان احمد بن بويه كان في جيش كبير بهدف السيطرة على واسط . وكانت عادته اذا سار في حملة عسكرية ان يجعل جيشه بينه وبين دجلة ، وكانت له خيمة تضرب على رسم الديالمة « فما دامت الخيمة منصوبة فالقتال واقع ومتى قلعت كان ذلك علامة الهزيمة[٧٩] » فعند مسيرته نحو ديالي كان الجيش يسير على طول نهر ديالي واراد احمد ان يستوقف جنده لكنه فشل لابتعادهم عنه وحاول ان يضرب الخيمة لكن الديالمة لم يعبهوا الى ذلك وانفتحت ثغرة استثمرها جنود امير الامراء توزون التركي فاوقعوا بالديالمة وقعة كبيرة الامر الذي اجبر أحمد بن بويه على الانسحاب السريع تاركا عددا من اصحابه الديلم يقعوا في الاسر[٨٠] .

★ ★ ★

لقد سببت الازمة المالية التي كان يعاني منها البويهيون منذ بداية تسلطهم على العراق عجزا في خزانة بيت مال الامير وعدم استطاعتهم تسديد ارزاق ورواتب جندهم والزيادات والاضافات الخاصة بحق البيعة ومناسبة تسلم الامارة . ومما لاشك فيه ان العجز المالي وفشل البويهيين في معالجته له علاقة مباشرة بمدى تفهم هؤلاء للشؤون الاقتصادية والمالية . ان فشلهم هذا يؤيد النظرية بعدم وضوح اي رؤية اقتصادية مستقبلية في سياستهم ، وان همهم الوحيد يتمثل بتهيئة الاموال اللازمة لسد افواه الجند آنيا دون الاخذ بنظر الاعتبار مصادر تلك الاموال . والواقع انهم لجأوا ، لتنفيذ مآربهم الآنية ، الى نهب اموال التجار والملاكين وفرض الضرائب الفادحة على التجارات والصناعات المحلية فارهقوا الناس بذلك . فكان علي بن بويه مثلا يقع في كثير من الاوقات في مآزق مالية جدية مع جنده ولولا تهيئة الاموال من المدن التي غزاها في طريقه نحو الاهواز لما افلح في سد متطلبات جنده واتباعه . اما احمد بن بويه ، معز الدولة ، فانه الآخر لم يفلح في ادخار الاموال الاحتياطية لتنفعه في اوقات الشدائد وتسد احتياجات عسكره . فيذكر مسكويه بان معز الدولة قد اسرف في بداية غزوه ، في دفع ارزاق جنده ومنحهم الزيادات والمكافآت حتى انه « تعذر عليه ان يدخر ذخيرة لنوائبه او ان يستفضل شيئا من ارتفاع .. ولم تزل مؤونته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز[٨١] » . ودفعته هذه الظروف الى اختلاق وسيلة تنقذه من ورطته هذه ، واستندت حلوله على امرين : أ ـ مصادرة الناس، ب ـ اقطاع القواد والخاصة من الجند الاقطاعات والاراضي في المناطق الغنية من العراق .

كانت اراضي المنطقة متباينة من حيث الانتاج ووفرته ومن حيث الخصوبة ، فكان بعضها مزدهرا ، والبعض الاخر عبارة عن اراض في البصرة وواسط والاهواز ، وهناك اراض اقل انتاجا . المهم ان هذا الحل السيء قد جلب مشاكل كبيرة بالنسبة الى جنده الديالمة والاتراك او بالنسبة الى الاراضي المقطعة . اذ اخذ القادة يتنافسون فيما بينهم على اقتناء الاراضي الخصبة الوافرة الانتاج ، ولم يكتفوا بذلك انما شرعوا باستبدالها لاسيما تلك الاراضي التي لم توفر لهم منافع مادية كبيرة باراض اخرى بعد ان استنفذوا رخاءها وجودتها . وبذلك اهلكوا الاراضي الزراعية وحولوها الى سباخ .

اضافة الى هذه الطريقة في دفع ارزاق الجند التي يبدو انها لم تكن مطبقة باستمرار خلال طيلة فترة التسلط البويهي ، فقد نهج البويهيون نظام الدفع النقدي للارزاق والزيادات والاضافات لاسيما وان نظام توزيع الاقطاعات والاراضي لم يشمل جميع الجنود العاديين انما اقتصر على القادة الاتراك والديالمة والخاصة من الجنود . وان معز الدولة ، الذي يعد اول بويهي ابتكر نظام توزيع الاقطاعات بدلا من الرواتب، كان في بداية امره يدفع الارزاق نقدا لكنه عندما اسرف في العطاء والاضافات نفدت امواله فاضطر الى مصادرة الاراضي والاموال والممتلكات وتوزيعها على القادة لتلبية طلباتهم وترضيتهم . وكان نظام دفع الارزاق نقدا هو الآخر نظام غير مستقر يعتمد اعتمادا كليا على موقف الامير البويهي السياسي والمالي . لذلك فان بختيار ، الامير الضعيف مثلا كان بسبب مشاكله المالية معتادا على تأخير ارزاق الجند ولم يف بوعده بدفع مال البيعة الى عسكره حينما تسنم السلطة وقد جلب هذا الاضطراب في الدفع مشاكل سياسية اذ الح الجند في المطالبة بارزاقهم ومن ثم قيامهم بحركات تمرد عليه والاهم من ذلك هروب عدد غير قليل من الديالمة من صفوف الجيش والالتحاق بالامراء المتنافسين الديالمة الاخرين كما حدث اثناء قتال عضد الدولة

لابن عمه بختيار ، وكما حدث ايضا اثناء تمرد روزبهان وتمرد الجيش في البصرة . غير ان هناك اتفاقا على ان عضد الدولة هو الامير البويهي الوحيد الذي كان يشدد على مسألة دفع ارزاق الجند الديالمة والاتراك قبل موعدها الشهري بحوالي ثلاثة ايام وذلك ارضاء للجند وعدم فسح المجال لأي شغب وتمرد بسبب تأخر الارزاق .

كان ديوان الجيش هو الجهة المسؤولة عن الاشراف على دفع ارزاق الجند ، ولهذا السبب صار للديوان اهمية متميزة عن باقي الدواوين التي تعطل العمل في اكثرها اثناء فترة التسلط البويهي[٨٢] . وكان يرأس ديوان الجيش شخص له علاقة يعرف العارض، وبالنظر الى ان الديالمة والاتراك هما العنصران الرئيسيان في الجيش البويهي النظامي ، وبالنظر الى عدم انسجامهما فقد نصب البويهيون نقيبا لكل منهما[٨٣] ، فهناك نقيب للاتراك يعد المسؤول المباشر عن تسلم الارزاق والزيادات والاضافات الخاصة وهو بعدئذ يقوم بتوزيعها على الجنود والمراتب الاتراك وفقا للنظام المتبع انئذ في الدفع ، وهناك نقيب للجند الديالمة له نفس الصلاحيات التي كان نقيب الاتراك يتمتع بها . وكان هذان النقيبان المشرفان ايضا على ادارة امور وقضايا كل صنف من اصناف الجيش وفقا لانتمائهما العنصري . اما بخصوص هوية وانتماء العارض او صاحب ديوان الجند فانه كان يختار من بين العنصرين فاما ان يكون ديلميا او تركيا . فقد ورد اسم صاحب ديوان الجند ايام معز الدولة بانه سهل بن بردشت الديلمي ثم اعقبه بعد ذلك اباسهل ديزويه الديلمي ايضا ، وكان متقلد الديوان ايام عضد الدولة سنكلو التركي[٨٤] . ويبدو ان متقلد هذا الديوان خلال المرحلة الاولى للتسلط البويهي كان مقتصرا على الديالمة لكن بمرور الزمن وحينما تبدلت سياسة البويهيين بالاتجاه نحو الاتراك والاعتماد عليهم اخذوا يقلدون المنصب الى الاتراك . ايضا فان رواية مسكويه عن الامور العسكرية ابان فترة عضد الدولة تفيد بان هذا الامير نصب عارضين ، وكان عارض الديالمة ابا الحسن علي بن عمارة وعارض الاتراك عبدالله بن سعدان . ويبدو ان مهمة عارض الاتراك كانت اوسع من مهام عارض الديالمة ، اذ انه المسؤول عن الاصناف العسكرية الاخرى الى جانب الاتراك كالاعراب والاكراد[٨٥] . وعلاوة على وجود النقيب والعارض فان هناك منصبا اخر له علاقة وثيقة بالشؤون العسكرية وهو صاحب ديوان الخزائن او باختصار (الخازن) فانه كان مشرفا على وزن النقود وحمل ارزاق الجند شهريا بايعاز من الامير او العارض[٨٦] . واحيانا كان الوزير هو المسؤول عن ارزاق الجند ، ففي حوادث سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣ صار الوزير وجها لوجه امام تذمر الجند وطلبهم بدفع الارزاق حتى انهم شغبوا عليه بسبب تأخر دفع ارزاقهم وفساد قيمة النقد ، فراسلوا بهاء الدولة مطالبين اياه بتسليم الوزير وناظر الخزانة اليهم باعتبارهما المسؤولين الرئيسيين عن فساد قيمة النقود وتأخر دفع الارزاق[٨٧] .

وكما مر بنا في السابق فان البويهيين اعتمدوا عدة سبل في دفع ارزاق الجند ، منها مثلا طريقة اقطاع الاراضي للقادة ، ومنها طريقة الدفع نقدا ، ونهجوا كذلك في دفع الارزاق طريقة الناتج كما انهم دفعوا الزيادات في الارزاق والاضافات بمناسبة تسلم الامارة ومال البيعة ، ودفعوا للجند مكافآت عينية ايضا . وباختصار فان نظام دفع الارزاق خلال هذه الفترة لم يكن نظاما واحدا ثابتا ، كما كان الحال في تعامل البويهيين مع جندهم قبل غزوهم بغداد ، حين كان علي بن بويه يغزو المدن ليوفر اموال جنده . ان هذه السياسة المتغيرة في الدفع ترتبط ارتباطا قويا بالطبيعة البدوية الديلمية وافتقارهم الحضاري وقلة خبرتهم السياسية خاصة بامور الدولة ومؤسساتها ، وبذلك صار مفهومهم الاقتصادي ضيقا لا يتعدى اكثر من كونه نظام يقتصر على ايجاد السبل في ارضاء متطلبات جندهم المالية . من هنا اصبحت هذه المسألة المحور الاساسي في علاقة البويهيين بجندهم ، فالاموال المتوفرة لدفع الارزاق تسند وتدعم سلطة هذا الامير او ذاك والعكس بالعكس . لذلك فان دراسة وضعية ومكانة البويهيين في السياسة الداخلية وعلاقتهم بالديالمة والاتراك تؤكد انهم عموما ، باستثناء عضد الدولة ، قد فشلوا في تحقيق مكانة قوية راسخة من الناحية العسكرية بالنسبة الى القواد والجنود ويعود ذلك الى عدم وجود نظام مالي ثابت في دفع الارزاق والى الازمة المالية المستمرة ، فكان هؤلاء في الغالب لا يتمكنون من دفع ارزاق الجند في اوقاتها المعتادة فتتراكم عليهم شهرا بعد اخر ، او ان فشلهم في دفع الارزاق يضطرهم الى تأخيرها لاكثر من شهر وبالتالي يدفع هذا العجز والتأخير الجند الى اعلان عصيانهم وتمردهم ، وبتكرار مثل هذه الاحوال تزداد العلاقة بين الامير والجند سوءا ، فيخرجوا عليه ويتطالوا على سلطته . بالمقابل فقد جلب سوء التدبير الاقتصادي هذا الويلات الى الاحوال الاقتصادية

للبلاد ، باعتبار ان هؤلاء الاجانب لم يكن لهم من هم الا حلب موارد البلاد واستثمار خيراته وفقا لنزواتهم الشخصية الآنية . ولهذا نرى بان معز الدولة بعد غزوه العراق مباشرة واجه المشكلة الاساسية التي ظل يعاني منها وهي كيف يدبر دفع ارزاق جنده الديالمة الذي اخذوا يتذمرون من تأخر الدفع ، لاسيما وانه سبق ان قطع على نفسه وعدا بانه سيطلق ارزاقهم في مدة محددة ، فلما اقترب هذا الموعد ولم يتمكن تحقيق وعده اضطر الى مصادرة الناس واستخراج الاموال من التجار وقطع قواده الاراضي والاقطاعات ، وبذلك يقول مسكويه العبارة الذكية الآتية « ان التدبير اذا بني على اصول خارجة عن الصواب وان خفي في الابتداء ظهر على طول الزمان .. ومثل ذلك مثل من ينحرف عن جادة الطريق انحرافا يسيرا ولا يظهر انحرافه في المبدأ حتى اذا طال به المسير بعد من السمت وكلما ازداد امعانا في السير زاد بعده عن الجادة وظهر خطأه وتفاوت[88] امره » .

ان الازمة المالية هي التي اجبرت معز الدولة على انتهاج اجراء وقتي لكنه اجراء جلب معه الدمار الاقتصادي ذلك انه اقطع اكثر اعمال السواد واراضيه دون عمارتها الى قواده وجنده تعويضا عن ارزاقهم وبدأ هؤلاء يستثمرون تلك الاراضي استثماراً جاهلا . فالارض كريمة غير انها بحاجة الى عناية . ولما كان هؤلاء لا يهمهم شيء سوى الاستغلال وكسب الاموال فقط فقد حل في النهاية الخراب والدمار بتلك الاراضي الغنية . وبهذا المعنى يقول مسكويه « اما القواد فانهم حرصوا على جمع الاموال وحيازة الارباح[89] » . ولم يقتصر الامر على منح الاقطاعات للجند انما تعدى ذلك الى بقية الموظفين ففي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨ قطع بختيار الوزير ابا الفضل الشيرازي اقطاعا يدر عليه انتاجا قدره ٥٠,٠٠٠ دينار مقابل[90] راتبه .

والى جانب هذا الاجراء المالي الفاسد الذي شمل بعض القواد والجنود الخاصة فان البويهيين اتبعوا النظام المعتاد في دفع الارزاق مع الجنود والقادة الاخرين غير المشمولين بنظام الاقطاعات ذلك هو الدفع النقدي ، وكان على شكل دفعات في اوقات معينة من السنة كما ان البعض من البويهيين دفعوا الارزاق نقدا شهريا . ومع هذا فانه بالامكان القول بان هذه الطريقة لم تكن على الاطلاق منتظمة وثابتة نتيجة لمعاناة البويهيين المالية بشكل مستمر . وتحدثنا المصادر ان الاسلوب في دفع الارزاق نقدا كان متبعا في الجيش العباسي وجيوش الدويلات الاسلامية ، فيشير الصابي في (الوزراء) مثلا ان غلمان الموفق الذين عرفوا بالغلمان الناصرية (نسبة الى لقب الموفق الناصر لدين الله) كانوا يتقاضون رواتبهم مرة كل اربعين يوما ثم ازدادت الى خمسين يوما ، وبعد ذلك صارت خلال خلافة المعتضد كل ستين يوما[91] . وفي ايام خلافة القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢ / ٩٣٢ ـ ٩٣٤) كان نظام دفع ارزاق الجند الحجرية كل خمسين يوما (والحجرية ربما يقصد بهم جنود الخليفة الخاصين في القصر) . اما الساجية فكانوا يتسلمون رواتبهم كل ستين يوما . وكان النظام المتبع في جيش السامانيين الدفع على ثلاث وجبات سنويا اي كل مائة وعشرين يوما . وكان السلاجقة يدفعون الارزاق شهريا ، بينما اعتاد الايوبيون والمماليك على توزيع العطايا والمنح فاذا ما نشبت اي حرب فان كل امير يشترك مع جماعته على ان يتمتع جنده بثلث الاقطاع العيني او النقدي ويكون لاميرهم الثلث الباقي[92] . ويبدو ان البويهيين اعتادوا ، في الاغلب ، على الدفع الشهري للارزاق فاعتماداً على مسكويه ان عضد الدولة كان الامير الوحيد الذي اهتم كثيرا بمسألة دفع الارزاق قبل نهاية كل شهر بحوالي ثلاثة ايام . فكان صاحب الخزانة يحمل هذه المشاهرات في ذلك التاريخ . لكن اهتمام عضد الدولة هذا لا يعني ان جميع البويهيين كانوا يشددون على نظام المشاهرات في الدفع .

ومع ذلك فان وقفة على طريقة تعامل عضد الدولة مع قضية دفع الارزاق لها اهميتها في هذا الصدد . اعتاد عضد الدولة على ان يوجه اوامره الى خازن بيت المال بان يزن الدراهم المطلوبة للمشاهرات ويسلمها الى ابي عبدالله بن سعدان وهو عارض الاتراك والاعراب والاكراد قبل ثلاثة ايام من نهاية كل شهر ، فيسلمها ابن سعدان بدوره الى نقيب الاتراك الذي يتولى مسؤولية توزيعها . وكان الاسلوب ذاته يتبع مع الجند الديالمة . وقد حدث مرة ان اغفل الموظف المسؤول تبليغ الخازن بحمل الاموال ، فوبخه عضد الدولة قائلا « المصيبة بما لا تعلم ما في فعلك من الغلط اكثر منها فيما استعملته من التفريط الا تعلم ان اذا اطلقنا لهؤلاء الغلمان ما لهم وقد بقي في الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا انقضى الشهر واستهل الآخر حضروا عند عارضهم فاذكروه فيعدهم ثم يحضرونه في اليوم الثاني فيعتذر اليهم ثم في الثالث فتبسط في اقتضائه ومطالبته السنتهم فتضيع المنة وتحصل الجرأة ، ونكون الى الخسارة اقرب منا الى الربح[93]... » .

ودليل اخر على سوء تصرف البويهيين المالي هو الاجراء الذي اعتادوا عليه في دفع المكافآت او الارزاق الاضافية وهي ما تسمى باموال البيعة او حق البيعة . وكما هو واضح فان هدف البويهيين من هذا الاجراء استمالة الجنود الديالمة والاتراك الى الامير الجديد في السلطة ، وكذلك ربطهم به واغرائهم من ان يتحولوا الى امير آخر . ويبدو ان معز الدولة هو الذي استن هذه العادة ، غير انها صارت بمرور الزمن عبئا تدخل ضمن نظام دفع الارزاق . اذ سرعان ما يبدأ الجند بالمطالبة في هذه الاموال الموعودة بعد تنصيب اي امير بويهي ، وفي كثير من الاحوال تتطور هذه المطالبة الى تمرد وعصيان وهذا ما حدث مثلا في سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣ عندما فشل الملك العزيز في دفع مال البيعة على اثر اعتلائه كرسي الامارة بعد موت جلال الدولة . وقد دفعهم الامر اخيرا الى التمرد وتحويل ولائهم وتأييدهم نحو ابن عمه ابي كاليجار صاحب بلاد فارس والاهواز . وان ابا كاليجار هذا مستغلا مسألة عدم دفعهم هذه الاموال فقد اغراهم بدفعها حالما يتسلم السلطة من ابن عمه[٩٤] . وليس هناك رواية توضح المقدار المحدد لهذه الاموال الاضافية ، فقد منح بختيار مثلا جنده الديالمة بعد الالحاح بمطالبتهم فيها ثلث ارزاقهم . واصطلح على هذا الثلث رسم البيعة وهو راتب غير محسوب ضمن ارزاقهم الاعتيادية[٩٥] . كذلك فعل صمصام الدولة .

بينما من الجانب الآخر لم يفلح بهاء الدولة في دفع مال البيعة في وقته فوعدهم بدفعها في وقت آخر ولما اقترب الموعد ولم يستطع جمع المال بسبب فراغ الخزينة اضطر الى تكسير ما يملك من اوان وصياغات وضربها عينا وورقا وصرفها الى الجند[٩٦] . ولم ينج الخليفة العباسي نفسه من تمرد وعصيان الجند الديالمة والاتراك ومن الحاحهم في المطالبة باموال بيعة الخلفاء الجدد ، فقد تمرد الجند على الخليفة القادر بالله عند تسلمه الخلافة مطالبين برسم البيعة ، واخذوا يتمادون في تمردهم وجرأتهم على الخليفة حتى انهم منعوا ذكر اسمه من على المنابر ان لم تلب مطاليبهم في دفع اموال البيعة . وتدخل بهاء الدولة في الموضوع واراد ارضاء الجنود فمنح كل واحد من وجوه الجند واكابرهم ثمانمائة درهم واخذت البيعة « واتفقت الكلمة على الرضاء والطاعة ، واقيمت الخطبة باسم امير المؤمنين القادر بالله[٩٧] . وكان ايضا على الخليفة القائم ان يدفع اموال البيعة للجند الاتراك عند اعتلائه كرسي الخلافة سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠ ، ولم تكن لديه الاموال اللازمة لأن الخليفة السابق القادر بالله لم يترك مالا ، فغضب الاتراك وتجاسروا على الخليفة . وقد انقذ جلال الدولة البويهي الموقف فدفع من امواله نيابة عن الخليفة ، لذلك اضطر الخليفة بعدئذ ان يسدد هذه الاموال ببيع خان له بالقطيعة وبستان وشيء من انقاض[٩٨] قصره . ولعل من المناسب ذكره هنا ان عضد الدولة ، باعتباره اميرا قويا من النواحي السياسية والادارية ، قد امتنع عن دفع اموال البيعة هذه دون ان يحدث اي تمرد او عصيان من قبل الجند . وقد عبر الروذراوري عن قرار عضد الدولة بخصوص مال البيعة بقوله ان « الزيادات في الاصول محظورة على العموم[٩٩] ... » ، ويقصد بتعبير الزيادات في الاصول كل مال اضافي على الرواتب او الارزاق الاساسية . ويقال في حادثة ان طغان التركي «الحاجب وكان يتمتع آنئذ بنفوذ واسع ويعد من القواد الكبار ، طلب من عضد الدولة ، حينما بعثه هذا على رأس حملة عسكرية الى الثغور ، ان يوافق على دفع زيادة قدرها عشرة ارطال خبز تدخل ضمن تخصصيات عسكره ، لكن عضد الدولة رفض طلبه وارسل له بدلا عن ذلك مبلغا قدره خمسة آلاف درهم صلة قائلا له « هذا ثمن ما استزدناه للسنين الكثيرة ولو اجبناك الى مرادك على ما طلبتنا به لانفتح علينا باب لا يمكننا سده[١٠٠] ... » . ومع ان عضد الدولة امتنع عن دفع الزيادات والاضافات لكنه من الجهة الاخرى اعتاد على ان يدفع لجنده منحا ومكافآت على اثر الانتصارات في الحروب او في حالة استرضاء جنده . وبهذا الصدد يذكر الروذراوري ان حظر الزيادات لم يكن مطلقا « الا عند الفتوح وما تدعو السياسة اليه من استمالة القلوب[١٠١] ... » .

وموضوع المنح التي كان عضد الدولة يدفعها للقادة والجند عند الانتصار في المعارك ينقلنا الى وسيلة او اجراء آخر في تعامل البويهيين مع جندهم في الدفع ، وهو دفع المنح النقدية . ويبدو ان بعض الامراء البويهيين قد استخدموا هذه الطريقة في دفع المنح النقدية لعدة اسباب منها : استمالة قلوب جندهم ، تعويضهم عن اثمان مشترياتهم من المواد الغذائية والاطعمة ، فساد قيمة العملة النقدية وبالاخص الدراهم ، تقليل الضغط ماديا على خزانة بيت المال لعدم استقرار اسعار المواد الغذائية او بالاحرى لزيادتها وارتفاعها مما يكلف الخزانة اموالا اضافية . ومما يذكر ان ابا علي ، وزير بهاء الدولة ، وكان ناجحا من الناحية الادارية اراد ان يستميل الجند

الاتراك الى جانبه فقرر ان يدفع لهم تعويضا نقديا عن اثمان اقاماتهم وكان في بداية الامر يمنحهم هذه المنحة اسبوعيا غير انه نقلها فيما بعد الى المشاهرات . وقد اتبع نفس النهج مع الجند الديالمة ويعلق الروذراوري على هذا الاسلوب قائلا « فصار ذلك سنة مستمرة من بعد في الاقساط وسقطت كلف الاقامات وكانت قد انتهت الى الافراط(١٠٢).. » . ومما له علاقة بهذا الموضوع ان ارزاق الجند الثابتة كانت تتأثر ايضا بالتقلبات التي بدت على اسعار المواد الغذائية والقيمة الشرائية للنقود فما يذكر مثلا ان الديلم شغبوا سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣ بسبب وضع « النقود وفساد السعر وغلائه وتأخر العطاء(١٠٣).. » وطلبوا من بهاء الدولة ان يسلمهم الوزير وخازن بيت المال وكان هو المسؤول عن دار الضرب ، ولم تهدأ الفتنة الا بعد ان وعدهم بتخفيض الاسعار وتجويد النقد(١٠٤) .

★ ★ ★

ظل نظام المراتب القيادية في الجيش خلال فترة التسلط البويهي يسير على نفس النسق الذي كان سائدا في الجيش العباسي تقريبا . فكان كل عريف برأس عشرة جنود وكل نقيب برأس مائة جندي ، وكان القائد على رأس عشرة نقباء اي بما يعادل الف جندي . وهناك عدد من الاشارات الى ان هذه المراتب كانت موجودة في جيش البويهيين ، كذلك هناك اشارات الى مناصب قيادية اخرى جديدة من امثال الحاجب كمنصب عسكري لا المنصب الاداري المعروف . فيذكر مسكويه في حوادث سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ ان معز الدولة اراد مكافأة جنده الاتراك بعد انتهائه من كبح تمرد روزبهان الديلمي « فقود منهم جماعة واستحجب جماعة ونقب جماعة(١٠٥) » ان هذه الاشارة قد تفيد في التسلسل القيادي لهذه المراتب فهي القائد ثم الحاجب ثم النقيب . ومن المحتمل ان الحاجب كان يعادل القائد ، ففي سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦ طلب الجند الاتراك من بختيار ان يسلك في نظام الترقيات في الاستحجاب والتقويد والتنقيب نفس الاسلوب الذي كان معز الدولة يسير عليه(١٠٦) .

ومن بين الاسماء المشهورة التي حملت لقب الحاجب سبكتكين التركي ايام معز الدولة البويهي ، وكان يسمى ايضا الحاجب الكبير(١٠٧)، وقد اعتمد عليه معز الدولة كثيرا لاسيما اثناء تمرد روزبهان الديلمي ، اذ ارتفع نجمه العسكري كثيرا والتف حوله الاتراك . وقد خلع عليه الخليفة الطائع وطوقه وسوره ولقبه بلقب نصر الدولة . وقد توفي سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤ مخلفا ثروة كبيرة جدا عددها ابن الجوزي فكانت حوالي مليون دينار مطيعية وعشرة ملايين درهم وصندوقين من الجواهر وخمسة واربعين صندوقا فيها آنية ذهب وفضة ومائة وثلاثون مركبا ذهبا وستمائة مركب فضة وعدد كبير من الغلمان الدارية والخدم والدواب . ومن بين الرتب العسكرية الاخرى الجديدة رتبة اسفهسلار او سبهسلار او اسفهسلار ، اوكما وردت عند بعض المؤرخين العرب اصبهسلار . وهي كما هو واضح فارسية الاصل تتكون من مقطعين سباه ـ سلار او سالار وتعني قائدا عاما للجيش . وقد وفدت هذه الرتبة ضمن الرتب الاخرى الى العراق بعد غزو البويهيين . وكانت شائعة في تركيب جيوش الدويلات في المشرق الاسلامي . والظاهر ان سبكتكين التركي الذي كان يلقب بالحاجب او الحاجب الكبير كان يقوم مقام القائد العام للجيش لاسيما بعد ان وثق به معز الدولة، ولكنه لم يلقب بالاسفهسلار قبل سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م. علما بأن احد الديالمة طمع في الوصول الى هذه الرتبة سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨ وهو شيرزاد بن سرخاب كاتب الفارسية ايام بختيار . وكان هذا يتمتع بمكانة كبيرة عند بختيار وقد اقسم هذا بانه سوف لا يقرر امرا الا بعد مشاورته شيرزاد لذلك عزم على تقلد قيادة الجيش « والتسمية بالاسفهسلار » ولم علم سبكتكين بذلك امتنع من لقاء بختيار مستنكرا المحاولة في تقليده قيادة الجيش(١٠٩) . مما يؤكد ان القيادة العليا كانت لسبكتكين . وفي سنة ٣٦٠ هـ زاد بختيار ، عند عودته الى بغداد ، من منزلة سبكتكين فاعطى اوامره بان يخاطب بكلمة الاسفهسلار(١١٠) بمعنى ان الكلمة ترادف لقب الحاجب او الحاجب الكبير . وقد تقلد الفتكين او البتكين التركي منصب الاسفهسلارية بعد سبكتكين . ان تقلد هذين الشخصين التركيين لقب الاسفهسلار يبين بانه لم يعد لقبا محصورا على القواد الديالمة فقط . ومما يجدر ذكره ان هذا اللقب لم يمنح لاكثر من واحد في الجيش البويهي منذ بداية الغزو حتى وفاة عضد الدولة ، لكن مع هذا فان هناك اشارة ادلى بها مسكويه توضح بان بعض الجيوش الموجودة في مدن غير بغداد كان لها اسبهسلار ايضا ، ففي سنة ٣٦٤/ ٩٧٤ اراد عضد الدولة ان يكبح تمرد المرزبان بن بختيار فارسل اليه رسالة يطلب منه الطاعة ، وكان محمد بن دربند الديلمي انئذ اسفهسلار جيش البصرة وهو احد اقارب الحسين بن ابراهيم وكان متقدما في جيش

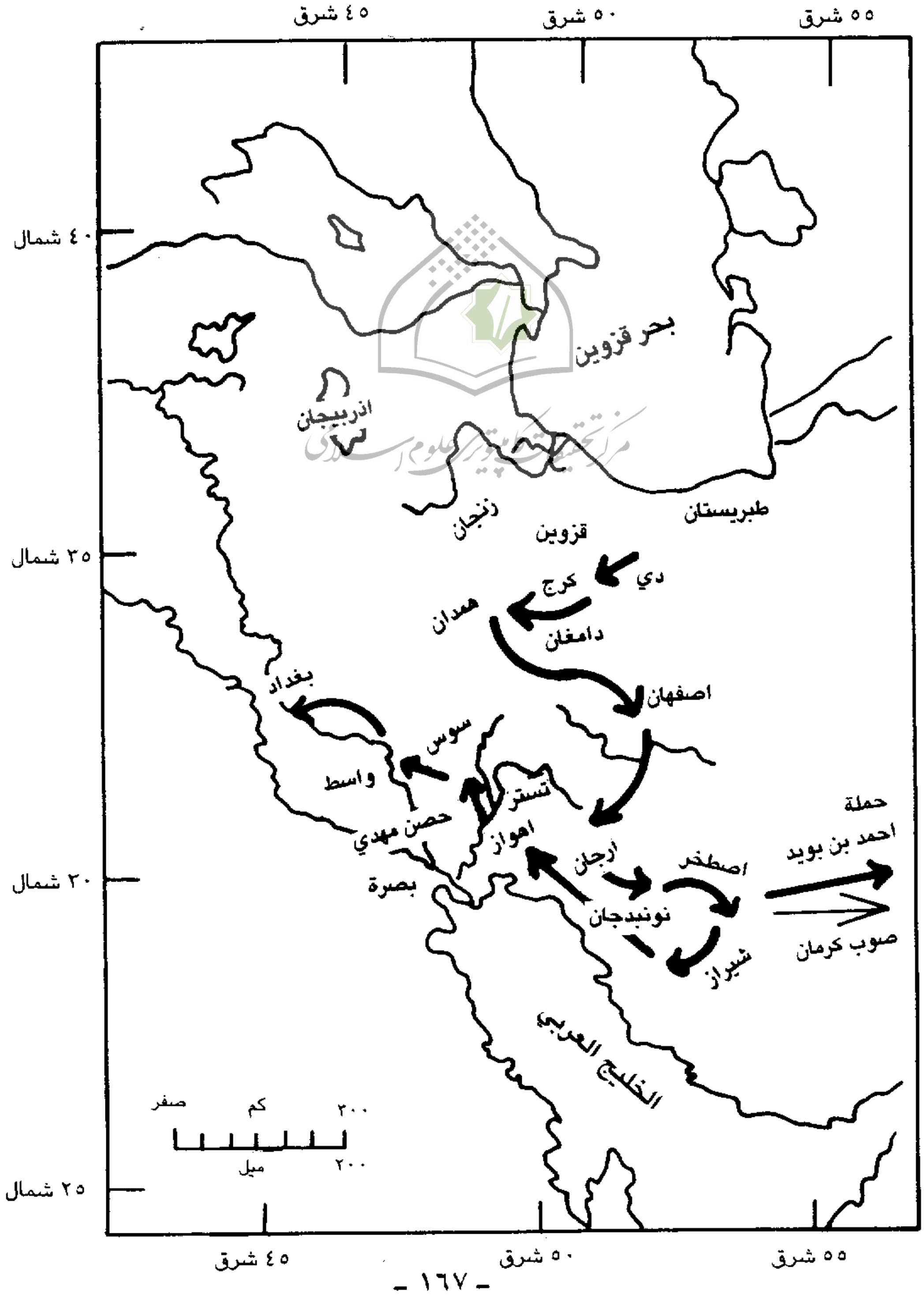
عضد الدولة[١١١] . ولقد لعب الاسفهسلار دورا عسكريا متنفذا في جيش التسلط البويهي ، وبلغ اوج عظمته زمن عضد الدولة . غير ان اضطراب الاوضاع السياسية وانشقاقات الامراء البويهيين بعد وفاة عضد الدولة ، وتعدد مراكز القوى ادى بمرور الزمن الى التقليل من اهمية هذا اللقب وضعف نفوذه وهيبته . حتى انه تحول في الفترة الاخيرة من حكم البويهيين الى مجرد لقب عادي للقواد او لطائفة من الجند وهناك عدة اشارات اوردها الروذراوري وابن الجوزي تؤكد ذلك . ففي سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠ دخل جلال الدولة الاهواز مع الاصفهسلارية ، ويذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٢ المتعلقة بالبرجمي العيار ان جماعة من القواد والاصبهسلارية خرجوا في حملة للقبض على البرجمي وانه كان متحصنا في دار له وسط اجمة من القصب والماء مساحتها حوالي خمسة فراسخ (١٥ميلاً تقريبا) وقد توزع كل واحد من هؤلاء الاصبهسلارية على كل باب من ابواب دار البرجمي للقبض عليه . وكذلك ورد في سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣ بعد موت جلال الدولة البويهي خاف اولاده على انفسهم فاستنجدوا بالاتراك والاصبهسلارية[١١٢] . كل ذلك يوضح بجلاء ان اللقب صار عاما ويقصد به بعض القادة او فرقة من الجند ربما من الديالمة .

المعروف ان الامير البويهي هو المسؤول المباشر والوحيد عن رئاسة الجيش البويهي لا الاسبهسلار او الحاجب الكبير وان اغلب البويهيين كانوا يقودون الحملات العسكرية الهامة، وفي احيان كثيرة يوكلون اما قوادهم او وزراءهم تولي هذه المهمة . لذلك يمكن القول بان فترة التسلط البويهي شهدت تطورا في منصب الوزير بما له علاقة بقيادة الجيوش . صحيح ان لقب ذا الوزارتين ، بمعنى وزارة القلم ووزارة السيف ، كان معروفاً في الادارة العباسية منذ الفترة المبكرة من تاريخ العباسيين غير ان مسؤولية ادارة كفة الحرب وقيادة الجيوش اتخذت خلال فترة التسلط البويهي جانبا عمليا اكثر مما هو لقب اداري . فكان وزيرا معز الدولة ابوجعفر الصيمري وابومحمد المهلبي ذا مقدرة وكفاية ادارية وعسكرية، فقد قاد الاول حملة عسكرية برية ـ نهرية ضد ابي القاسم البريدي في البصرة في سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م وافلح بمساعدة حملة اخرى بقيادة معز الدولة ان يفرض حصار على المدينة ويسيطر عليها[١١٣]، كذلك فانه قاد حملة عسكرية لمحاربة عمران بن شاهين في البطائح سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩ وبعد موت الصيمري اثناء محاربته عمران بن شاهين تسلم الوزارة ابومحمد المهلبي وهو الذي عول عليه معز الدولة سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠ لاستكمال قتال عمران بن شاهين ، وكذلك تحمل مسؤولية قيادة حملة عسكرية سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢ لقتال ابن وجيه صاحب عمان وقرامطة البحرين ، ويحدثنا مسكويه عن حسن درايته العسكرية فيقول انه اخرج معه في الحملة عددا كثيرا من القواد والرجالة والمعدات العسكرية كالزبازب والطيارات وآلات المياه وقد شحن هذه السفن الحربية بالرجال والسلاح[١١٤] . وبذلك فان استعدادات المهلبي لمنازلة ابن وجيه والقرامطة تركزت على اساليب المعارك النهرية، لكنه لم يغفل الجانب البري الذي كان مواجها او بالاحرى مفتوحا امام القرامطة فرتب الرجال على سور مدينة البصرة لحمايته بينما جمع كبار القواد معه لمواجهة ابن وجيه فتحقق لحملته النجاح[١١٥] . ومن بين الوزراء الاخرين الذين قادوا حملات عسكرية وكانوا ذا دراية ومقدرة في هذا الجانب ابن ابي الفضل بن الحسين وابوالفرج محمد بن العباس خلال فترة حكم بختيار ، وقد قادا حملة عسكرية ضد عمران بن شاهين ايضا . كما وصف ابوالقاسم المطهر بن عبدالله بمقدرته العسكرية الفائقة ، لذا فان عضد الدولة اعتمد عليه كثيرا فارسله سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤ على رأس حملة عسكرية بحرية ضد عمان وقد نجح في السيطرة عليها وفتح جبالها وايقاع الهزيمة بالاباضية . وعند عودته من عمان تسلم امراً من عضد الدولة بالتوجه مع جيشه نحو كرمان لمحاربة المتمردين ـ وقد حاربهم دون هوادة واوقع الهزيمة بكل من وجده في طريقه مستخدما القسوة الشديدة من اجل اخماد الحركة . وفي هذا يعلق مسكويه قائلا انه « بابغ في القسوة اقامة للهيبة[١١٦] » ، وبعد ذلك توجه في طلب الحسين بن محمد بن الياس في مدينة جيرفت مستخدما استراتيجية الميمنة والميسرة والفرسان . ولما افلحت الميمنة في اشاعة الخلل والاضطراب في صفوف رجالة العدو الذين لجأوا الى سور المدينة استخدم الفرسان وهم يضربونهم بالنشاب فلم يجد ابن الياس بدا سوى الهرب . فاعاد كرمان[١١٧] الى حظيرة البويهيين . كما ان عضد الدولة اعتمد عليه في قيادة الجيوش ضد الحسن بن عمران بن شاهين في البطائح سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩، فجرد هذا حملة تحتوي على جميع اصناف المحاربين والاسلحة والآلات . وقد بذل جهدا كبيرا في الاستيلاء على البطائح لكنه

فشل وذلك لانتهاجه نفس الاستراتيجية التي سبق ان انتهجها من قبله الوزير المهلبي القائمة على تهديم السدود الكائنة على افواه الانهار في البطائح بهدف تجفيفها فتسهل عملية تقدم الفرسان والرجالة باتجاه معقل الحسن بن عمران . وقد علق مسكويه على هذه الاستراتيجية قائلا ان المطهر عندما استقر في موقع من اعمال الجامدة تشاور مع قادته « فتقرر الامر على تدبير فاسد قد كان جربه من درج قبله مرارا فلم ينتفع به وهو ايقاع السدود على افواه الانهار لتنشف البطيحة[118] .. » وتحدثنا الرواية ان المطهر عندما اخفق في حملته لم يشأ ان يواجه عضد الدولة فانتحر بقطع شرايين ذراعيه[119] :

★ ★ ★

خارطة توضح الطريق الذي سلكه البويهيون من الديلم الى العراق



الهوامش

١) مسكويه : تجارب الامم ج ١ ص ٢٢٤
٢) ن.م. ج١ ص ٣٢٦
٣) ن.م. ج٢ ص ١٢ ـ ١٣، ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣١٨ .
٤) انظر عن التحديد الجغرافي الاصطخري : المسالك والممالك (تحقيق محمد جابر عبدالعال ١٩٦١) ص ١٢١، ابن حوقل صورة الارض ص ٣١٨ ، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٣٥٣ ، ابواسحاق الصابي : المنتزع من كتاب التاجي (تحقيق محمد حسن الزبيدي) ١٩٧٧ ص ٢٩ . E.I. (2) (Daylam) by Minorsky
٥) ابراهيم بن هلال الصابي : المنتزع من كتاب التاجي ص ٢٩ ـ ٣٣
٦) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر (١٩٤٧) ج٢ ص ٢١٧، ٢٤٥، ياقوت الحموي : وحجم الادباء (١٩٢٣) ج١ ص ٣٢٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٢١٨ .

A.J.Naji: Munich Ms as a valuable source of information on the Buwayhids Dynasty (Islamic Culture) April 1976, P.109

٧) الصابي : المنتزع ص ٢٩ ـ ٣٣، ابن الجوزي ج ٦ ص ٢٦٩ ـ ٢٧، ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢٤ . ايضا بوزورث : التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق وايران . ترجمة د. عبدالجبار ناجي مجلة المورد . مجلد ٤/١٩٧٥ ص ٤٢.
٨) ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٧٠ .
٩) الطبري : تاريخ (دار المعارف) ج ٤ ص ١٤٦ ـ ١٥١ ، خاصة ص ١٥١
١٠) انظر الطبري ج ٥ ص ٤٧٠، ٤٧١ ج ٦ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ، ٥٤٠، ج ٧ ص ٥١٠ ـ ٥١١ ، ٥١٥. ج٩ ص ٨٠ .
١١) الطبري ج ٨ ص ٢٤١ ، ٣١٤ ـ ٣١٧ ، ٤٠٧ ـ ٤١٠ ، ٥٥٦، ج ٩ ص ٢٧١ ـ ٢٧٦، ٢٨٢، ج ١٠ ص ١٤٩، الصابي : المنتزع ص ٣٨ ـ ٤٧، ٤٩ ـ ٥١ ، ٥٤ ـ ٥٩ Bosworth, the Tahirids and Saffarids, in CHI PP. 114 — 117
١٢) انظر الصابي : المنتزع ص ٦١ ـ ٦٧، ٧٢ ـ ٧٥ ، مسكويه : تجارب الامم : ج١ ص ١٦١ ـ ١٦٣ ، ٢٧٥ ـ ٢٧٧ ، ٣١٠، ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٦٨
١٣) المنتزع ص ٥٩

E.I. (2) (Buwayhids) by Cahen Busse, H: Iran under the Buyids in CHI, P.254 — 55

١٤) مسكويه ج ١ ص ٢٧٧ ، ابن الجوزي ج ٦ ص ٢٧٠ . Busse, op cit, PP 253 -- 56
١٥) انظر مسكويه ج١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ ، ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، ٣١٥ ـ ٣١٦، ابن الجوزي ج ٦ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
١٦) مسكويه ج ١ ص ٢٩٨ . انظر ايضا مسكويه ج ١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ، ص ٢٩٦، ٢٩٧.
١٧) مسكويه ج ٢ ص ٩٩
١٨) ن.م. ج ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١، ابن الجوزي ج ٦ ص ٢٨١
١٩) مسكويه ج ١ ص ٣٥١
٢٠) ن.م ج ١ ص ٣٥٧
٢١) ن.م. ج ٢ ص ١٢ ـ ١٣
٢٢) ن.م. ج ٢ ص ١٧

٢٣) ن.م ج ٢ ص ٢٣ .
٢٤) ن.م. ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤١
٢٥) ن.م. ج٢ ص ٨٢ ـ ٨٣ .
٢٦) الصولي : اخبار الراضي والمتقي ص ٢٣٤ .
٢٧) مسكويه ج ٢ ص ١٨ ، ابن الجوزي ج ٦ ص ٣١٨
٢٨) ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٣١
٢٩) الصولي : اخبار الراضي ص ٢٥٠
٣٠) مسكويه ج ٢ ص ٨٣
٣١) ن.م. ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٣، ابن الجوزي ج ٦ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥
٣٢) انظر عن حركة عمران بن شاهين خلال هذه المرحلة التاريخية
A.J.**Naji**: Basra (295 — 447) **unpublished** Ph. D. thesis of **London** University (1970) PP. 162 — 167.
د. فاروق عمر فوزي : عمران بن شاهين السلمي ، أفاق عربية عدد ١٠/ ١٩٨٤ ص ١٠٤ ـ ١٠٧
٣٣) وكان الديالمة ضمن الجنود الذين يقفون على ابواب القواد مع المفلحين والطبرية والمغاربة . انظر ابوالحسن هلال الصابي : الوزراء (تحقيق عبدالستار احمد فراج) ١٩٥٨ ص ١٥
٣٤) ن.م.
٣٥) مسكويه ج١ ص ٢٦
٣٦) مسكويه ج ٢ ص ١٢ ـ ١٣ ، ٥٤، ٨٤
٣٧) ن.م. ج١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٥ ٨ ٣٠٣، ابن الجوزي ج ٦ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١
Kabir, M: the Buwayhid Dynasty of Baghdad (**Calcutta** 1964) P. 136, E.I.
٣٨) مسكويه ج ١ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣
٣٩) محمد سعد الدين العوفي : جوامع الحكايات (مخطوطة مكتبة SOAS برقم No. 46719 ورقة ١٩١ ـ ١٩٢ .
ايضا Kabir: op. cit p. 137
٤٠) انظر (Buwayhids) in E.I. (2) by Cahen,
بوزورث : التنظيم العسكري ص ٤٤ .
٤١) ابوشجاع الروذراوري : ذيل تجارب الامم ص ١٢٨ ، ١٣٢ . وقد اورد هلال الصابي رواية تفيد ان عدد الديالمة الذين كانوا مع صمصام الدولة عشرة آلاف رجل . انظر رسوم دار الخلافة (بغداد ١٩٦٤) ص ١٧ .
٤٢) مسكويه ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .
٤٣) ن.م. ج ٢ ص ٨٥ ، ابن الجوزي ج ٦ ص ٣١٨
٤٤) مسكويه ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ .
٤٥) مسكويه ج ٢ ص ١٦٣
٤٦) ابوشجاع الروذراوري ص ١٣٢
٤٧) مسكويه ج ٢ ص ١٠٩
٤٨) ن.م. ج ٢ ص ٢٤٤ . Kabir, op. cit, p. 135
٤٩) ابوشجاع الروذراوري ص ١١٠
٥٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ (القاهرة) ج ٩ ص ٨٣ ، ٩٢ ـ ٩٣ .
٥١) ابوشجاع الروذراوري ص ٢٨٠ ، ٢٨٣، ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ، ابن الاثير : ج ٩ ص ٥١ . عبدالجبار ناجي : الامارة المزيدية (البصرة ١٩٧٠) ص ٦٢ ـ ٨٦ .
٥٢) عبدالجبار ناجي : الامارة المزيدية ص ٣٧ ـ ٤٠، ٣٣ .
٥٣) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٠ ، ٨٤ ـ ٨٥، ٨٩
٥٤) ن.م. ج ٢ ص ٩٦ .
٥٥) ن.م. ج ٢ ص ١١٤ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٦٢
٥٦) مسكويه ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٨
٥٧) ن.م. ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٠
٥٨) ن.م. ج ٢ ص ١٦٢
٥٩) ن.م. ج ٢ ص ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٣
٦٠) ن.م. ج ٢ ص ١٧٣
٦١) ن.م. ج ٢ ص ١٧٤
٦٢) ن.م. ج ٢ ص ٢٣٤ ،
٦٣) ن.م. ج ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦

٦٤) ن.م. ج ٢ ص ٢٣٦
٦٥) ن.م ج ٢ ص ٢٨٢
٦٦) ن.م. ج٢ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٩، ابن الجوزي ج ٧ ص ٦٨
٦٧) ابوشجاع الروذراوري ص ١٦١
٦٨) ن.م. ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥
٦٩) ابن الجوزي ج ٨ ص ٦٣ ـ ٦٤
٧٠) ن.م. ج ٨ ص ٧٢ ـ ٧٣
٧١) ن.م.
٧٢) لقد تتبع الاستاذ بوزورث اصل واستعمال هذا السلاح في التاريخ الايراني القديم (التنظيم العسكري ص ٣٨ هامش ٣٩) .
٧٣) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٣٦٩ ، وذكر هلال الصابي الى احدى المناسبات زمن صمصام، الدولة وكان في ايدي الديالمة وغلمانهم الزوبينيات والتراس . انظر رسوم دار الخلافة ص ١٦
٧٤) مسكويه ج ١ ص ٣١٠، ج ٢ ص ٣٨٨
٧٥) ابوشجاع الروذراوري ص ١٣٣
٧٦) مسكويه ج ٢ ص ٣٢٢
٧٧) ن.م. ج ٢ ص ٣٦٨
٧٨) ن.م. ج ٢ ص ٣٨٢
٧٩) ن.م. ج ٢ ص ٧٧
٨٠) ن.م.
٨١) ن.م. ج ١ ص ٩٩
٨٢) ن.م. ج ٢ ص ٩٩
٨٣) ن.م. ج ٢ ص ١٢١، ١٨٥، ابوشجاع الروذراوري ص ٤٠
٨٤) مسكويه ج ٢ ص ١٢١، ١٨٥
٨٥) ابوشجاع الروذراوري ص ٤٠، ١٨٧
٨٦) ن.م ص ٤٣ . وتبدو ان طريقة تسلم الارزاق وتوزيعها على الجند تشابه ما اورده الصابي خلال فترة الخليفة العباسي المعتضد بالله حيث يقف القواد والجند في ميدان صغير في دار الازج ، ويتقدم كل قائد ومعه قائمة باسماء الجند وارزاقهم .. الخ انظر (الوزراء ص ١٧ ـ ١٨
٨٧) ابوشجاع الروذراوري ص ٢٥٠ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ١٧٢
٨٨) مسكويه ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧
٨٩) ن.م. ج ٢ ص ٩٨
٩٠) ن.م. ج ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢
٩١) يذكر الصابي تفصيلات قيمة عن ارزاق الجند المشاة والفرسان والجند الخاصة ايام الموفق والمعتضد بالله ص ١٧، ١٨، ١٩.
٩٢) انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (١٩٥٨) ص ٣٠١ ، نظير حسان سعداوي : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ٢٩ ، جب ، هاملتون : دراسات في حضارة الاسلام (جيوش صلاح الدين) ص ٩٨ ـ ١٠٠
٩٣) ابوشجاع الروذراوري ص ٤٢، ٤٥
٩٤) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٣
٩٥) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٦
٩٦) ابوشجاع الروذراوري ص ١٥١ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ١٤٨
٩٧) ابوشجاع الروذراوري ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ١٥٧
٩٨) ابن الجوزي ج ٨ ص ٥٩
٩٩) ابوشجاع الروذراوري ص ٤٣
١٠٠) ن.م.
١٠١) ن.م.
١٠٢) ن.م. ص ٢٨٣
١٠٣) ن.م. ص ٢٥٠، ابن الجوزي ج ٧ ص ١٧٢ .
١٠٤) ابوشجاع الروذراوري ص ٢٥٠ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ١٧٢
١٠٥) مسكويه ج ٢ ص ١٧٣
١٠٦) ن.م. ج٢ ص ٢٣٦
١٠٧) ابن الجوزي ج ٧ ص ٣٩

١٠٨ ن.م. ج ٧ ص ٧٦ ـ ٧٧
١٠٩) مسكويه ج ٢ ص ٢٥٨
١١٠) ن.م. ج ٢ ص ٢٩٣
١١١) ن.م. ج ٢ ص ٣٤٤
١١٢) ابن الجوزي ج ٨ ص ٧٢ ، ٧٣ Kabir: op. cit p. 139
١١٣) مسكويه ج ٢ ص ١١٢ ـ ١١٣
١١٤) ن.م. ص ١٤٤
١١٥) ن.م.
١١٦) ن.م. ج ٢ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١
١١٧) ن.م. ج ٢ ص ٣٦١
١١٨) ن.م. ج ٢ ص ٤٠٩ ـ ٤١٠
١١٩) ن.م.

الجيش الاسلامي نشأتـــه وتطوره

د. محمد ضيف الله بطاينه
كلية الآداب / جامعة اليرموك

«الحق ان الاضطراب الشامل المسيطر على العالم اليوم يهدد الانسانية جمعاء باخطار لم تعرفها سابقا، وبكوارث لم تكن تتصورها. وهو يتطلب تظافر الجهود وتوجيهها الى كفالة السلامة وضمان البقاء. ولكن هذا الاضطراب لا يعالج معالجة صحيحة حاسمة تزيح كابوس الخطر الا بالنفاذ الى جذوره العميقة واستئصال اسبابه البعيدة فكل معالجة تنصرف الى المظاهر السطحية البارزة ولا تتعدى للعلل الباعثة الخفية مقضي عليها بالخيبة والخسران، مهما يكن نجاحها الآني باهرا ومهما يبدو فعلها في وقته عظيما..»

ملخص البحث :

نزلت آية الاذن بالقتال في ظروف بيعة العقبة الثانية، وصار القتال من بعد ذلك فرضا مكتوبا على المسلمين، ولكن لم ينبثق عن ذلك مؤسسة «الجيش» بمفهوم الجيش النظامي وما يتطلبه من رواتب واسلحة وغير ذلك، وظل المسلمون في عهد الرسول «ص» وعهد ابي بكر، اذا استنفروا نفروا، واذا وضعت الحرب اوزارها رجعوا الى مألوف حياتهم، فلما كان عام ٢٠ هـ، امر عمر بن الخطاب باتخاذ ديوان الجند، وصار الجيش منذ ذلك الحين، مؤسسة ذات كيان وشخصية واضحة تعتمد في تمويلها على الدولة.

اهتم ولاة المسلمين بامور هذه المؤسسة، وعملوا على تفاوت بينهم على تطويرها في مجال الانفاق، والرواتب، والتسليح، واعداد ما يلزم من القوة.. واساليب القتال، والعروض العسكرية، وفتح باب التجنيد للعناصر القوية على اختلاف اجناسها، والاهتمام باسر الجند في حياة عوائلهم وبعد وفاتهم.

وقد حرص ولاة الامر وبخاصة في الايام الاولى من قيام دولة الاسلام على ابقاء نيات الجند معقودة على اعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيله، والابتعاد عن الاضرار بالناس، والالتزام بالاسلام والامتثال به قيادة وجندا، مما اكسب الجيش الوحدة في الصف، والاخلاص في النية، والصدق في الجهاد، والتغلب على الاعداء.

ولكن الجيش لم يلبث ان انغمس في الحروب الاهلية، ثم اقترب من حمى السياسة، وصارت له في فترة تالية اليد الطولى في تولية الخلفاء وعزلهم، وتوجيه سياسة الدولة، فارتبكت مؤسساتها السياسية والادارية، وتقطعت الدولة اجزاء ودويلات متنافسة حينا ومتحاربة حينا آخر، مما شجع الاعداء ومكنهم من احتلال اجزاء كثيرة من ديار المسلمين.

نشـــوء الجيش

يطلق لفظ الجيش على الجند، كما يطلق على جماعة الناس في الحرب او السائرين الى حرب او غيرها(١)، وقد بدأت مؤسسة الجيش مثل غيرها

من مؤسسات الدولة الاسلامية بداية متواضعة ، ثم نمت حتى بلغت مرحلة متقدمة في جميع جوانبها .

ففي الفترة المكية ، لم يقم المسلمون بعمل عسكري ضد من خالفهم من قريش او من غيرهم فضلا عن انشاء تنظيم عسكري فيها ، وخلت حياة المسلمين في هذه الفترة من جميع مظاهر العنف المادي حتى هاجروا الى المدينة .

وفي بيعة العقبة الثانية، تناولت الاتفاقية مسألة حماية الرسول ومنعه من الاعداء ، وذكرت الاتفاقية ان نقباء اهل المدينة بذلوا للرسول ما اراد من الحماية والمنعة ، وبايعوه على حرب الاحمر والاسود[٢] ونزلت في هذه الظروف آية الاذن بالقتال قال تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » الحج آية ٣٩ . وعندما هاجر الرسول «ص » الى المدينة نظم فيها اتفاقية لحماية المدينة ، اشرك فيها الى جانب المسلمين من المهاجرين والانصار جماعة اليهود ، وجعل عليهم مع المسلمين النصر على من دهم المدينة[٣]، وبعد ان كان الانصار حسب بيعة العقبة الثانية ملزمين بحماية الرسول ومنعه من الاعداء فحسب صار، منذ معركة بدر، واجب الجهاد دفاعا وهجوما خطا مشتركا بين جميع المسلمين مهاجرين وانصارا[٤]، ثم صار فرضا مكتوبا عليهم وعلى المسلمين من بعدهم مطلقا .

وقد تناول الشيباني وابن تيمية وغيرهما قضية القتال بين المسلمين واعدائهم ومراحله ومشروعيته . فقالوا[٥] : امر الرسول في الابتداء بتبليغ الرسالة والاعراض عن المشركين قال تعالى : « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » الحجر آية ٩٤ . ثم امر الرسول بالمجادلة بالاحسن ، قال تعالى : «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن » النحل آية ١٢٥، ثم اذن للرسول بالقتال ، قال تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا .. » الحج آية ٣٩ . ثم امروا بقتال الاعداء ان كانت البداية منهم، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » البقرة آية ١٩٠ . وقال تعالى: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه» البقرة آية ١٩٤ ثم امروا بالقتال بشرط انسلاخ الاشهر الحرم ، قال تعالى : « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين » التوبة آية ٥، ثم امروا بالقتال مطلقا ، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم» البقرة آية ٢٤٤ .

وقال الشافعي بخصوص فرض القتال على المسلمين : لما مضت لرسول الله «ص» مدة من هجرته انعم الله فيها على جماعة باتباعه حدثت لهم بها مع عون الله قوة بالعدد لم تكن مثلها ، ففرض الله تعالى عليهم الجهاد بعد اذ كان اباحة لا فرضا ، قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ». البقرة آية ٢١٦ ـ الا انه لم ينبثق عن ذلك مؤسسة عسكرية ، ولم يؤد الحال الى ظهور مؤسسة الجيش بمفهوم « الجيش النظامي » وما يتطلبه من رواتب وملابس ، ومأكل ، ووسائل نقل ، واسلحة وغيرها ، وظل الجيش في عهد الرسول «ص» يتكون نظريا من جميع المسلمين ، وكانوا اذا استنفروا نفروا ، واذا وضعت الحرب اوزارها رجعوا الى مألوف حياتهم . واستمر الحال في عهد ابي بكر ، فلما كان عهد عمر بن الخطاب وكثرت الاموال . قام عمر بتأسيس ديوان الجند عام ١٥ هـ[٦]، وقيل عام ٢٠ هـ[٧]، وجعل للجند رواتب مخصصة واعاشة مفروضة لاولادهم[٨]، وحظر عليهم مزاولة الاعمال الاخرى ، ومنذ ذلك الوقت ، صار الجيش مؤسسة ذات كيان وشخصية مستقلة تعتمد في تمويلها على الدولة .

قيادة الجيش :

كان الخليفة بحكم ولايته العامة قائدا للجيش ، ولكن الخلفاء لم يكونوا يقومون بهذه المهمة الا نادرا وكانوا ينيبون عنهم من كانوا يتحرون فيهم الرأي والشجاعة والنجدة والتريث والامانة والاستقامة وغيرها من الصفات اللازمة للقيادة العسكرية .

فلما خرج ابوبكر بالمسلمين الى حرب القبائل التي اجتمعت في ذي القصة قال المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله الا تعرض نفسك ، فانك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك اشد على العدو ، فابعث رجلا ، فان اصيب أمرت آخر[٩] .

وفي حروب العراق، وفي ظروف حرب القادسية ، نادى عمر الصلاة جامعة واخبر الناس الخبر فقال العامة : سر، وسر بنا معك ، ثم بعث عمر الى اهل الرأي والى وجوه اصحاب النبي «ص» واعلام العرب فقال : احضروني الرأي فاني سائر ، فاجتمعوا جميعا ، واجمع ملؤهم على ان يبعث رجلا من اصحاب رسول الله «ص» ويقيم ويرميهم بالجنود ، وفي ذلك ما يغيظ العدو ، وقال عبدالرحمن بن عوف : بأبي وامي ، اجعل عجزها بي واقم ، وابعث جندا ، فقد رأيت

قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد ، فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وانك ان تقتل او تهزم في انف الامر خشيت الا يكبر المسلمون والا يشهدوا ان لا اله الا الله(١٠) .

وعلى ذلك سار الخلفاء ، وكانوا يقيمون ويبعثون الجيوش يولون عليها الامراء ويمدونهم بالعساكر ، وكان خروجهم على رأس الجيوش قليلا ، ولا يحدث الا لأمر عظيم . فقد قاد علي بن ابي طالب الجيش في حروب الجمل وصفين ، وقاد عبدالملك الجيش في حربه مع مصعب بن الزبير ، وقاد مروان بن محمد الجيش في حربه مع الخوارج والعباسيين ، وقاد الرشيد الجيش لحرب رافع بن الليث، وقاد المعتصم الجيش لحرب الروم .

وعندما امر عمر بن الخطاب ابا عبيد بن مسعود على الجيش في حرب العراق ، قال له يوصيه : فانها الحرب ، والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث ـ الرزين لا يعجل ـ وقال في عدم تأمير سليط بن قيس على الجيش : انه لم يمنعني من ان اؤمر سليطا الا سرعته الى الحرب ، وفي التسرع الى الحرب ضياع .. ولكم الحرب لا يصلحها الا المكيث(١١) .

اما في الولايات فكانت قيادة الجيش تعود الى الولاة ، او من كانوا ينيبونهم عنهم ، ولم تكن على اية حال ، اخبار الجيوش تغيب عن الخليفة ، وكانت اخبارها توافيه باستمرار منذ ان تخرج الى ساحة القتال ، وحتى تعود قافلة الى قواعدها .

اهتمام الدولة بالجيش :

كان اهتمام الدولة وولاة الامر بالجيش كبيرا ، وكان يدور في الغالب حول عدد افراد الجيش ورواتبهم ، وامور معاشهم، وجهازهم في الحرب ، ونظامهم في القتال ، وسيرتهم في الناس قبل القتال وفي اثناء القتال وبعده .

ومنذ ان اتخذت الدولة ديوان الجند صارت تسجل اسماء المقاتلة وترتيبهم فيه على قدر النسب المتصل بالرسول «ص» وكانت تذكر وحيث يلزم ، اسم الجندي وسنه وقده ولونه وصفة وجهه ووصف ما يتميز به عن غيره ، واما العطاء فقد راعت عند تقديره في اول الامر القربى من الرسول «ص» والسابقة في الاسلام وحسن الاثر في الدين ، ولما انقرض اهل السوابق راعت في تقدير العطاء التقدم في الشجاعة والبلاء في الجهد ، كما راعت من يعولهم الجندي من افراد العائلة والمماليك ، وراعت عدد ما يرتبط من الخيل والظهر ، وراعت البلد الذي يحله من حيث الغلاء والرخص وكان اذا حدثت بالجندي زمانة ـ علة مستديمة ، مرض عضال ـ ابقت الدولة وحيث تسمح ظروفها المالية ، على راتبه ، واما اذا قتل ، او مات فان راتبه يصير من حق ورثته ، ويظل راتب عائلته قائما تقبضه من ديوان الجند ، او تحال نفقتها على ديوان العشر والصدقة ، وذلك حسب الاوضاع المالية للدولة .

وقد تحدث الماوردي عن ترتيب الجند ، فذكر نوعين احدهما الترتيب العام الذي يتناول ترتيب القبائل والاجناس قبيلة بعد قبيلة ، وجنسا بعد جنس وفي هذا الترتيب العام يبدأ بقريش الاقرب فالاقرب الى الرسول «ص» حتى تستوعب جميع قريش ، ثم يليهم من مضر ، ثم بمن يليهم من ربيعة ، ثم بمن يليهم من قحطان ، حتى يستوعب جميع العرب ، ثم بمن يليهم من غيرهم حسب انسابهم ، او اجناسهم ، او بلدانهم ، ويرتبون في الديوان حسب السابقة في الاسلام ، وان لم تكن لهم سابقة ، ترتبوا حسب القرب من ولي الامر ، او حسب السبق الى طاعته . وثانيهما الترتيب الخاص الذي يتناول ترتيب الجنود الواحد بعد الواحد ، وفيه يراعى الى جانب القرابة من الرسول «ص» السابقة في الاسلام ، والاثر في الدين ، والشجاعة، وفي حال تساوي هذه الاسس ، يصار الى رأي ولي الامر، واجتهاده(١٢) .

فئات الجيش :

كان الجيش بعد انشاء ديوان الجند يضم في حروبه وغزواته الجند النظاميين الذين يتقاضون لقاء رواتب معلومة من الدولة ، ويضم المتطوعة، والمتطوعة فريقان ، فريق كان يأخذ من الدولة مبلغا من المال للنفقة في كل مرة كان يخرج فيها للقتال ، وفريق كان يخرج للقتال متطوعا بنفسه وماله(١٣)، والشواهد الواردة بخصوص الجيش في المصادر التاريخية تشير الى فئات اخرى كانت تشترك في القتال ، منها ابناء المقاتلة الذين ادركوا، وموالي المقاتلة ، ومماليكم، وعبيدهم(١٤)، اضافة الى النساء اللواتي كن حتى فترة متأخرة من عهد بني امية يصحبن الجيش برفقة ازواجهن واولادهن يشجعنهم على القتال ، ويداوين الجرحى ، وقد يقاتلن على نحو ما جرى فبي معركة اليرموك اذ امتشقن السيوف يقاتلن بها الاعداء حين دخلوا العسكر عليهن(١٥) .

ومع ان المسلمين كانوا يشكلون مصدر امداد الجيش بالجنود والمقاتلين ، وعليهم كتب القتال ، فان ولاة الامر ابتداء بالرسول «ص» كانوا

يستعينون بغير المسلمين عند الحاجة في القتال ، فقد استعان الرسول «ص» في غزوة خيبر بعدد من يهود بني قينقاع كانوا اشداء ، واستعان في غزوة حنين بصفوان بن امية وهو مشرك(١٦) .

وكتب عمر بن الخطاب عام ١٧ هـ الى سعد بن ابي وقاص قائد الجيوش الاسلامية في العراق ، ان يستعينوا بمن احتاجوا اليه من الاساورة ، ويرفعوا عنهم الجزاء ففعلوا . واشترك اقباط مصر مع المسلمين في غزوة ذات الصواري عام ٣١هـ او عام ٣٤هـ(١٧) . ونصت بعض عهود الامان واتفاقيات الصلح مع اهل البلاد المفتوحة على ان ينفروا مع المسلمين ، ويشتركوا معهم في قتال الاعداء، لقاء اسقاط الجزية عنهم ، او مقابل أجر مقدر لهم ، فنص الامان الذي اعطى لأهل تفليس على ان ينصر اهل تفليس المسلمين على الاعداء، ونص امان اهل شهر براز وسكان ارمينية والارمن ان عليهم ومن حولهم ان ينفروا معهم في كل غارة على ان توضع الجزاء عمن اجاب الى ذلك ، واما اذا تعرض المسلمون للخطر فللمسلمين ان يحشروهم للقتال معهم ، ويكون اشراكهم في القتال عوضا عن الجزية المفروضة عليهم(١٨)، وسار قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٩٣ هـ نحو سمرقند باهل خوارزم وبخارى حتى قال له صاحب سمرقند : انما تقاتلني باخوتي واهل بيتي من العجم . ولما غزا قتيبة عام ٩٤هـ بلاد الشاش وفرغانة فرض على اهل بخارى وكس ونسف وخوارزم عشرين الف مقاتل فساروا معه الى السغد(١٩)، وعقد الشافعي في كتابه « الام » فصلا بعنوان « الاستعانة باهل الذمة على قتال العدو » انتهى فيه الى القول ان لا بأس ان يستعان بهم في القتال على الاعداء ويعطوا اجرهم(٢٠) .

وكان اذا اسلموا ، بمعنى الايمان والولاء للفكر والنظام والانتماء للحضارة ، زالت الاوضاع السابقة المتعلقة بهم قبل اسلامهم ، وصارت الحال الجديدة سببا لاجراء الاخوة والمساواة بين الجميع ، مما يشير الى اتجاه حضاري متسامح وودي . فقد نص الامان الذي كتبه حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من بلاد ارمينية على : ... فان اسلمتم واقمتم الصلاة ، واتيتم الزكاة فاخواننا في الدين وموالينا(٢١) .

اعداد الجيش :

بدأت اعداد الجيش متواضعة لا تتجاوز المئات في بداية قيام الدولة الاسلامية ثم صارت تكبر وتزداد بازدياد الداخلين في الاسلام فبلغ العدد في غزوة حنين عام ٨ هـ اثني عشر الفا(٢٢)، وكان عدد الجيش في معركة اليرموك في بلاد الشام يصل في بعض الروايات الى ستة واربعين الفا(٢٣) .

وغزا يزيد بن المهلب عام ٩٨هـ جرجان وطبرستان في مائة الف مقاتل من اهل الكوفة واهل البصرة واهل خراسان واهل الري سوى الموالي والمماليك والمتطوعة(٢٤)، وسار هارون الرشيد عام ١٦٥هـ في خلافة ابيه محمد المهدي في الصائفة الى بلاد الروم في خمسة وتسعين الفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلا(٢٥)، على ان هذه الارقام الواردة في هذه الشواهد لا تمثل مجموع اعداد الجيش بكامله ، وانما يدل بعضها على ضخامة الحملة العسكرية واهمية اغراضها من جهة والى وفرة اعداد المقاتلين من جهة اخرى، فقد كان الجيش موزعا بين الشام ومصر وافريقيا والاندلس والعراق وخراسان والثغور الاسلامية المختلفة ، وعلى سبيل المثال كان ديوان الجند في مصر يضم في زمان معاوية بن ابي سفيان اربعين الفا(٢٦)، وكان عدد المقاتلين المرابطين من اهل البصرة بخراسان في عهد بني امية واواخر القرن الهجري الاول اربعة وخمسين الفا(٢٧)، وعندما ترك مروان عام ١٢٧هـ مكانه في ثغور ارمينا واذربيجان والجزيرة مخالفا زمن الخليفة يزيد بن الوليد، خلف ابنه في الثغور باربعين الفا وسار في ثمانين الفا ، والتقى عند حمص بسليمان بن هشام مرسلا من جانب الخليفة يزيد في عشرين ومائة الف(٢٨)، وعندما التقى مروان عام ١٣٢هـ بجيوش العباسيين في معركة الزاب كان عسكره عشرين ومائة الف(٢٩) .

والشواهد السابقة للاعداد المشتركة في الحملات العسكرية المختلفة ، تساعد على تكوين صورة اولية عند اجراء حساب كلي لمجموع الجيش ، كما تساعد بنوعيها النظامية والمتطوعة ، ورغم بعض الحالات التي تدين بعض افراد الجند النظامية بالتقاعس عن القتال والتذمر ، وارسال البدل حينا ، وحشر الجند طوعا وكرها ، وبذل الاموال لهم وافاضتها عليهم ، واسقاط الاسماء من ديوان الجند حينا آخر(٣٠) ، تساعد مع ذلك على بيان مدى احترام الجندية والاعتزاز بشرفها والايمان برسالتها وبخاصة في العهود الاسلامية الاولى . ومما يجدر ذكره ، ان الاوضاع المالية والاتجاهات السياسية ، كانت تؤثر في اعداد الجند وفي اختيارهم احيانا(٣١) .

عناصر الجيش واجناسهم :

كانت الاعداد التي تشكل منها الجيش ابتداء ، تنتمي في الغالب الى العنصر العربي . فلما انطلقت حركة الفتوحات الاسلامية خارج الجزيرة العربية في عهد الراشدين واتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، صارت بعض العناصر المختلفة من اهل البلاد المفتوحة تشارك في الجيش ، وكانت اذا اسلمت تسجل غالبا في ديوان الجند وتصرف لها الرواتب ، فقد انفصل ، على سبيل المثال ، اربعة آلاف جندي عن رستم في معركة القادسية وانضموا الى المسلمين واسلموا ، ففرض لهم المسلمون في العطاء الفا لكل واحد منهم وهم الذين كان يطلق عليهم « حمراء ديلم »[٣٢] .

وانضم سياه احد قادة يزد جرد في عدد كبير من الاساورة الى المسلمين عام ١٧هـ ، واسلموا ، فكتب ابوموسى الاشعري فيهم الى عمر بن الخطاب ، فكتب اليه عمر : ان الحقهم على قدر البلاء في افضل العطاء واكثر شيء اخذه احد من العرب ، ففرض لمائة منهم في الفين ، ولستة منهم في الفين وخمسمائة فقال الشاعر :

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم
وكان بما يأتي من الامر ابصرا
فسن لهم الفين فرضا وقد رأى
ثلاثمئين فرض عك وحميرا[٣٣]

وتشير المصادر التاريخية الى هذه العناصر باسماء مثل الفرس ، والحمراء والاساورة ، والسيابجة ، والزط ، والبخارية ، والاتراك ، والبربر وغيرهم[٣٤] .

ومنذ العهد العباسي اخذت اعداد هذه العناصر تزداد.كنتاقة لاسباب تتصل بمهد الدعوة العباسية، وظروف قيام دولتهم وتخوفهم على سلطانهم من جهة ، ثم ضعف دولتهم وذهاب سطوتها وقيام الامارات المستقلة من جهة اخرى . فقد كثرت العناصر الخراسانية في الجيش منذ قيام الدولة العباسية ، وحاول المعتصم لذلك ان يوازن بين العناصر المختلفة في الجيش وبخاصة الخراسانية ، فاستقدم الاتراك واكثر منهم ، ثم اصطنع قوما من اهل الحوف بمصر وسماهم المغاربة ، وجمع خلقا من سمرقند واشروسنه وفرغانه وسماهم الفراغنة فكانوا من اصحابه وبقوا بعده[٣٥] وعندما اخذت الامارات المستقلة بالظهور ، وبخاصة منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، اقبل حكام هذه الامارات يكونون جيوشا خاصة بهم ، وكانوا يستقدمون بعض الاعداد اللازمة لها من البلدان المختلفة يستخدمونهم في الجيش مقابل المال ، ويتعززون بهم ، ويعتمدون عليهم في حفظ سلطانهم وتوسيع اماراتهم .

تمويل الجيش وتموينه :

كان الجيش قبل تأسيس ديوان الجند ، يعتمد في تمويله وتجهيزه على ما يعده الافراد من عدة ، اضافة الى ما كانوا يقدمون من نفقة وصدقة يتطوعون بها للانفاق على من كانت الحاجة تقصر بهم عن النفقة وتقعدهم عن الخروج الى القتال ، وكان الافراد يتدبرون المال مما كان بين ايديهم من زراعة ، او تجارة ، او ابل ، او ماشية ، او حظهم من الغنائم ، وكان يعتمد من جهة اخرى على ما تقدمه الدولة من سلاح وخيل كانت تشتريها من حظها من خمس الغنائم وما تأخذه من اهل الذمة على سبيل الجزية ، وما كان يصرف من اموال الزكاة في هذا السبيل[٣٦] وبعد تأسيس ديوان الجند ، صار الجند يصرفون قسما من رواتبهم في تجهيز انفسهم واعداد ما يلزمهم في السفر والقتال وورد على سبيل المثال ، ان كثير بن شهاب الحارثي الذي عينه والي الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي على الري ودستي وقزوين في خلافة عمر بن الخطاب ، كان اذا غزا اخذ كل امرىء ممن معه بترس ، ودرع ، وبيضة ، ومسلة ، وخمس ابر ، وخيوط كتان ، وبمخصف ومقراض ومخلاة[٣٧]، وكان الرجل من الجند يحتاج عندما طالت خطوط القتال ، على نحو ما جرى في غزوة تبوك ، الى بعيرين : بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده[٣٨]، وعندما صارت خطوط القتال تمتد الى ما وراء العراق وما وراء خرسان وغيرها من المناطق الجبلية والوعرة ، صار الجند يستخدمون اضافة الى الابل ، البغال في حمل امتعتهم وموادهم[٣٩] ، ولذلك كان القادة يتخيرون فصول الخصب والدفء من السنة تخففا من حمل الزاد والمئونة، وتخلصا من متاعب البرد والحاجة الى الادفاء[٤٠] .

وفي حديث قدامة بن جعفر عن اوقات غزو المسلمين بلاد بيزنطة (الروم) يذكر ان المسلمين كانوا يتخيرون اوقاتا معينة من السنة للغزو ، فمنها : « الربيعية » التي كانت تقع لعشرة ايام تخلو من شهر ايار ، بعد ان يكون الناس قد اربعوا دوابهم ، وحسنت احوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما وهي بقية ايار وعشرة من حزيران ، وكانوا يجدون في اثناء غزوهم لبلاد بيزنطة (الروم) الكلأ ، فكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ، ثم يقفلون، ويقيمون الى خمسة وعشرين

يوما ، وهي بقية حزيران ، وخمسة من تموز ، حتى يقوى ويسمن الظهر (اي الدواب والخيول) ويجتمع الناس لغزو « الصائفة » فيغزون لعشر من شهر تموز ، ويقيمون في الغزو الى وقت قفولهم ستين يوما .

اما « الشواتي »، فلا يغزون الا عن اضطرار ، ولا يوغلون كثيرا وغاية ما يبعدون مسيرة عشرين ليلة ، بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وكان ذلك في آخر شباط وحتى ايام من آذار ، ويكون العدو في ذلك الوقت اضعف ما يكون نفسا ودوابا ، ويبدأون الدورة ثانية(٤١) .

كانت الجيوش تخرج اول الامر من مدينة الرسول «ص» فلما فتحت العراق ومصر والشام امر عمر بن الخطاب بتمصير الامصار واتخاذ المدن لاقامة الجند فيها ، وصارت الجيوش تنطلق هذه المرة من الكوفة والبصرة والفسطاط وامثالها من مدن العسكر في هذه البلاد ، ولما فتحت خراسان وافريقية ، اخذت الجيوش وبخاصة في عهد بني امية تنطلق من مرو في خراسان ومن القيروان في افريقية وغيرها من المراكز العسكرية الاقرب نحو ميادين القتال ، وكانت الطرق التي تسلكها الجيوش في الغالب هي طرق التجارة لما قد يتوفر في هذه الطرق من الخدمات ، وبخاصة الماء الذي كانوا ينزلون عليه ، فيستقون ويملأون القرب لحاجتهم منه في الطريق . وكان الجيش في منازله على الطريق يتخذ الخيام(٤٢) للراحة ، ويعجن ويخبز ، وكان يأكل في طريقه من الثمار التي يمر بها ، فقد ذكر الصنعاني انهم كانوا يرخصون للجيش في الطعام والعلف من الغنيمة بارض العدو ، وقيل للحسن البصري : ما كنتم تصيبون في الطريق ، قال : التبن ، والحطب ، وقيل له : الرجل يمر بالثمار قال : يأكل ولا يحمل(٤٣)، حتى اذا بلغ الجيش غايته ، صار يعتمد اضافة الى ما معه من المئونة على ما يحصل عليه من طريق الغارات والحرب(٤٤)، وكان الجيش يأكل مما يغنم ، فيصيب الطعام بأنواعه، ويذبح البقر والغنم لاغراض الاكل للحاجة الماسة الى ذلك، وعدم استطاعته على استصحاب الكفاية منه معه من دياره(٤٥)، واذا طال به المقام كان يزرع ويأكل(٤٦)، الا ان سياسة الدولة كانت تقوم اساسا على ان لا تجمر الجيوش في ساحات القتال ، وان لا تتركها لفترة طويلة بعيدة عن اوطانها واهلها ، واذا وقع ذلك ، كان استثناء، وكان سببا الى السخط والفتنة ، ومما جاء في خطبة الخليفة يزيد بن الوليد بن عبدالملك : « ... ولا اجمركم في ثغوركم فافتنكم وافتن اهليكم(٤٧) » .

والى جانب قيام الجند بتجهيز انفسهم ، كانت مساهمة الدولة في الانفاق واعداد القوة كبيرة ، فقد ورد عن عمر بن الخطاب ، انه كان يحمل في كل عام على اربعين الفا من الظهر(٤٨)، وانه جعل ثلاثين الف بعير وثلاثمائة فرس ووسم في افخاذهن حبيس في سبيل الله(٤٩)، وبلغ مقدار ما انفق الحجاج على الجيش الذي سيره بقيادة ابن الاشعث الى سجستان الفي الف سوى اعطيات الجند حتى دعي الجيش بجيش الطواويس(٥٠)، وبلغت نفقات الجيش الذي قاده هارون الرشيد في خلافة ابيه محمد المهدي الى غزو الروم مائة الف دينار واربعة وتسعين الفا واربعمائة وخمسين دينارا ومن الورق احدا وعشرين الف الف واربعمائة الف واربعة عشر الفا وثمانمائة درهم(٥١)، وهي نفقات تشير الى مركز الدولة الكبرى الذي كانت تحتله الدولة الاسلامية آنذاك في العالم .

وظيفة الجيش ومهامه :

كان القتال المهنة الطبيعية للجيش ، ويعد كل منهما ظلالا للآخر ، ولم تستطع البشرية حتى يومنا الحاضر ان تستغني عن القتال في علاقاتها، وعده ابن خلدون امرا طبيعيا لا تخلو عنه امة ولا جيل ، ورده الى ارادة انتقام بعض البشر من بعض غيرة ومنافسة او عدوانا او غضبا للملك والحكم او غضبا لله ولدينه(٥٢)، وبتعبير آخر صراع من اجل السيادة وضمانها ، وجلب المصالح وحمايتها ، ونشر المبادىء والافكار وسيطرتها ، وبخصوص القتال في الاسلام ، فان الآيات القرآنية والاحاديث النبوية حددت بواعثه ودواعيه، قال تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله ، اولئك هم الصادقون » الحجرات آية ١٥ .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا، هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » الصف آية ١٠ ـ ١١ .

وقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله ، واعلموا ان الله سميع عليم » البقرة آية ٢٤٤ .

وقال «ص»: « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني

دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابها على الله[٥٣] .

وفي بحث قمت به وجدت لفظ القتال يرد في خمس وثلاثين آية موزعة بين احدى عشرة سورة وفي خمسة وسبعين حديثا ، وتفيد جميعها ان القتال قد شرع ليكون في سبيل الله ولتكون كلمة الله هي العليا[٥٤] .

وقد روي ان رسول الله «ص» بعث الى ملوك ورؤساء وامراء البلاد المجاورة كتبا يدعوهم فيها الى الاسلام ، ومما جاء في كتابه الى امبراطور الروم : « اني ادعوك الى الاسلام ، فان اسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فان لم تدخل في الاسلام .. فلا تحل بين الفلاحين والاسلام ان يدخلوا فيه[٥٥] » .

وكان رسول الله «ص» اذا امر اميرا على جيش، او سرية ، اوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ويمن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا بسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث خصال - او خلال - فأيتهن ما اجابوك اليها فاقبل منهم ، وكف عنهم: ادعوهم الى الاسلام فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعوهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، واخبرهم انهم ان فعلوا، فان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فان ابوا ان يتحولوا فاخبرهم انهم يكونون كاعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم ابوا فسلهم الجزية ، فان هم اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فان هم ابوا فاستعن بالله وقاتلهم[٥٦] .

فلما توفي الرسول «ص» وجه ابوبكر الجيوش لقتال الخارجين على وحدة الامة ممن اسمتهم المصادر التاريخية بالمرتدين ، وكتب اليهم مع امراء الجيوش كتبا جاء فيها : « .... واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان ، وامرته الا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب له واقر وكف ، وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ، ومن ابى امرت ان يقاتله على ذلك .. ولا يقبل من احد الا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله[٥٧] .

ولما فرغ ابوبكر من حروب الردة سير الجيوش خارج الجزيرة ليفتح البلاد المجاورة وكانت وصيته الى امراء الجيوش، ان لا يغلوا ، ولا يغدروا ولا يمثلوا ولا يقتلوا وليدا ، ولا يقتلوا امرأة ، وان لا يقاتلوا الا من قاتلهم ، وان يدعوا الناس الى احدى ثلاث خصال ، فأيتهن اجابوا اليها قبلوا منهم : الاسلام او الجزية او القتال[٥٨] .

كان المسلمون يعرضون هذه الخصال على الخصوم عن طريق من كان يحسن التحدث بلسان الخصوم ممن يرافق الجيش .

وكان كثير من العرب يتقنون لغات اهل البلاد المجاورة من الفرس ، والروم والاحباش ، وكانوا استفادوا الحديث بلغات هذه الاقوام عن طريق المجاورة والمخالطة والتجارة، وذكر الطبري على سبيل المثال ان خالد بن الوليد كتب الى الفرس يدعوهم الى الاسلام او الذمة والجزية او القتال وبعث كتابا من كتبه مع رجل من اهل الحيرة ، وكتابا آخر مع رسول صلوبا ، وان المسلمين اتخذوا في معركة القادسية هلالا الهجري ترجمانا[٥٩] .

واضافة لما سبق، فان الخلفاء وبخاصة في العهد الراشدي كانوا حريصين على بقاء نيات الامراء ونيات جيوشهم معقودة على اعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ، وكانوا يرون تأخر الجيوش في الفتح ، وابطاء نزول النصر عليهم شارة على تغير النيات وتعلقهم بالمنافع المادية ، تلك المنافع التي عبروا عنها باسم « الدنيا » وحذروهم منها .

قال ابوبكر : الا انه لا دين لاحد لا ايمان له ، ولا اجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، الا وان في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم ان يحب ان يخص به ، هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي والحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة ، وكتب الى خالد بن الوليد وعياض بن غنم امراء جيش العراق : وأثروا امر الأخرة على الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما[٦٠] .

وكتب عمر بن الخطاب لسعد بن ابي وقاص : اما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما ، والصبر الصبر ، فان المعونة يأتي من الله على قدر النية ، والاجر على قدر الحسبة[٦١] .

ولما ابطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر ، كتب الى عمر بن العاص : اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر ، انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذلك الا لما احدثتم واحببتم من الدنيا ما احب عدوكم ، وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق

نياتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر ، واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت اعرف الا ان يكونوا غيرهم فاذا اتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم اولئك الاربعة في صدور الناس ومر الناس جميعا ان يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم .. وامر عمرو الناس ان يتطهروا ، ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا الى الله ، ويسألوه النصر ، ففعلوا ، ففتح الله عليهم(٦٢)، وكان من السنة التي سنها الرسول « ص» بعد معركة بدر ، ان تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سورة الانفال ، وسار المسلمون من بعد ذلك على هذه السنة(٦٣) .

كانت المنافع المادية في سياسة الدولة تالية على الاسباب ، وهي في الغالب ، نتيجة لازمة للفتوحات وثمرة مترتبة عليها ، ولكن بعض الاشارات الواردة من عهد بني امية تدل على امتزاج الاسباب والنتائج عند الدولة في حركة الفتح احيانا ، وان بعض الولاة اتخذ حجم الغنائم المرتقبة وسيلة لاقناع ولاة الامر بتوجيه الجيوش الى ساحات القتال او عدم توجيهها فضلا عن اتخاذ مقادير الغنائم مادة للاعلام والاخبار ابتغاء المباهاة والتفاخر في الانجازات . قيل ان الحجاج بن يوسف كتب الى يزيد بن المهلب : ان اغز خوارزم، فكتب اليه يزيد : ايها الامير ، انها قليلة السلب ، شديدة الكلب(٦٤) .

وكتب يزيد بن المهلب الى سليمان بن عبد الملك : اما بعد ، فان الله قد فتح لامير المؤمنين فتحا عظيما ، وصنع للمسلمين احسن الصنع ، فلربنا الحمد على نعمه واحسانه ، اظهر في خلافة امير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد اعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز ، واعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله ، حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين، كرامة من الله له ، وزيادة في نعمه عليه .

وقد صار عندي من خمس ما افاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف الف ، وانا حامل ذلك الى امير المؤمنين ان شاء الله .

ولما طالب عمر بن عبد العزيز يزيد بالمبلغ قال يزيد: « .. وانما كتبت الى سليمان لاسمع الناس(٦٥) » .

النتائج المترتبة على موقف البلاد من الخصال المعروضة عليهم :

كان اذا اسلم اهل البلاد عند عرض الخصال الثلاثة المذكورة سابقا عليهم وقبل ان يقع القتال ، صار لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، واما اذا رضوا الصلح واعتقدوا الذمة والعهد ، فان المعاهدات المعقودة تصبح اساس العلاقة والمطالبة بين الجانبين فكان عمر بن الخطاب على سبيل المثال ، حريصا على ان يتم الجيش عهوده ومواثيقه لاهل العهود والمواثيق ، ولما كان من المعقول ان يتعرض اهل البلاد لبعض تعديات الجند من غير ارادته من القادة والامراء ، فان عمر بن الخطاب اوصى الامراء ان يبرأوا من هذه الحالات في العهود التي يعطونها حتى لا ينسبوا الى غدر او خيانة، قال عمر : اذا عاهدتم قوما فابروا اليهم من معرة الجيوش(٦٦)، (ومعرة الجيوش هو الاذى الذي تلحقه الجيوش بدون علم واذن الامير) .

ولما كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب ، اتاه رجل من اهل الذمة واخبره ان الناس قد اسرعوا في عنبه فخرج عمر حتى لقي رجلا من اصحابه يحمل ترسا عليه عنب فقال عمر : وانت ايضا ؟ فقال : يا امير المؤمنين اصابتنا مجاعة فانصرف عمر ، فأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه(٦٧)، اما اذا وقعت الحرب بين الجانبين ، فان العدوان والفساد وقتل النساء والصبان والعسفاء ـ المستخدمون ، والوصفاء ـ المماليك ـ ورجال الدين وغيرهم ممن لم يقاتل كانت امور محذورة ، وكانت وصايا الرسول «ﷺ» ووصايا الخلفاء الى الجيوش ، ان يتمسكوا بالتقوى والصلاح ويبتعدوا عن الفساد ، قال «ﷺ»: انهوا جيوشكم عن الفساد ، فانه ما غل جيش قط الا سلط الله عليهم الرجلة . وانهوا جيوشكم عن الزنا ، فانه مازنا جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان(٦٨) ، فاذا انجلت الحرب ، واحرز المسلمون النصر ، صار الاسرى الى القتل ، او الفداء ، او المن ، والعفو عنهم ، او الاسترقاق(٦٩)، واما سكان البلاد ، فكانوا يتركون على ما كانوا عليه من قبل، لقاء ضريبة اطلق عليها الجزية ، او خراج الرأس ، وضريبة على الاموال اطلق عليها الخراج(٧٠)، وبالمقابل كانت الدولة تتولى حماية مواطنيها من اي اعتداء داخلي ، او خارجي ، وتقوم برعايتهم، سواء كانوا من اهل الملة ، ام كانوا من اهل الذمة والعهد .

فقد جاء في وصية عمر بن الخطاب : اوصي

الخليفة من بعدي بكذا او كذا ، واوصيه بذمة الله وذمة رسوله «ﷺ» خيرا : ان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم .. واذا وقع اهل الذمة والعهد في الاسر صار على الدولة ان تفديهم وتستنقذهم من الاسر وكانت تدفع فداءهم من بيت المال(٧١) .

وذكر الماوردي ان من واجبات الخليفة ، ان يحصن الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما ، او يسفكون فيها المسلم او معاهد دما(٧٢) .

دور الجيش في صيانة البلاد من الفتن الداخلية :

واضافة الى قيام الجيش بجهاد الاعداء وقتال الجيوش التي كانت تقف في طريق امتداد الاسلام ونشره بين الناس من اهل البلاد المجاورة ، كان الجيش ، منذ الخلاف على عثمان بن عفان ، والخلاف بين علي بن ابي طالب ومعارضيه ، يباشر القتال في الساحات الداخلية ، ويخوض غمار الحروب الاهلي ، وقد كانت المنافسة على السلطان ، والخروج على الحكام والولاة من الاسباب التي ادت الى استمرار هذه الحروب الداخلية في عهد بني امية وعهد بني العباس وعهود غيرهم من حكم المسلمين ، وجعلت مهمة الجيش اكثر صعوبة وتعقيدا ، واقتضت ان تشمل مسؤولية الجيش حماية الساحة الداخلية مثلما تشمل حمايه الاطراف والحدود الخارجية ، وقد ادى الى اقتراب الجيش من حمى السياسة لما صار تصيبه مباشرة آثارها ، وشجعه ذلك على التدخل احيانا وبالتدريج في شؤون الخلافة والحكم ، فقد ثار على سبيل المثال ، عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث بالجيش على الحجاج ثم تعداه الى الخليفة عبدالملك ، وثار ابن المهلب على الخليفة يزيد بن عبدالملك ، وتحرك مروان بن محمد بالجيش نحو دمشق واستولى على الخلافة ، ثم تحرك بنو العباس بمن انضم اليهم من الجيش واجتمع اليهم من الانصار ضد بني امية واخذوا الخلافة منهم ، وان بدا ان تدخل الجيش في شؤون الدولة في العهد العباسي الاول كان بسيطا نسبيا ، فان تدخله في العهود التالية كان واضحا وقويا ولا حاجة الى تكرار مانوهنا عنه من قبل بخصوص سيطرة الجيش على مؤسسة الخلافة وتحكمه بالخلفاء وخلاصته ان الجيش تحول الى مؤسسة تدير دفة السياسة ، وهو وان كان بطبيعته من مؤسسات الدولة السياسية ، فان الفارق ان الجيش صار القابض على مقاليد السياسة والمسيطر على مؤسسات الدولة المختلفة ، الامر الذي جعل التنافس على السلطان يسير دوما في طريق العنف المادي ، مما ادى الى ضخامة الخسائر المادية والبشرية ، اضافة الى قيام الكيانات المستقلة واضعاف قوة الدولة امام اعدائها وقد هزت هذه الحال التي انحدرت اليها الجيوش محمود بن سبكتكين، فقام عام ٣٩٢هـ بغزو الهند ليكون ذلك كفارة لما كان منه من قتال المسلمين(٧٣) .

اساليب القتال واسلحة الجيش :

كان الجيش اول الامر قد اتبع نظام الصف في القتال(٧٤)، ثم اقتضت الضرورة المتعلقة بزيادة العدد ، وتنوع الاسلحة ، وتقدم نظام الحرب ، وفن القتال اتباع نظام حربي آخر عرف بنظام التعبية(٧٥)، وقيل ان مروان بن محمد الذي كان قائدا عسكريا للجيوش في جبهة ارمينيا واذربيجان قبل ان يكون خليفة، هو الذي اتبع هذا النظام ، وابطل منذ ذلك الوقت نظام الصف(٧٦)، والى جانب هذه الانظمة التي كان يتبعها الجيش في القتال ، كان الجيش يتألف من وحدات ، وذكر المسعودي بعضها قال ، ان الجند ما بين الثلاث نفر الى الخمس مائة يطلق عليهم سرايا ، وهي التي تخرج بالليل واذا كانت تخرج بالنهار فهي السوارب ، قال تعالى : « ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » سورة الرعد اية ١٠ ، وما زاد على الخمس مائة الى دون الثماني مائة يطلق عليهم المناسر ، واما الجيش فاقله ثماني مائة الى دون الثماني مائة ، واذا كان ما بين ٨٠٠ الى ١٠٠٠ فهو الخشخاش، واذا بلغ ٤٠٠٠ فهو الجيش الجحفل ، واذا بلغ ١٢٠٠٠ فهو الجيش الجرار او الخميس ، واذا افترق الجيش بعد خروجه ، فدون ٤٠ يدعى جرائد ، ومن ٤٠ - ٣٠٠ مقانب ، ومن ٣٠٠ - ٥٠٠ جمرات ، والكتيبة ما جمع فلم ينتشر ، والعشرة فمن دونهم كان يطلق عليهم الحضيرة(٧٧) .

وذكر الطبري ان خالد بن الوليد قسم الجيش في اليرموك الى كراديس ، وجعل على كل كردوس رأسا ، ووزعها ما بين الميسرة والميمنة والقلب(٧٨)، وكانت وحدات الجيش تتمايز بالرايات ، وكان لكل منها قائد ، وتتسمى باسماء تدل على فعالها وصبرها في قتال الاعداء ، مثل : كتيبة الاهوال ، وكتيبة الخرساء(٧٩)، وكانت تتمايز احيانا بالاسلحة ، ومما يذكر في هذا المجال ، ان عدة الجيش واسلحتهم كانت تضم الابل والبغال للركوب وحمل الامتعة والمواد وتضم الخيل للقتال .

وقد حض الاسلام على اعداد العدة وارتباط الخيل في سبيل الله ، قال تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » سورة الانفال آية ٦٠ . وروي عن الرسول «ﷺ» : « من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه ، وروثه ، وبوله ، في ميزانه يوم القيامة » . صحيح البخاري باب فضل الجهاد . وحض الرسول على اتخاذ السهام فقال : ان الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد ، صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي ومنبله » ، وقال الرسول «ص» في قوله تعالى : « واعدوا لهم .. » الا ان القوة الرمي يذكرها ثلاثا . صحيح مسلم باب حكم الفيء.

ولذلك كان هذا من اسباب الاهتمام باعداد عدة الجيش وتسليحه على مستوى الدولة والافراد، وقد روي عن ابراهيم النخعي وعامر الشعبي وغيرهما انهم كانوا يحبسون خيلا وسلاحاً في سبيل الله(٨٠) .

وقد بلغت العناية بالخيل ، بهذا السبب ، درجة كبيرة، فحفظت انسابها واعطيت الاسماء والالقاب مثل : الخطار ، والاشقر ، والابلق ، والذائد ، والفرقد وذو الريش(٨١)، وكان حظ صاحبها من الغنائم مثلي حظ الراجل واحيانا يصل الى ثلاثة امثال حظ الراجل(٨٢) ، وشملت اسلحة الجيش الدروع والحراب والقسي والسهام والسيوف للرجالة ، كما استخدموا الطبرزينات ـ آلة تشبه الفأس ـ والتروس والخوذ ، والضبور(٨٣)، والدبابات والمنجنيقيات ، واستعملوا النفط او النار الاغريقية(٨٤)، ولا ريب ان جميع هذه الاسلحة ، كانت تخضع للتطوير والتهذيب حتى تكون فعاليتها احسن ، وفائدتها اكبر ، وكان الجيش نفسه يؤخذ بالتدريبات ، وكان عرض الجيش واحدا من اساليب العناية به ، ورفع مستوى فعاليته القتالية .

فقد اتخذ المسلمون في مصر فضاء كانوا يدربون فيه خيولهم ما بين نهر النيل وحتى منطقة نزولهم وسكناهم(٨٥) .

وذكر الطبري ان ابا جعفر المنصور عرض جنده في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتخذه على شط دجلة ، وامر اهل بيته، وقرابته ، وصحابته يومئذ بلبس السلاح ، وخرج وهو لابس درعا وقلنسوة وتحت البيضة سوداء لاطئة مضربة(٨٦) .

ومن المناسب ان نذكر في هذا المجال ان الفتوحات التي حققتها الجيوش الاسلامية ، والسرعة التي تمت فيها هذه الفتوحات ، كانت مدعاة للاستغراب والتساؤل ، وقد عزا بعض المؤرخين انتصارات الجيش الاسلامي وسرعة فتوحاته الى عاملين هما : اولا احوال البلاد المفتوحة قبل الفتح الاسلامي ، وثانيا احوال المسلمين الفاتحين .

اما بخصوص احوال البلاد المفتوحة، فقالوا ان بعض هذه البلاد كان يتبع لفارس ، وكان الآخر يتبع لبيزنطة وكلتا الدولتين كانتا في غاية الضعف، فالحروب التي نشبت بين الدولتين وتكاليفها الباهظة ، والطواعين والاوبئة الفتاكة التي حصدت الاعداد الكثيرة من شعوبهما ، والخلافات الدينية التي فصمت عرى الوحدة والمحبة بين الناس من شعوب الدولتين ، وبينهم وبين حكامهم من الفرس والبيزنطيين ، جعلت الدولتين عاجزتين ماديا ، واجتماعيا عن اتخاذ التدابير الكافية لصد الجيوش الاسلامية من جهة ، ويسرت مهمة الفاتحين من جهة اخرى .

اما بخصوص الفاتحين فقالوا انهم كانوا شعبا يمتلىء حمية ونشاطا وامدهم الاسلام بحماسة قوية ، وهيأهم لخوض القتال بنفوس تسخر من الموت وتحتقر الحياة ، وانهم احسنوا استخدام الاسلحة ، واختيار الاساليب القتالية التي تلاءم طبيعة البلاد التي فتحوها ، وقالوا ان مما ساعدهم ايضا ان من كان بهذه البلاد من بني جنسهم انضموا الى صفوفهم وحاربوا معهم جيوش الفرس والبيزنطيين(٨٧) .

ومما لاشك فيه ان القدر الجائز من هذه الاقوال ينفع عند تقدير او حساب العوامل التي ساعدت على تحقيق الغلب والنصر للمسلمين .

وبحث ابن خلدون قضية النصر والغلب ، فرد اسبابها في الاكثر الى عوامل مجتمعة من امور ظاهرة : تتمثل في الجيوش ووفورها ، وكمال الاسلحة واستجادتها ، وكثرة الشجعان ، وفنون الحرب وخططها ، وصدق القتال ، وما يجري مجرى ذلك ، والى امور خفية : اطلق عليها اسم « البخت والاتفاق » وعزا اليها الدور الاكبر في الغالب والنصر ، وهي اما ان تكون من خدع البشر وحيلهم في الارجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وما الى ذلك من الشهرة والصيت ، واما ان تكون امورا سماوية تلقى في القلوب، فيستولي الرعب عليهم، فتختل مراكزهم ، وتقع الهزيمة والخذلان(٨٨) .

ومما ينفع في هذا المقام ، ان نذكر ـ الحاقا بما ورد ـ ان العنصر الجديد الذي دخل الحياة العربية كان هو الاسلام ، وقد تحقق في ظله ان ولاة الامر من حملة الاسلام ورسله، قدموا مثالا

رائعا للقيادة التي تسهر تحرس الامة حين تنام ، وتجوع حين تجوع الرعية ، وتلبس من الثياب، وقد يرفل بعض الناس بالناعم الرقيق منها ، وتأكل الجاف الغليظ من الاكل وقد ينعم الافراد بالطري اللذيذ منه ، وتزهد الزهد كله في الذهب والفضة وحتى في تاج كسرى واسواريه وتستظل في بيوت لا تفضل عن بيوت الآخرين ، وقد تكون بيوت غيرهم افضل منها ، ولم تسابق احدا الى اكتساب المنافع واصطياد اللذات والشهوات ، بل كانت عن ذلك في شغل، ولم يزل هذا الخلق دأب هذه القيادة حتى سرت هذه الروح في نفوس من يليها من القادة والجند ، فاطمأنت به القلوب وخلصت النيات وغمرت الثقة النفوس ، وصا الولاء للنظام والجماعة ، وتوارى من القوم من فساد او استتر عليه ، واصاب الجيش من ذا خيرا عميما فغدوا عصبية واحدة يقاتل جيوش ذات عصبيات متعددة ، ومتنازعة ، فصغر امامه ، وهانت رغم اعدادها الكثيرة ، ولما ا هذا الحال يتغير، وصار الخلف واقعا بين الا وبين الامة وولاة الامر ، وانتشرت الاه والميول ، وتعددت العصبيات ، وتنو الاغراض ، وضعف الولاء للنظام والجما تراجعت قدرة الجيوش الاسلامية عما كانت من قبل ، وتناوبت النصر والهزيمة مع الاعد

الهوامش

١ ـ انظر مادة « جيش » في تاج العروس ولسان العرب .
٢ ـ ابن هشام ـ السيرة النبوية ج١ ص ٢٨٢، تحقيق السقا ، الطبعة الثالثة ، دار احياء التراث العربي، ١٩٧١ .
٣ ـ ابن هشام ـ السيرة النبوية ج٢ ص ١٤٩ .

٤ ـ محمد بطاينة ـ الجيش وتمويله في صدر الاسلام، مجلة دراسات العلوم الانسانية ، المجلد الثامن العدد الثاني عام ١٩٨١ ص٥٣ ـ ٥٨ .
٥ ـ الشافعي ـ كتاب الام ج ٤ ص ٨٥ كتاب الجزية ـ اصل فرض الجهاد ، القاهرة : كتاب الشعب
الشيباني ـ شرح السير الكبير ج ١ ص ١٨٨ ، تحقيق د. المنجد ، مطبعة شركة الاعلانات الشرقية ١٩٧١م .
ابن تيمية ـ السياسة الشرعية ص ١١٨ وما بعدها فصل جهاد الكفار .
الخضري ـ تاريخ الامم الاسلامية ج١ ص ٩٣ ، الطبعة الثامنة ، القاهرة : المكتبة التجارية ١٣٨٢هـ .

٦ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٣ ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠م .
٧ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٨٣، القاهرة : مكتبة ومطبعة عبدالسلام شقرون
٨ ـ ابوعبيد القاسم بن سلام ـ الاموال ص ٢٤٣، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة مكتبة الكليات الازهرية ١٩٦٨ .

٩ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٤٧ .
١٠ ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨١ .

١١ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤٥ .

١٢ ـ الماوردي ـ الاحكام السلطانية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الطبعة الثالثة القاهرة : مكتبة الحلبي ١٩٦٦م
١٣ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٨ ص ١١٦ .

١٤ ـ انظر : ابوجعفري الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٥ ص ٧٤، ج ٦ ص ٥٣٢ .
١٥ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٧١، ج ٦ ص ٤٤٣ . الشافعي ـ الام ج ٤ ص ٨٨ .
١٦ ـ الشافعي ـ كتاب الام ج ٤ ص ١٧٧ .
١٧ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٩ .

١٨ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٥٧، ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ٢٩١ .
١٩ ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٤٧٣، ٤٨٣ .
٢٠ ـ الشافعي ـ كتاب الام ج ٤ كتاب الجزية فصل «الاستعانة باهل الذمة على قتال العدو » ص ١٧٧ .
٢١ ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦١ .

٢٢ ـ ابن هشام ـ السيرة النبوية ج ٤ ص ٨٣ .
٢٣ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٩٤ ـ ٣٩٥ .
٢٤ ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٥٢٢ .
٢٥ ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ١٥٢ .
٢٦ ـ ابن عبدالحكم ـ فتوح مصر ص ١٠٢، مطبعة بريل ـ ليدن ١٩٢٠ .
٢٧ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥١٢ .

٢٨ ـ المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، ٢٩ ـ المصدر نفسه ج ٧ ص ٤٣٧ .
٣٠ ـ نجد ، اعتمادا على الاشارات الواردة في تاريخ الطبري ، ان اكثر هذه الحالات وقوعا كانت في اثناء الحروب الاهلية ومنها تقاعس بعض الناس عن الخروج مع علي بن ابي طالب في حربه مع معاوية ، وتقاعسهم عن الخروج مع المهلب بن ابي صفرة في حربه مع الخوارج في اثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق ، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٧٩ ، ج ٦ ص ٢٠٥ ـ ٢١٠ . وورد ان الوليد بن عبدالملك ضرب بعثا على اهل المدينة عام ٨٨هـ كان عداده الفين ، فخرج الف وخمسمائة وتجاعل خمسمائة فلم يخرجوا اي دفعوا مالا بدل خروجهم الى القتال ، وفي عام ١٠٦ في اثناء ولاية اسد بن عبدالله القسري ، طلب اسد من توبة بن ابي اسيد ان يحلف الجنود بالطلاق فلا يتخلف احد عن مغزاه، ولا يدخل بديلا انظر : تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣٤ ج ٧ ص ٣٥ . ويقول الماوردي : « ... واذا اراد بعض الجيش اخراج نفسه من الديوان جاز مع الاستغناء عنه ولم يجز مع الحاجة اليه ، الا ان يكون معذورا ، واذا جرد الجيش لقتال فامتنعوا وهم اكفأ من حاربهم سقطت ارزاقهم » الماوردي ـ الاحكام السلطانية ص ٢٠٦ .
٣١ ـ انظر : اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ ، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٠ .
٣٢ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٤٤ ، تحقيق د. المنجد، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .
٣٣ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٩٠ ـ ٩١ .

٣٤ ـ الحمراء : تسمي العرب العجم الحمراء، وانضم منهم يوم القادسية اربعة آلاف الى المسلمين فانزلهم المسلمون حيث ارادوا ، وجعلوا عليهم نقيبا منهم يسمى ديلم فقيل حمراء ديلم .
السيابجة : قيل ان اصلهم من الهند ، وكانوا جنودا في الجيش الفارسي ثم دخلوا مع المسلمين .
الزط : قيل ان اصلهم من السند ، وكانوا من جنود الفرس ثم انضموا الى المسلمين .
الاساورة : منهم اساورة البصرة ، واساورة كانوا يقيمون قرب بحر قزوين فلما غشيهم المسلمون دخلوا مع المسلمين على ما دخل عليه اساورة البصرة وسكنوا الكوفة .
البخارية : اتراك من بخارى قيل ان عددهم كان الفين يجيدون الرمي والنشاب احضرهم عبدالله بن زياد واسكنهم البصرة .
انظر : تاريخ الطبري ج ٤ ص ٩١، ج ٥ ص ٢٩٧، ٢٩٨، ج ٨ ص ١١٧ .
البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٩٥ .
صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٨٣ ـ ٨٧، الطبعة الثانية بيروت : دار الطليعة ١٩٦٩م .

٣٥ ـ ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٣٦، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتاب العربي ١٩٦٧م .
٣٦ ـ محمد بطاينه ـ الجيش وتمويله (بحث) نشر في مجلة « دراسات » العلوم الانسانية ـ الجامعة الاردنية ، المجلد الثامن ـ كانون الاول ، العدد الثاني لعام ١٩٨١، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

٣٧ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٩٠ .
٣٨ ـ القرطبي ـ تفسير القرطبي . انظر تفسير آية ٥٢ من سورة التوبة ، تصحيح احمد البردوني الطبعة الثانية ١٩٥٢م .
٣٩ ـ انظر : ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٣٨ .
٤٠ ـ انظر : ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣٢ .
٤١ ـ قدامة بن جعفر ـ الخراج وصنعة الكتابة ص ١٩٢ ـ ١٩٣ تحقيق د. الزبيدي بغداد : دار الرشيد ١٩٨١م .
٤٢ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٤ .
٤٣ ـ الصنعاني ـ المصنف ج ٥ ص ١٧٩ ـ ١٨١ ، تحقيق حبيب الاعظمي ، منشورات المجلس العربي .

٤٤ ـ انظر : البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٢، ٣١٤. ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٨٥ .

٤٥ ـ الشيباني ـ شرح السير الكبير ج ٣ ص ١٠١٧ ـ ١٠٢١ ومواضع اخرى متفرقة ، ج ٤ ص ١١٨١ .
٤٦ ـ انظر : ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٥، ٥٣٠ .
٤٧ ـ انظر : المصدر نفسه، ج ٤ ص ٢٤٦، ج ٦ ص ٢٣٦، ج ٧ ص ٢٦٩ .
٤٨ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ٤١٩ .
٤٩ ـ الشيباني ـ شرح السير الكبير ج ٤ ص ٢٠٨٥ .
٥٠ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٩ .

٥١ ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ١٥٢ .
٥٢ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .
٥٣ ـ انظر : ابوعبيد ـ الاموال ص ٢٧ .
٥٤ ـ انظر : محمد بطاينه ـ الفتح الاسلامي ، بحث نشر في مجلة العرب ج ٣ ، ٤ س ١٣ عام ١٣٩٨ هـ ـ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض، ص ٢٢٥ ـ ٢٤٩ .
٥٥ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ٣٢ ـ ٣٤ .
٥٦ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ٣٤ ـ ٣٥ .
٥٧ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٥١ .
٥٨ ـ الواقدي ـ فتوح الشام مخطوط ـ استانبول ـ اياصوفيا رقم ٣٣٢٩ .
٥٩ ـ انظر : الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، ٤٨٩ .
٦٠ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٠، ٣٩٠ .
٦١ ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩١ .
٦٢ ـ ابن عبدالحكم ـ فتوح مصر ص ٧٩ .
٦٣ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٧ .
٦٤ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٩٦ .
٦٥ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٤٤، ٥٥٧ .
٦٦ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ٢٢٢ .
ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٩٥٠ .
٦٧ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.
٦٨ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ٥١ .
الماوردي ـ الاحكام السلطانية ص ٤١ .
٦٩ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ١٥٧ ـ ٢٠٩ ، الماوردي ـ الاحكام السلطانية ص ٥٠
٧٠ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤٠، ٤٤٤ .
٧١ ـ ابوعبيد ـ الاموال ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .
٧٢ ـ الماوردي ـ الاحكام السلطانية ص ١٦ .
٧٣ ـ ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢١٣ .
٧٤ ـ يقول ابن خلدون ان العرب كانوا انما يعرفون الكر والفر ، ولكن روح الجهاد عند المسلمين ورغبتهم فيه ثم قتالهم مع الاعداء الذين كانوا يقاتلون زحفا جعل المسلمين يتبعون اسلوب الصف، وجاء في التنزيل : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .
انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .
٧٥ ـ يقوم نظام العبية على اساس تقسيم الجيش الى مقدمة وقلب وميمنة وميسرة وساقة . انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
٧٦ ـ ابن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ .
٧٧ ـ المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠، باشراف لجنة تحقيق التراث . بيروت ـ دار ومكتبة الهلال ١٩٨١ .
٧٨ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .
٧٩ ـ المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠ .
٨٠ ـ انظر تفسير القرطبي من قوله تعالى : واعدوا لهم ما استطعتم . ابن تيمية ـ السياسة الشرعية ص ١٠ ، الطبعة الرابعة ، القاهرة : دار الكتاب العربي ١٩٦٩ .
٨١ ـ ابن عبدالحكم ـ فتوح مصر ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .
٨٢ ـ ابويوسف ـ الخراج ص ١٨ ـ ٢٣ ، باب قسمة الغنائم .
٨٣ ـ الضبور كالدبابة يصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويكمن فيه الجنود بعد تقريبه من الحصن يتقون نبل العدو استعدادا للهجوم على الحصن .
٨٤ ـ انظر كلود كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ١٦٦ـ ١٦٧ .
٨٥ ـ ابن عبدالحكم ـ فتوح مصر ص ١٣٢ .
٨٦ ـ ابوجعفر الطبري ـ تاريخ الطبري ج ٨ ص ٥٢ .
٨٧ ـ انظر على سبيل المثال : فيليب حتى ـ تاريخ العرب مطول ج ١ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، الطبعة الرابعة ، بيروت : دار الكشاف ١٩٦٥ .
٨٨ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

سيرة الفارابي والقصائد المنسوبة اليه

د. حسين علي الداقوقي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

كان الفيلسوف الفارابي موضوع دراسة وتحليل مئات من الباحثين . فمن هذه الدراسات ما كان كتابا او رسالة او مقالة ، ويكاد الباحث اليوم لا يجد اي جانب من جوانب فلسفته و آرائه لم يدرس دراسة مستوفية . غير ان هناك مجالا واحدا فقط يعثر فيه المتتبع الجدة والاصالة فهو مجال المخطوطات ضمن كنوز التراث العربي الاسلامي ، حيث يتوقع الجديد او الاضافة او التوضيح او كلها معا . فمن هذه المخطوطات كتاب عنوانه (المختار من تاريخ عيون الانباء في طبقات الاطباء) لمؤلفه الحسن بن احمد بن زفر الاربلي ثم الدمشقي الشافعي[*] الذي ينفرد بذكر قصيدة منسوبة اليه غير موجودة في المصادر الاخرى كما سوف نرى .

سـيرته :

اشتهر بالفارابي ، وهو ابونصر محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ الفارابي التركي الحكيم[١]. ولد في (فاراب) المعروفة بـ (اطرار) احدى المدن الواقعة وراء نهر سيحون ، عند ملتقى هذا النهر برافده Aris[٢] وحيث البساتين البهيجة والاشجار الوارفة الظلال ولعل الفارابي اكتسب حب الطبيعة من البيئة التي ولد ونشأ فيها[٣] .

تحررت هذه المدينة من قبل المسلمين في عصر السامانيين بعد ان غزا نوح بن ازاد مدينة اسبيجاب سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ أو ٨٤٠ م اي قبل مولد الفارابي في ٢٦٩ هـ / ٨٧٠ م قرابة ثلاثين سنة[٤] .

وقد ذكر الاربلي في مخطوطته : ان « ابا نصر الفارابي بن اوزلغ بن طرخان من مدينة فاراب من بلاد الترك . كان ابوه قائد جيش . وكان اماما فاضلا وفيلسوفا حقا برع في علوم الفلسفة واتقنها واظهر محاسنها وشرح كتب الادايل منها . وكان عالما بصناعة الطب لكنه لم يباشر اعمالها لكثرة اشتغاله بالعلم وانقطاعه اليه . وكان متقنا لعلم الموسيقى وله منه المصنفات الجليلة . وعمل آلة عجيبة اذا ضرب بها ظهرت من النفس انفعالات غريبة »[٥] .

« وكان في اول امره قاضيا ببلاده، فاودع عنده رجل من التجار جملة من كتب ارسطو طاليس . فنظر فيها فوافقت قبولا فترك القضاء واكب عليها بهمة وتجرد وسافر الى بغداد » .

يقول ابن خلكان : « تنقلت به الاسفار الى ان وصل بغداد ، وهو يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربية ... » .

فكانت رحلة الفارابي من بلاده في سن ناضجة انتجاعا لمواطن الثقافة في ذلك العهد . فاتقن اللغة العربية بسرعة ولم يلبث ان استطاع من تطويع الفلسفة للغة العربية .

اقام في بغداد مدة وتلقى اطرافا من علوم الاوائل على يد شخصية لايزال الغموض يحيط بها هي شخصية يوحنا بن حيلان وقد كان ذا قدم راسخة في المنطق فقرأ عليه الفارابي من المنطق حتى آخر البرهان[٦] .

يقول الاربلي : « اقام مدة في بغداد وقرأ فيها المنطق على يوحنا بن يوحنا حيلان ، وقرأ النحو على ابي بكر ابن السراج . وكان ابن السراج يقرأ عليه المنطق »[٧] .

ويوحنا حيلان الفيلسوف النصراني المتوفى في دار السلام ايام المقتدر[٨] .

ثم شخص الفارابي الى الشام بعدها سافر الى البلاد المصرية وبالتالي رجع الى دمشق واقام بها الى ان مات « قال ابوالحسن بن علي الآمدي : كان الفارابي مقتنعا باليسير من الرزق ، وكان في اول امره ناطورا في بستان بدمشق وهو في مثل هذه الحالة ملازما للاشتغال ليله ونهاره . وكان في اكثر لياليه يستضيء على المطالعة بقنديل الحارس[٩] . ولم يزل كذلك الى ان ظهرت فضيلته وكثرت تلاميذه واجتمع به الامير سيف الدولة .. فاكرمه وقربه واجزل له العطاء .. فلم يقبل من عطائه شيئا سوى اربعة دراهم فضة[١٠] في كل يوم يصرفها في الضروري من عيشه . وكان غالب ما يتغدى به قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط . وله من المصنفات ما يقارب مائة وعشرين كتابا ما بين رسالة ومقالة وكتاب مطول[١١] ثم يذكر الاربلي اسماء عدد من المؤلفات.[١٢] وفي القسم الآخر من حديث الفارابي يتحول الأربلي الى الرواية من البابصري وتكاد هذه الرواية ان تكون مقتبسة من نفس المجموعة التي نقل عنها ابن خلكان والغيتابي صاحب مخطوطة تاريخ الشهابي (الورقة ١٠٦ وما بعده) .

يقول الاربلي :

« قال البابصري ايضا في ترجمة الفارابي الى نصر طرخان بن اوزلغ الحكيم التركي المشهور ، لم يأت في الاسلام مثله في علوم الفلاسفة ، ولم يصل الى رتبته في هذه العلوم غير الرئيس ابوعلي الحسين ابن سينا .

وكان ابونصر رجلا تركيا ، وفي بلده ولد وبه نشأ ، وانه ورد بغداد ولم يعرف اللسان العربي فعرفه في مدة يسيرة ، وكان يعرف عدة لغات غير العربي . ثم ابتدأ وقرأ الحكمة على ابي بشر حتى ابن يونس الحكيم المشهور وكان شيخا كبيرا يعلم الناس على المنطق وقد صار له بذلك صيت ، بحيث انه كان يجتمع في حلقته المئات من المشتغلين . وكان يقرىء كتاب ارسطو طاليس ويملي على تلامذته من شرح هذا الكتاب سبعين سفرا[١٣] .

وهكذا اقام اسس افكاره الاولى في هذه الاثناء وحافظ على شروح ارسطو حتى نهاية عمره .

يقول البروفسور حلي ضياء ان دراسات الفارابي اخرجته عن كونه مشائيا Peripateticien لاسيما دراساته في حران حيث اكمل دراسة ارسطو وقرأ ما لدى الصابئه[١٤] .

« توفي الفارابي بدمشق ودفن بمقابر باب الفراريس وقد ناهز ثمانين سنة من عمره[١٥] .

« قال ابن صاعد القرطبي في كتاب طبقات الاطباء : وتوفي متى بن يونس ببغداد في خلافة الراضي بالله ، وتوفي يوحنا بن حيلان بمدينة السلام في ايام المقتدر بالله » .

ينقل الأربلي بعد ذلك قصته المشهورة في مجلس سيف الدولة[١٦] .

الفارابي في اوروبا :

عرف الفارابي في اوروبا بـ : Al.pharabius أو Alpharabi[١٧] .

نقل عن الفارابي johannes Hispanus والمترجم الشهير Gundissalvi واوجد DE Scientil طبع في باريس ١٦٣٦ .

كذلك نقل جنديسانعي من كتاب احصاء العلوم للفارابي اجزاء كون منها الترجمة التالية وهي مشهورة بـ :

De Divisione Philosophiiae (Oxford, Catalog, mss Tom I, p.87.[١٨]

ان أولى دراسة وافية عن الفارابي نشرها Steinschneider في برلين عام ١٨٦٨ . ثم تناوله Schimiolders, De Boer, Munk, Hotten.

واعطى Emile Brehier للفارابي اهمية تذكر في كتاب تاريخ الفلسفة العامة . وحذا حذوه Masson Aureel — في تاريخ الفلسفة المقارنة . وبذلك غدا الفارابي ذا مكانة عالمية في مجال الفلسفة . اما الذين كتبوا عنه فيما بعد فانهم كثيرون نذكر منهم : أسين بالاسيوس ، جلسون ، احمد امين (رحمه الله) محسن مهدي ، ابراهيم مدكور ، عبدالرحمن بدوي وغيرهم . أما ابرز من تناوله

من الاتراك فكان البروفسور حلمي ضياء اولكن (رحمه الله) . استاذ الفلسفة في انقره . هذا تعريف عاجل خاطف عن سيرته لابد منه بين يدي الحديث عن سيرته في كتب القدماء .

القصائد المنسوبة اليه :

ان ما ينسب اليه من الشعر الرقيق لا يعدو عن بضع قصائد . كما تنسب نظائرها الى ابن سينا واحيانا لغيره من رجال الفكر المشاهير .

ويبدو من كتاب (المختار) ان الحسن بن زفر الاربلي تحقق من القصائد المنسوبة للفارابي ، فأهمل قصيدة منسوبة اليه مشكوك في صحتها ، وجاء بأخرى جديدة لا توجد في المصادر الاخرى .

وفي ذكر هذه القصيدة الجديدة : « يقول الحسن بن احمد المتطبب ، وانشدني الشريف بن محمد بن يحيى بن مزيد الكوفي لابي نصر الفارابي قوله : (الورقة ١٨٥) من الكامل .

نظري الى الادوان قد ادواني   وتطلب الاعيان قد اعياني
من كل انسان اذا جربته   لم تلق الا صورة الانسان
مرأى كخضراء الديار ومبسم الـ   ليث الهصور وملمس الثعبان
كم اشتكى رمني ولو انصفته   لشكرته وشكوت اهل زماني
عابوا علي خصاصتي فاجبتهم   عقل وحظ كيف يجتمعان
ضدان في رجمان ذا نقصان   متخالفان ككفتي ميزان
نال الجهول الرزق بالسبب الذي   حصل اللبيب به على الحرمان [١٩]

وتنسب للمعلم الثاني قصيدة اخرى [٢٠] :

ما ان تقاعد جسمي عن لقائكم   الا وقلبي اليكم شيق عجل
وكيف يقعد مشتاق يحركه   اليكم الباعثان : الشوق والأمل
فان نهضت فمالي غيركم وطر   وكيف ذاك ومالي عنكم بدل
وكم تعرض لي الاقوام قبلكم   يستأذنون على قلبي فما وصلوا

وله قصيدة اخرى :

اخي خل حيز ذي باطل   وكن للحقائق في حيز [٢١]
فما الدار دار خلود لنا   ولا المرء في الارض بالمعجز
وهل نحن الا خطوط وقعن   على كرة وقع مستوفز
ينافس هذا لهذا على   اقل من الكلم الموجز
محيط السماوات اولى بنا   فكم ذا التزاحم في المراكز

وابياته في الخمرة والمحبره مشهورة جدا (من مجزوء الكامل)

بزجاجتين قضيت عمري   وعليهما عولت امري
فزجاجة ملئت بحبر   وزجاجة ملئت بخمر
فبذى ادون حكمتي   وبذى أزيل هموم صدري

له في الدعاء [٢٢] (من الكامل)

رب الجواري الكنس التي انبجـ   ـست عن الكون انبجاس الانهر
هن الفواعل عن مشيته التي   عمت فضايلها جميع الجوهر
اصبحت ارجو الخير منك وامتري   زحلا ونفس عطارد والمشتري

قال في البرم بالحياة وتمني الموت (من الرجز) [٢٣] :

ملت وايم الله نفس نفسي   ياحبذا يوم حلول رمسي
اول سعدي وزوال نحسي   اذ كل جنس لاحق بجنس

قال في الدعاء ايضا[٢٤] (من الكامل)

يـا علة الاشيـاء جـمعـا والذي … كـانت بـه عن فيضـه المتفجـر
رب السمـاوات الطباق ومـركـز … في وسـطهن من الثـرى والابحـر
اني دعـوتهـا مستجيرا مـذنبـا … فـاغفـر خـطيئـة مـذنب ومقصر
هـذب بـغيض مـنـك رب الكـل … من كدر الطبيعة والعناصر عنصري

وتنسب اليه قصيدة حكمية (من البسيط):

لـمـا رايـت الزمـان نـكـسـا … وليس في الصـحـبـة انـتـفـاع
كـل رئـيس بـه مـلال … وكـل رأس بـه صـداع
لزمـت بيـتي وصـنـت عـرضـا … بـه مـن العـزة اقـتـنـاع
اشـرب مـمـا افتـنـيـت راحـا … لهـا عـلى راحـتـي شـعـاع
لي مـن قـواريـرهـا نـدامـى … ومـن قـراقـيـرهـا سـمـاع
واجـتـنـي مـن حـديـث قـوم … قـد اقـفـرت مـنـهـم البـقـاع

كلية التربية / بغداد

د. حسين علي الداقوقي

الهوامش

(*): راجع حول ترجمته مقالة لنا بعنوان (مكانة الحسن بن زفر الاربلي في تاريخ التراث العربي)، والخلاصة انه : ولد في اربل عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٥م، وتوفي في دمشق عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م. اقام في دمشق حوالي اربع وثلاثين سنة .
ولا نعلم عن مؤلفاته سوى رسالة نشرت له في دمشق ، اما غيرها فلم يكشف عنها حتى الوقت الحاضر ، سوى اننا عثرنا على مخطوطته الموسومة بـ (المختار من تاريخ عيون الانباء) في مكتبة (فاتح) باستانبول . مجلة (دراسات الاجيال ، العدد ٢/نيسان ١٩٨١) .

(١) راجع : الجزء الخامس من التاريخ الشهابي والقمر المنير في اوصاف اهل العصر والزمان (رقم ٤٢٢٣ في مكتبة فاتح باستانبول) الورقة ١٠٦ .

(٢) Dr. B.N. Sehsuvaroglu, Farabi 870 — 950. Istanbul — 1950, S.7 — 8.

(٣) في مؤلفات كثيرة له و H.Z. Uikcn, 1A.

(٤) عبدالرحمن بدوي ، ذكرى الفارابي مجلة (الكتاب) القاهرية ، المجلد ٩/ ١٩٥٠ .

(٥) مخطوطة الاربلي الورقة ١٨١ .

(٦) عبدالرحمن بدوي ، نفس المقالة ، ص ٨٩١

(٧) الاربلي ، نفس المخطوط

(٨) ابن خلكان، ص ١٥٥ ، والخوري الياس فرح ، الفارابي . مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه ـ لبنان ١٩٣٧ ـ ص ٢٨ .

(٩) كذا في الشهرزوري ، كتاب نزهة الارواح وروضة الافراح . مخطوطة مكتبة بني جامع ـ قسم التاريخ الرقم ٩٠٨ ـ الورقة ١٧٧ .

(١٠) ينفقها على اصحابه . الشهرزوري ، الورقة ١٧٩

(١١) مخطوطة المختار

(١٢) راجع القفطي ، اخبار العلماء باخبار الحكماء ، بيروت ص ١٨٣ .

(١٣) « فكتب عنه في شرحه سبعين سفرا ، ولم يكن في ذلك الوقت احد مثله في فنه . وكان حسن العبارة في تواليفه، لطيف الاشارة ، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل حتى قال بعض علماء هذا الفن ما أرى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزيلة بالالفاظ السهلة الا من الى بشر المذكور . وكان ابونصر يحضر حلقته فاقام كذلك برهة ثم ارتحل الى مدينة حران » الغيتابي ، مخطوطة تاريخ الشهابي الورقة : (١٠٧) .

(١٤) H.Z. Ulken, Farabi Tetkcklers Islam Dusuncesi, 473 — 478

(١٥) وفي ابن خلكان ٥/١٥٦ انه توفي في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة بدمشق ودفن خارج باب الصغير ، يذكر الغيتاني نفس التاريخ .

(١٦) الورقة ١٨٦.

(١٧) Dr. Badi Sehsurroglu, Farabi.s.7 — 8.

(١٨) H.Z. Ulkcn ve k.Burslav. Farabi.s.5 – 7.
كذلك راجع للتفصيل مقالة السيد صبيح صادق ، الفارابي واثره في الفكر الاوروبي ، مجلة (المورد) ، العدد الثالث ، ١٩٧٥ .

(١٩) وهذه تذكرنا بالقصائد التالية :

كن من صديقك لا من غيره حذرا   ان كان ينجيك منه شدة الحذر
ما أطمئن الى خلق فأخبره   الا تكشف لي عن لؤم مختبر
وقد نظرت الى الدنيا بمقلتها   فاستصغرتها جنوني غاية الصغر
وما شكرت زماني وهو يصعد بي   فكيف اشكره في حال منحدري

راجع : ص ١٣٠ ، ديوان الخالدين ، ابي بكر محمد وابي عثمان سعيد ابن هاشم الخالدي . حققه سامي البرهان . دمشق .
قال آخر يعتذر للزمان ويذم اهله :

ارى حللا تصان على اناس   واعراضا تهان ولا تصان
يقولون الزمان به فساد   وهم فسدوا وما فسد الزمان

ابن حماد في المعنى :

لا اشتكى زمني هذا فأظلمه   وانما اشتكى من اهل ذا الزمن
هما الذئاب التي تحت الثياب   فلا تكن الى احد منهم بمؤتمن
قد كان لي كنز صبر فافتقرت الى   انفاقه في مداراتي لهم فغنى

من (كتاب الادب) لابن شمس الخلافة ، مصر ١٩٣١ ص ١٠٢ .
وفي نفس المعنى يقول آخر :

يا خليلي لا اذم زماني   غير اني اذم اهل الزمان
لم يزل منهم اخ صادق الـ   ـود قليل الوفاء حلو اللسان
لم اجده موافقا فتصـ   ـدقت بحظى منه على الشيطان

راجع : كتاب المنتحب من كتابات الادباء ، واشارات البلقاء للقاضي ابي العباس احمد بن محمد الجرجاني الثقفي (ت ٤٨٢ هـ) مصر، ص ١٤٦ .

(٢٠) الشهرزوري ، نفس المخطوطة في مكتبة (بني جامع) باستانبول رقم ٩٠٨ ، الورقة ١٨٠ . بهاء الدين العاملي ، الكشكول ، الجزء الثاني ، ص ٨٤ .
(٢١) راجع عنها مخطوطة الشهرزوري ، الورقة ١٨٠ ، وانظر مقالة صالح مهدي العزاوي في مجلة المورد / ١٩٧٥ يقول ابن خلكان : وظفرت في مجموع بابيات منسوبة الى الفارابي ولا اعلم صحتها وهي : « اخي خل حيز ذي باطل .. » ورأيت هذه الابيات في «الجريدة » منسوبة الى الشيخ محمد بن عبدالملك الفارابي البغدادي ـ الدار ٥/١٥٦ .

(٢٢) المورد ، نفس المقالة نقلا عن الوافي الجزء الاول ص ١١١ .
(٢٣) الوافي ، الجزء الاول ، ص ١١٣ ، المورد ، نفس المقالة .
(٢٤) عيون الانباء ، ص ٦٠٦ ، الوافي ١/١١١ . المورد نفس المقالة . ويفضل الرجوع الى N. Danisman, Farabi ص : ١٠٨ ـ ١١٠ من منشورات جامعة استانبول .

ان هذه القصيدة وردت في كتاب اليتيمة للثعالبي منسوبة الى : « ابوالنصر الهزيمي المعاق بن هزيم اديب ابيورد وشاعرها الذي كان يكثر المقام بنجاري ويخدم فضلاء رؤسائها .. ثم يعاود ابيورد » :

لما رأيت الزمان نكسا   وفيه للرفعة اتضاع
كل رئيس له ملال   وكل رأس له صداع
لزمت بيتي وصنت عرضها   به من الذلة امتناع
اشرب مما ادخرت راحا   لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى   ومن قراقيرها سماع

اليتيمة للثعالبي ، ٤/١٢٤ ـ طبعة مصر ١٩٣٤ .

ان المعرفة التاريخية لا تختلف عن اية معرفة اخرى من حيث الغرض الدافع والغاية المرتجاة . فالغرض الذي يدفع اي علم ، هو كشف الحقيقة والتزام العلم لهذا الغرض قد طبع التقليد العلمي المتراكم خلال العصور وكان من اهم اسباب تقدمه وارتقائه . والتاريخ هو جزء من هذا التقليد فهو من هذه الناحية علم ، والادراك الذي ينشده ادراك علمي .

التطور التاريخي لمعنى السياسة بين عبدالملك بن مروان وبين وليم ويلش الاستاذ الامريكي المعاصر

د. سعد ابودية
كليـة العلوم الانسـانيـة / جـامعـة اليرموك

هل هي مصادفة محضة ان نرى استاذاً امريكياً يعرف السياسة تعريفاً مشابهاً لتعريف الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان . وهل كان عبدالملك الذي عاش قبل اربعة عشر قرنا عالما سياسيا حتى يعرفها تعريفا لا يتغير عبر عشرات القرون ويسبق اساتذة الجامعات في استنباط كنه السياسة والعلاقات بين الحكام والمحكومين ..؟

الهدف من هذه الورقة الربط بين مفهومين للسياسة : مفهوم عربي قديم ومفهوم امريكي حديث . وتسلط هذه الورقة الضوء على المفهوم القديم وكيف سبق رجل مثل عبدالملك لم يدخل جامعات ولم يشاهد التعقيدات السياسية الحديث سبق غيره في استنباط مفهوم السياسة .

مقدمـــة :

يعرف « لسان العرب » السياسة بأنها القيام على الشيء بما يصلحه ، والسياسة فعل السائس وهو يسوس الدواب اذ قام عليها وراضها والوالي يسوس رعيته[١] .

ويقول الصحاح بأن السوس : الأصل والطبع والخلق والسجية ، يقال الفصاحة من سوسه اي من طبعه[٢] .

وللسياسة تعريفات عديدة يضيق المجال عن سردها هنا سواء كانت عربية او اجنبية ، ونخلص من معظم التعاريف ان علم السياسة موضوعه الدول ومظهر الدول هو السلطة . وكيان الحكومة في مجتمع معين هو الشعب وتنظيم العلاقة بين السلطة وبين الشعب .

نحن لسنا بصدد تلخيص تعاريف ولا عرض المعنى وانما بصدد العلاقة بين تعريف للسياسة ورد على لسان خليفة عربي قبل ١٤٠٠ سنة وبين تعريف حديث ورد على لسان استاذ امريكي . حيث نلاحظ ان الاستاذ الامريكي « ويلش » مدرس السياسة في جامعة « ايوا » الامريكية يعرف السياسة تعريفا مشابها لتعريف عربي

قديم ورد على لسان خليفة اموي مما يدل ان الخليفة الاموى سبق الاستاذ الامريكي بأربعة عشر قرنا في تعريف مفهوم السياسة .

هل معنى السياسة في غابر الوقت لم يختلف عن معناها اليوم او بالاحرى فان معنى السياسة الذي يتردد اليوم وفي الجامعات الامريكية هو مشابه لمعنى من معاني السياسة القديمة ورد عند العرب الاوائل امثال عبدالملك بن مروان . وهذا ما هو نحن بصدده الآن . حيث نلاحظ ان الاستاذ الامريكي ويلش قد عرف السياسة اليوم بأنها تأثير Influence. والواقع ان الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان قد سبقه في الحديث عن موضوع التأثير كمعنى من معاني السياسة ، والسؤال الذي يتبادر للذهن فورا هل تأثر الامركي ويلش بكلام عبدالملك بن مروان . الواقع انه ليس هناك ما يفيد بأن الامريكي ويلش[٣] قد تأثر بعبدالملك بن مروان وان الموضوع هو مصادفة بحتة ، وهذا يقودنا للقول بأن السياسة لها معنى معين لم يتغير عبر اكثر من اربعة عشر قرناً من الزمان ..

ما هي معاني السياسة عند العرب :

قبل ان نتطرق لموضوع عبدالملك بن مروان وتعريفه للسياسة نتحدث عن معاني السياسة عند العرب ونبين اين يقع التعريف الذي ورد على لسان عبدالملك بن مروان .

يمكن ان نـدرج الاستعمالات التالية[٤] للسياسة عند العرب عبر العصور الطويلة :

أ ـ الاستعمال الاول ورد على لسان الشاعرة المخضرمة المعروفة باسم الخنساء حيث استعملت السياسة ومشتقاتها بمعنى الدفاع . تقول الخنساء واصفة قومها :

ومعاصم للهالكين

وساسة قوم محاشد

حيث تصف الخنساء قومها بأنهم مدافعون ويمكن ان نعتبر هذا اقدم استعمال لاستعمالات كلمة سياسة في اللغة العربية .

ب ـ الاستعمال الثاني لكلمة سياسة ورد في فترة زمنية لاحقة للعصر الجاهلي . حيث ورد استعمال كلمة سياسة في الحديث النبوي الشريف يقول (صلى الله عليه وسلم) :

« كان بنو اسرائيل يسوسهم انبياؤهم » .

وهذا الاستعمال يعني ان انبياء بني اسرائيل كانوا يحكمونهم . وهذا يفيد بأن السياسة استعملت هنا كي تعبر عن معنى الحكم .

ويجدر بنا هنا ان نلاحظ ملاحظة هامة جدا هي ان كلمة سياسة قد استعملت في العصر الاسلامي لتعبر عن معنى الحكم . وهذا كان فقط في السنة النبوية الشريفة ، اذ ان القرآن الكريم لم يتطرق الى كلمة سياسة مطلقا ، وان الآيات القرآنية قد خلت من كلمة سياسة ، واذ تطرق القرآن الكريم لموضوع السياسة فانه اورد كلمة « امر » بدلا من سياسة وكلمة أمر تعني حكم ايضا والآيات القرآنية كثيرة مثلا : « وشاورهم في الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، « واطيعوا الله ورسوله واولي الأمر منكم » .

وهكذا رأينا ان القرآن الكريم اورد كلمة امر بدلا من سياسة حتى يعبر عن مفهوم الحكم ، وان السنة النبوية وردت فيها كلمة سياسة (او مشتقاتها) وعبر هذا المنطوق عن مفهوم الحكم على النحو الذي ذكر في الحديث النبوي الشريف[٥] .

جـ ـ الاستعمال الثالث : المعاملة وهو استعمال معاوية بن ابي سفيان : هذا الاستعمال الذي ورد على لسان خلفاء بني امية ومنهم معاوية بن ابي سفيان او احد ولاته وهو زياد بن ابيه وكلاهما من دهاة العرب والساسة الافذاذ او استعمال عبدالملك بن مروان وهو ما نحن بصدد الحديث عنه .

* استعمال معاوية : استعملها معاوية بن ابي سفيان بمعنى المعاملة حيث وردت قصة يتضمن مفهومها ان كلمة السياسة قد استخدمت لتعبر عن مفهوم المعاملة[٦] .

قال زياد بن ابيه : « ما غلبني معاوية في شيء من امر السياسة الا في شيء واحد وذلك انني استعملت رجلا على دست ميسان فكسر الخراج ولحق بمعاوية فكتبت اليه اسأله ان يبعثه الي فكتب الي :

بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد فانه ليس ينبغي لمثلي ومثلك ان نسوس الناس جميعا بسياسة واحدة ان نشتد جميعا فنخرجهم او نلين جميعا فنمرجهم ولكن تكون انت الى الفضاضة والغلضة واكون انا الى الرأفة والرحمة فاذا هرب هارب من باب وجد بابا فدخل منه والسلام »[٧] .

وهكذا نلاحظ ان السياسه قد استخدمت هنا لتعبر عن مفهوم « المعاملة » ورأينا ان زياد بن ابيه قد تبلغ نصيحة من معاوية بن ابي سفيان وكلا الرجلين داهية من دهاة العرب . والنصيحة تتلخص بأن لا يعاملا الناس معاملة

واحدة ، بل يكون احدهما شديدا ويكون الآخر لينا ، وفي كل طريقة محذور وفي الطريقتين معا نجاة وخلاص وفق حكم وسياسة ، وهذا يذكرنا بما قاله الشاعر لا تكن يابسا فتكسر ولا تكن لينا فتعصر .

د ـ الاستعمال الرابع : التأثير والقيادة والحلم وهو استعمال عبدالملك بن مروان في قصته مع ابنه الوليد عندما سأله عن معنى السياسة : سأل الوليد بن عبدالملك والده الخليفة عبدالملك بن مروان عن السياسة حيث يقول « يا ابت ما السياسة »؟ قال « هيبة الخاصة مع صدق محبتها واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمال هفوات الصنائع فان شكرها اقرب للايدي منها . » وفي هذا الاستعمال الذي ورد على لسان الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان نلاحظ ان هناك مفهوما جديدا يختلف عن المفاهيم السابقة وهي الدفاع والمعاملة والحكم ذلك ان المفهوم الجديد هو التأثير والقيادة والحلم . وبعد خمسة عشر قرنا يأتي استاذ امريكي في مكان آخر من العالم غير آسيا وغير الشرق العربي يأتي ليذكر التأثير كمعنى من معاني السياسة . وفي الصفحات التالية سوف نناقش تشابه آراء الاستاذ الامريكي ويلش مع الخليفة الاموي « عبدالملك بن مروان » في التركيز على التأثير كمعنى من معاني السياسة .

هـ : الاستعمال الخامس : التربية والترويض وهو استعمال ابن المقفع : وقبل ان نعقد تلك المقارنة سوف نحلل معنى آخر من معاني السياسة في العصر العباسي حيث ورد استعمال لكلمة سياسة في كتاب « كليلة ودمنة » . يقول ابن المقفع عن لسان دبشليم موجها الخطاب لبيديا :

« احببت ان تضع لي كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك : يكون ظاهرة سياسة العامة وتأدبها وباطنه اخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته ، فيسقط بذلك عني وعنهم كثير مما نحتاج اليه في معاناة الملك واريد ان يبقى لي هذا الكتاب بعدي ذكرا على غابر الدهور»(٨) .

الفرق بين تعريف عبدالملك بن مروان وبين تعريف ويلش :

عرف ويلش السياسة بأنها فعالية استخدام الموارد الطبيعية وغير الطبيعية والتأثير والقيادة واتخاذ القرارات في المؤسسات الحكومية والمنظمات والمؤسسات الاخرى .

يتضح لنا من التعريف السابق بأن ويلش يركز على عناصر معينة هي : أ ـ فعالية استخدام الموارد والقدرة على تعبئتها . ب ـ اتخاذ القرارات . جـ ـ التأثير: Influence وهذا يشابه لتعريف عبدالملك بن مروان. د ـ القيادة : وهذا يشابه لتعريف عبدالملك بن مروان . بمعنى ان العنصرين التأثير والقيادة قد اشار اليهما سابقا عبدالملك بن مروان وذكر هذين العنصرين في تعريف السياسة قبل ان يذكرهما ويلش بألف واربعماية سنة .

ولقد ميز ويلش بين التأثير وبين القوة بحيث يمكن ان نشير لما يلي : يقول ويلش بأن السلوك الصراعي بين الدول يعود لقلة الموارد اولا ويعود ايضا لاختلاف الثقافة فالموارد في العالم قليلة واذا اضفنا لعنصر قلة الموارد عنصرا آخر مثل الاختلاف في الثقافة فان السلوك الصراعي سوف يزداد .

وبعد ان يبين اسباب السلوك الصراعي فانه يتطرق لموضوع الفرق بين التأثير والقوة حيث يعرف القوة بما يلي:(٩)

القوة : مقدرة دولة (أ) على جعل دولة اخرى مثل (ب) تعمل شيئا معينا تريده دولة (أ) سواء كانت دولة (ب) راغبة في عمل ذلك الشيء او لا ترغب وذلك باستخدام التهديد والعقوبات . وهذه العلاقة بين الطرفين الناتجة عن مقدرة (أ) باستخدام القوة ضد (ب) هي علاقة قوة تفرضها (أ) على (ب) .

التأثير : هو مقدرة دولة (أ) على جعل دولة (ب) تنفذ ما تريده دولة (أ) بدون عقوبات وبدون تهديد بغض النظر عن رغبة (ب) سواء ارادت ان تعمل ذلك الشيء ام لم ترد .

وهذا هو التأثير في نظر ويلش ورأينا انه يختلف عن القوة من حيث انه لا يستخدم التهديدات ولا العقوبات .

« التأثير » عند عبدالملك :

لاحظنا ان عبدالملك بن مروان ركز في تعريف « السياسة » على التأثير وركز على موضوع البطانة . ذلك ان صانع القرار على رأس قمة الهرم بعيد عن المعلومات التفصيلية التي تصف البيئة الخارجية وانه اسير المستشارين والاجراءات البيروقراطية فمثلا من ١٣٠٠ برقية تصل زعيم من زعماء العالم كالرئيس الامريكي فان الرئيس

يقرأ ٢٠ برقية اي ٢٪ فقط تقريبا . ولقد ناقش هذا الموضوع جوزيف فرانكل . وان المعلومات هذه قد لا يصل منها الا ما يريده المساعدون . ويشير « هولستي » للموضوع نفسه وان صانع القرار يتأثر كثيرا ، مهما كانت شخصيته قوية ، يتأثر بالمحيطين به(١٠) .

ولقد ركز عبدالملك وحصر الموضوع بتأثير صانع القرار في اعلى قمة الهرم على الخاصة وهي الدائرة الداخلية المحيطة بصانع القرار المعروفة بالبطانة . ولقد حدد عبدالملك تأثير صانع القرار على البطانة بالهيبة واستمراريتها من جهة ومن جهة اخرى صدق مودتها وهذا شيء صعب جدا . فالبطانة الصالحة لا تحجب المعلومات عن صانع القرار وتوصل اليه المعلومات التي يجب ان تصل اليه وليست المعلومات التي يريد أن يسمعها هو ، او المعلومات التي تعتقد البطانة بانه يريد سماعها .

القيـــادة :

تطرق عبدالملك لموضوع القيادة وتطرق ويلش ايضا للموضوع نفسه . ويرى ويلش ان الافراد عندما يريدون تحقيق اهدافهم ورغباتهم والحصول على الموارد فانهم يحتاجون لقيادة . ذلك ان اي منظمة تسعى لتحقيق هدف معين لابد ان يكون لها قيادة لتحقيق اهدافها وعلى ذلك فان ويلش يعرف القيادة بأنها :

هي المقدرة على تعبئة الموارد البشرية لتحقيق اهداف معينة ، وانها علاقات بين الافراد وروابط بين القادة وغير القادة وهكذا فان مثلها مثل القوة والتأثير .

ولقد حدد عبدالملك بن مروان في تعريفه السابق لمعنى السياسة بأن القيادة ترتكز على مبدأ العدالة والانصاف للرعية التي اشار اليها بالعامة وان الرعية تريد اول ما تريد حاكما عادلا وان العدل اساس الملك وان مبدأ العدالة والانصاف وتكافؤ الفرص هو الديموقراطية الصحيحة ولاشك ان سعة الصدر شيء هام في القيادة وهذا ما اشار اليه عبدالملك بقوله « احتمال هفوات الصنائع » وان ضبط النفس عنصر مهم جدا في القيادة ولا يمكن ان نتوقع من قائد عصبي المزاج يثور لاتفه الاسباب ويتخذ قرارات في سورة غضبه لا يمكن ان نتوقع الاثر الحميد لبعض القرارات ولقد ذكرت آية قرانية كريمة هذا المعنى: « ولو كنت فضا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واغفر لهم وشاورهم في الامر » .

ولقد اشارت دراسة امريكية حديثة لهذين الموضوعين موضوع العدالة والانصاف عند القائد وموضوع ضبط النفس فوجدت ان هاتين الصفتين الهامتين تتوفران في كل شخص حصل على قدر ملحوظ من النجاح وان الذين فاتهم الحصول على هذا القدر من النجاح غابت عنهم هاتان الصفتان بالاضافة لثلاث صفات اخرى هامة هي (المبادأة والابتكار ، الاحاطة الشاملة ، الحماس) .

خاتمـة :

وهكذا رأينا ان استعمال عبدالملك بن مروان لمعنى التأثير في السياسة كان سابقا لاستعمال ويلش وان الاثنين استخدماها بمعنى تأثير Influence وليس قوة Power حيث فرق ويلش بين القوة والتأثير . وان عبدالملك بن مروان ركز كثيرا على التأثير في البطانة والخاصة وان تكون صادقة . ولقد لاحظنا ان عبدالملك بن مروان قسم الدبلوماسية في تنفيذ السياسة الى ما يلي :

اولاً : التأثير : وهو الاستقطاب او التأثير على الخاصة مع شرط ضروري ان تكون صادقة المودة .

القيادة : وهو الاستقطاب الجماهيري الذي سماهم بالعامة .

الحلم : وهو ما يجب على الحاكم ان يتذكره في التعامل مع الاثنين اي التعامل مع العامة والخاصة .

ولقد لاحظنا ان ويلشن لم يتطرق لهذه التفصيلات وانما تطرق لمواضيع وعناصر اخرى . مثلا تطرق ويلش لموضوع الصراع واسبابه وموضوع صناعة القرارات .

ولقد تشابه ويلشن مع عبدالملك في تطرق كليهما لموضوع القيادة كمعنى من معاني السياسة ولاحظنا ان العرب الاقدمين لم يتطرقوا لهذا المعنى في السياسة وان المعنى تطرق اليه فقط عبدالملك بن مروان .

وبهذا نلاحظ ايضا ان عبدالملك بن مروان كان سباقا لفهم هذا الموضوع وان ما جاء على لسان الاستاذ الامريكي بعد خمسة عشر قرنا يثبت الرؤيا والتصور العربي السابق الذي اعطى السياسة وصفا دقيقا في فترة لم تكن هناك جامعات ولم تكن الامور معقدة كما هي عليه اليوم .

(١) الامام ابوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي ، لسان العرب مجلد ٦ (بيروت ـ دار صادر) .
(٢) اسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق احمد عبدالغفور (بيروت ـ دار العلم للملايين) .
(٣) William welsh, Studying Ploitics (New York, Praeger 1973) .
(٤) حسن صعب ، مقدمة لدراسة علم السياسة (بيروت ـ المكتب التجاري : ١٩٦١) ص. ٢٦ ـ ٣٢
(٥) الحقيقة ان زياد بن أبيه اورد استعمالا مشابها ايضا عندما قال في خطبته المشهورة باسم البتراء : « انا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذاه نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا» والسوس هنا الحكم .
(٦) مع ملاحظة ان المعاملة هي الدبلوماسية في التنفيذ .
(٧) انظر مراجعة كتاب « لباب الآداب » تأليف اسامة بن مرشد الكناني عام ٥٧٩ هـ في مجلة المقتطف مجلد ٣٢ ديسمبر ١٩٠٧ تاريخ ٢٥ شوال ١٣٢٥ هـ ص: ٩٥٣ ـ مجلة المقتطف مجلد ٣٣ ابريل ١٩٠٨ تاريخ ٢٩ صفر ١٣٢٦.
(٨) عبدالله بن المقفع ، كليلة ودمنة (القاهرة ـ دار الهلال ط ٤ ١٩٣٤) ـ ص ٩٨ ـ ٩٩
(٩) K.J. Holsti, International politics: Frame work for analysis (New Jersey: Prentice Hall, 1972) P.P. 390 — 391.
(١٠) Welsh, O.P. Cit P.P. 4 — 8.
(١١) جورج هالسي ، ادارة الناس فن/ ترجمة احمد زكي محمد (القاهرة ـ دار المعارف ١٩٥٨)

قطائع الرسول (ﷺ)

د. عادل محيي الدين الالوسي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

منهج البحث :

يتناول البحث ثلاث نقاط :

الاولى : في معنى الاقطاع الاسلامي الذي يختلف عن نظام الاقطاع الاوروبي في القرون الوسطى باعتبار ان الاخير ظاهرة اقتصادية واجتماعية ذات مدلولات طبقية .

الثانية : تستعرض بعض النصوص التي وجدت متناثرة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ وهي العمود الفقري للبحث .

الثالثة : بعض الاستنتاجات التي اعتمد عليها البحث من خلال ما جاءت به النصوص .

معنى الاقطاع الاسلامي :

في اللغة اقطعني قطيعة وثوبا ونهرا ، اي استقطعه ، واقطع فلان من مال فلان ، اي اخذ منه شيئا[١] . وجاء في تهذيب اللغة[٢] : استقطع فلان الامام قطيعة من عفو البلاد فاقطعه اياها اذا سأله ان يقطعها له مفرزة محدودة يملكه اياها ، فاذا اعطاه اياها لا ملك لاحد عليها ولا عمارة توجب ملكا لاحد ، فيقطع الامام المستقطع منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه او باستخراج عين فيه او بتحجير عليه ببناء او حائط يحرزه . وفي القاموس المحيط[٣] : واقطعه قطيعة اي طائفة من ارض الخراج « اي ارض الصلح[٤] » .

ومع ان ما يذكره ابن منظور لا يختلف عما جاء به صاحب تهذيب اللغة الا انه يضيف[٥] : القطعة من الشيء : الطائفة منه ، واقتطع طائفة من الشيء : اخذها والقطيعة ما اقتطعه منه واقطعني اياها : اذن لي في اقتطاعها ، واقطعه نهرا : اباحه له .

والاقطاعات جمع اقطاع وهو مصدر اقطع، يقال : اقطعه ارض كذا يقطعه اقطاعا واستقطعه اذا طلب منه ان يُقطعه[٦] . ويوضح الخوارزمي ذلك بقوله[٧] : الاقطاع ان يقطع السلطان رجلا ارضا فتصير له رقبتها وتسمى تلك الارضون قطائع واحدتها قطيعة .

واخيرا افزع الى قول الكحلاني[٨] : الاقطاع تسويغ الامام من مال الله شيئا لمن يراه اهلا لذلك ، اكثر ما يستعمل في الارض وهو ان يخرج منها لمن يراه ما يحوزه اما بأن يملكه اياه فيعمره ، واما بان يجعل له غلتها مدة ، والثاني هو الذي يسمى اقطاعا .

وهو اي : الاقطاع في الشريعة الاسلامية يعني : توزيع الارض الموات او نحوها من الموارد على شخص او اشخاص لغرض استثمارها او توزيعها لاجل انشاء وحدات سكنية ونحو ذلك[٩] .

وعليه فان مفهوم الاقطاع في الاسلام يقترب الى حد ما من الاصلاح الزراعي في يومنا هذا ، فكلاهما يتخذ من بور الارض او اهمالها حجة

شرعية تبرر التوزيع او التمليك بما يحقق نفعا عاما من خلال النفع الخاص ، والمفهومان يقتربان من بعضهما اكثر في شروط الاعمار والاستثمار ، بمعنى : (الارض لمن يزرعها) و (من لا يزرع نأخذ كاعه) فقد روي عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قوله : « من عطل ارضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له[١٠] » . وهو - اي الاقطاع الاسلامي - يختلف اختلافا كبيرا عن مفهومه الاوروبي الذي هو نظام اجتماعي واقتصادي يتكون من طرفين ، احدهما مُستغِل يمثله السيد او الاقطاعي ، وآخر مُستغَل يمثله الفلاح .

اما الاقطاع في العامر من الارض ونحوها فلا يكون الا في ما يعرف بدار الحرب التي لايد للمسلمين عليها ، ويعبر عنه القاضي ابويوسف بـ « التألف على الاسلام[١١] » وقد ورد ذكره عن الرسول (ﷺ) وهو ما ساوضحه لاحقا في معرض النصوص .

وكذلك قد يكون في ثروة الارض الطبيعية التي تعود ملكيتها لبيت المال[١٢]، مما اصطفي من فتوح البلاد ، او ما مات عنه اربابه ولم يستحقه وارثه فيكون ميراثا لكافة المسلمين[١٣] . وقد جوز البعض من الفقهاء صرفه في وجوه النفع العام مما ليس فيه ضرر بمصلحة عامة[١٤] . « وفي ذلك اعمر للبلاد واكثر للخراج[١٥] » . على ان يكون ذلك بأذن الامام او السلطان ، كأن يقول « اقطع فلان كذا ارض او ثروة طبيعية على ان يعمل فيها، فما رزقه الله ادى ما يجب عليه فيما يخرج منه واذا عطلها كان لمن يحييها العمل فيها وليس له ان يبيعها له[١٦] » .

النصوص :

جاءت النصوص بشأن اقطاعات الرسول (ﷺ) متناثرة في مصادرنا الاسلامية ، وتكاد تكون مكررة ، وازاء ذلك ساعمد الى الاخذ بالاوفق والاوضح منها من بين المصادر التي تيسر لي الوقوف عليها ويقينا ان غيرها كثير .

اول عملية اقطاع قام بها رسول الله (ﷺ) كانت في اراضي بني النضير[١٧] ، بعد ان حاصرهم المسلمون ست ليال من شهر ربيع الاول سنة ٤هـ / ٦٢٥م وقد تحصنوا في الحصون فأمر رسول الله (ﷺ) بقطع نخيلهم وتحريقها.[١٨] ولما كانت هذه الاراضي بعد فتحها تعتبر « مما افاء الله على رسوله ولم يوجف عليه بخيل ولاركاب فكانت لرسول الله خالصة ، فقسمها رسول الله بين المهاجرين ولم يعط احدا من الانصار منها شيئا الا رجلين كانا فقيرين : سماك بن خرشه ابا دجانه ، وسهل بن حنيف[١٩] » .

اورد البلاذري ان رسول الله (ﷺ) خاطب المهاجرين « ليست لاخوانكم من المهاجرين اموال فان شئتم قسمت هذه- اي اموال بني النضير - واموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وان شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خالصة ، فقالوا : بل قسم هذه فيهم واقسم لهم اموالنا ماشئت ، فنزلت الآية : ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة[٢١] .

وبين المهاجرين الذين اقطعهم رسول الله (ﷺ) من اراضي بني النضير : ابوبكر الصديق وقد اعطاه بئر حجر ، واعطى عمر بن الخطاب بئر حرم ، اما ابن سهل فقد اعطي الفراطة ، كما اعطي الزبير ارضا ، وابا سلمة بن الاسد البويره ، واعطى عبدالرحمن بن عوف سواكه وكدمة التي باعها فيما بعد لعثمان بن عفان بمبلغ اربعين الف دينار ، ويقال ان عثمان دمج كدمة مع بئر اريس ، فصارت سبعة بساتين وتصرف بها[٢٢] .

وفي نيل الاوطار[٢٣] : « ان عبدالرحمن بن عوف قال : اقطعني رسول الله (ﷺ) وعمر بن الخطاب ارض كذا وكذا فذهب الزبير الى آل عمر فاشترى نصيبه منهم فأتى عثمان بن عفان فقال : ان عبدالرحمن بن عوف زعم ان النبي (ﷺ) اقطعه وعمر بن الخطاب ارض كذا وكذا واني اشتريت نصيب آل عمر فقال عثمان : عبدالرحمن جائز الشهادة له وعليه » .

واعطى رسول الله (ﷺ) عليا اربع ارضين : الفقيرين وبئر قيس والشجرة[٢٤] ، وفي قول آخر بئري قيس والشجرة[٢٥] .

وذكر « ان الابيض بن حمال استقطع رسول الله (ﷺ) ملح مأرب فاقطعه ، فقال الاقرع بن حابس التميمي : يارسول الله اني وردت هذا الملح في الجاهلية وهو بارض ليس فيها غيره ، ومن ورده اخذه وهو مثل الماء العد بالارض فاستقال الابيض في قطيعة الملح فقال : قد اقلتك على ان تجعله مني صدقة فقال (ﷺ): هو منك صدقة[٢٦] .

وفي رواية ، ان رسول الله (ﷺ) قال لا اذن لما علم انه كالماء العد ، وقال : لا حمى الا الله ورسوله[٢٧] .

ولما قدم رسول الله (ﷺ) الى المدينة اقطع الناس الدور[٢٨] . وفي سيرة ابن هشام انه[٢٩] « لما قدم وفد طيء على رسول الله (ﷺ) وفيهم زيد

الخيل وهو سيدهم وقد سماه رسول الله زيد الخير وقطع له فيدا وارضين معه وكتب له بذلك » .

واقطع رسول الله (ﷺ) الزبير بن العوام ركض فرسه من موات النقيع فاجراه ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة ، فقال (ص) اعطوه منتهى سوطه[٣٠] . وفي رواية اخرى ان الرسول (ﷺ) اقطع الزبير حضر فرسه (اي ارتفاع الفرس في عدوه) فاجرى الفرس حتى قام ثم رمى بسوطه ، فقال (ﷺ) اعطوه حيث بلغ السوط[٣١] وكان هذا الاقطاع من اموال بني النضير[٣٢] .

وخص الرسول (ﷺ) الزبير باعطية اخرى وكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله للزبير بن العوام اني اعطيته شواق اعلاه واسفله لا يُحاقه فيه احد[٣٣] » .

ولما قدم وفد الداريني وفيهم تميم الداري ، قال تميم لرسول الله : لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لاحداهما حبرى والاخرى بيت عينون فان فتح الله عليك الشام فهبهما لي ، قال (ﷺ) فهما لك ، فلما قام ابوبكر اعطاه ذلك وكتب له كتابا[٣٤] .

وسأل ابو ثعلبة الخشني الرسول (ﷺ) ان يقطعه ارضا كانت بيد الروم ، فاعجبه ذلك ، وقال (ﷺ) الا تسمعون ما يقول ، فقال والذي بعثك بالحق ليفتحن عليك ، فكتب له بذلك كتابا[٣٥] .

وقال حُريم بن اوس بن حارثة الطائي للنبي (ﷺ) ان فتح الله عليك الحيرة ، فاعطني نبت نفيلة ، فلما اراد خالد بن الوليد صلح اهل الحيرة ، قال له حريم ان رسول الله جعل لي نبت نفيلة فلا تدخلها في صلحك وشهد له بشير بن سعد ومحمد بن مسلمة فاستثناها من الصلح ودفعها الى حريم ، فاشتريت منه بالف درهم[٣٦] ولما اراد وائل بن حجر الشخوص الى حضرموت بعد اسلامه ، قال : يارسول الله اكتب لي الى قومي كتابا ، فقال (ﷺ) اكتب يا معاوية ، هذا كتاب من محمد النبي لوائل بن حجر قيل حضرموت وذلك انك اسلمت وجعلت لك ما في يديك من الارضين والحصون وانه يؤخذ منك من كل عشرة واحد ينظر في ذلك ذوا عدل[٣٧] .

وقدم جمرة بن النعمان العذري وكان اول من قدم من اهل الحجاز على رسول الله (ص) بصدق قومه ، فاقطعه النبي (ﷺ) حُضر فرسه ورمية سوطه من وادي القرى فنزلها جمرة الى ان مات[٣٨] .

وكتب رسول الله (ﷺ) لبلال بن الحارث المزني ان له النخل وان له ما اصلح به الزرع من قدس وان له المضة والجزع والغيلة وكتب بذلك معاوية ، وفي رواية اخرى ان الرسول (ﷺ) اقطع بلالا هذا : المعادن القبلية جلسيها وغوريها وحيث يصلح الزرع من قدس ولم يقطعه حق مسلم[٤٠] .

ويوضح البلاذري ذلك بقوله[٤١] : ان رسول الله اقطع بلال بن الحارث ارضا بناحية الفرع فيها جبل ومعدن وباع بلال عمر بن عبد العزيز ارضا منها فظهر فيها معدن وجاءوا بكتاب (ﷺ) في جريدة فقبلها عمر وفسح بها .

وكتب (ﷺ) لجميل بن ردام ، هذا ما اعطى محمد رسول الله جميل بن ردام العذري الرمد لا يحاقه فيه احد ، وكتب بذلك علي بن ابي طالب[٤٢] . وفي رواية ابن سعد الرمداء[٤٣] .

وكتب لسلمة بن مالك السلمي ، هذا ما اعطى رسول الله سلمة بن مالك السلمي اعطاه ما بين الحناظي الى ذات الاساود لا يحاقه فيها احد وشهد بذلك علي بن ابي طالب وحاطب بن ابي بلتعه[٤٤] .

ولما اسلم عك ذو خيوان (وعك هو لقب ذو خيوان الهمذاني اليماني) قيل له : انطلق الى النبي (ﷺ) فخذ منه الامان ، فقدم عليه فقال : يارسول الله ، ان مالك بن مرارة قدم علينا يدعو الى الاسلام ، فاسلمنا ولي ارض فيها رقيق ، فاكتب لي كتابا ، فكتب له[٤٥] .

وكتب لعتبة بن فرقد : هذا ما اعطى النبي عتبة بن فرقد اعطاه موضع دار بمكة ، يبنيها ممايلي المروة فلا يحاقه فيها احد ومن حاقه فانه لا حق له ، وحقه حق ، وكتب بذلك معاوية[٤٦] . وقال ابوسيرة وهو يزيد بن مالك بن عبد الله لرسول الله : يارسول الله اقطعني وادي قومي باليمن وكان يقال له حُردان ففعل (ﷺ)[٤٧] .

وعن رزين بن عامر السلمي قال : لما اظهر الله الاسلام وكانت لنا بئر فخفنا ان يغلبنا عليها من حولنا ، فاتيت النبي (ﷺ) فكتب لي كتابا[٤٨] .

واعطى الرسول (ﷺ) راشد بن عبد ربه رهاطا وفيها عين يقال لها عين الرسول[٤٩] . وانه (ﷺ) اقطع ساعدة التميمي بئرا في المعلاة[٥٠] . واقطع سمعان بن عمر الاسلمي ارضا[٥١] . ولما وفد الرقاد بن عمرو بن ربيعة ، اعطاه رسول الله بالفلج ضيعة وكتب له كتابا[٥٢] .

وقال عمر بن حريث : « خط لي رسول الله (ﷺ) دارا بالمدينة بقوس وقال : ازيدك[٥٣] » .

ولما قدم وفد ثعلبة سنة ثمان وكانوا اربعة نفر : «نحن رسل من خلفنا من قومنا ونحن وهم مقرون على الاسلام فأقر لنا بضيافة واقمنا اياما ، ثم جئناه لنودعه فقال لبلال : اجزهم كما تجيز الوفد

فجاء بنقر من فضة واعطى كل رجل منا خمس اواق ، قال : ليس عندنا دراهم(٥٤) » .

ولما قدم فروه بن مسيك وافدا على رسول الله ، اجازه رسول الله باثنتي عشرة اوقية واعطاه حلة من نسج عُمان(٥٥) . واجاز (ﷺ) وفد كنده وكانوا في بضعة عشر راكبا ، بعشر اواق لكل منهم(٥٦)، في حين اجاز وفد سلامان وهم سبعة واعطى كل رجل منهم خمس اواق(٥٧) .

وفي صحيح البخاري(٥٨) : « دعا النبي (ﷺ) الانصار ليقطع لهم بالبحرين ، فقالوا : يا رسول الله ان فعلت ، فاكتب لاخواننا من قريش اي المهاجرين مثل الذي تقطع لنا ، قال سترون بعدي اثرة فاصبروا حتى تلقوني » .

الاستنتاجات :

ان الرسول (ﷺ) هو اول من اقطع القطائع قبل الفتح ، واقتفى نهجه الخلفاء الراشدين ، ولاسيما عثمان بن عفان (رضي الله عنه)(٥٩) .

روى الغزالي(٦٠) : « انه ما سئل ـ اي الرسول (ﷺ) ـ عن شيء على الاسلام الا اعطاه . وان رجلا اتاه فسأله فاعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع الى قومه ، وقال : اسلموا ، فان محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وما سئل شيئا قط فقال لا » . وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « ان رسول الله (ﷺ) لم يكن يمنع شيئا يسأله » . من ذلك انه (ﷺ) كان يقطع لاناس لترغيبهم في الاسلام او يقطع اراضي في مناطق يراد فتحها للتشجيع او ما يسمى بـ « دار الحرب » وقد اوردنا في باب النصوص ما يؤيد ذلك وابطل الرسول (ﷺ) الحمى بقوله : « لا حمى الا لله ولرسوله(٦١) » . وبشأن الحمى ، يذكر العسقلاني(٦٢) : « كان الشريف قبل الاسلام اذا نزل ارضاً في حيه استعوى كلبا فحمى مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره وهو يشارك القوم في سائر ما يرعون فيه، فنهى رسول الله (ﷺ) عن ذلك واضاف الحمى الى الله ورسوله : اي الا ما يحمى للخيل التي ترصد للجهاد والابل التي يحمل عليها في سبيل الله وابل الزكاة وغيرها » .

وفي سبل السلام(٦٣): الحمى المكان المحمي وهو خلاف المباح ومعناه ان يمنع الامام الراعي في ارض مخصوصة تختص برعيها ابل الصدقة مثلا ، وكان قبل الاسلام اذا اراد الرئيس ان يمنع الناس من محل يريد اختصاصه استعوى كلبا من مكان عال فالى حيث ينتهي صوته حماه من كل جانب فلا يرعاه غيره ويرعى هو مع غيره ، فابطل الاسلام ذلك ، واثبت الحمى لله ولرسوله .

وبين النصوص ما يتناول اقطاعا في الدور والمياه والآبار والملح والمعادن .. الخ ، مما يدل على ان الاقطاع زمن الرسول (ﷺ) بشكل خاص ، والاقطاع في الاسلام عموماً لم يقتصر على الارض بل يتعداها الى كل شيء يمكن اقطاعه ، بشرط ان لا يلحق بالآخرين ضرراً او لا يحقق منفعة عامة ، كأن يكون ماء او ملحا او معدنا او ما الى ذلك ، فقد روى عنه (ﷺ) قوله : « الناس شركاء في ثلاثة : في الكلأ والماء والنار(٦٤) » وهذا ما حدث في ملح مأرب ، اقطعه (ﷺ) ولما تبين انه الوحيد في تلك الارض وان الناس يردونه كالماء العد سحبه او منعه او استرجعه او كما قيل طلب من الابيض بن حمال ان يتصدق به كتخريج مقبول(٦٥) . مع العلم ان المعادن الظاهرة لا تملك باحياء ولا اقطاع ، كما ان المعادن الباطنة كالنقدين والحديد والياقوت لا تملك بالحفر والعمل ايضا ويجوز للامام اقطاعها اقطاع ارفاق لا تمليك ، ولكن من اخذ من معدن شيئا لم يحزه غيره ، مَلَكه(٦٦) .

وعليه وبناء على ما اوردناه من نصوص يمكن القول : ان اجراءات الرسول (ﷺ) في حالات الاقطاع امليت بفعل ظروف معينة او طارئة من ذلك الارض العريضة التي اقطعها (ﷺ) لبلال المزني الذي لم يقو عليها مما اضطر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ان يأخذ منه ما عجز عن عمارته الى غيره من المسلمين(٦٧) .

وان بعض احكام الرسول (ﷺ) في هذا الصدد لم تكن نهائية ذلك ان الرسول (ﷺ) « لم يكن يمنع شيئا يسأله» كما يقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)(٦٨) . مما جعل باب الاجتهاد في بعض هذه الاحكام واردا ، وهو ما كان يرمي اليه (ﷺ) ايمانا منه (ﷺ) في ان لكل زمان ومكان ظروفاً واعتبارات واحكاماً .

وعلى ضوء بعض النصوص ، فانه لم تكن هناك قاعدة يقطع على اساسها زمن الرسول (ﷺ) الذي اقطع وخير في الاقطاع ، كما فعل (ﷺ) مع الزبير الذي اقطع ارضا ، فرغب في الزيادة فزيد(٦٩) .

واشترط الرسول (ﷺ) في اقطاع الارض على وجه التحديد ان تعمر وتستغل فالعمارة كالحياة ، تعطيلها موات واحياؤها عمارة . والمتعارف عليه ان الاحياء يكون في تبيض الارض وتنقيتها للزرع وبناء الحائط على الارض وحفر الخندق فيها .. وانه (ﷺ) قال : « من عمر ارضا ليست لاحد فهو احق بها(٧٠) » .

و« من احيا ارضا ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق ، قال فاختصم رجلان من بياضة الى

رسول الله غرس احدهما نخلا في ارض الاخر فقضى رسول الله لصاحب الارض بارضه وامر صاحب النخل ان يخرج نخله منها(٧١) » وفي حديث آخر لرسول الله (ﷺ): « ان من احيا ارضا ميتة فله اجر فيها وما اكلت العافية منها فهو له صدقة(٧٢) » .

وحصر رسول الله (ﷺ) ملكية الارض الموات بالمسلم وليس لكافر حق الاحياء ، فاذا ما مات ـ اي المسلم ـ فهي لورثته وله ان يبيعها متى شاء ، استنادا الى قوله (ﷺ): « من احيا مواتا من الارض فهو له وعادي الارض لله ولرسوله ثم هي لكم مني(٧٣) » . ويترتب على المحيي تحديد ارضه بحاجز او حائط يقول (ﷺ) « من احاط حائطا على ارضه فهي له(٧٤) » .

ولم تقتصر الملكية على الارض الموات بل تعدتها الى امور اخرى تتعلق بالاحياء او يتطلبها الاستثمار كحفر بئر بموات(٧٥) ، وقد حدد (ﷺ) هذه الملكية ، بقوله : « من حفر بئرا فله اربعون ذراعا عطنا لماشيته(٧٦) » . والعطن وطن الابل ومبركها حول الحوض ، وحريم البئر البدىء (اي الذي حفر حديثا او ما حفر بعد الاسلام) خمسة وعشرون ذراعا ، وحريم البئر العادي (ما حفر قديما او قبل الاسلام) خمسون ذراعا ، وحريم بئر الزرع ثلاثمائة ذراع من نواحيها كلها(٧٧) .

ولكن مع ما اوردنا ، فان ملكية الارض قد تنتفي في حالة اهمالها وتركها بلا احياء ، فقد اقطع (ﷺ) اناسا من مزينة او جهينة ارضا فعطلوها فجاء قوم فاحيوها ، فقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : لو كانت قطيعة مني او من ابي بكر لرددتها ، ولكن رسول الله قال ، وقال عمر : من عطل ارضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له (٧٨) وهو ما يسمى بالتحجير، في قوله (ﷺ) «ليس لمتحجر حق بعد ثلاث سنين» وقوله : « من عطل ارضا ثلاث سنين متوالية لغير ما علة اخذت من يده ودفعت لغيره(٧٩) » .

وفي كتاب الخراج(٨٠) : ان عمر جعل التحجير ثلاث سنين فان تركها حتى تمضي ثلاث سنين فاحياها غيره فهو احق بها . وهذا ما سار عليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وطبقه فعلا في اكثر من رواية وحادثة .

وكان (ﷺ) يفضل ان يكون الاقطاع في غير المعمور والمأهول ، فقد اقطع (ﷺ) اراضي من خارج المدينة لما قدمها ، وترك ما هو معمور ببناء وغرس وزرع لاهلها(٨١) . وهو ما ذهب اليه جمهور الفقهاء بالنسبة للعامر من الارض استنادا الى قوله (ﷺ) : « عادي الارض لله ولرسوله ولكم من بعدي فمن احيا شيئا من موتان الارض فهو احق به(٨٢) » . وحتى الذين جوزوا اقطاع المعمور تمليكا وانتفاعا لم يجوزوه الا بشرط المصلحة العامة ، وهو ما ذهب اليه بعض فقهاء الشافعية والحنابلة والمالكية .(٨٣)

هذه الاسس والشروط التي اعتمدها الرسول (ﷺ) فيما اقطع فعلا وما ورد عنه قولا ، شكلت قواعد في الفقه الاسلامي بكل ما فيه من تفريعات واجتهادات .

واخيرا نقول : ان الرسول (ﷺ) مع انه اقطع فان هذه الاقطاعات لم تتوسع لتتحول الى نظام اقطاعي بالشكل الذي ظهر في اوروبا ابان هذه الفترة ، ومرد ذلك كما اعتقد : طبيعة الاسلام العادلة ورغبته في ايجاد نظام متوازن اقتصاديا ، ثم ان الشروط والضوابط والاحكام التي وضعها الرسول (ﷺ) شكلت نواة واطارا وصارت ملزمة لمن جاء من بعده ، مما حال دون تضخم هذه الملكيات . اضافة الى ما للدين الاسلامي من تأثير روحي فيمن يؤمن به باتجاه انساني يكبح جماح النفس بعيدا عن الاحتكار والثراء الفاحش واستغلال الانسان لاخيه الانسان .

والى جانب هذا وذاك ، هيمنة الحكومة المركزية ممثلة بمؤسسة الخلافة وما يلحق بها ، واقرارها للارض على عكس ما حدث في اوروبا من تعدد في مراكز الهيمنة بين الكنيسة والاباطرة واسياد الارض، مما ادى الى ضياع الامن ، فكان ان برز الاقطاعيون كطرف مسيطر ، وهكذا صار الاقطاع الاوروبي ، نظاما اجتماعيا واقتصاديا عانت منه اوروبا في القرون الوسطى وعلى وجه التحديد في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، في حين ظلت المجتمعات الاسلامية تنعم بالعدل والمساواة والوحدة الى حد ما في ظل التعاليم الاسلامية التي وضع اسسها القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم .

هوامش وتعليقات :

١ ـ الفراهيدي : كتاب العين ، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧، ص ١٥٣ .
٢ ـ الازهري : تهذيب اللغة ، دار القومية العربية بمصر ١٩٦٤ ص١٨٩.
٣ ـ الفيروزابادي : القاموس المحيط ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ١٩٥٢ ـ ج ٣، ص ٧٣ .
٤ ـ الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، نشر ادارة الطباعة المنيرية ، مطبعة الشرق بمصر ـ ط ١ ، ١٩٢٣ ، ص ٣٩ .
٥ ـ ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦، ج ٨، ص ٢٨٠ . وبقية ما يذكره لا يختلف عما جاء به الازهري في تهذيب اللغة .
٦ ـ القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، المطبعة الاميرية والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، بلا، ج ١٣ ، ص ١٠٦ .
٧ ـ مفاتيح العلوم : ص ٣٩.
٨ ـ الكحلاني : سبل السلام ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ط ٢، ١٩٥٠. جـ ٣ ص ٨٥ ، ٨٦ .
٩ ـ محمود المظفر : احياء الاراضي الموات ، رسالة ماجستير ١٩٦٩ بغداد ، ص ٢٢٧ .
١٠ ـ يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، تصحيح احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية بمصر ، ط ٢، ١٣٨٤ . ص ٨٧ . ونعني بالتعطيل هنا : التحجير .
١١ ـ ابويوسف : كتاب الخراج : المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٢، ط ٢ ، ص ٦٢
١٢ ـ اصناف الملكية في الاسلام ثلاثة : الاول ما تعود ملكيته للامة كالاراضي الخراجية ، والثاني ما تعود ملكيته للدولة في الاراضي الميتة غير المستغلة قبل الفتح وهي ما يسمى بعادي الارض أو الانفال ، والصنف الثالث وهو ما يعرف بالملكية الخاصة التي اباحها الاسلام في حدود معينة وبموازين شرعية وبالحد الادنى الذي لا يؤدي الى الاستغلال .
موقف الاسلام في الارض والاقطاع ، عبود الراضي ، مطبعة النعمان بغداد سنة ١٩٧٠ ـ ص ١٦ ـ ٤٠ .
١٣ ـ الماوردي : الاحكام السلطانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٠، ط ١، ص ١٩١ ـ ١٦٤ .
١٤ ـ المظفر : احياء الاراضي الموات ، ص ٢٢٦ وما بعدها
١٥ ـ ابويوسف : الخراج ، ص ٦١ .
١٦ ـ الشافعي : كتاب الام ، كتاب الشعب بمصر ، بلا، ج ٣، ص ٢٦٧ .
١٧ ـ يقيم يهود بنو النضير على مذينيب وهو فرع من بطحان في جنوب شرقي المدينة متصلين بقباء وباراضي الاوس . احكام الرسول في الاراضي المفتوحة ، صالح احمد العلي ، مجلة الآداب والعلوم ، ع ١ حزيران سنة ١٩٥٦، ص ٢٤ .
١٨ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط٢، ١٩٥٥، ج٢، ص ١٩١ .
١٩ ـ كتاب الخراج لابن آدم ، ص ٣٢.
ايضا سيرة ابن هشام ، ج ٢ ص ١٩٢ .
٢٠ ـ البلاذري : فتوح البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨ ص ٣٣ ـ ٣٤ ـ مراجعة رضوان محمد رضوان .
٢١ ـ السورة ٥٩ : الآية ٩
٢٢ ـ احكام الرسول في الاراضي المفتوحة ، ص ٢٥.
٢٣ ـ الشوكاني : نيل الاوطار ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ط ٢ ، ١٩٥٢ ـ ص ٣٢٨ وما بعدها
٢٤ ـ فتوح البلدان : الطبعة الاوروبية ١٨٦٦، ص ١٤ .
٢٥ ـ الخراج لابن آدم ، ص ٧٤ .
٢٦ ـ الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧ .
٢٧ ـ كتاب الام ، ج ٣ ـ ص ٢٦٥ .
٢٨ ـ المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ـ ص ٢٦٨ .
ويضيف الشافعي في ص ٢٦٩ بقوله : « والمدنية ينسب الى اهلها من الاوس والخزرج ومن فيه من العرب وغيرهم فلما كانت المدنية صفين احدهما معمور ببناء وحفر وغرس وزرع والآخر خارج من ذلك ، فاقطع (ص) الخارج من ذلك في الصحراء » .
٢٩ ـ السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ـ ص ٥٧٧ .
وفيد اسم مكان بشرقي سلمى احد جبلي طيء وينسب اليه حمى فيد
٣٠ ـ الاحكام السلطانية، ص١٩٠.
٣١ ـ العسقلاني : بلوغ المرام من ادلة الاحكام ، دار الكتاب العربي ١٩٥٤، ص ١٦٠ .

٣٢ ـ سبل السلام ، ج ٣ ـ ص ٨٦ .
ايضا فتوح البلدان ، ص ٢١ الطبعة الاوروبية .
٣٣ ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ودار بيروت ١٩٦٠ ج ١ ص ٢٧٤
٣٤ ـ المصدر السابق نفسه ، ج ١ ـ ص ٣٤٤ .
٣٥ ـ الاحكام السلطانية ، ص ١٩٢.
٣٦ ـ المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٢.
٣٧ ـ الطبقات الكبرى ، ج ١ . ص ٢٨٧.
ايضا بلوغ المرام من ادلة الاحكام ، ص ١٦٠ .
٣٨ ـ العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ، دار نهضة مصر للطباعة ص ٤٩٧ .
٣٩ ـ الطبقات الكبرى ، ج ١ ـ ص ٢٧٢
ويذكر ان جزعه تعني قرية ، واما شطره فيعني اتجاهه ، واما قوله قدس فالقدس الخرج وما اشبهه من آلة السفر ، واما المضة فاسم الارض .
٤٠ ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٩٨ .
ويفسر الجلس والغوري بتأويلين ، احدهما انه اعلاها واسفلها والثاني ان الجلس بلاد نجد والغوري بلاد تهامة وهو اضعف .
٤١ ـ فتوح البلدان : الطبعة الاوروبية ص ١٣ .
٤٢ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ، ص ٤٩٩ .
يقول الرصد بفتح الراء : ماء اقطعه النبي (ص) جميلا الغذري .
٤٣ ـ الطبقات الكبرى ، ج١ ـ ص ٢٧٤ .
٤٤ ـ المصدر السابق نفسه ، ج ١ . ص ٢٨٥ .
٤٥ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ، ص ٤١٢ .
٤٦ ـ الطبقات الكبرى ، ج ١ ـ ص ٢٨٥ .
٤٧ ـ المصدر السابق نفسه ، ج ١ ـ ص ٣٢٦ .
٤٨ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ، ص ٤٨٣ .
٤٩ ـ الطبقات الكبرى ، ج ١ ـ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .
٥٠ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ، ص ٧ .
٥١ ـ المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٣ .
٥٢ ـ الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ٣٠٣ .
٥٣ ـ نيل الاوطار ، ص ٣٢٨ وما بعدها
٥٤ ـ الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ٢٩٨ .
٥٥ ـ المصدر السابق نفسه ، ج ١ ـ ص ٣٢٧ .
٥٦ ـ المصدر السابق نفسه ، ج ١ ـ ص ٣٢٨ .
٥٧ ـ المصدر السابق نفسه ، ج١ ـ ص ٣٣٣ .
٥٨ ـ صحيح البخاري : لابي عبدالله محمد بن اسماعيل ـ المطبعة البهية بمصر ١٣٤٩ ج ٢ ـ ص ٣٤ .
٥٩ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ـ ص ١٠٦ .
٦٠ ـ الغزالي : احياء علوم الدين ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٩، ج ٢ ـ ص ٢٧٩ .
٦١ ـ الخراج لابن ادم ، ص ٨٩ .
٦٢ ـ بلوغ المرام في ادلة الاحكام ، ص ١٦٠ .
٦٣ ـ سبل السلام ، ج ٣ ـ ص ٨٣ .
٦٤ ـ بلوغ المرام من ادلة الاحكام ، ص ١٦١ .
٦٥ ـ الاحكام السلطانية ـ ص ١٩٧ .
٦٦ ـ بغية المسترشدين : جمع عبدالرحمن بن محمد ، الطبعة الاخيرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٢ ، ص ١٦٠ .
٦٧ ـ الخراج لابن آدم ، ص ٨٩ .
٦٨ ـ المصدر السابق نفسه ـ ص ٨٩ .
٦٩ ـ الاحكام السلطانية ، ص ١٩٠ .
٧٠ ـ سبل السلام ، ص ٨٢ .
٧١ ـ الخراج لابن آدم ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، وفي بلوغ المرام من ادلة الاحكام ص ١٥٦ : ان العرق الظالم ان يجيء الرجل الى ارض قد احياها رجل قبله فيغرس فيها غرسا غصبا ليستوجب به الارض وفي ذلك يقول (ص) « من اقتطع شبرا من الارض ظلما طوقه الله به يوم القيامة في سبع ارضين » وهو حديث متفق عليه . ايضا بلوغ المرام .. ص ١٥٥ .

٧٢ ـ الخراج لابن آدم ، ص ٧٨
٧٣ ـ كتاب الام : ج ٣ ـ ص ٢٦٨ .
٧٤ ـ بلوغ المرام من ادلة الاحكام ، ص ١٦٠ .
٧٥ ـ غاية تلخيص المراد من فتاوى ابن زياد ، بهامش كتاب بغية المسترشدين ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٢ ـ ص ١٦٧
٧٦ ـ سبل السلام ، ص ٨٥ .
٧٧ ـ المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ .
٧٨ ـ الخراج لابن آدم ، ص ٨٦ ـ ٨٧.
٧٩ ـ تراجع رسالة « احياء الاراضي الموات» ص ٢٤٠ .
٨٠ ـ الخراج لابن آدم ، ص ٨٧.
٨١ ـ كتاب الام ، ص ٢٦٩ .
٨٢ ـ الخراج لابن ادم ، ص ٨١ ، ٨٢
ايضا الاحكام السلطانية، ص ١٩١.
والعادي : الارض المندرسة التي عفى عليها وعلى اهلها الزمن او الارض الميتة التي لم يتناولها احد بملكية او احياء .
٨٣ ـ احياء الاراضي الموات ، ص ٢٣٧ .

محمد بن اسحاق
« حياته ومكانته العلمية »

الدكتور : محمد جاسم حمادي المشهداني
معهد الدراسات القومية
الجامعة المستنصرية

موارد دراسة محمد بن اسحاق :

ترجم لمحمد بن اسحاق عدد من المؤرخين ، وعلماء الجرح والتعديل ، ويتباين حجم تلك المعلومات التي تتحدث عن ترجمته بين الاسهاب والاطناب ، كما تتباين من ناحية طبيعتها ، وبالاخص انها دونت في مصادر متنوعة ومتباينة ، وفي ازمان متباعدة ايضا .

ولعل من بين اقدم من ترجم لمحمد بن اسحاق ، محمد بن سعد (ت ، ٢٣٠هـ[١])، ويحيى بن معين (ت ، ٢٣٣ هـ[٢])، وخليفة بن خياط (ت ، ٢٤٠ هـ[٣])، والبخاري (ت، ٢٥٦ هـ[٤])، وابراهيم بن يعقوب الجوزجاني (ت، ٢٥٩ هـ[٥] ، ومسلم بن الحجاج (ت ، ٢٦١هـ[٦] ، وابن قتيبة (ت، ٢٧٦ هـ[٧]) ، والبسوي (ت ، ٢٧٧ هـ[٨] ، وابو عثمان البرذعي (ت، ٢٩٢ هـ[٩] ، وابن ابي خيثمة (ت، ٢٩٧ هـ[١٠] ، والنسائي (ت، ٣٠٣ هـ[١١]) ، والعقيلي (ت، ٣٢٢ هـ[١٢])، وابن ابي حاتم الرازي (ت ، ٣٢٧ هـ[١٣]) ، وابن عدي (ت ، ٣٦٥ هـ[١٤]) ، وابن النديم (ت، ٣٧٧هـ[١٥]) ، والتنوخي (ت ، ٣٨٤ هـ[١٦])، وابن شاهين (ت ، ٣٨٥ هـ[١٧]) ، والطوسي (ت، ٤٦٠ هـ[١٨]) ، والخطيب البغدادي (ت ، ٤٦٣ هـ[١٩]) ، وابن الجوزي (ت، ٥٩٧ هـ[٢٠]) ، وياقوت الحموي (ت ، ٦٢٦ هـ[٢١]) ، وابن الاثير (ت ، ٦٣٠ هـ[٢٢]) ، والمزي ، (ت، ٧٤٢هـ[٢٣]) ، ويعد من اوسع ممن ترجم له على الاطلاق ، كما ترجم له الطيبي (ت، ٧٤٣ هـ[٢٤])، وشمس الدين الذهبي (ت ، ٧٤٨ هـ ، في عدة مواضع من كتبه ، وبالاخص تاريخ الاسلام[٢٥])، والتذكرة[٢٦]) ، ودول الاسلام[٢٧]) ، وديوان الضعفاء والمتروكين[٢٨]) ، والعبر[٢٩]) ، والكاشف[٣٠]) ، والمغني[٣١]) ، والميزان[٣٢] ، وممن ترجم له ، الصفدي (ت، ٧٦٤ هـ[٣٣]) ، وابن قنفذ (ت ، ٨٠٧ هـ[٣٤]) ، وابن حجر العسقلاني (ت ، ٨٥٢ هـ) في كتابيه ، تهذيب التهذيب[٣٥] ، ولسان الميزان[٣٦] ، كما ترجم له السيوطي (ت ، ٩١١ هـ[٣٧]) ، وابن العماد الحنبلي (ت ، ١٠٨٩ هـ[٣٨]) ، وكتب عنه عدد من المؤرخين المعاصرين ، وبالاخص الاستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري[٣٩] ، والدكتور شاكر مصطفى[٤٠]، والاستاذ محمد الفاسي[٤١] .

كما كتب كل من الاستاذ الدكتور فؤاد سزكين[٤٢] وكارل بروكلمان[٤٣]، اضافة الى ورود ترجمة له في دائرة المعارف الاسلامية[٤٤] .

اسمه ونسبه :

هو محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار[٤٥]، وفي رواية يسار بن كوثان ، من موالي قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف المري[٤٦] ، وانفرد البكري بالاشارة الى كون ابن اسحاق عربيا ، من منطقة عين التمر[٤٧] ، في غرب العراق ، وذلك عندما قال : « وبكنيسة عين التمر ، وجد خالد بن الوليد الغلمة من العرب الذين كانوا رهنا في يد كسرى ، وهم متفرقون بالشام والعراق منهم جد الكلبي العالم النسابة ... وجد محمد بن اسحاق صاحب المغازي[٤٨] » .

وقد سبي جده يسار في منطقة عين التمر[٤٩] ، ثم بعث به خالد بن الوليد مع بقية السبي الى الخليفة ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) بالمدينة المنورة[٥٠] ، وهو اول سبي دخل المدينة من العراق[٥١] ، وذلك في اعقاب تحرير عين التمر سنة ١٢ هـ / ٦٣٣م ، ويرى الخطيب البغدادي (ت، ٤٦٣) استنادا الى رأي الهيثم بن عدي الطائي الكوفي (ت، ٢٠٩)، وعلي محمد المدائني (ت ، ٢٢٥) بان جد والد محمد بن اسحاق وهو خيار (اوكوثان) قد اسر في عين التمر سنة ١٢ هـ / ثم اسلم بعد ذلك ، فسماه مولاه خيارا ، والذي فيما يبدو كان صبيا ، ثم ولد له ابنه يسار حوالي سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠م ، وحفيده اسحاق حوالي سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢م ، ومن ثم ابنه محمد ما يقارب سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤م[٥٢] .

كنيته :

يكنى ابن اسحاق بابي بكر ، كما اشار الى ذلك علي بن المديني (ت، ٢٣٤)، ومحمد بن اسماعيل البخاري (ت ، ٢٥٦) ، ومسلم بن الحجاج (ت، ٣٢٣)، واحمد بن جعفر بن محمد بن المنادى[٥٣] ، ويكنى ايضا بابي عبدالله ، كما اشار الى ذلك محمد بن سعد (ت، ٢٣٠ هـ) ، وخليفة بن خياط (ت ، ٢٤٠هـ) واحمد بن يعقوب بن شيبة[٥٤] .

عائلته :

يبدو ان عائلة ابن اسحاق قد اخذت وتداولت بعض العلوم والمعارف ، فقد روى محمد عن ابيه اسحاق بن يسار المدني ، وهو ثقة[٥٥] ، وكذلك روى عن عمه عبدالرحمن بن يسار ابومزرد المدني[٥٦] ، كما روى ايضا عن عمه موسى بن يسار المدني (ت، بعد ١٠٠) وهوثقة ، واكد ابن حجر روايته عنهم[٥٧] ، وكان له اخوان هما ابوبكر وعمر[٥٨] .

نشأته ورحلاته :

ولد محمد بن اسحاق في المدينة المنورة سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤م ، وترعرع ونشأ فيها ، حيث كانت مركزا فكريا مهما لمدرسة الحديث المدنية التي ظهر وبرع فيها عدد من كبار العلماء والمشايخ ، حيث اخذ عن ابرز مشايخها ، ويروي محمد بن اسحاق عن نفسه بانه رأى سعيد بن المسيب عندما قال : « ادركته وانا غلام[٥٩] » وهذا يعني انه ادركه وعمره تسع سنين اذا ما علمنا ان سعيد بن المسيب توفي سنة ٩٤هـ /٧١٢ م، ولما سأل بْن القلابي - يحيى بن معين (ت، ٢٣٣) قال له : « انهم يزعمون انه رأى سعيد بن المسيب ، فقال : انه لقديم[٦٠] »، كما انه رأى انس بن مالك ، وكان عمره في حدود ست سنوات اذا ما علمنا ان انس توفي سنة ٩٢ هـ / ٧١٠م وذلك عندما قال : « رأيت انس بن مالك عليه عمامة سوداء والصبيان يشتدون ويقولون هذا رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يلقى الرجال[٦١] »، واكد الخطيب البغدادي رؤيته لانس بن مالك ، وسعيد بن المسيب[٦٢] ، كما انه رأى سالم بن عبدالله بن عمر القرشي العدوى المدني المتوفي سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م، وذلك عندما قال : « رأيت سالم بن عبدالله بن عمر يلبس الصوف ، وكان علج الخلق يعالج بيديه ويعمل[٦٣] » .

اما عن تاريخ مغادرته للمدينة المنورة فانه غير محدد بصورة دقيقة ، حيث لا تنص المصادر على تحديد تاريخ معين لمغادرته للمدينة المنورة، غير اننا يمكن ان نحدد تاريخ تقريبي لتلك المغادرة من خلال استنتاجاتنا لبعض الاحداث التي جرت في المدينة والتي كان لها اثر مباشر على حياة ابن اسحاق فيها ، واعني بذلك المعاملة القاسية التي عومل بها من قبل والي المدينة ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي خال الخليفة هشام بن عبدالملك والذي تولى امارة المدينة المنورة ، اضافة الى مكة والطائف خلال الفترة ما بين سنة ١٠٦ - ١٢١ هـ/ ٧٢٤ - ٧٣٨م[٦٤] .

وقام ابراهيم بن هشام بجلد محمد بن اسحاق ، كما اكد حميد بن حبيب الذي رأى ابن اسحاق مجلودا في القدر ، من قبل ابراهيم بن هشام[٦٥] ، ولم يذكر حميد السنة التي جلد فيها ابن اسحاق ، ويبدو ان ابراهيم كان يدعي العلم ويتظاهر به ، وذلك من خلال خطبة له في سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م، عندما قال : « سلوني فانا ابن الوحيد لا تسألون احدا اعلم مني[٦٦] »، ويبدو

ان معاملة ابراهيم القاسية له ادت الى تدهور اوضاع ابن اسحاق الاقتصادية ، فيروى انه لما اراد مغادرة المدينة الى العراق قال له رجل من اصحابه : « اني احسب السفر غدا خسيسة يا ابا عبدالله » ، وكان ابن اسحاق قد رق ، فقال ابن اسحاق : « والله ما اخلاقنا بخسيسة ولربما قصر الدهر باع الكريم(٦٧) » .

ويبدو انه غادر المدينة المنورة قبل سنة ١١٥ هـ/ ٧٣٣م اي ان عمره كان بحدود ثلاثين سنة تقريبا ، بدليل انه اتجه الى مكة المكرمة حيث اخذ عن شيخها عطاء بن ابي رباح المكي المتوفي سنة ١١٤هـ ، وعكرمة بن خالد المخزومي المتوفي بعد سنة ١١٤ هـ ايضا ، وقد اكد الاستاذ محمد الفاسي بان محمد بن اسحاق عاش بالمدينة المنورة مدة ثلاثين سنة تقريبا(٦٨) . كما انه قدم الاسكندرية بمصر سنة ١١٥هـ ؛ عندما ذكر الجماعيلي بانه قدم الاسكندرية سنة خمس عشرة ومائة ، اضافة الى قدومه اليها في سنة ١١٩هـ ، كما اكد ذلك ابن حجر . حيث اخذ عن شيخ مصر يزيد بن ابي حبيب سويد المصري المتوفي سنة ١٢٨ هـ ، وهو ثقة فقيه(٦٩) ، ثم اتجه من مصر الى الشام حيث اخذ عن شيخها مكحول الشامي المتوفي سنة ١١٦ هـ ، ومن الشام اتجه الى الجزيرة الفراتية وهو في طريقه الى العراق حيث كان مع العباس بن محمد بالجزيرة سنة ١٤٢ هـ /٧٥٩م، ثم اتجه بعد ذلك الى العراق ، وبالاخص الكوفة والبصرة وواسط ، قبل ان يتجه الى بغداد ليستقر بها بعد بنائها سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م، قال ابن حجر بعد ان تحدث عن قدومه الاسكندرية بقوله : « وكان خرج من المدينة قديما فاتى الكوفة والجزيرة والري وبغداد فاقام بها حتى مات بها سنة مائة واحدى وخمسون(٧٠) » . وبعد ان استقر ببغداد زار مدينة الري(٧١) وحدث بها ، ويروى عن مكي بن ابراهيم قوله(٧٢) : « تركت حديث ابن اسحاق وقد سمعت منه بالري عشرين مجلسا ، فسمعت منه شيئا فتركته » وتتلمذ عليه فيها عدد من المشايخ ثم عاد بعدها الى بغداد ايضا وظل فيها حتى وفاته بها .

شيوخ ابن اسحاق :

روى ابن اسحاق عن شيوخه في المدينة المنورة ، وبالاخص المحدثين والفقهاء ، اضافة الى روايته عن الرواة والاخباريين والنسابيين ، ويلاحظ اثر شيوخه عليه في منهجه واسلوبه في عرض الروايات والاخبار التاريخية رغم الاختلاف البين بين الاحكام الفقهية التي تبنى على صحة رواية الحديث النبوي الشريف وبين الاخبار التاريخية التي لا تبنى عليها احكام فقهية ولذلك اخذ عن شيوخه كل ما يأخذه طالب العلم من اسس رواية الخبر ، وعرضه بل ونقده وليس بالضرورة تقليد اولئك الشيوخ في مسألة انتقاء الروايات والاحاديث التي كانوا ينتقونها او يروونها بل اخذ عنهم المنهج وتصرف به وكيفه بما يتناسب وتخصصه في دراسة التاريخ . ومن الملفت للنظر ان معظم شيوخه الذين اخذ عنهم كانوا من المدينة المنورة ، وآخر شيخ من شيوخه المدنيين الذين روى عنهم ، كان هشام بن عروة المدني المتوفي سنة ١٤٥ هـ . ولم نجد من بين شيوخه بغداديين او كوفيين او بصريين .

ان من ابرز شيوخه الذين روى عنهم ، كان :

١ ـ والده اسحاق بن يسار المدني ، وهو ثقة(٧٣) . واكد ابن حجر روايته عنه(٧٤) .

٢ ـ عمه ، عبدالرحمن بن يسار ابومزرد(٧٥) ، واكد ابن حجر روايته عنه(٧٦) .

٣ ـ عمه ، موسى بن يسار المدني (ت، بعد ١٠٠) وهو ثقة(٧٧) . واكد ابن حجر روايته عنه(٧٨) .

٤ ـ ابراهيم بن عقبة بن ابي عياش الاسدي مولاهم المدني وهو ثقة(٧٩) ، واكد ابن حجر روايته عنه(٨٠) .

٥ ـ محمد بن ابي امامه بن سهل بن حنيف ، وهو ثقة(٨١) .

٦ ـ يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير بن العوام المدني ، وهو ثقة(٨٢) .

٧ ـ ابان بن عثمان بن عفان ابوسعيد المدني (ت، ١٠٥) وهو ثقة(٨٣) ، واكد يحيى بن معين (ت، ٢٣٣) سماعه عنه(٨٤) .

٨ ـ القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) التيمي (ت، ١٠٦) وهو ثقة ، واحد فقهاء المدينة ، قال ايوب : « ما رأيت افضل منه(٨٥) » ، واكد يحيى بن معين (ت ، ٢٣٣)، والخطيب البغدادي (ت، ٤٦٣) روايته عنه(٨٦) .

٩ ـ محمد بن علي الحسين بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) ابوجعفر الباقر المدني (ت ، بعد ١١٠)، وهو ثقة فاضل(٨٧) ، واكد الخطيب البغدادي (ت ، ٤٦٣) سماعه عنه(٨٨) .

١٠ ـ محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الاسدي المدني (ت ، بعد ١١٠) ، وهو ثقة ، واكد الخطيب البغدادي (ت، ٤٦٣)، وابن حجر (ت، ٨٥٢) روايته وسماعه عنه(٨٩) .

١١ ـ عطاء بن ابي رباح القرشي مولاهم المكي

(ت ، ١١٤) وهو فقيه ثقة فاضل(٩٠) ، واكد يحيى بن معين (ت، ٢٣٣) سماعه عنه ، واكد الذهبي (ت ، ٧٤٨) روايته عنه(٩١) .

١٢ ـ عكرمة بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي (ت، بعد ١١٤) وهو ثقة(٩٢) .

١٣ ـ مكحول الشامي (ت، ١١٦) وهو مكحول الشامي الفقيه الدمشقي وهو فقيه ثقة مشهور ، وكان يضرب به المثل في العلم ، ولذلك قال الزهري : « العلماء اربعة فذكرهم فقال ومكحول بالشام(٩٣) »، واكد الخطيب البغدادي (ت، ٤٦٣(٩٤))، وابن حجر (ت ، ٨٥٢(٩٥)) روايته عنه. ويبدو انه اخذ منه خلال رحلته للشام .

١٤ ـ سعيد بن ابي هند الفزاري مولاهم (ت ، ١١٦)، وهو ثقة ، واكد الذهبي (ت، ٧٤٨) روايته عنه(٩٥) .

١٥ ـ ابوعبدالله نافع المدني مولى عبدالله بن عمر (ت، ١١٧)، وهو ثقة ثبت فقيه مشهور(٩٦) . واكد الذهبي روايته عنه(٩٧) .

١٦ ـ عبدالرحمن بن هرمز ابوداود المدني الاعرج ، مولى ربيعة بن الحارث (ت، ١١٧) وهو ثقة ثبت عالم ، واكد الذهبي (ت، ٧٤٨) روايته عنه(٩٨) .

١٧ ـ سعيد بن ابي سعيد كيسان المقبري ابوسعد المدني (ت، ١٢٠) وهو ثقة ، واكد الذهبي (ت ، ٧٤٨) روايته عنه(٩٩) .

١٨ ـ محمد بن ابراهيم بن الحارث بن خالد التيمي ابوعبدالله المدني (ت ، ١٢٠(١٠٠) وهو ثقة(١٠١) .

١٩ ـ عباس بن سهل بن سعد السعدي (توفي في حدود، ١٢٠هـ) وهو ثقة(١٠٢) .

٢٠ ـ محمد بن عمرو بن عطاء القرشي العامري المدني المتوفي في حدود ١٢٠هـ ، وهو ثقة(١٠٣) .

٢١ ـ عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الاوسي الانصاري ابوعمر المدني المتوفي بعد ١٢٠هـ(١٠٤)، وهو ثقة عالم بالمغازي(١٠٥) ، ولعل ابن اسحاق افاد منه فيما يتعلق بالمغازي .

٢٢ ـ محمد بن يحيى بن حيان الانصاري المدني (ت ، ١٢١) وهو ثقة فقيه(١٠٦) .

٢٣ ـ محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب القرشي الزهري (ت، ١٢٥) الفقيه الحافظ ، المتفق على جلالته واتقانه(١٠٧) ، واكد الخطيب البغدادي بانه سمع منه(١٠٨) ، وقد اشاد الزهري بعلم تلميذه محمد بن اسحاق كثيرا .

٢٤ ـ سعد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف المدني (ت، ١٢٥) وكان ثقة فاضلا عابدا(١٠٩) .

٢٥ ـ صباح بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف الزهري المدني (ت ، ١٢٧) وهو ثقة(١١٠) .

٢٦ ـ يعقوب بن عقبة بن المغيرة بن الاخنس الثقفي (ت ، ١٢٨) وهو ثقة(١١١) .

٢٧ ـ يزيد بن ابي حبيب سويد ابورجاء المصري (ت، ١٢٨)، وهو ثقة فقيه ، ولعله اخذ منه عند رحلته الى مصر ، واكد الذهبي روايته عنه وكان يحيى بن معين يقول : « الليث بن سعيد اثبت في يزيد بن ابي حبيب من محمد بن اسحاق(١١٢) » .

٢٨ ـ سالم بن ابي امية ابو النضر ، مولى عمر بن عبيد الله التيمي المدني (ت ، ١٢٩) وهو ثقة ثبت(١١٣) . قال ابن حجر : « وهو من اروى الناس عن سالم ابي النضر...(١١٤) » .

٢٩ ـ عبدالله بن ذكوان القرشي المدني المعروف بابي الزناد (ت ، ١٣٠) وهو ثقة فقيه(١١٥) ، قال علي بن المديني : « يروى مرة حدثني ابوالزناد، ومرة ذكر ابوالزناد(ب) » .

٣٠ ـ محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير التيمي المدني (ت ، ١٣٠) وهو ثقة فاضل(١١٦) .

٣١ ـ يزيد بن رومان المدني مولى آل الزبير (ت ، ١٣٠) وهو ثقة(١١٧) .

٣٢ ـ العلاء بن عبدالرحمن بن يعقوب الحرقي الجهني المدني (ت ، بعد ١٣٠) وهو صدوق(١١٨) .

٣٣ ـ عبدالله بن ابي بكر بن محمد بن عمرو الانصاري المدني (ت، ١٣٥) وهو ثقة(١١٩) .

٣٤ ـ حميد بن حميد الطويل ابوعبيدة البصري (ت ، ١٤٢) وهو ثقة(١٢٠) .

٣٥ ـ يحيى بن سعيد بن قيس الانصاري المدني (ت ، ١٤٤) وهو ثقة(١٢١) ، واكد الخطيب البغدادي (ت ، ٤٦٣) ان شيخه يحيى سمع واخذ عن تلميذه ابن اسحاق(١٢٢) .

٣٦ ـ هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الاسدي (ت، ١٤٥) وهو فقيه ثقة(١٢٣) .

٣٧ ـ عمرو بن ابي عمرو ميسرة مولى المطلب ابوعثمان المدني ، (ت ، بعد ١٥٠) وهو ثقة(١٢٤) .

٣٨ ـ ابوسلمة بن عبدالرحمن بن عوف الزهري المدني (ت ، ١٩٤) وهو ثقة مكثر(١٢٥) ، واكد يحيى بن معين (ت ، ٢٣٣) والخطيب البغدادي (ت ، ٤٦٣) والذهبي سماعه عنه(١٢٦) ، وكان محمد بن اسحاق يقول : « رأيت ابا سلمة بن عبدالرحمن يأخذ بيد الصبي من الكتاب يملي فيذهب به الى البيت فيملي عليه الحديث يكتب له(١٢٧) » .

٣٩ ـ عبدالرحمن بن الاسود بن يزيد بن قيس النخعي (ت، ١٩٩) وهو ثقة[١٢٨] ، واكد يحيى بن معين (ت، ٢٣٣) سماعه عنه[١٢٩] .

٤٠ ـ عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، وهو ثقة[١٣٠] .

٤١ ـ يحيى بن عبروة بن الزبير بن العوام الاسدي ، ابوعروة المدني وهو ثقة[١٣١] .

٤٢ ـ عبيد الله بن عبدالله بن عمرو معبد بن كعب بن مالك[١٣٢] .

٤٣ ـ عمرو بن شعيب ، قال علي بن المديني (ت ، ٢٦١) عن محمد بن اسحاق : « وهو من اروى الناس عن عمرو بن شعيب[١٣٣] » .

٤٤ ـ فاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام زوج هشام بن عروة ، وهي ثقة[١٣٤] .

تلاميـذه :

اخذ عن ابن اسحاق عن عدد من المشايخ ، وبالاخص بعد انتقاله الى العراق ، وابرز تلاميذه الذين اخذوا عنه في مدينة البصرة :

أ ـ عبدالله بن عون بن ارطبان المزني مولاهم ابوعون الخزار البصري (ت ، ١٥٠) وهو ثقة ثبت[١٣٥] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٣٦] .

ب ـ حماد بن سلمة بن دينار البصري (ت، ١٦٧) وهو ثقة عابد[١٣٧] ، واكد الخطيب البغدادي[١٣٨] ، والذهبي ، وابن حجر[١٣٩] روايته عنه .

ت ـ جرير بن حازم بن زيد بن عبدالله الازدي ، ابوالنضر البصري (ت، ١٧٠) وهو ثقة ، واكد الخطيب البغدادي، وابن حجر روايته عنه[١٤١] .

ث ـ حماد بن زيد بن درهم الازدي الجهضمي البصري (٩٨ ـ ١٧٩) وهو ثقة ثبت[١٤٢]، واكد الخطيب البغدادي ، والذهبي ، وابن حجر روايته عنه[١٤٣] .

ج ـ يزيد بن زريع البصري (ت، ١٨٢) وهو ثقة ثبت[١٤٤] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٤٥] .

ح ـ عبدالاعلى ابومحمد السامي اليصري (ت ، ١٨٩) وهو ثقة[١٤٦] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٤٧] .

كما انه زار مدينة الكوفة ، ويبدو انه مكث بها زمنا طويلا ، حيث روى عنه ودرس عليه عدد من المشايخ ، ولعل من ابرزهم :

أ ـ زهير بن معاوية بن خديج ابوخيثمة الجعفي الكوفي ، نزيل الجزيرة (١٠٠ ـ ١٣٢) وهو ثقة ثبت[١٤٨]، واكد ابن حجر روايته عنه[١٤٩] .

ب ـ سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ابوعبدالله الكوفي (ت، ١٦١) وهو ثقة حافظ فقيه[١٥٠] ، واكد الخطيب البغدادي بانه حدث عنه[١٥١] .

ت ـ شريك بن عبدالله النخعي الكوفي (ت ، ١٧٧) وهو صدوق عادل فاضل ، عابد[١٥٢] ، واكد الخطيب بانه حدث عنه[١٥٣] .

ث ـ زياد بن عبدالله بن الطفيل العامري البكائي ابومحمد الكوفي (ت، ١٨٣) وهو صدوق ثبت في المغازي[١٥٤] ، واكد الذهبي وابن حجر روايته عنه[١٥٥] .

ج ـ عبده بن سليمان الكلابي ابومحمد الكوفي (ت، ١٨٧) وهو ثقة ثبت[١٥٦] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٥٧] .

ح ـ جرير بن عبدالحميد بن قرط الضبي الكوفي نزيل الري وقاضيها وهو ثقة صحيح الكتاب[١٥٨] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٥٩] .

خ ـ سليمان بن حيان الازدي ابوخالد الاحمر الكوفي (ت ، ١٩٠) وهو صدوق[١٦٠] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٦١] .

د ـ عبدالله بن ادريس بن يزيد الاودي الكوفي (ت ، ١٩٢) وهو ثقة فقيه وعابد[١٦٢] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٦٣] .

ذ ـ محمد بن فضيل بن غزوان الضبي مولاهم ابوعبدالرحمن الكوفي (ت، ١٩٥) وهو صدوق عارف[١٦٤] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٦٥] .

ر ـ سفيان بن عيينة بن ابي عمران الهلالي الكوفي (ت، ١٩٨) وهو ثقة حافظ فقيه امام حجة[١٦٦] ، واكد الخطيب وابن حجر روايته عنه[١٦٧] .

ز ـ محمد بن عبيد بن ابي امية عبدالرحمن الطنافسي ابوعبدالله الكوفي الاحدب مولى اياد (ت ، ٢٠٤) وهو ثقة حافظ[١٦٨] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٦٩] .

س ـ يونس بن بكير بن واصل الشيباني ، ابوبكر الجمال الكوفي (ت ، ٢٠٩[١٧٠] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٧١] .

كما انه زار واسط ، واخذ عنه عدد من مشايخها ، وابرزهم :

أ ـ شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي مولاهم ابوبسطام الواسطي ثم البصري (ت، ١٦٠) وهو ثقة حافظ متقن ، وكان الثوري يقول: « هو امير المؤمنين في الحديث ، وهو اول من فتش بالعراق عن الرجال ، وذب عن السنة » وكان عابدا[١٧٢] ، واكد الخطيب البغدادي، وابن حجر روايته عنه[١٧٣] .

ب ـ الوضاح بن عبدالله اليشكري الواسطي البزار ابوعوانه الذي اشتهر بكنيته (ت ، ١٧٥) وهو ثقة ثبت[١٧٤] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٧٥] .

ت ـ هشيم بن بشير بن القاسم السلمي ابو معاوية الواسطي (ت ، ١٨٣) وهو ثقة ثبت[١٧٦] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٧٧] .

ث ـ يزيد بن هارون بن زاذان السلمي مولاهم الواسطي (ت، ٢٠٦) وهو ثقة متقن[١٧٨] ، واكد الخطيب البغدادي، وابن حجر ، روايته عنه[١٧٩] .

اما في بغداد فمن ابرز من روى عنه :

أ ـ ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزهري ابواسحاق المدني نزيل بغداد (ت ، ١٨٥) وهو ثقة حجة[١٨٠] ، واكد الخطيب البغدادي والذهبي ، وابن حجر روايته عنه[١٨١] .

اما في اثناء رحلته الى الشام فقد روى عنه عدد من المشايخ ومن ابرزهم في مدينة حمص : احمد بن خالد بن موسى الذهبي الكندي ابوسعيد الحمصي (ت، ٢١٤) وهو صدوق[١٨٢] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٨٣] .

اما في الجزيرة السفراتية ، وبالاخص مدينة حران ، فابرز من روى عنه .

محمد بن سلمة بن عبدالله الباهلي مولاهم الحراني (ت، ٢٩١) وهو ثقة[١٨٤] ، ولا تذكر المصادر مكان الرواية عن ابن اسحاق من قبل زهير بن معاوية بن خديج ابوخيثمة الجعفي الكوفي نزيل الجزيرة (٧٠ ـ ١٣٢) رغم اننا رجحنا ان تكون روايته عنه في الكوفة ، قبل ان يتجه الى الجزيرة .

اما زيارة ابن اسحاق للري ، فقد ادت الى رواية مشايخها عنه ابرزهم :

أ ـ يحيى بن واضح الانصاري مولاهم ابونميلة المروزي (ت، بعد ٢٠٠ هـ) وهو ثقة[١٨٥] ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٨٦] .

ب ـ مسلمة بن الفضل الابرشي مولى الانصار قاضي الري وهو صدوق (ت، بعد ٢٩٠[١٨٧]) واكد الذهبي ، وابن حجر روايته عنه[١٨٨] .

ورغم نشأته ودراسته في المدينة المنورة على عدد من المشايخ فيها الا انه لم يرو عنه احد الا النفر اليسير جدا ، رغم ان سفيان الثوري يقول : « لم يرو اهل المدينة عنه[١٨٩] »، ولعل مع ذلك فيروى ان بعض اهل المدينة رووا عنه وابرزهم عبدالله بن سعيد بن ابي هند الفزاري مولاهم ابوبكر المدني (ت، بضع و ١٤٠) وهو صدوق ، واكد ابن حجر روايته عنه[١٩٠] ، وروى عنه كذلك شيخه يحيى بن سعيد بن قيس الانصاري (ت، ١٤٤) وهو ثقة ، واكد الخطيب البغدادي وابن حجر روايته عنه[١٩١] ، رغم ان فيان الثوري يؤكد انه لم يرو عنه .

وكذلك الحال في مكة المكرمة التي لم يرو فيها احد عنه الا النفر القليل ايضا ، وبالاخص عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الاموي مولاهم المكي (ت، ١٥٠) وهو ثقة فاضل[١٩٢] ، واكد الخطيب البغدادي روايته عنه[١٩٣] .

واشار الذهبي الى رواية يزيد بن هارون عنه ، الا انه لم يذكر تفصيلا بذلك[١٩٤] .

وممن روى عنه من الاكابر يزيد بن ابي حبيب[١٩٥] .

آراء علماء الجرح والتعديل بمحمد بن اسحاق :

اشاد بمحمد بن اسحاق ووثقه عدد من علماء الجرح والتعديل ، وعدد من المؤرخين والعلماء ، فقد وثقه محمد بن سعد (ت، ٢٣٠ هـ[١٩٦])، ويحيى بن معين (ت، ٢٣٣[١٩٧]) واضاف بانه « صدوق[١٩٨] » وذكر بانه « ليس بحجة[١٩٩] » ، ولكنه « حسن الحديث[٢٠٠] » ، ووثقه[٢٠١] ، واشاد به[٢٠٢] علي بن المديني (ت ، ٢٣٤) وكان يثني عليه ويقدمه، والذي قال : « مدار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ستة فذكرهم ثم قال فصار علم الستة عند اثني عشر فذكر ابن اسحاق فيهم[٢٠٣] ، وكان علي يحتج بحديثه ويقول « ما رأيت احدا يتهم ابن اسحاق ، قال : « ... ان حديث ابن اسحاق ليتبين فيه الصدق .. وقال : « هو صالح وسط[٢٠٤] » ووثقه العجلي (ت، ٢٦١[٢٠٥])، والحاكم (ت، ٣٧٨هـ[٢٠٦])، وابويعلى الخليلي (ت، ٤٤٦) ، والذي قال عنه: (محمد بن اسحاق عالم كبير ، وانما لم يخرج له البخاري من اجل روايته المطولات وقد استشهد به واكثر عنه فيما يحكى في ايام النبي صلى الله عليه وسلم وفي اقواله وفي التواريخ ، وهو عالم واسع الرواية والعلم ثقة » ، وقال البوشنجي : « ثقة ثقة[٢٠٧] » وقال ابن ابي فديك : « اذا قال حدثني واخبرني فهو ثقة[٢٠٨] » ، ووثقه ايضا ابن الاهدل[٢٠٩] ، وابن البرقي[٢١٠] ، والذهبي[٢١١] .

وممن اشاد بمحمد بن اسحاق ، الامام الزهري (ت، ١٢٤) حيث كان يجله ويحترمه[٢١٢]، وكان الزهري يتلقف المغازي من ابن اسحاق فيما يحدثه عن عاصم بن عمر بن

قتادة[٢١٣] ، وروى سفيان بن عيينة قائلا : « رأيت الزهري اتاه محمد بن اسحاق فاستبطأه فقال اين كنت ؟ فقال له محمد بن اسحاق : هل يصل اليك احد مع حاجبك ؟ قال ، فدعا حاجبه ، فقال له : لا تحجبه اذا جاء ...[٢١٤] » وقال الزهري : «لايزال بالمدينة علم ما كان بها مولى مخرمة يعني محمد بن اسحاق[٢١٥] »، وفي رواية لايزال بالحجاز وفي رواية بهذه الحرة ، علم كثير ما دام هذا الاحول بين اظهرهم[٢١٦] » وقال ايضا : «لايزال في الناس علم ما عاش محمد بن اسحاق[٢١٧] » وفي رواية عن سفيان بن عيينة انه قال : « رأيت الزهري اتاه محمد بن اسحاق فأستبطأه فقال : اين كنت ؟ فقال له محمد بن اسحاق : وهل يصل اليك احد مع حاجبك ؟ قال فدعا حاجبه ، فقال له : لا تحجبه اذا جاء .. ولما سئل عن مغازيه قال : هذا اعلم الناس بها[٢١٨] »، وكان الزهري يتلقف المغازي من ابن اسحاق فيما يحدثه عن عاصم بن عمر بن قتادة[٢١٩] ، وقال عبدالله بن فائد : « كنا اذا جلسنا الى ابن اسحاق فاخذ في فن من العلم قضى مجلسه في ذلك الفن[٢٢٠] » .

ومن اشاد به شعبة بن الحجاج (ت، ١٦٠) الذي قال: « امير المؤمنين في الحديث ، ولما قيل له : « لم قال لحفظه » ، وقال : « لو كان لي سلطان لامرت ابن اسحاق على المحدثين[٢٢١] »، واضاف بانه «صدوق[٢٢٢]» ، واشاد به سفيان بن عيينة (ت، ١٩١) الذي قال : « جالست ابن اسحاق منذ بضع وسبعين سنة وما يتهمه احد من اهل المدينة ولا يقول فيه شيئا » ، واضاف « لايزال بالمدينة علم ما عاش هذا الغلام ، يعني ابن اسحاق[٢٢٣] » واشاد به ابو معاوية (ت، ١٩٥[٢٢٤])، والامام الشافعي (ت ، ٢٠٤)، قال الخطيب البغدادي : « كان محمد بن ادريس معجبا بابن اسحاق كثير الذكر له ينسبه الى العلم والمعرفة والحفظ[٢٢٥] » واشاد به يزيد بن هارون «ت، ٢٠٦[٢٢٦] »، وقال الامام احمد بن حنبل (ت، ٢٤١) : « هو حسن الحديث[٢٢٧] »، وممن اشاد به الامام البخاري (ت، ٢٥٦[٢٢٨]) وابراهيم بن يعقوب الجوزجاني (ت، ٢٥٩)، رغم قوله عنه بانه كان يرمي بنوع من البدع[٢٢٩] ، كما اشاد به ابوحاتم الرازي (ت ، ٢٧٧[٢٣٠])، وابو زرعة الدمشقي (ت ، ٢٨٢) الذي قال : « وابن اسحاق رجل قد اجمع الكبراء من اهل العلم على الاخذ عنه ، وقد اختبره اهل الحديث فرأوا صدقا وخيرا مع مدح ابن شهاب له[٢٣١] » ، واشاد به ابن حبان (ت ، ٣٤٥) والذي قال عنه: « ولم يكن احد بالمدينة يقارب ابن اسحاق في علمه ولا يوازيه في جمعه وهو من احسن الناس سياقا للاخبار الى ان قال وكان يكتب عمن فوقه ومثله ودونه فلو كان ممن يتسحل الكذب لم يحتج الى النزول فهذا يدلك على صدقه[٢٣٢] » واشاد به ايضا عبدالله بن فائد[٢٣٣]. وابوبكر سلمى بن عبدالله الهذلي البصري[٢٣٤] ، والمؤرخ الذهبي (ت ، ٧٤٨[٢٣٥]) الذي دافع عنه دفاعا علميا رائعا . وممن اشاد به ابن ناصر الدين (ت ، ٨٤٢[٢٣٦])، والطيبي في مشكاته[٢٣٧] ، ووصفه اخرون بانه «صدوق » كما ذكر ذلك ابن المبارك (ت، ١٨١[٢٣٨])، وابوزرعة الرازي (ت، ٢٦٤[٢٣٩]) والذهبي (ت ، ٧٤٨[٢٤٠] ، وقال ابومعاوية : «كان ابن اسحاق من احفظ الناس ، فكان اذا كان عند الرجل خمسة احاديث او اكثرها فاستودعها ابن اسحاق[٢٤١] »، وقال سفيان بن عيينة : « جالست ابن اسحاق منذ بضع وسبعين سنة ، وما يتهمه احد من اهل المدينة ولا يقول فيه شيئا ..[٢٤٢] » اما رأي الامام احمد بن حنبل (ت ، ٢٤١) فيه ، فانه ذكر بانه يكتب عنه المغازي[٢٤٣] ، حسن الحديث[٢٤٤] ، ليس بحجة[٢٤٥] ، وقال : « كان ثقة ولكن ليس بحجة ، وفي رواية ضعيف[٢٤٦] ، وروى عبدالله بن احمد قائلا : « مارأيت ابي اتقن حديثه قط ، وكان يتتبعه بالعلو والنزول قيل له يحتج به ، قال لم يكن يحتج به السنن[٢٤٧] »، وذكر عبدالملك بن عبدالحميد ابوالحسين الميموني قال : « انبأنا ابوعبدالله يعني احمد بن حنبل بحديث استحسنه عن محمد بن اسحاق ، فقلت له : يا اباعبدالله ما احسن هذه القصص التي يجيء بها ابن اسحاق ؟ فتبسم الي متعجبا[٢٤٨] » .

واشاد به المزي ، واشاد به ابن عدي (ت، ٣٦٥) فقال : « ولمحمد بن اسحاق حديث كثير ، وقد روى عنه ائمة الناس ولو لم يكن له من الفضل الا انه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء الى الاشتغال بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ومبدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق اليها وقد صنفها بعده قوم فلم يبلغوا مبلغه وقد فتشت احاديثه الكثيرة فلم اجد فيها ما يتهيء ان يقطع عليه بالضعف ، وربما اخطأ او يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطيء غيره وهو لا بأس به[٢٤٩] » .

واشاد به الخطيب البغدادي الذي افتتح كتابه

« تاريخ بغداد) بالكتابة عن ترجمة محمد بن اسحاق بقوله : « لم ار في جملة المحمديين الذين كانوا في مدينة السلام من اهلها والواردين اليها اكبر سنا منه واعلى اسنادا واقدم موتا منه ، ولهذا الاسباب المجتمعة فيه افتتحت كتابي بتسميته واتبعته بمن يلحق به من اهل ترجمته .. وكان عالما بالسير والمغازي وايام الناس ، واخبار المبتدأ وقصص الانبياء ، « وقد احتج بروايته في الاحكام قوم من اهل العلم ..(٢٥٠) »، واشاد به المزي(٢٥١)

كما واشاد به الذهبي الذي قال : « فالذي يظهر لي ان ابن اسحاق حسن الحديث ، صالح الحال صدوق ، وما انفرد به ففيه نكارة ، فان في حفظه شيئا ، وقد احتج به ائمة »(٢٥٢) واضاف بانه : « احد الائمة الاعلام .. ما له عندي ذنب الا ما قد حشا في السيرة من الاشياء المنكرة المنقطعة والاشعار المكذوبة(٢٥٣) »، ورد الذهبي على ابن ابي فديك في قوله : « رأيت ابن اسحاق يكتب عن رجل من اهل الكتاب » ، حيث قال الذهبي : « ما لمانع من رواية الاسرائيليات عن اهل الكتاب مع قوله صلى الله عليه وسلم : حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، وقال : اذا حدثكم اهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فهذا اذن نبوي في جواز سماع ما يأثرونه في الجملة ، كما سمع منهم ما ينقلونه من الطب ، ولا حجة في شيء من ذلك ، انما الحجة في الكتاب والسنة(٢٥٤) » .

وفي الوقت الذي اشاد بمحمد بن اسحاق عدد من علماء الجرح والتعديل وغيرهم نجد ان هناك آخرين ، جرحوه مضعفين مكانته وبالاخص في علم الحديث ، وابرز من ضعفه ابوالمنذر هشام بن عروة (ت، ١٤٦) ومالك بن انس (ت ، ٢٧٩) وقد جرت مناقشات عديدة بين علماء الجرح والتعديل حول هذا الموضوع سنتطرق اليها بشيء من التفصيل عند ورود سياقاتها في الحديث ، فاما تجريح هشام بن عروة لمحمد بن اسحاق ، فانه يعود الى ادعاء محمد بن اسحاق بانه روى عن زوجته فاطمة بنت المنذر ، وكان نص روايته عنها :

« يروى عن محمد بن اسحاق عن فاطمة بنت المنذر عن اسماء بنت ابي بكر قالت : « سمعت امرأة وهي تسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ان لي ضرة واني استشبع من زوجي بمال يعطينه لاغيظها بذلك ، قال المستشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »، قال سفيان : « اخبرني ابن اسحاق انها حدثته وانه دخل عليها(٢٥٥) » .

ولقد استاء هشام بن عروة من رواية محمد بن اسحاق عن زوجته ، ووصفه بانه « كذاب(٥٦) » ، وانكر روايته عن زوجته قائلا : « لقد دخلت بها وهي بنت تسع سنين وما راها مخلوق حتى لحقت بالله عز وجل(٥٧) » ، وقال ايضا : « متى دخل اليها ومتى سمع منها(٢٥٨) » . وتساءل قائلا : « اهو كان يدخل على امرأتي .. ؟» ، وفي رواية « اهو كان يصل اليها.. ؟» واضاف : « يحدث ابن اسحاق عن امرأتي فاطمة بنت المنذر والله ان رآها قط » وقال : « ابعد الله الكذاب يروى عن امرأتي ، من اين رآها(٢٥٩) ...».

وقد رد القدامى من علماء الجرح والتعديل على هشام بن عروة ، وفندوا رأيه ، فقال علي بن المديني (ت، ٢٦١) : « ... الذي قال هشام ليس بحجة لعله دخل على امرأته وهو غلام فسمع منها » وانتقد كلام هشام بن عروة في طعنه عليه(٢٦٠) ، وقال البخاري (ت، ٢٥٦): « وقال لي بعض اهل المدينة ان الذي يذكر عن هشام بن عروة، قال كيف يدخل ابن اسحاق على امرأتي ، لو صح عن هشام جائز ان تكتب اليه ، فان اهل المدينة يرون الكتاب جائزا ، وجائزا ان يكون سمع منها وبينهما حجاب(٢٦١) » وقال ابن حبان: « فاما قول هشام ، فليس مما يجرح به الانسان ، وذلك ان التابعين سمعوا من عائشة من غير ان ينظروا اليها ، وكذلك ابن اسحاق كان سمع من فاطمة والستر بينهما سبل»(٢٦٢) وقال عبدالله بن احمد : « حدثنا ابوبكر بن خلاد الباهلي ، سمعت يحيى بن سعيد يقول سمعت هشام بن عروة يقول : « يحدث ابن اسحاق عن امرأتي فاطمة بنت المنذر ؟ والله ان رآها قط ، قال عبدالله فحدثنا ابي بذلك فقال ولم ينكر هشام لعله جاء فاستأذن عليها فأذنت له ، احسبه قال ولم يعلم(٢٦٣) » ، قال الخطيب البغدادي (ت، ٤٦٣) : « واما رأيه في هشام بن عروة فليست بالمحفوظة الا من الوجه الذي ذكرناه ، ورواويها غير معروف عندنا والله اعلم(٢٦٤) » ولعل الذهبي (ت، ٧٤٨) من ابرز المؤرخين الذين ردوا على هشام بن عروة ، فقال : « وما يدري هشام بن عروة ؟ فلعله سمع منها في المسجد او سمع منها وهو صبي ، او دخل عليها فحدثته من وراء حجاب ، فأي شيء في هذا ؟ وقد كانت امرأة قد كبرت واسنت(٢٦٥) » وروى الذهبي عن ابي قلابة الرقاشي ، عن ابي داود سليمان بن داود ، قال: قال يحيى القطان : « اشهد ان محمد بن اسحاق كذاب ، قلت : وما يدريك ؟ قال : قال لي وهيب ، فقلت لوهيب وما يدريك ؟ قال : قال لي مالك بن

انس . فقلت لمالك : وما يدريك ؟ قال : قال لي هشام بن عروة ، قال : قلت لهشام بن عروة : وما يدريك ؟ قال : حدث عن امرأتي فاطمة بنت المنذر ، وادخلت علي وهي بنت تسع ، وما رآها رجل حتى لقيت الله تعالى » قال الذهبي : « وقوله وهي بنت تسع غلط بين لانها اكبر من هشام بثلاث عشرة سنة ، وكان اخذ ابن اسحاق عنها وقد جاوزت الخمسين ، وقد روى عنها ايضا غير محمد بن اسحاق من الغرباء محمد بن سوقه »، وقال الذهبي ايضا : « ... افبمثل هذا يعتمد على تكذيب رجل من اهل العلم ، هذا امر مردود . ثم قد روى عنها محمد بن سوقه ، ولها رواية عن ام سلمة وجدتها اسماء ، ثم ما قيل من انها ادخلت عليه وهي بنت تسع غلط بين ، ما ادرى ممن وقع من رواة الحكاية فانها اكبر من هشام بثلاث عشرة سنة ، ولعلها مازفت اليه الا وقد قاربت بضعا وعشرين سنة ، واخذ عنها ابن اسحاق وهي بنت بضع وخمسين سنة او اكثر[٢٦٦] » ، واكد الذهبي بان ابوعبدالله البخاري لم يذكر ابن اسحاق في كتاب الضعفاء له[٢٦٧] ، وقال ابن حجر : « عن محمد بن اسحاق : « وكذبه سليمان التيمي ويحيى القطان ووهيب بن خالد ، فاما وهيب والقطان فقلدا فيه هشام بن عروة ومالكا...[٢٦٨] » .

وممن ضعفه سليمان بن مهران الاعمش (ت، ١٤٨[٢٦٩])، ووهيب بن خالد (ت ، ١٦٥[٢٧٠])، وحماد بن سلمة (ت ، ١٦٧[٢٧١] ، ويحيى القطان (ت ، ١٩٨[٢٧٢])، ورغم توثيق يحيى بن معين (ت ، ٢٣٣) له فانه يضعفه في الحديث[٢٧٣] ، وكذلك احمد بن حنبل (ت، ٢٤١[٢٧٤]) وسليمان التيمي[٢٧٥] ، ومعمر عن ابيه[٢٧٦] ، وابرز من ضعفه الامام مالك بن انس (ت، ٢٧٩) الذي يسيء الرأي في ابن اسحاق ، وقال عنه : « محمد بن اسحاق كذاب[٢٧٧] » ، و« دجال من الدجاجلة[٢٧٨] »، وقال ايضا : « نحن نفيناه عن المدينة[٢٧٩] »، اما مكمن الخلاف بينهما فيروى ان محمد ابن اسحاق، وابن ابي ذئب ، وعبدالعزيز الماجشون ، وابن ابي حاتم ، كانوا يتكلمون في مالك بن انس ، وكان اشدهم فيه كلاما محمد بن اسحاق الذي كان يقول : « ائتوني ببعض كتبه حتى ابين عيوبه ، انا بيطار كتبه[٢٨٠] » وعندما سأل ابن ادريس مالك بن انس ـ وذكر المغازي ـ قال ابن اسحاق انا بيطارها ، فقال مالك انا بيطارها ؟ نحن نفيناه عن المدينة[٢٨١] » ، وقد ناقش القدماء قضية الخلاف بين مالك بن انس ، وابن اسحاق فقال علي بن المديني (ت، ٢٦١) ولما سئل عن كلام مالك فيه قال : « مالك لم يجالسه ولم يعرفه ، ثم قال : ابن اسحاق اي شيء حدث بالمدينة[٢٨٢] » ، ولما سأل عن حديث ابن اسحاق ، قال : صحيح[٢٨٣] »، وقال ابوزرعة عبدالرحمن بن عمرو النصري الدمشقي (ت، ٢٨٢)، وقد ذاكرت دحيما قول مالك فيه ، فرأى ان ذلك ليس للحديث ، انما هو لأنه اتهمه بالقدر[٢٨٤] »، وقال البخاري (ت، ٢٩٢): « والذي يذكر عن مالك في ابن اسحاق لايكاد يتبين ، وكان اسماعيل بن ابي اويس من اتبع من رأينا لمالك ، اخرج الي كتب ابن اسحاق عن ابيه في المغازي ، وغيرها فانتخبت منها كثيرا »، قال البخاري : « ولو صح عن مالك تناوله من ابن اسحاق فلربما تكلم الانسان خير في صاحبه بشيء ، ولا يتهمه في الامور كلها ، وقال ابراهيم بن المنذر عن محمد بن فليح ، نهاني مالك عن شيخين من قريش ، وقد اكثر عنهما في الموطأ وهما ممن يحتج بهما ، قال ولم ينجح كثير من الناس من كلام بعض الناس فيهم نحو ما يذكر عن ابراهيم من كلامه في الشعبي ، وكلام الشعبي في عكرمة ، ولم يلتفت اهل العلم في هذا النحو الا ببيان وحجة ولم تسقط عدالتهم الا ببرهان وحجة[٢٨٥] »، اما ابن حبان « ت، ٣٥٤) فانه قال معلقا على رأي مالك بن انس في ابن اسحاق : « واما مالك فان ذلك كان منه مرة واحدة ثم عاد الى ما يحب ، ولم يكن بقدح فيه من اجل الحديث ، انكما كان ينكر تتبعه غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، من اولاد اليهود الذين اسلموا وحفظوا قصة خيبر وغيرها ، وكان مالك لا يروى الرواية الا عن متقن[٢٨٦] »، وقال الخطيب البغدادي (ت، ٤٦٣) : «اما كلام مالك في ابن اسحاق فمشهور غير خاف على احد من اهل العلم بالحديث » . قد ذكره بعض العلماء ان مالكا عابه جماعة من اهل العلم في زمانه باطلاق لسانه في قوم معروفين بالصلاح والديانة والثقة والامانة ، واحتج بما قال محمد بن فليح قال : قال لي مالك بن انس ، هشام بن عروة كذاب، قال : فسألت يحيى بن معين . قال : عسى اراد في الكلام ، فاما في الحديث فهو ثقة ، وهو من الرواة عنه[٢٨٧] » .

وممن ضعفه ايضا النسائي (ت، ٣٠٣[٢٨٨] ، وابن عدي (ت ، ٣٦٥[٢٨٩])، ويحيى بن سعيد الانصاري[٢٩٠] ، وابن النديم (ت ، ٣٧٧[٢٩١]) ، والدار قطني (ت ، ٣٨٥[٢٩٢])، ومحمد بن سلام الجمحي[٢٩٣] ، وقد اكد مصعب الزبيري (ت، ٢٣٦) بأنهم يطعنون عليه بشيء من غير الحديث[٢٩٤] ، وقد رد ابن حجر على

تجريح سليمان التيمي ، ويحيى القطان، ووهيب بن خالد لمحمد بن اسحاق بقوله : « فاما وهيب والقطان فقلدا فيه هشام بن عروة ومالكا ، واما سليمان التيمي فلم يتبين لي لأي شيء تكلم فيه والظاهر انه لامر غير الحديث لان سليمان ليس من اهل الجرح والتعديل[٢٩٥]) .

مؤلفات ابن اسحاق :

كان ابن اسحاق من بين المؤرخين الذين صنفوا في التاريخ والسير ، وابرز مؤلفاته :

١ ـ السيرة النبوية المشرفة[٢٩٦] .

٢ ـ المبتدأ[٢٩٧] :

روى الخطيب البغدادي ان ابن اسحاق دخل على المنصور وبين يديه ابنه المهدي ، وطلب منه ان يصنف له كتابا فقال له : « اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا ، فذهب فصنف له هذا الكتاب فقال له : لقد طولته يا ابن اسحاق اذهب فاختصره ، فذهب فاختصره فهو هذا الكتاب المختصر والقى الكتاب في خزانة امير المؤمنين » وقال ابوالهيثم : «صنف محمد بن اسحاق هذا الكتاب في القراطيس ثم صير القراطيس لسلمة ـ يعني ابن الفضل ـ فكانت تفضل رواية سلمة على رواية غيره لحال تلك القراطيس[٢٩٨] » . وذكر الفاسي بأنه توجد قطعة من ذكر اول الخلق في مكتبة فيينا بالنمسا نشرتها نابية عبود في كتابها نصوص على البردى[٢٩٩] .

٣ ـ المغازي[٣٠٠] :

كتبها لابي جعفر بالحيرة[٣٠١] ، وذكر المرزباني بأنه اول من جمع مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وألفها[٣٠٢] ، وقال الامام الشافعي : « من اراد ان يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحاق[٣٠٣] » . وذكر الخطيب البغدادي قائلا : «روي ان ابن اسحاق كان يدفع الى شعراء وقته اخبار المغازي ، ويسألهم ان يقولوا فيها الاشعار ليلحقها بها[٤٠٤] » .

لقد قام الاستاذ محمد حميدالله بتحقيق سيرة ابن اسحاق المسماة بكتاب « المبتدأ والمبعث والمغازي » حيث اورده تحت هذا العنوان[٣٠٥] .

تاريخ الخلفاء[٣٠٦] :

ذكر الفاسي بانه توجد منه نسخة في مكتبة فيينا بالنمسا ، فيها ذكر مقتل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) والشورى بعده[٣٠٧] .

٥ ـ وينسب اليه حديث « الاسراء والمعراج » وترجع مادته الى عبدالله بن عباس[٣٠٨] ، وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة طلعت مجموع رقم ٢٩٣ ورقة ٣٨ ـ ٦٥ ، وتاريخ نسخها ١٣٠٩هـ[٣٠٩] .

٦ ـ وهناك مخطوطة لمؤلف مجهول بعنوان: « اخبار صفين » في اصح الرواية واتمها رواية محمد بن اسحاق ، وعمر بن سعيد توجد في برلين تحت رقم (٢٠٤٠[٣١٠]) .

٧ ـ الاحاديث النبوية :

روى محمد بن اسحاق العديد من الاحاديث النبوية ، حيث قال البخاري (ت ، ٢٥٦) : « كان ينبغي ان يكون له الف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد[٣١١] »، وكان عند ابراهيم بن سعد عن ابن اسحاق نحو من سبعة عشر الف حديث في الاحكام سوى المغازي ، وابراهيم بن سعد من اكثر اهل المدينة حديثا في زمانه[٣١٢] .

٨ ـ «حرب البسوس بين بكر وتغلب ابني وائل بن قاسط » ، وتوجد منه نسخة في مكتبة مسكاة ٩/ ٧٧٦[٣١٣] .

٩ ـ كتاب « اخبار كليب وجساس » توجد منه نسخة في مكتبة آل السيد عيسى العطاري ببغداد[٣١٤] .

١٠ ـ كتاب « غزوة مدينة تكريت من قبل الامام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) وهي برواية محمد بن اسحاق ، وتوجد منه نسخة في مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي في جامعة ام القرى بمكة المكرمة .

اضافة الى ذلك فان هناك اعداد كبيرة جدا من الروايات التي اوردها محمد بن اسحاق ، تجدها في كتب التاريخ ، والانساب ، والفتوح وفي كتب الرجال . اضافة الى عدد كبير جدا من الرواة الذين رووا الاخبار والروايات التاريخية التي كان ابن اسحاق مصدرا لها .

وفاة ابن اسحاق :

اختلفت الآراء حول تحديد تاريخ وفاة ابن اسحاق ، فهناك ممن يرى انها كانت في سنة ١٥٠هـ ، كما ذهب الى ذلك ابوجعفر عمر بن علي ، وابراهيم بن محمد بن عرفة الازدي ، وابن الهيثم بن عدي[٣١٥] ، والذهبي[٣١٦] ، وهناك روايات تشير الى وفاته سنة ١٥١هـ ، كما ذهب الى ذلك احمد بن خالد الوهبي ، ويعقوب ، والهيثم بن عدى ، والبخاري والذهبي[٣١٨] ، والتي رجحها الذهبي بقوله : « وفيها على الصحيح[٣١٩] » ، وانفرد علي بن المديني ، وزكريا بن يحيى الساجي برأي يبين انها كانت سنة ١٥٢[٣٢٠] ، الا انه لم يتابعهما عليهما احد . وكانت وفاته ببغداد ، حيث دفن في مقابر الخيزران[٣٢١]، في الجانب الشرقي منها[٣٢٢] .

الهوامش

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٧/ ق٢/نشرهاد . احسان عباس (بيروت ، ١٩٦٨) ٦٧ .
(٢) يحيى بن معين ، التاريخ ، تحقيق د. احمد نور سيف ، ج (القاهرة) ١٩٧٩) ٥٠٣ ـ ٥٠٥.
(٣) خليفة بن خياط ، الطبقات ، تحقيق د. اكرم العمري (النجف ، ١٩٦٧) ٣٢٧ .
(٤) البخاري ، التاريخ الكبير ، ج١/ق١ (حيدر اباد الدكن ، ١٣٥٨ ـ ١٣٦٢هـ) ٤٠ .
(٥) الجوزجاني ، مخطوطة الشجرة في احوال الرجال ، نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم (٢٤٩) حديث ورقة ١٤ب .
(٦) مسلم بن الحجاج ، الكنى والالقاب ، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم (١) ضمن مجموعة ورقة ٦ ب .
(٧) ابن قتيبة ، المعارف ، تحقيق ثروة عكاشة ، (القاهرة ١٩٦٣) ٤٩١ ـ ٤٩٢.
(٨) البسوي ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق د. اكرم العمري، ج ٢ (بغداد ، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) ٢٧ ـ ٢٨ .
(٩) البرذعي ، مخطوطة الضعفاء والكذابون والمتروكون من اصحاب الحديث ، نسخة معهد المخطوطات العربية ، رقم (٧١٩) تاريخ ، م٢ / ورقة ٢٤ ب ـ ٢٥ أ .
(١٠) ابن ابي خثيمة ، مخطوطة التاريخ الكبير ، نسخة مكتبة القرويين ، رقم ٧٧٨ ورقة ١٣٨أ .
(١١) النسائي ، الضعفاء والمتروكين ، تحقيق محمود ابراهيم زايد ، (حلب، ١٣٩٦هـ) ٩١ .
(١٢) العقيلي ، مخطوطة الضعفاء ، نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق ، تحت رقم (٣٦٢ حديث) ورقة ٢٧٠ ـ ٢٧١ .
(١٣) ابن ابي حاتم الرازي ، الجرح والتعديل، ج ٣ / ق ٢ (حيدر اباد، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦) ١٩١ ـ ١٩٢ .
(١٤) ابن عدي ، مخطوطة الكامل في ضعفاء الرجال نسخة احمد الثالث باستنبول ، رقم (٢٩٤٣٤) ورقة ٣٤٢ أ ـ ٣٤٤ ب .
(١٥) ابن النديم ، الفهرست ، (طهران ، ١٩٧١) ١٤٢ .
(١٦) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، تحقيق مرغوليوث واخرون ، ج ٦ (دمشق، ١٩٣٠) ١٣٥ .
(١٧) ابن شاهين ، مخطوطة اسماء الثقات ، نسخة دار الكتب المصرية المصورة عن الاصل في مكتبة ، جامع صنعاء ، رقم ١٢ مصطلح ، ورقة ٦٣ أ ـ ب .
(١٨) الطوسي ، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي ، صححه حسن المصطفوى ، (اسفندلا، ١٣٢٨هـ) ٣٩٠ .
(١٩) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ،
(٢٠) ابن الجوزي ، مخطوطة اسماء الضعفاء والمتروكين ، نسخة معهد احياء المخطوطات العربية ، رقم الفيلم (٣١٩٤) ورقة ١٤٠ ب .
(٢١) ياقوت الحموى ، الارشاد ، باعتناء د. س. مرجليوث (القاهرة ١٩٢٥) ٣٩٩ ـ ٤٠١ .
(٢٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، (بيروت ١٩٦٥) ٥٩٤ .
(٢٣) المزى ، تهذيب الكمال في اسماء الرجال ، مخطوطة مكتبة احمد الثالث ١٦ / ورقة ١٢٨أ / ١٣٤أ .
(٢٤) الطيبي ، المشكاة ، نسخة دار الكتب الظاهرية ، رقم ٦١٦٤ ، ورقة ٧٣ أ ـ ب .
(٢٥) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، نسخة الدكتور بشار عواد معروف ملفقة من عدة نسخ ٦/ورقة ١٥٨ (٢٧٥ ـ ٢٧٨) .

(٢٦) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، تحقيق عبدالرحمن المعلمي، ج١، (حيدر اباد ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨) ١٧٣ .
(٢٧) الذهبي ، دول الاسلام ج ١ ، (حيدر اباد، ١٣٣٧) ٧٤ .
(٢٨) الذهبي ، ديوان الضعفاء والمتروكين ، نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق ، ضمن مجموع رقم ٣٦٩ حديث ومجموع رقم ٧٥٣٩ عام ورقة ٢٦٥ .
(٢٩) الذهبي ، العبر في خبر من عبر ، ج ١ ، (الكويت ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩) ٢١٦ .
(٣٠) الذهبي ، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، ج ٣ (القاهرة ، ١٩٧٢) ١٩ .
(٣١) الذهبي ، المغني في الضعفاء ، تحقيق د. نور الدين العتر ج ٢ (حلب، ١٩٧١) ٥٥٢ ـ ٥٥٣ .
(٣٢) الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي محمد البيجاوي ج (القاهرة ، ١٩٦٣) .
(٣٣) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق رمضان عبدالتواب ، ج ٢ (عمان ، ١٩٧٩) ١٨٨ـ ١٨٩ .
(٣٤) ابن قنفذ ، الدفيات ، تحقيق عادل نويهض (بيروت، ١٩٧١) ١٢٨ .
(٣٥) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٩ (حيدر اباد ، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧) ٣٨ ـ ٤٦ .
(٣٦) ابن حجر ، لسان الميزان، ج ٧ (حيدر اباد ، ١٣٢٩) ٣٥١ ـ ٣٥٢ .
(٣٧) السيوطي ، طبقات الحفاظ ، تحقيق محمد علي محمد عمر (القاهرة، ١٩٧٢) ٧٥ .
(٣٨) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١ (القاهرة ، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ) ٢٣٠ .
(٣٩) د. عبدالعزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، (بيروت ١٩٦٠)
(٤٠) الدكتور شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج ١ (بيروت ، ١٩٧٨) .
(٤١) محمد الفاسي ، مقدمة كتاب سيرة ابن أسحاق ، تحقيق محمد حمي الله (الرباط ، ١٩٧٩)
(٤٢) د. فؤاد شزكين ، تاريخ التراث ، ترجمة د. فهمي ابوالفضل (القاهرة ، ١٩٧١ ـ ١٩٧٧) .
(٤٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي .
(٤٤) ENCYCLOPEADIA OF ISLAM, NEW ED, VOL: I, P.P 88 — 90
(٤٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١/٢١٦
(٤٦) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٣/٤٦٨، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، ١/٢١٦، ٢٣٣ .
(٤٧) راجع ، البكري ، معجم ما استعجم،
(٤٨) نفسه ،
(٤٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ٧/٢/٢، الذهبي، ميزان ٣/٤٦٨، الخطيب البغدادي ١/٢٣٣، ٢١٦ .
(٥٠) ابن قتيبة ، المعارف ، ١/٢١٦ .
(٥١) الخطيب البغدادي، تاريخ ١/٢١٦ .
(٥٢) الخطيب البغدادي ، ١/٢١٦ .
(٥٣) نفسه ، ١/٢١٦ .
(٥٤) نفسه ، ١/٢١٧ .
(٥٥) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ج ١ (بيروت، ١٩٧٥) ٦٢ .
(٥٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/٣٨ .
(٥٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٢/٢٨٩ .
(٥٨) ابن حجر ، التهذيب ٩/٣٨ ، الخطيب البغدادي، تاريخ ١/ ٢١٤ .
(٥٩) الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ١/٢١٨ .
(٦٠) نفسه ، ١/٢١٨ .
(٦١) نفسه ، ١/٢١٧ .
(٦٢) نفسه ، ١/٢١٤ .
(٦٣) هو سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب القرشي العددي المدني (ت، ١٠٦) وهو احد الفقهاء السبعة وكان ثبتا عابدا فاضلا، (ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/٢٨٠) .
(٦٤) راجع الطبري ، تاريخ ، تحقيق ابوالفضل ، ج ٧ ، (القاهرة ١٩٧٩) ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٢، ٤٥، ٥٣، ٦٦، ٦٩، ٨٧، ٨٩، ٦٢ .
(٦٥) الذهبي ، ميزان، ٢/٤٧٢ .
(٦٦) الطبري ، تاريخ ٧/١٥٣
(٦٧) الخطيب البغدادي، تاريخ ١/٢٢٠ .
(٦٨) الاستاذ محمد الفاسي ، مقدمة سيرة ابن اسحاق (الرباط ، ١٩٧٩) صفحة كا .
(٦٩) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٢/٣٦٣ .

(٧٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٩/ ٤٤ .
(٧١) الري : مدينة مشهورة ، وهي قصبة بلاد الجبال على طريق السابلة (ابن عبدالحق البغدادي ، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، ج ٢ (بيروت، ١٩٥٤) ٦٥١ .
(٧٢) الخطيب البغدادي تاريخ ١/ ٢٢٦ .
(٧٣) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/ ٦٢ .
(٧٤) ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٩/ ٣٨ .
(٧٥) نفسه ، ١٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٧٦) نفسه ، ٩/ ٣٨ .
(٧٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/ ٢٨٩ .
(٧٨) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٨ .
(٧٩) ابن حجر ، التقريب، ١٢/ ٣٩ .
(٨٠) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/ ٣٩ .
(٨١) نفسه ، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب، ٢/ ١٤٦ .
(٨٢) تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب، ٢/ ٣٥٠ .
(٨٣) تهذيب ، ٩/ ٤٠ ، تقريب التهذيب، ١/ ٣١ .
(٨٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، ١/ ٢١٨ .
(٨٥) تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩، ٤٠، تقريب التهذيب، ٢/ ١٢٠ .
(٨٦) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، ١/ ٢١٤، ٢١٨ .
(٨٧) تقريب التهذيب، ٢/ ١٩٢ .
(٨٨) تاريخ بغداد، ١/ ٢١٤.
(٨٩) نفسه ، ١/ ٢١٨ ، تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب ٢/ ١٥٠ .
(٩٠) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٩ ، تقريب التهذيب، ٢/ ٢٢ .
(٩١) الخطيب البغدادي، تاريخ ١/ ٢١٨، الذهبي، ميزان، ٣/ ٤٦٨ .
(٩٢) تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب ، ٢/ ٢٩ .
(٩٣) تهذيب التهذيب، ١٠/ ٢٩٠، ٢٩١ .

(٩٤) تاريخ بغداد ، ١/ ٢١٨ .
(٩٥) تهذيب التهذيب، ١٠/ ٢٩٠ .
(٩٦) نفسه ، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب، ١/ ٣٠٧ ، الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٣/ ٤٦٨ .
(٩٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، ١/ ٢١٤ ، ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/ ٢٩٦ .
(٩٨) الذهبي ، ميزان الاعتدال، ٣/ ٤٦٨ .
(٩٩) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ١/ ٥٠١، الذهبي ، ميزان ، ٣/ ٤٦٨ .
(١٠٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب ، ١/ ٢٩٧، الذهبي ، ميزان ، ٣/ ٤٦٨ .
(١٠١) ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٩/ ٣٨ .
(١٠٢) ابن حجر ، تقريب التهذيب، ٢٢/ ١٤٠ .
(١٠٣) نفسه ، ١/ ٣٩٧، التهذيب، ٩/ ٣٩
(١٠٤) التهذيب ، ٩/ ٣٩ ، التقريب ، ٢/ ١٩٦ .
(١٠٥) التهذيب، ٩/ ٣٩ .
(١٠٦) التقريب ، ١/ ٣٨٥ .
(١٠٧) نفسه ، ٢/ ٢١٦ ، التهذيب ، ٩/ ٣٩ .
(١٠٨) تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩، تقريب التهذيب، ٢/ ٢٠٧ .
(١٠٩) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ١/ ٢١٤ .
(١١٠) تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩ ، تقريب التهذيب ، ١/ ٢٨٦ .
(١١١) تهذيب التهذيب ، ٩/ ٣٩ ، التقريب ، ١/ ٣٥٨ .
(١١٢) التهذيب ، ٩/ ٣٩ ، التقريب، ٢/ ٢٧٦ .
(١١٣) التهذيب ، ٩/ ٣٩ ، التقريب، ٢/ ٢٦٣، الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٣/ ٤٧٢ .
(١١٤) التهذيب ، ٩/ ٣٩ ، التقريب ، ١/ ٢٧٩ .

(١١٥) تهذيب التهذيب ، ٩/٤٣.
(١ ب) تهذيب ، ٩/٤٣ .
(١١٦) التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ١/٤١٣ .
(١١٧) التهذيب ، ٩/٣٩، التقريب ، ٢/٢١٠ .
(١١٨) التهذيب ، ٩/٣٩، التقريب ، ٢/٣٦٤ .
(١١٩) التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ٢/٩٣ .

(١٢٠) التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ١/٤٠٥ .
(١٢١) التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ١/٢٠٢ .
(١٢٢) التقريب ، ٢/٣٤٨ .
(١٢٣) الخطيب البغدادي، تاريخ، ١/٢١٥، ابن حجر ، تهذيب التهذيب، ٩/٣٩ .
(١٢٤) التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ٢/٣١٩ .
(١٢٥) التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ٢/٧٥ .
(١٢٦) التقريب ، ٢/٤٣٠ .
(١٢٧) الخطيب البغدادي، تاريخ ١/٢١٥ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٣٩ .

(١٢٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٤، الذهبي ، ميزان، ٣/٤٦٨ .
(١٢٩) نفسه ، ١/٢١٨ .
(١٣٠) تهذيب التهذيب ، ٩/٣٩ ، التقريب ، ١/٤٧٣ .
(١٣١) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/٢١٨ .
(١٣٢) التهذيب ، ٩/٣٩، التقريب ، ١/٣٩٦ .
(١٣٣) تقريب التهذيب ، ٢/٣٥٤ .
(١٣٤) تهذيب التهذيب ، ٩/٣٨ .

(١٣٥) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/٤٣٩ .
(١٣٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٣٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/١٩٧ .
(١٣٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ١/٢١٥ .
(١٣٩) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ ، الذهبي ، ميزان الاعتدال، ٣/٤٦٨ .
(١٤٠) ابن حجر ، التقريب ، ١/١٢٧ .
(١٤١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ١/٢١٥ ، ابن حجر ، تهذيب، ٩/٣٩ .

(١٤٢) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/١٩٧ .
(١٤٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٥، الذهبي ، ميزان ، ٣/٤٦٨ ، ابن حجر ، التهذيب، ٩/٣٩ .
(١٤٤) ابن حجر ، التقريب ، ٢/٣٦٤ .
(١٤٥) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٤٦) ابن حجر ، التقريب ، ١/٤٦٥ .
(١٤٧) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .

(١٤٨) ابن حجر ، التقريب ، ١/٢٦٥ .
(١٤٩) ابن حجر ، التهذيب، ٩/٣٩ .
(١٥٠) ابن حجر ، التقريب ، ١/٣١١ .
(١٥١) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٥.
(١٥٢) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/٣٥١ .
(١٥٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٥ .

(١٥٤) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/٢٦٨ .
(١٥٥) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ ، الذهبي ، ميزان، ٣/٤٦٨ .
(١٥٦) ابن حجر ، التقريب ، ١/٥٣٠ .
(١٥٧) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٥٨) ابن حجر ، التقريب ، ١/١٢٧ .
(١٥٩) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٦٠) ابن حجر ، التقريب ، ١/٣٢٣ .
(١٦١) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .

(١٦٢) ابن حجر ، التقريب ، ١/٤٠١ .
(١٦٣) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٦٤) ابن حجر ، التقريب ، ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(١٦٥) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٦٦) ابن حجر ، التقريب، ١/٣١٢ .
(١٦٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/٢١٥، ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٦٨) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/١٨٨ .
(١٦٩) ابن حجر ، التهذيب ، ٢/١٨٨ ، ٩/٣٩ .
(١٧٠) ابن حجر، التقريب ، ٢/٣٨٤ .
(١٧١) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٧٢) ابن حجر ، التقريب ، ١/٣٥١ .
(١٧٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٥، ابن حجر، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٧٤) ابن حجر ، التقريب ، ٢/٢٣١ .
(١٧٥) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٧٦) ابن حجر ، التقريب ، ٢/٣٢٠ .
(١٧٧) ابن حجر ، التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٧٨) ابن حجر ، التقريب ، ٢/٣٧٢ .
(١٧٩) ابن حجر ، التهذيب، ٩/٣٩ ، الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢٢٦ .
(١٨٠) ابن حجر ، التقريب ، ١/٣٥ .
(١٨١) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٥ ، الذهبي ، ميزان ، ٣/٤٦٨، ابن حجر التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٨٢) ابن حجر ، التقريب ، ١/١٤ .
(١٨٣) ابن حجر ، التهذيب ، ١/٢٦ ـ ٢٧ ، ٩/٧٩ .
(١٨٤) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/١٦٦ .
(١٨٥) نفسه ، ٢/٣٥٩ .
(١٨٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٨٧) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/٣١٨ .
(١٨٨) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/٣٩ ، الذهبي ، ميزان ، ٣/٤٦٨ .
(١٨٩) الخطيب ، ١/٢٢١ .
(١٩٠) نفسه ، ٩/٣٩ .
(١٩١) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/٢١٥ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٣٩ .
(١٩٢) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ١/٥٢٠ .
(١٩٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٥ .
(١٩٤) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٣/٤٦٨ .
(١٩٥) الخطيب ، ١/٢٢٤ .
(١٩٦) ابن سعد ، الطبقات، م٧/ ق٢/٦٧ ، ابن حجر، التهذيب ، ٩/٤٤ ، المزي ، تهذيب الكمال ١٦/ورقة ٣٣ب .
(١٩٧) يحيى بن معين ، تاريخ، ٢/٥٠٤، ابن الجوزي، الضعفاء ورقة ١٤١ أ ، المزي ، تهذيب ، ١٦/ورقة ٢٩ ب ـ ٣٠ أ ، الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٦ ، التذكرة ، ١/١٧٣، ديوان الضعفاء، ورقة ٢٦٥ ، المغني ، ٢/٥٥٢ ، الخطيب ١/٢١٨، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٣٩ ، ٤٤، ٤٥، الصفدي ، الوافي الوفيات ، ٢/١٨٨ ـ ١٨٩ ، السيوطي ، طبقة الحفاظ ، ٧٥ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ١/٢٣٠ .
(١٩٨) ابن عدي ، الكامل ، ورقة ٣٤٢ ب ، ابن ابي حاتم ، الجرح والتعديل، ج٣ / ق٢/١٩٢، الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢٣١، ٢٣٢، الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٦ ، ميزان الاعتدال، ٣/٤٦٩، ٤٧٢ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/٤٤، وفي رواية عنه قال : « كان يرمي بالقدر (تاريخه ٢/٥٠٤)، وفي رواية لا بأس به (المزي ، ١٦/ورقة ١٣٣، الذهبي، تاريخ ، ٦/٢٧٦، ابن حجر، التهذيب، ٩/٤٤ .
(١٩٩) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/٢٣٢، ابن حجر ، تهذيب، ٩/٤٤ .
(٢٠٠) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٣٩، ٤٤ .
(٢٠١) نفسه ، ٩/٤٥ وقال : « ثقة لم يضعفه عند الا روايته عن اهل الكتاب » .

(٢٠٢) الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٦ ، التذكر، ١/١٧٣، المغني، ٢/٥٥٣ ، ابن حجر ، تهذيب، ٩/٤٠ ، ٤١، ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢٠٣) الخطيب البغدادي ، ١/٢١٩، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٠ .
(٢٠٤) الخطيب البغدادي، ١/٢١٩، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤١، ٤٣ .
(٢٠٥) الذهبي ، تاريخ، ٦/٢٧٦، الميزان ، ٣/٤٧٥ ، الخطيب البغدادي ، ١/٢١٣، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٤ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٢/١٨٨، المزي ، تهذيب ، ١٦/ورقة ١٣٣ أ .
(٢٠٦) ابن حجر ، تهذيب ٩/٤٦ .

(٢٠٧) نفسه ، ٩/٤٦ .
(٢٠٨) الذهبي ، تاريخ الاسلام، ٦/٢٧٨ (وذكر انه كثير التدليس... » .
(٢٠٩) ابن العماد الحنبلي ، شذرات ، ١/٢٣٠ .
(٢١٠) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٦ .
(٢١١) الذهبي ، ديوان الضعفاء، ورقة ٢٦٥ .
(٢١٢) يحيى بن معين، تاريخ ٢/٥٠٤، ابن ابي حاتم الرازي ، الجرح والتعديل ، ج٣/ ق٢/١٩١ ، البسوي ، المعرفة والتاريخ، ٢/٢٧ ـ ٢٨ ، المزي ، تهذيب الكمال ، ١٦/ورقة ١٣٠ ـ ١٣١أ ـ ١٣٢أ ، الذهبي تاريخ، ٦/٢٧٥ ابن حجر ، تهذيب، ٩/٤٠ .
(٢١٣) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤١ .

(٢١٤) نفسه، ٤٠ .
(٢١٥) يحيى بن معين ، تاريخ ٢/٥٠٤ ، ابن ابي حاتم ج٣/ ق٢/١٩١ ، البسوي ، المعرفة والتاريخ، ٢/٢٧ ـ ٢٨ المزي ، تهذيب الكمال ، ١٦/ورقة ١٣٠ ـ ١٣١ أ ، ١٣٢أ ، الذهبي ، تاريخ، ٦/٢٧٥، الميزان ٣/٤٧٢، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٠ .
(٢١٦) ابن شاهين ، تاريخ اسماء الثقات ، ورقة ٦٣ ب ، الذهبي ، ميزان، ٣/٤٧٢ .
(٢١٧) الخطيب البغدادي ، ١/٢١٩ ، ٢٢٠، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٠ .
(٢١٨) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٠ .
(٢١٩) نفسه ، ٩/٤١ .

(٢٢٠) نفسه ، ٩/٤٠ .
(٢٢١) البخاري ، التاريخ الكبير ، ج١/ق١/٤٠ ، الخطيب البغدادي، ١/٢٢٨ ، المزي ، تهذيب ، ١٦/ورقة ٣١ب ، ٣٣ ب ، الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٥ ، تذكرة الحفاظ ، ١/١٧٢، دول الاسلام ، ١/٧٤ ، العبر ، ١/٢١٦، الكاشف ٢/٥٥٣ ، ميزان الاعتدال، ٣/٤٧٣ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٢، ٤٣، ٤٤، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٢/٨٩ ابن العماد الحنبلي ، شذرات ، ١/٢٣٠ .
(٢٢٢) ابن ابي حاتم ، الجرح والتعديل، ج٣/ق٢/١٩٢، الخطيب البغدادي، ابن الجوزي ١/٢٢٨، ابن الجوزي الضعفاء ورقة ١٤١ أ، الذهبي، ديوان الضعفاء ورقة ٢٦٥ ، المغني ٢/٥٥٢ .
(٢٢٣) ابن ابي حاتم الحرج والتعديل ج ٣/ق ٢/٩٢، الخطيب البغدادي تاريخ ، ١/٢٢٧ ، ٢٢٨، ٢٣١، المزي ، تهذيب الكمال ، ١٦ ورقة ٣٠ب ، ١٣١ ، الذهبي، تاريخ، ٦/٢٧٥، التذكرة ، ١/١٧٣، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٠ .
(٢٢٤) المزي ، تهذيب الكمال ، ١٦/ورقة ١٣ أ ، الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٦، ابن حجر ، تهذيب، ٩/٤٠ .
(٢٢٥) واشاد بمغازيه الشافعي ، « المزى ، ١٦/ورقة ١٣٠أ ، السيوطي ، طبقة الحفاظ ، ٧٦ ، وانظر الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/٢٢٧ .
(٢٢٦) الذهبي ، تاريخ، ٦/٢٧٦ ، تذكرة الحفاظ ، ١/١٧٣ .
(٢٢٧) الخطيب البغدادي، ١/٢٢٣ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤١ .
(٢٢٨) وقال البخاري : « لم يكن احد يتهم ابن اسحاق ، التاريخ الكبير ، ج١/ق١/٤٠ »
(٢٢٩) الجوزجاني ، الشجرة في احوال الرجال ، ورقة ١٤ب ، وقال : « الناس يشتهون حديثه ، المزى ، تهذيب، ١٦/ورقة ٣١ ب ـ ١٣٢ ، الذهبي ، تاريخ، ٦/٢٧٧، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٢ .
(٣٠٠) وقال ابوحاتم : « يكتب حديثه ، انظر ابن حجر ، « التهذيب ، ٩/٤٦ » .
(٢٣١) البرذعي ، الضعفاء، ٢/ورقة ٢٤ ب ، الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ١/٢٢٤ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٢ .

(٢٣٢) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٦ .
(٢٣٣) نفسه ، ٩/٤٠ .
(٢٣٤) ابن ابي حاتم الرازي، الجرح والتعديل ، ج٣/ق٢/١٩١ ، البسوي ، المعرفة والتاريخ ، ٢/٢٨.
(٢٣٥) قال الذهبي ، صالح الحديث (تاريخه، ٦/٢٧٦) وتذكرة الحفاظ ، ١/١٧٣ .

(٢٣٦) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ١/ ٢٣٠.
(٢٣٧) الطيبي ، مشكاة الطيبي ، ورقة ١٧٣أ ـ ب .
(٢٣٨) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢٣٩) ابن ابي حاتم الرازي ، الجرح والتعديل ، ج٣/ق٢/ ١٩٢ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٦، وانه اثنى عليه (المزي ، تهذيب الكمال ١٦/ورقة ٣١ب) .
(٢٤٠) الذهبي ، العبر ، ١/ ٢١٦، الكاشف ، ٣/ ١٩ .
(٢٤١) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/ ٢٢٠ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٠ .
(٢٤٢) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٠ .
(٢٤٣) يحيى بن معين ، تاريخ ٢/ ٥٠٥، العقيلي، الضعفاء، ورقة/ ٣٧، ابن ابي حاتم ، الجرح والتعديل ، ج٣/ق٢/ ١٩٣.
(٢٤٤) الذهبي ، تاريخ، ٦/ ٢٧٦٧ ، التذكرة ، ١/ ١٧٣، ديوان الضعفاء ، ورقة ٢٦٥، العبر ، ١/ ٢١٦ ، المغني ، ٢/ ٥٥٢، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤١ ، ٤٣ ـ ٤٤ ، المزي ، تهذيب ١٦/ورقة ٣٠ ب ، السيوطي ، طبقة الحفاظ ، ٧٥، ابن العماد الحنبلي ، شذرات ، ٢/ ٢٣٠ .
(٢٤٥) الذهبي ، المغني، ٢/ ٥٥٢، الصفدي ، الوافي ، ٢/ ١٨٩ ، المزى تهذيب الكمال ، ١٦/ورقة ٣٢ ب ، ابن حجر تهذيب التهذيب ، ٩/ ٤٤ .
(٢٤٦) العقيلي ، الضعفاء ، ورقة ٣٧١ .
(٢٤٧) ابن حجر، تهذيب ، ٩/ ٤٤ .
(٢٤٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/ ٢٢٠ .
(٢٤٩) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٤ ـ ٤٥ .
(٢٥٠) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/ ٢١٥ .
(٢٥١) المزى ، تهذيب ، ١٦/ورقة ١٣٤أ .
(٢٥٢) الذهبي ، ميزان ، ٣/ ٤٧٥ .
(٢٥٣) نفسه ، ٣/ ٤٦٨، ٤٦٩ .
(٢٥٤) نفسه ، ٣/ ٤٧٠ .
(٢٥٥) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، ١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ .
(٢٥٦) العقيلي ، الضعفاء ، ورقة ٣٧٠، ابن ابي حاتم الرازي، ج٣/ق٢/ ١٩٣، ابن الجوزي ، الضعفاء، ورقة ١٤١أ ، الذهبي ، تاريخ ٦/ ٢٧٦ .
(٢٥٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ ١/ ٢٢٢ .
(٢٥٨) ابن النديم ، الفهرست، ١٠٥، الذهبي ، ميزان ٣/ ٤٧٠ .
(٢٥٩) الخطيب البغدادي ، تاريخ ١/ ٢٢٢ .
(٢٦٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩/ ٤٢ ـ ٤٣ ، الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/ ٢٣٠، الذهبي ، ميزان ، ٣/ ٤٧٥ .
(٢٦١) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٣ .
(٢٦٢) نفسه ، ٩/ ٤٥ .
(٢٦٣) نفسه ، ٩/ ٤٠ ـ ٤١ ، الخطيب البغدادي ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
(٢٦٤) الخطيب البغدادي، ١/ ٢٢٤ .
(٢٦٥) الذهبي ، ميزان، ٣/ ٤٧٠.
(٢٦٦) نفسه ، ٣/ ٤٧١، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٦ .
(٢٦٧) نفسه ، ٣/ ٤٧١ .
(٢٦٨) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٥ .
(٢٦٩) العقيلي ، الضعفاء ، ورقة ٣٧١ .
(٢٧٠) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٥، الذهبي ، ديوان الضعفاء، ورقة ٢٦٥ .
(٢٧١) ابن ابي حاتم ، الجرح والتعديل ، ج٣/ق٢/ ١٩٣، الذهبي ، ميزان ٣/ ٤٦٩ .
(٢٧٢) ابن الجوزي ، الضعفاء ورقة ١٤٠ ب ، العقيلي ، الضعفاء، ورقة ٣٧٠، ابن عدى، الكامل ، ورقة ٣٤٢أ ، الذهبي ، ديوان للضعفاء، ورقة ٢٦٥، ابن حجر ، التهذيب ٩/ ٤٥ .

(٢٧٣) الخطيب البغدادي، ١/٢٣٥ .
(٢٧٤) نفسه ، ١/٢٢٩ ، ٢٣٠، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٣ .
(٢٧٥) ابن الجوزي ، الضعفاء، ورقة ١٤٠ب ، ابن حجر، تهذيب ، ٩/٤٥، الذهبي ، ميزان ، ٣/٤٦٩ .
(٢٧٦) ابن قتيبة ، المعارف ، ٤٩٢ .

(٢٧٧) الخطيب البغدادي ، ١/٢٢٣ .
(٢٧٨) العقيلي ، الضعفاء ، ورقة ٣٧٠ ، البرذعي، الضعفاء ٢/ورقة ١٢٥ أ ، ابن عدي، الكامل ، ورقة ٣٤٢أ، ابن ابي حاتم ، ج٣/ق٢/١٩٣ ، الحموي ، الارشاد، ٦/٤٠٠ ، المزي ، تهذيب ، ١٦/ورقة ٢٣ ، الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ابن حجر ، تهذيب، ٩/٤١، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٢/١٨٩، قال الذهبي : « ... قال فيه بانزعاج وذلك لأنه بلغه انه يقول اعرضوا علي علم مالك، فانا بيطاره ، فغضب مالك (انظر تذكرة الذهبي ، ١/١٧٣، ابن العماد الحنبلي ، الطشذرات ، ١/٢٣٠) .
٢٧٩) الخطيب البغدادي، ١/٢٢٣ .
(٢٨٠) نفسه ، ١/٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢٨١) نفسه ، ١/٢٢٣ .
(٢٨٢) نفسه ، ١/٢٣٠، الذهبي ، ميزان، ٣/٤٧٥ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٣ .
(٢٨٣) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٣ .
(٢٨٤) الخطيب البغدادي ، ١/٢٢٤، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٣ .

(٢٨٥) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤١ .
(٢٨٦) نفسه ، ٩/٤٥ .

(٢٨٧) الخطيب البغدادي ، ١/٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢٨٨) النسائي ، الضعفاء ، ورقة ٩١ ، ابن عدي ، الكامل ، ورقة ٢٤٢ ب ، المزي تهذيب ، ١٦/ورقة ٢٣أ ، الذهبي ، تاريخ، ٦/٢٧٨، تذكرة الحفاظ ، ١/١٧٣، ديوان الضعفاء ، ورقة ٢٦٥، الخطيب البغدادي ، ١/٢٣٢ .
(٢٨٩) العقيلي ، الضعفاء ، ٣٧١ ، الذهبي ، التذكرة ، ١/١٧٣ .
(٢٩٠) الذهبي ، ميزان الاعتدال، ٣/٤٦٩ .
(٢٩١) ابن النديم ، الفهرست ، ١٠٥ ، الحموي ، الارشاد، ٦/٤٠١
(٢٩٢) الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٨، التذكرة، ١/١٧٣، ديوان الضعفاء، ٢٦٥، المغني ، ٣/٥٥٣ .

(٢٩٣) الذهبي ، تاريخ ، ٦/٢٧٨، وقال كان يعتذر من ذلك ويقول لا علم لي بالشعر .
(٢٩٤) الخطيب البغدادي، ١/٢٢٧ ، ابن حجر ، تهذيب ، ٩/٤٢، ٤٣ .
(٢٩٥) تهذيب ، ٩/٤٥ .

(٢٩٦) ذكرها خليفة بن خياط (طبقات) ٣٢٧ ـ ابن النديم ـ الفهرست ١٤٢ ، الاشبيلي ، فهرست ما رواه عن شيخه ٢٣٣، الصفدي ، الوافي بالوفيات، ٢/١٨٩ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ٢/١٠١٢ .
(٢٩٧) ابن النديم ، الفهرست، ١٤٢ ، الحموي ، معجم ، ٦/٤٠١، الصفدي /١٨٩ .

(٢٩٨) روى الخطيب البغدادي عن عمار « بان محمد بن اسحاق دخل على المهدي وبين يديه ابنه فقال له : اتعرف هذا يا ابن اسحاق ؟ قال : نعم هذا ابن امير المؤمنين ، قال اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا .. » واكد الخطيب البغدادي ان ابن اسحاق دخل على المنصور وليس المهدي ، مصححا رواية عمار ، التي يقول عنها : « هكذا قال هذا الراوي دخل ابن اسحاق على المهدي وبين يديه ابنه ونفي ذلك عندي نظر ، ولعله اراد ان يقول دخل على المنصور وبين يديه المهدي ابنه لأن ذلك اشبه بالصواب والله أعلم (تاريخ بغداد ، ١/٢٢١) .
(٢٩٩) الفاسي ، مقدمة كتاب سيرة ابن اسحاق ، تحقيق محمد حميد الله (الرباط ، ١٩٧٩)
(٣٠٠) اثنى عليها الزهري ، البخاري ، التاريخ الكبير ، ج١/ق١/٤٠ ، ابن قتيبة ، المعارف ابن ابي حاتم ، ج٣/ق٢/١٩١ ، ابن النديم ، الفهرست ١٤٢ ، التنوخي ، نشوار المحاضرة ٦/١٣٥ ، الاشبيلي ، فهرسة ما رواه عن شيخه ، ١٠٢، ٢٣٢، الكشي ، اختيار المعرفة الرجال ٥/٣٩٠، الحموي ، معجم ٦/٣٩٩، ٤٠١، ابن الاثير ، الكامل ، ٥/٥٩٤ .
(٣٠١) الحموي ، معجم ، ٦/٣٩٩، المزي ، تهذيب ١٦/٣٣ ب .

(٣٠٢) الحموي ، معجم ، ٦/٢٩٩ ، ابن الاثير ، كامل ٥/٥٩٤، المزي ١٦/٣٣ ب
(٣٠٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ، ١/٢١٩.
(٣٠٤) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٣/٤٧١ .

(٣٠٥) الفاسي ، مقدمة سيرة ابن اسحاق .
(٣٠٦) ابن النديم ، الفهرست، ١٠٥ وقال رواه عنه الاموي ، الحموي ٦/ ٤٠١، الصفدى ٢/ ١٨٩.
(٣٠٧) الفاسي ، مقدمة سيرة ابن اسحاق .
(٣٠٨) سزكين ، تاريخ التراث ، ١/٤٦٣ وقد نشره وعلق عليه عبدالهادي بـراضي ، (معراج الامـام ابن عباس (القاهرة، ١٣٧٥/١٩٥٦) .
(٣٠٩) الفاسي ، المقدمة .
(٣١٠) نفسه، ١/ ٤٦٣ .
(٣١١) ابن حجر ، تهذيب ، ٩/ ٤٣ ، الذهبي ، ميزان ، ٣/ ٤٧٥ ، الخطيب البغدادي، ١/ ٢٧ .
(٣١٢) ابن حجر، تهذيب ، ٩/ ٤١ .
(٣١٣) الفاسي ، المقدمة .
(٣١٤) نفسه .
(٣١٥) الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ١/ ٢٣٢ .
(٣١٦) الذهبي ، ميزان، ٣/ ٤٧٥ .
(٣١٧) الخطيب البغدادي، ١/ ٢٣٣ .
(٣١٨) الذهبي ، العبر في خبر من عبر ، حوادث سنة ١٥١ .
(٣١٩) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ٣/ ٤٧٥ .
(٣٢٠) الخطيب البغدادي ، ١/ ٢٣٣ ، ٢٣٤٥ .
(٣٢١) نفسه ، ١/ ٢٣٣ .
(٣٢٢) نفسه ، ١/ ٢١٥ .

العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

د. محمد كريم ابراهيم
مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة

مقدمة تاريخية :

يمكن القول - دون مبالغة - ان زمام البحر في منطقة الخليج العربي والبحر العربي والمحيط الهندي كان بيد العرب الى القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)[1] ، وكان عرب الجنوب من حضارمة وحميريين وعمانيين هم المسيطرون على التجارة البحرية مع الهند طوال الوقت[2] .

ان اول من مخر عباب المحيط الهندي - في الاعم الارجح - هم عرب جنوب شبه الجزيرة العربية ، وقبل قرون من ظهور الاسلام عمل البحارة العرب وسطاء بين التجار الاوروبيين والآسيويين من الهند وغربي ماليزيا ، ورغم منافسة بعض القوى للعرب مثل الرومان والفرس من بعدهم (من نهاية القرن الخامس الى القرن السابع الميلادي) في محاولة السيطرة على تجارة المحيط الهندي ، الا ان العرب اصبحوا مع غيرهم من المسلمين في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي ، سادة التجارة هناك وانفردوا بها وحدهم بعد ذلك - دون منازع - حتى قدوم البرتغاليين في اواخر القرن التاسع - الخامس عشر الميلادي .

استغل العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية عوامل عديدة ، ليصبحوا حلقة الوصل بين اوروبا والشرق ، فبالاضافة الى موقعهم الجغرافي الاستراتيجي الذي يحسدون عليه ، كانت هنالك عوامل اخرى اسهمت في توجيههم الى ميدان التجارة ، ابرزها : جدب اراضيهم القاحلة ، وعدم استطاعتهم القيام بتطور جذري في التقنية الزراعية ، مما سببا في تقهقر الزراعة ، وهذا ما دفعهم الى التفتيش عن سبل جديدة للمعيشة ، ففي مدن حضرموت كان ازدياد السكان يتناسب تناسبا عكسيا مع ركود بل تدهور الوضع الاقتصادي في المنطقة ، لذا اجبر الحضرمي - من زمن بعيد - على خوض عباب المحيط والتفتيش عن ابواب جديدة للرزق[3] .

ان الهدف من بحثنا هذا ابراز العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال المدة موضوع البحث ، بالتركيز على الطريق التجارية البحرية وأهمية تلك الطريق في استمرار الاتصال والتبادل التجاري بينهما .

كانت السفن العربية التي تسير في المحيط الهندي ، تتبع نظاما يتلاءم وطبيعة الظروف الجوية ، فهي تبحر في مواسم معينة ، اذ تترك الموانىء المصرية على البحر الاحمر في اول تموز ، وتبحر جنوبا الى خليج عدن لتحملها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في الوقت المناسب الى شواطىء الهند في شهر ايلول ، وفي اواخر تشرين الثاني واوائل كانون الاول تهب رياح موسمية جنوبية شرقية ، فتعود بالمراكب العربية الى

موانىء الجنوب العربي ، ومنها تدخل البحر الاحمر مرة اخرى ، لترسو على شواطئه[٤] .

كان البحارة ينطلقون مع الرياح الموسمية الهندية حوالي شهر تموز ، وبرغم انها اكثر خطورة ، لكن السفرة خلال تلك الرياح تكون اكثر اتجاها وتتم في اقرب وقت[٥] ، وكانت السفن العربية التي تسير في المحيط الهندي تقلع في الشتاء من عدن ، وتسير في محاذاة ساحل حضرموت محتمية به ، ثم تلقي بنفسها امام الرياح الموسمية الشمالية الشرقية من منطقة تقارب الشمال والشرق[٦] .

للمراكب التجارية التي تقلع من عدن او تنزل فيها مواسم مشهورة[٧] ، وكانت السفن الشراعية لا تتجه الى عدن الا في مواسم الرياح فقط[٨]، وهذا يفسر لنا اثر الرياح الموسمية على التجارة اذ لا تتمكن المراكب من دخول ميناء عدن ، فتتأخر بعض الوقت عند جزيرة صيرة ، ويضطر اهل عدن الى تقديم القرابين (النشوح) والقائها في البحر ، من اجل تقدم المراكب وسيرها نحو الميناء ودخوله ـ حسب عقيدتهم ـ لكننا نؤكد ان سبب تعطل المراكب يرجع الى اثر الرياح التي تعيق تقدمها ، وبقيت عادة تقديم القرابين سارية المفعول حتى ابطلها بنو زريع (٥٣٢ ـ ٥٦٩هـ / ١١٣٧ ـ ١١٧٣م) ، لأنها تعد من افعال الوثنيين[٩] .

تجارة عدن والهند :

ذكر جواتياين[١٠] ان معظم الاوراق المتعلقة بتجارة الهند تتألف من خطابات اي مراسلات ، ارسل الكثير منها من عدن او من مدينة اخرى في جنوب الجزيرة العربية ، او من احد الموانىء الواقعة على البحر الاحمر ، او ارسل قسم من تلك الخطابات من الهند الى عاصمة مصر او بالعكس ، وبعض هذه الخطابات ـ وهو الاكثر اهمية ـ قد ارسل من عدن الى الهند او بالعكس ، او حتى من مكان ما في الهند الى مكان آخر ، ومن المؤكد ان كثيرا من هذه الخطابات قد استبقي في الهند ، التي لا يسمح مناخها وتربتها بحفظ الاوراق لعدد من السنين ، وبعد ذلك ارسلت عن طريق البحر من الهند عن طريق الجزيرة العربية الى احد موانىء البحر الاحمر ، ثم اتخذت طريقها في الصحراء حتى وصلت الى احدى المدن المصرية الواقعة على النيل لتحفظ فيها .

تحتاج التجارة عادة بين مختلف الاماكن الى تقارير وقوائم مكتوبة ، لذا فان التجارة تساعدنا وتقدم لنا الكثير من المعلومات عن التاريخ الاقتصادي ، والى وقت قريب لم نكن نعرف وجودا لأي خطابات او وثائق توضح لنا احوال تجارة الهند في العصور الوسطى ، سواء على شواطىء المحيط الهندي العربية او على شواطئه الشرقية ، مع ان تجارة الهند كانت بمثابة العمود الفقري لاقتصاد عالم العصور الوسطى عامة والعالم الاسلامي خاصة ، لذلك اصبح من الصعب ان نرسم صورة تفصيلية لتجارة الهند دون مساعدة الخطابات والوثائق التي تصور كيفية قيام هذه التجارة ، ومنذ عام ١٩٥٤ م ورد اول تقرير عن اوراق الجنيزة (الكنيزة) Geniza[١١] المتعلقة بتجارة الهند ، وتمت في غضون ذلك اكتشافات جديدة كثيرة ، فكتب جواتياين بيانا عن مائة وثلاثين ورقة من اوراق الجنيزة التي تتصل بتجارة الهند ، وحتى عام ١٩٦٥م وصل عدد النتف ذات الصلة بهذا الموضوع الى ثلاثمائة وثلاثين[١٢] .

لقد جاءت معظم سجلات الجنيزة من حقبة زمنية قصيرة على وجه التقريب ، هي الممتدة بين عام ٤٧٣ ـ ٥٥٦هـ / ١٠٨٠ ـ ١١٦٠م ، وقليل من الوثائق التي ترجع الى الفترة ما بين ٥٥٦ ـ ٦٣٨ هـ / ١١٦٠ ـ ١٢٤٠م، وقد جاءت مئات التجار المذكورين تقريبا من مجموعة واحدة متشابكة تماما مع بعضها البعض، وهذا يفيدنا في امكانية دراسة جزء من تجارة الهند[١٣] .

شهدت العلاقات التجارية بين عدن والهند تطورا ونشاطا متميزين خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ـ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، ابان حكم بني زريع (٥٣٢ ـ ٥٦٩هـ /١١٣٧ ـ ١١٧٣م وبني ايوب (٥٦٩ ـ ٦٢٦ هـ / ١١٧٣ ـ ١٢٢٨م) لليمن ، وقد وصف لنا القلقشندي[١٤] الطريق التجارية التي تصل الى مملكتي السند والهند ، وهي طريق البحر ، فمن عدن يمكن السفر في بحر الهند (والصواب هو البحر (العربي) ثم الى المحيط الهندي ، الذي يتصل بالبحر الاحمر ، وبواسطة المحيط الهندي يتم الوصول الى سواحل السند والهند .

افاض المؤرخون والرحالة العرب والمسلمون في ايضاح اهمية ميناء عدن وموقعها على طرق المواصلات العالمية وعلاقتها بالبحار والجزر والاقاليم المجاورة له، وما نتج عن ذلك الموقع من اهمية كبرى ، فوصفوا عدن بأنها : فرضة[١٥] الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس[١٦]، وكانت مراكب الهند ومصر والحجاز والحبشة تمر بها قديما للحط والاقلاع[١٧] ، كما

كان ميناء عدن مركزا لتبادل السلع الافريقية والهندية والمصرية ومكانا تبحر منه السفن الى الهند[١٨] . ولموقع عدن على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وعلى تقاطع طريق التجارة ، تأثير في الروابط التاريخية والثقافية والترتيب العرقي للسكان ، ويرجع سبب ذلك الى الاتصال بأراض مجاورة للمحيط الهندي واقاليم العرب وكذلك بلدان افريقيا الشرقية والشمالية الشرقية[١٩] .

وقد وصفت عدن بأنها مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن[٢٠] ، ونعتقد ان المقصود هنا ببحر الهند هو ساحل البحر العربي الذي يحيط بشبه الجزيرة العربية جنوبا ويتصل بالمحيط الهندي ، وكان لموقع عدن المهم اثره في جعلها ميناء تجاريا مهما منذ اقدم العصور ، فأصبحت مرفأ مراكب التجار من مختلف الارجاء ، ووصفت بأنها : بلد التجارة وفرضة اليمن المشهورة[٢١] .

ويعد ميناء عدن ـ وهو الميناء الطبيعي ـ المنفذ الوحيد على المحيط الهندي لكامل المنطقة العدنية من اليمن، وهي اغنى مقاطعات جنوب بلاد العرب[٢٢].

كانت للمراكب التجارية التي تقلع من عدن او تنزل فيها مواسم مشهورة، توضح مكانة عدن وطبيعة الحركة التجارية فيها ، وقد وصف صلاح الدين الحكيم[٢٣] مكانة عدن التجارية بقوله[٢٤] : « ولا يخلو اسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها ، وبضائع شتى او متاجر منوعة والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجائر مربحة ، ولحط المراكب عليها واقلاعها مواسم مشهورة.. » .

يوضح لنا هذا النص نشاط الحركة التجارية في ميناء عدن ، وكثرة المراكب الواردة اليه اسبوعيا ، حيث تحمل البضائع المتنوعة من مختلف ارجاء العالم ، وكان اهل عدن يخرجون لرؤية تلك المراكب ويفرحون بوصولها ، لأنها تنشط الحركة التجارية للسوق داخل مدينة عدن ، وبالتالي تؤدي الى كثرة الارباح وتوفير السلع المتنوعة للسكان .

يمكننا تقسيم ابرز اوجه العلاقات التجارية بين عدن والهند الى ما يلي :

أ ـ التبادل التجاري بين عدن والهند :

لقد ذكر ابن المجاور[٢٥] وصول عدد من المنتجات من الهند الى عدن اعفيت من العشور التجارية ، وهي : كل ما يصل بطريق البحر كالهليلج المربى ووسائد الموائد الجلدية (الاكرار والمخاد والمساور والانطاع) والارز الكجري (الارز المخلوط بالماش) والسمسم والصابون ، ومن البضائع : المغر الكلاهي[٢٦] والنشم وحطب القرنفل وثياب العرابية، ومن معاملة الشجر : التمر المقلف (وهو التمر الذي استخرج نواه) .

ونعتقد ان الحاجة لهذه المواد كانت هي السبب وراء اعفائها من العشور ، لأنها مواد تموينية وضرورية للسكان تستخدم في مجالات متنوعة ، ويتضح لنا ان جزءا كبيرا من المنتجات والسلع كانت تدخل عدن من الخارج ، ولعل ذلك يرجع الى انعدام الزراعة فيها ، ولأنها ميناء تجاري عالمي تصلها البضائع المتنوعة من مختلف ارجاء العالم ، فهي اشبه بوسيط تجاري ، ويوضح ابن المجاور اعتماد اهل عدن على الاستيراد الخارجي لسد حاجياتهم ، اذ يقول[٢٧] : « ومادتهم من الهند والسند والحبشة وديار مصر ومأكولهم الخبز وادمهم السمك »، ويتضح لنا من هذا النص ان بلاد الهند كانت من بين تلك البلدان التي تزود عدن باحتياجاتها من السلع المختلفة .

واشتهرت الهند بالارز الذي كان يصل عدن ، فكان الشيخ محمد بن عبدويه النهرواني العراقي الذي استقر في جزيرة كمران في البحر الاحمر ، ملتزما في طعامه ، وكان يأكل الارز من بلاد الهند[٢٨] .

وهنالك بضائع اخرى وصلت عدن من الهند فرضت عليها العشور في ميناء عدن ، وهي : الفلفل والنيل (النيلج) وقشر المحلب والطباشير وعود الدفواء والكافور والقرنفل والحديد والحمر (التمر هندي) والثياب الخام الهندية ، ومادة العويل[٢٩] السندابوري ذات العلاقة بصناعة النبيذ[٣٠] .

وقد ذكر ابن المجاور[٣١] ان العشور كانت لا تؤخذ على الخرز الذي يجلب من الديبل[٣٢]، كذلك يعفى من العشور غلمان حودر الذين يجلبون من الهند[٣٣]، ونستدل من اعفاء هاتين المادتين من العشور على ان هنالك تجارا متخصصين بهما ، فالخرز الملون كان مادة كمالية يستعمل لزينة النساء والاطفال ، اما الغلمان فيرجع سبب اعفائهم الى تمتعهم بمزايا جمالية ولاستخدامهم في خدمة الامراء في قصورهم ومجالس سمرهم ، وكذلك في خدمة التجار الموسرين ورجال الاعمال .

وبصدد بيان وسائل النشاط والتبادل التجاري بين عدن والهند ، فقد اعتمدنا على وثائق الجنيزة اعتمادا رئيسا ، فقد حفظ خطاب مرسل من عدن

جنوبي الجزيرة العربية الى الهند في ثلاث قطع توزعت كل قطعة منها على ثلاث مجموعات ، كذلك هنالك عشر وثائق في اقل تقدير جمعت اجزاؤها من مجموعتين منفصلتين او من ثلاث مجموعات[٣٤] .

ووفقا للسلع الشرقية التي ارسلت من موانىء البحر الاحمر او من عدن ، نجد قوائم البضائع التالية واردة في وثائق الجنيزة[٣٥] :

أ ـ اقمشة حريرية وملبوسات وزجاج	٣٦ بنداً
ب ـ اواني وتحف فضية ، ونحاس وزجاج وبعض الخدمات الاخرى	٢٣ بنداً
جـ ـ سلع منزلية مثل السجاد ، الحصر، مناضد، قدور طهو وخلافه	٠٧ بنوداً
د ـ كيماويات ، ادوية، صابون، ورق، كتب	١٩ بنداً
ي ـ معادن ومستلزمات اخرى لصناعة النحاس	٠٧ بنود
ف ـ مرجان (محصول على جانب كبير من الاهمية)	٠١ بند واحد
و ـ اطعمة محفوظة مثل : الجبن، السكر، زبيب، وزيت الزيتون ، زيت سراج المصابيح وغيرها	١٠ بنود
المجموع	**١٠٣ بنود**

واذا ما قورنت هذه القائمة مع القائمة التالية ، نستطيع ان نصل الى نتيجة مؤداها ان الهند والشرق عموما كانوا يصدرون حاصلات زراعية ومواد خامية ، بينما يستورد الشرق الاوسط عموما المنتجات الصناعية والبضائع الاستهلاكية ، وقد كانت المنتجات الصناعية والمواد الاستهلاكية التي ارسلت الى الهند متنوعة للغاية ، لكن قيمتها عموما كانت تساوي مبلغا قليلا[٣٦]، ومن الممكن ان تبوب السلع القادمة من او الى الهند وبلدان المحيط الهندي الاخرى كالآتي[٣٧] :

أ ـ توابل، عطور، نباتات للصباغة والدهان واعشاب طبية	٣٦ بنداً
ب ـ حديد وصلب (سلعة رئيسية)	٦ اشكال
ج ـ اواني نحاسية وبرونزية	١٢ بنداً
د ـ حرير هندي وبعض الملبوسات المصنوعة اساسا من القطن	٨ مواد فقط
هـ ـ لآلىء ، خرز ، صدف وعنبر	٤ مواد
و ـ احذية ، بعض المصنوعات الجلدية	مادتان
ز ـ خزف صيني ، آنية يمنية من الحجر وعاج افريقي	٣ مواد
حـ ـ فواكه استوائية مثل جوز الهند	٥ مواد
ط ـ خشب (للبناء او النجارة)	مادة واحد
المجموع	**٧٧ مادة**

ونلاحظ من هذه القائمة تفوق المجموعة الاولى ، ويرجع ذلك الى حقيقة مؤداها ان صناعات العطور والادوية والصيدلة والصباغة كانت صناعات محببة للغاية بين يهود الاقطار الاسلامية ، وتلوح في الجنيزة بكثرة انماط مختلفة من الحديد والصلب ، وهي مادة خام غير مصنعة ، ولكن لم يكن للسيوف الهندية الذائعة الصيت في الادب العربي اي ذكر في وثائق الجنيزة، ولعل سبب ذلك يعود الى ان مسلمي الشرق الاوسط يفضلون صنع اسلحتهم الخاصة او عدم استيرادها على يد اليهود ، ونلاحظ كذلك ورود تفاصيل زائدة عن تصنيع الاواني النحاسية ، ولقد كان جنوب غربي الهند مشهورا بمناجم النحاس وبصناعة الاواني النحاسية والبرونزية ، وان المطالب على مصنوعات جنوب غرب الهند البرونزية والنحاسية كان اكبر مما يستطيع ان ينتجه الخام الموجود في البلاد ، كما ان مصنوعات الهند كانت مطلوبة للغاية ، حتى ان تجار عدن كانوا يخاطرون بركوب البحر الى الهند لاحضار هذه الاواني النحاسية منها بدلا من ان يستوردوا مثيلتها من نحاسي اليمن برغم ان تلك التي كانت تصنع في اليمن كان لها تقليد طويل عندهم .

اما عن الملبوسات، فهنالك شاش هندي (موسلين)، كان يسمى في بعض الخطابات « لانيس » وفي البعض الآخر « لاليس » ، وبسبب احتلال الملبوسات الحريرية الجانب الاكبر من التجارة ، كانت الملبوسات الغالية هي التي تستحق الابحار من اجلها ، كذلك فان الخزف الصيني والاشياء النادرة مثل الاواني اليمنية الحجرية تظهر في قوائم الهدايا (او اواصر ربات البيوت) لكنها كانت لا تظهر على انها سلع للاتجار المنتظم .

ومن المؤكد ان الخشب كان من اهم صادرات الهند ، لكن من المحتمل ان يكون بناة السفن في الجزيرة العربية قد حملوا الخشب الذي يحتاجونه لبناء سفنهم الخاصة ، ومن المؤكد ان صناعة البناء في مدن مصر قد استوردت الخشب من اماكن اخرى غير الاماكن الواردة في الجنيزة ، وعلى اية حال فاننا كثيرا ما نفتقد خشب الهند في وثائقنا[٣٨] .

وهنالك ثلاث تقارير وردت في خطاب مرسل من عدن الى الهند ، تحتوي على قوائم تفصيلية كثيرة اختصرت هنا لبيان الحقائق الرئيسية ، وقد اعطيت كل التقديرات بالدينار الملكي[٣٩] وهو دينار اليمن في ذلك الوقت ، وكان الدينار المصري

الواحد أنذاك يساوي ٢,٣٥ دينار ملكي ، وهي حالة تمثل هبوط قيمة الدينار المصري الذي كان يساوي اربعة دنانير ونصف ملكي[٤٠] .

كتاب الهند رقم ٢٦[٤١] :

أ ـ مرسل من الهند الى عدن :

المادة	قيمتها
فلفل	٤٠٢ دينار ملكي
مكوس وخلافه	ـ ٨٧
الباقي	٣١٥
حديد	٢٤٧
مكوس مخصومة وخلافه	ـ ٢٧
الباقي	٢٢٠
مجموع الموجودات	٥٣٥

ب ـ مرسل من عدن الى الهند :

المادة	قيمتها
نحاس	٤٢٣
حزم اضافي وخلافه	١٦
رصاص	٧/١٢ ٢٩
ادوات منزلية	٣/٤ ١٦
٢٠ ديناراً مصرياً	٤٧
مدفوعات (بالدينار الملكي)	٠٧
مجموع القيمة	**١/٣ ٥٣٥**[٤٢]

تعد المعلومات الواردة في القائمتين ذات اهمية كبيرة ، ففي القائمة الاولى ورد تحديد سعر المادة بالدينار الملكي مطروحا منه المصاريف التي تترتب عليها من المكوس اي الرسوم وغيرها كأجور الحزم والشحن والتفريغ .. ثم يعطي المؤلف القيمة الصافية ، لكنه لا يحدد في القائمتين السنة التي قدرت فيها أقيام تلك البضائع ، ولا يحدد كذلك الوزن المعتمد في تقييمها ، ونحن نرجح ان تاريخها يرجع الى اواخر حكم السلطان صلاح الدين الايوبي ، وان وزنها كان بالبهار في الاعم الاغلب ، كما نستدل من القائمة الثانية التي تقارب في قيمتها القائمة الاولى ، على ان عملية المقايضة في التبادل التجاري بين عدن والهند كانت سارية المفعول وواضحة تماما ، اضافة الى اعتماد الدينار الملكي في تقدير قيم البضائع في القائمتين اعلاه ، وكان الدينار المصري الواحد يساوي ٢,٣٥ دينار ملكي (دينار اليمن)، وتبدو قيمة الدينار المصري واطئة قياسا الى قيمته السابقة ، اذ كان يساوي اربعة دنانير ونصف ملكي ـ كما ذكرنا ـ ويتضح ذلك اي هبوط قيمة الدينار المصري في القائمة الثانية التي ورد فيها ذكر(٢٠) دينارا مصريا يقابلها[٤٧] دينارا ملكيا ، كما ورد فيها ذكر مدفوعات بالدينار الملكي مجهولة القيمة قدرت اقيامها بـ(٧) دنانير ملكية .

وهنالك امر بشراء بضائع هندية ورد في خطاب أخر (رقم ٢٨) وبه قائمة بضائع جاءت كالآتي[٤٣] :

المادة	قيمتها بالدينار الملكي
نحاس	يساوي ١٠٢
صابون	٥
١٠٠ دينار مصري	٢٣٥
٢٠٠ دينار زبيدي	٢٠٠
٣/٤ ٢١٤ دينار ذي الجبلة	٣/٤ ٢١٤

ويتضح لنا من هذه القائمة ان البضائع المرسلة من اليمن الى الهند ، تنقسم على قسمين بضائع يمنية واخرى مصرية تصدر عن طريق اليمن الى الهند ، كما نستنتج ان الدينار المصري يساوي ٢,٣٥ دينار ملكي ويبدو ذلك واضحا من قيمة المائة دينار مصري التي تساوي (٢٣٥) دينارا ملكيا ، كما ان دينار زبيد هو نفسه الدينار الملكي اي دينار اليمن ، ولعله ضرب في مدينة زبيد ، وكذلك دينار ذي جبلة يساوي في قيمته الدينار الملكي المضروب في اليمن ، ولعل تسميته ترجع الى ضربه في مدينة ذي جبلة التي اصبحت عاصمة الدولة الصليحية في اليمن بعد وفاة المكرم احمد بن علي بن محمد الصليحي واتخاذ السيدة الحرة الصليحية هذه المدينة عاصمة ، ويبدو لنا من أقيام دنانير زبيد وذي جبلة انها تساوي في قيمتها الدينار الملكي في اليمن . وتجدر الاشارة الى ان هذه القائمة كسابقاتها لا تحدد تاريخ ارسال تلك البضائع ولا كمياتها ، بل اقتصرت على تحديد قيمتها فقط بالدينار الملكي واجزائه .

وهنالك قائمة اخرى ذكرها جواتياين[٤٤]، يبدو انها مرسلة ايضا من عدن الى الهند ، وحددت أقيام محتوياتها بالدينار الملكي ايضا ، وهي كما يلي : « وهنالك خطاب أخر (رقم ٣٠) يبين البضائع الآتية المرسلة الى الهند كما يلي » :

المادة	قيمتها بالدينار الملكي
حلوى يمنية مصنوعة من الجوز	٣/٤ ٢
قمح	٣
ذرة (وهي غلة تستهلك بكثرة)	١/٦ ١
بعض قطع قماش مصري	٩
اوان زجاجية مصرية ويمنية	١/٢ ١
مجموع البضائع الاستهلاكية	٥/١٢ ١٧

اما القائمة الاخرى التي ذكرها جواتيابن[٤٥] فانها تتعلق باقيام عملات مرسلة على ما يبدو من عدن الى الهند ، حددت اقيامها بالدينار الملكي وكما يلي :

سبيكتان فضيتان تزنان ٦٠٥ دراهم تساوي ١٢٤
١٠٠ دينار مصري (لم تقدر القيمة
مدفوعات ، سلمت للمسجل ٣٠٠

وكان التجار - قدر الامكان - يفضلون ان يرسلوا بضائع بدلا من الذهب ، وفي الفترة ما بين ٥٣٢ - ٥٣٥هـ / ١١٣٧ - ١١٤٠م - اي خلال عهد بني زريع في اليمن - كان الحرير يجلب من اقصى المغرب مثل اسبانيا ويباع ويجد اقبالا في ساحل ملبار الهندي ، وتذكر الخطابات العدنية التي تحمل الارقام : (٥١، ٥٦، ٦٠) الحرير على انه سلعة للدفع بدلا من الذهب ، وتجدر الاشارة هنا الى ان الخطابات العدنية ، وهي وثائق الجنيزة ، التي استقينا منها معلوماتنا عن هذه القوائم تغفل عدة امور ، ابرزها : عدم تحديد تاريخ هذه القوائم التي تم بموجبها التبادل التجاري بين عدن والهند ، وعدم تحديد مصدر شحن وتوريد تلك البضائع ، وهذا كله يقودنا الى الاعتقاد بأن تلك القوائم ما هي الا كشوفات حسابات (حسابية) بين عدد من الاشخاص العاملين في الوسط التجاري كانت بينهم معاملات بيع وشراء او معاملات دائن ومدين .

ان المعلومات التي اوردها جواتيابن في هذه القوائم افادتنا بخصوص تداول الدينارين الملكي في اليمن والدينار المصري في عهدي الفاطميين والايوبيين ، لكن تلك القوائم تبقى ناقصة تعوزها امور عديدة ذكرناها اضافة الى عدم تحديد كميات البضائع واوزانها ومصادرها احيانا ، لذا رجحنا انها تمت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، اي في عهد بني زريع وبعدهم الايوبيون في اليمن (٥٣٢ - ٦٢٦ هـ/ ١١٣٧ - ١٢٢٨م) وكذلك خلال حكم الفاطميين لمصر الذين كانوا على صلات وثيقة مع اليمن وخاصة مع بني زريع حكام عدن (٥٣٢ - ٥٦٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٧٣م)، كما توضح لنا تلك القوائم استمرار تداول الدينار الملكي في اليمن خلال العصر الايوبي ، وكان تداوله شائعا في عدن وزبيد وذي جبلة ، وكانت قيمة الدينار المصري واطئة ، اذ كان يساوي ٢,٣٥ دينار ملكي مقارنة مع قيمته السابقة حيث كان يساوي ٤,٥ دينار ملكي ، اي ارتفاع قيمة الدينار الملكي .

ب - نشاط التجار بين عدن والهند :

نشطت التجارة بين عدن والهند ، فكانت سفن الهند وتجارها في ذهاب واياب من والى عدن ، كذلك كان الحال بالنسبة لسفن اهل عدن ، واسهمت السفن المصرية في التبادل التجاري بين عدن والهند ، فكانت ترحل الى عدن لنقل غلات الهند وشرقي آسيا ، وكذلك تحمل من بلاد اليمن البخور والعطور[٤٦] وتنقل هذه السفن منتجات الهند التي تباع بميناء عدن او تصل اليه ، لأن عدن كانت بمثابة وسيط تجاري لتبادل السلع والمنتجات بين مختلف ارجاء العالم .

لقد كان من ابرز نتائج النشاط التجاري بين عدن والهند دخول اعداد كبيرة من الهنود الى عدن للعمل في التجارة ومزاولة اعمال تتعلق بالنشاط التجاري ، ذكر جواتيابن[٤٧] ان العادة المتبعة في عدن هي اجراء الفحص الطبي للمسافرين القادمين على السفن من الهند ، في حين ذكر انه لم يعثر في اوراق (وثائق) الجنيزة على أية اشارة للفحص الطبي للمسافرين في موانىء البحر المتوسط وعلى الرغم من انه لم يحدد لنا تاريخ اجراء الفحص الطبي ، الا ان ذلك الاجراء يؤكد لنا انه كان نظاما متبعا منذ زمن طويل ، واستنادا الى وثائق الجنيزة التي اعتمدها جواتيابن ، فاننا نرجح ان ذلك الاجراء كان متبعا خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي في الاعم الاغلب ، اي خلال العصر الايوبي في اليمن ، لأن معظم وثائق الجنيزة تعود الى ذلك القرن ، اي خلال مدة بحثنا ، ولم يكن ذلك النظام ساري المفعول على المسافرين في موانىء البحر المتوسط .

كما يؤكد لنا هذا الاجراء التطور الحضري الكبير في ميناء عدن ، باتباع اسلوب الفحص الطبي وحجر الاشخاص المصابين ، مما يرجح وجود محجر صحي في ميناء عدن ، ونستنتج من اتخاذ هذا الاجراء تجاه المسافرين القادمين على السفن من الهند ، ان اعدادا كبيرة من الهنود من تجار وعاملين في الوسط التجاري كانت تدخل ميناء عدن ، وان بلاد الهند كانت منذ ذلك الوقت - وحتى الآن - موطنا للعديد من الامراض والاوبئة المعدية بين سكانها ، فانتبه مسؤولو الميناء لمعالجتها واولوها عناية خاصة .

ذكر جواتيابن[٤٨]، ان بعض التجار سكنوا الهند وعينوا وكلاء لهم من الهنود وغيرهم في عدن ، منهم ابراهيم بن ياجو التونسي الاصل من المهدية .

اقام ابراهيم في الهند خلال السنوات ٥٢٧ ـ ٥٤٤هـ / ١١٣٢ ـ ١١٤٩م، وكان يمتلك مصنعا للنحاس الاصفر في الهند ، وبعد عودته من عدن قضى عدة سنين في اليمن ، وبعد وفاة ابنه الوحيد هناك، عاد الى الفسطاط ليزوج ابنته الوحيدة لواحد من ابناء العائلة[٤٩] .

ومن التجار العاملين في تجارة عدن والهند ، تاجران عدنيان ، وهما شخصيتان شعبيتان بارزتان ، كانا في عدن اثناء وقوع غزو ملك جزيرة كيش (قيس) الفاشل على عدن سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م[٥٠] ، وقد كتبا رسالتين (وثيقتين)، ارسلت الاولى من عدن الى الهند، كتبها « باما » الهندي الى سيده ابراهيم بن ياجو الذي نشأ في تونس وعاش في الهند ، اما الرسالة الثانية فكانت مرسلة من عدن الى القاهرة ، كتبها احد التجار (مجهول الاسم) الى ابي سعيد الدمياطي ابرز التجار اليهود في القاهرة[٥١]، وهما شاهدا عيان على حوادث الغزو ، وقد حفظت الرسالتان ضمن مجموعة الوثائق المعروفة باسم « وثاق الجنيزة » المحفوظة الآن في مكتبات جامعة كمبردج واكسفورد، وعكف جواتياين على دراستهما ونشرهما[٥٢] .

وكانت نهاية غزو ملك جزيرة كيش على عدن هزيمة الغزاة ، وقد لعبت سفينتا الناخدا (الربان) الهندي (رامشت) دورا مهما في فشل الغزاة ، وكانت سفنه تدار مباشرة من الديوان الذي يعني : قوات نظامية ، وهي كلمة تتطابق مع كلمة (عسكر) الواردة في الرسالة (الوثيقة) الثانية ، اي تعني وجود قوات نظامية على سفن رامشت مصاحبة لها لحمايتها ، ومواجهة احتمالات تعرض سفنه وبضائعه لخطر قراصنة (لصوص) البحر[٥٣] .

كان رامشت على علاقة وثيقة مع الشيخ بلال بن جرير (ت : ٥٤٧هـ / ١١٥٢م)[٥٤] ، الحاكم الفعلي لجنوب اليمن في سنة ٥٣٥ هـ ١١٤٠ م وكان رامشت « البحار العظيم » قد توفي في تلك السنة (١١٤٠م) في شهر نيسان منها ، ودفن في مكة[٥٥] .

ومن مظاهر نشاط التجار الهنود في عدن ، اسهامهم في تجارة الرقيق والجواري ، ومنهم الحسن بن علي حزور الفيروزكوهي[٥٦] الذي نقل لنا عنه ابن المجاور[٥٧] رواية بيعه جارية هندية بعدن لرجل اسكندراني . كما اخذت عشور الحديد بعدن على رجل خرواني[٥٨] ، وكانت تلك العشور قد استجدت في عهد الملك اسماعيل بن طفتكين الايوبي سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م، وبلغت نسبتها ٥٠٪ على رواية ابن المجاور[٥٩] .

ج ـ حماية الطريق التجارية بين عدن والهند :

كانت الطريق التجارية بين عدن والهند خطرة ومعرضة باستمرار لهجوم القراصنة الهنود ، الذين اتخذوا من جزيرة سقطرة[٦٠] مخبأ لهم ، وعرضوا طريق التجارة للاخطار والمخاوف المستمرة[٦١] ، وقد دفع ذلك السلطان طفتكين بن ايوب (٥٧٩ ـ ٥٩٣هـ / ١١٨٣ ـ ١١٩٦م) بارسال الشواني[٦٢] لحماية التجار من السراق مقابل فرض عشور جديدة على البضائع عرفت بـ « عشور الشواني » .

يروي ابن المجاور[٦٣] ان بني زريع امراء عدن (٥٣٢ ـ ٥٦٩ هـ / ١١٣٧ ـ ١١٧٣م) لم تكن لديهم معرفة تامة باستخدام السفن الحربية ، لحراسة التجارة حول ميناء عدن ، وبقيت الحال حتى دخول توران شاه بن ايوب الى اليمن وسيطرته على عدن سنة ٥٦٩هـ ، فجاء معه بسفن حربية عرفت بـ الشواني ، ويذكر جواتياين[٦٤] ان وثائق الجنيزة تعتبر الشيني سفينة حربية فقط ، كذلك اطلقت لفظة « اصحاب الشواني » عموما على القراصنة .

ويرى احد الباحثين[٦٥] ان الشواني هم جنود البحر الذين عرفتهم اليمن في عهد توران شاه بن ايوب ، ويسمي الاستاذ رابضة[٦٦] الشواني بـ : سفن الحراسة الليلية ، ولعل تسميتها ترجع الى طبيعة عملها ليلا في حراسة الشواطىء البحرية المقابلة لميناء عدن والموانىء الاخرى والقريبة منها ، اضافة الى قيامها بحراسة السفن التجارية في عرض البحر ليلا .

من خلال استعراضنا للآراء الخاصة حول تسمية الشواني ومدلولها نميل الى ان الشواني هي سفن حربية مخصصة لحماية السفن التجارية في البحر ، وانها كانت تدار وتوجه من قبل رجال بحر متخصصين يمكن ان نطلق عليهم : « اصحاب الشواني » اي قادة سفن الشواني ، الذي سماهم جواتياين ـ كما ذكرنا ـ بالقراصنة وهي لفظة اطلقت عليهم عموما ، ولعل ذلك يرجع الى استخدام القراصنة لهذا النوع من السفن في القرصنة البحرية ، وهي (سفن الشواني) ، فاطلقت عليهم لفظة: اصحاب الشواني (اي القراصنة) دون استثناء .

اما بخصوص بدء العمل باستخدام الشواني لحماية السفن التجارية في المحيط الهندي ، فان ابن المجاور[٦٧] يحدد ذلك في عهد السلطان

طفتكين بن ايوب ، اي ان تلك السفن بقيت معطلة في ميناء عدن بعد مغادرة السلطان توران شاه بن ايوب سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥م. وقد اخذ السلطان طفتكين باقتراح احد وجهاء مدينة عدن الذي طلب منه ارسال هذه السفن الى البحر لحماية التجار وتجارتهم ، مقابل دفع العشور ، فاستحسن السلطان رأيه ، واخرج الشواني الى بحر الهند تجوبه لحراسة مراكب التجار من خطر القراصنة وقطاع الطرق في البحر ، واصبح رسم الشواني نافذ المفعول منذ عهد السلطان طفتكين (٥٧٩ - ٥٩٣ هـ) في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي ، حتى سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦م اي حتى الربع الاول من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي ، وكان رسم الشواني بسيطا نسبته ١٪ ، اي يؤخذ دينار واحد من كل مائة دينار عند تقدير البضاعة على رواية العقيلي[٦٨] .

لم تقتصر الاخطار في المحيط الهندي على وجود القراصنة فقط فقد تتعرض السفن الى سوء الاحوال الجوية في البحر ، لذلك كان طبيعيا ان يصاحب كل سفينة كبرى مركب صغير يمتلكه مالك السفينة نفسه او احد اقاربه او اصدقائه ، بسبب ان السفن الصغرى في ظروف هياج البحر لديها فرص بقاء اكثر من السفن الكبرى ، خاصة عندما تفقد الاخيرة اشرعتها ودفاتها ، وفي احدى الحالات نقرأ في خطاب بالعبرية ان سفينة صغيرة قامت بانقاذ (انتشال) الركاب من المركب الرئيسي[٦٩] .

ووجدت قوائم لمراسلات خاصة بتجار الهند في وثائق الجنيزة ، عبر فيها مرسلوها عن ذعرهم من المحيط الهندي ، الذي اختلفت مياهه تماما عن مياه البحر المتوسط الهادئة ، كذلك ذكر مرسلو تلك القوائم انواع السفن المستخدمة في المحيط الهندي ، وكانت اجزاؤها تربط ببعضها بالحبال بدلا من المسامير ، وذلك يرجع الى شدة ملوحة مياهه التي تؤدي الى صدأ المسامير وخلعها ، وكان التجار يرسلون هدايا منزلية وبضائع لاستعمال واعالة عوائلهم واقاربهم ، ويرسلون كذلك هدايا لعلماء دينهم ورؤساء جماعاتهم[٧٠] .

احتوت الوثائق المتبادلة ما بين الهند وعدن على معلومات مهمة حول امور الابحار والاحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة في جنوب غربي الهند ، وكانت السفينة المبحرة الى المحيط الهندي تصحب عادة بسفينة صغيرة اخرى تكون ملكا لصاحب السفينة او ملكا لشريكه ، وكقاعدة عامة كانت السفن تسير في مجموعات ، وكان نشاط قراصنة البحر آنذاك قويا ، وكانت بضائع التجار تتعرض للسرقة ، كما اشارت الوثائق الى الكثير من الاشخاص الذين كانوا يهلكون اثناء الرحلات البحرية ، واشارت كذلك الى البضائع التي كانت تفقد مع السفن الغارقة ، وبرغم ذلك كان الطريق بين عدن والهند آمنا نسبيا ، وكانت اخطر مراحل الرحلة هي لحظة دخول السفينة الى البحر المفتوح او العكس لحظة ارتطامها بالشاطىء ورسوها في المرفأ ، لذلك كانت اخبار السفن المحطمة بمجرد ابحارها او قبل وصولها بوقت قصير ترد في وثائق الجنيزة، وتجري محاولات غوص في المياه لانقاذ ما يمكن انقاذه من البضائع الغارقة قرب الشواطىء العربية وشواطىء البحر الاحمر ، ويكون ساحل الهند خطرا للغاية في اوقات هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية المعتادة ، وكان لكل سفينة او قافلة سفن ميناؤها المفضل ، لذلك كانت هذه السفن تعرف باسماء هذه الموانىء[٧١] .

اما عن الحملات التي ارسلت في العصر الايوبي لحماية الطريق التجارية بين عدن والهند ، بعد ازدياد خطر القراصنة ، الذين اتخذوا من جزيرة سقطرة مخبأ ووكرا لانطلاقهم ، فقد كان ابرزها الحملة التي قادها الاتابك سيف الدين سنقر (٥٩٨ - ٦٠٨ هـ / ١٢٠١ - ١٢١١م) مولى الملك المعز اسماعيل بن طفتكين ، على جزيرة سقطرة ، واستخدم فيها خمس شوان ، ويرجع سبب تجريد تلك الحملة الى ازدياد خطر القراصنة الهنود ومهاجمتهم للسفن المهمة التي جهزت من اجلها ، بسبب سوء الاحوال الجوية وعدم الاهتداء الى طرق بحرية واضحة للوصول اليها ، ولم تحدد الرواية السنة التي ارسلت فيها تلك الحملة ، فبقيت اخبارها على العموم غامضة[٧٢] .

وكان من اثر ازدياد خطر القراصنة في المحيط الهندي ، ان توقفت التجارة بين عدن والهند لمدة سنة ، فارسل الاتابك سنقر الشواني سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥م، للقضاء على القراصنة مرة ثانية ، ووصلت تلك الشواني (التي لم يحدد عددها) الى قلهات[٧٣] في عمان « والى كل مكان » وطردت اللصوص من البحر[٧٤]، ونستدل من هاتين الروايتين على ان الاتابك سنقر قد جهز حملتين لمطاردة القراصنة في جزيرة سقطرة وازالة خطرهم الذي ادى الى عرقلة النشاط التجاري وتوقفه بين عدن والهند .

وقد زار ابن المجاور جزيرة سقطرة سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م، ووصف سكانها واعتمادهم

على السراق في معيشتهم بقوله[75] : « ورأى ما في سقطرى وغاية معاش اهل هذه السواحل مع السراق لأن السراق ينزلون عندهم ويقيمون عندهم مدة ستة شهور يبيعون عليهم الكسب ويأكلون ويشربون ... » ويتضح لنا من هذا النص ان اهل سقطرة كانوا يعتمدون في معيشتهم على القراصنة والتجار المارين بهم في الطريق البحرية ، كذلك يستفيدون من القراصنة في الكسب عن طريق شراء البضائع التي يسرقونها .

لقد كان لجهود الايوبيين دور متميز في القضاء على القراصنة في جزيرة سقطرة ، مما ادى الى نشاط التجارة البحرية بين عدن والهند ، وكان خطر هؤلاء القراصنة قد انتهى في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي ، وبهذا الخصوص يقول ياقوت الحموي وهو يصف جزيرة سقطرة[76] : « وكان يأوى اليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجارة فأما الآن فلا »، ونرجح من خلال هذا النص ان خطر القراصنة الهنود في جزيرة سقطرة قد انتهى وزال نهائيا في مطلع القرن السابع الهجري وبالتحديد في الربع الاول منه كما يبدو ذلك من وصف ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .

كانت تجارة عدن مع الهند ذات مردود مالي كبير جدا ، لذلك وجه بني زريع وبني ايوب عناية كبيرة لحماية الطريق التجارية بينهما ، بالقضاء على خطر القراصنة وتحقيق الامن والاستقرار ، وقد وجدنا حالات من التعاون لصد خطر الغزاة على عدن كما حصل اثناء غزو ملك جزيرة كيش على عدن سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م، وذلك باستعانة بني زريع - الذي كان يعوزهم الاسطول البحري - بسفينتين للقرصان الهندي رامشت وتعبئتهما بالمقاتلة وهجومهم على الغزاة، فقضوا عليهم واضطروهم الى الانسحاب والهرب ومن ثم فشل الغزو البحري[77] .

واهتمت الدولة الايوبية اهتماما كبيرا بالطريق التجارية بين عدن والهند ووفرت كل متطلبات تأمينها، لأن خزانة الدولة الايوبية كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على موارد التجارة بين عدن والهند ، ذكر ابن المجاور[78] انه كان يحمل من عدن الى حصن تعز عاصمة الدولة الايوبية في اليمن كل عام اربع خزائن ، بلغت كل منها (١٥٠) الف دينار سنويا يزيد وينقص ، اي ما مجموعه (٦٠٠) الف دينار سنويا ، واستمر الحال حتى سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م، وقد شكلت ثلاث خزائن منها مصدرها التجارة مع الهند معظم ميزانية الدولة الايوبية ، وهذه الخزائن الثلاث هي : خزانة قدوم المراكب من الهند ، خزانة خروج الخيل من عدن الى الهند ، خزانة سفر المراكب الى الهند ، وهكذا تتضح لنا جدوى الاهتمام بالطريق التجارية بين عدن والهند واهمية تلك الطريق التجارية ، من خلال المردودات المالية التي تستفيد منها عدن خلال المدة موضوع البحث .

هوامش وتعليقات البحث

(١) الجنحاني ، د. الحبيب . دور عمان في نشاط التجارة العالمية ص ١٨ .
(٢) عبدالعليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ١٨ ، الجنحاني . دور عمان ص ١٧
(٣) مخول . الاسلام في الشرق الاقصى ص ١٥ - ١٦ .
(٤) نفسه ص ١٦ - ١٧ .
(٥) Schoff, W.H. The periplus, P.38.
(٦) حوراني . العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٧٠ .
(٧) ضرب ابن المجاور مثلا على ذلك بأن الطريق من عدن الى مقديشو موسم ، ومنها الى كلوه موسم ثان ومن كلوه الى القمر موسم ثالث ، وكان المسافرون يجمعون المواسم الثلاثة في موسم واحد ، وقد سافر مركب من القمر إلى عدن بهذا الاتجاه سنة ٦٢٦هـ ، اقلع من القمر وكان يريد كلوه فأرسى بعدن ، وكان المسافرون يطلعون من القمر متجهين الى عدن مباشرة في موسم واحد . تاريخ المستبصر ص ١١٧ .
(٨) اباظة . د. فاروق عثمان، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ص ٢٧ ، وذكر ان ذلك كان قبل استخدام السفن البخارية .
(٩) ابن المجاور المستبصر ص ١١٢ ، لقمان . تاريخ عدن ص ٢٨٠ ، تاريخ الجزر اليمنية ص ٢٨ .

(١٠) دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ص ٢٥٥ .
(١١) وهي مجموعة اوراق ووثائق كتبها يهود القاهرة على الورق ، كتب معظمها باللغة العربية وبالحروف العبرية . وترجع هذه السجلات العربية العبرية في معظمها الى القرن السادس الهجري ، وهي ذات اهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية ، وقد حفظت اساسا فيما عرف باسم « جنيزة القاهرة » ، وترجع معظمها الى العصرين الفاطمي والايوبي ، وكان الهدف منها حماية مصالح التجار اليهود في بلاد الخلافة ، وكان الجانب المهم منها اقتصادي وحسابي يحتوي على وصولات وعقود وحسابات ومعاملات تجارية ، وهي موزعة حاليا بين مكتبات اوروبا والولايات المتحدة الامريكية .
وتجدر الاشارة الى ان وثائق الجنيزة ليست ارشيفا ، لكنها على العكس من ذلك ، فهي اشبه ما تكون بسلة مهملات القيت فيها كتابات استنفدت اغراضها ، بعد ان قطعت الاوراق المكتوبة عليها الى اجزاء ، واختلطت محتوياتها بعضها بالبعض الآخر . لذلك وجدت ورقة من تلك الاوراق حول قضية معينة في كمبردج ووجدت الاخرى حول تلك القضية في اكسفورد . جواتياين . دراسات ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .
(١٢) جواتياين . دراسات ص ٢٠٣ ، ٢٥١ ـ ٢٥٣ .
(١٣) نفسه ص ٢٦٢ .
(١٤) صبح الاعشى ٥/٨٦ .
(١٥) فرضة النهر ثلمته التي يستقى منها ، وفرضة البحر : محط السفن . الجوهري . الصحاح ٣/١٠٩٧ مادة (فرض)، والفرضة اشبه بالجمرك حاليا لتحصيل الرسوم على البضائع الواردة والصادرة . اباظة . عدن ص ٢٨
(١٦) الهمداني . صفة ص ٦٩ ـ ٧٠ . المنجم . أكام المرجان ص ٩، الحموي . معجم البلدان ١/٢٤٣ ـ ٢٤٤ . شيخ الربوة . نخبة الدهر ص ١٨ ـ ١٩ ، ١٥١ ، ١٥٣، ابوالفدا . تقويم البلدان ص ٢٤ ، ٩٢ ، ٩٣ . القلقشندي ـ صبح الاعشى ٥/١٠ .
(١٧) الافغاني . اسواق العرب ص ٢٦٨، العبدلي . هدية الزمن ص ٢٠ .
(١٨) د. جواد علي . المفصل في تاريخ العرب ٧/٢٧٣ ـ ٢٧٤ .
(١٩) The New Encyclopeadia Britannica, Vol. 19, p. 1079.
(٢٠) الحموي . معجم البلدان ٤/٨٩ ، ابن خلدون . العبر مج ٤ ق ٢ / ٤٦٦ ، ٤٧٣ .
(٢١) الحموي . معجم البلدان ٤/٨٩ ، المشترك ص ٣٠٤ ، الحميري . الروض المعطار ص ٤٠٨ ، ابن خلدون . العبر مج ٤ ق٢/٤٦٦ ، ٤٧٣، العبدلي . هدية الزمن ص ٢٠ ، كحالة . جغرافية شبة جزيرة العرب ص ٣٦٦ .
(٢٢) القاسمي الوحدة اليمنية ص ٢٢ .
(٢٣) هو الحكيم صلاح الدين ابوعبدالله محمد بن ابراهيم بن البرهان المتوفي سنة ٤٧٣ هـ ، وقد نقل اخبارا كثيرة عن طبيعة اليمن واسواقها ومتاجرها . ايمن فؤاد سيد . مصادر تاريخ اليمن ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .
(٢٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ٥/١١ ، انظر ايضا : العبدلي ، هدية الزمن ص ٢٠ ، لقمان . تاريخ عدن ص ٣٠٦ ، كحالة . جغرافية شبه جزيرة العربية ص ٣٦٥ .
(٢٥) المستبصر ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، انظر ايضا : لقمان . تاريخ عدن ص ٢٩٩ .
(٢٦) المغر مادة طبية كانت تجلب من كله الواقعة في منتصف الطريق بين عمان والصين في طرف خط الاستواء ، وكله من بلاد الملايو كانت في الاصل مركزا تجاريا مهما يجلب منها العود الكلاهي . السامر. الاصول التاريخية ص ١٨ ، ١٤٥ .
(٢٧) المستبصر ص ١٣٧ .
(٢٨) الجندي. السلوك ج ١ ورقة ٩٨ ، الافضل . العطايا السنية ورقة ٤٣ أ ، الخزرجي . العقد الفاخر ورقة ١٠٧ب .
(٢٩) وردت هذه الكلمة مصحفة غير منقطة هكذا : (العوللى) وسندابور موضع في ساحل الهند ، وكانت هذه المادة تستورد لحساب ضامن دار النبيذ . ابن المجاور المستبصر ص ١٤١ .
(٣٠) ابن المجاور المستبصر ص ١٤٠ ، ١٤١ .
(٣١) نفسه ص ١٤٣ .
(٣٢) سماها ابن المجاور : الديبول ، والديبل بفتح اوله وسكون ثانيه وباء موحدة مضمومة ولام ، وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند ، وهي فرضة كانت تنتهي اليها مياه لاهور وملتان . الحموي . معجم البلدان ٢/٤٩٥ ، وذكر د. السامر ان الديبل هي كراتشي في الهند (السند) . الاصول التاريخية ص ١٤٧ .
(٣٣) ذكر لقمان ان الضرائب لا تفرض على الجواري الجميلات والعبيد الغلمان اذا كانت عيونهم واسعة . تاريخ عدن ص ٢٩٩ .
(٣٤) جواتياين . دراسات ص ٢٥٣ .
(٣٥) نفسه ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .
(٣٦) نفسه ص ٢٦٦ .
(٣٧) نفسه ص ٢٦٣ .
(٣٨) نفسه ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥ .

(٣٩) الدينار الملكي هو دينار اليمن الى ذلك الوقت اي الى العصر الايوبي ، وهو الدينار الذي ضربه الملك المكرم احمد بن علي بن محمد الصليحي ، وكان اول من وحد العملة في اليمن ، والمرجح انه ضرب الدينار الملكي سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م. انظر عن الدينار الملكي المضروب بصنعاء : عمارة المفيد ص ١٢٥ ، ابن المجاور المستبصر ص ١٤٥ . العقيلي . المخلاف السليماني ج ٢/ ٤٠ ، لقمان . تاريخ عدن ص ٣٠٠ ،
Lowick, Some unpublished Dinars, p. 262.

وتجدر الاشارة الى ان الدينار الملكي قد ضرب في عدن ايضا ، وذلك من خلال العملات التي عثر عليها ، وكان اول دينار مضروب بعدن سنة ٤٨٦هـ /١٠٩٣م، واستمر ضربه في فترات متقطعة حتى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م، للتفصيل انظر :

Bikhazi, Coins of Al — Yaman, pp: 87 — 104, Lowick, op, cit, pp: 262— 269.

(٤٠) ابن المجاور . المستبصر ص ٨٩ ، ١٤٥ .

(٤١) وهي موجودة ضمن مجموعة وثائق الجنيزة الخاصة بتجارة الهند ، وقد قام جواتيابن بدراستها وجمعها . جوايتاين . دراسات ص ٢٦٧ هامش المترجم .

(٤٢) انظر عن القائمتين : جواتيابن . دراسات ص ٢٦٧ـ ٢٦٨ .

(٤٣) نفسه ص ٢٦٨ .

(٤٤) نفسه ص ٢٦٨ .

(٤٥) نفسه ص ٢٦٩ .

(٤٦) د. حسن ابراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٤ .

(٤٧) Goitein, S.D. Amediterranean Society, vol. I.P. 351.

(٤٨) Goitein, S.D. Two Eyewitness. p. 249.

(٤٩) جواتيابن . دراسات ص ٢٦٠ .

(٥٠) انظر عن تفاصيل تلك الغزوة : ابراهيم ، د. محمد كريم . عدن . دراسة في احوالها السياسية والاقتصادية ص ١١٦ ـ ١٢٦ .

(٥١) جواتيابن . دراسات ص ٢٠٠ ، ٢٦١. Goitein, Two Eyewitness. pp: 242 — 250.

(٥٢) انظر عن الوثيقتين : د. محمد كريم ، عدن ص ١٢٤ ـ ١٢٥ . Goitein, op. cit, pp: 254 — 255.

(٥٣) Goitein, op. cit. pp: 254 — 255

(٥٤) انظر عن الشيخ بلال بن جرير ووفاته : د. محمد كريم . عدن ص ١٥٩ ـ ١٦٥ .

(٥٥) جواتيابن . دراسات ص ٢٦١ .

(٥٦) فيروزكوه معناه : الجبل الازرق ، وهي قلعة عظيمة حصينة في جبال غورشستان بين هراة وغزنة ، الحموي . معجم البلدان ٤/ ٢٨٤ .

(٥٧) المستبصر ص ١٤٦ .

(٥٨) نسبة الى فروانة ، وهي بليدة قريبة من غزنة . الحموي . معجم البلدان ٤/٢٥٧ .

(٥٩) المستبصر ص ١٤٠ .

(٦٠) سقطرة : اسم جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن ، وهي اكبر الجزر العربية في خليج عدن وبحر العرب . وهي الى بر العرب اقرب منها الى بر الهند ، واكثر اهلها نصارى عرب . انظر عنها : الحموي . معجم البلدان ٣/ ٢٢٧ ، ابن المجاور المستبصر ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ، لقمان . تاريخ الجزر اليمنية ص ٣٥ فما بعد .

(٦١) ابن المجاور المستبصر ص ٢٦٨ ، حوراني . العرب والملاحة ص ٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ .

(٦٢) الشواني : هي اقدم انواع السفن ، وتسمى : الشيني ، والشونة المركب المعد للجهاد في البحر ، والجمع الشواني لغة مصرية ، وكانت الشواني في العصور الوسطى من اهم قطع الاسطول الاسلامي ، لأنها اكبر السفن واكثرها استعمالا لحمل المقاتلة للجهاد .
ماهر، د. سعاد . البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٥٢، عبدالعليم . ابن ماجد الملاح ص ١٥٣ .

(٦٣) المستبصر ص ١٤١ .

(٦٤) دراسات ص ٢٢٤ .

(٦٥) شهاب ، حسن صالح . اضواء على تاريخ اليمن البحري ص ٢٥٣ .

(٦٦) احمد صالح رابضة . تاريخ جزيرة صيرة ص ٥ .

(٦٧) المستبصر ص ١٤١ .

(٦٨) المخلاف السليماني ج ١ ق ١/ ١٩٩ . وقد ازدادت نسبة عشور الشواني في عهد الملك المسعود يوسف بن محمد بن ابي بكر بن ايوب الى ١٠٪، لتغطية نفقات ومصاريف الشواني التي قدرت بين ٥٠ ـ ٦٠ الف دينار سنويا ، واستمرت تلك الزيادة حتى سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م ، ثم اشتكى الناس منها ، لأنها كانت تؤخذ سواء سافرت السفن ام لم تسافر ، فامر الملك المسعود بالغاء عمل الشواني ، لكن عشورها بقيت . انظر عن رسم الشواني : ابن المجاور . المستبصر ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، لقمان . تاريخ عدن ص ٧٠ ـ ٧١ ـ ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ، العقيلي . المخلاف السليماني ج١ ق١ / ١٩٨ ـ ١٩٩ . شهاب. اضواء ص ٢٥٣ .

(٦٩) جواتياين . دراسات ص ٢٢١ ، انظر ايضا ص ٢٧٥ .
(٧٠) نفسه ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٧١) نفسه ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
(٧٢) ابن المجاور . المستبصر ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .
(٧٣) قلهات : بالفتح ثم السكون واخره تاء . مدينة بعمان على ساحل البحر ترفأ اليها اكثر سفن الهند ، وهي فرضة تلك البلاد ، وقد تمصرت بعد سنة خمسمائة . الحموي . معجم البلدان ٤/٣٩٢ .
(٧٤) ابن حاتم . السمط الغالي ص ١٣١ .
(٧٥) المستبصر ص ٢٦٨ .
(٧٦) معجم البلدان ٣/٢٢٧ .
(٧٧) Goitien, Two Eyewitness, pp: 254 — 255. جواتياين . دراسات ص ٢٦١ .
(٧٨) المستبصر ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ، انظر ايضا : لقمان . تاريخ عدن ص ٢٩٨ .
وتجدر الاشارة الى ان عشور الشواني قد فرضت على عدد من البضائع الواصلة الى عدن من الهند ، وقد شكلت هذه العشور مع غيرها من العشور المفروضة على البضائع والسلع التجارية الاخرى موارد مهمة لميناء عدن . وابرز تلك البضائع التي فرضت عليها عشور الشواني والواصلة من الهند هي : الفلفل ، الطباشير ، عود الدفواء ، القرنفل ، النيل (النيلج)، العولى السندابوري ، انظر : ابن المجاور . المستبصر ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

مصادر ومراجع البحث

أ ـ المخطوطات :

* الافضل الرسولي . الملك العباس بن علي . (ت : ٧٧٨هـ / ١٣٧٧م).
العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية . نسخة دار الكتب المصرية . رقم (٣٥١) تاريخ .
* الجندي . بهاء الدين ابوعبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب . (ت : ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)
ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك . ويسمى : تاريخ العلماء والاولياء والملوك . ج١ . نسخة المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء رقم (٤٦) تاريخ وتراجم .
* الخزرجي . ابوالحسن علي بن الحسن بن وهاس . (ت : ٨١٢هـ /١٤٠٩م) .
ـ العقد الفاخر الحسن في طبقات اكابر اليمن . نسخة المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء . رقم (١٣٦) تاريخ وتراجم .

ب ـ المصادر العربية القديمة :

* ابن حاتم . الامير بدرالدين محمد بن حاتم بن احمد . . كان حيا سنة ٧٠٢هـ /١٣٠٢م)
ـ السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن . تحقيق : ركس سمث . منشورات مكتبة لوزاك. (لندن . ١٩٧٤م) .
* ابن خلدون . عبدالرحمن بن محمد . (ت : ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) .
ـ تاريخ ابن خلدون . المسمى : العبر وديوان المبتدأ والخبر .. مجلد ٤ . قسم ٢ . منشورات دار الكتاب اللبناني . (بيروت. ١٩٦٨م) .
* ابن المجاور البغدادي النيسابوري . ... بن محمد بن مسعود بن علي بن احمد . (توفي بعد سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .
ـ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز . المسماة . تاريخ المستبصر . قسم ١ . ٢. تحقيق: اوسكار لوفغرين ، مطبعة بريل . (ليدن . ١٩٥١ . ١٩٥٤م) .
* ابو الفدا . عماد الدين اسماعيل بن علي . (ت : ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)
ـ تقويم البلدان . باعتناء : رينود والبارون ماك كوكين ديسلان . (باريس . ١٨٤٠م) .
* الجوهري . اسماعيل بن حماد . (ت : ٣٩٣هـ /١٠٠٢م) .
ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية . ج ٣. تحقيق: احمد عبدالغفور عطار . (القاهرة. ١٣٧٧هـ /١٩٥٧م) .
* الحموي . ياقوت بن عبدالله . (ت : ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

- المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تحقيق : فردناند وستنفلد ، (كوتينجن ، ١٨٤٦م) .
- معجم البلدان ، ج ١، ٣، ٤، (بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٧م) .
* الحميري ، ابو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ، (من علماء القرن الثامن الهجري) .
الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق : د. احسان عباس ، منشورات مكتبة لبنان ؛ (بيروت، ١٩٧٥م) .
* شيخ الربوة ، شمس الدين ابو عبدالله محمد الانصاري ، (ت : ٧٢٧هـ /١٢٢٦م) .
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، (بطرسبورغ ، ١٨٦٥م) .
* عمارة اليمني ، نجم الدين عمارة بن علي ، (ت : ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) .
- تاريخ اليمن ، المسمى : المفيد في اخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها واعيانها وادبائها ، تحقيق : محمد بن علي الاكوع الحوالي ، الطبعة الثانية ، (القاهرة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) .
* القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي، (ت : ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، مطابع كوستاتوماس وشركاه ، (القاهرة - بدون تاريخ) .
* المنجم ، الشيخ اسحاق بن حسين ، (من علماء القرن الخامس الهجري) .
- اكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ، طبعة مصورة اوفست باشراف مكتبة المثنى ، (بغداد ، بدون تاريخ) .
* الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب، (توفي بعد سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) .
- صفة جزيرة العرب ، تحقيق : محمد بن علي الاكوع الحوالي ، منشورات دار اليمامة ، (الرياض، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) .

ج - المراجع العربية الحديثة :

* اباظة ، د. فاروق عثمان .
- عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة، ١٩٧٦م) .
* ابراهيم ، د. محمد كريم .
- عدن ، دراسة في احوالها السياسية والاقتصادية، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، (البصرة، ١٩٨٥م) .
* الافغاني ، سعيد .
- اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، الطبعة الثانية ، (دمشق ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) .
* الجنحاني ، د. الحبيب .
- دور عمان في نشاط التجارة العالمية خلال العصر الاسلامي الاول ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد (٢٢) (بغداد، ١٩٨٢م) .
* جواتياين ، د. س.
- دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، تعريب وتحقيق : د. عطية القوصي ، (الكويت، ١٩٨٠م) .
* جواد علي (الدكتور) .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٧ ، الطبعة الاولى، منشورات دار العلم للملايين ، (بيروت، ١٩٧١م) .
* حسن ، د. حسن ابراهيم .
- تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثانية، (القاهرة ، ١٩٥٨م) .
* حوراني ، جورج فضلو .
- العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى ، ترجمة : د. السيد يعقوب بكر ، (القاهرة ، ١٩٥٨م) .
* رابضة ، احمد صالح .
- تاريخ جزيرة صيرة ، (عدن، ١٩٨٥م) .
* السامر ، د. فيصل .
- الاصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق الاقصى ، الطبعة الاولى ، بغداد ، ١٩٧٧م) .
* سيد، ايمن فؤاد .
- مصادر تاريخ اليمن في العصر الاسلامي ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، (القاهرة، ١٩٧٤م) .
* شهاب ، حسن صالح .
- اضواء على تاريخ اليمن البحري ، الطبعة الثانية ، منشورات دار العودة، (بيروت ، ١٩٨١م) .
* عبدالعليم ، د. انور .

- ابن ماجد الملاح ، (سلسلة اعلام العرب: ٦٣) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، (القاهرة ، ١٩٦٧م) .
- الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، (سلسلة عالم المعرفة : ١٣)، (الكويت، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م) .
* العبدلي ، الامير احمد فضل بن علي محسن .
- هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن ، الطبعة الثانية ، منشورات دار العودة ، (بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م) .
* العقيلي. محمد بن احمد عيسى .
- من تاريخ المخلاف السليماني او الجنوب العربي في التاريخ ، ج١ ، قسم ١ ، (الرياض ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م)
* القاسمي ، خالد بن محمد .
- الوحدة اليمنية حاضرا ومستقبلا ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، (الكويت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) .
* كحالة ، عمر رضا .
- جغرافية شبه جزيرة العرب ، الناشر فؤاد هاشم اكلبتي ، المطبعة الهاشمية ، (دمشق ، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٤م) .
* لقمان ، حمزة علي ابراهيم .
- تاريخ الجزر اليمنية ، مطبعة يوسف وفيليب الجميل ، (بيروت، ١٩٧٢م) .
- تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، دار مصر للطباعة ، (القاهرة، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) .
* ماهر ، د. سعاد .
- البحرية في مصر الاسلامية و آثارها الباقية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، (القاهرة ، ١٩٦٧) .
* مخول ، قيصر اديب .
- الاسلام في الشرق الاقصى ، تعريب : الدكتور نبيل صبحي ، (بيروت ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) .

د ـ المراجع الاجنبية :

Amediterranean Society, vol, I, (california, 1967).
. . Schoff, W.H. (The editor).

The Periplus of the Erythratan Sea, (London, 1912).
The New Encyclopaedia Britannica, vol, 19, (Yemen — Aden), By: Mahmud Ali Ghul, 15 th edition. (U.S.A, 1974).

هـ ـ الدوريات الاجنبية

. . Bikhazi, Ramzi, J.

Coins of Al — Yaman 132 — 569 A.H, Al — Abhath, vol, XXIII, Nos 1 — 4, (Beirut, December 1970).
. . Goitein, S.D.

Two Eyewitness Reports of an Expidit ion of the King of Kish (Qais) against Aden, Bullatin of the School of oriental and Afreican Studies, vol, XVI, Part II, (London, 1954).
. . Lowick, N.M.

Some unpublished Dinars of the Sulayhids and Zurayids, The Numismatic chromicle, vol, IV, (London, 1964).

بحوث التاريخ القديم والآثار

ان كل جهد ايجابي انساني هو سعي الى غاية .. والعلم من بين الجهود الانسانية سعي الى غاية معينة هي الحقيقة ، وبقدر ما يكون هذا السعي خالصا ، وبقدر ما ينطق بقوة وتراكم ، تعلو قيمته ويفرز فعله وتتعاظم نتائجه . والتاريخ يشارك غيره من العلوم في أنه مثلها سعي وجهد ..

نظرة في حياة زينفون وكتاباته

د. سامي سعيد الاحمد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

١ ـ ولادته :

من الصعوبة بمكان معرفة السنة التي ولد بها زينفون . ويفضل كثير من الباحثين سنة ٤٣٠ ق.م.(١) ويرفض هذا التاريخ ممن يأخذ بصحة الرواية التي تذكر ان سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق.م.) عرف زينفون لأول مرة عندما انقذ سقراط حياته في معركة ديليوم سنة ٤٢٤ ق.م . والتي دحر بها البيوشيون اثينا وبذلك يرجحون تاريخا حوالي سنة ٤٤٤ ق.م. على اساس ان زينفون لابد ان كان عمره في تلك المعركة لا يقل عن العشرين .

ومن الجدير بالذكر ان القصة الاخيرة ليست موثقة الى الحد الذي يمكن اخذها كحقيقة تاريخية . فقد اشار لها زينفون نفسه مرة واحدة فقط ولم يذكرها اي كاتب آخر معاصر لهما . وان سترابون (حوالي ٦٣ ق.م. ـ ٢١ م) وديوجينس الليرتي من كليكيا بآسيا الصغرى (القرن الثالث الميلادي) اللذان ذكرا كون سقراط قد حمل زينفون الى مسافة بضع ستاديا على كتفه عندما سقط من على حصانه عند هربه ، لابد وان اخذاها عن زينفون نفسه . علما بان الغالبية الساحقة من الباحثين ينقلون الرواية التي تجعل اول مقابلة بين سقراط وزينفون كانت عن طريق الصدفة في احد ازقة اثينا عندما كان زينفون في نهاية العقد الثاني من عمره . وربما نسجت رواية انقاذ سقراط لزينفون في معركة ديليوم لتفسير سر العلاقة القوية بين الاثنين وتحمس زينفون في الدفاع عن سقراط .

تكاد تجمع الروايات المتوفرة على حسن زينفون الجاهر ووسامة شكله ، وحتى تذكر ان جاذبية زينفون كانت السبب في بداية تعرف سقراط به . فبينما كان سقراط يسير في احد ازقة اثينا الضيقة ذات يوم ابصر بزينفون وكان آنذاك في نهاية العقد الثاني من عمره ، فاعجب بجماله واستوقفه بعصاه مستفسرا عن مكان بيع حاجيات منزلية معينة . وكان جواب زينفون في غاية اللطف والرقة فابتدره سقراط بالسؤال (اين تجد الرجال من ذوي العقلية الرفيعة) فلم يقدر زينفون على الاجابة ، وهنا طلب سقراط منه ان يتبعه فتبعه وصار ملازما له . ويظهر ان العلاقة بين الاثنين ظلت اعتيادية وغير حميمة حيث ذكر زينفون مرة بانه لا يعرف سقراط كل المعرفة وعن قرب(٢) .

حياتـــه :

زينفون هو ابن غريللوس من مواطني منطقة ارخيا بأتيكا وربما كان من قبيلة ايجيس Aegeis لان منطقة ارخيا كانت خاصة بتلك القبيلة . وكان غريللوس فلاحـا ثريـا علم زينفون قيمـة العمل الشـاق والعيش الشريف . ونعـرف ان زينفون اطلق على ولده الاكبر اسم والده غريللوس مما قد يدلل على اعجابه بوالده . ويظهر ان غريللوس قد حرص على تعليم زينفون فارسله في عمر مبكر الى اثينا للدراسة[٣]. ولابد وانه درس فيها الالياذة والاودذيسة المنسوبتين الى هوميروس وكتابـات هسيود والمواضيع التقليديـة التي كانت تـدرس بالمدارس الاثينية وقتذاك .

ورغم وجود تناقض حـول مدى قـوة علاقـة زينفـون بسقراط حتى عنـد زينفون نفسـه فان الاخير لابد وان اتصل به منذ حداثة سنه وتعلم منه دروسا في معاني الحياة . واذا قارنا كتابات زينفون مع تلك لتلاميذ سقـراط الآخرين امثـال افلاطون (٤٢٨ ـ ٣٤٨ ق.م) واقليدس الميغاري (المعروف ايضا بـاسم السقراطي لتعلمـه على سقراط) (٤٥٠ ـ ٣٨٠ ق.م) لاستنتجنا بـأن زينفون لم يأخـذ بالفكـر التأمـلي الذي اهتم به الاخيران . ولو ان زينفون لم يخبرنا عن تدريب عسكـري له ولكن من الصعب القـول بـأنـه لم يحصل على قسـط كاف من التـربية العسكـرية وحتى من بروزه فيها ومهارته بها مما قـد يفسر حرص صديقه بروكسينوس الطيبي على ضرورة انضمـامه الى حملة كـورش الصغير ضـد اخيه ارتمشستا الثاني .

يـخبـرنـا زينفـون في كـتـاب الصـعـود (الانابيسيس) بان صديقه بـروكسينوس قـد بعث اليه برسالة دعاه فيها الى الانخراط معه في حملة كورش حاكم آسيا الصغرى دون ان يبين له وجهة الحملة . وقد استشار زينفون سقراط الذي لم يشجعه على الانضمام لها لأنها تعني صداقته مـع كورش الامـر الذي سيثير اثينـا ضده لان كورش كان قد ساعد اسبارطة في حربها مع اثينا . ولكن سقراط اشار على زينفون باستشارة موحى الاله ابولو في دلفاي .

وفعلا ذهب زينفون الى الموحى المذكور وسأل الاله ابولو « اي اله اتعبد اليه واقدم له الاضاحي حول ذهابي الى الحملة فأعود سالما فأجابه الوحي بان يضحي للالهة ذات العـلاقة بـذلك . واخبر زينفون سقراط بنصيحة وحي دلفاي فلامه الاخير حول طريقة الاستخارة حيث كان الاصح ، حسب ما ذكر من قول سقراط ، ان يكـون سؤال الاله ابولو بالحرف الواحد (هـل من الاحسن لي ان التحق بالحملة ام لا ؟).

وهكذا قدم زينفون الاضاحي الى الاله الخاص وانضـم الى الحملة . ولكن زينفـون كـان محبـا للمخاطرة وكثيرا ما كان يتذكر ان متنبئاً كان قد اخبره انه كلما كان اكثر مخاطرة كثر رخاؤه وزاد ثراؤه. ولا اساس لما ذكر بان زينفون لم يستشر مـوحى دلفـاي[٤] ، الا اذا كـان تفسيـرهـم لاستفسار زينفون من الوحي قد اوحى لهم بذلك .

وقد وصل زينفون الى سارديس في ليديا بآسيا الصغرى وعاصمة كورش الصغير الاقليمية فقابل بروكسينوس الذي عرفه على الامير كورش الذي رحب به غاية الترحيب . وكان وصـول زينفون في وقت كانت به الحملة عـلى وشك التحـرك . وقد اخبرنا زينفون في كتابه الصعود بانه قد اصطحب الحملة ليس كقائد ولا ضابط حتى ولا جندي غير اعتيـادي[٥]. ومن الصعب تصـديق مثـل هـذا الادعـاء الذي قدمـه زينفون ، فتـرحيب كورش الحار بزينفـون عند التحـاقه بـالحملة والمركـز المحتـرم الذي تمتع بـه لدى المـراتب في الحملة واختياره لقيادة الحملة في عودتها ثم تعيينه معاونا الى بروكسينوس صديق زينفون الذي دعاه واحد قواد الحملة وتكليف زينفون بواجب الاشراف على تجنيد وتدريب المشتركين في الحملة[٦] كلها امور تحملنا على استبعـاد قول زينفـون بانـه التحق بـالحملة دونما اي مـركز وكجنـدي اعتيـادي ، فالادلة التي ذكرناها تشير الى كونه مدربا عسكريا وانه لابد وان اعطي رتبة كي يحـظى باحتـرام مراتب الحملة .

وقد تألم الاثينيون لدى سماعهم خبر التحاق زينفون بحملة كورش . وسوف نبحث تفاصيـل الحملة عند معالجة كتاب الصعود . وعندما رجع زينفـون من الحملة ظلت الرغبـة في المخـاطرة تساوره ، فالحملة المعروفة بحملة العشرة آلاف هـذه قد ركـزت اعتقاده بـانـه قـد خلق ليقـود (ارخيكـوس انير) وحتى ان مـوضـوع قصـة اخرى لزينفون وهي السايروبيـديا كـان الرجل الذي ولد كي يقـود .. فالتحق في صفـوف الملك الاسبـارطي اكيسيلاوس (٣٩٨ ـ ٣٧١ ق.م) خلال حملاته العسكرية واشترك معه في معركـة كورونيا في آب سنة ٣٩٤ ق.م. بين اسبارطة من جهة واثينا وطيبـة وكورنيث وارغـوس من جهة ثانية ، وكانت معركة حامية الوطيس دحرت بها

الميمنة الاسبارطية ارغوس ولكن ميسرتهم هربت امام ضربات طيبة التي هاجم مقاتلوها بعد ذلك الميمنة الاسبارطية . ورغم ان اسبارطة خرجت من هذه المعركة منتصرة الا ان نصرها قد كلفها كثيرا مما اضطر اكيسيلاوس على اخلاء بيوشيا[٧] . وكان غضب الاثينيين على زينفون بعد التحاقه بصفوف اكيسيلاوس كبيرا خاصة بعد تحالف اثينا مع فارس سنة ٣٩٥ ق.م. واعلان اثينا سنة ٣٩٤ ق.م. الحرب على اسبارطة فاصدروا امرا بنفيه ومصادرة املاكه . فخلافا لما ذكر البعض[٨] فان الاثينيين لم يصدروا الامر بنفي زينفون عند التحاقه بكورش الصغير ولصداقته مع الامير الفارسي، نعم انه كان في آسيا عند صدور امر النفي ولكن ليس في معية كورش بل مع اكيسيلاوس ملك اسبارطة ، ولكن لماذا لم تنفي اثينا مواطنها زينفون عند التحاقه بصفوف كورش وفارس هي عدوة اثينا اللدودة ؟ قد يكون عداء اكيسيلاوس السافر لاثينا وحربه اياها في كورينة احد الاسباب ثم معرفة اثينا بان حملة كورش لم تكن موجهة ضدها او اية دويلة يونانية ان لم تكن لحرب اخيه الملك الفارسي . اضافة الى ان الحملة كانت تضم كثيرا من المرتزقة الاثينيين وكون الانخراط في الجيوش الاجنبية كان امرا متعارفا عليه آنذاك ولم تعارضه الدويلات اليونانية لأنها وجدت فيه حلا لمشكلة البطالة . واعطى الاسبارطيون زينفون مقاطعة زراعية قرب مدينة سكيللوس (ربما تكون سكينكو ماكوس الحالية في اليونان) بمنطقة اليس قرب اولمبيا . وهنا وجد زينفون بعد تسريحه الوقت الكافي للكتابة فدون غالبية كتاباته وانبرى يحسن المنطقة التي استوطنها بما جلب معه من ثروة طائلة خلال حملتي العشرة آلاف واكيسيلاوس في آسيا . فزين منطقة سكيللوس بما في ذلك المعابد بالقطع الفنية وشيد على نفقته الخاصة معبدا الى المعبودة دايانا يماثل مزارها في افيسوس بآسيا الصغرى . وخصص قسما من وقته ايضا للصيد وتربية الخيول التي ولع بها .

يختلف الباحثون حول السنة التي رفعت اثينا بها عقوبة النفي عن زينفون . ويظهر من كلام زينفون ان العقوبة قد رفعت بعد تحالف اسبارطة مع اثينا[٩] والذي تم سن ٣٦٩ ق.م. على الاغلب . وان من اعتبر رفع اثينا للنفي قد تم سنة ٣٦٢ ق.م. اخذ باحتمال عقد اثينا لحلفها مع اسبارطة في تلك السنة لمواجهة طيبة التي حاربها في معركة مانتينا بتلك السنة .

يظهر ان زينفون قد هرب الى مدينة كورينث عندما حرر الايليون لاسكيللوس حوالي سنة ٣٧١ ق.م من الاسبارطيين حيث ظل بها حتى مات ولم يرجع الى اثينا . وفي الوقت نفسه عاد ولداه الى اثينا حيث نعرف انهما قد اشتركا الى جانب اثينا في معركة مانتينا سنة ٣٦٢ ق.م التي نشبت بين اسبارطة وحليفتها اثينا من جهة ضد طيبة من جهة اخرى . وكان ولدا زينفون (غريللوس وديودوروس) كوالدهما في الشجاعة ، وقد قتل في هذه المعركة ولده الاكبر غريللوس بعد ان سدد الضربة القاضية الى ابيا مينونداس ملك طيبة الذي قاد الجيوش الطيبة في معركة مانتينا . وقد بكت عليه اليونان كلها واطلق اليونانيون عليه وعلى اخيه الاسم ديوسكوري وهو الاسم الذي اطلق على كاستور ويوليديونس اللذين كرمهما الاله زووس باعتقاد اليونانيين ، لشجاعتهما بان جعلهما احياء في عالم الموتى .

والمعروف ان زينفون لم يرجع الى اثينا بعد رفع عقوبة النفي عنه وفي وقت نعلم به عن عودة ولديه اليها . وربما يكمن السبب في عدم ايمانه بالديمقراطية التي تتبعها اثينا والتي راح ضحيتها استاذه سقراط دون ذنب جناه ، برأيه . خاصة وان زينفون كان قد خدم فارس واسبارطة وتطوع ضمن قواتهما المسلحة وحارب بلدته مع الاخيرة مرة كما رأينا ، وعوقب بالنفي لسنين عدة . فربما اعتقد بان سكناه في اثينا لا يعطيه الامان الذي ينشده ومن المحتمل ان له اعداء فيها يخشى بطشهم لانه سبق لبعض الاثينيين ذات مرة ان تآمروا ضده بالاتفاق مع القائد الاسبارطي هارموست ثيبرون[١٠] .

كان زينفون سعيدا في حياته الزوجية ، عكس استاذه سقراط . وزوجته كانت فيليسيا التي رزق منها بولدين هما غريللوس وديودوروس . ويصعب معرفة تاريخ زواجه منها ولكننا نعلم ان الملك الاسبارطي اكيسيلاوس كان قد اقترح على زينفون، على حد قول بلوتارخ ، ارسال ولديه للتعلم في اسبارطة كي يدرسا خير المعارف « ليتعلموا كيف يطيعون وكيف يقودون[١١] » .

ففي سنة ٣٩٤ ق.م. كان ولدا زينفون كبيرين بحيث يفكر في ادخالهما المدارس . فاذا كانا في اعمار تقارب العاشرة فمعنى هذا ان زينفون قد اقترن بفيليسيا سنة ٤٠٥ ق.م. اي انه كان متزوجا عندما التحق بحملة العشرة آلاف . وان الحلم الاول الذي رواه في كتاب الصعود عن رؤيته سقوط صاعقة من السماء على بيت والده قد تدل

على انه ليس فقط متزوجا في بداية التحاقه بالحملة بل يعيش ايضا في بيت منفصل عن دار والده . ونعرف ان فيليسيا وولديها قد التحقوا به خلال فترة اقامته في سكيللوس . ويصعب القول انها عادت بعد رفع النفي عن زوجها الى اثينا مع ولديها اللذين لابد وان كانا كبارا في السن آنذاك وربما متزوجين اضافة الى صعوبة تركها لزوجها يذهب لوحده الى كورينث ليعيش بقية حياته .

وفاتـــه : تكاد تتفق الآراء على وفاة زينفـون في مدينة كورينث[١٢]. ويتركز الاختلاف بين الباحثين حول سنة وفاته وعمره وقت موته ، فالذين يتقبلون رواية انقاذ سقراط له في موقعة ديليوم يجعلون سنه تسعين عاما[١٣] . وجعلوا سنة وفاته ٣٥٩ ق.م.[١٤]، ولما كان زينفون قد ذكر في كتابه هيلينيكا اغتيال اسكندر من فيراي Pherae (وهي مدينة في تيساليا باليونان تتمثل الآن بمدينة Velestino فيليسيتنو (اليونانية) الذي وقع سنة ٣٥٧ ق.م فذكر زينفون لهذا الحدث يثبت بانه توفي بعد هذا التاريخ . وارجح القول بوفاته سنة ٣٥٥ ق.م. عن عمر يناهز الثمانين سنة[١٥] .

كتاباته : ترك زينفون عدة تآليف سنلقي نظرة على المهمة منها في ادناه :

١ ـ **الصعود** : الانابيسيس : ولا نعرف هل ان هذا الكتاب شمل كل الكتب السبعة او الاربعة فقط ، وقد اخبرنا فيه شيئا عن حياته الاولى والتحاقه بحملة العشرة الآف ونصيحة سقراط له باستشارة موحى دلفاي ثم اسباب الخصام بين كورش الصغير وشقيقه ارتحشستا الثاني . فنقرأ كيف ان هدف الحملة كان سريا بادىء بدء لم يعرف به الا القليلون منهم كلير خوس القائد اليوناني . ولم يعرف الجنود باتجاه الحملة الصحيح الا عند جبال طوروس حيث كانت مساكن البيسيديين الذين ادعى كورش بان الحملة موجهة ضدهم . وسارت الحملة الى بلاد بابل واصطدم الجيشان عند كونوكسا (ربما تل الكنيسة قرب المسيب الحالية) وكاد النصر يكون حليف كورش لولا تسرع الاخير في الاندفاع لقتل اخيه فاصابه سهم تحت عينه ارداه قتيلا ، وتعرض زينفون الى خداع الفرس لهم قتلوا نتيجته جميع قادة الحملة اليونانيين . وهنا خطب زينفون في الجند ورفض الجميع الاستسلام الذي طلبه منهم الفرس واقترح انتخابهم لقادة جدد تم انسحابهم من حيث اتوا . وفعلا تم اختياره قائداً واخذ على عاتقه ارجاع الجيش . فكتاب الصعود عبارة عن سجل يومي لاحداث تلك الحملة وما لاقى جنودها من المتاعب والمخاطرات خاصة في طريق عودتهم على طول نهر دجلة حتى وصولهم ساحل البحر الاسود . وربما يكون زينفون قد اتصل بالكوردو خيين قرب زاخو وان الموقع الحصين الذي ذكر مرور الجندية بعد مسيرة اكثر من خمسة ايام من ماسبيلا (يتوى) لابد وان يكون مضيق زاخو المعروف باسم كلي سبي (المضيق الابيض) الذي يقع فعلا على نفس البعد من الموصل الحالية .

وعندما وصل زينفون مع جنيده آسيا الصغرى قسم الغنائم معطيا عشرها الى الاله ابولو والالهة دايانا كما اراد تأسيس مستوطنة لجنوده على نهر الناسيس (وهو نهر ريون او ريوني الحالي الذي كان يعين بالعصور القديمة الحد الفاصل بين اوروبا وآسيا) . ثم التحق زينفون بجنود الرئيس التراقي سيوثيس الذي لم يحفظ عهوده بدفع الرواتب . واخيرا سلم زينفون زمام الجيش الى القائد الاسبارطي ثيبرون ، وهنا توقف زينفون وتنتهي قصة الصعود[١٦] .

المعروف ان كتاب الصعود هو اقدم كتابات زينفون رغم انها تحوي اشارات الى حياته في سكيللوس والتي هي في الغالب اضافات متأخرة الى الكتاب . ويقال ان سبب كتابته لكتاب الصعود كان ما لفق الاثينيون من اخبار عن احداث الحملة وتجاهلوا بذلك دور زينفون نفسه[١٧] . وقد يكون السبب هو اعداد رد على ما كتبه سوفينيتوس الستيمفالوسي عن الحملة الذي كان اكبر الضباط الذين رافقوا الحملة سنا . ويذكر زينفون بان سوفينيتوس قد غرم مرة غرامة فادحة لعدم اطاعته الاوامر[١٨] . ولذلك ، كما قال زينفون فان ما كتبه عن الحملة يحتاج الى تصحيح . واخرج زينفون كتابه الصعود باسم مستعار هو ثيموستيجينيس السرقوسي (سراكيوز)[١٩] ولكن من يتفحص الاسلوب يراه اسلوب زينفون المتميز ، وكان سبب كتابته باسم مستعار في الغالب هو ان زينفون كان في وقت كتابته يعيش في منفاه بسكيللوس . والمعروف انه لم يكن يسمح للشخص المحكوم بالنفي ان يكتب او يتكلم او يتملك اي شيء . واذا كتب فان مدوناته تحرق ويحاكم من تضبط بحوزته او بائعها ولذلك اضطر زينفون الى استعمال اسم مستعار[٢٠] .

ان اسلوب كتاب الصعود ماهر واصيل وتشبيهاته جميلة وقد نجح فيه رغم انه وقع في

بعض الاخطاء في تقدير المسافات وتفاصيل الحقائق . وان الخطب التي اوردها في الكتاب جاءت فقيرة وغير مقنعة رغم كونها صريحة وتدل على اهتمامه[٢١] . والكتاب قطعة تاريخية رائعة يظهر بها ولع زينفون في الشخصيات لأنه مليء بملامح قصيرة عن مختلف القادة والضباط الذين اشتركوا في الحملة وبالقصص التي تجعله كتابا متكاملا . ومن يقرأ كتاب الصعود تتبلور عنده الفكرة عن اسباب غالبية الاحداث التي وقعت خلال الحملة حيث يشرح به زينفون دوافع وقابليات الرجال ذوي العلاقة . وقيل ان الاسكندر المقدوني قد قرأ كتاب الصعود وعرف منه ضعف الفرس الذي اوضحه الكتاب الامر الذي دفع بالملك المقدوني الى الاسراع بالحملة . وكان كتاب الصعود خلال العصور التي تلت خير موضح لاسس المنطق العسكري والطرق في السياسة والقتال الى جانب كونه مصدرا تاريخيا مهما . فقد اورد الكتاب الشيء الكثير عن عادات وحضارة الشعوب في المناطق التي مر بها . وكان وصفه لاحداث الحملة دقيقاً بالزمان والمكان لأنه شاهد عيان . وربما يكون سبب مدحه لكورش الصغير يكمن في فضل الاخير عليه وليس لميزاته الحقيقية . واذا كان هذا الافتراض صحيحا فانه سيؤثر كثيرا على سمعة زينفون ككاتب يورد الحقائق كما هي وينشد الحقيقة اين ما كانت . ونراه في كتاب الصعود يورد حتى الامور التافهة والاشاعات التي يسمعها عن الاشخاص ذو القيمة . فمثلا اخبرنا عن الاشاعة التي سرت بين كافة المراتب عن اتصال كورش الصغير جنسيا مع ابياكسا زوجة سينيسيس ملك كليكيا[٢٢] . كما نجده يهتم بالاحصاءات وحتى بالصفات الثانوية مثل اهتمام كورش الصغير بالفأل وكثرة استشارته للمتنبيء سيلانوس الذي رافق الحملة ويوسع من اكرامه[٢٣] . ورغم ان هذا الاجراء كان طبيعيا في العصور القديمة ولكن كثرة الاعتماد عليه كان يختلف من ملك الى آخر ، الامر الذي يدل على تعلق كورش الصغير بالفأل وايمانه بالغيبيات والذي قد يشير الى قلة ثقة بالنفس وضعف في الشخصية .

ويعتبر الملك اسر حدون اكثر الملوك الاشوريين اعتمادا على الفأل والاخذ به واستشارة العرافين والمواحي الذي نعرف منها موحى الالهة عشتار الاربيلية . ولكن زينفون نفسه كما يعكسه كتاب الصعود وغيره من مؤلفاته مؤمن بالغيبيات . فقد ذكر لنا بضعا من احلامه ، ففي بدء حملة العشرة آلاف رأى في حلمه ان صاعقة سقطت على بيت والده فأحرقته وقد اعتبر زينفون الحلم فألا حسنا ، لأن النار والصاعقة متأتيتين من الاله زووس[٢٤] . وفي حلم ثان رأى نفسه مقيدا ولكن القيود سرعان ما سقطت من تلقاء نفسها وتحرر هو فاعتبر الحلم حسنا وقدم اضحية عند الفجر جاءت علامات احشائها هي الاخرى مبشرة بفأل حسن[٢٥] . ويظهر ان رأي زينفون في الاحلام مشابه الى تلك لافلاطون وارسطو . ونجد رأي زينفون في تفسير الاحلام بكتابه السايروبيديا حيث نلحظ ايمانه المطلق بالقوة الخفية الموجودة في الانسان نفسه حيث يقول (في النوم تظهر الروح طبيعتها المقدسة بأحسن صورها ، وفي النوم تتمتع الروح بتبصر معين الى المستقبل وهذا ، حسب ما يظهر لكونها اكثر حرية في النوم) ، ثم يقول (وفي الموت يتوقع ان تكون الروح اكثر حرية لأن النوم هو اقرب للموت في خيرة الحياة[٢٦]) .

٢ ـ **السايروبيديا** (حياة كورش) : حاول زينفون في هذا الكتاب ان يصف كيف ان كورش الكبير كان ملكا ، حيث ان هذا الرأي بالذات اعترض عليه افلاطون ومن ثم شيشرون ونعرف ان كورش كان اميرا ثم ملكا لانشان سنة ٥٥٠ ق.م. ثم لايران . ولكن زينفون لم يقصد كورش بالذات بل استعمل اسمه فقط في كتابه لوصف الشروط الواجب توفرها في الملك الجيد . وقد اعتبرها الكثيرون قطعة فنية ولا يمكن اخذها بنظر الاعتبار في اي كتابة عن كورش ، وجعلها البعض اشبه بقصة تاريخية تلقي ضوء على احوال العصر الذي كتبت فيه ليس الا . وجعلها باحث ملخص لجميع نتائج كتابات زينفون الادبية ، فالصعود والاحداث التي ادت الى كتابتها تقدم في الجغرافية والتاريخ والعادات ، وكتاب الميمورابليا يقدم طريقة سقراط في نقاش الاخلاق والشجاعة والحكم . وان كتاب اكيسيلاوس ودستور اسبارطة يقدم اساس الدولة المثالية التي يمكن انشاؤها على التربية اليونانية على نمط الحكومة التي ادارها كورش في السايروبيديا . ومقالات الفروسية والصيد تقدم ايضاحات كاملة عن هذين الضربين من الرياضة . وان الآراء التي وضعها زينفون في الاوبكونو ميكوس عن مركز النساء الاجتماعي والعلاقات المثالية لحياة البيت والزوجة لها ادراكها العملي في قصة بانثيا وابراداتاس[٢٧] . والقصة الاخيرة من وضع زينفون نفسه ، كما يبدو ، اراد بها القول بأن الحاكم المثالي يجب ان يكون عفيفا محسنا يعامل حتى اعدائه

بالحسنى . وتتلخص القصة بان ابراداتاس ملك شوشة قد استسلم الى كورش حال سماعه بان الاخير قد عامل زوجة بانثيا باحسان وعطف عندما اسرها وحتى انه حارب مع كورش حتى قتل(٢٨) .

ولكن الكتاب مليء بالحقائق التاريخية التي تتخللها العديد من افكار زينفون الخاصة ومشاعره مما يجعلها ترجمة حياة غير حقيقية . ولكنها تظل كأثر تاريخي مهم لأنها تتضمن افكار زينفون نفسه . والكتاب الاول من السايروبيديا يذكر طفولة وتربية كورش ولذلك سميت بالسايروبيديا (حياة كورش) وتتعرض الفصول الاخرى الى تقدمه وشهرته . وتقرأ فيها طريقته في تدريب الجيوش وتعامله مع الناس واخبار بعض معاركه . وان عدم الدقة في الكتاب تكمن في نسبة زينفون لافكاره في الحاكم المثالي والطريقة التي يلزم تربيته بموجبها الى كورش . وبقراءة نظرية كورش في الحكم وفلسفته ، كما بينتها السايروبيديا نجدها بالواقع تعرض افكارا شديدة التأثر بآراء سقراط . وربما حوت بعض تفاصيل حياة كورش اوجه حقيقية منها وصلت زينفون مشوهة . وتشكل السايروبيديا ملخصا طيبا لجميع مؤلفات زينفون وتسلط ضوءاً على حياة العصر الذي عاش فيه(٢٩) .

وينطوي الكتاب على تحامل ضد ديمقراطية اثينا وتمنى زينفون لو ان اثينا اتبعت النموذج الاسبارطي في الحكم الذي ذكره باسم فارس . والدولة ، برأي زينفون ، يجب ان تكون اشبه بالجيش اذا ارادت ان تكون كفوءة مثل الجيش برأسها الارجح عقلا مثل قائد الجيش الذي يقوم كل شخص بعمله ضمن نطاق اختصاصه . ونقرأ في السايروبيديا اراء نراها بعد ذلك عند افلاطون وارسطو . فالقانون يجب ان لا يسن ويوضع موضع التنفيذ لدفع الجريمة فقط والتربية يجب ان لا تلقى على عاتق المؤسسات الخاصة . فدولته المثالية (جعلها في كتابه فارس واراد بها كما ذكرنا اسبارطة) حيث القانون خلاق وايجابي ويغرز في الشعب روح التقوى ويقتل فيهم الرغبة للجريمة وارتكاب الشرور . فالتربية في فارس (ويقصد بها اسبارطة) بيد الدولة وتدوم مدة طويلة ، (فقد ذهب الطلاب الفرس (ويقصد الاسبارطيون) الى المدرسة لتعلم الحق كاولادنا عندما يذهبون لتعلم القراءة والكتابة والحساب وان المراقبين الذين تعينهم الدولة لتدريبهم هم المواطنون المسنون الذين انهوا طريقهم الخاص بشرف) .

وبذلك فان فكرة زينفون عن كون الدولة رابطة خلقية وتربوية قد اكدت افكار سقراط ، وقد انتجت هذه التربية حكم رجل حكيم . وهذه مماثلة لافكار افلاطون . فالملكية التي يؤمن بها زينفون هي الملكية العسكرية ، وهنا قد تأثر زينفون بملوك عصره الذين امتزج ببعضهم ، وكانوا عسكريين مثل دايونيسيوس الاول ٤٠٥ ـ ٣٦٧ ق.م. ملك سيراكيوز واكيسيلاوس ملك اسبارطة وكورش الصغير . وبذلك فان الاتجاه الملكي الذي يظهر في السايروبيديا وهيرون هو اتجاه يميز السياسة العملية والنظرية لعصره(٣٠) . علما بان هناك من يشك في اصالة السايروبيديا .

٣ ـ الميمورابليا : وهو في اربعة مجلدات ، بالاساس دفاع عن سقراط واتهامه بافساد الشباب الذي حكم عليه بالاعدام . وقد دافع زينفون عن الخطاب الذي القاه سقراط عند موته . وقد اعترض حول اصالة كتابات زينفون هذه وما يمكن اعتباره منها حقائق تاريخية ثابتة . ويشرح زينفون في بداية هذا الكتاب طبيعة سقراط الدينية ، ويرفض الاتهام الذي وجه الى سقراط بكونه يرفض الآلهة التي تعترف بها الدولة واخذه واجبات غريبة بنظر الاعتبار وافساد الشباب(٣١) . وانكر زينفون امكانية ذلك لأنه هو نفسه كان قد امتثل لنصيحة سقراط ذات مرة باستشارة موحى الاله دلفاي .

ان القسم الاول من هذا الكتاب هو دفاع عن سقراط في محاكمته . ولا يمكن القول بان تفاصيل الكتاب دقيقة لأن زينفون كان في آسيا الصغرى وقت محاكمة سقراط ثم يقدم زينفون محاورة سقراط مع الادعاء . وهنا يظهر ان زينفون قد اعتمد على خطبة القيت وقت الاتهام ، ولكن سقراط ، كما هو معروف ، لم يترك اي اثر مدون ولذلك يصعب جدا اخذ هذه الخطبة على علاتها كوثيقة صحيحة . اما كتابة بوليكراتيس عن سقراط وتهجمه عليه كانسان وما ذكر عن محاكمة سقراط فان هناك اجماعاً على كرهه لسقراط . وذهب زينفون في تفصيلاته للبرهنة بان كل ما اتى به بوليكراتيس فغير صحيح ودافع عن سقراط بسلسلة من المناقشات . ومن الجدير بالذكر ان بوليكراتيس نفسه لم يستند على حقائق فيما كتب عن سقراط ، وبذلك فان زينفون قد دافع ضد اتهامات وجهت لسقراط لم تحدث بالواقع(٣٢) .

ان الميمورابليا هي عبارة عن الامور التي تذكرها زينفون عن سقراط ، ولكنه لم يذكر في دفاعه عن سقراط اي شيء سوى الرد على

الاتهامات التي وجهها له بوليكراتيس . وهذا يوضح بان زينفون لم يكن ليعرف الشيء الكثير عن سقراط وتعطي سندا لمن ينفي وجود علاقة بين زينفون وسقراط .

وفي القسم الثاني من الميمورابليا يقول زينفون (اقترح لكي اعرض كيف ان سقراط قد ساعد اصحابه باعماله واقواله ان اذكر جميع ما اتذكره عنهم[٣٣]) . وان عمل زينفون هذا يوضح بانه قدم كل ما يعرفه عن سقراط والتي لا تنم عن صلة قوية له معه ، فكتاب الميمورابليا خلال فترة اقامته بسكيللوس سنة ٣٩٣ ق.م. نقلا عن آخرين وهي حقيقة اخرى تضعف من اهمية الكتاب وتقلل من قيمته .

ان الكتاب يرينا روح العصر واستغلال البعض للآخرين وانتهازهم فرصة ضعفهم وهي معلومات على غاية الاهمية للمؤرخ حيث تلقي ضوءاً على اوضاع البلد الاجتماعية . وقد اتهم سقراط كما ذكرنا بعدم احترام الهة الدولة الموضحة في اهتمامه بالديمون Daemon الخاص به الذي اوضح متهمو سقراط بانه كان الهه الخاص . واوضح زينفون بان ديمون ما هو الا اصطلاح شامل وقدم عدة امثلة توضح تقوى سقراط واحترامه الآلهة اليونانية . ورد الاتهام الخاص بحب سقراط لاثينا وللعائلة واوضح بان تلاميذ سقراط الذين تطرفوا في ذلك كانوا شاذين ويجب ان لا يعكس تصرفهم اي امر سيء على سقراط . وبقية الكتاب عبارة عن سلسلة من الاحداث واحاديث بين سقراط وآخرين توضح خلق سقراط . وهذه الحقيقة هي الوجه الفريد للميمورابليا اذا ما قورنت مع كتب اخرى عن سقراط . فغالبية الكتابات عن سقراط امثال تلك الى انتيستنيس تتعرض الى فلسفته وتعاليمه الدنيوية في وقت اهتم الميمورابليا بمشاعره الخلقية القوية ولهذا يعتبر من هذه الناحية مهما لمن يهتم بدراسة حياة سقراط الخاصة .

٤ ـ هيرون : ومثل زينفون فيه طاغية سرقوسة (سيراكيوز) هيرون ٤٧٨ ـ ٤٦٧ ق.م. سلف دايونيسيوس الذي عاصره زينفون في نقاش مع الشاعر سيمونيديس . والاخير في الاصل من جزيرة كيوس عاش ردحا من الزمن في اثينا ثم دعاه هيرون (هيرو) لزيارة سرقوسة وبقي فيها حتى مات سنة ٤٦٧ ق.م. وقد احبه هيرون كثيرا واكرمه . وتناول نقاش الاثنين مشكلة الحكومة المكلفة التي يخرج منها زينفون بالاستنتاج بان الحاكم المطلق ليس فقط محسودا ولكن قد ينفع العامة . وجاء النقاش خاليا من اي افكار سقراطية مركزا على الطرق التي يلزم على الحاكم المطلق اتباعها حتى يحظى بحب شعبه . والواقع ان زينفون يضع في هذا الكتاب آراءه في فم سيمونيديس خاصة من الفصل الثامن[٣٥] .

٥ ـ كتاب الاويكونوميكس : وهو عبارة عن نقاش حول ادارة ارض زراعية بين سقراط وكريتوبولوس وهو يعكس مشاعر زينفون نفسه عندما كان يسكن في منفاه بسكيللوس . وهو تصوير لسقراط منه الى حوار بينه وبين آخر ويحوي الكثير من الامور التاريخية القيمة لأنه لم يكن كتابا ادبيا بل تعليقا طيبا على الفعاليات الاجتماعية والثقافية زمانه . وهو لا يماثل اي من محاورات لسقراط هو من انتاج رجل يدير مقاطعة زراعية بحزم ويعرف كيف يتعامل مع الاعداء ويجعلهم لا يجنون اي نفع . ويقدم لنا الكتاب اشارات عن ممارسات العمل في عصره . فالاحسن ، برأيه ، ان تبيع لتحقق ربحا وان تكون مساوما جيدا (نعم ، انهم عبيد ايضا وان اسيادهم صعبون كذلك وبعضهم اسيرو الشره .. وآخرون (اسيرو) الشرب وغيرهم لطموحات سخيفة وباهظة .. وان قاعدة هذه العواطف صعبة على الرجل الذي يقع في مخالبهم ما داموا يرونه قويا وقادرا على العمل ويجبرونه على الدفع لما تحقق اتعابه من ارباح ويصرفونها على رغباتهم الخاصة ، واذا ما وجدوه عجوزا لا يقوى على العمل تركوه للبؤس في كبره و حاولوا شد النير على كتفيه[٣٦] .

فهذا المقطع من الكتاب يصور العمل على اراضي الملاكين وحالة الفلاحين آنذاك والكتاب دراسة لادارة المقاطعة منها للمؤسسات الاجتماعية المفضلة . وفي الوقت الذي يقدم الكتاب فيه الكثير من المعلومات عن هذه الاحوال فانه على غاية من الاهمية لدراسة حياة زينفون الخاصة ، وان اسلوب الفصول الاربعة الاولى من الكتاب فقيرة يغلب عليه التكرار وعدم التنظيم مما يدل بانه كتب في اوقات مختلفة وكان ينوي تنقيحه قبل وفاته ، ويشمل ثلثه الاخير على حوار بين سقراط سكوماكوس (الذي هو زينفون نفسه) . وطريقة الحوار غريبة ، وتجعل القارىء يتساءل لماذا لم يترك زينفون هذه الطريقة ويكتب مقالة في ادارة المقاطعة ولو يستدعي ذلك تضحية عنصر القوة الذي يحمله اسم سقراط . وكان سكوماكوس احد كبار ملاكي الاراضي وقتذاك .

٦ ـ الهيلينيكا : وهو تكملة لكتاب توسيديس عن الحرب البولوبونيزية ، فقد توقف الاخير عند سنة ٤١١ ق.م. في كتابه عن تلك الحرب فاكمل زينفون احداثها واستمر في سرد الاحداث حتى معركة مانتينا سنة ٣٦٢ ق.م. بين مدينتي اسبارطة وطيبة . ولا صحة لمن ادعى بان ابنة توسيديس قد باعت مسودان والدها عن تفاصيل الحرب حتى نهايتها الى زينفون الذي اخرجها بعد ذلك في كتابه الهيلينيكا فطريقة البحث والاسلوب تبرهن دون ادنى شك كونه من انتاج زينفون . وقد اعتبر الخطب مهمة كما في كتابه الصعود وكان فيه متعصبا لاسبارطة ضد طيبة ولم يذكر الكثير من الاحداث المهمة مما يدل على انه لم يستقص كافة تفاصيل الاحداث ومجرياتها . والكتاب في سبعة فصول (كتب) كان الاول والثاني منها تكملة للحرب البولوبونيزية ومن الكتاب الثالث حتى السابع فكانت حوليات الاحداث في بلاد اليونان حتى معركة مونتينا وختمه بالعبارة (الى هنا ما كتبته انا وما سيأتي ربما يكون دراسة اخرى). وان ما كتبه عن الحرب البولوبونيزية يعوزه دقة توسيديس ومتانة اسلوب الاخير ووحدة نظره . والهيلينيكا بصورة عامة كتاب تاريخي ضعيف وتسلسل الاحداث خاطىء في الكثير من الاحيان الى جانب تعصبه الى فئة ضد اخرى حيث ان حبه الى اسبارطة وعدم استحسانه لأبيامينونديس حاكم طيبة واضح[٣٧] .

٧ ـ **ندوة زينفون (سينيوزيون)** : ولو ان زينفون يبدأ بالقول بانه هو نفسه قد حضر هذه الندوة التي كانت مأدبة في بيت كالياس فاننا نعتقد بان زينفون لم يكن حاضرا حيث لم يظهر في اي نقاش من ناحية ولأنه كتب عنها بعدة سنوات بعد تلك الندوة المفترضة . ولذلك تعتبر ندوة زينفون هذه خيالية ولا يمكن اخذها كوثيقة تاريخية بل محاولة لاعطاء خطوط عن آراء سقراط في وقت من اوقات راحته ومتعته . وكانت الندوة في حفل شراب اقامه كالياس ، وهو نبيل اثيني نعرف عن تزوج بركليس لزوجته المطلقة وتزوج السبايديس لابنته هيباريته . والحفل بمناسبة فوز اوتوليكوس ابن السياسي ليكون في احتفالات عموم اثينا (بان اثينيك) سنة ٤٢٢ ق.م. وكما ذكرنا يصعب قبول قول زينفون بانه كان حاضرا وله من العمر ثماني سنوات . وان الاشخاص الذين ظهروا في مناقشات الندوة ربما عدا اثنين منهم فقط شخصيات تاريخية معروفة ، فسقراط هو الشخصية المهمة وحوله اشخاص اقل اهمية من معاصريه . وان الشخص الذي اقيمت الدعوة من اجله وهو اوتوليكوس ظهر بعد ٢٢ سنة كأحد الذين حاكموا سقراط . ومن الحضور كان نيكراتوس ابن القائد الثري نيكياس ثم كريتوبولوس بن كريتو صديق سقراط المخلص ثم هيرموجينيس الذي قد يكون اخا لصاحب الدعوة كالياس ثم خارميديس عم افلاطون وشخصان آخران لا نعرفهما هما فيليب المهرج والسراقوسي .

وكانت المأدبة قد اقيمت على حد زعم زينفون في صيف سنة ٤٢١ ق.م. بعد العاب عموم اثينا . وكان الجو خلال الندوة بعيدا عن الرسميات وتتخلل الجلسات نكات وتعقيبات وطرب والاعيب من المهرج فيليب ومسليات قدمها السراقوسي وفرقته المدربة . وصار كل شخص من المدعوين يذكر اسهاماته الى المصلحة الخاصة ثم عرضت مسرحية ايمائية . ولم نجد عند زينفون المستوى الرفيع من الالهام والشعور الشعري الذي نراه في عرض افلاطون نفس الموضوع وتصويره حسب المدعوين في المأدبة الى النقاش . ولكن جو ندوة زينفون هذه تطغى عليه الواقعية والمناقشات بين المدعوين كانت اعتيادية وبعيدة عن المناقشات الفلسفية والقضايا المعقدة ، وتعطينا فكرة عن طبيعة الدعوات الاثينية هذه[٣٨] . وقد بدأ زينفون كتابه بالقول (برأيي ان من الاهمية بمكان ان انقل ليس فقط اعمال الرجال العظام والطيبين الجدية بل تصرفاتهم في اوقات راحتهم ايضا[٣٩] . وكان زينفون ناجحا في هذا الكتاب لان الصورة التي قدمها لسقراط كانت لرجل ذكي وانسان رائع .

وبدأت المأدبة بينما كان كالياس راجعا من سباق خيل كان جزءاً من العاب عموم اثينا مع الصبي اوتوليكوس قابل جماعة من سراة اثينا فدعاهم الى العشاء الذي هيئه الى اوتوليكوس ووالده . وكان كالياس واقعا في حب اوتوليكوس الوسيم الشكل . وان الجماعة من الاثينيين رفضت في البداية قبول الدعوة ولكن لما رأوا ان كالياس يطلب حضورهم ويلح عليهم وافقوا . وعندما جلسوا للعشاء ، كما يذكر زينفون ، اجبر جمال اوتوليكوس الحاضرين ان ينظروا اليه[٤٠]. وان هيام الرجال بالصبيان كان امرا شائعا في اثينا واحد المواضيع التي نوقشت خلال مأدبة العشاء هذه . وعندما نظفت المائدة وقدم الشراب دخل السراقوسي ومعه بنت وصبي لعرض بعض

المسليات وكانت البنت تعزف بالناي والصبي يرقص على صوته . وهنا اقترح كالياس ان تحضر العطور واخذ سقراط يجادل بعقم استعمالها قائلا (ليس هناك رجل يستعمل عطرا من اجل رجل آخر .. ان رائحة زيت الزيتون المستعمل في الملعب تنزل السرور عند وضعها على الجلد من العطور التي هي للنساء.. وبالنسبة الى العطر ففي الوقت الذي يتعطر به الرجل فان الرائحة هي نفسها سواء كان حاملها عبد او حر ولكن العطر الذي يخرج من جهد الرجال الاحرار يحتاج الى تتبعات نبيلة يرتبط بها لعدة سنوات ان كان يريدها طيبة ودالة على الحرية(٤١)). ثم سأل ليكون عن العطر الذي يجب ان يضعه اولئك الذين لا يدخلون الملعب ، فاجابه سقراط هو نبل الروح وذكر له القول (ان الرجال الطيبين يعملون الطيب ، وان المجتمع ذا الرجال الاشرار يفسد الفكر الطيب الذي تتملكه(٤٢)). وقاد هذا الى نقاش قصير حول هل ان الفضيلة يمكن تعلمها او تعليمها ثم اقترح سقراط تأجيل النقاش بدخول البنت لتسليتهم . وبملاحظة سقراط لمهارة البنت الراقصة قال (ان عمل هذه البنت الفذ هو احد البراهين بلون طبيعة المرأة ليست باقل من تلك للرجل فيما عدا انعدام الحكم الصحيح والقوة الجسمانية .

وكل من لديه زوجة منكم فعليه ان يعلمها كل ما يريدها ان تعرف(٤٣) . ثم استفسر انتيشينيس عن سبب عدم تثقيف سقراط لزوجته خانيثيا الصعبة الانقياد . فاجابه سقراط بالقول (لأجل ان تكون فارسا ممتازا فعليك ان تتعامل مع الخيل الصعبة المراس ، وان طريقي هو نفسه ، لأن تعاملي مع البشر ككل ، فاذا كنت قادرا على تحملها فسوف لا تكون امامي اي صعوبة في علاقاتي مع جميع الناس(٤٤) . وعندما رقص الشاب الذي برفقة السراقوسي علق سقراط (... لم يكن اي جزء من جسمه عاطلا عن العمل خلال الرقص وهذه الطريقة المثلى في الرقص لم يريد ان يزيد قدرة جسمه .. انا اتوق لمثل هذه التمارين .. كي اعطي جسمي نموا متكافئا بتمرين لكل جزء منه(٤٥) . وصار كلام سقراط هذا مجال استهزاء حيث اخذ الحاضرون يتساءلون لماذا يريد الرقص وهو مشوه الجسم كبير السن ، واخيرا اتفق الجميع على ان الرقص جيد للسلامة والصحة ، وبعد قليل وباقتراح من فيليب لتقديم الخمر علق سقراط على الصحة البدنية (اعتقد ان اجسام البشر تسير بنفس نمط نمو النبات في الارض ، فعندما اعطى الاله النباتات الماء في الفيضان للشرب لم تتمكن من الوقوف للشرب او السماح للنسيم ان يهب عليها . ولكنها عندما تحصل على كفايتها من الماء تنمو بكل استقامة حتى سن الاثمار . وكذلك الحال معنا ، فاذا شربنا كثيرا فسوف لا يمضي وقت طويل حتى تترنح اجسامنا وعقولنا ولم تعد لنا القدرة على التنفس والكلام ذي المعنى(٤٦)) .

وبعد قليل من التسلية اقترح سقراط ان يذكر كل حاضر اثمن ما عنده من المعرفة . فاخبرهم نيكراتوس بانه حفظ الالياذة والاوذيسة عن ظهر قلب ، وقال انتيستينيس بان الرواة يحفظون كل اشعار هوميروس ولكنهم اكثر البشر غباء . وذكر كالياس بانه يحث الناس على التقوى باعطائهم المال لشراء الضروريات التي يحتاجونها وبذلك يمتنعون عن ارتكاب الجرائم .

وعلق خارميديس كيف ان الفقر جعله يشعر بالفخر متحدثا عن مشاكله عندما كان ثريا (لما انتزعت املاكي وانعدم دخلي .. وبيعت داري فاني الآن اتمتع بالحزم الهادىء واستحصلت على ثقة الدولة فليس هناك من يهددني.. وبمقدوري السفر خارج البلاد او البقاء في بلدي كما اريد . الناس الآن تقوم من مقاعدها احتراما لي ويفسح لي الاغنياء مجال المرور في الطريق(٤٧)).

وسأل سقراط انتيستينيس كيف انه يربط فخره بالثروة عندما يكون لديه القليل منها اجابه (اعتقد ان ثراء وفقر الناس ليس في الممتلكات ولكن في قلوبهم .. لأن القانعين بما عندهم هم الاقل طمعا بما لدى الآخرين .. وان ثروة من هذا النوع تجعل الناس كرماء . انا لست بخيلا لأي احد .. وان لي متسعاً من الوقت فأقدر على رؤية ما يستحق النظر واستماع ما هو جدير بالسماع ، وما اثمنه اكثر باني خالي البال من اي قلق حول عمل ، وفي صحبة سقراط(٤٨)) .

وقال هيرموجينيس (نحن اليونانيين نعتقد ان الآلهة تعرف الحاضر والمستقبل .. وانهم قادرون على جعلنا طيبين او اشراراً .. حسنا ان هذه الآلهة تشعر بصداقة تجاهي حتى ان رعايتها لي لن تتوقف في الليل والنهار عن امور اذهب من اجلها او عمل افكر به .. وعندما امتثل لاوامرها لن اتأسف(٤٩)) . وعندما استفسر سقراط عن سبب عطف الآلهة على هيرموجينيس اجابه (اردد الادعية) . ثم سئل فيليب المهرج لماذا يتملك كرامة في عمله فاجاب الحاضرين (الم يكن لي الحق ان تكون لدي كرامة عندما يعرف الكل انني مهرج . ولذلك فاذا كانت عندهم امان قد تحققت يدعوني لاصطحابهم ولما يقاسون المآسي

يهربون مني ولا يرمقوني بنظرة مخافة ان يجبروا على الضحك رغم انفسهم[٥٠]) . وقال سقراط بأن احسن مهنة يخدم بها البشر هو ان يكون مدبرا ، وعندما رأى سقراط ان طبيعة المهنة غير واضحة لدى الكثير من الحاضرين قال (ان المدبر الجيد يعلم الكلمات التي تجعل الانسان جذابا ... فاذا تمكن الانسان ان يجعل الناس يتحسسون بآلامه الم يكن قد ارضى متطلبات المدبر المثالي ؟ فاذا كان الانسان قادرا على انتاج بشر من هذا النوع من بين مريديه فله الحق ان يشعر بالفخر بمهنته وان يحصل على مكافئة سخية الم يكن كذلك؟[٥١] ثم دخل سقراط وكريتوبولوس في مسابقة جمالية قدم بها سقراط وهو الشديد القبح الدليل لتبرير فمه الكبير وشفتيه الثجنتين وعينيه الجاحظتين وانفه الافطس . وآخر احداث المأدبة كان نقاش لسقراط حول موضوع الحب اثاره هيام كالياس بحب اوتو ليكوس مدح فيه الحب الروحي بين الرجال وذم الحب الشهواني .

فمواضيع ندوة المأدبة وما جرى فيها تلقي لنا ضوء على طبيعة الحفلات الأثينية الخاصة وما يجري فيها من المسليات ، وطبيعة عمل المهرج في المجتمع اليوناني . والمواضيع التي اخترناها مما طرح في مناقشات الندوة لها اهمية كبيرة في رؤية جوانب كل ما طرح من الحقائق مثل الجدل حول العطر ونظرتهم الى الرقص والمكانة التي كانت للالياذة والاوذيسة عند قدماء الاغريق بحيث ان الكثيرين قد حفظوها عن ظهر قلب . ثم النظرة العامة الى الرواة وفلسفة كالياس في مساعدة المحتاجين وارتباط الثروة بالمكانة الاجتماعية وكون الآلهة هي التي تجعل البشر على ما هم عليه ورعايتها البشر الكلية ونظرة اليونانيين القدامى الى الحب ، وقد ذكر ان زينفون لم يكن راضياً بما كتبه افلاطون في كتابه نفس العنوان فصلح فيه واخرج كتابه هذا الذي يتخيل فيه ندوة المأدبة التي قال انه حضرها في عمر مبكر للغاية .

٨ ـ اعتذار سقراط (كتاب الاعتذار) :

عندما اخرج افلاطون كتابه الاعتذار لم يرض عنه زينفون فصلح فيه واخرج كتابا بنفس العنوان . وتضمن دفاع سقراط امام المحلفين عندما اتهم بنسف الدين وافساد الشباب سنة ٣٩٩ ق.م. وحكم عليه بالاعدام . وكان زينفون وقت المحاكمة مع جيش كورش الصغير . ويظهر ان كثيرين قد وصفوا المحاكمة ولكن زينفون شعر بان كل من وصفها قد ترك نقطة اساسية قرر ان يوضحها هو في كتابه الاعتذار او الدفاع . ولم يكن هدف زينفون في كتابه هذا تقديم تقرير كامل عن المحاكمة ولا عرض خطاب سقراط الى المحلفين ولكن ليظهر اعتقاد سقراط بان الوقت قد حان له ان يموت وهذا هو اساس الشعور النبيل الذي طغى عليه وقت المحاكمة . في وقت مثل افلاطون سقراط ليخبر المحلفين بانه يقدر على مواجهة الموت بهدوء لأنه واثق بوجود حياة ثانية . وزينفون لم يذكر ذلك ولكنه قال بأن سقراط في حديث له مع هيرمو جينيس قبل المحاكمة وكذلك مع اصدقاء آخرين بعدها وجد في ادانته تخليصاً له من معوقات ومنغصات الهرم .

ويذكر ان تلك الراحة كما يظهر هي السبب في رغبة سقراط بالموت . وسواء سمع افلاطون ذلك او ظن بانها غير مهمة تجاه الافكار الروحية الاكثر سموا ولكنه لم يذكرها بأي مكان . وان زينفون متأكد بان سقراط لابد وان تعرض الى امله في الخلود والاجتماع مع رجال الماضي العظام[٥١] . ففي بداية دفاع سقراط امام المحلفين يقول زينفون (يظهر لي اكثر ملائمة ان اذكر كيف ان سقراط كان متعهدا في دفاعه ونهايته . نعم لقد كتب اخرون عن هذه واظهر الجميع رفعة كلماته .. وهي حقيقة تبرهن بان ما فاه به كان من شخص حميم ولكنها لم تعرض بوضوح بانه وصل الى نتيجة كون الموت بالنسبة له امرأ يطمح اليه اكثر من الحياة .

ولذلك فان كلماته النبيلة لم تؤخذ بالاعتبار اللائق[٥٢]) . ومثل كافة الكتابات عن سقراط فان ما كتبه زينفون يعتمد على معلومات جمعت عن آخرين وليس من كتابات لسقراط نفسه . واعتمد زينفون كثيرا على هيرمو جينيس الذي كان يصطحب سقراط وحاضرا في الدفاع . ويقول زينفون انه عندما اقترح هيرمو جينيس بان تعطى الفرصة الى سقراط من اجل تهيئة دفاعه اجاب سقراط بانه قضى جميع حياته يهيء دفاعه وهو انه لم يرتكب اي ذنب . وعلق هرمو جينيس عن محاكم اثينا بالقول (هلا نلاحظ ان المحاكم الاثينية غالبا ما تستجذب بالخطاب البليغ وكم حكمت بالموت على ابرياء ، وغالبا ما برأت ساحة المجرم لأن دفاعه قد اثار العاطفة او انه كان فكها[٥٣]) . وفي اجابته قال سقراط بان القوى الالهية لم تشجعه على تهيئة دفاعه ، ولما بدت الدهشة على هيرمو جينيس قال سقراط (هل تعتقد بان من المدهش ان حتى الله يعتقد ان من الاحسن لي ان اموت الآن . علما بان سقراط يذكر الله بالمفرد . ثم يشرح بانه صرف حياته في تقوى

الله والانسان يعيش في قناعة واحترام نفس ، ثم يقول (والآن اذا طالت سنوات بقائي في الحياة فاني اعرف ان ضعف الشيخوخة سيظهر حتما ، فسوف يضعف نظري ويصبح سمعي اقل حدة وسأكون اقل استيعابا في تعلمي واكثر نسيانا لما تعلمت . فاذا ادركت اضمحلالي وصرت اتشكى فسوف لا يكون عندي سرور في الحياة[٥٤]) ويصور زينفون سقراط كرجل عجوز عادي عاش بطيب ومتهيء للموت . وبالواقع يظهر مشتاقا لتجنب الموت البطيء المؤلم الذي ينتظر المسنين (ان الله في احسانه يأخذ جانبي ويضمن لي فرصة انهاء حياتي ليس في الزمن بل في احسن طريقة .. هناك سبب قوي بان الآلهة عارضت تقويم خطابي في وقت نتمسك به بوسائل معتدلة او اننا يجب ان نجد التماسا يضمن براءتي .. واذا انجزت هذا فمن الواضح باني بدلا من تركي الحياة فاني يجب ان اتهيء لموت بين مخالب المرض او الشيخوخة ، والذي تتدفق في اعماقه جميع الاحزان التي لا ينهيها اي فرح) . ثم ظهر سقراط في المحكمة امام متهميه للاجابة عن تهم عدم اعتقاده في الآلهة التي تعبدها الدولة وادخاله آلهة جديدة وبافساد الشباب . وانكر سقراط عدم اعتقاده بالآلهة وقال انه يجب ان لا يتهم بخلق آلهة جديدة لسبب سماعه صوت الله بتحديد واجباته (حقا ان الذين يستمدون فؤولهم من اصوات الطيور ونطق البشر يبنوا احكامهم على اصوات .. الم تكن الكاهنة التي تجلس على الكرسي الثلاثي في دلفاي تفصح عن رغبة الاله بصوت ؟ والفرق الوحيد بينهم وبيني هو انه في الوقت الذي يسمون فيه مصادر تنبؤاتهم سواء طيور او تلفظات ، مصادفات عرضية ، انبياء انا اطلق على ما عندي الشيء المقدس ، واعتقد ان باستعمال اصطلاح مثل هذا اكون اكثر مع الحق والشعور الديني العميق من اولئك الذين ينسبون اصوات الآلهة الى الطيور[٥٥]) .

قامت ضجة بين المحلفين عندما فاه سقراط بهذا الدفاع ولم يوضح سقراط ما قال بالاشارة الى عبارة من موحي دلفاي تقول ان ليس هناك انسان اكثر حرية او عدل او حصافة من سقراط. وعندما انزعج المحلفون قال سقراط بان الاله ابولو لم يقارنه باله كما عمل مع ليكرغوس بل قال فقط ان سقراط قد فاق بقية البشر . ولذلك فكان كلما يتكلم اكثر يتحول المحلفون ضده . وعندما قال ميليتوس متهما بان سقراط اخبر بعض الشباب من اتباعه بضرورة اطاعته وعدم اتباع والديهم . اجاب سقراط بان الناس تأخذ بمسألة الصحة بنصيحة الطبيب وفي القضايا الشرعية بنصيحة الاكثر حكمة وفي الامور العسكرية برأي القادة ثم قال (الم يبدو لكم كشيء مدهش ان الذين يبرزون يحصلون على الشرف ليس فقط بسبب تكافؤ مع اتباعهم ولكن ايضا الاكثر شهرة ، ولكن بسبب حكم البعض علي بالرفعة ، فما هو الشيء الاكثر بركة للانسان انه التعلم ـ اني احاكم من قبلكم عن تهمة كبرى) . وهنا يترك زينفون المحاكمة ويقول (انا مقتنع بايضاحي ذلك بينما كان هم سقراط ان لا تلصق به اية تهمة عدم تقوى تجاه الآلهة او عمل الشر تجاه الناس ولم يفكر بالتماس المحلفين لكي يبرئوا ساحته ، بل انه اعتقد ان الموت قد حان لموته[٥٦]) .

كما نعرف من كتابات افلاطون والآن من زينفون بان سقراط قد حكم عليه بالموت وتجرع السم برغبة من نفسه ، ويخبرنا افلاطون وزينفون كيف ان سقراط كان هادئا عندما اقترب موته في وقت بكى فيه اصدقاؤه مما جعل سقراط يلومهم . وفي نهاية مقالته ذكر زينفون ان سقراط رحب بالموت في مثل هذا الوقت من حياته (يبدو الآن لي بانه واجه مصيره الذي تريده الآلهة له ، لأنه نجا من اصعب فترة من حياته وواجه موتا سهلا هينا ، وعندما عرف طبيعة قلبه الشجاعة ، صمم ان الموت احسن له من حياة اطول ، لم تتبط عزيمته بمقدم الموت بل كان مسرورا ليس فقط في توقع الموت بل في مواجهته[٥٧]) . وقد صور زينفون سقراط وكأنه حيا يتكلم حاد الذكاء حاضر البديهة يضحي بكل شيء في سبيل المبدأ الذي يؤمن به . علما ان بعض اقسامه مكرر في الميمورابليا مع اختلاف قليل ورغم انها رديئة فهي بدون شك من ابتداع زينفون نفسه .

٩ ـ **اكيسيلاوس** : حول الملك الاسبارطي اكيسيلاوس (٣٩٨ ـ ٣٦٠ ق.م.) الذي عمل معه زينفون وكان معجبا به . ويمتاز الكتاب باسلوبه البلاغي في بعض اجزائه واقسام منه مكررة من كتاب الهيلينيكا مع تغيير في الاسلوب . ويميل الباحثون الآن الى اعتباره اصيلا[٥٧] . وان اعجاب زينفون بهذا الملك جزء من اعجابه باسبارطة والملوك العسكريين . فحياة اكيسيلاوس كانت مليئة بالحروب فمن ٣٩٦ حتى ٣٩٤ ق.م. كان يحارب فارس في آسيا الصغرى ولم يثنه عن التقدم الى قلب فارس الا المؤامرة التي دبرتها الاخيرة ضده من طيبة وكورنيث وارغوس مما اضطرت اكيسيلاوس للعودة ، ودحر قوات هذه الدول . وخسر معركة اخرى مع

طيبة سنة ٣٦١ ق.م. وتوفي في بداية سنة ٣٦٠ ق.م. بمصر عندما عبر اليها مع قوة عسكرية . ونعرف بانه لاقى معارضة في البداية حول اعتلائه عرش اسبارطة حتى ان موحى دلفاي اشار بان اسبارطة سوف تتحطم على يد ملك اعرج التي يقصد بها اكيسيلاوس مما يدل على الاعتراضات الكثيرة على اخذه العرش منذ البداية . ويظهر ان زينفون قد دون كتابه بعد وفاة اكيسيلاوس ويظهر فيه تأثر زينفون بافكار ايسكراتيس معارض ديحوستين .

وهناك كتب اخرى لزينفون امثال دستور اللاكيدامونيين السياسي الذي يكيل المدح فيه الى نظام اسبارطة ومؤسساتها السياسية . فزينفون لم يفضل نظام اثينا الديمقراطي الذي ذمه افلاطون ايضا الامر الذي قد يدل بان بنية الدولة الأثينية في زمنهم لم يحبذها المفكرون . وعزى زيُنفون في كتابه هذا افكارا الى ليكرغوس نعرف جيدا بانها تعود الى زينفون نفسه[٥٨] .

وكتاب هيبار خيكوس الذي تناول واجبات قائد الفرسان مكرسة الى شخص في طريقه لتسلم مهام منصبه الجديد . ويتألف من قسمين الثاني منه عبارة عن اقتراحات حول وضع تعليماته موضع التنفيذ ، وهي اشبه بدليل لقائد الفروسية . وهذه غير مقالة أخرى حول الفروسية (بيري ابيكيس) تعتبر اقدم مقالة كاملة عنها وصلتنا حتى الآن . ولا يعطي كتاب هيبار خيكوس ومقالة الفروسية اية فكرة طيبة عن التدريب العسكري في اليونان ايام زينفون[٥٩] . وهناك كتاب بيري بورون (الطرق والوسائل) يتضمن اقتراحات لتحسين المالية في اثينا وقد ساند فيه دعوة السلام التي دعا اليها ابوبولوس معارض ديموستين وترجع الى حوالي سنة ٣٥٥ ق.م. ويرجح الباحثون المحدثون استنادا الى اسلوبه ومادته كونه من كتابة زينفون نفسه[٦٠] . ثم مقالة كينيكتيكوس ويشمل نصائح عن الصيد خاصة صيد الارانب البرية وتضمن قصيدة بليغة تعقبها مدح للصيد ثم تهجم على الفسطائيين الذين في رأي زينفون لا فائدة للمجتمع من جهودهم وافكارهم . ولايزال اصالة هذه المقالة موضع جدل بين الباحثين[٦١] . اما مقالة زينفون المرسومة اثينون بوليتيا (نظام اثينا السياسي) فالمعتقد الآن بانها ليست من كتابة زينفون بل انها مدونة من قبل شخص سبق جيله[٦٢] .

كان زينفون هاوياً للادب والحرب والتاريخ والفلسفة على السواء واسلوب مقالاته بسيط ولغته سلسة يحتوي في الكثير من الاحيان كلمات دارجة ومتأثرة بلغة سكان الارياف[٦٣] . ويظهر كتابه في الفروسية مهارة في الفنون العسكرية[٦٤] . وان سمعة زينفون تفوق حقيقته بكثير . وقد تعود شهرته في الادب اليوناني الى تنوع كتاباته واستعماله الاسلوب البلاغي احيانا وتضمينه للاشعار . وكتبه بصورة عامة سطحية لا تحوي على العمق الكافي. واذا ما قورن مع فلاسفة كافلاطون وارسطو نراه يفشل في انجاز توقعات الفلسفة ولم تتوفر لديه مقاييسها التي وضعها هذان الفيلسوفان. فكتابته فيها غير ناضجة وينقصها العمق والغور الى جوهر المشكلة على الرغم من انه قد استعمل شكلا بسيطا من لغة سقراط بشيء قليل من النجاح .

وفي مقاييس وشروط القرنين التاسع عشر والعشرين التي يلزم توفرها في المؤرخ فان زينفون لا يمكن اعتباره مؤرخا وفشل في استعمال الحقائق التاريخية في كتبه وعندما تخونه الذاكرة كان يعمد الى التلفيق لسد الفراغ . كما يمتاز بكثرة الاستعارة من الآخرين . ويمكن تشبيه زينفون بصحافي ومراسلي العصر الحديث الاعلاميين ليس الا . وانه ناجح في كتاب الصعود الذي تضمن اصالة واهتمام في الناس وحوى ما تحويه اي مذكرات من معايب ومحاسن . والكتاب التاريخي الذي يمكن الحكم منه على زينفون كمؤرخ هو الهيلينيكا السالف الذكر . ونقاط الكتاب القوية تتلخص في الدروس السطحية التي استقاها من توسيديديس الذي عاصره لفترة من الزمن . ففي القسم الاول منه استعمل زينفون طريقة توسيديديس الحولية ، وادخال الخطب وجعل الاشخاص تفصح عن شخصياتها في الاعمال والكلمات . اما سطحيته فتتلخص في عدم امكانه مناقشة الدوافع الحقيقية للاحداث . ثم تعصبه للشخصيات التي يكتب عنها والتي رأيناها في كتابه عن اكيسيلاوس . ويعتبر دون شك اول كاتب نعرفه يأتي بالمذكرات التي صارت صفة بارزة في الكتابات التاريخية اللاحقة . ثم اهتمامه في التراجم ويعتبر كتابه عن اكيسيلاوس ثاني كتاب من نوعه بعد كتاب ايفا كوراس[٦٥] .

الهوامش

Sir William Smith, Smaller Classical Dictionary, (New York, 1858), p. 316; Catherine B. Avery ed., The New Century Classical Handbook, (New York, 1962); M. Cary, A.D. Nock and others, The Oxford Classical Dictionary, (Oxford, 1957), p. 962.

علماً بان كاتب مقالة زينفون من قاموس آخر نشره ويليام سميث يجعل سن زينفون لدى التحاقه بحملة كورش الصغير سنة ٤٠١ ق.م ز اربعين سنة اي انه يفضل التاريخ ٤٤١ ق.م لولادة زينفون .

William Smith ed., Dictionary of Greek and Roman Biography and Mytho logy, (Boston, 1859), Vol. 111, p. 1298.

2. Cary, No ck and others, op. cit. p. 962.
3. L.V. Jacks, Xenophon - Soldier of Fortune, (New York, 1930), P. 9.
4. Gilbert Murray, The Literature of Ancient Greece, (Chicago, 1957), p.317
5. Xenophon, The Persian Expeition, transl. by Rex Warner, (Baltimore, 1952),p.97.
6. Jacks, op. cit. p. 35.
7. Thomas Harbottle, Dictionary of Battles, (London, 1904), p.66.
8. Cary, No ck and others, op. cit. p. 962.
9. Hellenica 6.5.49;71.
10. Murray, p. 316.
11. plutarch, The Lives of the Noble Grecians and Romans, transl. by John Dryden, (New York, 1932), p.724
12. Diogenes Laertius, Life of Eminent Philosophers, R.D. Hicks ed. (Cambridge, Mass. 1959), 56.

وقد ذكر ديوجينيس (١٣ ٧١١١٠) ان زينفون حصل على مسودات ثوسيديس ونشرها باسمه

13. Wiliam Smith, Smaller... op. cit p. 316; F. A, Wright, Classical Dictionary of Proper Names in ancient Authors, (New York,1955), p. 669.
14. Wright, ibid.
15. Oskar Seyffert, Dictionary of Classical Antiquities, Mythology, religion, literature and art, (New York, 1894), p. 701; William Smith, Dictionary...op. cit. p. 1298.
16. Jacks, pp. 129 - 165.
17. J.B. Bury and others ed., Cambridge Ancient History (CAH), Vol. V1, (N.Y., 1927),p. 5.
18. W. H. D. Rouse, The March Up country, a translation of Xenophon's Anabasis, (Ann Arbor, 1958), v.3.1,8.1; V1.5.13.
19. Hellenica 3.1.2.
20. Murray, p. 319.
21. ibid, p. 320.
22. Xemophon, The persian Expedition, op. cit. p. 22.
23. ibid, pp. 45 - 46, 49.
24. ibid, p. 99.
25. ibid, p. 141.
26. E.R. Dodds, The Greeks and the Irrational, (Los Angeles, 1959), p. 35.
27. Xenophon, Cyropaedia, Vol. 1, transl. by Walter Miller, (London, 1925), pp. x - xl.
28. ibid, V. 6.
29. ibid; Xenophon, Cyropaedia, Vol. 11, transl. by Walter Miller, (London, 1914); Leo Straus, On Tyranny, (New York, 1948).
30. Ernest Barker, Greek Political Theory, (London. 1960), pp. 114 - 115.
31. E. C. Merchant, Xenophon, (Oxford, Mass. 1923), p. 3.
32. ibid, pp. viii, ix.
33. ibid, p. xi.
34. ibid, p. 369.
35. Xenophon, transl. E.C. Merchant, Scripta Minora, Hiero, (London, 1968), pp. 1 ff.
36. Xenophon, Memorablia and Oeconomicus, transl. by E.C.Merchant, (Cambridge, Mass. 1938).
37. Murray, op. cit., p. 322; Xenophon, Hellenica, transl. by Carleton L. Brownson, Vol. 1,Bks. 1 - 1V (London, 1968); Vol. 11, Bks. V - VII (London, 1968).
38. O. J. Todd, Xenophon's Symposium and Apology, (Cambridge, Mass. 1922), pp. 276 - 279.
39. ibid, p. 381.
40. ibid, p. 383.

41. ibid, p. 389, 390
42. ibid, p. 391.
43. ibid, p. 393.
44. ibid, p. 393.
45. ibid, p. 397.
46. ibid, p. 401.
47. ibid, p. 427.
48. ibid, p. 432.
49. ibid, p. 435.
50. ibid, p. 437.
51. ibid, pp. 439 - 441.
52. ibid, pp. 485 - 487, 485.
53. ibid, pp. 489 - 491.
54. ibid, p. 491.
55. ibid, pp. 493, 495.
56. ibid, p. 501.
57. ibid, pp. 507 - 509.
58. Xenophon, Constitution of the Lacodomaeaans, Scripta Minora, op. cit. pp. 135 ff. M. Cary and Others, op. cit. p. 962.
59. Xenophon, The Cavalry Commander, Scripta Minora, op. cit. pp. 233 ff. Murray, op. cit. p. 322.
60. Xenophon, Ways and Means, Scripta Minora, op. cit. pp. 191 ff.
61. Xenophon, On Hunting, Scripta Minora, op. cit. pp. 365 ff.
62. Pseudo - Xenophon, The Constitution of Athens, Scripta Minora, op. tit pp. 459 ff.
63. Murray, op. cit. pp. 323 - 324.
46. Xenophon, on the Art of Horsmanship, Scripta Minora, op. cit. pp. 295 f.
65. Xenophon, Agesilaus, Scripta Minora, op. cit. pp. 59 ff; J.B. Bury, The Ancient Greek Historians, (New York, 1908), pp. 151 - 152.

دراسة الميثولوجيا العربية
الديانة في بلاد العرب قبل الاسلام

د. منذر عبدالكريم البكر

كلية التربية/ جامعة البصرة

سنحاول في هذا البحث دراسة الديانة العربية القديمة كما تحدثت عنها الطقوس المكتشفة، وتقريب الصورة الطقوسية بما نجده من ذكر لها عند العرب في الفترة التي سبقت الاسلام قليلا «ومناقشة آراء المستعربين حول ذلك».

وقد قدمنا تعريفا بالمصادر واشارة الى الثالوث الكوكبي المقدس عند عرب الجنوب مع ذكر الالهة الاخرى والتي جاء ذكرها على شكل نعوت او صفات ، كما تطرقنا الى بناء المعابد واشكالها والسدنة ودورهم في المعابد، مع مقارنة ذلك عند العرب قبيل الاسلام ، بالاضافة الى مناسك الحج كما ألمحنا الى ذكر فصول السنة والاشهر عند اليمنيين .

ـ ١ ـ

ضمت معاجم اللغة العربية قصصا واخبارا عن الوثنية في بلاد العرب . غير أن المصادر الادبية لا تتعرض للديانة قبل الاسلام الا قليلا جدا كما ان الشعر العربي قبل الاسلام ـ هو شعر دنيوي ـ لم يعرض للناحية الدينية . وان كان قد عرض في القليل من الحالات لاسماء بعض الالهة اما جهلا واما هيبة . كما انه من الجائز ايضا ان بعض هذه الاسماء قد استعيض عنها بلفظ (الله) وان كثيرا من هذه القصص والاخبار يرجع الى ابن الكلبي المتوفى سنة ٨١٩م والذي الف كتابا عن الاصنام جمع فيه معظم ما كان معروفا عنها في عصره . لكننا لا نجد في هذا الكتاب اي شرح حقيقي لخواص تلك الالهة الوثنية اضافة الى ذلك فالالهة التي ذكرها عادة آلهة عصر الاضمحلال والتدهور السياسي الذي سبق الاسلام . اما فيما يتعلق بعصرها الذهبي فالمصادر العربية الاسلامية تجهلها جهلا تاما فالإله السبئي العظيم «المقة»، في المراجع التي نستضيء بها طريقنا على فهم العالم الديني العربي القديم هي الاسماء التي كانت منتشرة في فترة ما قبل الاسلام والتي تدل في بعض الاحيان على اسماء آلهة عرفها العرب لا نجدها في النقوش فقط بل في الكتب العربية القديمة وهي تتفق اتفاقا كبيرا مع تلك التي نجدها في النقوش ومن تلك الاسماء : عبد ود وعبد شمس وعبدالعزى وعبد قيس وامرؤ القيس ووهب اللات وزيد اللات وسكن اللات

وعبد عوف وزيد مناة وفي القرآن الكريم اشارات الى بعض آلهة العرب قبل الاسلام ومن ذلك ما جاء في سورة النجم الآية ١٩ ـ ٢٤ «أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الاخرى ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذا قسمة ضيزى ان هي إلا أسماء سميتموها انتم وأباؤكم ما انزل الله بها من سلطان إن يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى».

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول :

واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى فانهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى وكانوا يقولون بنات الله . وان اسم مناة نادرا ما نجده في النقوش على عكس اللات والعزى وربما يعود ذلك الى انها آلهة حديثة لا تذكر في النقوش او انها قديمة على رأي (ملر) كما ان المؤرخين يذكرون ان (مناة) في الاصل اله للاوس والخزرج وانهم عبدوه في المشلل عند قديد .

وقال الكميت بن زيد :

وقد آلت قبائل لا تولى .. مناة ظهورها متحرفينا .

وفي سورة نوح الآية ٢١ ـ ٢٤ قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا» .

وقال ابن الكلبي : كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين، ماتوا في شهر . فجزع عليهم ذوو اقاربهم فقال رجل من بني قابيل : يا قوم هل لكم ان اعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير اني لا اقدر ان اجعل فيها ارواحا قالوا : نعم فنحت لهم خمسة اصنام على صورهم ونصبها لهم ويشير فلهاوزن الى ان هذه الاصنام الخمسة بقيت عبادتها عند القبائل العربية الى ظهور الاسلام[٨] قال كعب بن مالك الانصاري[٩]

وننسى اللات والعزى وودا .. ونسلبها القلائد والشنوفا..

وكان العرب كغيرهم من الشعوب (السامية) القديمة . قوما للدين عندهم منزلة كبيرة . والواقع ان العرب (الساميين) القدماء كانوا شعب الله وشعب الديانات والعالم مدين لهم بالديانات الثلاث الكبرى . ومع ذلك فيبدو ان البدو من العرب لم يكن لديهم شعور ديني عميق[١٠] وانهم كانوا في ممارسة الطقوس الدينية يسيرون وفقا للتقاليد والعقائد الموروثة . مصداق ذلك اننا نراهم احيانا ينهمكون على الاصنام التي يعبدونها وقد روى ابن الكلبي ان امرأ القيس لما خرج بعد مقتل ابيه يريد الغارة على بني اسد مر بصنم اسمه (ذو الخلصة) جنوبي مكة قيل بالعبلاء على اربع مراحل من مكة وهو اليوم بيت قصار[١١] وقيل بتبالة على مسيرة سبع ليال من مكة وكان مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة تاج وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة اما سدنتها فهم بنو امامة من باهلة بن اعصر[١٢] وقيل بنو هلال بن عامر[١٣] قال رجل منهم[١٤] .

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا .. مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا .

ـ فاستقسم عنده بقداحه (وهي ثلاث : الآمر والناهي والمتربص) فخرج له الناهي ثلاث مرات متتالية فجمع القداح وكسرها وضرب بها وجه الصنم وسبه افضع السباب وقال : لو ابوك قتل ما عقتني : ثم غزا بني اسد فظفر بهم[١٥] .

وطبيعي أن ديانة البدو في وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها ساذجة وبدائية ولم تصل الى ما عرفه العرب الجنوبيون من مظاهر فلكية او الطقوس الدينية والهياكل وما الى ذلك مما كان نتيجة للبيئة الحضرية والاستقرار في المجتمع ، علما انها كانت في الاصل بسيطة وطبيعية[١٦] وكان الاستقرار والتقدم النسبي في مضمار الحضارة هما السبب في عبادة الشمس عند بعض الشعب العربي في شمال وجنوبي شبه الجزيرة العربية .

كانت الظاهرة الاساسية في المعتقدات الدينية عند البدو ايمانهم بوجود ارواح في بعض الاجرام السماوية كالقمر والنجوم وفي بعض مظاهر الطبيعة كالامطار والرياح وفي بعض العناصر الجامدة . كالاشجار والحجارة . وكانت عبادة هذه الارواح تقصد لذاتها أولا ثم امتد تفكير العرب في الجاهلية الى وجود قوة الهية اعلى ولكنهم اعتبروا تلك الارواح والمعبودات واسطة الاله الاكبر . واسماء الالهة التي وصلت الينا من عصر قبل الاسلام كثيرة من بينها اسماء نجوم وبعضها صفات على النحو الذي نعرفه في الاسلام في اسماء الله الحسنى مثل الرحمن والرحيم وبعضها مصادر كالسعد والرضا وبعضها حيوانات كالفرس والثور والحية .

ونرى في سورة الانعام كيف لا يقبل ابراهيم (ع) ان يعبد ما كان يعبد اهل زمانه . قال سبحانه وتعالى : «واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناما آلهة . اني اراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نري

ابـراهيم ملكوت السمـوات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكـونن من القـوم الظالين . فلمـا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر، فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فـطر السمـوات والارض حنيفـا ومـا انـا من المشركين» سورة الانعام «الآية ٧٤ ـ ٨٠» .

وما روي عن الحسن انه قال : لم يكن حي من احياء العرب الا ولها اصنام يعبدونها يسمـونها انثى بني فلان ومنه قول الله عز وجل «ان يدعون من دونه الا اناثا» والاناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة والصنمة[١٧] . والصنم كل ما اتخذ الها من دون الله[١٨]. قال ابن الكلبي : اذا كان معمولا من خشب او ذهب او من فضة على صورة انسان فهو صنم واذا كان من حجارة فهو وثن[١٩]. فالوثن هو الصنم الصغير قال ابن الاثير الفرق بين الوثن والصنم ان الوثن كل ما له جثة معمـولة من جـواهـر الارض او من الخـشب والحجارة كصورة الآدمي تعمـل وتنصب فتعبد والصنم الصـورة بلا جثـة ومنهم من لم يفـرق بينـهمـا[٢٠] . وقـد يـطلق الوثـن عـلى غـير الصورة [٢١] .

أمـا الانصاب : فحجـارة كانت للعـرب غـير منصوبة يطوفون بها[٢٢] وذكر ابن الكلبي : ان الرجل اذا سافر فنزل منزلا اخذ اربعـة أحجار فنظر الى احسنها فاتخذه ربا وجعل ثلاث «أثافي» لقدره واذا ارتحل تركه فاذا كانت تماثيل دعوها الاصنام والاوثان[٢٣]. وقد ورد في بيت الاتمي :

واذا النصب المنصـوب لا تسكنّه .. لعـافية
والله ربك فاعبدا

ـ ٢ ـ

ان الديانة العربية القديمة هي ديـانة فلكيـة تقـوم عادة عـلى عبادة آلهـة تجسدهـا اجـرام سماوية، اي انها عبادة النجوم وتكون عند عرب الجنوب اقوى منها عند عـرب الشمال[٢٤] وقـد تختلف اسماء الالهة عند عرب الجنوب غير اننا نستطيع ان نقول انها تتكون من ثالوث كـوكبي مقدس : القمر ـ الشمس ـ عثتر (الزهرة) عبدت تحت اسمـاء ونعـوت مختلـفـة عـلى النحـو التالي :[٢٥]

الدولة	الاله القمر	الالهة الشمس	الالة عثتر (نجمة الصباح)
معين	ود 𐩥𐩵	نكرح 𐩬𐩫𐩧𐩢	فينوس
سبأ	المقة 𐩱𐩡𐩣𐩤𐩠	شمس 𐩦𐩣𐩪	عثر 𐩲𐩻𐩩𐩧
قتبان	عم 𐩲𐩣	اثره (اثرت) 𐩱𐩻𐩧𐩩	عثتر 𐩲𐩻𐩩𐩧
حضرموت	سن 𐩪𐩬	شمس 𐩦𐩣𐩪	عشتار 𐩲𐩻𐩩𐩧
اوسان	ود 𐩥𐩵	شمس 𐩦𐩣𐩪	عثتر 𐩲𐩻𐩩𐩧

وكانت هذه الديانة في الاصل بسيطة وطبيعية فقد عبد كـل عرب الجنـوب الاله القمر وهـو في الميثولوجيا، الاب والاله القومي للشعب والملك . والالهة الشمس وهي الام والالهة الحامية للعائلة والاله عثتر الاشعة الواضحة وهو الابن[٢٦]. ان القمر والشمس كما عند الشعوب الاخـرى هما زوجان كأب وام لعثتـر (الزهرة) وكـل النجوم ـ وكما هي الحال في عموم الميثولوجيا البدائية[٢٧]. ان نفس هذا الثالوث الكوكبي المقدس وجدناه في مملكة اقوم قبل دخول المسيحية لها[٢٨]. والظاهر ان للقمـر المقـام الأول من المعبـودات في شبـه الجزيرة العـربية وهـو الاله الاعظم[٢٩]. ولعـل السبب يرجع الى البيئة والمناخ اذ ان القمـر له اهمية في حياة العرب عظيمة جدا فهم يفضلون السفر ليلا خوفا من اشعة الشمس ويصبح القمر هاديهم حيث يرعون قطعانهم على ضوئه اضافة الى قيامهم بالاعمال المختلفة .

وفي هـذه المنـاسبـة لابـد من الاشـارة الى الاسـطورة العالميـة التي تقول ان زواجـا بـين الشمس والقمر وانهما يجتمعان مرة كل شهر . ونـرى اثر ذلك في اكثـر اللغات حيث ان القمـر والشمس يكونان من جنسـين مختلفين في اكثـر اللغات ومثال ذلك :[٣٠]

اللغة	الاله الشمس	الاله القمر
اللاتينية	مذكر	مؤنث
الاغريقية	مذكر	مؤنث
العربية	مؤنث	مذكر
الفرنسية	مذكر	مؤنث
الانكليزية	مذكر	مؤنث
الالمانية	مؤنث	مذكر

ولهـذه الاسطورة آثـار عديـدة في الاسـاطير الاغريقية والجرمانيـة والهنديـة . كما ان بعض القبائل والشعـوب تجعل اصلهـا من الالهة من حيث انتمـاؤهـا او اشتقـاق الاسمـاء من الاب الالهي الاقدم او الام الالهية . وهـذا ما نجـده عمـوما في الميثـولوجيا البـدائية وعنـد (شعوب

الشرق الادنى القديم) . وكذلك عند القبائل العربية مثل بني هلال وبني بدر[٣١] علما بأن جميع قبائل عرب الجنوب ينعتون انفسهم بانهم ابناء الاله المقة[٣٢] فالمعينيون أولاد ود والشعب القتباني هم ولد عم والسبئيون ولد المقة وهي بالتالي اسماء الاله القمر[٣٣] .

ان الثالوث الكوكبي المقدس عند العرب كما عند بقية (العرب الساميين) يتكون من اثنين مذكرين وواحدة مؤنثة تكون العائلة الالهية : الاب والام والابن كما هي الحال في سكان الهلال الخصيب ومصر فعند البابليين سمي (القمر) الاب وشمس (الشمس) الابن عشتار (البنت) اي ان القمر والشمس مذكران وعشتار مؤنث وعند العرب الجنوبيين القمر وعثتر مذكران والشمس مؤنث[٣٤] وتظهر منزلة القمر وتفوقه على الشمس عند العرب في اطلاقهم لفظ «القمرين» على الشمس والقمر.

ـ ٣ ـ

الاله القمر (الاب) .

يقف الاله القمر في قمة المعبودات في جنوب الجزيرة العربية وهو الاله الاب وهو الاله الرئيس الذي ينفرد بكثرة الاسماء والالقاب والاساطير في الحياة اليومية . لان الديانة في جنوب الجزيرة العربية هي ديانة قمرية . ربما تعود جذور ذلك لحياتهم البدوية حيث يشكر (المكرب سمة على) الاله المقة (القمر) الذي قادهم من الفيافي والصحارى الى ارض تفيض لبنا وعسلا[٣٥] وان الشمس اقل اثرا على هذا النمط في الحياة في حين يكون للقمر اهمية كبيرة في حياتهم ، اذ يفضلون السفر ليلا خوفا من اشعة الشمس ويصبح القمر هاديهم حين يرعون قطعانهم كما يقومون بالاعمال المختلفة على ضوئه .

وتظهر منزلة القمر وتفوقه على الشمس عند العرب في اطلاقهم لفظ (القمرين) على الشمس والقمر . ويبدو ان القمر بوصفه معبودا عند العرب قبل الاسلام كان يعرف باسماء متعددة فعند السبئيين يعرف باسم (المقة) ويفسر (جام) لفظة (ايلومقهو) بأن (ايل) تعني القوي[٣٦] وهذه تقودنا الى ان هناك نعوتا كثيرة للاله . على سبيل المثال (المقة تهون) اي المقة المتكلم[٣٧] و(المقة تهون بعل اوم) اي المقة المتكلم سيد اوم[٣٨] وفي الرموز الحيوانية اختير الثور لقرنيه اللذين يذكران بالهلال كحيوان مقدس لاله القمر فهو يسمى (ثور)[٣٩]. وجاء في النقوش السبئية من اسماء الاله (المقة) (ثور بعلم) اي الثور هو السيد و(بعل وعل صرواح) اي السيد الوعل صرواح[٤٠] ومن الحيوانات الاخرى التي ترمز الى القمر الوعل والنسر[٤١] .

كما أن للاله القمر عند السبئيين دلالات اخرى فهو على سبيل المثال (المقة ذو قبلم) وهو تعبير يفسره بعض العلماء بانه (المقة) الذي يؤثر في المد والجزر في سير القمر من اول ظهوره الى غيابه وقد اشير بـ (هلل) بمعنى هلال وبـ (ربع) أي الربع الاول من الشهر وبـ (حول) بمعنى تمام الشهر اي القمر كما تلا ومن صفاته (سمع) اي سميع وكذلك اسم (هوبس) وهو اسم للقمر عند السبئيين والتي تعني اليابس[٤٢] .

وفي معين يسمى الاله القمر (ود) بمعنى الحب[٤٣] ويقصد هنا الحب الالهي الذي عرفه المتصوفة وهو ضد الحب الجنسي . ويأتي في النقوش (الاله ود) مع كلمة اخرى وهي (شهرن) وتعني المتألق[٤٤]. وقد ورد لفظ (ود) كثيرا في النقوش الثمودية كمحبة وكإله وجد في النقوش اللحيانية[٤٥] وقبيل ظهور الاسلام ورد اسم ذلك الاله ضمن اسماء الهة اخرى ذكرت في القرآن الكريم في سورة نوح الآية ٢١ ـ ٢٤ «قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق و نسرا» .

ان انتشار عبادة الاله (ود) يتفق ومركزه الديني والاجتماعي في المملكة العربية الجنوبية فكثير من الرقى تحمل الكتابة (ودم ابم) ومعنى العبارة (الاب ـ محبة ـ الصديق) او (حب ـ الصديق ـ هو الاب) وقد رمز للاله (ود) بالمحبة .[٤٦] .

ويزعم ابن حبيب ان بني الفراصفة بن الاحوص كانوا سدنة الاله (ود) وكان (ود) لبني وبره وموضعه بدومة الجندل[٤٧] اما فلهاوزن فيقول ان هذا الزعيم يبدو لي خاطئا لان الفراصفة بن الاحوص كان مسيحيا وهو ابونائلة زوج الخليفة عثمان بن عفان[٤٨] وقد تشرف اناس قبل الاسلام بتسمية انسفهم بعبد ود . ويبدو ان التسمية تعني تقربهم الى الاله (ود) وهي تسمية عرفت في قبيلة الخزرج وقريش وهذيل وسعد ود في قبيلة تغلب . وهناك ابيات تنسب الى النابغة يذكر فيها (حياك ود)[٤٩] .

حياك ود فانا لا يحل لنا .. لهو النســاء وان الدين قد عزما

وكما ذكرنا ان من نعوت (ود) الحب وليس له علاقة بـ (Eroq) الصنم اليوناني[٥٠] ويبدو ان هناك وظيفة كبرى للاله القمر هي اعتباره الاب الاسطوري للقبيلة او الشعب[٥١] وعلى هذا الاساس فالمعنيون هم (اولاد ود) والشعب القتباني هو (ولد عم) والسبئيون هم (ولد المقة) . ونحن نعلم ان (ود) و(عم) و(المقة) كلها اسماء للاله القمر . ومعنى ذلك ان كل عرب الجنوب ينعتون انفسهم ابناء لهذا الاله .

وقد ورد اسم الاله (عم) في النصوص القتبانية مقرونا مع الاله (ابني) مثل (عم وابني)[٥٢]

كما جاء مقرونا ايضا مع الهة أخرى وبضمنهم الاله (ابني) على سبيل المثال (بعثتر وبعم وبابني وبحوكم وبذت صنتم وبذت ظهرن وبذت رحبن)[٥٣] .

ويعتقد نلسن ان (ابني) يعني الاله القمر[٥٤] . وهناك اسم أخر للاله القمر كان معروفا عن القتبانيين الا وهو (حرمن) اي القدوس[٥٥] اما اسم (محرم) فهو اسم الاله الحبشي الاكبر . كما يأتي اسم القمر عند السبئيين (الرحمن) و(الحكيم) عند القتبانين[٥٦] .

ومن الاسماء الاخرى للقمر هي (ورخ)[٥٧] وهي كلمة سامية قديمة تعني القمر كما هي مصطلح للشهر علما بأن التقويم العربي الجنوبي تقويم قمري[٥٧]. و(شهر) و(سين) نجدها في مختلف النقوش سواء كانت في جنوب بلاد العرب او في شمالها . ففي حضرموت مثلا يسمى الاله القمر كما في بابل القديمة (سن) كما يأتي ايضا مع النعت (ذو ايلم) كما ان الاله (سن) ذكر في مدينة (يحا) في الحبشة[٥٨] .

ـ ٤ ـ

الاله الشمس (الام) ..

خص العرب الشمس بالاولوية في عبادتهم . وهي عند عرب الجنوب مؤنثة . كما تبين لنا ايضا ان سائر الالهة المؤقتة تدور حول هذه الالهة وتدل عليها[٥٩] . وجاء في اللسان : ان العرب سمت الشمس لما عبدوها إلاهة والالهة : الشمس الحادة . والالهة والألاهة والإلاهة والإهة كلها الشمس . قالت فيها بنت ام عتبة :[٦٠]

تروحنا من اللعباء عصرا .. فاعجلنا الالهة ان تؤوبا

على مثل ابن مية فانعياه .. تشق نواعم البشر الجيوبا

كما نلاحظ أن الاسماء المركبة في (ذات) واسماء اخرى مؤنثة كلها القاب لآلهة الشمس العربية العظيمة والتي تسمى (اللات) او الألهة[٦١]. اي ان اسماء الشمس عند عرب الجنوب تبدأ بلفظ (ذات)[٦٢] اما عند بعض عرب الشمال فهو مذكر[٦٣] ويؤيد ذلك (كاسكل)[٦٤]. ويرى (نلسن) ان اسم الالهة (الشمس) اسم فطري وهو احد الاسماء التي لا تحمل اي معنى عقلي للمعبود بل تصفه كما هو في الطبيعة .

ويشير بذلك ايضا الى بقية الشعب العربي ، غير اننا لا نتفق معه في هذا الرأي ونعتقد ان عبادة الآلهة الشمس عند العرب انما هي عبادة لها معان عقلية سواء في نسكهم لها[٦٥]، أو ما ترمز اليه الشمس في الوحدة والقوة والذكاء[٦٦] .

ان اسم شمس في الاسماء الشائعة في كل شبه جزيرة العرب حتى لقد قيل ان الاسم الذي نجده في كل ارض العرب هو اسم شمس[٦٧] . ويبدو ان اقدم اشارة لاستعمال العرب لهذا الاسم كاسم علم ذكر في حوليات الآشوريين . اذ ان من بين الذين دفعوا الاتاوة الى الملك (تجلا تيلاسر) في عام ٧٣٢ق.م الملكة العربية شمشي (شمس) . كما تتكرر هذه الاشارة في عهد الملك سرجون ٧٢١ ـ ٧٠٥ق.م ويبين ان الملكة شمشي (شمس) ملكة العرب دفعت له الاتاوة في عام ٧١٥ق.م[٦٩] . كما جاء ذكر شمس في النقوش الجنوبية ، اذ يشير النص الموسوم (GL. 1228) وكذلك (CIH 360 +598) الى اسم الملك سعد شمس ملك سبأ وذو ريدان الذي حكم فيما بين سنة ٢٠ و٣٠م[٧٠] كما تذكر النقوش (RES. 4138, CIH. 164, Ja 496) اسم ملك أخر من ملوك سبأ وذو ريدان وهو الملك رب شمم نمران وشمم هي (شمس) الذي حكم عام ١٢٠ ـ ١٤٠م[٧١] كما حفظت لنا الروايات العربية اسماء عدد من القبائل العربية في الجزيرة العربية تسموا باسم الالهة الشمس فيذكر لنا الهمداني ان اول من تسمى بهذا الاسم من العرب هو سبأ الاكبر عبد شمس[٧٢] ويشير ابن دريد الى ان احد رجال الاشعريين اسمه عبد شمس ، ومن رجال بني ثعلبة بن عكابة عبد شمس[٧٣] ومن رجال بني مخزوم عبد شمس بن المغيرة[٧٤] كما نجد أن هناك عشيرة او فخذا سميت بالشمس كما نفهم مما ذكره ابن دريد ان عمرو بن العاص استخلف ضحيان بن سمان على بني شمس[٧٥] .

ويأتي اسم شمس كعلم لفرقة من الازد كما يتكرر كاسم مكان[٧٦]. ويبدو ان اسم شمس يوجد اعتيادا عند قريش ولحيان[٧٦]. مثل عم شمس[٧٧]. واشار ابن سعد الى ان سعيد بن يسار وهو من الرواة الثقاة كان مولى امرأة نصرانية اسمها شمسة اسلمت على يد الحسن بن علي بن ابي طالب[٧٨]. كل ذلك يشير باهمية الالهة الشمس وانتشار عبادتها في شبه الجزيرة العربية .

ومما يذكره نلسن ان الآلهة الشمس تسمى احيانا اللات او الآلهة[٧٩] وقد جاء ذكرها عند المعينيين باسم (نكرح) ونكرح في لهجة الشمال نقرح . وهي القارح التي تعني الكامل . كما يسمى الفرس القارح عندما يكون كاملا ، علما بأن الفرس يرمز عند العرب للآلهة الشمس او كما جاء من (نقشم) الالهة الحارسة اما عند السبئيين فيأتي اسم الالهة الشمس باسماء مركبة[٨٠]. مثل (ذات حميم) وهذا الاسم يكون لشمس الصيف و(ذات بعدن) لشمس الشتاء و(ذات جدرن) و(ذات غضون)[٨١]. وفي النقوش القتبانية نجدها تسمى : (ذات صنتم) وهذا يقابل (ذات بعدن) السبئية و(ذات صخرن) وذات زهرن ويقابل (ذات حميم) و(ذات صنتم) السبئية ، كما جاءت في قتبان نبعوت اخرى مثل (ذات محرض وشرقن) اي ذات اللون الذهبي المشرق بمعنى الشروق والغروب وهذا يطابق (ترن) و(تنف) السبئية وهي على رأي (مورتمان) تعني الجليل او المجد[٨٣] وهناك اسم آخر للالهة الشمس في الكتابات القتبانية الا وهي (اثرة)[٨٤] . ويقصد (نلسن) ان هذا الاسم يشير عادة الى الالهة الشمس ويضيف الى ذلك بقوله والذي يعيننا على فهم هذا اللفظ الكلمة العربية اوثر (آثار) اي لمعان كما ظهرت الشمس هنا ايضا تحت اسم واسع ومعروف هو (العزى) وان الالهة الشمس وجدت عند الحضارمة ايضا وتميمى (ذات مسولم) اي شمس الشتاء[٨٧] . وعبد الاوسانيون الشمس ايضا . وفي العصر الحميري وجدنا كتابة على احد الابنية تعود الى عهد الملك (شمريهر بن ناصر انعم) حوالي القرن الرابع الميلادي يذكر صاحب البناء انه بناه لسيدته الالهة الشمس[٨٩] اضافة الى ذلك فان هذه الالهة رافقت العرب الى بلاد الحبشة وعرفت هناك (بذات بعدن)[٩٠] اذ ان اسم الشمس هو كالقوة الجاذبية التي تجذب اليها سائر اسماء الالهة الآخرين .

كما عبدت قبائل ثمود (الآلهة الشمس) وكذلك بنو تميم وخصصت له معبدا كما كانت تعبده بنواد كلها وهي ضبة وتميم وعدى وعكل وقور وكانت سدنته في بني اوس بن مخاشن[٩١] ويذكر اليعقوبي ان جماعة من بني عذرة كان لها صنم تعبده يقال له شمس[٩٢] وكما يظهر لنا ايضا ان الالهة (اللات) والتي عبدت في الطائف هي الشمس وهي عبارة عن صخرة مربعة يحجون اليها ويحرمون وسدنته من ال ابي الغاصي بن ابي يسارين[٩٣] .

وقد رمز العرب الاقدمون الى الالهة الشمس من الحيوانات بالعيوب واليعبوب الفرس السريع الطويل وهو صنم لجديلة وطي[٩٤] وهو يرمز الى حيوان الشمس المقدس فهو ينوبعن الاله الشمس في بلاد العرب[٩٥] في الشمال كما في الجنوب[٩٦] وكذلك الاسد[٩٧] كما ان النسر يرمز الى الالهة الشمس[٩٨] بسيادته وهيمنته لان : النسر يدور في كبد السماء كما تفعل الشمس في مدارها فيراقب من علو ما يحدث على سطح الارض[٩٩] .

ـ ٥ ـ

وقد رمز العرب للشمس بقصر او دائرة او كتلة أو هالة والقرص صورة طبيعية لقرص الشمس التي يظهر في السماء قرصا وهاجا يبعث الحرارة والنور[١٠٠] الاله عثتر (الزهرة نجمة الصباح) الابن .

وقد عبد اضافة الى الاله القمر والشمس عند جميع شعب شبه الجزيرة العربية . وعرف عندهم باسماء مختلفة اللفظ طبقا «للهجات العربية مثل : عثتر وعشتر واثر وعشتار وعشترون واشتار[١٠١] .

ان هذا الاله (عثتر) هو اله فلكي يظهر في عبادة العرب في الجنوب الى جانب الشمس والقمر ، وعثتر هي الزهرة لأنها اكبر واكثر اضاءة من النجوم الاخرى[١٠٢] ، وهي تمثل الابن للقمر والشمس لأن القمر والشمس كما عند معظم الشعوب هما زوجان كأب وأم للزهرة وكل النجوم هما ـ كما هي الحال في عموم الميثولوجيا ـ اب وام[١٠٣] .

ان نفس هذا الثالوث الكوكبي وجدناه في مملكة اقسوم قبل انتشار المسيحية وان عثتر هي آلهة الزهرة في النقوش الاقسومية[١٠٤] .

وفي الحقيقة توجد نعوت كثيرة للاله عثتر تشير الى الزهرة وقد جسد هيرودتس صفات وملامح

هذا الاله على اساس انه اله الحب متذكرا بذلك الاله فينوس اليوناني والروماني(١٠٥) .

ويظهر (الاله عثتر) في نقوش جنوب الجزيرة العربية كنجم له ثمانية خيوط اشعاعية كما هي الحال عند البابليين(١٠٦). وجاء اسم (عثتر) عند الآراميين باسم (كوكبة) وفي الواقع ان معنى الاسم لا يزال غامضا وقد اعطى (نلسن) احتمالات واشتقاقات كثيرة وبعد استعراضها ذهب الى كوكبة الآرامية تقابل كلمة النجم العربية(١٠٧) . وهذا الاسم جاء في القرآن الكريم في سورة النجم الآية الاولى قوله سبحانه وتعالى : «والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى» ومعنى ذلك ان الاله الزهرة يذكر هنا كنجم ليلي ، وان هناك من يرى ان (الاله عثتر) هو نجم الصباح الذي ورد في القرآن الكريم سورة الطارق الآية ١ ـ ٢ باسم «الطارق» كما ذكر في القرآن الكريم سورة الطارق الآية ٣ «النجم الثاقب» وربما كانت التسمية الاخيرة نادرة (للاله عثتر) غير أن النجم عموما «اسم (للاله عثتر) وهذا يعني على رأي نلسن ان الاله له مكانة في الصباح والمساء(١٠٨) .

وفي الحقيقة نحن لا نتفق مع (نلسن) لأن من المشهور ان النجم هو الثريا كذلك يلاحظ ان اسم النجم في الآيتين جاء في القسم وبعيد جدا ان يقسم القرآن الكريم باسم اله جاهلي والمراد اذن هو الكوكب دون معنى القدسية . رغم ما جاء في النصوص اسم شخص باسم عبد نجم اي خادم النجم ويعتقد ايضا «ان (كوكب نوجه) الآرامية تعني بالعربية النجم الثاقب اي النجم الوهاج «وكوكبت» الآرامية تقابل بالعربية النجوم اما «نوجه» (نوجها) الآرامية فهي تقابل بالعربية الزهرى وتعني الوهج(١٠٩) .

ويرى مورتمان ان (عثتر شرقن) يعني الشارق(١١٠)، ولا يمكن ان يكون (الشارق) نعتا» لأن الشمس في العربية الجنوبية مؤنث(١١١)، والشارق اسم صنم للعرب قبل الاسلام وهو الاله الحارس للمعابد والمقابر اليه توسل المتوسلون لحفظ قبورهم من عبث العابثين الطامعين في كنوزها ولهذا نعت (بعثتر يغل) اي عثتر المنتقم(١١٢) .

كما ورد (عنتر غربن) اي عنتر المغارب كناية عن غروبه أو عن طلوعه عند الغرب فهو اذن نجم الشروق والغروب اي المشارق والمغارب و(عنثر نورو) عند السبئيين اي عنتر نور وعثتر المنير تعبيرا عن لمعانه عند الظهور و(عنتر سحرن) اي عثتر السحر (الشفق) وهي من اشكال ظهور عثتر كما يدعى دائما «مثب نطبن» اي الحاصل للرطوبة تعبيرا عن الرطوبة التي تكون عند ظهوره فنسبوها اليه او يعني دور الاله في الري(١١٣) .

وهناك نعوت كثيرة اخرى للاله عثتر مثل : عثتر ذو قبضم عثتر ذو رصغم وعثتر ذو بهرف(١١٤). وعثتر ذو ذيبن علما بأن عثتر ذويهرف لعب دورا كبيرا في معبودات المعينيين و(عثتر حجر) عند المعينيين ايضا و(عثتر بأس) و(عثتر جريم) اي (عثتر ذو جرب) ويعني الـ « الارض والخصب »(١١٥) كما نبعت (بعثتر ذوجوفتم) (₦٦٥◇×⩤) أو ذو جفتم (₦٦◇×⩤)(١١٦) .

كما يشترك مع الالهة الاخرى بنعوت مثل : (نوبن ونبعن)(١١٧) ومن الملاحظ أن الاله عثتر يأتي دائما «في النقوش مع (الاله ود) والاله (نكرح)(١١٨) .

وقد وصلت الينا اسماء مركبة في نصوص المسند فيها اسم عثتر مثل : اوس عثت ، هوف عثت ولحي عثت ، وعثت هنا هو اختصاص لعثتر ، وجاء في كتاب الاكليل للهمداني (حي عثتر يطاع)(١١٩) وقد اشار الى ذلك (مورتمان) ايضا(١٢٠) كما جاء ذكر عثتر باسم شهر : ذعثتر (₦٥8×ﺩ) في النقش الموسوم (.CIH 547) السطر ٧ ـ ١٨ .

اضافة الى هذه الالهة الكوكبية الرئيسية فقد قدس العرب في جنوب الجزيرة العربية آلهة اخرى ولكن باطار ضيق مثل الالهة (ثالب ريام) اله قبيلة همدان والاله (قنن) هو اله شبام سخيم اي قبيلة سخيم النازلة في شبام(١٢١) و(ذو سموى) اله قبيلة عامر وقد ظن بعضهم انه يقابل الاله (بعل شمعين) او يطابق الاله (المقة) غير أن الاثنين لا يطابقان الاله (ذو سموى) كما ظن (جامة) و(ركمانس) وكان على كل حال هو اله الخصوبة(١٢٢) وقد عثر على نقش قرب الربع الخالي وجد عليه اسم اله جديد هو (ذو يغرو) اضيف الى اسم الاله (ذو سموى) وان هذا الاسم الجديد هو بكل تأكيد جاء من الفعل (غرا)(١٢٣) ويعتقد أن (ذا يغرو) هو اسم المعبد وكناية للاله (ذوسموى)(١٢٤) وفي نص آخر يأتي اسم (ذو يغرو) مع الاله (ذوسموى)(١٢٥) وربما كان (ذا يغرو) هو اله آخر وقد ذكر ابوسعيد ان (الغرى) نصب كان يذبح عليه النسك(١٢٦)، كما كان له معبد في مدينة (حنان) المهمة(١٢٧) .

وان الاله نسر عبد مع الاله (عثتر) في معبد

واحد وقد اشار (Osiander) اليه وكالة لقبيلته (ذو الكلاع)[١٢٨] واعتبره من الالهة الكوكبية وهو يطابق الاله القتباني (نسور)[١٢٩] و(نسور) اسم قبيلة او اسم عائلة كما يأتي اسم (نسور) لمنطقة اوسان[١٣٠] كما عرف احد شهور السنة في النصوص العربية المتأخرة بـ (ذ نسور)[١٣١] وقد ورد في النقش الموسوم (GL. 418, 419) السطر الرابع هذه الجملة : (بت نسور دبت ال) ويبدو ان (ال) هو الاله (ايلو) اله العرب (الساميين القدماء)[١٣٢]. ونسر هو اسم صنم من الاصنام التي عرفها اهل الأخبار وزعموا أنه احد اصنام قوم نوح الخمسة وان عمرو بن لحي جاء به الى حمير[١٣٣] فعبدته ومن ولاها فلم يزل يعبدونه حتى عهد الملك ذونواس[١٣٤] كما لم نجد او نسمع بيتا من الشعر ذكر الاله (نسر)[١٣٥] على حد رأي ابن الكلبي ، غير أن هناك من يشير الى هذا الاله في هذا البيت من الشعر :

اماء ودماء حائرات تخالها .. على قنة العزى وبالنسر عندما ..

ان الاله السبئي (حلفان) هو اله القسم (وبلو) اله الموت اما الاله القتباني (ورفو) فهو اله الحدود (ومنضح) (ومنضحت) اله الري وكذلك لحماية الحدود ويختص الاله (متبقط) بكونه الاله المعيني للحصاد ثم الاله (يهرهم) وهو اله المطر وهناك اله خاص للحرب وللمرض[١٣٦] .

وهناك اسماء مثل : (يثعم) في السبئية (ككوان) في المعينية و(اردن يدع) يقف بين اله القمر والاله الزهرة و(سمرهت) و(ذانيت) و(نقين) و(نوشم) و(هروم) يظن أن لها صلة بالالهة[١٣٧] .

والهة اخرى عرفت بنعوتها مثل : (رحمن) . (حليم)، (كهلان) (ذرح عند الحضارة) (سمع) (اب حمي) (الحامي) وعند الحميريين عليم وسميدع . وربما سميدع هو الصمد في لهجة عرب الشمال . ويعتقد مطر الارياني انها آلهة حميرية خاصة[١٣٩] غير اننا نراها نعوت او صفات للالهة مثل رحمن وحليم وغيرها ، و(اب شعر)، (اب شفق)، (ذو عودان) و(اب رضو)[١٣٨م] ولعله الاله رضى الذي كان له بيت لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة فهدمه المستوغر حيث قال :[١٣٩م].

وقد شددت على رضاء شدة ..
فتركتها بلا تنازع اسحما
ودعوت عبدالله في مكرومها ..
ولمثل عبدالله يغشي المحرما

اما الاله المحلي فيعرف من خلال الاشارة اليه بصورة (ايل) تسبق الاسم على سبيل المثال الاله القتباني اله القوة والفخر (ايل فخر) والاله المعالي (ايل تعلي) ومن الالهة التي ورد اسمها في الكتابات العربية الجنوبية الاله (حول)[١٤٠] .

وهناك مجموعة من الالهةجاءت من الخارج الى جنوب الجزيرة العربية مثل : قوس، قين ، مناة ، اللات ، عزيز اللات ، رعت ، والاله الثمودي سالم والاله اللحياني اوس واله مدين بنعل[١٤١] .

في المقابل آلهة من الجنوب عبدت في شمال الجزيرة العربية فعبد الثموديون على سبيل المثال : عثترت ، ود ، يثع ، سحر ، سن ، عم ، يغوث ، وحول وعند الانباط يمكن أن نتعرف على آلهة جنوبية عبدوها[١٤٢] حيث ذكر مناة في النقوش النبطية[١٤٣] .

ويمكن ان نصنف نعوت الالهة طبقا «للصورة اللغوية الى ثلاث اقسام :

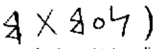
١) نعوت وألقاب تبدأ بذو 𐩸 للمذكر وذات للمؤنث :𐩸𐩩
١ ـ عثتر
٢ ـ المقة
٣ ـ عم
٤ ـ سن
٥ ـ ود
٦ ـ الالهة شمس
٧ ـ لقب أو نعت دون اسم اله[١٤٤]

٢) نعوت وألقاب تبدأ بـ (بعل) 𐩨𐩱𐩡 للمذكر و(بعلت) 𐩨𐩱𐩡𐩩 للمؤنث
١ ـ عثتر
٢ ـ المقة
٣ ـ ثالب
٤ ـ ود
٥ ـ شمس
٦ ـ ذو سموى

٣) نعوت وألقاب اسمية او افعال لصيغ الماضي ناقصة :
١ ـ عثتر
٢ ـ المقة
٣ ـ ثالب
٤ ـ ود
٥ ـ شمس
٦ ـ نعوت دون القاب مقدسة[١٤٥]

ان الاختبار الدقيق ومقارنة هذه الاشكال المختلفة تشكل قناعة بأن المجموعة الثانية هي

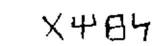
علامات واشارات محلية على عكس المجموعة الاولى والثانية والتي لها معاني الطبيعة[١٤٦] . وبهذا يمكن أن نعرف ماذا تعني نعوت الالهة عند عرب الجنوب اذ من قراءتها يمكن أن نرى :

١) في جميع النقوش نجد مصطلح نعمة ()[١٤٧] .

٢) يكثر في النقوش مصطلح الصحة والعافية[١٤٨] .

٣) نجد في النقوش شكرا للالهة التي تمنح الاطفال وخاصة الذكور كهدايا وعطاء منها[١٤٩] .

٤) يكثر في النقوش ذكر للحاصل الوفير[١٥٠] .

٥) كما يكثر في النقوش ايضا الكلام حول الري والمطر كعيون المياه والجداول والعواصف مثل كلمة منضح ()[١٥١] .

٦) نقرأ في النقوش ايضا «الدعاء الى الالهة من كاتبها بأمر من الملك لتحمي البلاد من الاعداء والغزاة كالطامعين[١٥٢] .

- ٦ -

خصص العرب احسن البنايات واضخمها لتكون اماكن ومعابد لتمجيد آلهتهم . وهذه المعابد تختلف بعضها عن بعض ليس في الاسس وانما في مواد البناء - علما «بان اليمن سخية بالاحجار خاصة الجرانيت والبازلت والرخام[١٥٣] - وكذلك التعبيرات الزخرفية طبقا (للظروف المكانية من جهة والاتصال الحضاري بالامم الاخرى من جهة اخرى بحيث اطراها (سترابو)[١٥٤] . وفي بلاد اليمن توجد معابد كثيرة جدا وعلى سبيل المثال ما ذكره (بلينوس) من ان مدينة (شبوه) حاضرة اقليم حضرموت وحدها تحتضن (٦٠) ستين معبدا[١٥٥] .

كانت المعابد مربعة او مستطيلة ومكعبة[١٥٦] . وان كان التكعيب هو الاسلوب الشائع عند العرب كافة . فكانت بيوت الاصنام عندهم . وكذلك المعابد التي شيدت للالهة في سوريا وفي جزيرة العراق . غير أن اشهر الابنية الدينية في اليمن هو البناء البيضوي الشكل وهو بناء عظيم يعرف بمحرم بلقيس . طول قطره الاكبر (٩٠)م وكان له سور كبير من صخور جميلة سمكها ثلاثة أمتار وفيه آثار ابراج ويبلغ ارتفاع السور نحو تسعة امتار ونصف وفي اعلاه شريكان من الزخارف التي تتكون من مربعات بينهما فراغ[١٥٧] وفي السور بابان كبيران الا ان احدهما اكبر من الآخر . فالكبير يقع في نهاية الجهة الشمالية الشرقية ، والآخر في الجهة الشمالية الغربية .

وفي وسط البناء كانت تقوم الاعمدة . كما ان المدخل الرئيسي كان مكونا في الاصل من عدة اعمدة ويعود بناؤه الى القرن الثامن ق.م[١٥٨] .

وتضم المعابد دائما «صحنا» واسعا[١٥٩] تعقد كما يبدو فيه الاجتماعات وتقام الولائم والاحتفالات والاعياد . غير أننا لا نعرف عن التأثيث الداخلي للمعبد الا الشيء القليل[١٦٠] كما اننا لا نستطيع ان نثبت ما اذا كان العرب القدماء يضعون في كوة (Nisehe) المعبد تمثالا «للالهة ام لا» غير أن جروهمان يعتقد جازما «انه لا توجد تماثيل للالهة في المعابد وانما يرمز اليها بحيوان مقدس.[١٦١]

وفي هذه المعابد توجد مذابح (مذبحة)  وهي على اشكال مختلفة اذ يضحى عليها بالحيوان حتى اذا كان كبيرا «كثور كبير مثلا» وتسمى الذبائح اذا كانت من الغنم العتائر. قال زهير بن ابي سلمى[١٦٢] .

فزل عنها وأوفى رأس قرقبه ..

كمنصب العتر دمّى رأسه النسك

وهو مربع الشكل من المرمر غير انه مسطح طوله (٦٦,٤سنتم) وعرضه (٢٧,٩٤ سنتم) وارتفاعه (١٧,٧٠سنتم) ويوجد مجرى مربع الشكل ايضا «يجرى فيه دم الفدية او القربان[١٦٣] . وذكروا (للعزى) مذبحا (اسموه غبغب العزى)[١٦٤] . والغبغب، المنحر ومهراق الدم قال الشاعر[١٦٥] .

رأى قدعا في عينها اذ يسوقها .. الى غبغب العزى فوسّع في القسم

وكانت قريش تخصها بالاعظام فلذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل وكان قد تأله في الجاهلية وترك عبادة الاصنام[١٦٦] :

تركت اللات والعزى جميعا ..

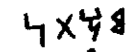
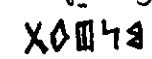
كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ..

ولا صنمي بني غنم ازور

ولا هبلا أزور وكان ربا ..

لنا في الدهر اذ حلمي صغير

كما يضم المعبد مكانين للقرابين احدهما للحرق ويسمى (مختن) 
ويسمى ايضا (مصرب) 
وثانيهما لدم الاضحية ويسمى (منطفة) 
اما المباخر التي يحرق بها البخور من قبل المتلمسين فيسمى (مقطر)[١٦٧] 

كما أن هناك ما يشير الى ان مقدمي النذور او المعترفين بذنوبهم كانوا يتطهرون في اماكن خاصة في المعبد ، ففي معبد الاله (ذو غابت) يوجد حوض من الماء يغتسلون او يتوضأون فيه قبل الدخول الى المعبد[١٦٨] . ولا يجوز ان يدخل الانسان المعبد باثواب نجسة فهو ان فعل يجب عليه ان يدفع الفدية أو الكفارة ، كما أنه لا يسمح له بان يفعل منكرا كأن يأتي زوجته في الاوقات الممنوعة ويدخل المعبد فعليه دفع الفدية وطلب الصفح من الاله فاما ان يغفر له او ان تؤكد العقوبة عليه حسب النظام الاجتماعي السائد في تلك الفترة[١٦٩] . كما لم تكن الحيض من النساء تدنو اصنامهم ولا تتمسح بها . انما كانت ناحية منها[١٧٠](. كما كانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم قال احدهم[١٧١١] .

وجاؤوا بماء بارد يغسلونني .. فيالك من غسل ستتبعه غبر

وكانت العرب دون من سواها من الامم ، تصنع عشرة اشياء منها في الرأس خمسة وفي الجسد خمسة[١٧٢] كما أن الاعتراف بالذنب من الامور التي تتطلب شجاعة اخلاقية عالية وتشهد بانصياع الانسان المطلق في طاعة الاله[١٧٣] وهذا يدل على تطور العرب القدماء من الناحية الدينية والفكرية .

وكان العرب القدماء في عبادتهم يسجدون للاله فقد جاء في القرآن الكريم سورة فصلت آية ٣٧ قوله سبحانه وتعالى : «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون» . كذلك فعل اهل سبأ اذ جاء في القرآن الكريم سورة النمل آية ٢٤ قوله تبارك وتعالى : «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون» . ويظهر ان العرب كانوا يصلون للشمس ثلاث مرات ، اذا طلعت سجدوا كلهم لها وكذلك اذا غربت واذا توسطت الفلك ، ونفهم من ترجمة رقيقة التعفية انهم كانوا يصلون صلاة شبيهة بصلاة المسلمين[١٧٤] اذن فالصلاة من عباداتهم التي عرفوها قبل الاسلام[١٧٥] . كما كانوا يطوفون حول البيت ولهم تلبية خاصة . وكان لكل قبيلة تلبية . فكانت تلبية من نسك للعزى :

لبيك اللهم لبيك .. لبيك وسعديك .. ما احبنا اليك

وكانت تلبية من نسك اللات :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك

كفى ببيتنا بنيه .. ليس بمهجور ولا بليه

لكنه من تربة زكية .. اربابه من صالحي البرية ..

وكانت تلبية من نسك لود ..

لبيك اللهم لبيك ، لبيك معذرة اليك[١٧٦] .

ويروي ابن حبيب اكثر من عشرين تلبية مشابهة .[١٧٧] ربما كانت عند اهل اليمن .

وكانت العرب تجتمع الى معابدها كل سنة مرة وذلك في شهر ذي الحجة الذي ورد في نصوص المسند باسم (ذو محجتن) اي ذو الحجة .[١٧٨] غير اننا لا نستطيع تحديد اكان ذلك في الشتاء او الصيف او اي فصل من فصول السنة . لان هناك من يفكر به انه شهر خريفي ولذلك فان ذو الحجة وذو خرف وذو مذ إن هي ثلاثة اشهر خريفية وان الحجاج لا يقومون بالحج في فصل الخريف ذي المطر الكثيف والاساس لهذا الاعتقاد أن حوادث النقش الموسوم Cis 621 بالضرورة تقع في اشهر الصيف ولكن هذا امر غير قاطع .

ويقول (بيستن) : «وانا أميل للاعتقاد بأن امكانية وقوع هذا الشهر في الشتاء المتأخر وهو الاكثر احتمالا»[١٧٨] .

وكان لهذه المعابد سدنتها والسادن كالحاجب في خدمة المعبد ويبدو ان هذه الوظيفة وراثية وفي اسر معينة كما هي لبني عبد الدار في مكة على سبيل المثال . وقد ذكر في نصوص المسند اسم (رشوه) ( ) بمعنى رجل الدين[١٧٩] . وجاء في النصوص السبئية ـ القتبانية باسم (رشو وشوع) ( ) وفي النصوص الحضرمية باسم (رشو) ( ) اما في المعينية فورد اسم (افكل) وفي النصوص الفينيقية (افكلا) وهي تطابق اللحيانية والنبطية والتدمرية .[١٨٠] وجاء في لسان العرب الافكال وهي ابوبطن من العرب وربما سدنته والافكل مرض يسبب غيبة الوعي والرعشة .. فلعل معنى اللقب الكاهن الذي يصاب بالذهول لصلته بالارواح .

اما كلمة كاهن فهي على رأي (فلهاوزن) نفس الكلمة العبرية (كوهن) والتي تعني الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الاسرار ، كما انه يزعم تابعا من الجن ورئيا يلقي اليه الاخبار ويقوم بتكلم الصنم (Orakel) وهي من عادة الكاهن عند العرب اذ يوحي الى الآخرين ان الاجابة على الاسئلة واعطاء الاحكام في الامور المعصية والمشاكل المختلف

عليها تكون من قبل الاله(١٨١). وهذا الشيء يؤلف ركنا «مهما» من اركان الديانة القديمة . ومن واجبات الكاهن ايضا «اعطاء النصح الى اتباعه وابداء الرأي لهم(١٨٢) .

وكانوا فضلا «عن ذلك يتحاكمون الى كهنتهم والى كهنة القبائل الاخرى لانهم يشتهرون من بين الكهنة بصدق النبوءة او الاهتداء الى دقائق الخلافات او لاسباب اخرى فقد تناخر هاشم وامية الى الكاهن الخزاعي . وتناحر عبد المطلب وقريش الى كاهنة بني سعد بن هذيم في زمزم . واحتكم الى الكاهنة سجاح في فداء ابنه عبدالله »(١٨٣) .

والكاهن في هذه الحالة شخص رضي تفضح له الالهة عما تريد ويستطيع هو ان يسائلها والكاهن شخص غير طبيعي وهو ذو صلة بالالهة والجن فليس معقولا ان يتكلم كلاما «طبيعيا» وكان اسلوب الكهنة المعتاد الذي ينطقون به احكامهم هو السجع(١٨٤). والكاهن غير مطالب بان يبرر احكامه لانها غيبية مقدسة عندهم(١٨٥) ومنهم من كان يزعم انه يعرف الامور بمقدمات اسباب يستدل بها على مواقفها من كلام يسأله او فعل او حالة وهذا يعرف عند العرب باسم العراف . جاء في لسان العرب : «ان كل من يتعاطى علما» دقيقا «فهو كاهن ، ومنهم من كان يسمي المنجم والطبيب كاهنا»(١٨٦) .

ـ ٧ ـ

حاول (مورتمان) معرفة فصول السنة عند عرب الجنوب وذكر لنا :

ذو صرب = الخريف

قيظ = الصيف

دثأ = الربيع(١٨٧).

ويؤيد هذه الفرضية (بيستن) حيث يذكر ان دثأ وخرف هما مصطلحان للربيع والخريف(١٨٨) وفي النقش الموسوم RES 4230 جاء صربم وقيظم . وان القيظ وهو بكل تأكيد الصيف اما صربم (الصرب) فهو اما الخريف او حصاد الشتاء المبكر والصراب هو موسم حصاد الذرة في شهر (علان) وهي نهاية الخريف واوائل الشتاء . والصراب على رأس (مطهر الارياني) لا يزال هو لغة اليمن عامة يقولون الصراب ولا يقولون الحصاد(١٨٩). كما وجدنا في النقش الموسوم (Cis 174) قيظ/ ودثا/ وصرب/ ومليم وربما كانت (ملي) تعني حصاد الشتاء المتأخر(١٩٠) .

كما يمكن أن نفترض اسماء الاشهر كما يراها (بيستن) عند السبئيين على الشكل التالي :

ذوثبتن = آذار او نيسان غير أن (ملر) يرى ان ذوثبتن هو شهر نيسان اما (ذومبكران) فهو شهر ايار(١٩١) .

ذو قبطن = ايار او حزيران

ذو خرف، ذو مذران = تموز الى ايلول

ذودأن = تشرين الأول

ذو صربن = تشرين الثاني

ذومعن = كانون الأول(١٩٢) ويرى (ملر) ان (ذو الان) هو شهر كانون الأول(١٩٣).

وبينما يعتقد مورتمان ان ذا صبرين هو شهر ايلول(١٩٤). وقد اشار الدكتور خليل يحيى نامي لدى قراءته للنقش السادس انه جاء في السطر الخامس (ذي ملين) واعتقد ان (ذي ملين) احد فصول السنة وقد يكون الشتاء . كما جاءت كلمة (ذمليم) اسم(١٩٥) شهر في النقش الموسوم .GL 1065 /1066 السطر الثالث ، ويبدو أن (مطهر الارياني) عند قراءته للنقش الموسوم (١٩/ك) يعتقد ان (مليم) هو فصل الشتاء عند عرب الجنوب كما اشارت النقوش اللحيانية الى دثأ وهو فصل الربيع عند اللحيانيين ايضا(١٩٦) .

ان الديانة اليمنية القديمة ـ كما سبق وان شرحنا ـ ديانة فلكية تتكون من ثالوث كوكبي مقدس/ القمر . الشمس . الزهرة . غير انه لا يوجد لدينا ما يشير الى تصوير اليمنيين للالهة في اشكال آدمية او اتخاذهم التماثيل لها ، غير أنهم رمزوا للالهة كما سبق وان اشرنا .

كما ان النصوص الصينية التي وصلت الينا لم تكن نصوصا مطولة ولعل السبب راجع الى طبيعة الكتابة على الاحجار(١٩٧) والتي التزمت الايجاز في كل ما تعرضت له من موضوعات دينية ودنيوية غير اننا من دراسة هذه النقوش نجد التصاق الفرد بالالهة خصوصا «فيما عبر عنه بتقديم النذور في مختلف المناسبات»(١٩٨) كما تدل على قوة وعمق الشعور الديني والانصياع المطلق للاله خصوصا «الاعتراف العلني بالذنوب والذي يتطلب شجاعة اخلاقية عالية»(١٩٩). وهذا يدل في الواقع على تطور العرب من الناحية الدينية والفكرية .

كما نرى ان العرب القدماء اعتقدوا بحياة اخرى بعد الموت وهذا ما يفسره وجود بعض الاواني في المداخن اليمنية القديمة(٢٠٠) .

رغم كل ذلك لا تزال الدراسة عن الديانة اليمنية القديمة ناقصة وبها ثغرات لم تتوفر لنا النقوش لسدها ويمكن في المستقبل الحصول على نقوش اكثر تعكس لنا الصورة الواضحة للديانة العربية القديمة ومنها الديانة اليمنية .

مفتاح للنقوش :
١) Corpus Inscriptionum Semiticarum iv — ci — H

مجموعة النقوش السامية :
٢) Eduard Glaser — GL

النقوش التي جمعت من قبل الرحالة ادور كلاسي النمساوي .
3) Albert Jamme — Ja

النقوش التي جمعت وقرئت من قبل الاب البلجيكي البرت جامه .
4) Repertoir depigraphie Semitique — RES

مقالة في الكتابة السامية .
٥) ك = مجموعة القاضي علي عبدالله الكهالي شرح وتعليق مطر علي الادرياني .

المصادر العربية

ابن حبيب ، المحبر ، منشورات المكتب التجاري بيروت .
ابن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون القاهرة ١٩٥٨
ابن سعد ، الطبقات الكبرى . دار صادر بيروت
ابن الكلبي . كتاب الاصنام . تحقيق احمد زكي القاهرة ١٩٦٥
ابن منظور . لسان العرب . دار صادر بيروت ١٩٦٨
ابن هشام . السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وآخرون ط . الثانية القاهرة
الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ط . الثالثة القاهرة ١٣٤٢ ٣/٤
الارياني . مطهر علي . في تاريخ اليمن القاهرة ١٩٧٣
الحموي ، ياقوت . معجم البلدان . ط. دار صادر بيروت
امين ، احمد . فجر الاسلام ط العاشرة القاهرة ١٩٦٥
الهمداني . كتاب الاكليل ج١، ج٢ تحقيق الاكوع الحوالي القاهرة ١٩٦٣
كتاب الاكليل ج ١٠ تحقيق محب الدين الخطيب القاهرة ١٣٦٨
بافقيه ، محمد عبدالقادر . تاريخ اليمن القديم بيروت ١٩٧٣
د.جاووك ، مصطفى عبداللطيف . الحياة والموت في الشعر الجاهلي بغداد ١٩٧٣
د.خليل ، خليل احمد . مضمون الاسطورة في الفكر العربي . بيروت ١٩٧٣
سفر، فؤاد ومحمد علي مصطفى . الحضر مدينة الشمس . بغداد ١٩٧٤
نلسن ، ديتلف ، التاريخ العربي القديم . ترجمة د.فؤاد حسنين القاهرة ١٩٥٨
اليعقوبي . تاريخ اليعقوبي النجف ١٩٦٤ .

المراجع الاجنبية

1. Albright, F.P. Albert Jamme : Science on march, A Bronze Statue From mareb, Yemen (The Scientific monthly) January 1953

2. Altheim, F. — Stiehl, R. : Die Araber in DER ALTEN Welt. Berlin, I. iv 1966

3. Beeston, A.F.L : Epigraphic South Arabian Calendars and Dating. London. 1956

4. CASKE., W. : Die alte arabische Konigreich Lihjan. Koln. 1951

5. .... : Lihyan und Lihyanisch. Koln. 1953

6. Fell, W : Sudarabische Studien (ZDMG. Bd 54) Leipzig. 1900

7. Grohmann, A. : Arabien. munchen. 1963

8. Hommel, F. : Eine Katabanische Inschrift (ZDMG. Bd53) Leipzig 1899

9. Jamme, A : Sabaean Inscrptions From mahram Bilqis, Baltimore. 1962.

10. Mordtmann, J.H.: Zur Sudarabischen Alterthums — Kunde (ZDMG. Bd46) Leipzig 1892

11. .... : Neue himjarische Inschriften (ZDMG. Bd39) Leipzig 1882.

12. Muller, D.H. : Sabaische Inschriften entdeckt und gesammelt von Siegfried Langer (ZDMG. Bd37) Leipzig 1883

13. Muller, Walter. W : Sabaische Felsinschriften von der jemenitische Grenze zur Rubalhali (Neue Ephemeris Fur semitische Epigraphik. Bd3) Wiesbaden.1978

14. .... : Eine Sabaische Inschriften aus dem Jahre 566 der himjarischen Are (Neue Ephemeris Fur Semitische Epigraphik. Bd2) Wiesbaden 1974

15. Nielsen, D. : Der Semitische Venuskult (ZDMG. Bd 66) Leipzig 1912

16. .... : Die Athiopischen Gotter (ZDMG. Bd66) Leipzig 1912

17. Phliby, H.stj : The Background of Islam. Alexandria 1948

18. Winekler, Hugo : Sams — Gottin (ZDMG. Bd54) Leipzig 1960

19. Wellhausen, J. : Reste arabischen Heidentums. Berlin 1966.

الهوامش

١) لقد حقق الكتاب احمد زكي وطبع في القاهرة سنة ١٩٦٥ كما قام فلهاوزن بتأليف كتاب باللغة الالمانية الموسوم (بقايا الوثنية في الجزيرة العربية) معتمدا «على ابن الكلبي ورواياته التي ذكرها ياقوت الحموي قبل العثور على المخطوطة .

مثلا «لم يعرف سوى اسمه الذي جاء في نسب بلقيس :

* بلقيس بنت يلمقه «وربما يعود سبب ذلك الى أن معظم اسماء الالهة التي نصادفها في المراجع الاسلامية عربية شمالية لا تعرف عن الدين الجنوبي شيئا» .

٢) اما سعد ود نجده عند تغلب راجع :

J. Wellhausen, Reste Arabisehen Heidentums. P.17

٣) راجع :

D.H. Muller, Kritisehe Beitrage zur sudarabisehen Epigraphik (ZDMG. Bd.37) pp.16 — 18

٤) ابن الكلبي : الاصنام ص١٩

Walter muller, Sabaische Felsinsehriften (Neue Ephemeris Fur Semitisehe Epigraphik. Bd.3) p.134

J. Wellhausen, OP. Cit. p.27

٦) ابن هشام السيرة ٨٥/١

٧) ابن الكلبي : المصدر السابق ص٥١

٨) J.Wellhausen, Op. Cit. p.13

٩) ابن هشام : السيرة ٧٨/١

١٠) احمد امين فجر الاسلام ص٣٠ ـ ٣٨

١١) ابن حبيب : المحبر ص٣١٧

١٢) ابن الكلبي : المصدر السابق ص٣٥

١٣) ابن حبيب : المصدر السابق ص٣١٧

١٤) ابن الكلبي المصدر السابق ص٣٥

١٥) م ن : ص٤٧

١٦) D.Nielsen, Die athiopisehen Gotter (ZDMG. Bd.66) p.591

J. Wellhausen op. cit. b 45

J. Wellhausen op. cit. b 46

J. Wellhausen op. cit. b 47

١٧) ابن منظور : لسان العرب ٢٤١/١٥

١٨) المصدر نفسه

١٩) ابن الكلبي : المصدر نفسه ص٥٣

٢٠) ابن منظور : المصدر السابق ٣٣٣/١٧

٢١) م ن

٢٢) ابن الكلبي : المصدر السابق ٤٢

٢٣) م ن

٢٤) A. Grohmann, Arabien, p.243

٢٥) Ibid

٢٦) D. Nielsen. Die athiopisehen Gotter. p.591
ıpid H. Winckler, Sams — Gottin (ZDMG. Bd.54) pp.417 — 418

٢٧) Ibid
٢٨) كما يشير نلسن ان الاب هو الاله .
القمر والالهة الام الشمس (ذات بعدن) الابن عثتر ولكن في القرن الرابع الميلادي اصبح الاله الاب يسمى محرم والالهة الام الارض والاله الابن عثتر . انظر الجدول في : D.Nielsen, Op.Cit. P.599.

٢٩) D.Nielsen, Op. Cit.p.595
٣٠) ديتلف نلسن : التأريخ العربي القديم ص٢٠٢
٣١) D.Nielsen. Op. Cit. p.593

٣٢) Ibid

٣٣) كما أن ملك مملكة اقوم دعا نفسه ابن الاله والاله هنا هو القمر . راجع : Ibid. P.590
٣٤) H. Winekler. OP. Cit. p.417
٣٥) H. Stj. B. Philby : The Background of Islam. p.25

٣٦) A. Grohmann : Op. Cit. p.244
٣٧) Ibid
٣٨) Ibid
٣٩) Ibid
٤٠) Ibid
٤١) محمد عبدالقار بافقيه وتاريخ اليمن القديم ص ٢١٤
٤٢) A. Grohmann : OP. Cit. p244
٤٣) ابن منظور . لسان العرب ٣/٤٦٨
٤٤) A. Grohmann : Op. Cit. p.244
٤٥) W. Caskel, Lihyan und Lihyaniseh P.47
٤٦) A. Grohmann. Op. Cit. P244
٤٧) ابن حبيب : المحبر ص٣١٦ في لسان العرب ان (ود) ابن منظور : لسان العرب ٣ ـ ٤/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩
٤٨) J. Wellhausen : Op. Cit. p.17
٤٩) Ibid
٥٠) Ibid. p.18
٥١) D. Nielsen Die Athiopisehen. Gotter. P.592

٥٢) F. Hommel, Eine Katabanische Insehriften (ZDMG. Bd. 53) p.101

٥٣) Ibid
٥٤) D. Nielsen : Op. Cit. P.594
٥٥) Ibid. p.592
٥٦) A. Grohmann. Op. Cit. p.244
٥٧) D. Nielsen. Op Cit. P592

٥٧) A. F. L. Beeston : Epigraphic South Arabian Glendars and Dating p.3

٥٨) A. Grohmann : Op. Cit. p.244
٥٩) J. Wellhausen : Op. Cit. p.60

٦٠) ابن منظور . لسان العرب ١٢/٤٦٨
٦١) J. Wellhausen : Op. Cit. p. 60 نلسن : التاريخ العربي القديم ص١٩٢
٦٢) W. Fell : Sudarabisehe Studien (ZDMG. Bd 54) p.238
٦٣) A. Grohmann : Op. Cit. p.87
٦٤) ....
٦٥) ابن حبيب ، المصدر السابق ص٣١٢
٦٦) د.خليل احمد ـ مضمون الاسطورة في الفكر العربي ص٧٦
٦٧) ديتلف نلسن : المصدر السابق ص ١٨٨
٦٨) Reallexikon DER Assyriologie. p.125

٦٩) Ibid

٧٠) A. Jamme : Sabaean Inscriptions. p.341. p.390

٧١) Ibid. p.349 p.393

٧٢) الهمداني الاكليل ١/ ١٢٥

٧٣) ابن دريد . الاشتقاق ص٧٣ ـ ٨٣

٧٤) م.ن ص٧٣ ـ ٨٣ ص٩٨، ص٣٤٩، ص٤١٦

٧٥) م.ن ص ٥١٠

٧٦) J. Wellhausen : Op. Cit. P.60

٧٦م) A. Grohmann : Op. Cit. p.78

٧٧) W. Caskel : Op. Cit. P.47 p.144

٧٨) ابن سعد الطبقات الكبرى ٥٠/ ٢٨٤

٧٩) ديتلف نلسن . المصدر السابق ص٢١٧ احمد خليل . المصدر السابق ص٤٤

٨٠) ديتلف نلسن . المصدر السابق ص٢١٧ احمد خليل . المصدر السابق ص٤٤

٨١) A. Grohmann : Op. Cit. P.245

٨٢) W. Fell : Op. Cit. p.256

٨٣) D.H. Muller : Sabaische Insehreften entdeckt und gesammelt von Siegfried Langer (ZDMG. Bd. 37) p.352

٨٤) A. Grohmann : Op. Cit. p.245

٨٥)دتيلف نلسن : المصدر السابق ص٢١٩

٨٦) A. Grohmann : Op. Cit. p.245

٨٧) Ibid

٨٨) F. Altheim — R — Stiehl & Die Araber in der

٨٩) atten Welt Bd. III p.127

٩٠) D. Nielsen : Die athiopischen Gotter p.589

٩١) ابن حبيب : المصدر السابق ص٣١٦

٩٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ١/ ٢١٥

٩٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨ حبيب : المصدر السابق ص٣١٥

٩٤) ابن الكلبي : المصدر السابق ص٢٣

٩٥) ديتلف نلسن : المصدر السابق ص ٢٣٠

٩٦) A. Grohmann : Op. Cit. p.87

٩٧) د.خليل احمد : المصدر السابق ص٤٤

٩٨) م.ن

٩٩) م.ن وفؤاد سفر : الحضر مدينة الشمس ص٢٤٥

١٠٠) محمد عبدالقادر بافقيه : المصدر السابق ص٢١٤

١٠١) D. Nielsen : Der Semitische Venuskult (ZDMG. Bd. 66) p.469

١٠٢) Ibid

١٠٣) D. Nielsen : Die athiopischen Gotter. P.591

١٠٤) Ibid

١٠٥) D. Nielsen : Der Semitische Venuskult p.470

١٠٦) Ibid

١٠٧) D. Nielsen : Die athiopischen Gotter P.591

١٠٨) D. Nielsen : Der Semitische Venuskult p.472

١٠٩) Ibid

١١٠) صنم كان في الجاهلية وبه سموا عبد الشارق .

١١١) J. H.Mordtmann : Neue himjarisch Insehreiften (ZDMG. Bd39) p.235 راجع : J.wellhausen : Op. Cit P.65

١١٢) كما وجد في احد احجار القبور ، وقد توسل صاحبه وهو : عجلم بن سعد لات الى الاله عثتر الشارق بانزال العقاب على من يغيره عن مكانه ويصيبه بأذى . وقد عثر على احجار القبور في ديدان (العلا) عليها تعبر عن اللعنة ضد من يمس الكتابة ويشوهها .
راجع : ف كاسكل : كيان المملكة العربية القديمة ، ترجمة د.منذر البكر : (مجلة كلية التربية/ جامعة البصرة) العدد الخامس/ السنة الرابعة ١٩٧١ ص١٨٩ كذلك : A.Grohmann : Op. Cit. p.244

١١٣) Ibid

١١٤) يحيى خليل ناجي ، نقوش خربة براقش (مجلة كلية التربية / جامعة القاهرة) المجلد الثامن عشر ـ الجزء الثاني / ١٩٥٦ القاهرة ١٩٥٩ النقوش رقم ١١٠، ١١٢، ١١٩ ص٢٥، ٢٧، ٣٠.
١١٥) W.Fell : Op. Cit. p.256
١١٦) Ibid p257
١١٧) A. Grohmann : Op. Cit. p.254
١١٨) يحيى خليل ناجي : المصدر السابق ، النقش المرقم (٨١) ص٥.
١١٩) الهمداني / الاكليل ١٠/١٩
١٢٠) D.H. Muller : Sabaische Insehriften entdeckt und gesammelt von Siegfried Langer p.407
١٢١) A.Grohmann : Op. Cit. p.245
١٢٢) Ibid
١٢٣) Walter W.Muller : Sabaische Felsinsehriften von der jenenitischen Grenze zur Rubal — Hali (Neue Ephemeris Fur Semitische Epigraphik. Bd.3) p.117
١٢٤) Ibid
١٢٥) Ibid p.127
١٢٦) ابن منظور . المصدر السابق ٢/١٩٨٣/١٩٨٤
١٢٧) Walter W.Muller : Op.Cit. p.136
١٢٨) A.Grohmann : Op. Cit. P.246
١٢٩) Ibid
١٣٠) F.Hommel : Ein Katabanische Inschrift. P.100
١٣١) A.F.L.Beeston : OP. Cit. p.18
١٣٢) F.Hommel : Op. Cit. p.188
١٣٣) ابن الكلبي : المصدر السابق ص١١
جاء في كتاب الاكليل جـ ١٠ ص٩٣
ألا هل أتي حىّ الكلاع ويحصبا
واهل العلا من حاشد وبكيل .
١٣٤) ابن الكلبي المصدر السابق ص٨٥ حبيب للمصدر السابق ص٢١٦
١٣٥) J.Wellhausen : Op. Cit. p.23
١٣٦) A. Grohmann : Op. Cit. P.242
١٣٧) Ibid
١٣٨) راجع نقش (١٤ك)
١٣٩) مطهر علي الارياني : في تاريخ اليمن ص٩٥
(١٣٨م) A.Grohmann : Op. Cit. p.242
(١٣٩م) ابن الكلبي : المصدر السابق ص٣٠
١٤٠) F.Hommel : Op. Cit. p.101
١٤١) A.Grohmann : Op. Cit. p.246
١٤٢) Ibid
١٤٣) J.Wellhausen : Op. Cit. p.28
١٤٤) W.Fell : Op. Cit. p.238
١٤٥) Ibid
١٤٦) Ibid. p.239
١٤٧) Ibid. p.242
١٤٨) Ibid. p.243
١٤٩) Ibid. p.244
١٥٠) Ibid. pp.244 — 245
١٥١) Ibid. pp.245 — 246
١٥٢) Ibid. p.246
١٥٣) ديتلف نلسن ، المصدر السابق ص١٥٠ ـ ١٥١
١٥٤) A.Grohmann : Op. Cit. p.247
١٥٥) A.Grohmann : Op. Cit. p.247
١٥٦) وقد فصل جروهمان في طبيعة المعابد واشكالها راجع :
A.Grohmann : Op. Cit. pp.157 — 158
١٥٧) ديتلف نلسن ، المصدر السابق ص١٥٥
١٥٨) F.P.Albright : Science on the march (The Scientific monthly) January 1953. p.33
مملكة اقسوم يوجد معبد بيضوي على نفس النمط والطراز في مدينة بحا ، ويسمى محرم بلقيس الافريقي راجع :: D.Nielsen Die Athiopischen Gotter. p589
اكثر راجع : A.Grohmann : Op. Cit. p.172

١٥٩) للتفصيل راجع : A.Grohmann : Op. Cit. p.172
١٦٠) Ibid p.247
١٦١) Ibid p.247
١٦٢) ابن الكلبي / المصدر السابق ص ٣٤
١٦٣) A.Grohmann : Op. Cit p.247
١٦٤) ابن الكلبي / المصدر السابق ص١٨
١٦٥) ابن هشام / السيرة ١ / ٨٤
١٦٦) الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ٢ / ٢٠٤
١٦٧) A.Grohmann : Op. Cit. p.251
١٦٨) W.Caskel : Das Altarabische Konigreich Lihjan. p.12
١٦٩) A. Grohmann : Op. Cit. p.232
١٧٠) ابن الكلبي المصدر السابق ص٣٢
١٧١) ابن حبيب : المصدر السابق ص٣١٩ ـ ٣٢٠
١٧٢) م.ن ص٣٢٩
١٧٣) م.ن ص ٣٢٩
١٧٤) نقلا «عن الدكتور مصطفى جاووك / الحياة والموت في الشعر الجاهلي» ص٤٤
١٧٥) م.ن. ص٤٤ ـ ٤٥
١٧٦) ابن حبيب : المصدر السابق ص٣١١ ـ ٣١٥
١٧٧) راجع التفصيل في : م.ن وانظر الى ما ذكره اليعقوبي : المصدر السابق ١ / ٢٢٥ ـ ٢٢٦
١٧٨) حيث ذكر هذا الشهر من سنة (٦٤٠) راجع التفصيل في ذلك :
J.H.Mordtmann : Neue himjarische Inschriften. p231 p369
١٧٨*) A.F.E. Beeston, Op. Cit. p.85
١٧٩)، ١٨٠) A. Grohmann : Op. Cit. p.249
١٨١) J. Wellhausen : Op. Cit p.131
١٨٢) Ibid p.136
١٨٣) نقلا : عن الدكتور مصطفى جاووك : المصادر السابقة ص١٢٣
١٨٤) راجع التفصيل عند : الدكتور مصطفى جاووك : المصدر السابق ص ١٢٤
١٨٥) م.ن ص١٢٥
١٨٦) ابن منظور : لسان العرب ١١ / ٥٣٠
١٨٧) J.H.Mordtmann : Zur Sudarabischen Alterthumskunde (ZDMG.Bd. 46) p.322. J. Wellhausen : Op. Cit. pp.94 — 100
١٨٨) A.F.Beeston : Op. Cit. p.10
١٨٩) مطهر الارياني : المصدر السابق ص١٣٦
١٩٠) النقش (٢٩ك) A.F.Beeston : Op. Cit. p.20
١٩١) Walter.W.Muller : Eine Sabaische Inschriften aus dem Jahre 566 der himjarischen Are (Neue Ephemeris fur Semitische Epigraphik. Bd.2) p.143
١٩٢) A.F. Beeston : Op. Cit. p.24
١٩٣) Walter. W.Muller : Op. Cit. p.144
١٩٤) J.H.Mordtmann : Zur Sudarabischen Alterthumskunde p.322
١٩٥) د.خليل يحيى نامي : نقوش عربية جنوبية (مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة . المجلد السادس عشر ـ الجزء الثاني / ١٩٥٤ . القاهرة ـ ١٩٥٥ ص٢٨
١٩٥) مطهر الارياني : المصدر السابق ص١١٦
١٩٦) W.Caskel : Lihjan und Lihyanisch P.117
١٩٧) راجع تفصيل ذلك ، محمد عبدالقادر بافقيه ، المصدر السابق ص ٢١٤
١٩٨) محمد عبدالقادر بافقيه / المصدر السابق ص٢١٥
١٩٩) A.Grohmann : Op. Cit. p.252
٢٠٠) محمد عبدالقادر بافقيه : المصدر السابق ٢١٦٩

البحوث الوثائقية

التاريخ يصنع من وثائق . والوثائق هي الآثار

التي خلفتها افكار السلف وافعالهم ..

الحجازيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الاسكندرية في العصر العثماني ..

دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقاري ..

٩٢٣ ـ ١٢١٣هـ ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م

د.صلاح احمد هريدي علي
جامعتي الاسكندرية والملك سعود

الحياة

لقد ساهم الحجازيون في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الاسكندرية في العصر العثماني (٩٢٣ ـ ١٢١٣هـ/ ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م)، وقد اعتمدت في هذا البحث على وثائق المحكمة الشرعية بالشهر العقاري بالاسكندرية ، والتزمت بتسميتهم على حسب مسميات هذه الفترة .

وتمثلت حياتهم الاقتصادية في اشتغالهم بالتجارة ، واحترافهم بعض الحرف . أما حياتهم الاجتماعية فقد شملت الزواج والطلاق ، والعلاقات الاجتماعية ، مشتملة على علاقاتهم مع بعضهم وعلاقاتهم مع غيرهم ، سواء كانوا من العرب أم من الاجانب .

وقبل التحدث عن حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، لابد من التحدث عن استقرارهم بمصر بصفة عامة ، والاسكندرية بصفة خاصة . فمن المعروف أن اتصال العرب بمصر يرجع الى عهود سحيقة ، فان صلات السلالة والدم بين وادي النيل الادنى وشمال الجزيرة العربية ، هي صلات بعيدة الأصل ، ترجع الى عصور ما قبل التاريخ ، اذ يرى علماء الجيولوجيا أن الجزيرة عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى افريقيا التي يفصلها عنها الآن منبطح وادي النيل ومنخفض البحر الاحمر العميق ، كما ذهبوا الى أن الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب كان في العصور الجيولوجية القديمة يتصل بافريقيا وكان البحر الاحمر عبارة عن بحيرة . واذا كان البحر والصحراء قد شكلا فيما قبل التاريخ موانع لا يمكن التغلب عليها بالنسبة الى قوة حربية كبيرة ، وجعلا من مصر بلدا لا يسهل غزوه ، فقد كان الأمر ميسورا جدا في حالة تسلل أفراد أو جماعات متجولة أو قوافل تجارية صغيرة سواء من الشمال عند شبه جزيرة سيناء حيث تلتقى الصحراء الشرقية ببلاد العرب لقاء دائما ، أو من الجنوب حيث يشتد اقتراب جزيرة العرب من افريقيا ، عند باب المندب فلا يفصل بينهما سوى خمسة عشر ميلا[١]. وكانت

هناك علاقات تجارية بين مصر وجزيرة العرب منذ أقدم العصور ، وظهر ذلك واضحا في العلاقات التجارية بين الملكة حتشبسوت وبين جزيرة العرب ، ويظن أن الذهب كان يستورد في عهدها من هناك [٢] واحتكر العرب التجارة في مصر لوقت طويل ، حتى جاء الاسكندر الأكبر الذي فكر في انشاء أسطول ضخم يحمل البضائع مباشرة دون الاعتماد على التجار العرب ، وذلك لكي يقضي على سيادة العرب على التجارة البرية والبحرية ، ويحد من الارتفاع الهائل الذي وصلت اليه أسعار البضائع الثمينة والتي كانت تأتي من الشرق الى أسواق مصر أو بلاد الشام محمولة على سفن عربية أو على ظهور جمال القوافل ، ومن هناك تنتقل الى اوروبا[٣] . وفي عهد البطالمة كان ميناء Leuke Kome[٤] من أهم الموانىء التجارية على سواحل الحجاز ، ومنه تتجه السفن الى الساحل المصري لتفرغ شحنتها هناك فتنقل اما بواسطة القوافل واما بالسفن من القناة المحفورة بين البحر الاحمر ونهر النيل لتتابع طريقها الى موانىء البحر المتوسط ، وجاءت اساطيل البطالمة التجارية ، التي لا يستبعد أنهم استخدموا فيها خبراء من العرب عركوا البحر وعرفوه قبلهم بعصور الى البحر الذي يفصل ما بين مصر والجزيرة العربية ، والذي كان يعرف باسم الخليج العربي ، فأدى ذلك الى اندحار زعامة الجنوب العربي التجارية[٥] . واستمرت العلاقات بين العرب والمصريين قائمة بعد انتهاء عهد البطالمة وانتقال مصر الى قبضة الرومان . الذين جعلوها تابعة لحكم قياصرة روما ، وطهر اغسطس القناة التي تربط بين النيل والبحر الاحمر . وعني بالتجارة البحرية ومياه البحر الاحمر التي غصت بقرصان البحر . وأوعز الى حاكم مصر ايليوس جالوس ، بغزو جزيرة العرب للاستيلاء عليها وعلى ثروتها التي اشتهرت بها من الاتجار بالمر واللبان والبخور والافاوية[٦] .

وعاش المصريون في الحجاز ، بل في مدينتيه الكبيرتين مكة ويثرب نفسها ، وقد حدث قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بحوالي خمس سنوات سيل عظيم صدع جدران الكعبة ، فاعادت قريش بناءها مستعينة في ذلك بنجار قبطي كان يسكن مكة ويدعى باقوم ، كما أن جبر بن عبدالله القبطي كان أحد الصحابة الذين أخذوا عن النبي دينهم . ولذلك يفخر قبط مصر به . وقد كان رسول المقوقس الى الرسول صلى الله عليه وسلم بمارية والهدية . وفي سنة ٦١٠م كان يعيش في الاسكندرية كثير من العرب الى جانب غيرهم من الاغريق والقبط والسوريين واليهود ، الأمر الذي كان يجعل العاصمة المصرية من اشق البلدان حكما[٧] .

وكان عمرو بن العاص الذي قدر له أن يقود الجيش العربي الذي فتح مصر سنة ٢٠هـ تاجرا في الجاهلية ، وتاجر في الأدم (الجلد) والعطر ، وشهد أعياد أهل الاسكندرية وألعابهم[٨] .

ولما فرغ عمرو من فتح مصر واستقامت له البلاد ، وضع التنظيم الاساسي للرباط ، فخصص ربع قواته للمرابطة في الاسكندرية وحدها ، وربما آخر للمرابطة في سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقي فاستبقاه معه في الفسطاط العاصمة[٩] . ويذكر المؤرخون أن قوما من العرب نزلوا في الاسكندرية عقب الفتح على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط ، وانما كانت «اخائذ» أي من أخذ منزلا نزل فيه ، ويقال أن الزبير بن العوام اختط الاسكندرية[١٠] وقد بلغت حامية الاسكندرية في عهد معاوية سبعة وعشرين الف جندي ، منهم عشرة آلاف من أهل الشام وخمسة آلاف من أهل المدينة ترابط فيها دائما لحمايتها[١١] . وظهر من العرب بعض رجال الفكر مثل طليب بن كامل (ت١٧٣هـ) وهو من أئمة المجتهدين وقد سكن بالاسكندرية ، وطلق بن السمع النفاط (ت ٣١١هـ) وكان محدثا ومن رجال الاسطول المصري أيضا ابنه ابراهيم[١٢] وقد سكن الاسكندرية عويمر بن عبدالله أبي الدرداء الصحابي الجليل وهو خزرجي أنصاري ، أي أنه ينتمي الى احدى القبيلتين اللتين كانت لهما الزعامة والسيطرة في المدينة ، وهما قبيلتا الأوس والخزرج كما أنه كان من الأنصار من أهل المدينة الذين رحبوا بالرسول عليه الصلاة والسلام عند هجرته الى المدينة ، ونصروه على اعدائه ، وشاركوا في فتح الاسكندرية[١٣] وأقام بعض الصحابة بالاسكندرية مثل عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وأبوذر الغفاري ومعاوية بن حديج[١٤] وعبد الرحمن بن هرمز (١١٧هـ/ ٧٣٥م) وهو قرشي مدني وارتبط باسرة بني هاشم ـ أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ برابطة الولاء فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب ، وفي رأي آخر أنه مولى محمد بن ربيعة[١٥] ، واستقرت أيضا قبيلة جذام التي اشتركت في الفتن التي ظلت تضطرم في الاسكندرية ، منذ عام ١٩٦هـ حتى ثورة أسفل الارض الكبرى عام ٢١٦هـ[١٦] وحين اضطربت أمور الخلافة العباسية في اثناء النزاع بين الخليفة العباسي الامين وأخيه المأمون ظهر أثر ذلك النزاع في مصر ، وأدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولدوا في مصر اذ ذاك

كانوا خارجين على الخلافة ومن بين هؤلاء الخارجين عبدالعزيز الجروي الذي استولى على شرقي الدلتا ، من شطنوف الى الفرما ، والسري بن الحكم الذي استولي على الوجه القبلي من مصر الى اسوان ، أما غربى الدلتا بما في ذلك الاسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة جميعها ، فقد ملكتها قبيلتا لخم وجذام ، وهما من العرب اليمنية أو عرب الجنوب . وكذلك ثورة بني مدلج في الاسكندرية ضد والي الخليفة العباسي عام ١٩٨هـ وبنو مدلج هم بطن من كنانة عرب الشمال(١٧) .

وارتبطت بلاد الحجاز بسلطنة المماليك وكان يخطب لسلطان المماليك من منابر مكة بألقاب «سلطان البحرين وحامي الحرمين» وحصل سلاطين المماليك على أموال من رسوم تجارة الهند في ميناءي جدة وينبع(١٨) الا أن السيادة المملوكية بدأت تضعف في أواخر سلطنة المماليك وخضعت مصر للعثمانيين ، وبخضوعها خضعت الحجاز تلقائيا ، لانها كانت تتبع مصر تبعة تلقائية كذلك . ونجمل فيما يلي العوامل التي أدت الى سيادة مصر على الحجاز(١٩) .

أولا : كان الحجاز ـ من الناحية الاستراتيجية ـ منطقة حيوية بالنسبة لمصر من الناحيتين الدفاعية والهجومية .

ثانيا : كانت مصر مركزا لقوافل الحج التي تكفلت الحكومة المصرية بحراستها .

ثالثا : ارسال كسوة الكعبة بالاضافة الى وجود الاوقاف المحبوسة على فقراء مكة والمدينة وعلى الحرمين الشريفين .

وأثناء وجود سليم الأول في مصر استقبل أبا نمى بن الشريف بركات الثاني بن محمد ـ شريف مكة الذي جاء ليعلن خضوع وطاعة والده مثلما كان يخضع سابقا للسلطان المملوكي . فأقره سليم في شرافته وحرضه على قتل حاكم جدة المملوكي . وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل ، مع انشاء (صنجقية) عثمانية في جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش . وعين عليها حاكما عثمانيا يدعى حسين الرومي وكان مرتبطا بوالي مصر خاير بك(٢٠) . تلك لمحة سريعة عن تطور استقرار الحجازيين بمصر بصفة عامة ، والاسكندرية بصفة خاصة .

الحجازيون وحياتهم الاقتصادية :

وتعطينا وثائق المحكمة الشرعية سجلا واضحا لتعامل الحجازيين في التجارة وأنواع السلع وطرق التعامل في هذا الميدان .

فلقد تعامل الحجازيون في مدينة الاسكندرية في الجبن والعسل ، مع بعض المغاربة ، وكان يحدد قيمة الصفقة ونوع العملة(٢١) والارز(٢٢) والدقيق(٢٣) والتين مع عرب الهوارة ، ويحدد وزن الكمية(٢٤) والقمح (٢٥) والجمال(٢٦) والبقر(٢٧)، والمنسوجات، وشمل ذلك قماش القلاع والفوط(٢٨) والنيلة(٢٩) .

أما طرق التعامل في ميدان التجارة فكانت متعددة ولا شك في أن بعض التجار كان يعمل لحسابه الخاص ، وسواء على مستوى صغير أو في حجم تجارة كبير وهنا نجد أن أرشيفات المحكمة تسجل لنا ميادين تعاقده وخلافاته مع الغير الذين يتعامل معهم . وكان هناك من يقوم بتكوين شركات للتجارة . وهناك وثائق عن تكوين شركة لتجارة النيلة مع بعض السودانيين(٣٠) .

ويشهد قطاع التجارة للحجازيين في مدينة الاسكندرية الكثير من المنازعات في هذا الميدان ، تعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة وطريقة التقاضي والاحكام التي تصدر ، أو الطرق التي كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية ، وأرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية مليء بهذه الصور المعبرة عن انماط وأساليب هذا العصر العثماني .

وكانت هناك خلافات تنشأ في قطاع الشراء بالأجل حول المبلغ المتبقي كما هي حالة احد الخبازين ، الذي انكر تماما ، ولم يستطع البائع اثبات حقه ، لانه لم يقدم الدليل(٣١) وعلى هذا نرى ان البائع لم يقدم الدليل على اثبات حقه ، والسؤال هنا هل أن هذه الصفقة قد تمت أم لا ؟ هذه اسئلة تحتاج الى الاجابة عليها . وقد يطالب البائع بمبلغ اكثر من المطلوب ، ويحدث نزاع بين الاثنين ، كما هي في تجارة الجمال ، فقد باع أحد الحجازيين جملا الى أحد من يتولى وظيفة الخولي* ، واتفق على تحديد ميعاد للتسديد ، ولكن عند المطالبة انكر ذلك ، ويحدث النزاع ويتوسط البعض ، وسوي مثل هذا الموقف بأن دفع المشتري مبلغا يقل عن المطلوب(٣٢) ومن هنا نرى أنه ربما تكون الوساطة هي التي حكمت بذلك ، أو أن يكون الطرفان قد اتفقا على ذلك . وقد يتفق على البيع بأقساط ، ولكن بعد دفع عدة أقساط ، يمتنع

عن دفع الباقي ، وعندما يطالب ، ينكر ، ويذكر أنه قد دفع ثمن الصفقة بالكامل ، ويقسم بيمين الله تعالى ، كما حدث ذلك في تجارة الاقمشة الخاصة بقلاع المراكب[٣٣] كما حدث نزاع من نوع آخر ، فقد تعاقد أحدهم مع أحد عربان هوارة على توريد كمية من التين ، ولكن عند استلامها وجد بها عيبا ، وطالب المشتري برد المبلغ الذي دفعه ، ولكن سوي هذا الموقف ، ببيع الكمية على حالتها ، مع تحمل البائع فرق السعر[٣٤]، وحدث أن توفي البائع دون ان يستلم نقوده، وطالب الورثة المشتري واعترف بالمبلغ وطالب باعطائه فرصة للتسديد، وقد لوحظ ان المبلغ الذي دفع بعد ذلك يقل عن المطلوب؛ كما حدث في تجارة الجبن والعسل [٣٥] قد يكون هذا راجعا الى الاتفاق بينهم ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان الدفع الفوري ونقدا في الحال ، وفي مثل هذه الحالة ، يبرىء كل منهما الآخر[٣٦] كما في تجارة البقر ، عندما باع أحد أفراد جماعة الجراكسة بالمدينة من بلوك ١١* بقرة الى أحد تجار الجمال ودفع ثمنها بالكامل ، وقد برأ كل منهما الآخر[٣٧] .

أما بالنسبة لشراء وبيع العقارات بالاسكندرية فقد شملتهم في هذا المجال ، وتم الشراء عن طريق الوكالة لاحدهم ، وقد يكون هذا الشراء منزلا كاملا ، وفي هذه الحالة يذكر مواصفات المنزل بالتفصيل ، كما نص عقد البيع ، على استلام البائع الثمن نقدا ، وأن المشتري قد استلم المنزل[٣٨] واشترى احدهم بصفته وصيا على اخوته البنات منزلا محدد المواصفات ايضا[٣٩] .

وأحيانا يشتري احدهم حصة في منزل لاحد الاهالي ، ولابد في هذه الحالة أن يثبت البائع ، أن هذه الحصة قد نقلت اليه عن طريق الارث لوفاة أمه ، وعليه أيضا أن يحدد مقدار هذه الحصة ، وحدودها[٤٠] كما اشترى احدهم حصة في منزل آخر[٤١] واشترت احدى النساء من زوجها حصة في منزل[٤٢] وقد قام بعض الاشراف* من سلالة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة والذين يعملون بقلعة الركن* ببرج مصطفى باشا* من بعض المتولين وظيفة أوده باشي بباب مستحفظان* لحساب بيت المال* قطعة أرض خلاء[٤٣] كما لوحظ ايضا قيامهم بالمشاركة في شراء قطعة من الارض ومنزل[٤٤] .

أما بخصوص البيع في هذا المجال ، فقد باع أحد الاشراف في المدينة الى أحد الاسكافيين كل نصيبه في المنزل[٤٥]، كما باع أحدهم نصيبه في الارث الشرعي لاخيه[٤٦]، وباعت احدى النساء حصتها في منزل لزوجها بعد موافقة شريكها في المنزل خشية شراء حصتها بحق الشفعة[٤٧] ووضح من الوثيقة أنه لم يذكر ثمن البيع ربما يكون هذا البيع صوريا . واحيانا يتم البيع بالوكالة عن زوجته كحصة في منزل[٤٨] .

وأخيرا علينا أن نذكر أن سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية ، تشتمل على نوع جديد من النشاط المالي ، والخلافات التي كانت تحدث فيه ، وهو ميدان الاقتراض ، ثم ما قد يترتب عليها من خلافات في تسديد مثل هذه الديون، ولقد شارك الحجازيون في الاسكندرية في نشاط هذا الميدان ، فكانوا يقترضون من بعضهم ، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض ابناء مدينة الاسكندرية والمغاربة[٤٩] وبعض النساء الخاسكيات[٥٠] .

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهي بخلافات وبسداد المقترض ما قام باقتراضه ، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لا تحتفظ الا بالامور الذي حدث فيها خلاف وفي أشكال متعددة .

وكان صاحب المال يطالب احيانا المقترض بضرورة رهن بعض البضائع حتى يتم تسديد القرض[٥١] واقترض البعض ، وسدد جزءا منه ، وقسط الباقي[٥٢] أو سدد القرض على أقساط شهرية[٥٣] أو حدد الدائن ميعاد التسديد على حسب رغبته[٥٤]، واذا نظرنا الى ذلك نجد أنه من الممكن أن يطالب الدائن المدين في أي وقت يرغبه ، ومن المحتمل الا يكون مستعدا للتسديد ، وتحدث نتيجة ذلك بعض المشاكل ، كما هو متبع في مثل هذه الحالة . وقد يكون القرض في ثمن بضاعة مثل علف الجمال ، ويتضح من هذه الوثيقة ان المدين قد دفع ما عليه في الميعاد المحدد[٥٥] أو لاصلاح مركبه ، ولكن تمر سنوات دون أن يدفع ، وعند المطالبة بالتسديد ، أنكر المقترض ، قيمة القرض نفسه ، واستشهد بالبعض الذين شهدوا بسماع الحديث عن قيمة القرض ولم يشاهدوا اتمام القرض[٥٦] .

وكثيرا ما كان أفراد الحرف الواحدة يقترضون من بعضهم البعض ، أو من بعض أفراد الحرف الاخرى ، مثال ذلك اقتراض بعض الصرافين من بعض الطحانين[٥٧] .

أما بالنسبة للامانات والرهونات ، فقد أودع أحد الاشخاص الذين يتولون وظيفة المحتسب[٥٨] لدى احدهم بعض الادوات لحفظها في محله بعض الوقت ، وعند مطالبته بردها ، أخبره بأنها قد فقدت منه

وحدث نزاع بين الطرفين وتدخل البعض ، وانتهى الأمر بدفع ثمنها على قسطين ، وقد ضمن البعض هذا الاتفاق[٥٩] .

أما احترافهم لبعض الحرف ، فلابد من الاشارة السريعة الى تكوين نظام الحرف في تلك الفترة ، الذي كان قائما على التكوين الديني والعرفي للطوائف مع استثناءات قليلة ، كان اعضاء الطائفة ينتمون الى نفس المجتمع المحلي الديني أو العرفي ، واذا مارس أعضاء نفس الديانة نفس الحرفة فانهم يشكلون طائفة من التجار كذلك يشكلون طوائف على حسب بلادهم ، ونوع تجارتهم ، وعبادتهم الدينية[٦٠] وقد وجدت حرف أخرى شارك المسلمون غيرهم من الذميين مثل حرف صناعة الاحذية ، وحرف العطارة[٦١] .

ولقد اشترك الحجازيون في مدينة الاسكندرية في قطاع الحرف والصناعات وعلينا أن نذكر أنها كانت صناعات صغيرة ، وتعتمد على ورش صغيرة ، وكانوا يستلمون الحرير الخام ، ثم يقومون بصناعته حسب المطلوب[٦٢] وشارك بعضهم في حرفة الصياغة ، وأحيانا قام بعضهم بهذه الحرفة لحساب الغير، باستلامه كمية من الفضة من احدى السيدات ليصوغها لها ، ولكن اتضح بعد ذلك انه لم يقم بتنفيذ المطلوب ، بالاضافة الى نقص الميزان ، وانكر ثم عاد واعترف بأن احدى صديقاتها قد استلمتها[٦٣] . ولكن لا يعرف على أي أساس تصرف مثل هذا التصرف . واحترف بعضهم حرف البحارة على المراكب[٦٤] وقد لوحظ أن بعضهم كان يعمل على مراكب الغير ، وفي مثل هذه عقد اتفاق بين صاحب المركب والبحارة ، ويحدد اجورهم ، حيث كانوا تعادلوا في اجورهم مع البحارة الآخرين من الجنسيات الاخرى[٦٥] ولكن في حالات أخرى حدثت بعض المشاكل على تحديد الاجر المتفق عليه[٦٦] وعمل بعضهم بالصيارفة[٦٧] والنجارة[٦٨] والطبالين[٦٩] .

وهكذا نجد أن الحجازيين قد ساهموا في جميع ميادين النشاط الاقتصادي مع غيرهم من سكان مدينة الاسكندرية ، سواء في التجارة أو الأموال أو الحرف والصناعات ، وعلى قدم المساواة مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية .

ثانيا : حياتهم الاجتماعية :

أما بالنسبة لحياتهم الاجتماعية في مدينة الاسكندرية فقد تعددت فشملت الزواج والطلاق والميراث والاوقاف ، والاعتداءات على بعضهم البعض أو مع الآخرين ، والاشراف ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية الاخرى .

وبالنسبة للزواج ، فقد شمل ذلك زواجهم من بنات الاهالي[٧٠] وينص عقد القران على المقدم والمؤخر ، وأيضا الكسوة السنوية ، وأن المؤخر كان يقسط على أقساط شهرية[٧١] كما كان احيانا المقدم أقل من مؤخر الصداق[٧٢] . وهناك ما عرف بالزواج المشروط ، مثال ذلك تشترط احدى الزوجات على زوجها ، بأنه اذا تزوج بغيرها ، تكون طالق منه دون أن يطلق اللفظ نفسه[٧٣] . كما شمل الزواج من احدى بنات المغاربة[٧٤] وايضا من بعض المعتوقيات الحبشيات[٧٥] والزواج من أرامل ، على أن تذكر انها قد أوفت العدة الشرعية[٧٦] ، بالاضافة الى الزواج من ارملة ومعها أولادها ويتعهد في مثل هذه الحالة الانفاق عليها وعلى أولادها[٧٧] .

واتفق عند الطلاق على اقتسام اثاث المنزل وغير ذلك ، وفي مثل هذه الحالة تطلب من مطلقها رد بعض الاشياء الخاصة بها[٧٨] . وقد تم الطلاق في بعض الحالات بناء على طلب الزوجة الحامل[٧٩] . أو بناء على طلب وكيلها مثل زوج أمها ، ففي هذه الحالة ، يطلب الزوج منها التنازل عن مؤخر الصداق[٨٠]. ومن هنا نرى أن المطلق اشترط على مطلقته بأن الطلاق لن يتم ما لم تبرئه من مؤخر الصداق ، ولا نعرف سببا لذلك .

وتضمنت الحياة الاجتماعية نمطا آخر مثل الاعتداء على بعضهم البعض أو الاعتداء عليهم من جانب الاهالي ، وغير ذلك ، واتخذت أنواعا متعددة مثل التلفظ بالفاظ نابية ، فقد اعتدى بعض الادكاوية على بعضهم باللفظ بقوله «طعريك يا حرامي»، وكان من نتيجة ذلك أن طالب بالتعويض ، وعند المواجهة أنكر ، واستشهد بالبعض ، واتضح بعد ذلك بأن الطرف الآخر قد استولى على علف جماله ، مما ادى الى أن الاثنين قد تبادلا الالفاظ النابية ، وترتب على ذلك أن القاضي قد أصدر حكما ضدهما[٨١]، كما اعتدى أحد الاهالي على احدهم بألفاظ نابية ، وعند مواجهته انكر حدوث ذلك ، ولكن

أكد الشهود ذلك[٨٢]، وعلى الجانب الآخر اعتدى احدهم على بعض الزياتيين بلفظ نابي ، وطالب بالتعويض المناسب[٨٣] .

أما الميراث فانه اختلف حسب نوعه ، فقد يكون الميراث عبارة عن أموال ثمن بضاعة ، باعهاد التاجر قبل وفاته ، ففي مثل هذه الحالة طالب الورثة المشتري بالمبلغ ، الذي وعد بالتسديد ، بعد خصم نسبة منه[٨٤] ، وقد تكون التركة تشمل بعض الابنية ، وبضاعة ومراكب وعقارات ، مشاركة بينه ـ المتوفى ـ وبين أخيه ، وأراد أبناؤه الانفراد بالميراث وحدهم ، ولكن يثبت اخيه حقه في المشاركة ، وانتهى الوضع على تقسيم الميراث مناصفة[٨٥] أو أن يكون الميراث عبارة عن احدى المعتوقات[٨٦] أما بالنسبة للوصاية على التركات ، فقد تكون الوصية احدى السيدات ، لاخوتها الاشقاء ، واخوتها من الأب ، فلذلك تقوم بتقسيم التركة ، واتفقوا على استلام نصيبهم من الميراث نقديا ، وكتبوا حجة بذلك[٨٧]، واحيانا تتنازل احدى السيدات عن الوصية عن اولادها القصر ، لوالدها ، على أن يدفع مبلغا معينا يوميا لكل منهم[٨٨] أما بالنسبة للنزاع على الميراث ، فقد حدث نزاع بين أحد الورثة عقب وفاة احداهن ، وانحصر ارثها في أولاد عمها ، ولكن طالب احد ابناء اخيها في الميراث ، وثبت بعد ذلك أن ابن اخيها من والدتها ، وتطور النزاع ، وتدخل وجهاء القوم في المدينة لحل هذا النزاع مثل دزدار* الحصار الكبير الاشرفي* والجوربجي* وأغا الحوالة*، لانهاء هذا النزاع[٨٩] وقد لوحظ أن أحدهم شهد على بعض الوصايا[٩٠] .

ويأتي بعد ذلك الاوقاف ، أخذ احدهم من أوقاف الطريقة البرهانية* بعض الاراضي الحجازية[٩١]، وأوقف بعضهم مكانا بجوار مقام الشيخ ياقوت العرش اشتمل على بيت للسكن ، وبيت آخر وقطعة أرض خالية ، بالمكان المذكور، وحدد حدوده . وقد ذكر بالحجة أن هذه الاشياء آيلة لهما بالميراث الشرعي من قبل والدتهما . وأقر بأنهما وقفا ذلك شرعا بحيث لا يباع ولا يوهب لاحد ولا يرهن ، ولا يستبدل جزء منه أو بعضه . ويظل هذا الوقف الى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، واشترط المستنفعان من الوقفية أن يتم الصرف على مقام سيدي ياقوت العرش ، وعلى فقراء المسلمين من قبل أنفسهما وفي ذريتهما من بعدهما ومن هم في درجات القرابة ، وعين الناظر على الوقف وحدد واجباته التي تشمل الصرف على الوقف والعناية بالمباني وصيانتها وغير ذلك من الشروط الاخرى[٩٢] .

وفي النهاية يأتي منصب نقيب الاشراف كما سبق أن اشرنا ، فقد تولاه الشرايفة بالمدينة ، وكتب وصيته التي يجب اتباعها بخصوص ذلك ، وهو اتباع الحسنى واتقاء الله[٩٣] كما تولى بعض الاشراف الوظائف الاخرى مثل وظيفة ناظر شرعي على مقام سيدي عبدالرازق وزاويته وخدمة السجادة الشريفة ، ونقيب بالزاوية والضريح الشريف ، وعليه عمارة الضريح والقراءات حسب الطريقة والشريعة واتمام الشعائر بها (٩٤) وتولى بعضهم وظيفة جوربجي بالحصار الكبير الاشرفي .

هكذا ساهم الحجازيون في الحياة الاجتماعية بكافة أوجهها ، وفي الختام ادعو الله سبحانه وتعالى ، أن اكون قد وفقت بعض الشيء في القاء بعض الضوء على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وأن أسد ثغرة في تاريخنا الحديث والله وحده ولي التوفيق .

الخلاصــة

عاشت مصر والحجاز طوال عهد سلطنة المماليك تحت سلطة واحدة . الامر الذي سهل انتقال الاهالي من اقليم الى آخر ، وكما كان الطريق البري هو رباط الصلة عبر سيناء الى مصر ، كانت الثغور والموانىء معابر للاتصال بين الاقليمين ، الامر الذي اوجد مجموعات من الحجازيين تقيم في الثغور المصرية ويهمنا منها تلك المجموعة التي عاشت في الاسكندرية والتي هي موضوع هذا البحث .

وجاء فتح السلطان سليم لمصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م لكي يدعم هذه الروابط الموجودة بين الاقليمين ومع غيرهم من الاقاليم العربية والاسلامية الاخرى ، ويوضح نطاق المظلة التي امتدت عبر اقاليم السلطنة العثمانية . ومن خلال الحكم العثماني كذلك توطدت الصلات البحرية بين موانىء اقاليم الدولة وبعضها ، وساعد ذلك على وجود مجموعات من أهالي احد الاقاليم في ميناء اقليم آخر كما هي حالة الحجازيين الذين اقاموا في مدينة الاسكندرية في العصر العثماني . وكان الأمر كذلك بالنسبة لابناء الشوام وشمالي افريقية من المغاربة والذين زاد توطنهم في مدينة الاسكندرية نتيجة لعبورهم مصر في طريق الحج أو مجيئهم اليها للتجارة .

وبالنسبة للحجازيين الذين اقاموا في مدينة الاسكندرية تواجه الباحث بعض الصعوبات الاساسية للتمكن من محاولة اعادة بناء الاطار العام وعلى اسس ثابتة . والصعوبات ترجع أولا الى عدم وجود احصاءات عن اعداد الحجازيين بل ايضا عدم وجود سجلات للاقامة ماداموا جميعا رعايا لدولة واحدة ومن حقهم التنقل بين اقاليمها المختلفة دون احتياجهم الى وثـائق لذلك . وايضا خضـوعهم لنفس القوانين المطبقة في ولايات الدولة سواء اكانت القوانين الاسلامية أو النظم الموضوعة لاصحاب الملل والديانات من غير المسلمين .

ورغم صعوبة البحث وقلة المصادر والبيانات المحددة فان المادة الموجودة في سجـلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية تعتبر مصدرا رئيسيا وأصيلا يخدم هذا الموضوع رغم قصورها عن تغطيـة جميع اوجه الانشطة الاقتصادية والاجتماعية للحجازيين في الاسكندرية . وتخصصها في الجوانب التي خضعت لمنازعات بين الحجازيين وبعضهم او بين الحجازيين وابناء الاسكندرية ، وفي ظل النظام العام العثماني الذي كان يحكم الجميع .

واتجه البحث اتجاهين رئيسين الأول منهما يعرض للنشـاط الاقتصادي للحجـازيين فـأوضحت الدراسة السلع التي كانوا يتاجرون فيها واساليب التعامل المختلفة سـواء كان التعـامل للحسـاب الخاص أو لحساب وكيل أو عن طريق تكوين شركات للتجارة في سلع معينة ، كما انها عرضت للمشاكل الناتجة عن حالات التعامل المختلفة كالبيع بالنقد والأجل أو الرهن والمقايضـة وأوضحت المشاكـل المصاحبة لبعض هذه الحالات كعدم مقدرة المدين على الوفاء بالتزاماته .

ومن جانب آخر سلطت الدراسة الاضواء على جوانب التعامل الاقتصادي بين الافراد ومن اهم الظواهر التي ابرزتها الدراسة ظاهرة الاقتراض التي حصلت لعدة اغراض سـواء كانت اغـراضا اقتصادية لتمويل صفقات تجارية او لاغراض اخـرى . كما انهـا عرضت لظاهـرة حفظ الامـانات وانواعها .

وفي مجال النشاط الاقتصادي اوضحت الدراسة جانبا آخر من جوانب هذا النشاط والذي تمثل في الصناعات والحرف التي عمل بها ابناء الحجازيين .

اما الاتجاه الثاني من الدراسة فيتعرض لحياتهم الاجتماعية ومظاهر هذه الحياة واهمها ظاهرة الزواج سواء كان هذا الزواج من بعضهم البعض او من الاهالي او من الجـواري بعد اعتـاقهن . وتعرضت لاجراءات الزواج المختلفة وتقاليده كالمقدم والمؤخر وشروط الزواج التي تدون بالعقـد . وايضا الطلاق والمشاكل المترتبة على ذلك .

كما عرضت الدراسة لمظاهـر العلاقـات الاجتماعيـة الاخرى والتي اظهـرت الدراسة مشـاكلها والجوانب اللاخلاقية فيها خاصة وان البحث محدود باطار الوثائق التي تسجل مثل هذه العلاقات . وكلها مشاكل تتعرض في الغالب لاعتداءات بالضرب او السب وغير ذلك من المشاكل الاخرى وموقف السلطات الحاكمة من ذلك .

كما عرضت الدراسة لجانب خير من جوانب الحياة الاجتماعية كظاهرة اعتاق العبيد والتبرع لوجه الله تعالى ، والاوقاف وغير ذلك من الجوانب الاجتماعية الاخرى .

الهوامش

(١) عبدالله خورشيد البري ، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، ص٧ .
(٢) المرجع نفسه ، ص١٥ .
(٣) المرجع نفسه ، ص٣٠ .
(٤) يرى بعض الباحثين أن هذا الميناء هو المعروف قديما باسم (الحوراء) وموقعه الآن شمال بلدة أملج بمسافة قصيرة وآثاره لا تزال بارزة ـ انظر عن الحوراء «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية «قسم شمال المملكة» ـ العرب» .
(٥) عبدالله البري ، المرجع السابق ، ص٢٣ .
(٦) المرجع نفسه ، ص٢٥ .
(٧) المرجع نفسه ، ص٣١ .
(٨) جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص٣٤ ، سيدة اسماعيل كاشف ، تعريب مجتمع الاسكندرية ، ص١٨٩، والبري ، المرجع السابق ، ص٣٢ .
(٩) جمال الشيال ، المرجع السابق ، ص٣٧ . وللمزيد من الهجرات العربية الى مصر ، انظر صلاح هريدي ، دور الصعيد في مصر العثمانية ، ص١٥٩ ـ ١٩٠ .
(١٠) جمال الشيال ، المرجع السابق ، ص٣٤ .
(١١) سيدة كاشف ، المرجع السابق ، ص١٩٣ .
(١٢) عبدالله البري ، المرجع السابق ، ص٤٧ .
(١٣) جمال الشيال ، اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي، ص١٦ .
(١٤) المرجع نفسه ، ص٢٤ .
(١٥) المرجع نفسه ، ص٣٤ .
(١٦) عبدالله البري ، المرجع السابق ، ١٥٧ .
(١٧) سيدة كاشف ، المرجع السابق ، ص٢٠١ .
(١٨) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، اواخر العصور الوسطى ، ص١٧ .
(١٩) عمر عبدالعزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ص٩٤ ـ ٩٥ .
(٢٠) عمر عبدالعزيز ، المرجع السابق ، ص٩٥ .
(٢١) سجل رقم ١، مادة ١٥٥٠، ص٣٦٥ بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨ هـ/ مايو عام ١٥٥١م وقد لوحظ ان العملة المستخدمة هي نصف فضة ، وهي نقد تركي ترجع أقدم اشارة اليه في عام ١٥٨٣م، وقد ضرب أولا من الفضة بقيمة أربع أقجات (أخشا) وسرعان ما اختلف مركز الاخشا باعتبارها الوحدة النقدية التركية الصغرى ، حتى اصبحت الفضة تساوي ١ : ٤٠ من القرش بوزن قدره ست عشرة قمحة أي ١,١١ جرام ، ثم انخفض وزنها الى ربع ذلك في اوائل القرن الثامن عشر ، وقد اطلق الاتراك العثمانيون على الفضة اسم بارة الفارسية . (انظر عبدالرحمن فهمي ، النقود المتداولة ايام الجبرتي ، ص٥٧٣ ، وانظر ايضا Egypt in the Age of the French Revolution, p167 stanford shaw, Ottoman.
(٢٢) سجل رقم ٢٦ ، مادة بدون رقم ، ص٥٨ بتاريخ ١٣ شعبان عام ٩٩٧هـ/ يونيو ١٥٨٨م .
(٢٣) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٥٣، ص٩٧ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية ١٠٠٠هـ/١٥٩١م . ويلاحظ أن قيمة هذه الصفقة ثلاثة دنانير ذهب سلطاني جديد ولا يذكر كمية الدقيق .
* الدينار الذهبي الشريفي ، يساوي خمسا وعشرين بارة ولكن عقب انهيار قيمة النقد عام ١٥٨٤م، أصبح كل

خمس وثمانين بارة تساوي دينارا شريفيا ، (انظر ، عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (٩٧١هـ ـ ١٠١٧هـ ١٥٦٤ ـ ١٦٠٩م) رسالة ماجستير غير منشورة .

(٢٤) سجل رقم ٩٣، مادة ٩٤، ص٩٤، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ١١٨٧هـ/ اغسطس ١٧٧٣م وتقدر الكمية بقنطارين .

* القنطار ، وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعا للزمان ، وكذلك المكان الذي كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفي اواخر العصر المملوكي كان يتراوح وزن القنطار ما بين ٤٥ ، ٩٦ كيلوجراما ، وفي سنة ١٦٦٥م وصل وزنه الى ١٢٠ كيلوجراما (انظر سميرة فهمي امارة الحج ، ص١٢٠) .

(٢٥) سجل رقم ٣، مادة ٣٨٥، ص١٢٨، بتاريخ ٢ ذي الحجة عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م .. انظر الملحق رقم ٢) .

(٢٦) سجل رقم ١١، مادة ٦٦٢، ص١٦٧، بتاريخ ٢١ ذي الحجة عام ٩٥٧هـ/ اكتوبر ١٥٥٠م .

(٢٧) نفسه .

(٢٨) سجل رقم ١، مادة ٧٧١، ص١٦٧، بتاريخ ٢١ ذي الحجة الحرام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م . انظر الملحق رقم (١) .

(٢٩) سجل رقم ١٢، مادة ١٤٤، ص٥٦ بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ٩٨٥ هـ/ ١٥٧٧م . انظر الملحق رقم (٥) .

(٣٠) سجل رقم ١٢، مادة ١٤٤، ص٥٦، بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م .

(٣١) سجل رقم ٣، مادة ٣٨٥، ص١٣٨، بتاريخ ٢ ذي الحجة ختام شهور ٩٦٤هـ/١٥٥٦م .

* الخولي، وهي من ضمن وظائف الجهاز الاداري في ريف مصر العثمانية ، ومهمته ان يكون مسؤولا عن حدود القرية ، وري الاراضي المزروعة فعلا ، ونصيب هذه الاراضي من المياه ويحافظ على صيانة قنوات الري (انظر Stanford Shaw

The Financial and Adminstrative organization and development of ottoman Egypt pp54 — 55

عبدالعزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ١، ١٥٩، عبدالرحيم عبدالرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص٤٥، كما انه يحسم المنازعات التي تنشأ في هذا الموضوع وخاصة الاراضي التي تزرع بالسخرة (انظر ابراهيم زكي، الحالة المالية والتطور الحكومي والاجتماعي في عهد الحملة الفرنساوية وعهد محمد علي ، ص٣٤) .

(٣٢) سجل رقم ٨، مادة ٣٧٦، ص١٣٨، بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/عام ١٥٦٥م . سجل رقم ١٤، مادة ٢٠، ص٦ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ/ ١٥٦٩م .

(٣٣) سجل رقم ١، مادة ٧٧١، ص١٦٧، بتاريخ ٢١ ذي الحجة الحرام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م.

(٣٤) سجل رقم ٣، مادة ١٣٤٠، ص ٣٢٠ بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

(٣٥) سجل رقم ١، مادة ١٥٥٠، ص٣٦٥، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م . كانت قيمة الصفقة تقدر بستة وثلاثين نصف فضة سليمانية ، ولكن اتفق على دفع اربعة وثلاثين نصف فضة .

(٣٦) سجل رقم ١١، مادة ٦٣٣، ص١٦٧، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

* بلوك، البلوك أو البلك من المصدر التركي بولك أي أن يقسم . وكلمة بلوك القسم أو الجزء . وكان الاوجاق ينقسم الى وحدات صغرى باسم البلوكات وكان رئيس كل وحدة يعرف باسم البلوك باشي ، (انظر ، احمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، ص٤٤) وكان كل اوجاق ينقسم الى عدد من الوحدات تعرف باسم البلوكات ، ويحمل كل بلوك رقما منسوبا الى الأوجاق الذي ينتمي اليه مقرونا باسم الاوجاق (انظر، عفاف مسعد العبد، دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر، ص٨٤) .

(٣٧) سجل رقم ١١، مادة ٦٣٣، ص١٦٧، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٣٨) سجل رقم ٣٨ ، مادة ٨٥٨، ص٢٢٣، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م . ويذكر هنا أن الثمن بالرز محبوب ، والرز المحبوب ، نقد تركي ضرب في عهد السلطان مصطفى الثاني (١١٠٦هـ ـ ١١١٥هـ/ ١٦٩٤ ـ ١٧٠٣م) أورد صورته اسماعيل غالب في تقويم مسكوكات عثمانية (ص٤١٥) وهو يزن بين اربع حبات أي ٢,٦ جم ، وقد اطلق عليه في الدولة العثمانية (طغرالي التون) واذا كانت التون تعني في التركية الذهب فان طغرالي نسبة الى نقش الطغراء أو الطرة باسم السلطان على أحد وجهي هذا النقد . (انظر عبدالرحمن فهمي ، المرجع السابق ، ص٥٧٥) .

(٣٩) سجل رقم ٤١، مادة ٧٨، ص٤٥، بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ١٠٦٤هـ/ اكتوبر ١٦٦٣م .

(٤٠) سجل رقم ٥١، مادة ١٨٧، ص٧٨، بتاريخ ٢ ربيع الأول عام ١٠٧٤هـ/ اكتوبر ١٦٦٣م.

(٤١) نفسه ولم يحدد الثمن المدفوع .

(٤٢) سجل رقم ٦٥، مادة ٩٦، ص٩٦، بتاريخ ٢٥ ربيع الثاني ١١٣٠هـ/١٧١٧م .

* الاشراف ، كلمة أشراف تعني أولئك الافراد الذين هم من نسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أكانوا عن طريق انحدارهم من الأم أو الاب ، ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين ، وانما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الاشراف باحترام خاص بين جموع الناس وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وكان يطلق على رئيس هذه الجماعة اسم نقيب الاشراف أو النقيب ، وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الاشراف ، وكانت وظيفته محترمة ، وكان لنقيب الاشراف في استانبول سلطة على نقباء الاشراف في الولايات وهو الذي يعينهم ، وكانت له سلطة قضائية عليهم ، وكان نقيب الاشراف في مصر يرسل من استانبول في بداية العهد العثماني ، واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ، ثم أصبح يتولاها في مصر شيخ السجادة البكرية من آل البكري في مصر . وكان نقيب الاشراف يحضر الاجتماعات الادارية الهامة

التي كانت تعقدها الادارة في مصر في شكل جمعيات لحل الازمات العامة ، وذلك باعتباره شخصية هامة لها وزنها في المجتمع ، ولها تأثير كبير على اتباعها ، وكان النقيب يتولى منصبه لمدى الحياة . (انظر ابراهيم يونس سلطح ، تاريخ مصر العثمانية ، من خلال تحقيق مخطوط تحفة الاحباب لمن تولى مصر من الملوك والنواب، ص١٧٨).

* قلعة الركن ، تذكر عفاف العبد (المرجع السابق ، ص٧٩) بأنه يبدو أن هذه القلعة تقع محل منارة الاسكندرية القديمة ، حيث اقام المسلمون محل هذه المنارة قلعة صغيرة بها برج صغير كان يستخدم لهداية السفن القادمة الى الاسكندرية ويعرف هذا المكان الآن بطابية قايتباي ويقع في الجهة الشرقية من شبه جزيرة رأس التين .

* برج مصطفى باشا ، يقع على شاطىء البحر المتوسط شرق رشيد ويعرف رجاله باسم طائفة حصار مصطفى باشا (انظر عفاف العبد ، المرجع السابق ، ص٨٠)

* أوده باشي ، من التركية اوده أي الغرفة ويطلقها الانكشارية على المعسكر وباشي أي الرئيس والياء علامة الاضافة . وهي تعني رئيس الغرفة . وقد رأينا كيف كان الاوجاق ينقسم الى عدد من البلوكات ، وكان البلوك ينقسم الى عدة وحدات صغرى ، كان يطلق على كل منهما اسم اودة وعرف رئيسها بالاوده باشي (انظر احمد السعيد سليمان المرجع السابق ، ص٦٨) .

* مستحفظان ، وهي كلمة مستحفظ في اللغة الفارسية والمستحفظ من يقوم بالمحافظة على حدود الدولة ، أي من يقوم بالدفاع عن القلاع والحدود من الانكشارية وكانت تخصص لهم العلوفات ().Stanford Shaw, Op. Cit, P189 191

* بيت المال ، هو التزام ما يعود للخزينة من رسوم وحقوق وميراث من لاوارث له من عامة الناس ، أو من رجال الدولة وجندها وموظفيها . (انظر، ليلى عبداللطيف ، الادارة في مصر في العصر العثماني ، ص٤٤٣) .

(٤٣) سجل رقم ٧١، مادة ١٠٤، ص٩٢ بتاريخ اواخر المحرم عام ١١٤٣هـ/ ١٧٢٠م، وقد لوحظ أن العملة المستخدمة هنا هي نصف الفضة والقرش، وللمزيد من التفصيلات انظر سجلات أرقام ٩١، ٩٢، ٩٥، ١٠٤ مواد ٥٦٥، ٢٠، ١٦٠، ٦٩، ٢٨٢، ١٠٣، صفحات ٤١٢، ١٣، ١١٩، ٤٦٠، ٤٧، ٢٦٨، ٦٦، بتواريخ ٥ رجب ١١٨٦هـ/ ١٧٧٣م، ١٠ جمادى الثانية، ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، غرة رمضان المعظم ١١٨٨هـ/ نوفمبر ١٧٧٤م ، ٢٠ ذي القعدة عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧٢م .

* القرش ، في الاصل تعريب Groshen الالمانية وهي تعني البياستر Piastreأي النقد الاسباني ، الفضة الذي بدأ ضربه وتداوله في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، ثم استقر التعامل التجاري مع بلدان الشرق العربي ، فاطلق على البياستر الفضة اسم غرش وقرش أو ارش كما يسميه العامة في مصر وقد ضرب هذا النقد في تركيا لأول مرة في عهد سليمان الثاني (١٧٨٦ ـ ١٦٩٠) وفي مصر ضربت القروش في عهد علي بك الكبير لأول مرة عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م (انظر عبدالرحمن فهمي ، المرجع السابق ، ص٥٧٤) .

(٤٤) سجل رقم ٥١، مادة ٦٩٨، ص٣٢٥، بتاريخ ٢٩ رجب عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٥م .
(٤٥) سجل رقم ٥٠، مادة ٩٠، ص٧ بتاريخ ٢٩ رجب عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٥م .
(٤٦) سجل رقم ٦٦، مادة ١٩٤، ص١٣٢، بتاريخ ٢٨ رجب عام ١١٣٢هـ/ عام ١٧١٩م .
(٤٧) نفسه .
(٤٨) سجل رقم ٥٧ ، مادة ٣٧٣، ص١٦٤، بدون تاريخ . وتقدر الحصة بثلاثة قراريط .
(٤٩) سجل رقم ١١، مادة ٦٣٦، ص١٦٧، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م .
(٥٠) سجل رقم ١٤، مادة ٨٩٥، ص٢٥٦، بتاريخ ١٧ ذي القعدة عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .
(٥١) سجل رقم ٢٦، مادة بدون رقم، ص٥٨ بتاريخ ١٢ شعبان عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م .
(٥٢) سجل رقم ٢٦، مادة ٣٠٦، ص١٠٢، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م .
(٥٣) سجل رقم ٣، مادة ١١٥، ص٣٩، بتاريخ ١٤ شوال عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م .
(٥٤) سجل رقم ١١، مادة ٥٧٦، ص١٥٦، بتاريخ ١٧ ذي القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م .
(٥٥) سجل رقم ١١، مادة ٦٢٦، ص١٦٧، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م .
(٥٦) سجل رقم ٨٤، مادة ٨٠، ص٣٢، بتاريخ اوايل شعبان عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م .
(٥٧) سجل رقم ٣٩ ، مادة ٤١٥، ص١٢٨، بتاريخ ١٧ جمادى الأولى عام ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م .
(٥٨) المحتسب ، ويعرف بأمين الحسبة الشريفة ، وقد اشترط في شغل هذا المنصب في العصر الاسلامي التفقه في الدين . وكان هذا المنصب قاصرا طوال العصر العثماني على افراد الجاويشية . وكان المحتسب يقوم بالاشراف على الاسواق وضبط الموازين والمكائيل وتسعير المواد التجارية وضبط الامن (انظر ، عفاف العبد ، المرجع السابق ، ص٧٥) .

(٥٩) سجل رقم ١٦، مادة ١٠٧٤، ص٣٩٠، بتاريخ ١٧ جمادى الثانية ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م .
(٦٠) Baer Gabrial Guild in Egypt in Modern Times, p21
(٦١) ليلى عبداللطيف ، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام ابان الحكم العثماني ٨٣ .
(٦٢) سجل رقم ١١، مادة ١١٧، ص٣٥ بتاريخ ١٦ رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .
(٦٣) سجل رقم ١، مادة ١٦٢، ص٣٥ بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م .
(٦٤) سجل رقم ٣٧ ، مادة ١٠٢، ص٢٦، بتاريخ ١٧ ربيع الأول عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م .
(٦٥) سجل رقم ٢٣، مادة ٥١٨، ص١٤٥، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م .
(٦٦) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٤٦٩، ص١٧٦، بتاريخ ١٤ محرم ١٠٦٥هـ/ ١٥٦٤م .

(٦٧) سجل رقم ١٨، ٣٥، ٣٨، ٣٩، وهي سجلات بها الكثير عن هذه الحرفة .
(٦٨) سجل رقم ٢٣، مادة ٥١٨، ص١٤٥، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م .
(٦٩)
(٧٠) سجل رقم ٧٢، مادة ٢٣٠، ص١٧٨، بدون تاريخ .
(٧١) سجل رقم ٥ مادة ٥١٨، ص٢٨٦، بتاريخ ١٩ شوال عام ٩٨٠هـ/عام ١٥٧٣م .
(٧٢) سجل رقم ١٦، مادة ١١٥٨، ص٤٣٣، بتاريخ ٢ محرم عام ١٠١٤هـ/عام ١٦٠٥م .
(٧٣) سجل رقم ١٨، مادة ٤٤، ص١٥، بتاريخ ١٠ جمادي الأولى عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م .
(٧٤) سجل رقم ٥١، مادة ٥، ص١٤٤٢، ص٥، ٦١٦، بتاريخ ١٨ رمضان ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م .
(٧٥) سجل رقم ٧١، مادة ٥٦٦، ص٢٤٣، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م .
(٧٦) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٨٤، ص١٠٦، بتاريخ ٤ رجب عام ١٠٠١ هـ/عام ١٥٩٢م .
(٧٧) سجل رقم ٣٥، مادة ٦٨٤، ص٢٣١، بتاريخ ٢٤ ذي القعدة عام ٩٩٦هـ/١٥٨٧م .
(٧٨) سجل رقم ١، مادة ٣٣٣، ص٧٢، بتاريخ ٩ شوال عام ٩٥٧ هـ/عام ١٥٥٠م .
(٧٩) سجل رقم ٣، مادة ١٠٦، ص٣٦ بتاريخ ١٣ شوال عام ٩٦٤هـ/عام ١٥٥٦م .
(٨٠) سجل رقم ٩، مادة ١٨٦، ص٥٨، بتاريخ ٨ رجب عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .
(٨١) سجل رقم ١٤، مادة ٢٠، ص٦ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ/ عام ١٥٧٩م .
(٨٢) سجل رقم ١١، مادة ٥٧٦، ص١٥٦، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧١م .
(٨٣) سجل رقم ٢٣، مادة ٥١٨ ص١٤٥، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م .
(٨٤) سجل رقم ١، مادة ١٥٤٠، ص٣٦٥، بتاريخ ٣جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م .
(٨٥) سجل رقم ٦٤، مادة ٥٠، ص٣١، بتاريخ اواخر ذي القعدة عام ١١٢١هـ/ ١٧١٠م .
(٨٦) سجل رقم ١١، مادة ١١٧، ص٣٥، بتاريخ ١٦ رجب عام ٩٨٧هـ/ عام ١٥٧٠م .
(٨٧) سجل رقم ٦٤، مادة ٥٩، ص٣٥، بتاريخ اواخر ذي القعدة عام ١١٢١هـ/ ١٧١٠م .
(٨٨) سجل رقم ١٤، مادة ٤٢، ص١٣، بتاريخ ٢٩ جمادي الأولى عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م .

* الحصار الأشرفي ، انشأه السلطان قايتباي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦) . انظر محمد بن ابي السرور البكري ، كشف الكربة برفع الطلبة ، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن ، ص٣٢٧ .

* دزدار ، كلمة فارسية مكونة من مقطعين ، دز بمعنى مستحفظ أو حاكم ، ودار بمعنى قلعة ، الكلمة تعني مستحفظ قلعة أو قائد قلعة (انظر ، ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص٤٧) .

* الجوربجي ، هو الحائز على رتبة عسكرية تعادل اليوزباشي (والنقيب) وكان يطلق في الاستعمال العثماني على ضباط الانكشارية ، والجوربجية هم الرسل الذين كانوا يرسلون الى الاماكن البعيدة لتسليم الرسائل وجمع الضرائب (انظر محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق، ص٢١) .

(٨٩) أغا آمر ، بك سيد ، ضابط المتـازين من الخدام والاتبـاع . (انظر ليـلى عبداللطيف ، الادارة في مصر ، ص٤٣٩) .
(٩٠) سجل رقم ٧٢، مادة ٢٣٠، ص٦٧، بتاريخ مستهل شهر صفر الخير ١٠٥١هـ .
(٩١) سجل رقم ٤٦، مادة ١٧٨، ص٦٧ بتاريخ مستهل شهر صفر الخير ١٠٥١هـ/١٦١١م .

* الطريقة البرهانية ، وهي احدى الطرق الصوفية التي كانت موجودة في العصر العثماني (انظر توفيق الطويل ، التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ص٧٥)

(٩٢) سجل رقم ١ مادة، ٩٥٨، ص٢١٧، بتاريخ ٢٨ محرم عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .
(٩٣) سجل رقم ٦٠ز، مادة ٢٣٥، ص١٣٩ بتاريخ ١٨ رجب ١١٣٤هـ/١٧١٢م .
(٩٤) سجل رقم ٩١، مادة ٥٤، ص ٥٤ بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١١٨٣هـ/١٧٦٩م .

ملاحق

ملحق رقم (١)

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية ..
سجل رقم ١ مادة : ٧٧١، ص١٦٧ بتاريخ ٢١ ذي الحجة الحرام عام ٩٥٧هـ/ ديسمبر عام ١٥٥٠م .
موضوع الوثيقة : بيع فوط .

لدى سيدنا الشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد الكتامي ايده الله ..
اشترى المعلم رمضان بن الحاج علي بن الحاج محمد المعروف بابن عويدات بما له لنفسه من المعلم محمد بن المرحوم الحاج علي سليمان المعروف بالحجازي وبابن كراع جميع عشرين فوطة أقر محمد بن علي بن سليمان المعروف بالحجازي بن كراع اقرارا شرعيا أن في ذمة المعلم رمضان بن الحاج علي بن الحاج محمد المعروف بابن عويدات من الفوط الذهبي ثمانية عشر يقوم له بذلك في سلخ اربعة اشهر تمضي من تاريخه اعلاه وقدرته على ذلك ويقبض رأس مال السلم عن ذلك من الذهب السلطاني الجديد خمسة عشر دينار القبض الشرعي وما في ذلك بما قاصصه مردين عليه من الذهب الموصوف سبعة دنانير وبماله حالا به على ذمته شهادة شمس الدين بن عبدالله بن عبدالواحد مرضيان الشريف به ودنانيره وحواله الفصل من علي بن رضوان بدينار واحد وباقي ذلك وحل اليه بتصادقهما على ذلك التصادق الشرعي جرى ذلك في تاريخه .
الثلاثاء المبارك الحادي والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة سبع وخمسين وتسعماية .

ملحق رقم (٢)

سجل رقم ٢٩، مادة ٢٥٣، ص٩٧ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ١٠٠٠هـ/ مارس عام ١٥٩١م .
موضوع الوثيقة : شراء حجازي قمح من هواري .

وفيه لديه

ادعى عطية بن اسماعيل الهوارى على اسماعيل بن عمر الحجازي العيساوي انه يستحق في ذمته أربعة وعشرين دينار اكازنة ثمن اثني عشر غراوة قمح بالكيل السكندري ابتاعها منه وسلمها عود ورفيقة ابو دافية من قربهم العيساوي من نحو اربعة اشهر بعد تاريخه وعماله في ذلك كان ومنها ما يسلمانه في الذمة والمال والضمان الشرعي وطالبه بذلك وسأله سواله فسيل المدعى عليه المذكور عن ذلك فاجاب بالاعتراف بذلك على الجمل المشروح وخرجا على ذلك منه وصحبهما عمر الحجازي والمدعى

عليه بذلك وخصص منه ولده اسماعيل المذكور في اثني عشر دينارا من المبلغ المدعى عليه المذكور اعلاه الضمان الشرعي بالاذن الشرعي المقبول عارفون بمضي الضمان وما يترتب عليه شرعا على ذلك عليه المذكور لذلك الشهود الشرعي في تاريخه .

تحريرا في ٢٤ جمادى الثانية عام ألف من الهجرة .

الشهود .

ملحق رقم (٣)

سجل رقم ١٨، مادة ٤١٥، ص١٤١ بتاريخ ١٨ شعبان عام ٩٩٠ هـ/ اغسطس عام ١٥٨٢م ،

موضوع الوثيقة : احتراف بعض الحجازيين حرفة الصراف .

وفيه لديه أحسن الله اليه

تصادق الحاج عمران بن سالم الحجازي الصراف بالثغر المذكور والحاج علاء الدين بن بدر الدين اللوقيني المدولب في الطواحين بالثغر تصادقا شرعيا وهما بحالتي صحة واختيار على ان آخر ما يستحقه الحاج عمر المذكور بذمة الحاج علاء الدين المذكور من ساير الحقوق والمعامــلات والعلق والتبعات والدعاوى والمطالبات والايمان الواجبات مبلغ قدره من الذهب الاكروني خمسة وعشرون دينارا وعلى ان الحاج عمران المذكور ان الحاج علاء الدين المذكور على أن يقوم له بالمبلغ المذكور مقسط على ثلاثة عشر شهرا قسط كل مستوفى في آخره من تاريخه ديناران الا القسط الاخير فانه دينار واحد اطار شرعيا لعلمه بحاله انه لا يقدر على وفا ذلك كذلك وعلى أن الحاج عمران المذكور فريق والحاج علاء الدين فريق وكل فريق منهما لا يستحق على الفريق الآخر مطلقا تعاملا ولا استحقاقا ولا دعوى ولا قل ما يوجه ولا مندولا ولا فضة ولا ذهبا ولا دينا ولا سطر ولا غيره ولا استمرار ولا فلوسا ولا نحاسا ولا ربحا ولا خسرانا ولا طحنا ولا دقيقا ولا منخيا ولا مدثورا ولا سهوا ولا نسيانا ولا علقة ولا تبعة ولا حقا من ساير الحقوق على الاطلاق والعموم والاسفر والشمول المبلغ المذكور وقدره من عند تكرار خمسة وعشرون دينارا ذهبا اكرونيا فان ذلك باق للحاج عمران المذكور من الحاج علاء الدين المــذكور عــلى الحكم المشروح تصادقا على ذلك وثبت الاشهاد بذلك لدى سيدنا الحاكم المشار اليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتا شرعيا وحكم اعز الله احكاما بموجب ذلك صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسيولا في ذلك واشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد في تاريخه .

تحريرا في ١٨ شعبان عام ٩٩٠هـ .

ملحق رقم (٤)

سجل رقم ١١ مادة ٦٣٣، ص ١٦٧ بتاريخ الجمعة المبارك ١٢ شوال عام ٩٧٨ هـ/ فبراير عام ١٥٧٠م .

موضوع الوثيقة : شراء بقرة لبعض الجمالين .

[وفيه لديه]

اشهد على الناصري محمد بن احمد من جماعة الجراكسة من بلك اثنا عشر الاشهاد الشرعي انه قبض واستوفى من سالم بن محمد الحجازي الجمالي مبلغ قدره من الذهب الاكروني اربعة دنــانير القبض والاستشهاد الشرعيين وان ذلك هو القدر الذي كان يستحقه في ذمته ثمن بقرة معلومة لهما المبتاعة له منه قبل تاريخه بتصادقهما على ذلك التصادق الشرعي وصدر بينهما اثبات شرعي من كل شيء وبي كل شيء من اليمين بالله تعالى من وجب .

الجمعة المبارك ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ .

ملحق رقم (٥)

سجل رقم ١٢، مادة ١٤٤، ص٥٦ بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ٩٨٥هـ/ فبراير عام ١٥٧٧م..
موضوع الوثيقة : مشاركة بعض الحجازيين مع بعض السودانيين في تجارة النيلة .

وفيه لديه احسن الله اليه

ادعى منصور بن علي الجداوي وحراز بن علي السوداني على سالم بن الحاج سليمان الصباغ الكتامي انه اشترى منهما سوية نيل بلدي معلوم لهم في شهر شعبان سنة تاريخه بخمسة وثلاثون دينارا ذهبا جديدا دفع له من ذلك ثمانية وعشرين دينار ونصف دينار على فترات متفرقة تأخر لهما بذمته ستة دنانير ونصف دينار ويطالباه بذلك فسيل عن ذلك فاجاب بانه اشترى منهما النيل المذكور وتأخر لهما بذمته من الثمن المذكور ثلاثة دنانير ونصف دينار وربع دينار فلم يصدقاه على ذلك وطال النزاع بينهما فوقف بينهما واسطة خيرلله تعالى فتصادقوا تصادقا شرعيا على آخر ما يستحقانه في ذمة المدعي عليه من ثمن النيل المذكور خمسة دنانير ذهب جديد وعشرة انصاف ودفع لهما ذلك بالمجلس وبريت ذمته لهما في ذلك البراة الشرعية وشهد عليهم بذلك في تاريخه .

ملحق رقم (٦)

سجل رقم ٣، مادة ١١٥، ص٣٩ بتاريخ ١٤ شوال عام ٩٦٤هـ/ يوليو عام ١٥٥٦م .
موضوع الوثيقة : قيام بعض الحجازيين بعملية الاقراض .

وفيه لدى الحاكم المالكي اعز الله احكامه

تصادق الشريف عامر بن الشريف حسن بن الشريف محمد المكي والمعلم محمد بن يوسف بن ابي بكر المصري التصادق الشرعي وهم بحالة الصحة والطواعية والاختيار على أن آخر ما يستحقه السيد الشريف في ذمة محمد المذكور من قرض ومعاملة شايعة على تاريخه من الفضة السلطانية ثمانية وسبعون نصف اجله في ذلك في كل شهر من تاريخه عشرون نصفا واقر كل منهما الاقرار الشرعي انه لا يستحق على الآخر ما عدا المبلغ المذكور فيه حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا طلبا ولا فضة ولا طلب ولا معاملة أو لا باق منهما ولا شي قل ولا جل ولا يمين بالله تعالى الى تاريخه فتصادقا على ذلك التصادق الشرعي جرى ذلك وحرر في يوم الاثنين رابع عشر شوال سنة اربعة وستين وتسعماية .

شهود الحال

ملحق رقم (٧)

سجل رقم ٥، مادة ٥١٨، ص٣٨٦ بتاريخ ١٩ شوال عام ٩٨٠هـ/ فبراير عام ١٥٧٣م
موضوع الوثيقة : عقد زواج :
الحمد لله رب العالمين يوم الخميس المبارك تاسع عشر شوال سنة تسع وثمانين
فيه لدى الشيخ محيى الدين المالكي
الزوج احمد بن عمر بن عبدالقادر المكي الزوجة بثينة المرأة ابنة علي بن علي الدين اللقاني الخلية من موانع النكاح الصداق من الذهب الجديد خمسة دنانير من الفضة الجديدة معاملة تاريخه ثلاثماية نصف الحال لها في ذلك مبلغ من الذهب المقبوض بيد اخيها لابيها محمد دينارين باعترافه والباقي على حكم ومبلغ الفضة كل من عشرين نصف المزوج باذنها لاخيها محمد المذكور به وغانم احمد العيساوي وقبل الزوج للكسوة كل سنة ثلاثة نصف من الانصاف المذكورة ووقع لها بذلك في تاريخه .

ملحق رقم (٨)

سجل رقم ٨٦، مادة ١٦٦، ص١٣٠ بتاريخ غرة رمضان المعظم عام ١١٦٧هـ/ يونيو ١٧٥٣ .
موضوع الوثيقة : صورة تقرير نقابة الاشراف .
صورة تقرير النقابة باسم الجناب العالي السيد علي اغا
ان افتخار اعزه السادة الاشراف العظام وواحدها سلالة آل بني عبدمناف الفخام وماجدها سيد سادات ال بيت النبوة والرسالة سيد مرآة المنتخبة من اطهر سلالة حضر مولانا السيد حسين افندي نقيب السادة الاشراف بمصر المحروسة الموقع توقيعه أعلاه ادام الله تعالى مجده وزاد في علاه قدرفخر الاشراف الكرام السيد علي جوربجي زيد قدره في نيابة النقابة الشريفة بثغر اسكندرية بتقيد بضبط وقايع السادة الاشراف وينظر فيما يتعلق بهم علـى وجه الانصـاف وامره بكف الاذى عنهم ومنـع المعارض لهم واذنه بفعل ما يراه حسنات حبس واقامة حب وتعزيز بموجب الشرع الشريف ومنهج الحق المنير المنيف فانه من سلك طريق الحق نجا ومن يتق الله يجعل به مخرجا وابقاه في ذلك على عادته ومستمر قاعدته خلا ما يتعلق بأمر بثبوت النسب فانه ممنوع من تعاطيه ومن سماع بينة والنظر في دعاويه ولا يأذن بلبس علامة لاحد ولاية عنها من على رأس الشريف بغير مستند ضبطا لهذا النسب الشريف الجليل وصونا من أن يدخل فيه الدخيل تقريرا وتنفيذا وامرا واستعانة شرعيات تحرير في غرة شهر رمضان المعظم قدره سنة سبعة وستين وماية والف من الهجرة .
شهود الحال

ملحق رقم (٩)

سجل رقم ١٤، مادة ٢٠، ص٦ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ/ يونيو عام ١٥٧٩ .
موضوع الوثيقة : اعتداء بعض الادكاوية على بعض الحجازيين بالالفاظ النابية .

وفيه لديه احسن الله اليه

ادعى الحاج سالم بن الحاج احمد سميط الوكيل الشرعي عن محمد الحجازي الادكاوي على محمد بن علي عمر الادكاوي انه قال بموكله طعريك يا حرامي ويطالبه بما يترتب عليه بسبب ذلك فسيل عن ذلك فاجاب بالانكار لذلك فاحضر المدعي المذكور الحاج عبدالله بن عمر الشكجي ومحمد بن حسن الجمال وشهدا مسولين بمعرفة المتداعين والموكل المذكور المعرفة الشرعية وان الموكل المذكور اخـذ تبنا من معلف جمال المدعى عليه فقال له المدعى عليه يا حرامي فعل الله طعريك فقال له محمد الحجازي ما حرامي الا أنت وطعريك فضل المدعى عليه والموكل على ذلك وادبا على ذلك في تاريخه .

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا : المصادر :

وثائق لم تنشر بعد :

ارشيف الشهر العقاري بمدينة الاسكندرية ، سجلات المحكمة الشرعية .
وقد أشرت اليها في هوامش البحث .

ثانيا : المراجع العربية :

١ ـ ابراهيم يونس سلطح : تاريخ مصر العثمانية من خلال تحقيق مخطوطة «تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب» .

٢ ـ ابراهيم زكي : الحالة المالية والتطور الحكومي والاجتماعي في عهد الحملة الفرنساوية ، وعهد محمد علي. القاهرة بدون تاريخ .

وفاة الملك فيصل الاول بين الاغتيال والموت الطبيعي

دراسة تحليلية في الوثائق الرسمية البريطانية

د. محمد مظفر الأدهمي
كلية التربية/ الجامعة المستنصرية

بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٢ وجه ملك بريطانيا، جورج الخامس، الدعوة الى ملك العراق، فيصل الأول، لزيارة بريطانيا لمناسبة دخول العراق عصبة الامم. وفي ٥ حزيران ١٩٣٣، غادر الملك فيصل الأول بغداد متوجها الى عمان حيث مكث هناك بضعة أيام في ضيافة اخيه الامير عبدالله أمير شرقي الاردن، توجه بعدها الى القاهرة فالاسكندرية حيث ابحر من هناك الى بلجيكا بناء على دعوة من ملكها، ثم وصل لندن بتاريخ ٢٠ حزيران. بعد قضاء الزيارة المقررة لبريطانيا رحل فيصل الى فرنسا ومنها الى مدينة Berne في سويسرا لاجراء استشفائه السنوي. لم تطل اقامة الملك فيصل في Berne طويلا، فقد اضطر للرجوع الى العراق في الثاني من آب بسبب تمرد الاثوريين السريان ومحاولتهم تشكيل دويلة لهم في الشمال منفصلة عن العراق. عندما انتهى العصيان المسلح عاد فيصل الى Berne في الأول من ايلول ١٩٣٣، وفي السابع منه مات الملك فيصل، واعلنت الحكومة العراقية انه قد توفي بالسكتة القلبية. وقد اشار التقرير الطبي الى أن انسدادا في الشرايين قد سبب توقف قلب الملك(١).

لكي اضع القارىء في الصورة كاملة لابد أولا من تدوين ردود الفعل التي رافقت موت الملك فيصل الأول، خصوصا تلك التي لها علاقة بالتشكيك بصحة موته بشكل طبيعي. لم يصدق الكثيرون ان فيصل قد مات موتا طبيعيا، فقد اعتقدوا بأن بريطانيا قد قتلته لانه وحكومته قد قمعوا عصيان الاثوريين الموالين لبريطانيا وكانت الصحف البريطانية قد هاجمت العراق متهمة اياه باضطهاد للاقلية الاثورية(٢).

كما أن الحكومة البريطانية انذرت الملك فيصل بضرورة معالجة الامر سلميا بناء على ذلك فقد شكك المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني بالتقرير الطبي الذي يشير الى أن موت الملك كان بسبب تصلب في الشرايين. كما تسلم السيد الحسني رسالة من الامير شكيب ارسلان تشير من طرف خفي الى أن الانكليز كانوا وراء موت فيصل(٣) كذلك نشر الدكتور عبدالجواد الكربلائي مقالا في جريدته (الاحرار) تحت عنوان «أمر دبر ليلا» اشار فيه الى ما نشرته بعض الصحف الاوروبية عن علاقة الانكليز بوفاة الملك فيصل. لقد اعتبرت الحكومة العراقية المقال مثيرا للرأي العام فسجن الدكتور الكربلائي ستة اشهر وعطلت جريدته(٤).

لم يقتصر امر التشكيك بصحة وفاة فيصل بشكل طبيعي على العراقيين وحدهم ، ففي دمشق اغلقت جميع الاسواق واعلنت المدينة حدادها . وفي يوم ٩ ايلول تجمع حوالي ٢٠٠٠ مواطن سوري في الجامع الاموي يتقدمهم اعضاء الكتلة الوطنية واعضاء حزب سوريا الفتاة ، لاقامة الصلاة على روح الملك فيصل . بعد اداء الصلاة اتجه الحشد الى ساحة المرجة ، وهو المكان الذي كان الملك فيصل قد توج فيه عام ١٩٢٠ ملكا على سوريا ، وهناك القيت ثلاث كلمات حماسية ابتدأها صلاح الدين مختار الطرابلسي، مراسل جريدة الجامعة الاسلامية في القدس ، فهاجم الحكومة البريطانية بشدة وقال :

«بالرغم من ان الحكومة البريطانية كانت قد استقبلت الملك فيصل ، في حزيران، بالتكريم والترحاب ، الا أن ذلك كان خديعة مدبرة . ان الذي حدث حقيقة هو ان بريطانيا صافحت فيصل بيد وقدمت له كأس السم باليد الاخرى . ان الحكومة البريطانية هي التي دفعت السريان في العراق الى الثورة ضد السلطة . ان عصبة الامم اهتمت حالا بالموضوع . اين كانت العصبة عندما قتل آلاف المسلمين على يد الفرنسيين في سوريا عام ١٩٢٥ ؟ اين كانت العصبة عندما قتل المسلمون على يد اليهود في فلسطين عام ١٩٢٩ ؟ اين كانت العصبة عندما قتل المسلمون بالآلاف على يد الجيش البريطاني ابان ثورة العراق عام ١٩٢٢»[٥]، [٦] .

وبعد أن ألقي خطابان حماسيان آخران بالمعنى نفسه تحول الحشد الى مظاهرة اخترقت شوارع دمشق فتصدت لها الشرطة بالهراوات وفرقتها . كما فرقت الشرطة مظاهرة اخرى في حلب[٧] .

وفي بيروت اعلن المسلمون الحداد واقيم تجمع حول القنصلية العراقية القيت فيه خطابات تعزية ورثاء[٨] .

لم تكتف التنظيمات القومية التقليدية في كل من سوريا ولبنان وفلسطين باعلان حدادها واتهامها للانكليز بقتل الملك فيصل الأول ملك العراق ، بل ارسلت وفودا ممثلة عنها الى بغداد للمشاركة في العزاء الذي اقيم يوم ٢٤ تشرين الأول بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاة الملك ، فتحول العزاء الى مظاهرة قومية قرأت فيها برقية تعزية من قائد الكتلة الوطنية في سوريا هاشم الاتاسي ، ثم القى كل من ممثلي سوريا ولبنان خطابين حثا فيهما الشعب العراقي على العمل من اجل وحدة سوريا والعراق . وتحدث بعد ذلك اكرم زعيتر وسليمان التاجي الفاروقي عن فلسطين فاشارا الى ما اصاب عرب فلسطين من فجائع ودعيا شعب العراق لمساندتهم في كفاحهم ضد الصهاينة والسياسة التي تدعم الصهاينة على حساب العرب وفلسطين[١٠] .

كيف قتل الملك ؟

لقد بقيت قضية (مقتل) الملك فيصل الأول مجرد شكوك لا أساس لها ، ولم يحاول أحد ، حسب علمي ، ان يفتش عن الحقيقة بامعان لان التقارير الرسمية والطبية تشير الى أن فيصل مات موتا طبيعيا . لكن تقرير المفوضية البريطانية في Berne والذي ارسل الى وزارة الخارجية البريطانية بعد اسبوع من وفاة فيصل ، قد شكك بالتقارير الطبية القائلة بوفاة فيصل نتيجة تصلب بالشرايين ، وقدم التقرير شواهد وادلة تقول ان فيصل قد قتل مسموما ، الا أن التقرير لم يؤكد جزما بصحة تلك المعلومات . وهذه ترجمة للتقرير : «عزيزي Rendle

لقد فوجئت ، بعد انتهاء اجازتي وعودتي الى العمل بأن الاشاعات القائلة بأن فيصل لم يمت موتا طبيعيا قد اصبحت معتمدة بعض الشيء ، انني يجب ان لا اهتم للذي ينشر من اشاعات في مدينة طبيعتها ان تتقبل الاشاعات ، لكن الليدي Paget وهي هنا تحت العلاج من قبل الدكتور Kocher، وهي كذلك ، كما ستذكر تمتلك معلومات كافية عن قضايا طبية بحكم خبرتها كممرضة عملت في صربيا في بداية الحرب ، فقد اوضحت لي وجهات النظر التالية :

ومع أن وجهات النظر هذه تبدو كرواية Edgar Wallac فانها لا يمكن أن تهمل تماما ان الليدي Paget تعرف معظم الاطباء والممرضات والاشخاص الآخرين الذين سهروا . على صحة فيصل ، وهي قد استفسرت منهم حول الموضوع عن كثب .

لقد شاهدت الليدي Paget فيصل يوم وفاته بعد عودته من نزهة في السيارة، وهي تعتقد بأنه كان يبدو تماما بصحة جيدة . اعتمادا على معلوماتها فان فيصل قد رجع من عيادة Kocher حيث شاهدته الليدي هناك ، الى فندقه لتناول الشاي في الساعة السادسة . يبدو أن امرأة هندية جميلة المظهر كانت مع فيصل ، يقال انها على علاقة خاصة به ، وكان قد تشاجر معها في اليوم الذي سبق وفاته . ان الليدي Paget لم «تتمكن لحد الآن من التأكد ممن كان مع فيصل عند تناوله «الشاي» أو معرفة من الذي قدم له

الشاي. في حوالي الساعة السابعة شعر فيصل فجأة بأنه مريض فأرسل بطلب طبيبه Kocher. عند وصول Kocher اشتكى فيصل من عطش شديد وبأنه قد أعطي شيئاً ليشربه فتقيأه بشدة . ان التقيؤ محتمل في السكتة القلبية ، لكنه عادة يكون نتيجة تسمم . ان الليدي Paget قد انتقدت Kocher بشدة لفقدانه رباطة جأشه في مثل هذه اللحظة الحاسمة ، ولعدم اتخاذ الخطوات لفحص محتويات القيء . بعد فترة وجيزة شعر فيصل بانه في حالة احسن وطلب ان يترك لوحده ، لكنه قبل وفاته بقليل اشتكى مرة ثانية من آلام شديدة ثم لفظ انفاسه الأخيرة نتيجة تقيؤ مستمر من معدة فارغة .

ان سبب الوفاة ، كما اخبرناكم ، يعود الى تصلب في الشرايين رغم الحقيقة القائلة بأن تقارير الاطباء كانت قد اشارت ، قبل يومين من وفاته ، بأنه لا يوجد اي شيء خطير في القلب ، ولم يجر فحص كاف للجثة «لمعرفة اسباب الوفاة» ، بل ان جثته قد حنطت بسرعة مريبة ، وان المرأة التي كانت معه قد اختفت ، كما يقال، في اليوم التالي للوفاة . كل هذه الظواهر البارزة اقنعت الليدي Paget والتي تقوم الآن باستيضاحات اخرى ، بأن فيصل لم يمت موتا طبيعيا . انني بالطبع لا اتمكن أن أؤكد صحة ما قالته لي الليدي Paget لكنني انقل اليك ما قالته لي لان هناك حقيقة تقول أن هذه المعلومات ليست مجرد اشاعة من شخص غير معتمد .

انه من الصعب الافتراض بان ثلاثة اطباء لهم اهميتهم وفي بلد كسويسرا ، يمكن بأية حال ، ان يسعوا لاخفاء اية شكوك انتابتهم حول الموضوع ، ومع هذا فان الحقيقة، بالتأكيد، ستبقى تشير الى أن هناك ظروفا معينة مشكوكا فيها ترتبط بالاحداث التي سبقت واعقبت وفاة الملك فيصل .

اذا كان هناك اي اساس لهذه الادعاءات فانه من المهم معرفة هل أن المرأة هي التي دست السم لفيصل ، وهل انها فعلت ذلك بسبب الشجار بينهما ، كحبيب وحبيبة ، أم انها دست السم له بتحريض من وكيل سياسي . بالطبع يوجد احتمال بأنها عملية انتحار . على أي حال ، وكما قلت ، فان القضية ، كما يبدو ، قد حملت مثل رواية بوليسية ، اكثر مما يجب ، ولا شك أن لديك المعلومات التي تسفه تماما هذه الآراء[١١] .

لا يوجد في الوثائق الرسمية البريطانية ، المتوفرة للباحثين، اية وثيقة اخرى تؤكد قضية (مقتل) الملك فيصل الاول . الا أن التحليل التاريخي بالاستناد الى ادلة سبقت ورافقت واعقبت الحدث ، يمكن أن يقدم حقيقة لا يمكن حتى للوثائق الرسمية ان تفصح عنها . عليه فانني سأعتمد في معرفة مدى صحة رواية الليدي Paget على تحليل التقرير البريطاني نفسه ومن خلال التوصل الى معرفة (القاتل) .

ابتداء يجب أن نثبت الحقائق غير المشكوك فيها والتي وردت في تقرير المفوضية البريطانية في Berne وهي :

١ ـ ان الليدي Paget تمتلك خبرة طبية وان وزارة الخارجية البريطانية كانت على معرفة تامة بذلك .

٢ ـ ان الليدي Paget كانت معروفه جيدا من قبل السلطات البريطانية .

٣ ـ ان الليدي Paget كانت على معرفة تامة بجميع الاطباء والممرضات والاشخاص .

٤ ـ ان تقارير الاطباء قد اشارت قبل يومين من موت فيصل أن قلبه كان لا يعاني من أي شيء خطير .

٥ ـ لم يجر اختبار طبي لجثة الملك بل انها حنطت بسرعة مريبة ومشكوك فيها .

اضافة الى هذه الحقائق الخمس فانه يمكن الاستنتاج من رسالة المفوض البريطاني في Berne، أنه مقتنع بعض الشيء أن فيصل قد قتل مسموما ، كما شكك بتقارير الاطباء ، وان قوله (ان الحقيقة بالتأكيد ستبقى تشير الى أن هناك ظروفا معينة مشكوكا فيها ترتبط بالاحداث التي سبقت واعقبت وفاة الملك فيصل) يدل على أن المفوض البريطاني كان يمتلك ادلة ومعلومات تجعله يميل الى تصديق رواية الليدي Paget وانه قد اشار ضمن ما اشار الى أن احتمال القتل كان بدافع «سياسي» . كذلك يبدو ان المفوض البريطاني كان حائرا بين ما يميل الى الاعتقاد به هو وما تعتقده وزارة الخارجية البريطانية ولهذا فانه كان مترددا في القول مباشرة بأنه على قناعة بأن فيصل قد قتل وكل ما حاول عمله هو تنبيه وزارة الخارجية بأنه من المهم ، معرفة سبب القتل والقاتل لان ما ذكرته مدام Paget وما يعرفه هو لا يمكن أن يهمل تماما .

للتأكد من صحة ما روته الليدي Paget عن الاعراض التي صاحبت موت الملك فيصل فأنه من الضروري الرجوع الى المصادر الطبية ، وبالذات المصادر الخاصة بحالات التسمم.

ان كتاب : (علم السموم والطب العذلي) :

(Medical Juisprudence and Toxicology)

المطبوع في لندن عام ١٩٥٣ لمؤلفه John Glaister يحوي دراسات طبية عن حالات التسمم واعراضها ومسبباتها . وهو يذكر حالة معينة مشابهة للحالة التي وصفتها الليدي Paget عن موضوع تسمم الملك فيصل بالشاي . ويذكر المصدر في الصفحات ٥٣٩ - ٥٤٠ انه من المواد الشائعة والمسببة للتسمم هو الزرنيخ ويكون اما على شكل حامض الزرنيخ (Arsenic Acid) او اوكسيد الزرنيخ (Arsenic Oxide) أو الزرنيخ الابيض (White Arsenic) وعند اذابة مادة الزرنيخ ، التي قد تكون على شكل اقراص ، بالشاي مع اضافة الحليب ، فان الزرنيخ يصبح عديم الطعم والرائحة . بعبارة اخرى ، ان شارب الشاي بالحليب المذاب فيه الزرنيخ لا يشعر مطلقا بتغير طعم الشاي بالحليب ، ويوضح المصدر أن سرعة وبطء ظهور اعراض التسمم تعتمد على الكمية المستعملة في مادة الزرنيخ ، ويورد ارقاما للوزن بذلك . وتتراوح فترة ظهور أعراض التسمم بين ٢٠ دقيقة و١٠ أيام . وفي بعض الحالات ظهرت الاعراض خلال ساعة واحدة[١٢] . وهنا يجب الاشارة الى أن فيصل كان قد تناول الشاي في الساعة السادسة مساء ثم بدأ يتقيأ ، كما تروي الليدي Paget في الساعة السابعة مساء . اما عن اعراض التسمم التي يذكرها مصدرنا الطبي ، فهي مشابهة تماما للاعراض التي ظهرت قبل وفاته . اذ ان المصاب بالتسمم من الزرنيخ المذاب بالشاي والحليب يشعر عادة بـ (عطش شديد) و(دوار) و(الم شديد في المعدة مع تقيؤ يعقبه خواء، اي تقيؤ من معدة فارغة) . ويذكر المصدر نقطة مهمة اخرى جديرة بالاهتمام وهي ان حالة التسمم هذه قد تسبب (عجزا في القلب)[١٣] .

ان النقطة الاخيرة مهمة جدا لمناقشة صحة التقرير الطبي الذي أشار الى أن اسباب توقف قلب الملك هو تصلب في الشرايين . فعند الرجوع الى تقرير المفوضية البريطانية في Berne، عن اسباب الوفاة ، والذي أرسله وكيل المفوض البريطاني Dodds بتاريخ ٩ ايلول [المفوض البريطاني Howard Kennard الذي ارسل التقرير المتعلق برواية الليدي Paget كان في اجازة] نجده يذكر بأنه قبل يوم أو يومين من وفاة الملك ، طلب الدكتور Kocher ان يفحص قلب الملك من قبل طبيب مختص بالقلب مشهور في Berne واسمه الدكتور Schorerولم يجد الاخير اي شيء خطير يعاني منه قلب الملك . ويضيف تقرير Dodds قائلا :

«على اية حال فان الفحص الذي اجري بعد الوفاة لغرض اعداد شهادة الوفاة اظهر أن هناك تصلبا في شرايين القلب . وقد قرر الاطباء أن ذلك قد سبب الموت»[١٤].

ويستطرد التقرير بالقول بأن التقولات الكثيرة التي ذكرت بأن سبب الوفاة يعود الى طريقة معالجة Kocher للملك ، قد دفعت Kocherلان يحمي نفسه (بحصوله على تشخيص الدكتور Schorer وعلى شهادة الوفاة التي وقعها ثلاثة اطباء . ان ما هو اصعب ايضاحه هو عدم تمكن الدكتور Schorer من اكتشاف حالة قلب الملك الخطرة جدا) . واورد هنا النص بالانكليزية :

(But Doctor Kocher has Covered himself by obtaining Doctor Schorer's diagnosis and by the death certificate, which was signed by three doctors . What is more difficult to explain is the Failure of Doctor Schorer to discover the very Serious condition of His Majesty's heart.[١٥]

يمكن أن نفهم من هذا اسباب تشكيك المفوض البريطاني Kennard بصحة التقرير الطبي رغم توقيعه من قبل ثلاثة اطباء ، ذلك ان وكيله الذي كان موجودا في Berne عند الوفاة لم يكن مقتنعا تماما بالتقرير الطبي . يذكر مصدرنا الطبي ان (عجزا في القلب) قد يحدث نتيجة التسمم . وعند ربط ذلك برواية الليدي Paget وبتشكيك المصادر الرسمية البريطانية في Berne بصحة اسباب توقف قلب الملك ، نجد أن الشكوك القائلة بأن الملك لم يمت موتا طبيعيا غير بعيدة عن التصديق وخاصة وان الملك ، حسب تصريحه الى مراسل جريدة Daily Mail البريطانية في Berne، قد جاء لاجراء فحوص سنوية طبية عامة[١٦] اي انه لم يأت للعلاج من اجل مرض معين .

عند دراسة تعليقات وردود وزارة الخارجية البريطانية حول موت فيصل ، اضافة الى وثائق اخرى، نجد أن اصبع الاتهام يشير الى طرفين كل واحد منهما كانت له مصلحة ، وهدف في موت فيصل ، كما أن كلا منهما قد تصرف بشكل مريب ومشكوك فيه قبل وفاة الملك فيصل وبعده وهذان الطرفان هما :

١ ـ السلطات البريطانية بواسطة نوري السعيد .

٢ ـ نوري السعيد شخصيا بعلم السلطات البريطانية وهو اقوى الاحتمالات وارجحها .

١ ـ السلطات البريطانية :

رغم اهمية تقرير المفوض البريطاني في Berne والمتعلق بما روته الليدي Paget فان وزارة الخارجية البريطانية لم تول اهتمامها للموضوع بل على العكس حاولت بشتى الوسائل تكذيب ما جاء في رسالة Kennard. لقد كان تعليق مسؤولي وزارة الخارجية بأنه :

«من الافضل ان تترك القضية تموت موتا طبيعيا» .

وعلى ضوء ذلك فقد اجابت وزارة الخارجية البريطانية مفوضيتها في تاريخ ٢١ أيلول بالشكل التالي :

«ان نظرية الليدي Paget بارعة ، كما انها ليست مستحيلة الوقوع . ومع ذلك فان من الصعوبة الاخذ بها لانها لا تتفق مع الشواهد الطبية التي ارسلت الينا من قبل Dodds في أيلول . على اية حال فاننا نشك في حصولنا على نتيجة عند متابعتنا للموضوع . اننا نأمل بأن الليدي Paget ستجعل القصة تموت موتا طبيعيا»[١٨] .

من الواضح جدا أن وزارة الخارجية البريطانية كانت تريد غلق الموضوع تماما وعدم اثارته ، ذلك أن الشواهد الطبية التي ارسلها Dodds والتي اعتمدتها وزارة الخارجية البريطانية لم تكن قاطعة وهذا ما شرحه Dodds في رسالته، بل ان . Dodds كما بينا سابقا اشار بشكل غير مباشر الى وجود احتمال عدم صحة التقرير الطبي . يضاف الى هذا ان رسالة Kennard كانت مبنية على رسالة وكيله Doddsوفي ضوء المعلومات التي قدمت له بعد عودته من اجازته . وعند مقارنة الرسالتين نجد أن رسالة Kennard كانت توضيحا لشكوك Doddsعلى اثر سماع Kennard برواية الليدي وعليه لم يكن هناك اختلاف كبير بين استنتاجات Dodds & Kennard اذا استثنينا من ذلك رواية الليدي Paget .

ولم تكتف وزارة الخارجية البريطانية بارسال التعليمات الى Berne لاغلاق الموضوع بل انها ارادت ان تقنع مفوضها في Berne بأن ما يعتقده غير صحيح فأرفقت اليه مع تعليماتها قصاصة من جريدة الـ Daily Express البريطانية[١٩] والتي نشرت بعد خمسة أيام من وفاة الملك فيصل مقابلة مع المرأة الهندية التي تناولت الشاي مع الملك فيصل قبل موته . تقول الجريدة ان Miss Papsy Pavry قد حضرت لمقابلة محرر الجريدة F.G. Salusbury لتكذيب ما يشاع عن انها هي التي قتلت الملك فيصل بدس السم له . يصف المحرر Miss Pavry فيقول انها امرأة فتية جميلة معروفة جيدا في مجتمع لندن وهي من اصل (Parsee[٢٠]) وابنة احد رجال الدين الباريسيين البارزين في بومبي . غنية وتسافر كثيرا ، كما انها الفت كتابا عن المرأة الفارسية . ويضيف المحرر بأن Miss Parvy قد قدمت الى البلاط البريطاني عام ١٩٢٨ (وهي عادة متبعة في المناسبات الخاصة للعائلة الملكية البريطانية اذ يعلن اسم الضيف القادم بصوت عال للمستقبلين .

ذكرت Miss Parvy في قصتها لمحرر الجريدة ، بأنها كانت قد حلت واخوها الدكتور Jel Parvy ضيفين على الملك فيصل لعدة ايام في مكان اقامته في Bellevue Palace Hotel في Berneوانهم تناولوا طعاما واحدا من نفس الاطباق ، ولو كان هناك سم لمات الجميع وليس فيصل وحده . ويستشف من رواية Miss Parvy انها واخوها وملك الحجاز السابق علي (شقيق الملك فيصل) قد تناولوا الطعام مع فيصل . وتمضي Miss Parvy في روايتها فتقول بانها واخاها والملك السابق علي وفيصل ورئيس التشريفات تحسين قدري كانوا قد غادروا الفندق يوم الخميس (يوم موت فيصل) لتناول الغداء في فندق Victoria الواقع في Interlaken، وان معنويات الملك كانت عالية على الرغم من انه قد تعرض يوم الاثنين الماضي الى نوبة قلبية . وتؤكد Miss Pavry بانها كانت مع الملك طيلة النزهة الى فندق Victoria وانه لم يقل ان لديه صداعا نصفيا «لقد كان بصحة جيدة تماما حتى الساعة السابعة بعد رجوعنا حين اصيب بنوبة قلبية اخرى» . وتقول Miss Pavry

أن ذلك قد ادى الى الغاء حفلة الوداع التي كان الملك يريد اقامتها لمناسبة سفرها مع أخيها في اليوم التالي [الجمعة] الى لندن . وفي الساعة التاسعة استدعاها الملك فيصل واخاها لتوديعهما ، وكان الملك مبتهجا وقد وجه اليهما الدعوة لزيارته في بغداد . وتنهي Miss Pavry قصتها بالقول ان رئيس التشريفات قد اتصل بها هاتفيا في الساعة الحادية عشرة مساء وأخبرها ان الملك نائم ، وفي الساعات الاولى من صباح اليوم التالي دق التليفون ثانية ليقول «لقد مات الملك توا»(٢١).

يوجد تناقض واضح بين ما أدلت به Miss Pavry من معلومات الى محرر جريدة Daily Express لغرض تبرئة نفسها من الشائعات القائلة بدسها السم للملك فيصل ، وبين المعلومات الرسمية التي ارسلتها المفوضية البريطانية في Berne، او المعلومات المتوفرة في وثائق وزارة الخارجية البريطانية . واهم هذه التناقضات التي تدعو الى الطعن برواية Miss Pavry وعدم تصديقها هي :

أ ـ ذكرت Miss Pavry ان الملك قد اصيب بنوبتين قلبيتين الأولى يوم الاثنين والثانية في الساعة السابعة يوم الخميس ، اي يوم وفاته . في حين لم يذكر في تقريري المفوضية البريطانية في Berne ان الملك قد اصيب بنوبة قلبية يوم الاثنين وانما أجري فحص لقلبه ووجد انه سليم ، وكان ذلك قبل يومين من وفاته . اما عن احداث الساعة السابعة من يوم الخميس فان الملك ، حسب رواية الليدي Paget، كان يتقيأ ويشكو من ان شيئا قد اعطي له ليشربه مما سبب له عطشا شديدا وتقيؤاً . ولم تشر التقارير الرسمية الى اية نوبة قلبية بل ذكرت ان القلب توقف نتيجة عجز وكان ذلك لحظة وفاته ، اي في الساعة ١١,٤٥ من مساء الخميس .

ب ـ ورد في رسالة وزارة الخارجية البريطانية الى السفير البريطاني في بغداد بأن Miss Pavry قد غادرت Berne حال وفاة الملك فيصل . كما ذكر تقرير المفوض البريطاني Kennard بأن المرأة الهندية ، اي Miss Pavry قد اختفت في اليوم التالي لموت الملك ، اي الجمعة ، في حين ادعت Misspavry في المقابلة الصحفية بأنها اجلت سفرها الى لندن الى يوم السبت وانها كانت مع الملك علي يوم الجمعة عندما كان يتلقى التعازي في الفندق ، وانها شاهدت جثمان الملك حيث كان يبدو هادئا وسعيدا وكان (يبتسم) (انظر صورة جثمان الملك الذي لم يكن يبتسم) .

جـ ـ تذكر Miss Pavry بأن رئيس التشريفات اتصل بها في الساعات الاولى من صباح يوم الجمعة واخبرها بأن الملك قد (مات توا) في حين ان الملك مات في الساعة ١١,٤٥ من مساء يوم الخميس .

د ـ تدعي Miss Pavry بأنها تناولت الطعام مع الملك في حين انهم تناولوا الشاي عصرا بعد رجوعهم من فندق Victoria حيث تناولوا طعام الغداء هناك .

اضافة الى هذه التناقضات التي تدحض صحة رواية Miss Pavry فان هناك تساؤلات تثير الشكوك حول اسباب وجودها مع الملك . فمن هو الذي عرف فتاة المجتمع اللندني على فيصل لتحل عليه ضيفا ؟ اليس الذين يديرون سياسة ذلك المجتمع هم اقدر على من غيرهم على تدبير مثل هذا الامر ؟. ولماذا كان اخوها (الدكتور) معها ؟ الا يحتمل وجوده معها كان يعني وجود مختص يفهم طرق استعمال المواد السامة وكمياتها ونتائج تناولها ؟

لم تكتف وزارة الخارجية البريطانية بارسال المقابلة الصحفية الى مفوضيتها في Berne بل ارسلتها الى السفير البريطاني في بغداد مع رسالة قالت فيها :

«ان نظرية الليدي Paget بارعة ، كما انها ليست مستحيلة الوقوع . الا انه يبدو ان العراقيين مقتنعون بأن فيصل قد مات موتا طبيعيا ، وعليه يبدو أننا لن نحصل على شيء في متابعة الموضوع الآن . لذلك نأمل ان القصة ستموت بسرعة(٢٢).

عند دراسة العوامل التي كانت تدفع بريطانيا الى التخلص من فيصل نجد أنها عوامل اساسية وخطيرة ويمكن تقسيمها الى ثلاثة :

١ ـ بعد دخول العراق عصبة الامم شعرت بريطانيا بأن الملك فيصل يريد تكوين علاقات سياسية وعسكرية مع ايطاليا . ففي ٢٨ آب ١٩٣٣، اي قبل رجوع فيصل الى Berne بأربعة ايام وقبل وفاته بـ ١١ يوما ، ابرق السفير البريطاني في بغداد الى وزارة الخارجية البريطانية قائلا بأن الملك فيصل قد اخبره شخصيا بأن موسوليني قد ارسل له دعوة لزيارته في طريقه الى سويسرا(٢٣) ولم يوضح فيصل للسفير البريطاني اسباب الدعوة ودوافعها ، الا ان السفير البريطاني كتب الى وزارة الخارجية البريطانية قائلا بأنه يعتقد ان غرض الزيارة هو : «لتقديم مساعدة ايطاليا للعراق عند سحب او تقليل

المستشارين البريطانيين العسكريين والمدنيين الذين يعملون في العراق»(٢٤).

لقد ارسلت وزارة الخارجية البريطانية برقية Humphrys الى كل من وزارة الطيران ووزارة الهند، ووزارة الحربية مع الاشارة الى أن الخارجية ترى توقعات السفير البريطاني حول غرض الزيارة صحيحة. واضافت وزارة الخارجية بأن الملك فيصل كان قد اجل فكرة زيارته لروما رسميا الى السنة القادمة، الا انه كان يرتب للقاء ملك ايطاليا بشكل (شخصي) في ايطاليا قبل عودته الى بغداد، وعليه فانه ليس من المستبعد ان الملك فيصل، الذي عاد فجأة من سويسرا الى بغداد، بسبب ازمة الاشوريين، بدون زيارة ايطاليا سيزور ايطاليا في طريق عودته(٢٥).

الا ان فيصل لم يتمكن من تلبية دعوة موسوليني وزيارة ملك ايطاليا لانه مات بعد ايام قليلة.

ان تحول الملك نحو ايطاليا يشكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية واستراتيجيتها ليس في العراق والوطن العربي فحسب بل وفي منطقة الشرق الاوسط بأجمعها. عليه فانه ليس من المستغرب ان تحاول بريطانيا التخلص من فيصل خاصة وان تاريخ علاقاته السيئة مع السلطة البريطانية خلال فترة حكمه للعراق ايام الانتداب البريطاني معروفة ومدونة في وثائق وسجلات وزارتي الخارجية والمستعمرات.

لمعرفة اسباب توجه فيصل نحو ايطاليا لابد من الاحاطة بسياسة الدولة العراقية بوجه عام بعد دخول العراق عصبة الامم عام ١٩٣٢ ففي المجال العربي توجهت الدولة بدفع من الملك فيصل الى اقامة علاقات وطيدة مع الاقطار العربية وبالذات سوريا وشرقي الاردن وفلسطين ولبنان بأمل تحقيق شكل من اشكال الوحدة العربية(٢٦) وهو ما كان فيصل وجماعته يصبون الى تحقيقه منذ سنوات الانتداب. لذلك عقد العاملون في الحقل القومي والوطني في اقطار المشرق العربي آمالا واسعة عليه في تحقيق الوحدة العربية. وقد وصل الامر الى ان العناصر القومية التي خرجت متكاتفة من المؤتمر الفلسطيني في القدس الذي عقد في اوائل كانون الأول ١٩٣١ دعت الى عقد مؤتمر قومي في بغداد في ربيع ١٩٣٣، اي قبيل (مقتل) الملك فيصل بأشهر قليلة - وقد رحب الملك فيصل بالفكرة ترحيبا كبيرا الا أن السفير البريطاني وقف ضد تحقيق رغبة القوى القومية وحال دون عقده في بغداد.

عندما نربط هذا الموقف بالتوجه نحو ايطاليا نجد انه اتجاه طبيعي بحكم تأريخ ايطاليا الحديث في توجهاتها لتوحيد ارضها والتي كانت رمزا للتحرك القومي في اوروبا. وربما يطرأ في ذهن القارىء بأن توجه فيصل كان نحو بلد اظهر بعد خمس سنوات، وخلال الحرب العالمية الثانية، نزعة عنصرية شوفينية. الا اننا اذا اخذنا بنظر الاعتبار المرحلة التاريخية والظروف التي كانت محيطة بها نجد أنه لم يكن هناك بديل بعد ان خذلت بريطانيا العرب. ان هذا لا يعني بالضرورة ان فيصل كان ذا اتجاهات شوفينية. لقد كان الشعور الفطري القومي في الوطن العربي خلال العشرينات والثلاثينات يميل الى اي شكل من اشكال التوجه القومي من اجل التخلص من الاستعمار والتبعية، ولم يكن هذا الشعور الفطري الذي ظهر على شكل تنظيمات سياسية منذ اواخر الدولة العثمانية يحمل اية سمات عنصرية شوفينية. ان هذا يرتبط تاريخيا بالنفسية العربية التي برهنت خلال حروب التحرير والفتح العربي الاسلامي بأنها لا تريد السيطرة على الشعوب بل تحريرها ودفع الظلم عنها. ولعله من المفيد الاشارة هنا الى ما كان يردده الملك فيصل ردا على اتهامات الصحف البريطانية والاوروبية للعراق باضطهاده الاقليات القومية. فقد كان فيصل يقول: نحن عانينا وثرنا ضد سياسة التتريك العنصرية فكيف لنا أن نتصرف الآن مثلهم.

من كل ما تقدم يمكن أن نستنتج بأن احتمالات محاولات فيصل قطع علاقاته مع بريطانيا وتوجهه نحو ايطاليا كان واردا. عليه فان تخلص بريطانيا من الملك او مباركتها لاية محاولة للتخلص منه، غير بعيدة الوقوع.

ب - ان قضية التخلص من الملك فيصل كانت قد نوقشت عدة مرات من قبل وزارتي المستعمرات والخارجية خلال فترة الانتداب البريطاني ففي عام ١٩٢٢ رفض فيصل تصديق قرار مجلس وزرائه بتوقيع المعاهدة العراقية - البريطانية الاولى ووقف مع القوى الرافضة للانتداب، بل انه دفع هذه القوى للتنديد بالانتداب والمعاهدة بحيث أصبحت مدن العراق الرئيسية تغلي وكانت هناك توقعات بأنبثاق ثورة جديدة شبيهة بثورة العشرين(٢٧). لقد ادى **موقف الملك الحازم من المعاهدة الى استقالة وزارة النقيب في ١٩ آب ١٩٢٢ معلنة انها لا تمتلك ثقة الملك ومؤازرته. في** الوقت نفسه ابرق المندوب السامي Pery Cox ومستشار الملك ووكيل وزارة الداخلية Kenhan

Cornwalls الى وزارة المستعمرات معلنين ان فيصل لا يصلح ان يكون ملكا ابدا ، واتهمه بضعف الشخصية وعدم الاستقرار وخداع بريطانيا(٢٨) .

لقد كتب فيصل في ٢٠ آب الى كوكس قائلا بأنه مضطر ان يبين له ولوزارة المستعمرات فانه في حالة وقوع ثورة في البلاد ، كان المتوقع حدوثها حسب معلوماته السرية ، فإنه اي فيصل غير مسؤول عما سيترتب عليها من مسؤولية . وعليه فقد طلب فيصل من المندوب السامي اما ان يأخذ الحكم على عاتقه أو يفسح له المجال والحرية لادارة شؤون البلاد بالطرق التي يراها مناسبة . الا أن المندوب السامي كتب ردا الى الملك يلقي فيه مسؤولية تردي الوضع على عاتق الملك ولم يصل الرد الى الملك اذ صادف في اليوم التالي احتفالات يوم التتويج وخلالها اعلن طبيب الملك الخاص Sinderson بأن الملك بحاجة الى عملية لاستئصال الزائدة الدودية(٢٩) . قبل اجراء العملية اراد كوكس ان يحصل على تخويل من الملك بقمع الشعب الهائج ضد الانتداب فرفض الملك(٣٠) واجريت العملية ، واصبح البلد بلا وزارة ولا ملك . فاستلم المندوب السامي كوكس السلطة المباشرة وقمع المعارضة مستعملا قواته البرية والجوية في قصف العشائر المعادية. كما زج بالسجون ونفى العديد من المعادين للانتداب ، واغلق الاحزاب والصحف الوطنية(٣١) .

بعد أن تماثل الملك للشفاء ارسل وزير المستعمرات ونستون تشرشل الى الملك فيصل رسالة شديدة اللهجة يهدده فيها ويخبره «بأن بريطانيا لم تعد تصبر على عناده» وان عليه ان يرضخ لسياستها والا فان عليه ان يترك العراق ويعود الى الحجاز(٣٢). حينها وجد الملك فيصل نفسه لوحده بعد أن قمعت القوى المساندة له . ليس فقط هذا فقد كان العراق لا يزال بلا حدود مستقرة تهدده كل من السعودية وايران ، ولم يكن هناك جيش بالمعنى الحقيقي ، في حين كانت ولاية الموصل، اي الالوية الشمالية والشمالية الشرقية مهددة بالضياع والضم الى تركيا . كذلك كان العصاة من الاكراد يسيطرون على كثير من المناطق الشمالية ، ولم يكن هناك من قوة في العراق غير الانكليز ، فهم وحدهم يتمكنون من حل معظم هذه الاشكالات حفاظا على مصالحهم وهم بهذا اقدر من غيرهم على حماية الدولة الفتية من الخطر المحدق بها . نتيجة هذا كله رضخ فيصل للامر الواقع وسكن ، الا ان رضوخه كان مؤقتا .

وما يجلب الانتباه في موضوع عملية استئصال الزائدة الدودية هو ان سندرسن هو الذي قرر ان الملك بحاجة الى عملية جراحية وفي حينها انتاب الشك الكثيرين بأن الامر مفتعل ومدبر لابعاد الملك عن السلطة . وفي عام ١٩٣٣ كان سندرسن نفسه واحدا من افراد حاشية الملك الذين سافروا معه لزيارة بريطانيا ، ويقول سندرسن في كتابه انه هو الذي الح على فيصل كثيرا بأن يسافر الى Berne للراحة ولاجراء فحوص طبية هناك على يد الدكتور Kocher(٣٣). فهل كان سندرسن يدبر امرا ؟

ان استعراضا للعلاقات الفيصلية ـ البريطانية يوضح انه كان هناك نزاع استمر طيلة فترة الانتداب البريطاني على العراق . فقد كان فيصل يلح على الحصول على الاستقلال «التام» وكانت بريطانيا ترفض ذلك . لقد وصل النزاع في عدة مرات الى حد تقديم اقتراحات الى وزارة المستعمرات باقصاء فيصل عن العراق والتخلص منه . ولم تكن وزارة المستعمرات تتردد بالتلويح لفيصل بذلك ، كما حدث عام ١٩٢٢ .

وعلى سبيل المثال لا الحصر فان فيصل بعد عقد معاهدة ١٩٢٦ والتي اصر فيصل ان تضاف اليها فقرة تحدد دخول العراق الى عصبة الامم بعد اربع سنوات من تاريخ ابرام المعاهدة(٣٤)، عزم على تنفيذ قانون التجنيد الاجباري لانه اراد ان يكون للعراق جيش قوي يبعد اي حجة لبريطانيا بالبقاء في العراق باعتباره يحتاج الى المساعدة العسكرية .٧ في حين كانت بريطانيا ترى ان استمرار بقائها في العراق اصبح ضروريا بعد اكتشاف كميات كبيرة من النفط فيه ، وانه اصبح من المستحيل الغاء سيطرتها على العراق لان ذلك سيؤدي الى الاضرار بالمصالح البريطانية والاجنبية . ويضيف Dodds في رسالته المؤرخة في ١٨ تشرين الاول ١٩٢٧ الى وزارة المستعمرات بقوله :

«لقد كان الوضع يختلف تماما عندما كنا نشك بوجود كميات كبيرة من النفط في العراق(٣٥) .

لقد ادى ذلك الى اصطدام فيصل بالانكليز ، ولم يجد مستشارو المندوب السامي ووكيله بوردیلون غير الاصرار على اقصاء فيصل ونفيه خارج العراق(٣٦)، الا ان المندوب السامي Dodds الذي كان باجازة في بريطانيا طلب من وزارة المستعمرات ان لا تأخذ باقتراح وكيله ومستشاريه في بغداد لانه اعتقد ان اقصاء فيصل عن العراق وابقاءه في المنفى كما حدث بالنسبة الى عرابي باشا في مصر ، سيؤدي الى ان يصبح فيصل ، اذا عاد الى العراق اكثر تطرفا وعدوانا ،

ولهذا فمن الافضل ابقاؤه في العراق واتباع اساليب اخرى معه لاخضاعه[٣٧] وقد كانت الوسيلة الناجحة للانكليز هي اثارة واستغلال المشاعر الطائفية التي كان لها تأثيرها على السياسة في العراق خلال تلك الفترة ، فشجعت دائرة المندوب السامي البريطانية هذا الاتجاه لمقاومة التجنيد الاجباري بحجة أن ذلك سيؤدي الى سيطرة فئة معينة عليهم[٣٨] . فدفعتهم لاقامة الاجتماعات والتظاهرات التي توجت بعقد مؤتمر بتاريخ ١٢ ـ ١٤ ايلول ١٩٢٧ ، حيث تقرر فيه مقاومة التجنيد الاجباري والعمل على اسقاط الوزارة الائتلافية التي كانت تمثل البلاط وحل البرلمان المساند لها[٣٩] . في الوقت نفسه اخبر المندوب السامي الحكومة العراقية والملك فيصل بأنه في حالة تحرك العشائر وقيامهم بعصيان مسلح نتيجة فرض التجنيد الاجباري فان القوات البريطانية المرابطة في العراق لن تتدخل لصالح الحكومة العراقية في قمع مثل هذا العصيان[٤٠] وهكذا اسقط بيد الملك وتقرر تأجيل النظر في لائحة التجنيد الاجباري رغم احالتها الى البرلمان للتصديق عليها .

لقد كان الانكليز يعتقدون ان فيصلا يريد من استقلال العراق وقوته تحقيق «احلامه الواسعة» في تكوين الامبراطورية «الامبريالية العربية»[٤١] حسب تعبيرهم ، فقد كتب وكيل المندوب السامي البريطاني الى وزارة المستعمرات بتاريخ ٢٨ تموز ١٩٢٧ قائلا بان فيصل يهدف الى تقوية مركزه ضد المندوب السامي لغرض ايقاف تدخل الاخير في شؤون الحكومة العراقية ، وان فيصل كان يقول دائما بأن العراق ليس مؤهلا لان تكون له حكومة دستورية برلمانية ، ولهذا فانه يعتقد بأن مصطفى كمال في تركيا ورضا شاه في ايران يقودان بلديهما بشكل جيد ، وعليه فانه لا يرى هناك سببا يمنعه من اتباع السياسة التي يتبعانها[٤٢] .

من كل هذا ومن خلال ما دونته الوثائق الرسمية البريطانية نجد أن الملك فيصل كان ندا للانكليز في العراق ، وان محاولته التخلص من الانكليز نهائيا والاتجاه لكسب مؤازرة دولة اخرى بعد دخول العراق عصبة الامم ، ربما تكون قد افقدت الانكليز صبرهم حين وجدوا ان فيصلا قد اصبح خطرا يتهدد وجودهم في العراق ، فكان لابد من التخلص منه . ولعل ما نشرته جريدة الـ Daily Mail اللندنية ، عند زيارة فيصل الاخيرة لبريطانيا ، غير بعيد عن الواقع ، فقد ذكرت بأن :

«الدوائر المختصة في لندن كانت تشك كثيرا في ان الملك فيصل سيعود الى العراق بعد استشفائه في سويسرا[٤٣] .

جـ ـ كانت بريطانيا تريد اما ان تتخلص او ان تشتري الاشخاص الذين شهدوا وعاصروا تطور العلاقات بين بريطانيا والشريف حسين ، حين نقضت وعدها بتأسيس الدولة العربية الواحدة ، فقد بدأت خلال تلك الفترة وما بعدها تؤكد على ان الشريف حسين كان انسانا خرفا غبيا لم يفهم ما كان يريد وما كانت بريطانيا تريد اعطاءه . وكان هدف بريطانيا من كل هذا انهاء اي تحرك نحو اي شكل من اشكال الوحدة . ان هذا الهدف قد بدأ يظهر في الوقت الحاضر على شكل دراسات اكاديمية في الجامعات العبرية ، موجهة من قبل الصهاينة ، تريد اثبات ان مطاليب العرب بتشكيل دولة عربية لهم لم يكن بالشكل الذي كتب عنه وان فلسطين لم تكن ضمن مطاليب الشريف حسين .

ولما كان فيصل مبعوثا لوالده الى مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الاولى ، فانه احد الشواهد التي لم يتمكن الانكليز من تحجيمها لهذا فان عملية التخلص منه كانت واردة واذا ما رجعنا الى تعقيب السفير البريطاني في بغداد حول الكلمات القومية التي القيت بمناسبة مرور ٤٠ يوما على وفاة فيصل، والتي دعت الى وحدة بين سوريا والعراق نجده يطمئن وزارة الخارجية البريطانية بالقول :

«أود ان أؤكد هنا بأن رئيس الوزراء ووزير الداخلية قد اكدا لي حاليا بأن الحكومة الحاضرة (العراقية) لا تنوي مساندة سياسة الوحدة مع سوريا والتي هي (اي الوحدة) عزيزة جدا على قلب المرحوم الملك فيصل»[٤٤] .

٢ ـ نوري السعيد :

هناك احتمالان حول دور نوري السعيد في عملية «قتل» فيصل ، الاول هو ان نوري السعيد قرر شخصيا التخلص من الملك فيصل ، والثاني هو ان الانكليز قد استعملوا نوري السعيد كأداة تنفيذ للتخلص من فيصل . واغلب الاعتقاد أن نوري السعيد قرر التخلص من فيصل بعلم السلطات البريطانية .

بقدر تعلق الامر بنوري السعيد شخصيا فقد كانت علاقته بالملك فيصل جيدة جدا الى حين تشكيله اول وزارة له عام ١٩٣٠، بعدها بدأ نوري السعيد يتصرف كمركز قوة ، وهذا ما كان يمقته الملك فيصل الذي كان يريد ان يكون هو السلطة العليا ، والوزارة يجب أن تكون تابعة له لا للانكليز ولا لاي محور آخر . لقد كان امله ان

يدخل العراق عصبة الامم ليتخلص من السيطرة البريطانية ويصبح ملكا مستقلا يتمكن من تصفية كل آثار معاهدة ١٩٣٠ وغيرها . لهذا نجد أن الملك فيصل كان قد اصطدم مع عبد المحسن السعدون حين حاول الانكليز ان يضعوه الى جانبهم ضد الملك(٤٥). وحين اوشك حلم فيصل ان يتحقق بالغاء الانتداب البريطاني على العراق ، بدأ نوري السعيد يتصرف كقوة بديلة للملك فيصل ، وعليه كان لابد من ان يصطدما ، وكان لابد من أن يتخلص احدهما من الآخر . لقد تفجر الصراع بينهما بسبب قضية تتعلق باضراب ١٩٣١ حين كان مزاحم الباجه جي وكيلا لرئيس الوزراء نوري السعيد الذي كان خارج العراق ، لقد اتخذ الباجه جي اجراءات قسرية شديدة ادت الى انتقاد كثير من النواب والوزراء له ولاجراءاته الطائشة ، كما وصفت، الا ان نوري السعيد التزم الباجه جي وسانده عند عودته الى العراق(٤٦) . ما نريد من الموضوع هو ان منشورات مكتوبة بالآلة الطابعة وزعت خلال الاضراب في العاصمة تتهم امين العاصمة بانه قد سمح لزوجته ان تكون عشيقة للملك فيصل من اجل الحصول على رعاية الملك ومساندته في نيل مناصب حكومية عليا(٤٧) . بعد اجراء التحقيق الذي استمر حتى عام ١٩٣٢، وحينها كان نوري السعيد قد اضطر ان يعزل الباجه جي من وزارته ويشكل وزارة جديدة ، وجد أن مزاحم الباجه جي كان مسؤولا عن طبع وتوزيع هذه المنشورات . عندها طلب الملك من وزير العدلية جمال بابان ان يتخذ الاجراءات اللازمة لتجريد الباجه جي من حصانته البرلمانية ، باعتباره نائبا ، من اجل القاء القبض عليه ومحاكمته . الا ان نوري السعيد لم يوافق على ذلك وطلب من وزيره ان لا ينفذ أمر الملك . لقد اغضب تصرف نوري السعيد هذا الملك كثيرا فأرسل بطلب وزير العدلية واعلمه بأنه لن يسمح باتخاذ اي اجراء يراد منه انقاذ الباجه جي وان الامر يجب ان يحال الى البرلمان لان الاتهام باطل من اساسه . لم يجد عندها الوزير بدا من احالة الموضوع الى مجلس النواب مما اثار نوري السعيد فوبخ وزيره الذي استقال حالا(٤٨).

اتصل نوري السعيد بالمندوب السامي البريطاني واخبره بأنه سيستقيل كرئيس للوزراء ، بل وصرح بأنه سينتحر بسبب معاداة الملك فيصل له . عندها تدخل المندوب السامي وعقد اجتماعا بين الثلاثة حضره كورنواليس دار خلاله نقاش طويل تبادل فيه الملك ونوري بعض العبارات الشديدة ، واخيرا ومن خلال جهود كورنواليس، اصلح المندوب السامي بين الملك ورئيس وزرائه كما اتفق على ضرورة سفر نوري السعيد الى لبنان حالا للراحة(٤٩) .

خلال وجود نوري السعيد في لبنان فاجأ الملك مجلس وزرائه والسلطات البريطانية بتعيين الد خصوم نوري السعيد ، رشيد عالي الكيلاني ، رئيسا للديوان الملكي بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٣٢(٥٠) . لقد كان رشيد عالي قد استقال من عضوية مجلس النواب معتبرا المجلس الذي جرى انتخابه تحت سلطة نوري السعيد هو مجلس مزور ومصطنع ، كما هاجم هو وياسين الهاشمي معاهدة ١٩٣٠ التي عقدها نوري السعيد مع بريطانيا واتهما نوري السعيد بالتفريط بمصالح الامة وحريتها(٥١) .

بعد عودة نوري السعيد من لبنان سافر الى جنيف لحضور مراسيم اعلان عضوية العراق في عصبة الامم ، وفي يوم ٢٦ تشرين الأول ١٩٣٢، اي قبل موت الملك فيصل بحوالي عشرة اشهر ، وصل نوري السعيد الى بغداد عائدا من جنيف ، وحالما قابل الملك طلب منه الاخير ان يستقيل حالا لانه يريد وزارة تضم جميع القوى الوطنية وعندما تدخل وكيل المندوب السامي H.Young سائلا فيصل عن اسباب طلبه من نوري السعيد الاستقالة ، تحدث فيصل لاكثر من ساعة عما ارتكبه نوري من اعمال مخالفة للقانون والعرف ثم اضاف الملك قائلا :

«انني اعمل بنصيحتك القائلة بأن لا اضع سلطة مطلقة في يد عدوي» .

فعقب Young بالقول بأن هذا لا يشمل نوري السعيد . على اية حال فان الملك اصر على استقالة نوري وحينما اخبر Young نوري بذلك عقب نوري السعيد بالقول بأن سبب الخلاف بينه وبين فيصل يعود الى ان الاخير «كان دائما يستغل موقعه كملك ليضمن مصالحه الشخصية ومصالح بطانته» وقدم نوري لوكيل المندوب السامي امثلة على ذلك قائلا بأنه لا يتوقع ان يتحمل ذلك اي رئيس للوزراء يحترم نفسه . ثم اضاف نوري السعيد بأنه يعرف جيدا بأن الملك لا يتفق مع وجهة نظره السياسية والتي تعتمد على ما خططت وتخطط له بريطانيا ، عليه فانه لا يتمكن من العمل كرئيس للوزراء الا أنه في الوقت نفسه كشف لوكيل المندوب السامي ما كان يخطط له لكي يصبح هو السلطة العليا في البلاد وهو ان يعهد الآن الى ناجي شوكت أو أي شخص آخر مستقل بتشكيل وزارة جديدة في حين يقف نوري السعيد

جانبا . بعدها ستواجه الوزارة الجديدة صعوبات كثيرة بسبب ضعفها وستسقط وسيدعى هو ، اي نوري السعيد، لتشكيل وزارة وفق شروطه . عندها سيشترط ان يعمل كوزير للخارجية اذا قبل برنامجه في وزارة يرأسها ياسين الهاشمي ، ليس لانه يثق بالهاشمي بل لانه سيكون عند ذلك في موقع يتمكن منه «من احباط مشاريع ياسين وانقاذ الملك من نفسه» .

وهذا هو النص بالانكليزية مقتبس من رسالة Young الى وزارة المستعمرات يخبرهم فيها بخطط نوري السعيد للمستقبل :

Only under Yasin Pasha, If his Programme was acceptable, would he serve as Foreign Minister, not because he trusted him but because he would then be in aposition to defeat Yosin's Schemes and Save King Faisal from himself.(52)

ولا اعلم كيف اراد نوري السعيد ان (ينقذ الملك من نفسه) ان انقاذ العدو من نفسه قد يكون بقتله . على اية حال بعد أن قدم نوري السعيد استقالته الى الملك عاد فاجتمع بوكيل المندوب السامي Young وكورنواليس وصرح لهما :

«ان عداء الملك له يعود بشكل رئيس الى غيرة الملك منه . كما اشتكى بأن جلالته قد ذهب الى حد انه اجتمع بمحرري الصحف المحلية ووبخهم بقسوة ومرارة لنشرهم مقالات اطروا فيها على نوري السعيد لخدماته التي قدمها للوطن . لقد كان نوري مقتنعا بأن الملك قد قرر ان لا يعطيه الفرصة ليعلن للبرلمان نتائج زيارة جنيف ، وان الملك مستعد للتضحية بأي شيء من اجل ارضاء غيرته التافهة»(٥٣) .

الغريب في الأمر ان مخطط نوري السعيد نفذ تماما ، اذ يبدو ان يونج وكورنواليس قد اشارا على الملك بتعيين ناجي شوكت ، الذي شكل وزارته في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٢ . لقد كان تعليق وكيل المندوب السامي الى وزارة المستعمرات حول تشكيل الوزارة الجديدة كما يلي :

«انه ليس من المرجح ان تستمر هذه الوزارة لمدة طويلة وان الملك سيواجه مرة اخرى مسألة الاختيار بين صديقه الحقيقي (ويقصد بهم الهاشمي والكيلاني وجماعتهما) و(عدوه الخفي ويقصد به نوري السعيد) الا اذا نجح في الجمع بينهما ، ان الملك يعتبر ذلك سياسة حكيمة .

اضافة الى ذلك فانني لا اتفق مع نوري باشا بأن مناوراته هذه تعود اساسا الى ميله لتغيير المواقع عندما يحصل على احد اعوانه على منافذ معينة تؤدي الى تحويل الانتباه العام عن الموضوع الاساسي . انه لا يمكن النكران بأن نوري كان ناجحا جدا خلال العشر سنوات الماضية في ابقاء علاقاته حسنة مع كل الاطراف السياسية كما انه على الرغم من ان الاساليب التي اتبعها كانت معرضة للانتقاد الا ان النتائج التي توصل اليها تبرر هذه الانتقادات»(٥٤).

ويضيف وكيل المندوب السامي بأن الشيء الوحيد الذي كان يخشاه هو ان يراهن نوري السعيد في (لعبته السياسية هذه) على قضايا قد تضر بالمصالح البريطانية في العراق(٥٥) .

يمكن أن نفهم من كل هذا ان نوري السعيد كان يناور لصالح بريطانيا ولصالح مجيئه كحاكم مطلق في العراق منذ تشكيل الدولة العراقية . وعليه فان تحالفاته مع القوى المعادية للانتداب خلال فترات معينة لم يكن عن ايمان وانما عن تخطيط مسبق كان للسلطات البريطانية في العراق علم به . وهكذا فان الاعيبه ومناوراته الاخيرة مع الملك فيصل كانت تتويجا لجهود طويلة الامد وانه كان يراهن على كل شيء من اجل الوصول الى السلطة المطلقة ولهذا نلاحظ ان الانكليز كانوا يخشون ان يذهب بعيدا في رهانه فيضر بدون قصد بمصالحهم الاستعمارية في العراق .

استمر تنفيذ مخطط نوري السعيد بالشكل الذي خطط له اذ ان عمر وزارة ناجي شوكت لم يكن طويلا ، فقد استقالت في ١٨ آذار ١٩٣٣(٥٦) اي بعد حوالي اربعة اشهر من تشكيلها . وفي ٢٠ آذار ١٩٣٣، اي قبل حوالي خمسة اشهر من موت الملك فيصل ، شكل رشيد عالي الكيلاني ، رئيس الديوان الملكي ، الوزارة الجديدة ، ولم يكن يختلف عن ياسين الهاشمي في شيء فهما من حزب واحد وهو حزب الاخاء وعملا سويا ضد نوري السعيد . المهم في الامر ان نوري السعيد اصبح وزيرا للخارجية ، وهو ما كان يخطط له ، كما اصبح ياسين الهاشمي وزيرا للمالية(٥٧).

بعد شهرين ونصف من تشكيل الوزارة سافر الملك فيصل الى بريطانيا ومنها الى Berne وكانت حاشيته مؤلفة من :

١ ـ نوري السعيد وزير الخارجية .
٢ ـ رئيس التشريفات .
٣ ـ المرافق شاكر الوادي .
٤ ـ الدكتور H.Sinderson(٥٨) .

وفي سفرة الملك الثانية الى بيرن بعد رجوعه الى العراق على اثر عصيان الاثوريين ، كان نوري السعيد والملك السابق علي ورستم حيدر وتحسين قدري رئيس التشريفات معه[٥٩] . وعند دراسة تصرفات نوري السعيد حال وفاة الملك وربطها بما كان يخطط له نوري قبل اشهر قليلة بجد ان الشكوك تحوم حوله بشدة . يذكر تقرير المفوض البريطاني في بيرن بأن جثة الملك فيصل «قد حنطت بسرعة مريبة» وعند دراسة موقف نوري السعيد نجد أنه هو الذي اصر على ان تحنط الجثة حالا وتنقل الى العراق برفقته ورفقة الملك علي . لقد سأل نوري السعيد وكيل المفوض البريطاني في بيرن بأن يخبره حالا فيما اذا كانت السفن الحربية البريطانية جاهزة «غدا» لنقل الجثمان الى مصر أو فلسطين واذا لم يكن كذلك فانه اي نوري سيرتب لمغادرة الجثمان «هذه الليلة» لكي يرسل على ظهر «سفينة تجارية»[٦٠] .

مع اختفاء المرأة الهندية واصرار نوري على تحنيط الجثمان بسرعة ونقله حالا اي يوم ٨ ايلول ، ترد ملاحظة هامة وهي هل ان نوري السعيد كان يخشى ان يكشف شيء ما مما يؤدي الى فحص الجثة من جديد وهي في بيرن ولهذا اصر على الرحيل حتى ولو كان ذلك على ظهر «باخرة تجارية» وهو امر لا يليق بنقل جثمان ملك . يضاف الى هذا ان امورا غريبة حدثت في بغداد حال وفاة الملك قام بها صهر نوري السعيد جعفر العسكري . فقد ذهب العسكري الى السفارة البريطانية في يوم ٨ أيلول ، أي حال وصول خبر وفاة الملك وقبل مضي ٢٤ ساعة على الوفاة ، لموضوع يتعلق بطلبات نوري السعيد حول نقل جثمان الملك فيصل من ميناء ايطالي ثم الى فلسطين أو مصر ومنها الى بغداد ان مهمة العسكري الاساسية لم تكن حول هذا الموضوع لانه فاتح السفير البريطاني بأمور خطيرة جدا ، فقد انتقد الملك فيصل وقال انه :

«رغم محاسن فيصل فانه لا يستطيع «اي العسكري» ان لا يشير الى ضعفه (اي ضعف فيصل) وعدم ادراكه ابدا اهمية سحق اعدائه الحقيقيين بل على العكس فانه رعاهم وكان في النتيجة ان لدغوه (كالعقرب) ثم استطرد العسكري قائلا بأنه «لا يفضل ان يصبح ولي العهد غازي ملكا بعد والده ويرى من الضروري استدعاء الامير زيد ، الوزير المفوض في تركيا ليصبح ملكا على العراق» ان الامير زيد ، كما قال العسكري ، شجاع ومقدام «ولو كان حاكم العراق (يقصد الملك فيصل) يمتلك مثل هذه المؤهلات لما تكن السريان مطلقا من التحرك ضد السلطة»[٦١] .

من الملاحظ أن جعفر العسكري كان وزيرا مفوضا دائما للعراق في لندن[٦٢] وانه قد عاد الى بغداد باجازة ، وعليه فان قضية نقل الجثمان يجب أن تقوم بترتيبها وزارة الخارجية ولا علاقة لجعفر العسكري بالموضوع ، ولهذا فان حضوره الى السفارة البريطانية بهذه السرعة وادلاءه بهذه التصريحات الى السفير البريطاني امر مشكوك فيه وبناء على ذلك هناك احتمال بأن الامر كان قد رتب مسبقا بين السعيد وصهره العسكري . يضاف الى ذلك ان العسكري كان يتحدث مع السفير البريطاني باسم نوري السعيد ، ويفهم من حديثه بأنه والسعيد كانا غير راضيين على الملك فيصل لانه اعتمد على اشخاص غير مخلصين له ، اي للملك . وفي تقديري ان العسكري كان يقصد بذلك رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني ووزير المالية ياسين الهاشمي ومجموعتهما .

الغريب في الامر أن العسكري ذكر في حديثه للسفير البريطاني بأن الاشخاص الذين رعاهم الملك «قد لدغوه كالعقرب» فهل كان العسكري يشير الى أن الملك قد قتل وان ذلك تم على يد اعوانه وليس نوري السعيد ، وبهذا يمكن توجيه ضربة قاضية لاعوان الملك ، وهم بالذات قيادة حزب الاخاء والتي تقود الوزارة برئاسة الكيلاني ووزير المالية الهاشمي ؟ واذا كان كذلك فهل هذا يعني أن السفير البريطاني في بغداد لم يكن على علم بمخطط نوري ؟ ام أن العسكري كان يشير على السفير البريطاني بأن توجيه الاتهام الى مجموعة الملك المقربة سيبعد الشبهة عن الانكليز ؟ مهما تكن الاجابة على هذه الاسئلة فان هناك حقيقة مهمة اخرى هي ان العسكري كان يريد التخلص من ولي العهد الشرعي الامير غازي وهو المعروف بعدم ميله الى الانكليز ، خاصة وان غازي الان يتمتع بشعبية كبيرة جدا بعد قيادته واشرافه شخصيا على العمليات التي قامت بها وزارة الكيلاني ضد تمرد الاثوريين مما ادى الى انهاء ذلك التمرد . ان المظاهرات التي عمت بغداد تأييدا لوزارة الكيلاني في قمعها التمرد كانت تهتف بحياة الامير غازي وحياة حزب الاخاء[٦٣] .

من هذا يمكن أن نستنتج أن السعيد كان يريد التخلص من الامير غازي واعوان والده الذين اصبحوا يتمتعون بتأييد شعبي ، وان العسكري عند اشارته للسفير البريطاني بذلك كان يلمح له بأن هذه العملية ستجنبهم اية مشاكل كتلك التي اثارها فيصل في حياته . ان الامير زيد ، الذي لن

يتمكن بأية حال من الاحوال ان يسد الفراغ الكبير الذي ولده موت فيصل ، او ان يكسب التأييد الشعبي الذي يملكه غازي ، سيكون العوبة بيد نوري السعيد وبريطانيا .

ان فكرة التخلص من الامير غازي اريد تنفيذها فعلا ، اذ يذكر السفير البريطاني هامفريس بأن تتويج الامير غازي ملكا قد تأخر قليلا بسبب اصرار العسكري على عدم تتويجه لانه شاب غير مجرب ولا يمكنه السيطرة على الوضع الحرج في البلاد(٦٤) ، على اية حال لم يقدر لعملية ابعاد الامير غازي عن العرش ان تنجح، الا ان نوري السعيد بذل كل جهوده لانهاء التحالف الذي كان قائما ايام الملك فيصل بين البلاط ومجموعة الاخاء ، وقد ظهر ذلك جليا في موضوع عزم الملك غازي الاقتران بابنة ياسين الهاشمي بدلا من ابنة عمه الاميرة عالية بنت الملك السابق علي والتي اعلنت خطوبتها للملك غازي بشكل مفاجيء وبعد ثلاثة أيام فقط من وصول جثمان والده الى العراق(٦٥). لقد اثار هذا الامر نوري السعيد فسافر هو وجعفر العسكري حالا الى الاردن وطلبا من الامير عبدالله التدخل لمنع الزواج(٦٦). يذكر ناجي شوكت في مذكراته انه حضر جلسة مستعجلة فوق العادة عقدها مجلس الوزراء وكان نوري السعيد في حالة هياج شديد ويردد قائلا (هاي عايزه) يصبح ياسين عم الملك وبعد اخذ ورد قرر المجلس اقناع الملك غازي بضرورة العدول عن ترجيحه الاقتران بابنة ياسين الهاشمي على ابنة عمه ، وعليه اتخذت التدابير المستعجلة لعقد القران في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٤(٦٧)، وبهذا ابطل نوري السعيد قضية زواج لو قدر لها ان تتم لاصبح اعداء نوري عائلة واحدة مع الملك غازي ، وبتعبير آخر مع البلاط ، مما كان سيحطم جميع مخططات نوري في السيطرة المطلقة على الحكم في العراق بعد موت الملك فيصل . السؤال الذي يرد هنا : لماذا تمت خطوبة غازي على ابنة عمه بهذه السرعة ، وماذا اكتشف غازي ليحاول فسخ خطوبته من ابنة عمه والزواج بابنة ياسين ؟ هل لهذا الامر علاقة بالتطورات التي رافقت موت الملك فيصل ام انه مجرد نزوع شخصي لا علاقة له بالسياسة ؟ واذا كان كذلك فلماذا تحرك نوري السعيد وجعفر العسكري والامير عبدالله للمحافظة على استمرار خطوبة غازي للاميرة عالية ابنة الملك السابق علي الذي كان مع نوري السعيد عند موت فيصل في Berne، ان التطورات التي شرحناها ومنها محاولة عدم تتويج غازي لا تجعلنا نعتقد ان المسألة كانت مجرد نزوة من قبل الملك غازي .

يلاحظ من هذا انه كانت هناك عملية كبيرة الحجم يمكن أن يقال عنها بأنها محاولة انقلاب واسعة ابتدأت بالتخلص من فيصل وانتهت بمحاولة انقلاب واسعة فاشلة لانهاء غازي واعوان الملك من جماعة حزب الاخاء . تبقى مسألة واحدة مهمة قد تبدو خارجة عن الصدد وهي مقتل الملك غازي عام ١٩٣٩ بحادث سيارة غامض واتهام الناس لنوري السعيد بالتعاون مع عبدالاله ـ ابن الملك السابق علي وشقيق عالية زوجة غازي .. هل هناك علاقة بين محاولة العسكري والسعيد ابعاد غازي عن العرش بقضية مقتله ؟ وهل كانت عملية قتل غازي امتدادا جديدا لمخططات نوري السعيد ايام صراعه مع الملك فيصل ؟ ان القاتل لا يتردد عن القتل مرتين اذا لم يحقق غرضه في المرة الاولى . ان وجود فترة خمس سنوات بين تتويج ومقتل غازي ليست طويلة في عمر التاريخ . ان دراسة علمية تحليلية جادة في ضوء التطورات السياسية قد تخرج بنتيجة ما عن الموضوع .

الخلاصة

بعد كل هذا لابد وان يكون حكم حول الموضوع . ورغم ميلي الشديد الى الاعتقاد بأن الملك فيصل الاول قد قتل مسموما على يد نوري السعيد بعلم من بريطانيا ، الا انني لا يمكنني ، للامانة التاريخية ، ان اجزم بذلك ، بسبب وجود ثغرات لم اتوصل الى حقيقتها امل أن يقوم الباحثون والمختصون بتحليلها وتغطيتها وهي :

١ ـ ان موقف الملك السابق علي الذي كان برفقة فيصل في Berne غامض ، فلا يوجد هناك دليل ضده كما لا توجد دلائل تشير الى اية علاقة بينه وبين نوري السعيد او مصلحة تجعله يقف ضد شقيقه فيصل او يحاول اخفاء شيء لصالح نوري على حساب فيصل . وهناك احتمال كبير بأن الملك السابق علي لم يكن يعرف ما كان يدور حوله من مؤامرات رغم وجوده مع الملك ، خاصة وانه معروف بعدم حذاقته ، من ناحية اخرى لا يوجد للملك السابق علي اي تصريح او اشارة حول تقيؤ الملك فيصل أو ما شابه ذلك ، ولم اعثر في الوثائق العراقية او البريطانية التي اطلعت عليها ما يقدم دليلا ماديا حول اي دور له للتخلص من فيصل .

٢ ـ لم يكن نوري السعيد والملك السابق علي وحدهما برفقة فيصل في Berne بل كان معهما كل من رستم حيدر وتحسين قدري ولا يوجد لدي اي دليل يشير الى مشاركتهما لنوري في مناهضته لفيصل او محاولته التخلص منه ، كل الذي نعرفه ان الجميع عادوا الى بغداد قائلين بانهم حضروا اللحظات الاخيرة من حياة الملك حين استدعائهم بواسطة ممرضة للحضور حالا(٦٨) .

الا انه من الملاحظ ان حاشية الملك هذه قد اشاعت حال موت الملك فيصل في Berne بان معالجة Kocher غير الجيدة قد سببت موت الملك . ويذكر تقرير وكيل المفوض البريطاني Dodds في Nerne وفي تقريره عن موت فيصل بانه قد علم من حاشية الملك بأن فيصلا قد اشتكى من الارهاق والتعب بعد ظهر اليوم الذي مات فيه ، وقد ذهب مبكرا الى فراشه . ويضيف Dodds بان المناهضين للدكتور Kocher قد ادعوا بان معالجته غير الكفوءة كانت السبب في موت الملك(٦٩) .

ان هذا الموضوع يرتبط بما كتبه السفير البريطاني F. Humphrys الى حكومته نقلا عن تحسين قدري . يذكر السفير ان تحسين قدري أخبره بانه وبقية الحاشية قد حضروا لحظة وفاة الملك وان صحة الملك كانت متدهورة منذ رجوعه من Berne على اثر عصيان الاثوريين ، وسبب تدهور صحة الملك يعود الى حر شهر آب وعدم نومه نوما كافيا، كما أنه لم يكن يتغذى بشكل كاف . ثم اضاف تحسين بأنه يعتقد بأن معالجة Kocher غير الكفوءة للملك هي التي عجلت بوفاته ، واشار قدري الى ان رئيس جمهورية سويسرا قد حذر الملك فيصل بحضوره ، اي بحضور تحسين قدري ، بأن Kocher مشعوذ ودجال وان ثلاثة اشخاص قد ماتوا لحد الآن من جراء معالجته ويضيف السفير ان قدري اكد له بأن الملك كان متعبا جدا بعد رحلته بالسيارة وقبل تناوله الشاي ارسل في طلب Kocher الذي زرقه بابرة وفحص قلبه وقال انه في حالة جيدة .

عند نقله رواية تحسين قدري الى حكومته هاجم Humphrys الليدي Paget بشدة ووصفها بانها انسانة غريبة الاطوار وان هدفها من روايتها تخليص Kocher من التهمة العالقة به عن معالجته الفقيرة لفيصل والتي (سببت) وفاة الملك(٧٠) .

ان رواية تحسين قدري التي رواها السفير البريطاني تتناقض مع تصريح المرأة الهندية Pavry الى محرر الديلي اكسبريس لانه لم يشر الى حدوث نوبة قلبية للملك بعد تناوله الشاي . كذلك فان هناك علامة استفهام حول نصيحة رئيس جمهورية سويسرا للملك لانه في مثل هذه الحالة فان فيصلا كان لابد وان يفكر في استبدال طبيبه ولا يهمل الموضوع بهذا الشكل ؟ ثم لماذا اثارت قصة الليدي Paget السفير البريطاني بحيث انه هاجمها بشدة في رسالته الى وزارة الخارجية ؟ كلها اسئلة تحتاج الى اجوبة .

لقد تسنى لي بعد فترة من كتابه هذا البحث الالتقاء بتحسين قدري بناء على طلبه اثر اطلاعه على البحث . كان اللقاء في داره الواقعة قرب جسر الجمهورية في جانب الكرخ . وقد قال لي في معرض حديثنا عن الموضوع بأن الملك فيصل الاول قد قتل الا انه لم يقل من الذي قتله . فاذا كانت هذه هي الحقيقة فان اصابع الاتهام تشير الى نوري السعيد بعلم من بريطانيا .

بعد هذا كله هل يمكن فحص رفات الملك فيصل الأول الآن للتأكد من وجود الزرنيخ الذي يبقى في الاطراف وجذور الشعر مهما مرت السنين ؟

الهوامش

١ ـ للاطلاع على تفاصيل رحلة الملك فيصل الاول انظر :

Mrs. Stevart Erskine, King Faisal of Iraq, London 1933, PP.258 — 263, Sir Harry G. Sindorson Pasha, Ten Thousand and one Nights. PP142 — 155.

(٢) عبد الرازق الحسني ، الوزارات العراقية ، صيدا 1953 ، جـ 4 ، ص ص 209 - 270

(٣) المصدر السابق ، جـ 3 ، ص ص 283 - 284 .

(٤) المصدر السابق ، 4 ، ص 284 .

(٥) لاأعلم بالضبط هل قصد الخطيب ، في اشارته الى ثورة 1922 ثورة 1920 ، أم أنه فعلا كان يشير الى عام 1922 ، لأن هذا العام ، 1922 ، كان قد تميز بتحرك جماهيري شامل ضد الانتداب البريطاني والمعاهدة العراقية البريطانية الاول ، وكان الملك فيصل وراء هذا التحرك ، وقد أوشكت الامور أن تفلت من نصابها لولا تسلم المندوب السامي البريطاني السلطه المباشره في العراق على اثر استقالة الوزارة واصابة الملك بالزائدة الدوديه حيث قمعت الحركة الناهضة للانتداب واستعملت القوات الجوية والمشاة في قصف العشائر المعاديه ومهاجمتها . للاطلاع على تفاصيل هذا الموضوع انظر :

محمد مظفر الادهمي ، المجلس التأسيسي العراقي ـ دراسة تاريخية سياسية ، بغداد 1916 ، ص ص 197 - 240 .

6 - British Government, Archives - No.8, Eastern Iraq), Confidential, Section 1, 20th September 1933. E5536/5250/93), From the Acting Concul, Frank. H. Todd, Damascus, to Sir John Simon, London, the Foreign Office, 12th Septemper, 1 33 Letter) No 41. In: F.O. 371, 16924/E5536. P.R.O. London.

7 - Ibid.

8 - Britsh Government, Archives - No. 8. Eastern Iraq(Confidential, Section 1, 23th September 1933 E 5536/5250/93), From the Consul General Sir H.E. Satow, to Sir John Simon, Foriegn Office, London, 13th September, 1933 Letter) No. 87. In: F.O. 371. 10924/E5640. P.R.O.

(٩) المقصود بالتنظيمات القوميه هو التنظيمات التي كانت ذات صفه قوميه وكانت في هذه الفتره تقاد من قبل عناصر برجوازيه ولهذا لم تكن تمتلك نظريه قوميه معينه دائما مجرد شعور قوي وحدوي ومن هذه التنظيمات الكتلة الوطنيه وعصبة العمل القومي وسوريا الفتاة .

10 - British Government Archives No. 8, Eastern Iraq). Confidential, Section. 1, 6th November 1 33, E6747/5250 3), From Sir F.H. Humphrys, to Sir John Simon, 26th October 1933, 10 - In. 683. In: F.O. 371,

11 - From. H.W Kennard, Berne, to G. W. Rendel, London 14th September. 1933. (Letter) No. 211/7/33. In: F.O.371. 16924/E551. P.R.O.
انظر الملحق رقم (١)

12 - John Glaister. Medical Jurisprudence and Toxlcology, London 1953, pp. 539 - 540.

13 - Idib

14 - From Dodds, Berne, to Sir John Simon, London, 9th September, 1933, (Letter) No. 226 (211/6/33). In: F.O. 372. 2976/T10190 P.R.O

15 - Lbid.

(١٦) الحسني ، المصدر السابق من 282 .

17 - Minutes of Forlegn Office. In : F.O. 371% 16924/E551. P.R.O.

18 - From G.W. Rendel, London, to Sir H. Kennard, Berne, 21 St, September 1933. (Letter - Personal and Secret) No. E5519/5250/93. In F.O. 371. 16924/E 5519.

19 - Extract from the Daily Express. In: F.O. 371. 16924/E551. P.R.O.

Secret) No. P.O.5. In: C.O. 730, 92/2021. P.R.O; peter Sluglett. Britain in Iraq, 1914 - 1932, London 1976, pp. 154 - 157.

5 - Memorandam by Sir Henry Dobbs 12th October. 1927. In: C.O. 730, 123/40455. P.R.O.

36 - Ibid.

37 - Ibid.

38 - From the Acting High Commissioner, Baghdad, to the colonial Office, 5th August 1927. (Letter) NO. Secret D. In: C.O. 730. 123/40465 P. P. O9 Memorandum by Sir Henry Dobbs, 18th October, 1927. In : C.O. 750, 123/40465.

39 - Note on political Situation to 27th September. 1927. Secret. In: C.O. 730, 123/40465.

40 - From the High Commissioner, Dobbs, to the prime Minister, al - Askari, 12th Moy 1927 (Letter - Confidential) No. P.O.154. In C.O. 730. 108/40004 P.R.O.

41 - From Bourdillon, the Acting High Commissioner, Baghdad, to Shuckburgh Middle East Department, Colonial Office, London, 28th July 1927. (Letter - Secret) No. S.O. 1618. In: C.O. 730. 123/40465.

42 - From Bourdillon, the Acting High Commissioner, Baghdad, to Amery, the Secretary of State for the Colonies, London 5th August 1927 (Letter). Secret D. In: C.O.730. 123/40465. P.R.O.

43 - British Government, Archives - No. 8, Eastem (Iraq). Confidential, Section 1, 20th September 1933 E5536/5250/93) Fromthe Acting Concul, Frank. H. Todd, Damascus, to Sir John Simon, London the Foregn Office, 12th September, 1933 Letter) No. 41. In: F.O. 371. 16924/E5536. P.R.O.

44 - Ibid.

45 - M.M.H. Al - ADHAMI, Political Aspects of the Iraqi parliament and Election Processes, 1920 - 1932. London university, thesis, for ph. D. 1978. pp. 204 - 206, 217 - 223, 226 - 227.

46 - The High Commissioner Office, Intelligence Report, 28th October 1931. no22, Para, 384. In: I.O.R. L/P+S/10/1313. P.Z. 7056.

الحسني . المصدر السابق . الجزء الثالث ص 147

٢٠ ـ البارسي : هو الزرادشتي المنحدر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومبي وغيرها .

21 - Extract from the Daily Express. In : F.O. 371, 16924/ E 5519. P.R.O

22 - From G.W. Rendel, London, to Humphrys Baghdad, 21 st September 1933. (Letter - draft) IN: F.O. 371, 16924/E551. P.R.O.

23 - From F. Humphrys, Baghdad, to the foriegn Office, London, 28th August 1933 (Tel) No. 308. In: F.O. 311, 16915/E5006 P.R.O.

24 - ibid

25 - Minutes of the Foriegn Office. In: F.O. 371, 16915/ E5006. P.R.o.

٢٦ ـ أنيس الصايغ . في مفهوم الزعامه السياسيه من فيصل الأول الى جمال عبد الناصر بيروت ص ص ٢٣ ـ ٥٨ .

٢٧ ـ لمعرفة تفاصيل هذا التحرك انظر البرقيات المتبادله بين المندوب السامي البريطاني Percy Cox ووزارة المستعمرات للفترة من 26 تموز الى 7 ايلول 1922 تحت عنوان :

Iraq Treaty, From the Secretary of State for the Colonies, to the Cabinet (London) Secret No. C.P. 4178. Printed for the Capinet, Sept 1922. In F.O. 371, 7771/E9258 and C.O. 370. 34/45078. P.R.Political Development. London 1937. pp. 350 - 362.

الادهمي . المصدر السابق . ص ص 197 - 240 .

28 - From the High Commissioner, Cox, Baghdad, to the Secretary of State for the Colonies, W. Churchill, August, 24th, 28th, 1922 Tels) In: C.O. 730. 24/42997 43046.

29 - Ireland, Op.Cit, pp. 347 - 352.

الحسني . المصدر السابق ص ص 79 ,85 .

30 - From the High Commissioner, Cox, Baghdad to the Secretary of State for the Colonies, W. Churchill, 26th august, 1922 (Tel). No. 605 In: C.O. 730, 24/42829 P.R.O.

31 - Ireland , op. Cit, pp. 359 - 360.

الحسني . المصدر السابق . ص ص 83 - 86 .

32 - From the Secetary of State for the Colonies to the High Commissioner for Iraq, 29th August, 1922 (Tel) Private and Personat) No . 492. In: C.O. 730, 24/43045. P.R.O.

33 - Sir Harry C. Sinderson pasha, Ten Thousand and One Nights London, 1973, p. 152

34 - From King Faisal, , to the Acting High Commissioner, 30th December, 1925 (Letter - Secret) In: C.O. 730 92/872; from the Acting High Commissioner, Baghdar, to the prime Minister, al - Sa'dun 9th January, 1925 (Letter -

47 - Intelligence Report, 30th May 1932, no. 11. para 202. In: I.O.R., L/P+S/10/1313, P.Z. 7056.

48 - Intelligence Report, OP. Cit. Para 20p.

49 - (ibid) P. 203.

(٥٠) جريدة العالم العربي ، ٢٨ حزيران ١٩٣٢ .

(٥١) الحكومة العراقية - محاضر مجلس النواب ، ١٩٣٠ ، ص ٥١٧ .

52 - British Goverment. Archives no.8, Eastern John Simon 3rd November. 1932, Letter - 1933, E 5950/3950/93), From Sir H, Young to Sir John Simon, 3rd November, 1932. (Letter - Secert) No. 1060 In: F.O. 371.1604/E5950. P.R.O.

53 - Ibid.

54 - Ibid

55 - Ibid.

(٥٦) الحسني ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ص ٢١١ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

60 - From Dodds, to Foriegn Office, 8th Sept. 1933 (Tel.) No. 11 In: F.O. 371, 2978/T1007. P.R.O.

61 - Minutes of the Foriegn Office Signed by J.C. Burult Dated 8th Sep. 1922 In: F.O. 371, 16924/E5250. P.R.O.

(٦٢) لقد كان جعفر العسكري من المحسوبين على الملك فيصل هو ونوري السعيد وكان الملك يعتمده ويثق به . فقد ألف العسكري وزارتين أيام الملك فيصل الاول عام ١٩٢٤ والثانية عام ١٩٢٧ والوزارتين كانتا ممثلتان للقصر . وعندما ألف نوري السعيد وزارته عام ١٩٣٠ أصبح العسكري وزيرا للدفاع وشغل منصب وكيل رئيس الوزراء خلال فترات غياب السعيد من العراق اضافة الى منصب وزير الخارجية . بعد استقالة وزارة السعيد على اثر اصطدامه مع الملك عين جعفر العسكري وزيرا دائما في لندن .

(٦٣) الحسني ، المصدر السابق ص ص ٢٧٥ - ٢٧٦ وسامي القيسي ، ياسين الهاشمي بين عامي ١٩٢٢ - ١٩٣٦ ، بغداد ١٩٧٥ ، الجزء الثاني ص ص ١٦٠ - ١٦١ .

64 - From H. Hunmphrys. Baghdad, to the Foriegn Office Tel. In: F.O. 371 16224/E5265. P.R.O.

(٦٥) الحسني المصدر السابق ص ١١ وسامي القيسي ز ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٦٦) ان عبد الرزاق الحسني أرسل لي عندما كنت في لندن الأجزاء الاربعة الأولى من كتابه الوزارات العراقية طبعة ١٩٧٤ وقد أضاف السيد الحسني بخط يده موضوع سفر العسكري والسعيد الى عبد الله ، على الصفحة رقم (١١) في الموضوع الخاص بعقد قران الملك غازي ١ .

(٦٧) ناجي شوكت ، سيرة وذكريات ثمانين عاما ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

68 - From H. Hunmphrys, Baghdad, to Rendel, Foriegn Office, 5th October, 1933, Letter) - Person - Secret) In: F.O.371, 16924/E6202 P.R.O.

69 - From Dodds, Bereue to Sir John Simon, Foriegn Office, th September 1933, Letter) No. 226 211/6/–33)%. In: F.O.372, 2978/T101 O.P.R.O.

70 - From H. Humphrys, Baghdad, to Rendel Foriegn Ofice 5th October 1933 Letter - Personal - Secret) In: F.O. 371, 16924/E6202. P.R.O.

No. 211/7/33

الملحق رقم (١)

BRITISH LEGATION
BERNE.
September 14, 1933.

رسالة كنراد الى لندن

Rear Rendel,

I have been surprised to find on my return from leave that a certain degree of credence is attached to the rumours which have been circulated to the effect that Faisal did not meet with a natural death. I should not pay attention to the gossip which usually circulates in a town of this provincial nature, but lady Paget, who is here under treatment with Kocher and who has, as you will remember, more serious knowledge of medical cases owing to her experiences while nursing in Serbia at the beginning of the War, has expressed to me the following views which, while they sound like an Edgar Wallace nivel, cannot be entirely disregarded. She further knows most of the doctors, nurses and other persons who attended Faisal, and has questioned them closely.

She saw Faisal after his return from his motor drive on the day of his death and thought that he was looking particularly well. He returned from kocher's clinic, where she saw him, to his hitel where, according to her information, he had tea at about 6 o'clock. It appears that he had with him an Indian woman of comely appearance with whom, it is stated, he had intimate relations and with whom he is believed to have quarrelled a day or so before his death. Lady Paget has not yet been able to ascertain who was present while he was taking his tea or by whom it was served, but at about 7 o'clock he felt suddenly ill and sent for Kocher, his doctor. On his arrival he complained of a burning thirst and on being given something to drink he vomited violently which, while this is possible in heart attacks, is usually the result of poisoning. Lady Paget severely criticizes Kocher for having lost his head at this juncture and for not having taken steps to examine the contents of the vomit. Later he felt better and asked to be left alone, but shortly before his death he again complained of violent pains and owing to the continual strain of retching on an empty stomach, he expired. As we have reported, his death was attributed to arterio - sclerosis, despite the fact that two days previous to his death the doctors had reported that there was nothing seriously wrong with his heart. No adequate "post mortem" examination was made, his body was embalmed with suspicious celerity and the woman is said to have disappeared the day after his death. All these features have convinced Lady Paget, who is making further enquiries, that Faisal did not mect with a natural death. I cannot, of course, in any way vouch for the truth of what she has told me, but pass it on to you in view of the fact that it is not merely the ide gossip of ill - informed person.

It is difficult to suppose that three doctors of some importance and the authorities generally should in any way endeavour to hush up any suspicions they may have had in a country like Switzerland, but it certainly remains a fact that there are certain suspicious circumstances connected with the events which preceded and followed Faisal's death.

Should there be any foundstion for these allegations it would be interesting to know whether it was the lady who administered the poison and whether she did so because of a lovers' quarrel, or at the instigation of a political agent. There is, of course, the possibility that it was suicide. However, as I have said, it all sounds too much like a detective novel and no doubt you may have information which completely explodes these theories.

Yours ever

No. 226
(211/6/33)

BERNE
September 9, 1933

Sir,

I have the honour to report in confirmation of may telegram No. 10 of yesterday that His Majesty The King of Iraq died of heart failure at his hotel in Berne late in the evening of September 7.

2. His Majesty had arrived in Berne on his return from Bagdad on September 2 and had resumed his cure under Doctor Kocher. A day or two before His Majesty's death Doctr Kocher requested an eminent heart specialist of Berne, Doctore Schorer, to examine The King's heart. Doctor Schorer discovered that the heart was not in good condition but not, I understand, that there was anything seriously wrong with it. The examination made after death, however, which was required for the death certificate, showed that there was severe arteriosclerosis of the heart organs, and this was given by the doctors as the cause of death.

3. I learn from His Majesty's entourage that King Faisal complained of fatigue in the afternoon of the day of his death and retired early to bed. He had motored for luncheon to Interlaken and this, in the condition he was in and owing to the severity of the treatment he was undergoing with Doctor Kocher, was presumably too much for him. It is, of course, commonly alleged here by those opposed to Doctor Kocher's unorthodox methods that he is really responsible, but Doctor Kocher has covered himself by obtaining Doctor Schorer's diagnosis and by the death certificate, which was signed by three doctore, referred to above. What is more difficult to explain is the failure of Doctor Schorer to discover the very serious condition of His Majesty's heart.

4. I called on Nuri Pasha early yesterday morning to express my condolences and also on ex-king Ali of the Hejaz who has been staying in the same hotel at Berne for some time and has also been undergoing the Kocher treatment. He appeared to be much affected. Nuri pasha asked me to convey the news of His Majesty's death to Sir Francis Humphrys. I did this, as I had the honour to report to you in my telegram No. 10 of yesyerday.

5. The Swiss Government intimated to me yesterday morning that they were anxious to do everything in their power to pay respect to His Majesty. The Vice - President of the Confederation, Monsieur Pilet - Golaz, and Monsieur Motta, Federaal Councillor, head of the Political Department, called, accordingly, on Nuri pasha and on ex - King Ali to express the condolences of the Federal Council, and Monsieur Motta was present this morning at the station when Nuri pasha, ex - King Ali, and King Faisal's entourage left with the coffin for Brindisi.

6. As stated in my telegram to Bagdad of last night, of which I had the honour to transmit to you a copy in my telegram No. 12, Nuri Pasha has asked the Secretary - General of the League of Nations if in the circumstances the discussion of the Assyrian question can be postponed. I understand that this can probably be arranged, in which case Nari Pasha intends to return to Bagdad with the coffin.

7. There is a number of eulogistic references to His Majesty in the Swiss Press this morning, but none which call for special comment.

I have the honour to be, with the highest respect,

Sir,
Your most obedient,
humble Servant,

[illegible]. Dodds

الوثائق والمخطوطات

اعداد : د.حسين محمد القهواتي
اتحاد المؤرخين العرب

التاريخ ينساب في شتى العلوم والآداب

يرتبط بها ويتفاعل وإياها ولكنه يتميز عنها من

حيث انصبابه على الماضي بالذات

بينما هي نتيجة الى أغراض

وغايات أخرى

١ ـ تعريف بالوثائق الروسية والسوفييتية المتعلقة بايران ومنطقة الخليج العربي واماكن حفظها..

ازداد اهتمام روسيا القيصرية بايران و«منطقة الخليج العربي» في العصر الحديث ازديادا كبيرا وبخاصة منذ عهد بطرس الكبير (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) الذي وجه انظار بلاده الى الهند مرورا بالمياه الدافئة عبر الخليج العربي. ووجد هذا الاهتمام انعكاسا واضحا في سيل التقارير الدبلوماسية والمكاتبات السرية والدراسات الروسية الخاصة وهي في مجملها تتضمن اندر الوثائق التي تؤلف مجلدات ضخمة تضم دفتا كل واحد منها ادق المعلومات المفيدة التي بوسعها القاء الضوء على شتى جوانب تاريخ ايران و«منطقة الخليج العربي». ويكتب لنا الدكتور كمال مظهر أحمد التفصيلات الوافية عن الارشيفات الروسية والسوفييتية في فصل من كتابه .. دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر، نلخصها في باب الوثائق والمخطوطات لاهميتها بالنسبة للمؤرخ العربي المهتم بالدراسات التاريخية المتعلقة بايران ومنطقة الخليج العربي. يذكر الاستاذ الدكتور كمال أن الوثائق الدبلوماسية باجماع الآراء تؤلف مصادر اصيلة لا غنى عنها لكل بحث علمي رصين، يتصدى لمعالجة موضوع تاريخي حديث ويضفي طابعها الموضوعي بحكم سريتها والغرض الذي استوجب وصفها قبل عشرات السنين اهمية استثنائية على الوثائق تلك.

اولى الروس حفظ الوثائق جانبا كبيرا من اهتمامهم منذ عهد بطرس الكبير الذي اسس قبل وفاته بفترة وجيزة أول ارشيف تاريخي في بطرس بورغ باسم «الارشيف الرئيسي لشؤون الدولة القديمة» وبعد وفاته بثلاثة اعوام اسس في العاصمة الروسية اول ارشيف اكاديمي تحول فيما بعد الى نواة «ارشيف اكاديمية العلوم السوفييتية» وبعد ذلك التاريخ ظهر تباعا عدد كبير من مراكز حفظ الوثائق في مختلف مدن روسيا. وفي الوقت الحاضر يوجد في الاتحاد السوفييتي ما لا يقل عن عشرة مراكز رئيسية لحفظ الوثائق التي يخص قسم كبير منها مختلف قضايا الشرق. ويتميز «ارشيف سياسة روسيا الخارجية» بثروته الوثائقية الغنية والنادرة في هذا الميدان. وينطبق القول نفسه على الوثائق المحفوظة في «الارشيف الحربي ـ التاريخي المركزي الحكومي» وعلى محتويات عدد من المراكز الفرعية لحفظ الوثائق،

يأتي في مقدمتها «الارشيف التاريخي الحكومي المركزي» في مدينة تبليس عاصمة جورجيا السوفييتية ، و«الارشيف الحكومي المركزي» بمدينة لينينغراد .

وبعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ تعهد النظام السوفييتي الجديد بنشر جميع المعاهدات والاتفاقات السرية التي عقدتها الحكومة القيصرية السابقة مع الدول الكبرى وغيرها مما دشن بداية للكشف عن جانب مهم من محتويات الارشيفات الروسية الخاصة . وتم نشر حوالي مائة معاهدة وعدد كبير من الوثائق والمراسلات الدبلوماسية السرية في الصحف المحلية .. وتتابع بعد ذلك نشر مجموعات اخرى من وثائق الارشيفات الروسية التي تضم جميعها معلومات نادرة بعضها في غاية الاهمية .. ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣١ و١٩٤٠ نشرت باشراف لجنة من المتخصصين مجموعة كبيرة جدا من وثائق الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة في مجلدات تحمل عنوان «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» وثائق ارشيفات الحكومة القيصرية والحكومة المؤقتة ١٨٧٨ ـ ١٩١٧، تتضمن السلسلتان الثانية والثالثة من المجموعة المذكورة مراسلات القيصر والخارجية والجهات العليا الروسية الاخرى مع سفراء روسيا في مختلف اقطار العالم فضلا عن عدد كبير جدا من التقارير القنصلية والوثائق الدبلوماسية والمعلومات الصحفية وغيرها من المواد الارشيفية التي تعود الى الفترة الواقعة بين ايار ١٩١١ حتى تشرين الأول ١٩١٢ وكانون الثاني ١٩١٤ حتى نيسان ١٩١٦ وهي فترة تمثل احدى ذروات الصراع الدولي عشية الحرب العالمية الاولى وفي سنواتها . وتحتوي هذه المجموعة على عدد كبير من الوثائق المدونة بلغات اخرى نشرت بنصوصها الاصلية مع ترجمتها الروسية . والمجلدات العشرة هي «العلاقات الدولية» التي احتوت الفترة الواقعة بين كانون الثاني ١٩١٤ ونيسان ١٩١٦ تضمنت اخطر الوثائق السرية التي نشرت لاول مرة في التاريخ ، وقد اعترف العلماء باهميتها القصوى كما ترجم جزء منها الى اللغة الألمانية ، لذا فان وثائق «العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» تؤلف معينا للمؤرخين الغربيين والشرقيين على حد سواء .

ومن المهم أن نشير الى أن بعض مجلدات « العلاقات الدولية في عصر الامبريالية» تتضمن مجموعة من اندر الوثائق تخص العلاقات الايرانية ـ العراقية في سنوات الحرب العالمية الاولى عندما حاولت بعض الاطراف الدولية تحويل العراق الى احدى ادوات مساومتها السياسية .

ومن جهة اخرى باشرت وزارة الخارجية السوفييتية منذ عام ١٩٦٠ نشر مجموعات جديدة من وثائق روسيا القيصرية تحت عنوان «السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وثائق وزارة الخارجية الروسية » وهي تتضمن المراسلات والتقارير ونصوص المعاهدات والاتفاقيات وغيرها من الوثائق الدبلوماسية منذ أن تأسست أول وزارة للخارجية الروسية في العام ١٨٠٢، وتتألف من ست مجموعات طبعت منها حتى الآن المجموعتان الاولى والثانية ضمن «التسلسل الاول» ويحتوي وثائق الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠١ ـ ١٨١٥ و«التسلسل الثاني» ويحتوي وثائق الفترة الواقعة بين عامي (١٨١٥ ـ ١٨٣٠) اما المجموعات الاربع المتبقية فمن المقرر أن تتضمن وثائق الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٠ ـ ١٩١٧ ..

.. وكذلك باشرت وزارة الخارجية السوفييتية منذ عام ١٩٥٧ بنشر «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي» في مجلدات حسب التسلسل الزمني .

ويعلق الدكتور كمال في آخر بحثه ، نحن من احوج الناس الى الاطلاع على «مضامين الارشيفات الروسية والسوفييتية» الامر الذي يدعو الى اهتمام خاص من لدن المؤسسات التي تعنى بالدراسات التاريخية في بلادنا .

---

٢ ـ دليـــل الارشيـف العثماني

يحتل مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول ، موقعا متميزا بين الهيئات الاساسية لمنظمة المؤتمر الاسلامي ، وقد تقرر تأسيسه في المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الاسلامية المنعقد في استانبول عام ١٩٧٦، واتخذ المؤتمر الاسلامي التاسع المنعقد في دكار عام ١٩٧٨ قرارا بوضع نظامه الاساسي ، وبدأ المركز اعداد برامجه ووضع اسس نشاطاته في عام ١٩٨٠ وفقا لهذا النظام . وقدم برنامج عمله الأول الى المؤتمر الاسلامي الحادي عشر في اسلام اباد ١٩٨٠ وتمت المصادقة عليه ، وانتخب المؤتمر الاسلامي الثاني عشر المنعقد في بغداد في حزيران عام ١٩٨١ مجلس ادارته الاول من بين ابرز العلماء والمختصين في ميادين التاريخ والآداب والفنون بناء على اقتراح الامين العام لمنظمة المؤتمر لمدة ثلاث سنوات مثلوا معظم الدول الاسلامية .. ومنذ ذلك الحين باشر المركز بتحديد عدة مشاريع للبحث وفقا لما جاء في نظامه الاساسي وشرع في انجازها وذلك بالبحث عن المعلومات اللازمة وجمعها ، وعند تحديد مشاريع البحث اخذ المركز بعين الاعتبار المواضيع التي تهم الدول الاعضاء في منظمة المؤتمر الاسلامي . وقد تمكن منذ انشائه من انجاز ابحاث خلال المدة المحددة لذلك ووفقا لبرامج عمله وقد نشر المركز لحد الآن الكثير من النشرات والأدلة والكتب والفهارس والاشرطة الوثائقية والببلوغرافيا ، والابحاث والالبومات المصورة والكتالوجات والوثائق .. الخ . يمكن الاطلاع على تفاصيلها في النشرات الاخبارية التي يصدرها المركز والتي صدر منها حتى نيسان ١٩٨٦ احد عشر عددا .

والذي يهمنا تعريفه في هذا الباب من مجلتنا هو «دليل الارشيف العثماني الذي سيصدر باللغة العربية والانكليزية» ، وهو دليل لتسهيل عمل الباحثين في الارشيف العثماني وبخاصة وثائق الدولة العثمانية المحفوظة بدار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء باستانبول وهذه الوثائق تعتبر من أهم المراجع التاريخية ، للمهتمين بتاريخ الاقطار العربية الحديث نظرا لتنوعها وندرتها سيما وان الفهرس الشامل لها يقدم معلومات دقيقة عن كيفية الاستفادة منها . ومن الجدير بالذكر أن هذا الدليل سينشر في طبعته العربية بالتعاون مع الجامعة الاردنية حيث تم التوقيع على اتفاقية بين المركز والجامعة لتنفيذ هذا المشروع المشترك .

وقد نشر المركز صفحة من هذا الدليل على الغلاف الاخير من نشرته الصادرة في نيسان ١٩٨٦ تحت عنوان «من على المطبعة» مع تعليق جاء فيه .. النص المنشور على هذه الصحيفة (والذي سنعيد نشره ادناه) جزء من كتاب «دليل الارشيف العثماني» الذي تنتظره الكثير من المؤسسات العلمية في العالم والذي كان امنية بعيدة المنال لكل الباحثين في موضوعات التاريخ الحديث بمنطقة الشرق الاوسط .. وعلاقة ذلك بالخلافة الاسلامية والدولة العثمانية ، وسيتضمن العدد الجديد من النشرة الاخبارية لمركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول ، تعريفا مفصلا عن هذا الكتاب وثمنه اذا امكن للمطبعة ان تنتهي من كل اجراءات الطبع .

فالى هذا الدليل الهام نلفت انظار المؤرخين العرب المهتمين بمثل هذه الدراسات ، وادناه اعادة نشر صفحة من هذا الدليل والذي نشر عن الغلاف الاخير . من العدد ١١ من النشرة الاخبارية للمركز تحت عنوان من «على المطبعة» وذلك لتقدير قيمته واهميته ..

٣ ـ اخبار المخطوطات

١ ـ كتب مدير معهد المخطوطات العربية ، الدكتور عبدالكريم جمعة ، في نشرة «اخبار التراث العربي» الصادرة من معهد المخطوطات العربية في الكويت في العدد الرابع والعشرين ، نيسان ١٩٨٦ «... بهذا العدد نختتم الاعداد التي صدرت في نشرة اخبار التراث العربي في السنتين الماضيتين وبه يكتمل المجلد الثاني لما صدر منها منذ انتقال المعهد الى الكويت ، وذكر بان هذا العدد خصص للفهارس كما سبق وان تم في ختام المجلد الاول ، واشار الى رصد ما ورد في جميع ابواب النشرة في فهرسين شاملين ، احدهما للمخطوطات والكتب والآخر للاعلام من المؤلفين والمحققين والباحثين والمراجعين .

ومن جهة اخرى اعلنت النشرة عن صدور مجموعة من المخطوطات والفهارس تحت اشراف المعهد بينها مخطوطات الادب في المتحف العراقي اعداد اسامة ناصر النقشبندي وضمياء محمد عباس ، وفهرس المخطوطات العربية ، في مكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية اعداد الدكتور نزيه كسيبي ، ومخطوطات السيد محمد باقر الطباطبائي في كربلاء ، اعداد سلامة هادي طعمة .

فالى هذا العدد من اخبار التراث العربي والى الفهارس الصادرة عن معهد المخطوطات العربية ، نلفت انظار المهتمين بالمخطوطات والتراث ويمكنهم المراسلة على العنوان الآتي : الكويت ، معهد المخطوطات العربية ص.ب ٢٦٨٩٧ .

٢ ـ اشارت النشرة الاخبارية ، لمركز الابحاث والتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول في عددها الحادي عشر الصادر في نيسان ١٩٨٦، الى صدور فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي ، وتحتوي هذه المكتبة الشهيرة على احدى اهم مجموعات المخطوطات الاسلامية في العالم ، اذ تضم ٢٧٧٣ مجلدا تحتوي على ٣٥٠٠ عنوان في التاريخ والفلسفة والدراسات الاسلامية والعلوم الطبيعية وغيرها . وقد اصدر المركز فهرسا لهذه المخطوطات القيمة في ثلاثة مجلدات تقع في ٢٠٠٠ صحيفة ، تشمل مقدمة الفهرس معلومات حول تاريخ هذه المجموعة وشرح للمنهج العلمي المتبع في اعداد الفهرس وهناك صور لنماذج من بعض المخطوطات الاصلية . يحتوي المجلد الاول على مجموعة مخطوطات كوبرلي فاضل احمد باشا والمجلد الثاني على ما بقي من هذه المجموعة بالاضافة الى مجموعة حاجي حافظ احمد باشا بن نعمان باشا . اما المجلد الثالث فيشمل مجموعة محمد عاصم بك ، احد افراد عائلة كوبرلي العريقة .

«ثمن المجموعة كاملة (٣ مجلدات) ٦٠ دولارا امريكيا اما المجلد الواحد فثمنه ٢٥ دولارا عدا مصاريف البريد وقدرها ٥ دولارات» .

يمكن طلبها على العنوان الآتي :
قصر يلدز ـ سيركوشكي
اسطنبول ـ تركيا ..

سيرة مؤرخ

بموجب قرار الجمعية العامة لاتحاد المؤرخين العرب القاضي بمنح المؤرخين المبدعين وسام المؤرخ العربي ونظرا لتكريم عدد من المؤرخين الذين اسهموا في اغناء التاريخ العربي بنتاجاتهم، نبادر الى نشر السيرة العلمية لكل منهم تباعا .

الاسم الكامل : **الدكتور فاضل حسين كاظم الانصاري**
محل وتاريخ الولادة : بعقوبة/ ١٩١٤
الدراسة الابتدائية : مدرسة بعقوبة الابتدائية ١٩٢٣ ـ ١٩٢٩
دار المعلمين الاولية : ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢
التعليم في المدارس الابتدائية : ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩ (من ١/ ١٠/ ١٩٣٢)
الشهادة الثانوية : القسم الادبي ، طالب خارجي ١٩٣٨
بعثة : مدرسة اللغات في بغداد ـ الجامعة الامريكية في بيروت ١٩٣٩ ـ ١٩٤٣
بكالوريوس في التاريخ الحديث : مرتبة الشرف
التدريس في المدارس الثانوية : ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨
بعثة : جامعة انديانا في الولايات المتحدة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢
شهادة الماجستير : ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ رسالة الماجستير : المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٢ .
شهادة الدكتوراه : ١٩٥٢ ـ مرتبة امتياز ، رسالة الدكتوراه : مشكلة الموصل
التخصص : التاريخ الحديث دار العلوم السياسية .
مدرس في دار المعلمين العالية : ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦
استاذ مساعد في دار المعلمين العامة (كلية التربية) ١٩٥٦ ـ ١٩٦٣
استاذ مشارك في كلية التربية : ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦
استاذ في كلية التربية : ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨
رئيس جامعة الحكمة في بغداد : ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩
استاذ في كلية الآداب/ جامعة بغداد : ١٩٦٩ ـ ١٩٨٢
التدريس في جامعة الرياض : ١٩٧١ ـ ١٩٧٢
الاحالة الى التقاعد : ١١ شباط ١٩٨٢ ـ مع لقب استاذ متمرس .
التدريس في قسم الماجستير والدكتوراه في كلية الآداب وكلية القانون والسياسة في جامعة بغداد .
الاشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه في كلية الآداب وجامعة المستنصرية ومعهد البحوث والدراسات العربية في بغداد .
مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراة في كلية الآداب وكلية القانون والسياسة والجامعة المستنصرية ومعهد البحوث والدراسات في بغداد وفي جامعة الكويت (١٩٧٦) .
القاء محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة وبغداد ١٩٥٨، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٨٤ .
المشاركة في ندوة جامعة الدول العربية ـ المؤتمر الثقافي الثالث في بغداد (١٩٥٧) .
محاضرة في الجمعية التاريخية المصرية (١٩٧٤) .
المشاركة في ندوة مركز بحوث الشرق الاوسط في جامعة عين شمس في القاهرة (١٩٧٦) .

النتاج العلمي :

أولا : «المقالات القديمة» :

١ ـ اوقات الفراغ نعمة ونقمة ، في مجلة المعلم الجديد ، المجلد الأول ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ، اعيد نشره في جريدة الصباح ، العدد ٣، في ٢٧ تموز ١٩٣٥ .

٢ ـ «نحن والتاريخ» في مجلة الرابطة ، السنة الأولى ، العدد الثاني ، ١ نيسان ١٩٤٤ .

٣ ـ «من عصبة الامم الى منظمة السلامة الدولية» في مجلة الرابطة ، العدد ٢١ السنة الاولى ، ٧ مارس ١٩٤٥ .

٤ ـ «في شؤون المعارف» في جريدة صوت الاهالي ، ٢٣ تشرين الثاني ـ ٣ كانون الاول ١٩٤٥ .

ثانيا : الكتب :

١ ـ مشكلة الموصل ، دراسة في الدبلوماسية العراقية ـ الانكليزية ـ التركيـة وفي الرأي العام ، رسالة الدكتوراه (بغداد ط١ : ١٩٥٥ ـ ط٢ : ١٩٦٧ ـ ط٣ : ١٩٧٧ ـ ط٤ : معدة للطبع) .

٢ ـ محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية ـ معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ـ قسم الدراسات التاريخية (القاهرة، ١٩٥٨) .

٣ ـ كومونة باريس ، فصل في تاريخ الاشتراكية (بغداد ، ١٩٥٩) .

٤ ـ تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي (بغداد، ١٩٦٣) .

٥ ـ سقوط النظام الملكي في العراق ـ معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العـربية للتربية والثقافة والعلوم ـ قسم البحوث والدراسات التاريخية (القاهرة، ١٩٧٤ ـ بغداد ١٩٨٦) .

٦ ـ مشكلة شط العرب ـ معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (القاهرة، ١٩٧٥) .

٧ ـ الفكر السياسي في العراق المعاصر ـ معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ قسم البحوث والدراسات التاريخية (بغداد، ١٩٨٤) .

ثالثا : البحوث :

١ ـ «كتاب التاريخ في المدارس الثانوية ، بحث قدم الى المؤتمر الثقافي الثالث الذي اقامته جامعة الدول العربية في بغداد ـ نوفمبر ١٩٥٧ ـ (القاهرة : ١٩٥٨) .

٢ ـ «من الثورة في تاريخ الفكر السياسي »، في مجلة المعلم الجديد ، الجزءان الثامن والتاسـع ، المجلد الثاني والعشرون (بغداد، ١٩٥٩) .

٣ ـ «مفهوم التاريخ» ـ محاضرة القيت في الموسم الثقافية في كلية التربية/ جامعة بغداد في ١٩٦٧، نشرت في ملحق العدد ١٥ من مجلة الاستاذ (بغداد، ١٩٦٩) .

٤ ـ «جون لوك ـ فصل من تاريخ الديمقراطية» بحث نشر في كتاب بحوث في التاريخ الحديث ، مهداة الى الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم (القاهرة، ١٩٧٦) .

٥ ـ «تعدد الاحزاب والحزب الواحد» بحث القي في ندوة التغير الحضاري لمنطقة الشرق الاوسط في العصر الحديث ـ ١١ ـ ١٤ ديسمبر ١٩٧٦ (جامعة عين شمس ، مركز بحوث الشرق الاوسط ، ١٩٧٦) .

٦ ـ «طبيعة ثورة العشرين في العراق» في مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد ـ العدد ٢٨ ـ في مايس ١٩٨٠ .

٧ ـ «جمعية الجوال ، فصل في تاريخ القومية العربية في العراق المعاصر» في مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد ، المجلد ٣٣/ العدد٢/ كانون الأول ١٩٨٢ .

٨ ـ «جمعية الرابطة الثقافية» فصل في تاريخ الديمقراطية في العراق المعاصر ، في مجلة دراسات في التاريخ والآثار ومجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق ، العدد ٢، سنة ١٩٨٢ .

رابعا : «المقالات» :

١ ـ «فيصل الأول والصهيونية» في مجلة المعلم الجديد ـ جزء خاص بالثورة، الجزء السادس ، تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٥٨ ، المجلد الحادي والعشرون (بغداد، ١٩٥٨) .

٢ ـ «طبيعة الثورة الفرنسية» في مجلة الاجيال ـ العدد الحادي عشر ـ كانون الثاني ١٩٦٧ .

٣ ـ «موقف المؤرخ العربي من القضية الفلسطينية» المجلة التاريخية، مجلة الجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، العدد الأول ـ السنة الاولى (بغداد، ١٩٧٠) .

٤ ـ «سياسة نوري السعيد الخارجية» محاضرة القيت في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الموسم الثقافي ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ .

٥ ـ «لجنة برترام ـ ينغ ، لجنة بيل ، لجنة وود هيد ، لجنة موم في الموسوعة الفلسطينية .

خامسا : كتب مترجمة :

١ ـ تاريخ فلسطين السياسي تحت الادارة البريطانية ـ المذكرة التي قدمتها الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٧ الى لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (بغداد ، ١٩٥٦) .

٢ ـ العهد الدستوري العثماني الأول ، تأليف روبرت ديفيرو ـ منشورات جامعة جونز هوبكنز ، رسالة دكتوراه .

٣ ـ التاريخ الاوروبي الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩١٤ .

سادسا : كتب مدرسية :

١ ـ فاضل حسين ، عبدالوهاب القبيسي ، عبدالامير محمد أمين ، تاريخ العراق المعاصر (بغداد، ١٩٨٠)

٢ ـ فاضل حسين وكاظم هاشم نعمة ، التاريخ الاوروبي الحديث ١٨١٥ ـ ١٩٣٩ (بغداد، ١٩٨٢) .

٣ ـ مختصر تاريخ العراق المعاصر ١٩١٤ ـ ١٩٥٨، الدورة التنشيطية لمدرسي مادة التاريخ في ثانويات القطر [العراقي]، المديرية العامة للاعداد والتدريب ، معهد التدريب والتطوير التربوي ، (بغداد، ١٩٨٥) .

سابعا : كتب وبحوث معدة للطبع :

١ ـ «الولايات المتحدة ومشكلة الموصل» ـ بحث اعد لينشر في كتاب العلاقات العربية ـ الأمريكية ، تحت رعاية معهد البحوث والدراسات العربية .

٢ ـ «قضية تقسيم فلسطين» .

٣ ـ موجز الثورات العالمية الكبرى .

٤ ـ الثورة العرابية في مصر .

٥ ـ موجز التاريخ الاجتماعي للعراق المعاصر .

٦ ـ خلاصة تاريخ الملكية في العراق المعاصر .

ندوة العدد

من بين نشاطات اتحاد المؤرخين العرب ، المتميزة ، عقد الندوات والمؤتمرات العلمية التي تعالج مشاكل وهموم الامة وتطلعاتها . وقد عقد الاتحاد وسيعقد العديد من هذه الندوات .

لذا وجدنا من المناسب ان ننشر خلاصة هذه الندوات في اعداد مجلتنا «تحت عنوان ندوة العدد» ، ليتعرف المؤرخ العربي على ابعادها .

تعقيب على ندوة الحوار الفكري

د.نوري حمودي القبيسي
كلية الآداب/ جامعة بغداد

لابد لي وانا اعقب على السادة الافاضل من ان اعرب لاتحاد المؤرخين العرب عن تقديري واعتزازي بهذه المبادرة وهي تقدم حوارا فكريا رائدا وتتناول موضوعا جادا وتستضيف أعلاما من المؤرخين والمعنيين ليناقشوا دور الامة الحضاري في رفد الحضارة الانسانية .. واشكر الاخ الكريم الدكتور عبدالله سلوم السامرائي الذي اضفى على هذا الحوار إطاره الفكري المتميز وأغناه بعرضه وهو يلتقط اخبارا ويكثف الحديث عن بوارق لامعة زهت اشراقاتها وتألقت ومضاتها في ابهاء التاريخ الحي لهذه الأمة ..

اقول من الصعب أن نستهل الحديث أو الحوار بتوقف حضارة الأمة ، لأن الامم الحية لا تتوقف وهي تحمل رسالة انسانية وتدعو الى حياة ملؤها السعادة وتدعو الى عبادة الله الواحد الأحد وتستهدي بسيرة رسول البشرية محمد (صلوات الله عليه) ولأن البناء الحضاري لهذه الأمة مستمر وموحد على امتداد أرض ولغة وتاريخ وبناء اجتماعي فكان عطاؤها خيرا ورسالتها انقاذا من مهاوي الظلم وغطرسة العبودية .. ولكن حالة التفكك والتمزق والتخلف وتسرب الفكر المناوىء وتسلل حركات الهدم تحت أردية زائفة ودعوات باطلة حالت ـ وفي مرحلة من مراحلها الصعبة ـ دون اظهار قدرة الامة ـ على الرغم من استيعاب الامة لكثير مما طرح من اراء وبث من افكار وادخالها في دائرة التصور الاسلامي وفق ما تتطلبه مبادىء الاسلام السمحة وتقتضيه شريعة التسامح التي نادت بها الدعوة الاسلامية .. اقول ان الامة مرت بمرحلة صعبة فاصبحت حالة التحدي والقهر والضغط الذي تعرضت له اقوى واكبر واشد من قوة الاندفاع بسبب هذه الحالة ولكن مسيرة حضارتها كانت تؤكد أن ابحاثها وعقيدتها ورسالتها ظلت تسهم في اندفاعها لتجاوز بعض حالات التخلخل والاخفاق واذا كتب لبعض مواطنها أن تشهد حالة التباطؤ الا انها مواطنها الاخرى كانت تتدفق علما ومعرفة واسهاما فكريا كانت حصيلته اعدادا ضخمة من التاليف واسفارا خالدة من الموسوعات .

ان محاولة البحث عن اسباب هذا التخلخل أو التباطؤ لا يمكن أن توفق الا اذا اهتدت الى الاسباب التي اسهمت في دفع الامة الى المشاركة الحضارية ودراسة تلك الاسباب وواقعها والوقوف على اوليات العوامل والخصائص التي تميز بها المجتمع وعناصر القوة التي أهلته لاخذ موقعه وحركته واندفاعه بسرعة مذهلة .. ولأنه من غير المعقول ان ندرس اسباب التوقف [كما اطلق عليها في الحوار] بمعزل عن اسباب نشوء الحضارة وعوامل ابداعها وعناصر انضاجها .. فالرسالة الاسلامية المتمثلة في القرآن الكريم

وشخصية الرسول (صلوات الله عليه) واستيعاب الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) لمضامين التشريع واصول الاسلام واخلاقية التعامل خلقت مدرسة فكرية ومجتمعا قياديا وحالة من المسؤولية فريدة استطاعت ان توجه الامة وتغذي روحها بما تمكنت عليه من مثل وقيم ومبادىء .. ومن هنا ايضا يمكن الوقوف قليلا عند عنوان الندوة الذي ياتي في سياق الحفاظ على الحضارة والاهتمام بعناصرها الاساسية التي ظلت دافقة في حياتها لغة تعبر عنها فكرها وتاريخا يحفظ لها مسيرتها ووجودا يذكرها باصولها .. فالعطاء العلمي جزء من هذه الحضارة وليس كل الحضارة ومع الحالات التي توصف بالتباطؤ فان ابناء الأمة عندما تتوفر لهم الاسباب الموجبة يقفون صفا واحدا مع ابناء الامم الاخرى التي تدخل في اطار التقدم العلمي وفي حالات الانتفاع من العقول العربية في حقول المعرفة وازدحام ردهات الجامعات الاجنبية ومراكز البحوث والمؤسسات بخبرات العلماء العرب تعطي هذه الاشارة دورها في قدرة هذه العقول على العطاء اذا وجدت المناخ المناسب وهُيئت لها المستلزمات الكفيلة .. ومع هذا فان المؤرخين العرب وادباء العربية وفلاسفتها وعلماءها واصحاب اللغة يسهمون بدراسات جادة ويؤدون دورهم الريادي بمستوى لا يقل عن مستوى افضل العلماء الاجانب ان لم يكونوا في بعض الحالات اكثر استيعابا واوسع ادراكا واكثر التزاما بمنهجية العلم ..

واذا كان الموضوع قد اخذ هذا البعد المتسع فان تحديد المفهوم المناسب للتقدم الحضاري أو المطابق للتوقف أو الانقطاع أو الاتصال يمكن أن يضع منهجية واضحة لحدود الرؤية المناسبة فالمفهوم الحضاري الذي حسب في اطاره علماء العربية قديما له خصائص تبتعد كثيرا عن المفهوم الحضاري الذي يقدمه العالم المعاصر فاستاذ التاريخ المتميز في عصرنا هو غير (الطبري) المفسر والمؤرخ واللغوي والفقيه والمحدث واستاذ الطب هو ليس (الرازي) من الائمة في صناعة الطب ، الفيلسوف الكيميائي ، الموسيقي ، الشاعر ، واستاذ اللغة هو ليس (الخليل بن احمد) من ائمة اللغة والادب ، العروض ، الموسيقى ، النحوي ، الرياضي . ان الحديث عن الحضارة يلزمنا الوقوف عند هذه المسائل والأخذ بنظر الاعتبار هذه المفاهيم لتاتي الصورة مماثلة ومتناظرة . ان سعة الحوار وتعدد اطراف المناقشة واختلاف وجهة النظر لا تتناسب والوقت المحدد للمناقشة واملي كبير في ان تفرد لكل حالة ندوة ولكل رأي مناقشة لتتحدد المعالم بوضوح وتبدو قسمات الحوار متميزة واكرر الشكر للاخوة القائمين على الاتحاد والساعين لاقامة الندوات والمساهمين في طرح الافكار والله نسأل التوفيق والهداية والرشاد لتأخذ هذه الامة دورها في الحياة ولتكون قوة دفعها اشد من وطاة الاحداث المسلطة عليها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ورقة عمل مقترحة لندوة الولايات المتحدة الامريكية والقضية العربية اعدت من قبل المجلس القومي للثقافة العربية في الرباط للفترة ٢٧ ـ ٢٩ ايلول ١٩٨٦

عندما نؤرخ للعلاقة بين أمريكا والوطن العربي ، يختلط ما هو أمريكي بما هو اسرائيلي حتى قبل قيام اسرائيل . وفي النهاية نكتشف ـ وقد اكتشفنا فعلا ـ وجود علاقة عضوية عميقة بين الاثنين ، الى درجة أنه يصعب فصل العناصر المكونة لاستراتيجية الولايات المتحدة في المنطقة عن تلك التي تشكل قاعدة لاستراتيجية العدو الصهيوني ، باعتبارهما يكملان بعضهما البعض ويكونان مصلحة مشتركة يأخذ كل منهما حصته فيها .

من الضروري أن نشير أولا الى غطرسة القوة التي تميز سياسات الامبريالية الامريكية في مختلف انحاء العالم : في الشرق الاقصى ، في آسيا ، في افريقيا ، في أمريكا اللاتينية ، وفي كل نقطة من ارجاء هذا العالم الواسع ، ومع أن امريكا خسرت كثيرا من مواقع نفوذها السابقة ، لا سيما بعد انهيار وجودها العسكري في فيتنام ، غير أنها لم تتخل ، بطبيعة الحال ، عن سياستها الامبريالية وظلت تحاول فرض سيطرتها على كثير من المناطق العالمية . على انها اعطت الاولوية في اهتماماتها لمنطقة الشرق الاوسط كونها تشكل عنصرا رئيسيا في استراتيجيتها ، وذلك للاسباب التالية :

١) فرض الهيمنة الاستراتيجية على المنطقة .
٢) الحصول على ثرواتها ، لا سيما البترول .
٣) المحافظة على وجود وأمن اسرائيل .

لقد عملت الولايات المتحدة على تعميق التناقضات الاقليمية في المنطقة العربية واضافة تناقضات جديدة الى ما هو موجود منها فعلا .

وظهر ذلك بوضوح خلال فترة ما بين الحربين العالميتين وبعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، على الرغم من الدور الاوروبي ، الفعال والمؤثر ، في سياسات المنطقة آنذاك .

ومع التوسع التدريجي في الاكتشافات النفطية تنامى النفوذ الامريكي في المنطقة ، ثم اتخذ هذا النفوذ شكلا متميزا خلال المرحلة التي شهدت قيام اسرائيل ودخولها الامم المتحدة دولة كاملة العضوية ، وكذلك الهجرة الصهيونية الواسعة الى فلسطين . وبرغم وعد بلفور ، والدعم المتعدد الاشكال الذي تلقته المنظمات الصهيونية من الدول الاوروبية قبل وخلال حرب ١٩٤٨ ، يجب الاعتراف بأن لم يكن من الممكن انشاء الكيان الصهيوني في فلسطين من دون موافقة أمريكا ودعمها المعنوي والمادي .

بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو في مصر بدأت مرحلة جديدة في العلاقة العربية الامريكية ، لكنها علاقة متوترة ومتناقضة الى حد بعيد . لقد استخدمت الولايات المتحدة مختلف وسائل الترغيب والترهيب مع القيادة الناصرية غير أنها سمعت خطابا آخر يختلف عن الخطاب الذي تعودته من الانظمة العربية القائمة .

وفي حين كان المد القومي التحرري بقيادة عبدالناصر يندفع في كل الاتجاهات بدون معوقات تذكر ، كان الضغط الامريكي يزداد ويأخذ ، الى جانب الضغط الاوروبي والاسرائيلي ، اشكالا مختلفة : من الاعتداءات العسكرية المباشرة ، الى الاحلاف العسكرية والسياسية ، الى المؤامرات ،

الى الضغوط الاقتصادية والى تعميق التناقضات والانقسامات الاقليمية المدفوعة الثمن .

لقد وقفت الولايات المتحدة بقوة ضد كل المحاولات التي بذلت لتحقيق خطوات على طريق الوحدة العربية ، وعلى الرغم من كل الملابسات التي احاطت بموضوع فهم الوحدة المصرية - السورية التي ولدت في العام ١٩٥٨ . الا ان الدور الامريكي في هذه المؤامرة كان واضحا ولقد قامت عليه أدلة كثيرة .

وظل الصراع يتصاعد بقوة الى أن تمكنت الولايات المتحدة - من خلال رأس حربتها اسرائيل - من انزال هزيمة قاسية بالقيادة الناصرية في العام ١٩٦٧ .

وبالاضافة الى ما كانت تستهدفه الامبريالية الامريكية في حرب يونيو (حزيران) من تدمير قوة مصر العسكرية المتنامية ، واذلال القيادة الناصرية ، فقد كانت تريد أيضا انهاك القوى الوطنية التي تصدت للولايات المتحدة في مرحلة المد الثوري لحركة القومية العربية ، في السنوات ما بين ١٩٥٥ و١٩٦٦ ، وفي النهاية اعادة المنطقة الى ما قبل سنة ١٩٥٢ ، اي ما قبل التجربة الثورية الناصرية وامتداداتها العربية المتعددة الجوانب سياسيا واجتماعيا وعسكريا .

كذلك كانت تريد الامساك بموارد الطاقة في المنطقة اولا من خلال الشركات الامريكية التي كانت تتولى مختلف عمليات الانتاج والتسويق ، ثم من خلال تخويف الانظمة العربية وجعلها في حاجة مستمرة الى حماية واشنطن ، وبعد ذلك السيطرة على السيولة العربية الناتجة عن الثورة النفطية المتزايدة .

على أن المشكلة التي احدثتها هذه الهزيمة ، والتي تكرست نهائيا بوفاة جمال عبد الناصر وسقوط قيادته التاريخية تمثلت في تحويل جوهر الصراع من أزمة حقوق شعب فلسطين الى أزمة احتلال ارض مصرية وأرض سورية .. وبعد ذلك أرض لبنانية . وهكذا اصبح الخطر يتهدد كل ارض عربية .

ويمكن القول أن معاهدة كامب ديفيد كانت ثمرة هذا التحول المتعمد . فبدلا من أن تكون قضية فلسطين هي الاساس في كل تفاوض أو حل أو تسوية ، جرى تحويل الاهتمام نحو الجوانب الفرعية الناجمة عن الصراع حول حقوق شعب فلسطين .

ونتيجة لهذه المعاهدة خرجت مصر من ساحة العمل العربي وأصبحت خارج الصراع ، ضد اسرائيل وضد امريكا . ومع هذا الخروج تردى الوضع العربي ، وزادت الانقسامات . وانفجرت الحرب اللبنانية ، ثم حدث الغزو الاسرائيلي ، المدعوم من امريكا ، للبنان . حيث تم ضرب الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . وجرى ترتيب الاوضاع وفق المعادلات الجديدة .

ونظرا لظهور المقاومة الوطنية اللبنانية التي تصدت لاسرائيل وللقوات الامريكية والاطلسية المشتركة والحقت بها هزائم قاسية ، بدأت امريكا تشعر بمخاوف حقيقية من احتمال انفلات زمام الامور من يدها مجددا . ودفعها ذلك الى خوض صراع شامل ، على مدى الوطن العربي ، والعالم كله ، ضد كل من يرفع راية نضال ، سواء من اجل فلسطين ، أو من اجل تحقيق الحرية والتقدم والوحدة بعيدا عن كل وصاية خارجية .

وهكذا تحول كل مناضل الى ارهابي ، وأصبحت وصمة الارهاب تلاحق جميع المناضلين في شتى انحاء العالم .

وتحت هذه الذريعة اخذت الولايات المتحدة تمارس ارهاب الدولة ضد كل من يواجه سياساتها في المنطقة ، كما يحصل باستمرار بالنسبة لابناء الشعب الفلسطيني ، أو بالنسبة لرجال المقاومة الوطنية في لبنان ، أو كما حدث أخيرا وليس اخرا بالنسبة للجماهيرية العربية الليبية .

ان الشيء الجديد في هذا السياق الطويل من العداء الامريكي المتزايد للامة العربية هو تحويل الولايات المتحدة من العدوان بواسطة الغير ، وبواسطة اسرائيل خصوصا ، الى العدوان العسكري المباشر . وهو أمر يتطلب وقفة حازمة وحاسمة لمواجهة هذا التصعيد الخطير .

ومن أجل ازالة وتبديد اللبس المتعمد حول موضوع الارهاب ، على الباحثين المختصين ورجال الفكر التصدي لهذه الادعاءات ، بصورة علمية ، لفضح أهدافها الحقيقية واسقاط الزيف الاعلامي الذي يحيط بها .

ان هذه المهمة تتطلب تحديد مفهوم الارهاب ، حتى لا يظل الارهاب الحقيقي ، وارهاب الدولة على وجه أخص ، خارج نطاق التصنيفات المدانة ، وحتى يظل للنضال الوطني نقاؤه الذي شوهته الدعايات الامريكية الخبيثة .

لقد أصبح الرأي العام الامريكي نفسه ، اضافة الى الرأي العام الاوروبي ، ضحية هذا التشويه ، وذلك بسبب وسائل الاعلام الصهيونية التي تقلب الحق باطلا ، والباطل حقا .

ومن هنا اهمية القيام بعمل مركز ودؤوب للمساهمة بوضع الامور في نصابها الصحيح ،

ورجال العلم مطالبون، اكثر من سواهم، في هذا المجال.

ان ما يمكن استخلاصه من تطورات السنوات العشرين الماضية، لا سيما المرحلة الاخيرة منها، هو أن الصراع العربي - الصهيوني حول قضية فلسطين، وكذلك الصراع العربي - الامريكي حول مسألة السيطرة على المنطقة، قد بلغا نقطة حاسمة. فالولايات المتحدة تريد انجاز ما تعذر انجازه نتيجة لهزيمة يونيو ١٩٦٧، ولذلك فهي تحاول الآن اخماد ما تبقى من روح المقاومة العربية التي ظلت متوهجة برغم كل هزائم السنوات العشرين الاخيرة، ثم تصفية قضية فلسطين، وأخيرا تفتيت الوطن العربي الى دويلات طائفية واغراق المنطقة في صراعات داخلية لا نهاية لها.

والمهم في كل ذلك، أن تظل المصالح الامريكية مصانة، ووجود الكيان الصهيوني في فلسطين مضمونا فقط، بل أن تصبح السيطرة الامريكية - الصهيونية على الوطن العربي سيطرة مطلقة.

واذا كان من الضروري اجراء محاكمة للامبريالية الامريكية، بسبب سياساتها في منطقة الشرق الاوسط الموصومة بمعاداتها لمصالح ابناء هذه المنطقة ولتطلعاتهم الوطنية والمستقبلية المشروعة، فان من الواجب ايضا التوقف عند عوامل الخلل في العلاقة العربية - الامريكية، وكذلك عند عوامل الخلل في الوضع العربي نفسه حيث تتراجع المصالح القومية باستمرار امام اوهام المصالح الاقليمية. ان تجاهل الولايات المتحدة للحقوق العربية ناتج، بالدرجة الاولى، عن طبيعة التعامل معها من قبل الحكومات العربية، وهو الامر الذي أدى، مع الوقت، الى غياب رد الفعل العربي المناسب، على المستويين الرسمي والشعبي. وبما أن كل تراجع عربي لابد أن يعقبه تقدم امريكي او اسرائيلي، لا فرق، كان من الطبيعي ان يحدث هذا الانفلات العدواني الامريكي المباشر بعد أن ظلت اسرائيل، ولسنوات طويلة، تقوم بدور العصا الامريكية الغليظة في المنطقة.

والخلاصة، انه اذا لم يتم اصلاح هذا الخلل في العلاقة الامريكية - العربية من جهة، وفي العلاقات العربية - العربية من جهة ثانية، فان الوضع العربي سيزداد ترديا، وستصبح سياسة الولايات المتحدة اكثر عدوانية واكثر قدرة على تحقيق أهدافها في المنطقة.

تقارير

توجه جديد في كتابة الرسائل الجامعية لاقسام التاريخ في الجامعات العراقية

اعداد
محمد رشيد عبود الراوي
اتحاد المؤرخين العرب

خطت اقسام التاريخ في الجامعات العراقية خطوات جادة باتجاه تنويع مواضيع الرسائل الجامعية والابتعاد عن المواضيع ذات السمة القطرية والمقصود بها المواضيع التي تبحث تاريخ العراق بكل مراحله القديم والحديث والمعاصر، بعدما كثرت وتعددت الدراسات التاريخية في هذا المجال مما ادى الى تكرار بعض الدراسات كما اصبحت دراسة الشخصيات السياسية كعناوين للرسائل حالة غير محببة وفي المقابل فقد نما البحث في المواضيع ذات البعدين القومي والاستراتيجي فظهرت دراسات جادة ضمن هذا الاطار شهد قسم التاريخ ـ جامعة بغداد لوحده العديد من هذه الدراسات، نوقشت على مدرجات كلية الآداب، ركزت هذه البحوث على دراسة مراحل وحقب تاريخية مهمة من تاريخ الاقطار العربية والدول المجاورة لها، اضافت كتبا ودراسات علمية قيمة تسد فراغا في المكتبة العراقية والعربية لا سيما وان هذه الرسائل اعتمدت على وثائق ومصادر اصلية اعتمدها الباحثون مما يجعل هذه الدراسات اكثر علمية وواقعية، ندرج ادناه حصيلة قسم التاريخ في كلية الآداب ـ جامعة بغداد لوحده من هذه الدراسات حيث كانت: تطورات واتجاهات السيسة الداخلية التركية (١٩٢٣ ـ ١٩٢٨) للطالب قاسم خلف عاصي الجميلي، والتطورات السياسية في سوريا (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤) للطالب محمد رشيد الراوي والعلاقات العراقية السعودية للطالب منسي شرموط وايران في سنوات الحربين الاولى والثانية للطالبين فوزي خلف شويل وعبد الهادي كريم سلمان، وسياسة ايران الخارجية خلال حكم رضا شاه للطالب محمد كامل والعلاقات الكويتية البريطانية خلال حكم الشيخ مبارك للطالب عبد المجيد العاني، ومشاريع تقسيم فلسطين (١٩٣٦ ـ ١٩٤٨) للطالب طاهر خلف بكار وعمان وسياسة نادر شاه التوسعية للطالب عدنان هرير جودة، وحكم الشيخ خزعل في الاحواز (١٨٩٧ ـ ١٩٢٥) للطالبة انعام مهدي علي وسياسة ايران الخارجية في عهد احمد شاه قاجار (١٩٠٩ ـ ١٩٢٥) اسعد محمد زيدان والتطورات السياسية في عمان (١٩١٣ ـ ١٩٣٢) للطالب خليل ابراهيم صالح، وامارة حائل، للطالب جبار يحيى عبد، موقف الرأي العام العراقي من الاحداث الايرانية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣) للطالب خضير عباس، وايران في عهد ناصر شاه للطالب علي خضير.

ان هذه الدراسات هي نتاجات قسم التاريخ، كلية الآداب ـ جامعة بغداد على ان ننشر حصيلة اقسام التاريخ الاخرى في الجامعات العراقية في حلقات قادمة ان شاء الله ..

عرض الكتب ونقدها

تأملات فلسطيني

تأليف : د.محمد طربوش

عرض : د.رسول الخفاجي
اتحاد المؤرخين العرب

يقع الكتاب في سبع وتسعين صفحة من الحجم المتوسط ويضم مقدمة وتوطئة وتسعا وعشرين رسالة ومقالة قصيرة نشرها الكاتب في عدد من الصحف الغربية البارزة . والكاتب فلسطيني عاش في اوروبا طيلة العشرين عاما الأخيرة ، وقد ولد في فلسطين المحتلة وتشرد مع عائلته بعد نكبة عام ١٩٤٨ . وللكاتب مؤلف آخر عن دور الجيش في السياسة في العراق حتى عام ١٩٤١ .

يعقد الكاتب في التوطئة مقارنة بين الصحافة الاوروبية والصحافة الامريكية ويذكر أن الاولى بدأت الانفتاح منذ زمن على القضية الفلسطينية ونشر الاخبار عن الانتهاكات الاسرائيلية لحقوق الانسان في فلسطين وتعذيب السجناء الفلسطينيين ومصادرة الاراضي والممتلكات . بينما نجد أن مثل هذه التغطية الشاملة للقضية الفلسطينية لا تزال نادرة في الصحافة الامريكية ، فعلى سبيل المثال فان استخدام اسرائيل للقنابل العنقودية الامريكية الصنع والاسلحة المحرمة الأخرى ضد السكان المدنيين في الاقطار العربية المجاورة لم يصبح ابدا قضية عامة في الصحافة الامريكية .

وتبدأ مجموعة المقالات والرسائل بمقالة عنوانها «Home Thoughts From Abroad» «افكار عن الوطن من خارج الوطن» يصف فيها الكاتب طفولته في قرية فلسطينية ، وقد اختيرت هذه المقالة لتستهل مجموعة المقالات والرسائل في الكتاب لكونها ترسم الاطار العام لتأملات الكاتب عن وطنه في الغربة . ويبدو الغضب واليأس بارزين في القطع المكتوبة بعد الغزو الاسرائيلي للبنان ، وخصوصا بعد مذابح صبرا وشاتيلا .

ومن المقالات والرسائل الاخرى في الكتاب نذكر العناوين التالية : بريطانيا والشرق الاوسط ، استخدام العرب للثروة ، رد على كيسنجر ، ماذا يجب أن يشعر الفلسطينيون الآن ، عرفات : مستعدون للحديث عن السلام في فلسطين ، اليأس من امريكا يتعاظم ، وفي جميع هذه الرسائل والمقالات يخاطب الكاتب القارىء الاوروبي والامريكي باسلوب موضوعي هادىء مقدما له وجهة نظر عربية معتدلة فيما يدور على الساحة الفلسطينية والعربية ، مركزا على الاعتداءات الاسرائيلية وعلى العنصرية الصهيونية كأساس للمشكلة كلها .

وبقدر أهمية هذه الرسائل والمقالات كأحدى القنوات التي يمكن أن يستخدمها العرب خارج الوطن في التحاور مع الاوروبيين والامريكان وغيرهم ، يبقى الأهم هو ما يجب أن يعمله العرب انفسهم لتغيير المعادلة ووضعها في صالح العرب والفلسطينيين . فما لم ينتقل الواقع العربي من التناحر الى التضامن ومن التجزئة الى الوحدة ومن الكلام الى العمل .. وما لم يشعر المواطن العربي في كل مكان بكرامته وحريته ، لن يتغير شيء ولن يقتنع احد في العالم بجدوى الحديث عن الحقوق العربية المهدورة .

دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر

تأليف د. كمال مظهر احمد
عرض د. حسين محمد القهواتي

صدر الى الاسواق مؤخرا كتاب دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر، لمؤلفه الدكتور كمال مظهر احمد، استاذ التاريخ الحديث والمعاصر في كلية الآداب/ جامعة بغداد والكتاب في الاصل عبارة عن مجموعة من البحوث القيمة نشرت في عدد من المجلات المعتبرة او القيت في الندوات والمؤتمرات المتخصصة، وقد استطاع المؤلف بفضل قدراته العلمية الفائقة وتضلعه في اللغة العربية واتقانه لعدد من اللغات الحية ان يكتب لنا هذه البحوث بروح موضوعية وبأسلوب جذاب وعبارات واضحة، معتمدا في ذلك كله على الوثائق الرسمية البريطانية والروسية بالاضافة الى المصادر الاصلية، لذا جاءت البحوث في غاية الدقة التاريخية، وكانت النتيجة متوقعة من عالم ومؤرخ فذ توازن رصيده العلمي مع تواضعه.

لقد قرأت الكتاب وتابعت فصوله التسعة بشغف كبير، وباستمرارية حسدت نفسي عليها، ووجدت الباحث يتناول في الفصل الأول موضوعا عنوانه من تاريخ الحروب الايرانية الروسية، صفحة العلاقات الدولية في الشرق الاوسط قبل ظهور الامبريالية، ويتطرق فيه الى عوامل ضعف الدولة الصفوية في ايران في عهد السلطان حسين (١٦٩٤ ـ ١٧٢٢)، ويشير الى تنامي قوة روسيا القيصرية وبخاصة في عهد بطرس الكبير (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) ابرز قياصرة روسيا قاطبة الذي ادرك ان تحقيق طموحات بلاده والوصول الى بحار الاسود وقزوين في الجنوب والبلطيق في الغرب يتطلب بناء اقتصاد رصين وجيش قوي واسطول متطور ونظام اداري حديث .. ونجحت كاترين الثانية ١٧٦٢ ـ ١٧٩٦ فيما بعد في استكمال ما بدأه سلفها بطرس الكبير حيث يعتبر عهدها زمن تطور الرأسمالية في اقتصاد روسيا ومن الواضح ان روسيا القيصرية تمكنت من تحقيق اطماعها عن طريق سلسلة من الحروب خاضتها ضد ايران والدولة العثمانية، ففي الفترة الممتدة بين عامي ١٦٧٦ ـ ١٨٧٨ خاضت روسيا عشر حروب ضد الدولة العثمانية، كما خاضت سلسلة من الحروب ضد ايران تمخضت عنها عدة معاهدات كانت اولاها معاهدة التحالف التي عقدت ايام بطرس الكبير في ٢٣ ايلول ١٧٢٣ في بطرس برغ والتي نصت على اربع نقاط رئيسية يستطيع القارىء المهتم متابعة تفاصيلها في هذا الفصل، وقد عدلت تلك المعاهدة في شباط ١٧٣٢ في مدينة رشت ثم تلتها معاهدة ثالثة في ٢١ آذار ١٧٣٥ في مدينة كنجة (وهي مركز اسلامي مهم في القفقاس). ثم تطرق الباحث بالتفصيل الى الحرب الروسية الايرانية خلال الاعوام ١٨٠٤ ـ ١٨١٣ التي تمخضت عنها معاهدة كلستان في ٢٤ تشرين الاول ١٨١٣، ورغم ان الباحث يكتب عن العلاقات الروسية الايرانية حصرا الا انه لا ينسى العلاقات الدولية المتشابكة فهو يسعى لتبسيطها وتقريبها الى الاذهان باسلوبه الرائع، وما ان ينتهي من متابعة هذه الحرب ونتائجها المحلية والاقليمية والدولية حتى يتفرغ الى تناول حرب جديدة وجدت طريقها بين البلدين المتجاورين (ايران وروسيا) بحدود تقارب طولها ٢٥٠٠كم. وبخوض تفاصيلها الدقيقة بالاعتماد على أدق الوثائق والمصادر لينتهي الى عقد معاهدة عام

١٨٢٨ باسم معاهدة (تركما نجاي) وهنا استعار الباحث عبارة المؤرخ الايراني .. ابراهيم تيموري القائلة : ان «معاهدةتركمانجاي» (.. تحولت الى طوق ثقيل وضع لمدة حوالي قرن في عنق الشعب الايراني) واستنتج الباحث «ان اطماع روسيا القيصرية اللامحدودة كانت تؤلف عاملا اساسيا لما وقع من حروب ومآس بين ايران وروسيا ، ولكن الباحث يضع اللوم على ايران ايضا لانها جانبت انتهاج سياسة حصيفة كان من شأنه تجنيب ايران الكثير من الويلات والخسائر .

اما الموضوع الثاني من الكتاب فعنوانه مذبحة السفارة الروسية في طهران في مطلع العام ١٨٢٩، سرد الباحث فيه ادق التفصيلات معتمدا على المصادر الفارسية والروسية .

والموضوع الثالث عنوانه العراق وايران بين سازانوف «وزير الخارجية الروسي» و«كراي» وزير الخارجية البريطاني استطاع الباحث بدقته المعهودة ان يتابع العلاقات الايرانية العراقية «العثمانية» عبر المذكرات الدبلوماسية لرجال السياسة البريطانيين والروس ، ليصل الى قناعات تاريخية جديدة بشأن المنطقة .

وحمل الموضوع الرابع عنوان رضا المازندراني والعرش الايراني من تاريخ تأسيس الاسرة البهلوية والخيوط الاولى لسياسة الاستعمار الجديد في الشرق الاوسط تناول فيه الباحث التحولات الاجتماعية والاقتصادية في ايران في نهاية العهد القاجاري (١٧٩٤ ـ ١٩٢٥) واشار الى الحركة الوطنية والمستجدات الدولية التي اسهمت في انحلال النظام القاجاري وأدت الى تبدل تناسب القوى على الصعيد الدولي ووفرت الفرصة «لانقلاب حوت» في شباط ١٩٢١ ومن ثم الانقلاب الثاني الذي بموجبه تبوأ رضا المازندراني عرش ايران باسم العهد البهلوي ، دون ان ينسى الباحث في هذا الموضوع التطرق الى صدى الحدث عالميا والى صداه في العراق بشكل خاص والذي عبر عنه بقوله «كان اهتمام الاوساط السياسية العراقية بالاحداث الايرانية التي اسفرت عن تأسيس الاسرة البهلوية بالمستوى نفسه، حتى ان ازدياد اهتمام الصحافة العراقية بالاحداث الايرانية في اواسط العقد الثالث كان بتشجيع من ياسين الهاشمي احد رؤساء الوزراء العراقيين آنذاك ، كما ان بكر صدقي زعيم أول انقلاب عسكري في العراق كان متأثرا الى حد كبير بشخصية رضا شاه بهلوي حسب اجماع المؤرخين ، واخيرا توصل الباحث الى تقييم عام عن احداث انقلاب حوت في ايران في الفترة (١٩٢١ ـ ١٩٢٥) معتمدا على آراء بعض الباحثين الايرانيين ومستندا الى الوثائق البريطانية والسوفييتية ، وورد فيه من السهل «ان يرى المراقب» ان المصالح البريطانية قد روعيت بصورة افضل من السابق عن طريق تعزيز القوى المحافظة المتطرفة ، اي بواسطة احياء الدكتاتورية المبنية على التقاليد الايرانية مع الاستفادة نوعا ما من مؤسسات ادارية وقضائية غربية غير متماسكة بالحاجة التي لبيت بواسطة دكتاتورية رضا شاه» ويتحسر الباحث على «فقدان» بعض حلقات الوثائق البريطانية الخاصة حيث بوجودها وتوفرها للباحثين كان بالامكان القاء ضوء اكثر على مدى ارتباط رضا شاه بالادارة البريطانية ويذكر الباحث ايضا ان الشيء نفسه ينطبق على الوثائق السوفييتية الخاصة ، ففي الوقت الذي تعطي الوثائق الاخيرة رأيها صراحة في شخص ضياء الدين طبطبائي احد اعمدة انقلاب حوت باعتباره رجل الانكليز في ايران نراها تتحفظ في ذكر اي شيء ، عن رضا شاه ضمن ما هو متوفر للتداول من الوثائق المذكورة ، ويسود الاستشراق السوفييتي منذ البداية وحتى الآن تقييمان متناقضان لشخصية رضا شاه احدهما ايجابي والآخر منهما سلبي .

اما الموضوع الخامس فقد كرس لبيان الحقائق عن المؤسسة في ايران ، واصل الموضوع كان تعقيبا على بحث آخر قدمه عميد المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية في ندوة ايران الحاضر والمستقبل المعقودة في بغداد ، لذلك جاء هذا الموضوع مبتسرا وهو يحتاج الى مزيد من الدراسة والتتبع والعمق كما اشار الى ذلك الباحث نفسه عندما قال «اؤكد ثانية عن الاهمية العلمية والعملية لدراسة المؤسسة الدينية في ايران الموضوع الذي تكمن في ثناياه مفاتيح العديد من اسرار ايران في تاريخها الحديث والمعاصر» .

اما الموضوعان السادس والسابع ، فانهما حملا العنوانين الآتيين على التتابع : حقائق عن النضال التحرري الاذربايجاني، وحقائق عن النضال التحرري الكردي في ايران . قدم الباحث خلالهما عرضا شيقا ودقيقا ومفصلا لمجمل الحركة الوطنية في هاتين المقاطعتين الملتهبتين مشيرا الى الانتفاضات المبكرة في العهد الصفوي ١٥٠١ ـ ١٧٢٦ والعهود اللاحقة ، معتمدا في ذلك على الوثائق والمصادر الاولية والبيانات والصحف الوطنية ويا حبذا لو اتحفنا الباحث الكريم

بدراسات مستقبلية مشابهة عن النضال التحرري للشعوب الايرانية الاخرى وبخاصة الشعب العربي في اقليم عربستان .

واخيرا تناول الباحث في الموضوعين الثامن والتاسع ، صفحات من تاريخ العلاقات الايرانية السوفييتية ، وتاريخ ايران الحديث والمعاصر في الوثائق الروسية وجاء الموضوع الثامن مختصرا ولكنه مركز ودقيق لمرحلة امتدت بين عامي ١٩١٧ و١٩٤٨ اما الموضوع التاسع فقد تطرق الباحث ، بدراية كبيرة وفهم واضح الى الوثائق الروسية والسوفييتية مشيرا الى طبيعتها ونوعها وتصنيفها واهميتها وتطورها التاريخي واماكن حفظها ، وهذه الدراسة تفتح بحق آفاقا جديدة للمهتمين بتاريخ المنطقة حيث يحدون بين ثنايا هذه الوثائق زادا دسما يستعينون به على فهم وادراك احداث المنطقة بشكل اكمل .

وفي ختام الكتاب الحق الباحث قائمة باسماء الاعلام ، والاماكن التي وردت في البحوث ليسهل مهمة القارىء بعد ان بذل هو جهدا كبيرا من اجل اعدادها .

وفي الختام اقول حسنا فعل عندما صحح بعض الاخطاء التي وردت في الكتاب الا انها لم تكن هي كل الاخطاء لاني رصدت اخطاء مطبعية أخرى يستطيع القارىء المتخصص ادراكها ، وكم كنت اتمنى ان ارى خارطة ملحقة بالكتاب لانها كانت ستسهم في عملية الايضاح .

مناظرات ومناقشات في المؤتمر العالمي العاشر في التاريخ الاقتصادي المنعقد في بيرن ١٩٨٦

عرض د. زكي مجيد حسن
اتحاد المؤرخين العرب

يعتبر هذا الكتاب من اهم المصادر في التأريخ الاقتصادي العالمي إذ يحتوي على دراسات وبحوث في مجالات اقتصادية وتاريخية اقتصادية مختلفة القيت في المؤتمر المذكور لكبار المؤرخين الاقتصاديين. الكتاب صادر عن الجمعية العالمية للتاريخ الاقتصادي ويتضمن خمسة محاور اساسية :

يتناول المحور الاول اقتصاديات المجتمعات الجبلية من خلال البحث الموسوم «الانسان والوسط الجبلي في التاريخ الاوروبي» للمؤرخ الاقتصادي المعروف بيير دوبوا .. يتناول الباحث مسألة الترابط الجدلي بين الانسان والوسط الجبلي الذي يعيش فيه ويستعرض المواضيع التالية في نفس الموضوع :

١ ـ بعض الصور في التاريخ الجبلي .
٢ ـ النظام الاقتصادي ـ الرعوي .
٣ ـ التوازن بين المصادر الطبيعية والسكان .

ويستنتج الباحث بأن الجبال تشكل وسطا ممتازا للبحوث وتعتبر مختبرا مكيفا بشكل جيد لكل انواع الدراسات المقارنة وبذلك فهو يؤيد فكرة «الهيئة العالمية لتاريخ المجتمعات الجبلية» لتكون مركزا للمصادر البحثية في هذا المجال .

اما المحور الثاني فيتضمن تقريرا عن ديناميكية انحدار المدن في نهاية القرون الوسطى وبداية العصور الحديثة وكذلك التأثيرات وردود الفعل الاجتماعية والاقتصادية . ويعتبر هذا التقرير محاولة لتنظيم وتوثيق ما يمكن معرفته عن انحدار المدن في هذه الحقبة التاريخية اعتمادا على ما هو منشور او غير منشور من ادبيات الموضوع وما مقدم في هذا المؤتمر .

يتصدر التقرير تعاريف مهمة عما هو مقصود بالانحدار (decline) واصطلاح المديني (Urban) وكذلك الانحدار المديني (Urban Decline) من النواحي الاقتصادية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية .

ويتضمن التقرير كذلك عرضا وتحليلا لمقدار هذا الانحدار ابتداء من نهاية القرون الوسطى الى بداية العصور الحديثة وانواع هذا الانحدار واسبابه وردود الفعل الاقتصادية والاجتماعية لهذا الانحدار .

المحور الثالث يتناول بالبحث ظهور الاقتصاد العالمي وبالتحديد في القرن الثامن عشر الى القرن العشرين . ويتضمن بحثين ، البحث الأول يتناول اهمية المعارض الكبيرة واسواق النقد والمعادن الثمينة في تطور السوق العالمي من العصور الوسطى الى النصف الأول من القرن التاسع عشر وهو بقلم يوركن شنايدر واما البحث الثاني فيتناول ظهور الاقتصاد العالمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهو بقلم مارفن ميكينس .

المحور الرابع يتناول المشاريع متعددة الجنسيات بالاشارة الى التمويل المالي العالمي والاسواق والحكومات في القرن العشرين ،

يتضمن هذا المحور بحثين ، البحث الأول مقدم من قبل أليس تيكوفا وهو بعنوان تعدد الجنسيات في المنظور التاريخي .. والبحث الثاني بقلم هيلكا هوسبوم وهو بعنوان «آراء متباعدة ومسائل مختلف عليها» .

اما المحور الخامس والأخير فيتناول تأثير الكساد الاقتصادي في الثلاثينات وعلاقتها بالعالم المعاصر ويتضمن بحثين ، البحث الأول بقلم نوت بورجارت وهو ايضا عبارة عن تقرير تعريفي بالمشكلة الاقتصادية المعنية واستعراض لأهم مراحل هذه الازمة الاقتصادية من وجهة نظر علمية اقتصادية .. البحث الثاني بقلم ايفان بيرنارد وهو بعنوان الهزات الاقتصادية الكبرى للقرن العشرين في السياقات التاريخية العامة .. ان هذا البحث عبارة عن دراسة استنتاجية عن الاختلافات والتشابهات بين هذه الهزات الاقتصادية في الثلاثينات والسبعينات والثمانينات .

ولقد تضمن الكتاب كذلك قوائم عديدة للمصادر العلمية وكذلك ملاحق ببلوغرافية اضافة الى قائمة بالمنظمين للمؤتمر والمشاركين فيه .

ويبقى ان نقول ان الكتاب قيم جدا ولا غنى للمهتمين بالتاريخ الاقتصادي عنه .

MYTH OF ARAB PIRACY IN THE GULF

SULTAN MUHAMMAD AL—QASIMI

اسطورة القرصنة العربية في الخليج العربي

تأليف : د.سلطان محمد القاسمي

عرض د.محمود علي الداود

الدكتور سلطان محمد القاسمي سليل القواسم وهو أمير الشارقة أحد الامارات المهمة في دولة الامارات العربية المتحدة . وقد سبق للأمير ان حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة اكستر البريطانية وكانت اطروحته للدكتوراه عن «القرصنة» العربية واعتداءات شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج العربي خلال الفترة ١٧٩٧ ـ ١٨٢٠ . وكانت نشاطات القواسم خلال القرن الثامن عشر والى منتصف القرن التاسع عشر تشمل السواحل الشرقية من الخليج ومدخل مضيق هرمز بالاضافة الى نشاطات اسطول القواسم في بحر عمان . اما اليوم فان القواسم يحكمون امارتي الشارقة ورأس الخيمة وهما اعضاء في مجموعة امارات دولة الامارات العربية المتحدة . وتعتبر الشارقة أحد المراكز الثقافية المهمة في جنوب الخليج العربي وكانت لها نشاطات ثقافية متميزة في الربع الثاني والثالث من القرن العشرين وقد شهدت نهضة ثقافية متميزة قبل اكتشاف النفط فيها او فيما حولها بمدة طويلة . وبالاضافة الى ذلك كانت الشارقة مركز حركة وطنية قاومت الاستعمار البريطاني رغم قلة الوسائل التي كانت تملكها وفي عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ قبلت الشارقة التعاون مع الجامعة العربية ورحبت بالامين العام للجامعة العربية وبعثة الاخوة العربية مما دفع الانكليز على معاقبتها وفعلا دفع شيوخ القواسم الثمن وكان موقف الشعب العربي فيها يبعث على الفخر القومي .

وقد شهد كاتب هذه السطور شخصيا احداث عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ لانه كان عضوا في لجنة الاخوة العربية التي كان مؤتمر القمة العربي الثاني في الاسكندرية قد قرر ايفادها لتقصي الحقائق في منطقة الخليج العربي ودراسة اوضاعها والمطامع الاجنبية فيها ودراسة أفضل السبل من أجل المحافظة على عروبتها وهويتها القومية وكان موقف القواسم سواء في الشارقة أم في رأس الخيمة مشرفا .

وظلت أسطورة القواسم موضع دراسات عديدة كثيرة وقد نظر اليها الساسة والمؤلفون الانكليز بان القواسم هم مجموعة متعصبة من عرب الساحل الذين هددوا الملاحة البريطانية وقاموا بنهب السفن التجارية وتعريض أمن الخليج العربي الى خطر محدق واعتبروا نشاطاتهم من قبيل «القرصنة» شأنهم في ذلك شأن القراصنة والمغامرين من البحارة في أعالي البحار الذين نشطوا بالدرجة الاولى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

أما الجانب الآخر من الدراسات فقد أكد ان القواسم قبائل عربية بحرية نشطت في بناء اسطول تجاري وحربي خلال القرن الثامن عشر

والتاسع عشر وقد امتد نفوذهم التجاري شمالا الى البصرة وشرقا الى موانيء بوشهر وبندر عباس ولنجة وهرمز وجنوبا الى موانيء صور وشناص وكان لهم وجود تجاري مرموق في خليج عمان كما كانت لهم علاقات تجارية وثيقة مع الهند وخصوصا مع ساحل مالابار .. وكان اسطولهم الحربي كبير الحجم يعتمد على سفن صغيرة وسريعة كما كان للقواسم معرفة دقيقة بالملاحة والجغرافية لمياه الخليج العربي وأعالي المحيط الهندي وبحر عمان وكانت لهم خططهم العسكرية في اخفاء الاساطيل وسرعة مباغتة اعدائهم الذين كانوا بالدرجة الاولى من الانكليز . ويؤلف القواسم بنظر المؤرخين العرب بانهم كانوا احد مراكز القوى العربية القليلة في تلك العصور التي وقفت ضد التغلغل البريطاني وقد قاوموا الاساطيل البريطانية المعتدية ولم يكونوا قراصنة كما يزعم الانكليز بل كانوا قوى عربية محلية تطمح الى التوسع التجاري في تلك المياه التي ارادت شركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية اعتبارها منطقة نفوذ بريطانية صرفة . وقد استعان الانكليز بالفرس للقضاء على هذه القوى العربية .

ودراسة الدكتور سلطان محمد القاسمي تركز على حقيقة مهمة وهي ان القرصنة اسطورة خلقها الانكليز بفعل نشاطات ومطامع شركة الهند الشرقية البريطانية للتأثير على حكومة الهند لضرب هذه القوى العربية لايقاف منافساتها التجارية للشركة . ومن أجل بسط نفوذ شركة الهند الشرقية على تجارة الخليج العربي فقد حركت وتحت ستار «القرصنة» حكومة الهند لارسال اساطيلها لضرب القواسم . ولم يكن مجلس ادارة الشركة في بومبي يملك الامكانات العسكرية للقضاء على القواسم فراح يستنجد بحكومة الهند للمساهمة في عمل عسكري حاسم ضد القواسم ، وذلك وسط حملة اعلامية واسعة شنتها شركة الهند الشرقية متهمة القواسم بالقرصنة والارهاب والتعصب القومي والديني ضد الاوروبيين وخصوصا الانكليز .

وقد نجحت هذه الحملة في اقناع حكومة الهند بارسال اساطيلها خلال الربع الاول من القرن التاسع عشر وتمكنوا من خلال معارك طاحنة من القضاء على قوة القواسم البحرية . وقد تميزت معركة رأس الخيمة عام ١٨٠٩ بالهجوم البريطاني على رأس الخيمة وتمكن الانكليز في هجوم عام ١٨١٩ من تدمير القوة البحرية للقواسم . وقد استخدم الانكليز القسوة المتناهية والابادة الجماعية ضد مدن وقرى القواسم المسالمة . ومن ناحية اخرى برزت خلال هذه التحديات بطولة عربية من القواسم اصبحت دروسا تاريخية في الدفاع عن الوطن ضد الغزاة البريطانيين .

وقد تناول كتاب الدكتور القاسمي اربعة فصول تناول الفصل الأول الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر وتناول الفصل الثاني موضوع اتهام القواسم «بالقرصنة» خلال الفترة ١٧٩٧ ـ ١٨٠٦ بينما تناول الفصل الثالث الهجوم البريطاني على رأس الخيمة عام ١٨٠٩ وتناول الفصل الرابع المفاوضات البريطانية مع القواسم، وكيف أفشلت جهود شركة الهند الشرقية هذه المفاوضات مما ادى الى الهجوم البريطاني البحري الكبير على رأس الخيمة عام ١٨١٩ وتدمير كافة قواعد القواسم في منطقة الخليج والتي شملت ايضا قواعدها على الساحل الشرقي من الخليج العربي وهذا هو موضوع الفصل الخامس .

وقد ناقش المؤلف وببراعة وعلمية دقيقة مزاعم عدد من المؤلفين والضباط العسكريين البريطانيين الذين انتقصوا من حق القواسم واتهموهم بانواع التهم ولفقوا ضدهم كل التلفيقات . فقد ناقش الدكتور القاسمي كلا من ج.ب. كيلي صاحب كتاب بريطانيا والخليج ١٧٧٥ ـ ١٨٨٠ وجي.أ.ج.لوريمر مؤلف كتاب «دليل الخليج» الصادر عام ١٩٠٨ والاميرال ي.آر.لو مؤلف كتاب «تاريخ البحرية الهندية» الصادر عام ١٨٧٧ . وكذلك كتاب شارلس بلكريف عن «ساحل القراصنة» الصادر عام ١٩٦٦ والمؤلف الاخير كان مقيما ساميا لبريطانيا في الخليج .

وقد استند المؤلف الدكتور القاسمي على وثائق مهمة كان في مقدمتها :

(١) وثائق مخطوطة في دار السجلات الهولندية وسجلات بومبي وسجلات الهند في لندن والسجلات الوطنية في نيودلهي، ودار السجلات البريطانية في لندن ومركز الوثائق في أبوظبي وعدد من السجلات الخاصة للعديد من المسؤولين الانكليز الذين عملوا في الخليج العربي .

(٢) الوثائق المنشورة وشملت عددا كبيرا من الوثائق العربية والانكليزية والهولندية والالمانية .

(٣) كتب ودراسات متخصصة عن الخليج العربي .

وقد وثق الكتاب بالعديد من الخرائط والمراسلات المهمة بين العديد من المسؤولين الانكليز في حكومة بومبي والاسطول البريطاني

والحكومة البريطانية والمسؤولين البريطانيين المعتمدين في منطقة الخليج العربي . هذا بالاضافة الى احتواء الكتاب على صور تمثل عشرين لوحة فنية لمدن القواسم وعمان وبعضها من مكتبة المؤلف الخاصة والقسم الاغلب منها من مكتبة المتحف البحري في لندن .

وخلاصة القول ان المؤلف دافع عن فكرته بعلمية الباحث الدقيق المستند الى الوثائق الاصلية وهو يستحق كل تقدير وثناء . كما يستحق الثناء مرة اخرى لانه كمسؤول في دولة الامارات العربية المتحدة وجد الوقت الكافي للتركيز على ذرات دقيقة تدحض اتهامات اجنبية باطلة ضد قوة عربية خليجية ينظر اليها العرب باعجاب واكبار . فلم يعد الشيخ سلطان محمد القاسمي أمير الشارقة وعضو المجلس الاعلى لدولة الامارات العربية المتحدة فقط بل اصبح ايضا الدكتور المؤرخ سلطان محمد القاسمي .

خطط البصرة ومنطقتها

تأليف الدكتور صالح احمد العلي
عرض : أسامة ناصر النقشبندي
اتحاد المؤرخين العرب

كتاب جديد صدر اخيرا عن المجمع العلمي العراقي يتناول جانبا مهما من تاريخنا العربي الاسلامي ولبقعة عزيزة كان لها دور متميز في التطور الفكري والحضاري للامة العربية ، وهي مدينة البصرة التي خرجت المئات من الاعلام الذين اغنوا الفكر العربي الاسلامي بما وضعوه من كتب وتاليف في شتى فروع المعرفة الانسانية ، والتي تقف اليوم قلعة صامدة امام الاخطار المهددة كما وقفت بالامس وعلى مر التاريخ لتبقى مركز ازدهار حضاري واشعاع فكري .

لقد بدأ الدكتور صالح احمد العلي مقدمة كتابه في بيان الاهمية المتميزة للمدن في مجرى تاريخ الانسانية وتطور حضارتها فان استقرار عدد كبير فيها ينمي بينهم علاقات خاصة ويؤدي الى ظهور مؤسسات اجتماعية واقتصادية وادارية تنظم الحياة فيها بما يحقق الامن والطمأنينة وييسر النمو الاقتصادي والفكري والحضاري ، وبذلك تتسم بما يميزها عن حياة الفلاحين من اهل القرى والارياف والرساتيق ، وعن البدو من اصل البوادي وقد ظلت المدن منذ بدايات نشوئها الموئل المكين لازدهار ونمو الحضارة الانسانية التي يكون القسط الاكبر من دراساتها ما يتصل بالمدن ، ولا تتوضح معالمه واسسه وتطوراته الا بمعرفة ما كان قائما في هذه المدن .. وهكذا يستطرد الدكتور العلي في تقديم كتابه ثم يتكلم عن نشوء المدن في بلاد الشرق الاوسط عامة والعراق خاصة وكيف انفرد العراق باقامة مركزين فيه هما : الكوفة والبصرة في حدود سنة ١٧هـ وكيف انهما اشتركتا في سمات عامة تميزتا بها ، منها ان غالبية سكانهما من المقاتلة العرب الذين قدموا من شبه الجزيرة العربية وهم يدينون بالاسلام ويعملون على اعلاء كلمته وتوسيع دولته ، وتطبق عليهم الشروط التي وضعها عمر ، وهي ان لا يفصلهما عن الجزيرة حاجز مائي ، وان يكون مناخهما ملائما لاهل الصحراء .

تناول بعد ذلك عدد المقاتلة الذين سكنوا البصرة ثم تزايد عددهم وتغلبوا على مرزباد ودستميسان وعلى قوات الهرمزان في الاحواز وتابعوا توسعهم في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فضموا الى الدولة الاسلامية اقليم فارس وكرمان ، بعد ذلك تناول اثر استقرار عرب الخليج في البصرة وفي نمو النشاط التجاري والملاحة .

بعد ذلك يبدأ الدكتور العلي في عرض مادته التي جعلها على قسمين وفي ثمانية فصول هي :

الفصل الأول في مصادر البحث عن البصرة عند الاخباريين والرواة الاولين واقدم من ذكر منهم ابوعبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ وعلي بن محمد المدائني وعمر بن شبه وابن الربيع وابوزكريا الساجي وابن الدهان ومؤلفات عن رجال البصرة وكتب البلدان والانساب والطبقات والفتوح ، ثم استعرض

الدراسات الحديثة عن تاريخ البصرة واحوالها .

الفصل الثاني : في منطقة البصرة وطبيعة ارضها ومياهها وانهارها وانواع منتوجاتها الزراعية والنشاط التجاري .

الفصل الثالث : ويبدأ القسم الاول من الكتاب الذي يتناول خطط مدينة البصرة ومعالمها العمرانية بهذا الفصل الذي خصصه المؤلف للكلام عن تأسيس مدينة البصرة ونمو سكانها وتطور عددهم .

الفصل الرابع : في تنظيم الخطط حيث قسمت البصرة عند تأسيسها الى عدة أقسام . سكنت كل قسم منها عشيرة وسميت الاقسام باسماء العشائر التي سكنتها .

الفصل الخامس : في المسجد الجامع وتثبيت مكانه وتطور مساحته والزيادات التي طرأت عليه في كل العهود كما تكلم عن الرحبة ودار الامارة وبناء زياد .

الفصل السادس : في الاخماس وعشائر اهل العالية من العشائر الحجازية الاصل التي استوطنت البصرة واخبارهم ومنهم تميم وبكر وعبد القيس والازد .

الفصل السابع : في المعالم العمرانية في الاطراف الغربية وتناول فيها المنجشانية وجبل سنام وسفوان والعقيق والمربد وقبر الحسن البصري وقبر الزبير وسكة المربد وقصور المربد .

الفصل الثامن : في المعالم العمرانية العامة ، كاسواق البصرة والحمامات وسور البصرة في العهود العباسية المتأخرة وبنهاية هذا الفصل ينتهي القسم الأول من الكتاب .

اما القسم الثاني : فيتناول اطراف البصرة وقد خصص له المؤلف ستة فصول من الفصل العاشر الى الفصل الخامس عشر وهي :

الفصل العاشر : عن الاطراف الشمالية كالبطيحة ونهر عدي ونهر عمر والاراضي المستصلحة في اطراف البطيحة .

الفصل الحادي عشر : انهار الجانب الغربي من دجلة كنهر ابي الاسد ومطارا والانهار في الاطراف الشمالية الشرقية ونهر المراة ونهر الدير وبثق شيرين .

الفصل الثاني عشر : نهر معقل ونهر بلال والمعالم عند نهر معقل والكلاء ودار الزبير ودار الزرق ومدينة الزرق والسبخة وسكة الموالي ومقبرة حصن والحبل والجزيرة والجسر .

الفصل الثالث عشر : نهر الابلة والاجانة ونهر الابلة والانهار الآخذة من الابلة ومدينة الابلة وشط عثمان وانهار شط عثمان .

الفصل الرابع عشر : انهار الاطراف الجنوبية كنهر حرب ونهر ام حبيب ونهر الحاجر ونهر الشاذلي ونهر المغيرة ونهر اليهودي .

الفصل الخامس عشر : نهر ابي الخصيب وما حوله كالمختارة ونهر منكي ونهر جوى كور ونهر الغربي والامير والاسحاقي وسيحان والقندل .

القسم الثالث وخصصه لكور دجلة واطراف دجلة البصرة وجباية ارض البصرة . ويتضمن هذا القسم ثلاثة فصول هي :

الفصل السادس عشر : أرض الجانب الشرقي من دجلة ، الارض والبطائح .

الفصل السابع عشر : كور دجلة وولاتها وجباياتها وتناول فيه: ميسان دستميسان، ارقباذ ، المذار، السيب، الجعفرية، كرخ ميسان، نهر الفرج والشعيبية وهطمة والفرات والموفقية وعبادان .

الفصل الثامن عشر : تكلم فيه عن جباية الخراج في النصيرة وارضها وحكمها وولاة الخراج ومقدار الجباية في كل العهود والتجارة وازدهارها بعد الفتح الاسلامي .

وقد انهى الدكتور العلي كتابه بضميمة تناول فيها معالم عمرانية في البصرة ذكرتها المصادر ولم يتيسر تحديد موقعها كالمساجد والقصور والدور والمحلات والانهار .

وختم الكتاب بفهرس للاعلام والامكنة والخرائط وقائمة بمحتويات الكتاب .

يقع الكتاب في ٢٨٨ صفحة وقد طبع على مطابع المجمع العلمي العراقي ان لهذا الكتاب اهمية كبيرة لما يتضمنه من هذا الخزين الرائع من المعلومات المركزة عن مدينة البصرة وما يتعلق بها منذ نشوئها الى العصر العباسي المتأخر ، وهو حاجة ثمينة ولؤلؤة فريدة من عقود تاريخنا الخالد ومرجع لكل باحث ومثقف يسعدني ويشرفني ان اقدمه للمكتبة التاريخية العربية ..

اطروحة ماجستير :

الحركة الفكرية العربية في قزوين

تأليف:

عبداللطيف جاسم حميدي العقابي

يزخر تاريخ الحركة الفكرية العربية في المشرق بمعلومات غنية في تاريخ الفكر العربي خاصة، والانساني عامة، لانه يكشف عن جانب مهم من جوانب تاريخ التأثير الفكري في الانسانيـة ، وبالاخص سكان المشرق ، حيث تركت أثرا كبيرا في مجمل الحركة الفكرية هناك ، ذلك ان العرب لما اقاموا مجتمعهم الجديد هدموا بنية المجتمعات القديمة في الاراضي التي حرروها واقاموا في المجتمع الجديد كل العناصر الايجابية التي يتكون منها هذا المجتمع بكل جوانبه، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية والفكرية ، وعندما رأى اهل المشرق ان العـرب اصحاب رسـالة انسانية دخلوا في الدين الجديد وتعلموا اللغة العربية وتثقفوا بالثقافة العربية ، بـل حتى تسموا باسماء عربية، مما ادى الى نشر الثقافة العربية والفكر العربي .

ان مثل هذه الدراسات ظلت ولمدة طويلة بعيدة عن اهتمامات المؤرخين والدارسين العرب، وغيرهم، الامر الذي ادى الى طمس الوجه الحضاري للاثر الانساني العربي في هذه النواحي، ولقد وقع اختياري على موضوع «الحركة الفكرية العربية في قزوين خلال القرون الستة الاولى من تاريخ الاسلام» من أجل تبيان وتوضيح التأثير الفكري للعرب في هذه المنطقة، حيث اقتصرت في دراستي على تتبع الاعمال الفكرية للعلماء العرب الذين عاشوا في قزوين او وردوا اليها او درسوا فيها، انسجاما وتأكيدا لتحقيق هدف الدراسة في المعهد وبما ينسجم مع التوجه الجديد لاعادة كتابة تاريخ الامة العربية كتابة اصيلة، لنكشف عن طبيعة الحياة الفكرية العربية في قزوين بصورة عامة.

اقتضت الدراسة ان اقسم الموضوع الى عدة فصول تناول الاول «الجغرافية التاريخية لقزوين» حيث عالجت في هذا الفصل، اصل تسمية قزوين، وموقعها ومساحتها، كما تضمنت الدراسة معالجة موضوع الموارد المائية والوضع الاقتصادي وبالاخص الزراعة والخراج، ثم تطرقت الى دراسة الوضع الاجتماعي لقزوين حيث يشكل العرب نسبة جيدة، وذلك من خلال ورود كثير من الالقاب القبلية العربية في تراجم علماء قزوين اضافة الى ذكر ابرز مساجدها وما قيل في فضائلها حيث اكدت الدراسة عدم صحة الاحاديث التي وردت في ذلك.

وتناولت في الفصل الثاني دراسة «المحدثين العرب في قزوين» ويوضح لنا هذا الفصل اهمية دور العرب في الحركة الفكرية في ميدان الحديث النبوي الشريف وروايته، حيث اغلب رواد الحركة الفكرية العربية في قزوين من المحدثين العرب.

وكان منهجي في معالجة هذا الموضوع وبقية مواضيع الفصول يتم من خلال دراسة عناصر الترجمة كالاسم والشهرة والكنية والنسبة التي كانت مدار اهتمامي لانها تكشف عن اصل المفكر العربي والقبيلة التي ينتمي لها، كما بينت رأي علماء الجرح والتعديل بهؤلاء المشايخ من ناحية توثيقهم وبالتالي بيان ابرز العلماء الذين تتلمذوا عليهم من أجل ان نرى أثرهم في الحياة الفكرية لهؤلاء العلماء الذين يروون عنهم وبالتالي طبقت هذا المنهج في دراستي على بقية العلماء العرب في الفصول الاخرى.

اما الفصل الثالث، فقد تناولت فيه دراسة ترجمة حياة الفقهاء العرب في قزوين ودورهم في المسائل الفقهية.

اما الفصل الرابع فقد درست فيه الرواة والاخباريين والمؤرخين واللغويين ودورهم في الحياة الفكرية في قزوين.

وتناولت في الفصل الخامس دراسة ابرز العلماء العرب الذين برعوا في العلوم والمعارف الاخرى في قزوين كالمفسرين والقراء والقضاة والمتصوفة. واوضحت ايضا في هذا الفصل وبقية الفصول، دور هؤلاء المفكرين والادباء الذين وردوا اليها أو حدثوا بها وابرز من تتلمذ عليهم من مشايخها وبيان اثرهم في الحياة الفكرية بصورة عامة، وكان سبب تأكيدي على هؤلاء الواردين لكونهم ساهموا مع بقية عرب قزوين في الأثر الفكري فيها.

أما ما يتعلق بمصادر ومراجع بحثي فانني اعتمدت على عدد من المصادر والمراجع الاساسية والثانوية وبالاخص كتب الرجال التي تأتي بالدرجة الاولى اضافة الى كتب التاريخ والجغرافية والرحلات ومع الاستفادة من المراجع والمصادر المتنوعة الاخرى وتأتي في طليعة مصادر بحثي مخطوطة «التدوين في ذكر اهل العلم بقزوين» للشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسين ابو القاسم الرافعي القزويني المتوفى سنة (٦٢٣هـ) والتي اعتمدتها بصورة اساسية حيث هيأت لي معلومات واسعة وغنية عن رجال الحركة الفكرية العربية في قزوين وبالاخص العرب منهم، حيث اوردت معلومات واسعة عن انسابهم وشيوخهم وتلامذتهم وتوثيقهم، ومما زاد من أهمية هذا المصدر، انه يعد مصدرا مهما من مصادر التاريخ المحلي لقزوين، حتى انه ينفرد بمعلومات مهمة لا نجد لها نظيرا في كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل التي اختصت بموضوع الرجال، حيث كشفت لنا المخطوطة عن معلومات واسعة عن عدد كبير من رجال الحديث والفقه والرواة والاخباريين والادباء والشعراء والمفسرين والقراء والمتصوفة وغيرهم من العلماء، حيث اهتم الرافعي بذكر علماء قزوين من العرب وغيرهم، وممن وردوها ودرسوا فيها، مبينا نسب المترجم وشيوخه وتلامذته، ورحلاته، ورأي علماء الجرح والتعديل فيه، ومن ثم مؤلفاته وبعد ذلك وفاته، كما اعتمدت في بحثي هذا على كتب الرجال بصفة خاصة وبالاخص كتاب «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى

سنة (٨٥٢هـ) والذي ورد فيه معلومات عن عدد العلماء العرب الذين كانوا بقزوين وكان ابن حجر يفصل في ذكر معلوماته عن الترجمة التي يتحدث عنها ، مبينا وبتفصيل اسم صاحب الترجمة ونسبه وكنيته وشيوخه الذين روى عنهم وتلامذته الذين رووا عنه، ورأي علماء الجرح والتعديل فيه ، ومن ثم وفاته، كما اعتمدت على كتب الامام شمس الدين الذهبي المتوفى سنة (٧٤٧هـ) ومنها كتاب «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» و«تذكرة الحفاظ» .

وكان للخطيب البغدادي الحافظ ابي بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣،هـ) نصيب مهم من بين مصادر بحثي هذا حيث اشار الى العلماء العرب الذين كانوا بقزوين ووردوا بغداد وحدثوا بها او وردوها ، ورووا عن مشايخها كما ذكر العلماء البغداديين الذين زاروا قزوين . وكان كتاب «اللباب في تهذيب الانساب» لابن الاثير الجزري المتوفى سنة (٦٠٣هـ) أثر في تتبع اصل ونسب اصحاب التراجم العرب الذين كانوا بقزوين . من أجل ضبط اصالتهم ونسبتهم الى قبائلهم العربية .

واعتمدت في بحثي على عدد من كتب التراجم الاخرى وابرزها «وفيات الاعيان» لابن خلكان (ت، ٦٨٠هـ) وكتاب «معجم الادباء» لياقوت الحموي المتوفى سنة (٦٢٦هـ) . ومن المصادر الاخرى التي اعتمدتها في بحثي هذا تلك التي تتناول جوانب تاريخية عامة وبالاخص كتاب (انساب الاشراف) و«فتوح البلدان» لاحمد بن يحيى بن جابر البلاذري البغدادي المتوفى سنة (٢٧٩هـ)، وكتاب «البلدان» لليعقوبي المتوفى سنة (٢٤٨ هـ) وتاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ) اضافة الى كتاب «مروج الذهب» للمسعودي المتوفى سنة (٤٣٦هـ) وغيرها من كتب التاريخ المتنوعة وكان لهذه الكتب أثرها البين في معالجة بعض الجوانب التاريخية في الدراسة .

وفي ميدان كتب الجغرافية الاسلامية فقد اعتمدت على مجموعة منها ومن ابرزها كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ت، ٣٠٠هـ) وكتاب «صورة الارض» لابن حوقل (ت، ٣٤٠هـ) وكتابا «المسالك والممالك» و«الاقاليم» للاصطخرى المتوفى سنة (٣٩٠ هـ)، واعتمدت ايضا على عدد من كتب الجغرافية المتأخرة وبالأخص كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت، ٦٢٦هـ)، وكتاب «آثار البلاد واخبار العباد» للامام بن محمد بن محمود القزويني ، كما اعتمدت على عدد من المصادر التي تهتم بضبط الانساب وبالاخص ضبط نسبة العلماء العرب الذين ينتسبون الى قبائل عربية ، وبالاخص كتاب «انساب الاشراف» لاحمد بن يحيى البلاذري البغدادي (ت، ٢٧٩هـ) المار ذكره ، وكتاب «جمهرة انساب العرب» لابي محمد علي ابن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسي (ت، ٤٥٦هـ) وكتاب» متنقلة الطالبية» لنسابه ابي اسماعيل ابراهيم بن ناصر المعروف بابن طباطبا العلوي من اعلام القرن الخامس الهجري . كما استفدت من كتب الخراج وبالاخص كتاب «الخراج وصناعة الكتابة» لقدامة بن جعفر البغدادي الكاتب (ت، ٣٣٧ هـ) .

واعتمدت في بحثي على عدد من المصادر القديمة والمراجع الحديثة العربية وغيرها من المراجع الاجنبية الاخرى ومنها موسوعة «لفتنامة دهخدا» التي تناولت جوانب من تاريخ قزوين ، وكتاب «تاريخ كزيدة» لحمد الله بن ابي بكر احمد بن نصر المستوفي القزويني (ت، ٧٣٠هـ) وكان للمصادر والمراجع العديدة التي تطرقت اليها بايجاز وغيرها اثرها الفاعل في انجاز هذا البحث .

وكان ابرز ما توصلنا اليه من خلال دراسة «الحركة الفكرية العربية في قزوين» ان هذه المدينة شهدت نشاطا عربيا واضحا في الميادين الفكرية المختلفة وان لتلك الميادين أثرها الفاعل في مجمل الحركة الفكرية في المشرق بصورة عامة ، من خلال ما تركته من تأثير على العناصر الاخرى غير العربية التي استفادت من الجو الفكري العربي الذي وفرته العناصر العلمية العربية في قزوين ، ذلك أن مختلف التخصصات الفكرية التي ظهرت في قزوين في اعقاب استقرار العرب فيها كانت عربية الاصل والمنشأ، ولم تتدخل في تكوينها اية مؤثرات اجنبية دخيلة ، وبالاخص علم الحديث والفقه والادب ، والشعر ، والتاريخ والتفسير ، والقراءات ، كما يلاحظ أن اركان الحركة الفكرية فيها كانوا من العلماء العرب الذين ينتمون الى قبائل عربية عديدة ، كقريش ، وعجل ، وضبة، وقيس، وأسد، والازد، وخزاعة، وكثير غيرهم ، ولقد عبر هؤلاء العلماء عن اعتزازهم بانسابهم وبقبائلهم العربية التي ينتمون اليها بحيث لم يؤثر عليهم البعد الجغرافي عن مواطن انطلاقهم بل ولم يؤثر عليهم الوضع الاجتماعي الجديد الذي كانوا يعيشون فيه ، وبالاخص في القرن الرابع والخامس من تاريخ الاسلام اللذين ظهر فيهما الانتساب الى المهنة والحرفة والمدينة وقل فيها أمر الانتساب الى القبيلة ، ولذلك يعد هؤلاء المفكرون العرب عناصر مضيئة في مسيرة الحركة الفكرية

العربية في المشرق ، حيث جاءت الدراسة عادلة ومنصفة لمسيرة اولئك العلماء العرب في قزوين والذين كانوا في طي النسيان .

لقد جمعت الدراسة منهجيا ، بين منهج الدراسات التاريخية المعتادة ، ومنهج الدراسات التراجمية في علم الرجال ، ولذلك كان لنصيب كتب الرجال أثر واضح في تقصي معلومات الدراسة وانضاجها بصورتها الماثلة امامنا .

وكان لرجال الحديث العرب في قزوين أثرهم المميز في انشاء ، وتطور هذا العلم ، وتدوين المؤلفات الكثيرة فيه حيث كان للحشد الكبير من التلاميد الذين رووا عن المشايخ العرب في هذه المدينة أثر بين في انضاج الجهود الفكرية العربية فيها ، وهذا لا ينطبق على الحديث فحسب وانما على كافة المعارف والعلوم العربية الاخرى التي ظهرت في قزوين ، وكان للفقهاء العرب دورهم الرائد في نقل ونشر الفقه العربي الاسلامي الى هذه المنطقة الشرقية ، بحيث تركت آثارا واضحة من خلال الالقاب الفقهية الكبيرة التي نلمسها في التراجم ، ويلاحظ أن الحركة الفكرية العربية طرقت اكثر من جانب من جوانب ميادينها الرحبة التي نشأت فيها في العراق والشام ومصر والحجاز ، ولذلك يلاحظ أن كثيرا من العرب الذين برزوا فيها كانوا قد درسوا في اكثر من موقع من مواقع الحركة الفكرية العربية .

وقد بينت الدراسة عمق الصلات العلمية بين قزوين وبين العالم الاسلامي كبغداد ، والكوفة والبصرة وواسط ومكة والمدينة ودمشق وكان لمكانة العراق وبغداد بالذات أثرها الواضح والمتميز على مجمل الحركة الفكرية في قزوين وذلك من خلال الحشد الكبير من العلماء الذين برزوا في مختلف الاختصاصات الفكرية هناك . كما كشفت الدراسة عن بروز عدد من البيوتات العلمية العربية في قزوين والتي كان لها دور ريادي واضح على مجمل الحركة الفكرية العربية .

ان هذه الدراسات رغم حداثة منهجها ورغم ان طرقها والخوض بها يعد جديدا نوعا ما قياسا الى الدراسات السياسية والاجتماعية في تاريخنا العربي الاسلامي ، الا انها مهمة رائدة ، من أجل ان نتعرف على الأثر الفكري العربي على المشرق ، أو غيرها من المناطق التي شرفتها اقدام العرب الفاتحين ، ذلك لانها تؤكد ان العرب كانوا حملة أمناء لرسالة السيف والقلم ، ففي الوقت الذي يتم فيه تحرير مناطق معينة ، تبدأ بعدها عملية البناء الفكري والعقائدي العربي لمجتمع تلك المناطق المحررة ، وهذا ما كشفت عنه الدراسة في بعض جوانبها .

مجلة التوثيق الاعلامي

مجلة علمية دورية نصف سنوية تعنى بنشر وتوثيق الانتاج الفكري في مجالات الاعلام والتوثيق وشؤون الخليج العربي تصدر عن مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي وتشرف على اصدارها هيئة علمية ، رئيس تحريرها الدكتور جاسم محمد جرجيس - مدير عام مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي ، تضم هيئة تحريرها :

١ ـ الدكتور ابراهيم الداقوقي
٢ ـ الدكتور صباح محمود محمد
٣ ـ الدكتور محمود علي الداوود
٤ ـ الاستاذ محيى الدين اسماعيل

الاشتراك السنوي للمجلة خمسة دنانير أو ما يعادلها بالدولار الامريكي .

تعنون المراسلات باسم مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي بغداد ـ ص.ب (٥٠٦٣) .

النشر في المجلة

يشترط في البحوث والدراسات المقدمة الى مجلة التوثيق الاعلامي ما يلي :

١ ـ ان تكون ذات علاقة باختصاص المجلة (التوثيق، الاعلام، شؤون الخليج العربي) .

٢ ـ ان تتسم بالاصالة من حيث اضافة الجديد المفيد الى فكر القارىء.

٣ ـ ان تتسم بالمنهج العلمي في البحث والاسناد والموضوعية .

٤ ـ ان لا يقل عدد الكلمات عن الفين وخمسمائة كلمة ولا يزيد عن خمسة آلاف كلمة بصفة عامة .

٥ ـ يرفق مع البحث أو الدراسة مستخلص واف ودقيق مع تعريف موجز بالكاتب .

٦ ـ يخضع البحث او الدراسة للتقييم العلمي من قبل المركز قبل نشره .

٧ ـ لا تعاد البحوث والدراسات التي لا تنشر الى اصحابها .

٨ ـ ان يكون البحث أو الدراسة قد كتب حديثا ولم يسبق نشره .

٩ ـ يخضع ترتيب محتويات المجلة لاعتبارات فنية .

١٠ ـ تصرف للبحوث والدراسات التي تنشر مكافأة طبقا لتعليمات تعضيد البحث العلمي الخاصة بالمركز .

أ ـ تشكيلات الاتحاد في مجال النشر

أولا : الهيئة العربية العليا لكتابة تاريخ الامة العربية :

١ ـ الدكتور محمد عدنان البخيت ممثل مشروع كتابة تاريخ بلاد الشام/ المملكة الاردنية الهاشمية

٢ ـ الدكتور عبدالجليل التميمي ممثل مشروع كتابة التاريخ العثماني/ الجمهورية التونسية .

٣ ـ الدكتور عبدالرحمن الانصاري ممثل كتابة تاريخ الجزيرة العربية/ المملكة العربية السعودية .

٤ ـ الدكتور نبيه عاقل ممثل لجنة كتابة تاريخ العرب/ الجمهورية العربية السورية .

٥ ـ الدكتور سلمان سعدون البدر ممثل هيئة كتابة تاريخ الأمة/ دولة الكويت .

٦ ـ الدكتور صالح احمد العلي ممثل هيئة كتابة تاريخ الامة العربية/ الجمهورية العراقية .

٧ ـ الدكتور محيى الطاهر الجراري ممثل مؤتمر تاريخ الامة العربية/ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية .

ثانيا : لجنة تعضيد المنشورات التاريخية :

١ ـ الدكتور فاضل عبدالواحد (رئيسا)
٢ ـ الدكتور حسن فاضل زعين
٣ ـ الدكتورة رجاء حسني الخطاب
٤ ـ الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
٥ ـ الدكتور عبدالامير عبد دكسن
٦ ـ الدكتور فاروق عمر فوزي
٧ ـ الدكتور هاشم صالح التكريتي
٨ ـ الدكتور يحيى الشاهرلي
٩ ـ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (مقررا).

ثالثا: اللجنة الاستشارية للمنشورات التاريخية:

١ ـ الدكتور صالح الحمارنة .... المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور سلطان القاسمي .... دولة الامارات العربية المتحدة
٣ ـ الدكتور سعيد خليل هاشم .... دولة البحرين
٤ ـ الدكتور محمد الهادي الشريف .... الجمهورية التونسية
٥ ـ الدكتور محمد البشير شنيتي .... الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
٦ ـ الاستاذ محمد عبدالله ريراش .... جمهورية جيبوتي
٧ ـ الدكتور يوسف الثقفي .... المملكة العربية السعودية
٨ ـ الدكتور تاج السر احمد حران .... جمهورية السودان الديمقراطية
٩ ـ الدكتور احمد طربيني .... الجمهورية العربية السورية
١٠ ـ الاستاذ محمد علي كريم .... جمهورية الصومال
١١ ـ الدكتور ابراهيم خليل احمد .... الجمهورية العراقية
١٢ ـ الاستاذ علي احمد الشنفري .... سلطنة عمان
١٣ ـ السيد احمد العناني .... فلسطين
١٤ ـ السيد سلطان جاسم جابر .... دولة قطر
١٥ ـ الدكتور عبدالمالك التميمي .... دولة الكويت
١٦ ـ الدكتور عمر عبدالسلام تدمري .... الجمهورية اللبنانية
١٧ ـ الاستاذ الدكتور محمود متولي .... جمهورية مصر العربية
١٨ ـ الدكتور محمد المختار بن ريان .... جمهورية موريتانيا الاسلامية
١٩ ـ الدكتور عبدالهادي التازي .... المملكة المغربية
٢٠ ـ الدكتور حسين عبدالله العمري .... الجمهورية العربية اليمنية
٢١ ـ الدكتور محمد عكاشة .... جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية
٢٢ ـ الدكتور عبدالله علي ابراهيم .... الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية

ب ـ نشاط الاتحاد في مجال النشر

أولا : الكتب المنشورة :

قام الاتحاد بنشر الكتب التالية :

١ ـ كتاب يوميات البصرة بجزءين تأليف الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار والدكتور الامير محمد امين (بيروت ١٩٨٠) باللغة الانكليزية .

٢ ـ بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (بغداد ١٩٧٩) باللغة الانكليزية والعربية واشرف على اعدادها الدكتور هاشم التكريتي والدكتورة عالية سوسة .

٣ ـ الحركة الصهيونية في تونس من الفترة ما بين (١٩١١ ـ ١٩٢٧) تأليف الاستاذ التيمومي (بيروت ١٩٧٩) .

٤ ـ نشأة الحركة الأباضية الدكتور عوض خليفات (عمان ١٩٧٨) .

٥ ـ ملامح النهضة العلمية في العراق من القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٣٤ هـ ـ ٤٤٧ هـ) (١٤٥م ـ ١٠٥٨م) للدكتور محمد حسين الزبيدي (بيروت ١٩٨٠) .

٦ ـ ديوان جواهر الملوك في مدايح الملوك ، للشاعر هلال بن سعيد بن عرابة العماني تحقيق الدكتور داود سلوم (بيروت ١٩٧٩) .

٧ ـ حضارات الوطن العربي كخليفة للمدينة اليونانية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بيروت ١٩٨٠) .

٩ ـ الامير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، للدكتور عواد مجيد الاعظمي (بيروت ١٩٨٠) .

١٠ ـ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني للدكتور فاروق عمر فوزي (بغداد ١٩٧٩) .

١١ ـ المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بغداد ١٩٨١) .

١٢ ـ دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي للدكتور مصطفى عبدالقادر النجار (بيروت ١٩٨١).

١٣ ـ فلسطين تاريخها وحضارتها للدكتور عز الدين غربية (بيروت ١٩٨١) .

١٤ ـ كتاب المسعودي مؤرخا للاستاذ عبدالرحمن العزاوي (بغداد ١٩٨٣) .

١٥ ـ مقدمة في التصوف وحقيقته للامام ابي عبدالرحمن السلمي البغدادي تحقيق الاستاذ الدكتور حسين امين (بغداد ١٩٨٤) .

١٦ ـ فهارس مجلة المؤرخ العربي للدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (بغداد ١٩٨٤) .

ثانيا : الكتب التي تحت الطبع :

١ ـ كتاب مخطوطة المفاخر في اخبار العرب الاواخر ، تحقيق الدكتورة رمزية الاطرقجي .
٢ ـ كتاب المستنصرية في التاريخ ، لنخبة من المؤرخين والباحثين .
٣ ـ كتاب ملجأ الاضطراب ، لابن الهائم ، تحقيق السيدة نجلاء قاسم عباس وآخرون .
٤ ـ كتاب تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ، للدكتور خالد جاسم الجنابي
٥ ـ كتاب النظام الاساسي المعدل لاتحاد المؤرخين العرب .
٦ ـ كتاب دليل المؤرخين العرب .
٧ ـ كتاب دليل رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ .
٨ ـ كتاب دليل المراكز التاريخية الدولية (باللغة الانكليزية) .
٩ ـ كتاب دليل اتحاد المؤرخين العرب في الصحافة العراقية والعربية والعالمية .

ثالثا : المجلة

قام الاتحاد باصدار مجلة تاريخية علمية وهي (مجلة المؤرخ العربي) تحتوي على النتاجات العلمية الجيدة للمؤرخين والباحثين العرب .

ان الاتحاد يعتزم تطوير مجلة المؤرخ العربي وجعلها اكثر ملاءمة مع تطور الدراسات والمفاهيم العلمية ، وهي تصدر بانتظام اعتبارا من سنة ١٩٧٥ تاريخ صدور العدد الأول وحتى الآن .

ج ـ نشاط الاتحاد في مجال الندوات والمؤتمرات

اولا : المؤتمرات والندوات التي نظمها الاتحاد

أ ـ المؤتمرات التي تم عقدها خلال الفترة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥

١ ـ ندوة تأصيل المقام العراقي تاريخيا ـ بغداد (١ ـ ٩/١٠/١٩٨٤)
٢ ـ الشهيد في التاريخ العربي الاسلامي ـ بغداد (١/١٢/١٩٨٤)
٣ ـ المخطوطات والتراث (٢٢/١٢/١٩٨٤)
٤ ـ مكانة الاسير في التاريخ العربي الاسلامي (٨/١/١٩٨٥)
٥ ـ الدول الكبرى والقضية الفلسطينية (١٨/٢/١٩٨٥)
٦ ـ المستنصرية مدرسة وجامعة (بالاشتراك مع الجامعة المستنصرية) (٤/٥/١٩٨٥)
٧ ـ حركة مايس ١٩٤١ (٢/٥/١٩٨٥)
٨ ـ تطور الفكر العربي القومي (اتحاد المؤرخين العرب، بالاشتراك مع مركز دراسات الوحدة العربية ، والمجمع العلمي العراقي ، ومركز البحوث والدراسات العربية) (٨ ـ ١٠/٥/١٩٨٥)
٩ ـ الندوة العلمية الاولى لمدراء تحرير المجلات الانسانية (٢٧/٦/١٩٨٥)
١٠ ـ البطل في التاريخ بالاشتراك مع وزارة الثقافة والاعلام (١٠ ـ أو ـ ١١/١٩٨٥)
١١ ـ الاسطورة بين الواقع والخيال في حضارة العراق القديم شهر تشرين/ ١٩٨٥
١٢ ـ الحضارة العربية الاسلامية (١٩٨٥)
١٣ ـ الاسلام والقومية (١٩٨٥)
١٤ ـ المستشرقون والتاريخ العربي (١٩٨٥)
١٥ ـ التحدي الشعوبي للأمة العربية (بالاشتراك مع نقابة المعلمين) (١٩٨٥)
١٦ ـ جوانب من تاريخ ايران الحديث والمعاصر (١٩٨٥) .
١٧ ـ الشواهد التاريخية في احاديث . السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله (١٩٨٥) .

ثانيا : المؤتمرات العربية والعالمية التي شارك بها الاتحاد :

اسم المؤتمر أو الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريـــخ
١ ـ مؤتمر الثروة النفطية واثرها على السياسة العربية المعاصرة	ولاية نيوجيرسي الامريكية	جامعة روجر	آب/١٩٨٤
٢ ـ ندوة الحوار العربي الاوروبي	ميلانو، كادينانيا ايطاليا	المعهد الدولي العالمي التابع لمؤسسة كونرادايناور	٢٥/١١ ـ ١/١٢/١٩٨٤

٣ ـ الاجتماع الثالث للتنسيق بين الامانة العامة/ الجامعة العربية/ الادارة العامة لشؤون الاعلام والمنظمات والاتحادات العربية	تونس مقر جامعة الدول العربية	جامعة الدولة العربية الادارة العامة لشؤون الاعلام	٩ ـ ١٩٨٥/٢/١٠
٤ ـ المؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية	جامعة اليرموك	جامعة الاردن/ جامعة اليرموك جامعة مؤتة	٢٠ ـ ١٩٨٥/٤/٢٥
٥ ـ ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي	سلطنة عمان	مكتب التربية لدول الخليج العربي	١٥/١٧ شعبان ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
اجتماعات الدورة (٤٢) للجنة الدائمة للاعلام العربي	تونس مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشؤون الاعلام	٢٩ ـ ١٩٨٥/٦/٣٠
٧ ـ الدورة العادية (٢١) لمجلس وزراء الاعلام العربي	تونس/ مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الامانة العامة لشؤون الاعلام	٢ ـ ١٩٨٥/٧/٣
٨ ـ اجتماع الامانة العامة للخليج العربية والجزيرة	جامعة صنعاء	مركز البحوث اليمني	١٩٨٥/٧/٥
٩ ـ اجتماعات الدورة (٣٧ للمجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم	تونس/ مقر الجامعة العربية	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والامانة العامة للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام	١ ـ ٩/ ١٩٨٠
١٠ ـ الدورة التدريبية العربية في طرق التدريس واستخدام التقنيات التربوية	قابس/ تونس	الاتحاد العربي التقني بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي التونسية	٦/٢٨ ـ ١٩٨٥/٧/١٢
١١ ـ ندوة حول ثورة اكتوبر والعالم	شتوتجارت/ المانيا الاتحادية	معهد البحث العلمي السوفييتي	آب/١٩٨٥
١٢ ـ الاجتماع السادس عشر لمؤتمر العلوم التاريخية الدولي	شتوتجارت/ المانيا الاتحادية	المنظمة العالمية للعلوم التاريخية	٨/٢٥ ـ ١٩٨٥/٩/١
١٣ ـ الحلقة الدراسية في ادارة وتطوير معاهد التعليم التقني العربية/ بغداد	بغداد	الاتحاد العربي للتعليم التقني/ الامانة العامة	٢٥ ـ ١٩٨٥/١٠/٢٩
١٤ ـ افريقيا المحررة (بمناسبة مرور مائة عام على مؤتمر برلين حول تقسيم افريقيا (١٨٨٤)	جمهورية اثيوبيا	وزارات الاعلام الافريقية	١٩٨٥/١١/٧
١٥ ـ ندوة العراق في الثورة (المنظور التاريخي)	جامعة الموصل كلية الآداب		١٤ ـ ١٩٨٥/١١/١٦
١٦ ـ ندوة الموانىء في الخليج العربي	بغداد	مركز علوم البحار الخليج العربي/ جامعة البصرة	١٤ ـ ١٦/كانون ١٩٨٦
١٧ ـ ندوة الوحدة العربية تجاربها وتوقعاتها	جامعة صنعاء	مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة صنعاء	١٧ ـ ١٩٨٦/٢/١٢
١٨ ـ المؤتمر السنوي لجمعية دراسات الشرق الاوسط	مدينة أورليانز/ الولايات المتحدة الامريكية		١٩٨٦
١٩ ـ المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز آل سعود	الرياض/ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية		١٩٨٦
٢٠ ـ الندوة العلمية الاولى لدراسة مصادر تاريخ البصرة			١٩٨٦
٢١ ـ ندوة اليمن عبر التاريخ	جامعة عدن عدن		١٩٨٦
٢٢ ـ ندوة آفاق واستراتيجية السياسة العربية	بغداد	الجمعية العربية للعلوم السياسية في بغداد	١٩٨٦
٢٣ ـ اجتماع الدورة التاسعة للامانة العامة لمراكز الخليج والجزيرة العربيـــة	بغداد		١٩٨٦ ١٩٨٦

The Arab Historian Quarterly

Address :
Union of Arab Historians
P.O.Box : 4085
Baghdad — Iraq
Telex :
Telephone :

Subscription Card.

Please enter my subscription for
One Year $ 150.00 for Institutions
$ 60 for Historians
$ 30 for Studies of History

Please bill me ....
Check enclosed for $ ....
Name ....
Address ....
City .... Contry ....
Date ....

المؤرخ العربي

مجلة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العنـــوان :
اتحاد المؤرخين العرب
ص.ب (٤٠٨٥)
برقيا : مؤرخين بغداد
هاتف : ٤٤٣٤٢٣٦
بغداد : الجمهورية العراقية

قسيمة اشتراك

ارفق طيا صكا/ حوالة مصرفية بمبلغ .... مدفوعة لأمر اتحاد المؤرخين العرب/ الامانة العامة/ عن قيمة اشتراك بنسخة واحدة أو.......... نسخ ، لمدة سنة واحدة على ان ترسل الى العنوان الآتي :

الاسم : ....
العنوان : ....
رقم التلكس .... رقم الهاتف ....

المشاركات
٥٠ دينارا داخل العراق و ١٥٠ دولارا في الاقطار العربية ..

7. ESTATED OF THE Prophet, Dr. Adil muhiddin Alusi, College of Arts/ University of Baghdad.

8. Trade Relations between Eden and India during 6th and 7th C.H. (12th and 13th C.A.D.) Dr.moham med Kareem Ibrahim, Centre of Arab Gulf Studies / University of Basrah.

Papers on Ancient History and Antiquities :

1. A Look at Xenohpon's Life and Writings, Dr. Sami Saed Ahmed, College of Arts/ University of Bagh dad.

2. A Study in Arabic muthology (Re ligion in pre — Islamic Arabia), Dr.munthir Al — Bakr, College of Eduction/ University of Basrah.

Documentary Papers :

1. People of Hijiaz and their Econo mic and Social Life in Alexandria during Ottoman period (1517 — 1798),
   Dr. Salah Ahmed Huradi,
   King Saoud University / Riyadh.

2. Death of King Faisal 1st : Assassination or Natural Death,
   Dr. mohammed mudhafar Adhami,
   College of Arts / Mustansiriyah Uni versity.

Papers in English :

1. The Studies in Baghdad of the Luso — Arabs who went on Pilgrimages to mecca. Dr. prof. Jose D. Garcia Domingues.
2. Modern History and Historiography of the Gulf. Dr. m. morsy Abdullah.
3. The State of the Art in British middle Eastern Studies. Tim Niblock.

Documentaries and manu scripts :

1. Introduction to Russian Documents on middle East and their Locations.
2. Life of a Historian. PROFESSOR Fadhil Hussain.

Autobiography of a Historian: Fadhil Hussain, Ph.D. .... .page

Symposium of the Edition :

1. A Comment on SYMPOSIUM OF Arab Ideological Debate. ....
2. A Working paper proposed for SYMPOSIUM ON U.S.A. and the Arab Cause (prepared by National Council of Arab Culture at Rabat) ....

Book Reviews :

1. Reflections of a PALESTINIAN Written by : Dr. mohammed Tarbush. Reviewed by : Dr. Rasoul Shani Khafaji.
2. Studies on modern and Contemporary History of Iran. Written by : Dr. Kamal Ahmed mudhir. Reviewed by Dr. Hussain mohammed Kahwati.
3. Debates and Discussions in the tenth International Congress for Economic History) Berne, 1986(Re- viewed by Dr Zeki Majeed Hasan.
4. MYTHE OF Arab Piracy in the Gulf. Written by Dr. SULTAN Muham-med al — Qasimi Reviewed by Dr. m. A. AlDauood.

Table of Contents

Volume 33

Papers on Modern and Contemporary His- tory:

Papers on Modern and Contemporary History :

Papers on Arab and Islamic History :

ANNUAL SUBSCRIPTION

	Inside Iraq	Outside Iraq
1 Governmental and Semi–Governmental Offices	50 dinars	150 dollars
2 Historians	20 dinars	60 dollars
3 Students of History	10 dinars	30 dollars

All Correspondance : To Editor - in - Chief
P. O. Box 4085
Union of Arab Historians
Baghdad - Iraq

REQUIREMENTS OF PUBLICATIONS

1 Research should be truly academic.
2 It coincides with aims of the union.
3 Not more than 50 pages.
4 Original and not sent elsewhere.
5 May cover any area in history, and written either in Arabic or in English.
6 Title typed on a separate sheet, with names of researches in full.
7 Typed in two copies on every other page, and properly numbered.
8 In case the research is delivered in a conference, this may be foot - noted.
9 Foot - notes unified and correctly numbered.
10 All papers are evaluated before being admitted.
11 Papers are artistically ordered.
12 Address and name clearly written in English.

E. Mortimer, Faith and Power (London, 1980).
A. Nutting, No End of a Lesson: the story of Suez (London, 1967).
p. Seale, The Struggle for Syria: a study of post - war Arab politics, 1945 - 58 (London, 1965).
R. Stephens, Nasser: a political biography (Harmondsworth, 1970).

3. The following works are referred to here:
P. O'Brien, The Revolution in Egypt's Economic System, 1952 - 65 (London, 1966).
P. R. Odell, Oil and World Power: background to the oil crisis (Harmondsworth, 3rd edn. 1974).
E. T. Penrose, The Large International Firm in Developing Countries: the international petroleum industry (London, 1968).
D. Warriner, Land Reform and Development in the Middle East: a study of Egypt, Syria and Iraq (London, 1962).

4. The following works are referred to here:
P. Beaumont, G. H. Blake and J. M. Wagstaff, The Middle East: a geographical study (London, 1976).
J. I. Clarke and W. B. Fisher, Populations of the Middle East and North Africa (London, 1971).

5. The principal works referred to here are:
R. Mabro, The Economic Consequences of the Fall in Future Energy Demand on the Arab World (Oxford, 1986).
R. J. A. Wilson, Banking and Finance in the Arab Middle East (London, 1983).

6. The principal works referred to here are:
A. Dawisha, Islam in Foreign Policy (Cambridge, 1983).
L. Whetten, The Canal War: four - power conflict in the Middle East (London, 1980).

7. The principal works referred to here are:
C. Leatherdale, Britain and Saudi Arabia, 1925 - 1939: the imperial oasis (London, 1983).
R. S. Zahlan, The Origins of the United Arab Emirates: a political and social history of the Trucial States (London, 1979).

8. The principal works referred to here are:
W. Lancaster, The Rwala Bedouin Today (Cambridge, 1981).
R. Tapper, Pasture and Politics: economics, conflict and ritual among Shahsevan nomads of northwestern Iran (London, 1979).

social forces (tribal leaders, religious leaders etc.) from the exercise of power, so as to resolve the social and economic problems which have arisen. Such a process′ brought about a gradual change in the state - form in Jordan, Saudi Arabia and the Gulf states during the 1960s and 1970s.

The common bourgeois - bureaucratic state - from possessed by regimes which have developed from very different origins helps to explain an apparent paradox in the politics of Arab states. The policies pursed by some 'conservative monarchies' (e.g. Jordan) and those pursued by some republics born in the curcible of a purported revolution (e.g. Egypt) are in practice very similar. Nether the processes of political participation nor the social and economic policies and structures are distinctively different. Given their common state from, however, the similarities are scarcely surprising.

The inevitable inequalities which arise from government policies framed around the interests of the commercial bourgeoisie create a danger of social unrest in bourgeois - bureaucratic states. Whether such unrest actually achieves articulation and poses a threat to the survival of the regime depends on circumstantial factors: the availability of resources with which potential unrest can be defused; the opportunities for labour migration; the unity or diversity of political and social allegiances among the disadvantaged part of the population; the regime's skill in political manipulation etc. The economic and infrastructural development financed by the vast oil revenues of the Arabian peninsula has enabled the peninsula states to defuse discontent. Development in the Arabian peninsula has also relieved social unrest in Jordan and Egypt through the provision of opportunities for labour migration and the gains from remittances. Such positive aspects as may flow from labour migration, however, proved an insufficient palliative for the social unrest which ultimately terminated Sudan's bourgeois - bureaucratic phase in the early 1980s.

How the three state - froms sketched out above respond to the policydilemmas confronting the state sets the contect for the strengthening or disintegration of each state - form.

Footnotes

1. The principal works referred to here are:
   J. B. Glubb, The Story of the Arab Legion (London, 1956).
   A. Gaitskell, Gezira: a story of development in the Sudan (London, 1959).
   R. L. Hill, A Biographical Dictionary of the Anglo - Egyptian Sudan (Oxford, 1951).
   S. H. Longrigg, Syria and Lebanon under the French Mandate (London, 1958).
   A. Parsons, Pride and the Fall: Iran 1974 - 1979 (London, 1984).
   H. Trevelyan, The Middle East in Revolution (London, 1970).
   J. S. Trimmingham, The Sufi Orders in Islam (Oxford, 1971).

2. The principal works referred to here are:
   M. Adams, The Middle East (London, 1971).
   H. Cobban, The Palestinian Liberation Organisation: people, power and politics (Cambridge, 1984).
   D. Gilmour, Lebanon : the fractured country (London, 1983).
   D. Hirst, The Gun and the Olive Branch: the roots of violence in the Middle East (Faber, rev, ed. 1984).
   P. Mangold, Superpower Intervention in the Middle East (London, 1978).
   P. Mansfield, Nasser's Egypt (Harmondsworth, rev. ed. 1969).

The two state–forms, however, are quite distinct and different. The relationship between the commercial bourgeoisie and the state is purely economic: the commercial bourgeoisie do not play a prominent part in organising popular acquiescence to the regime, nor does the regime seek to build up the social influence of the commercial bourgeoisie. Political power, both at the local and national levels, remains clearly in the hands of the state. The commercial bourgeoisie is dependent on the state for contracts, import licences etc., while the state's dependence on the commercial bourgeoisie stems from the interests, contacts and perceptions of the state bourgeoisie. Local agents of multinational corporations and of other companies based in the advanced capitalist world are prominent in the ranks of the commercial bourgeoisie.

Economic policy under the bourgeois–bureaucratic state follows predictable lines: emphasis is placed on recognising 'economic realities' and rejecting 'ideologically–motivated' policies and projects (i.e. ones aimed at socio–economic transformation); private enterprise and foreign investment are encouraged; trade, left largely in the hands of private companies and merchants, is allowed to flow in whatever directions appear most profitable; and a reasonable level of consumer imports is permitted.

Some encouragement may be given to investment in manufacturing. Must of this investment, however, will come from foreign companies and multinational corporations, or else will involve a close association with such companies and corporations - due to the technological dependence and possibly the market dependence of the industries created. 'Market dependence' refers to situations where industries are producing goods for export markets which are accessible only in cooperation with external agencies. Such manufacturing investment as there is, therefore, does not add substantially to the economy's independence of outside forces. The local entrepreneurs involved in the manufacturing undertakings should not be conceived of as a 'national' bourgeoisie whose interests, contrary to those of 'comprador' import–export merchants, lie in an autonomous, self–sufficient economy. The individuals involved in manufacturing are, in fact, frequently also active in the import–export field. In both capacities their interests favour the maintenance of an open economy, enabling links with companies and corporations in the advanced capitalist world to be fostered.

The political form taken by the bourgeois–bureaucratic state remains centralised and authoritarian. Bourgeois–bureacratic states may, however, seek to project themselves as more liberal and democratic than reformist/ revolutionary states. This, indeed, is usually important to the overall strategy of the regimes concerned: both as a means of gaining legitimacy internally, and as an indication to the advanced capitalist countries (with whom the principal external relationships are fostered) that acceptable political norms are being upheld. Experiments may, therefore, be made with liberal political institutions, but such experiments tend to be limited or terminated when freedom of political organisation allows political forces alien to the regime to gain influence.

The bourgeois - bureauccratic state may come into existence in a variety of different ways. Its initiation may stem from the 'maturing' of a reformist / revolutionary state, where the state bureaucracy, transforming itself into a state bourgeoisie, grows steadily closer to the commercial bourgeoisie. This happened in Egypt during the 1970s. Divisions within the political leadership of a reformist / revolutionary state, where one faction is impelled to seed new allies so as to maintain itself in power, may also lead to the emergence of a bourgeois - bureacratic state, as occurred in Sudan in the early 1970s. Or else the bourgeois - bureaucratic state may develop directly from a dominant social forces state, where the political leadership has strengthened state power and distanced traditional

volution came'. The latter social forces deemed normally to comprise workers, peasants, soldiers, intelligentsia and national capitalists - are seen as component members of a national alliance. The reluctance to allow pluralistic party competition does not spring simply from the dictatorial attributes of those who wield power under this state–form. The ambitious programme of social and economic reforms envisaged could probably not be implemented under a pluralistic system: those who would lose by the reforms retain sufficient social influence to mobilise opinion against them. The fact remains that the centralised political system affects not only the ability of conservative social groups to impede change but also the capacity of the groups 'for whom the revolution came' to articulate their own interests. Political organisation, therefore, lacks spontaneity and resilience. The supposed alliance on which the regime rests can prove an empty shell, incapable of providing dynamic for the continued pursuit of radical policies.

The role of the state bureaucracy is of key importance in the development (and ultimately perhaps the termination) of the reformist/revolutionary state form. As the state expands its activities, running an extensive array of industrial, agricultural, trading, service and contracting corporations, guiding the direction of development, providing expanded social and educational services, and controlling many aspects of social organisation, the bureaucrats who control publicly–owned corporations and who head government departments assume increased importance and influence within the governing system. Collectively they can channel and deflect the wishes of the political leadership - although in practice the political leadership and state bureaucracy may be so closely intertwined that it becomes difficult to speak of the one influencing the other. Their interests are likely to be harmed by any further radicalisation of government policy, such as might introduce workers' participation into the management of corporation and departments, reduce salaries of the highly–paid, or bring in new restrictions on consumer imports.

The state bureaucracy, then, comes to constitute an impediment to the pursuit of policies aimed at further social and economic transformation. Without political parties which genuinely articulate the interests of those classes which would benefit from such transformation, the impediment can not easily be removed.

The reformist/revolutionary state–form, at different stages of development and maturity, has held sway in Egypt between 1952 and 1973, in Sudan between 1969 and 1972, in Iraq after 1958, in Syria after 1963, and in Libya after 1969. These reformist/revolutionary states came into being following the removal from power of dominant social forces regimes. In Algera and South Yemen, however, the guerilla struggles through which independence was gained led to the reformist/revolutionary state–form emerging at independence.

iii. **Bourgeois–bureaucratic state.** This state – form is characterised by the close relationship between the state and the commercial bourgeoisie. The state bureaucracy, now transformed into a state bourgeoisie, provides a dynamic link between the interests of the commercial bourgeoisie and those of the state. The term 'state bourgeoisie' becomes appropriate in this state–form by virtue of the personal involvement of state bureaucrats in the private sector, whether as direct investors, or through support for businesses run by family members, or through contacts which envisage the bureaucrat ultimately leaving the public for the private sector (where his knowledge of government personnel and procedures will duly be utilised). A state bureaucrat's involvement in the private sector may occur through corrupt practices, but this is not necessarily so.

The close association of the state with leading class fractions, which implies the state having limited autonomy, may suggest some similarity between the bureaucratic–bourgeois state and the dominant social forces state.

tical parties representing their own interests, however, the dominant social forces state becomes less liberal and more repressive. A military element may eventually be introduced into the government.

The problems and tensions which arise within dominant social forces states lead towards the demise of this state–form either because the state is overthrown (as happened in Egypt 1952, Iraq 1958, Sudan 1969 and Libya 1969), or because the measures necessary to ensure the continued predominance of the ruling group ultimately create a different state–form (as happened, it will be contended, in Saudi Arabia), or because the problems and tensions destroy the civil order (as happened in Lebanon in the mid - 1970s).

ii. **Reformist/revolutionary autonomous state.** Such a state generally emerges when a dominant social forces state is overthrown. The state is usually instituted by military officers and may be built around a charismatic figure who become the mainspring for the formulation of populist policies.

The defining characteristic of the state is that the political leadership lacks a close identification or involvement with the landowners, major merchants, owners of urban real estate etc. who compose the leading class fractions. The state, therefore, enjoys some autonomy of these class fractions. The political leadership of the reformist/revolutionary autonomous state is usually petit bourgeois in occupation and in family background (military officers whose fathers were petty government officials, smaller merchants, wealthier peasants etc.), and maintains a critical attitude towards the 'traditional', 'Western–oriented' and 'reactionary' groupings upon whom the dominant social forces state was based.

Drawing support for its maintenance from the military, fromthe leader's charismatic following among the population, and possibly from the political and security organisations which the regime has itself instituted, the reformist/revolutionary state pursues populist policies aimed at resolving the developmental problems and reducing the inequalities which were present under the dominant social forces state. With a view to strengthening its ability to direct the development process, the state brings significant sectors of the economy under state control through nationalisation, adopts detailed economic planning, pursues an active policy of investment in productive fields, and imposes strict controls on the import–export trade and on foreign exchange. Greater equality in landholding is brought about by land reform, and social mobility within the population is increased through the expansion of education. Emphasis is placed on industrialisation, with the result that rural–urban migration is likely to continue. The attempt to break links of dependency with the advanced capitalist world leads to the re–direction of trade towards other developing countries and towards the socialist bloc, with a substantial proportion of trade now being covered by barter agreements.

Whether these measures should rightly be deemed revolutionary (as the regimes themselves tend to describe them) or reformist (as subsequent analysis usually suggest) is debatable. On the one hand, the measures may well shift economic power away from the dominant social forces which formerly held it, liberate the economy from foreign control, ensure greater equality and remove some of the obstacles which had previously inhibited development. On the other hand, the measures stop short of involving a total transformation of society; a reasonably strong private sector is usually retained. Moreover, for reasons to be explained below the extent to which radical change can proceed tends to be limited by the locus of political power under this state–form.

Political organisation under the reformist/revolutionary state is usually top–heavy. Political participation occurs within a non–competitive political framework, which lays emphasis on the compatibility of the interests of those 'progressive social forces for whom the re-

ing of the focus) has played host to three different state–forms. The delineation of these state–forms and the description of their characteristics may, hopefully, encourage discussion of the typology and thereby strengthen interest in developing the approach.

i. **Dominant social forces state.** The state is in this case closely associated with big landowners, tribal leaders, religious leaders,major merchants and urban notables. These elements control the main privately–owned means of production, but the strength of their position does not rest on their economic role alone: they enjoy social influence among the population and often actual political power at the local level. They function as crucial intermediaries between the state and the population : using their social influence to ensure the quiescence of the population and hence the stability of the state, and on occasions pressing the state to satisfy certain specific local interests. Economic well–being, social standing and political leverage all reinforce each other in this situation. The social influence of tribal and religious leaders, for example, can enable them to acquire title to land and to develop commercial enterprises, which in turn strengthens their social influence and their ability to play a political role. Political leverage with the state enables them to benefit from government policies which affect their own areas - as when the registration of land by government bodies gives tribal leaders the opportunity to register tribally–owned common lands in their own names.

The dominant social forces state, then, has little autonomy of the leading class fractions: its programmes and activities are closely linked to the interests and objectives of landowners, major merchants, contractors, owners of urban real estate, and such few indigenous manufacturers as there may be. In practice, the dominant social forces state in the post–independence Arab world has tended to maintain close relations with the states of the advanced capitalist world - directing its external trade towars these states, drawing aid and assistance from them, and encouraging investment from this quarter. Significant parts of the economy have sometimes been controlled by foreign companies, and on occasions a Western military presence has been permitted. Close personal and business relationships may link the dominant social forces to foreign companies and institutions.

The class character of the dominant social forces state sets the framework within which economic policies emerge and political institutions develop. Private enterprise gives the economy its main dynamic, while the state concentrates on infrastructure, education and social services. Substantial economic growth can occur, but the pattern of development leads to some critical imbalances in society and economy to foreign imports discourages investment in manufacturing; inequalities between rich and poor grow steadily more marked; the capitalisation of agriculture causes increasing landlessness among the rural population; and foreign control of key sectors of the economy deprives the country of foreign exchange through the repatriation of profits. The interactions between class and state under this state–form both create these problematical characteristics and make difficult their elimination. The policies pursued, moreover, bring into being or strengthen social groupings whose interests are antipathetic to the whole system: an urban lumpenproletariat composed largely of migrants from the countryside, and an educated petite bourgeoisie frustrated by its exclusion from effective power.

Some political liberalism is possible under this state–form. The dominant social forces, secure in the knowledge that they can influence the population's political allegiances, may be prepared to operate within a parliamentary framework. Individual political leaders, moreover, may on occasions cede power to other leaders emanating from the dominant social forces - aware that the system which ensures their own social pre–eminence will be retained. As new social groupings emerge and form poli-

theoretical. The field is dominated by geographers, whose approach has always been eclectic and who tend to eschew theory. Nonetheless, the range of social and economic (and just occasionally political) aspects which are now being included in resource - based studies, and the attempts made to generalise about how these aspects interact in Middle Eastern states, justifies the inclusion of the category here. The University of Durham has taken a lead in this field, with geographers at the School of Oriental and African Studies also strongly involved. Work relating to manpower in the Middle East, drawing out the diverse social and economic dimensions of the structure of the labour force, has been of particular significance and is thus given separate treatment below.

a) Manpower studies.

B. al - Najjar, The New Nomads: migrant workers in the Gulf (London, forthcoming, 1987).
J. S. Birks and C. Sinclair, Arab Manpower: the crisis of development (London, 1980).
R. Lawless, A. M. Findlay and A. Findlay, Return Migration to the Maghreb: people and policies (London, 1982).
K. Mclachlan and A. al - Moosa, Immigrant Labour in Kuwait (London, 1985).
R. Owen, Migrant Workers in the Gulf (London, 1985).
I. Seccombe, 'Human Resources in the Arab World: the impact of migration', in I. Ibrahim, Arab Resources: the transformation of a society (London, 1983).
I. Serageldin, J. Socknat, J.S. Birks, R.L. and C. Sinclair, Manpower and Labour Migration in the Middle East and North Africa (Oxford, 1983).

b) Other studies.

J. A. Allan, Libya: the experience of oil (London, 1981).
G.H. Blake and R. Lawless (eds.), The Changing Middle Eastern City (London, 1980).
H. Bowen - Jones and J.I. Clarke (eds.), Change and Development in the Middle East (London, 1981).
W. W. Harris, Taking Root: Israeli settlement in the West Bank, the Golan and Gaza - Sinai, 1967 - 80 (Chichester, 1980).
H. Roberts, An Urban Profile of the Middle East (London, 1979).

iii. Ideology and Society. Work in this integrated area of study examines the manner in which ideas and social structure interact: The social roots of secular ideologies, Islamic resurgence and political zionism, and the 'anthropology of Islam'. Some of the research in this field is linked into a political economy approach.

H. Enayat, Modern Islamic Political Thought: the response of the Shi'i and Sunni Muslims to the twentieth century (Cambridge, 1983).
E. Gellner, Muslim Society (Cambridge, 1981).
M. Gilsenan, Recognising Islam (London, 1982).
A. Orr, The unjewish State: the politics of Jewish identity in Israel (London, 1983).
R. Owen, 'Arab Nationalism, Arab Unity and Arab Solidarity', in T. Asad and R. Owen, Sociology of 'Developing Societies': the Middle East (London, 1983).
S. Zubaida, 'The Ideological Conditions for Khomeini's Doctrine of Government', Economy and Society, vol. XI, 1982.

5. New Directions for the Future

A paper of this kind should perhaps restrict itself to the scope of the title - examining the state of British Middle Eastern studies as the field stands today. I do, however, intend to go beyond this and to suggest how the field could usefully develop from here. My reflections are intended to be relevant also beyond the confines of the British scene.

While the integration of aspects from different subject - disciplines, ordered around theoretical concepts, has deepened our insight into the Middle Eastern scene, the dynamics which determine the overall pattern remain obscure and confused - in part because it is unclear how that pattern should itself be conceived. When more work has been done on classifying clearly the state - forms which have existed in the modern Middle East, it will become easier to examine the factors which lead to the strengthening or disintegration of these state - forms.

Utilising concepts advanced piecemeal by others, I will propose below that the post–colonial Arab world (note the narrow-

ten in British universities (not necessarily by British people). Four sub - fields can be identified.:

a) General theory on political economy in the Middle East. As will be contended later, insufficient attention has so far been given to general theory. There has, nonetheless, been the work of Bryan Turner, while the writings of Talal Asad and Roger Owen in the Review of Middle Eastern Studies and elsewhere provide pointers in the direction of general theory.

T. Asad and R. Owen (ed.) Sociology of 'Developing Societies':
the Middle East (London, 1983).

B. Turner, Capitalism and Glass in the Middle East (London, 1984).

B. Turner, Marx and the End of Orientalism (London, 1978).

b) Studies of Middle Eastern states based on an analysis of the role of class groupings and of the dynamics stemming from economic factors (internal or external).

H. Afshar (ed.), Iran: a revolution in turmoil (London, 1985).

U. Davis, Israel, Utopia Incorporated: a study of class, state and corporate kin control (London, 1977).

R. First, 'Lidya' in P. Nore and T. Turner, Oil and Class Struggle (London, 1982).

F. Halliday, Dictatorship and Development in Iran (Harmondsworth, 1979).

M. Johnson, Class and Client in Beirut: the Sunni Muslim community and the Lebanese state, 1840 - 1985 (London, forthcoming, 1986).

h. Katouzian, The Political Economy of Modern Iran, 1926 - 79 (London, 1981).

H. Lackner, A House Built on Sand: a Political economy of Saudi Arabia (London, 1979).

T. Niblock, Class and Power in Sudan: the dynamics of Sudanese politics, 1898 - 1985 (London, forthcoming, 1986).

P. Sluglett and M. Farouk - Sluglett, Iraq since 1958: from revolution to dictatorship (London, forthcoming, 1987).

c) Studies of the role of the bureaucracy in the state. The works referred to here focus on the social and economic environment within which the bureaucracy moves, laying emphasis on the role of particular social groups in influencing the bureaucracy's attitudes and decisions.

N. Ayubi, Bureaucracy and Politics in Contemporary Egypt (London, 1980).

H. Roberts, 'The Algerian Bureaucracy', in T. Asad and R. Owen, The Sociology of 'developing Societies': the Middle East (London, 1983).

d) Analyses of the economic position and objectives of particular social groupings. Also included here are works which examine economic policies and programmes from the perspective of their impact on different social groupings.

G. al - Najjar, 'The Decision - Making Process in Kuwait: land acquisition policy as a case study' (unpublished Ph.D. thesis, University of Exeter, 1984).

A. Barnet, The Gezira Scheme: an illusion of development (London, 1877).

A. Bayat, Workers and Revolution in Iran (London, forthcoming, 1986).

M. Duffield, Maiurno: the transformation of a peasant society in Sudan (London, 1981).

A. Elhassan, 'The State and the Development of Capitalism in Sudan' (unpublished Ph.D. thesis, University of East Anglia, 1985).

F. B. Mahmoud, The Sudanses Bourgeoisie: vanguard of development? (London, 1984).

D. Seddon, Moroccan Peasants: a century of change in the Eastern Rif, 1870 - 1970 (Folkestone, 1981).

M. Zaalouk, Class, Power and Foreign Capital in Egypt: the emergence of a new bourgeoisie (London, forthcoming, 1986).

ii. Resource Base and Social Formations. In this integrated area of study, it is rather more difficult than in political Economy to project the concerns as either distinctively new or as strongly

and especially on southern Sudan - the work was of sufficient importance in the development of the field of social anthropology to merit attention. Unlike in most other fields, a strong theoretical framework was present. Yet this framework tended to separate the concerns of intra - tribal society from those of the wider political and economic system. Oxford again constituted the focal point of studies, with offshoots in Manchester, Hull and elsewhere. Among the works dealing with areas outside the southern Sudan were the following:

T. Asad. The Kababish Arabs: power, authority and consent in a nomadic tribe (London, 1970).

I. Cunnison, Baggara Arabs: power and the lineage in a Sudanese nomadic tribe (Oxford, 1966).

A. Coben, Arab Border - Villages in Israel: a study of continuity and change in social organisation (Manchester, 1965).

E. Peters, 'Some structural aspects of the feud among the camelherding bedouin in Cyrenaica', Africa, no. 37, 1967, pp. 261 - 82.

4. The Integrationist Trend of the 1970s and 1980s

The trend during the 1970s and 1980s has been for what I will call 'integrated areas of study' to develop: areas characterised by the interaction of aspects which were previously treated separately, where the patterns of interaction are deemed to constitute the structures which set the course of events. Different elements of economy, society, polity, resource base and ideology, then, are brought together in the patterns of interaction delineated. The terms in which these interactions are described are usually drawn from a theoretical framework.

The emphasis which I will give to these integrated areas of study is not intended to imply that generalist and specialist studies have either been terminated or superceded. There have, in fact, been some excellent specialist works published in recent years in economics (see, for example, the works of R. Mabro and R. Wilson[5]), international relations (see A. Dawisha and L. Whetten[6]). modern history (see C. Leatherdale and R. S. Zahlan[7]) and anthropology (see W. Lancaster and R. L. Tapper[8]). Yet even the specialist studies have been given greater coherence by work done in the integrated areas. The latter work has provided a framework within which the significance of the particular aspects covered in specialist studies can more readily be understood.

The metaphor from graphic art which was employed earlier may serve again to illustrate the new direction. The recent trend has been to paint pictures which emphasise the structure of the scenery - something which can only be done by bringing in different aspects (trees, fields etc.) and showing how they relate to one another. Pictures of individual aspects of the landscape are still produced, but even these are given greater coherence by the feel of the landscape conveyed by the works of other artists.

The development of integrated areas of study has occurred within three main spheres: that of political economy, that which relates the resource base to social formations, and that which links together ideas and social structure.

i. **Political Economy.** This category covers studies of the nature of the state in the Middle East, the role within the state of particular class groupings, the impact of dependency relationships, and the manner in which the economic policies pursued by governments reflect and impinge upon the interests of different class groupings within the country. Many, but not all, of the researchers working in this field have been associated with the Middle East Studies Group (which produced, for a time, the Review of Middle Eastern Studies). The principal publishers serving the field are Ithaca press, Zed press, Croom Helm and to a lesser extent Macmillan.

In what follows I will seek to give an indication of the kind of Political Economy studies now being undertaken. Priority will be given to mentioning new work, which may take the form of 'forthcoming publications' or elso of Ph.D. theses writ-

ing disjointed and unconnected pictures of the scenery. These pictures either focused on only one aspect of the scenery (only the trees, perhaps) or else covered dailed to bring out the structure of the landscape. Individual pictures might be good, but they did not give the viewer a feel for the landscape as a whole.

Lest this should convey too negative an impression of the work undertaken at that time, it should be stressed that much of the work was of high calibre and that the reluctance to employ theory did at least have one benefit: some of the pitfalls into which researchers were led by the behaviouralist and modernisation theories then in vogue were avoided.

While it would not be appropriate here to attempt an extensive survey of the literature produced at this time, some examples should serve to draw attention to the key areas covered. A basic division is made between 'generalist' studies (broad attempts to trace developments within particular Middle Eastern states) and 'specialist' studies (more detailed and closetextured analyses of particular aspects of recent history or of social, economic or political events or structures).

i **Generalist studies.** This realm was inhabited by some political scientists and modern historians, and by that array of Middle East specialists referred to earlier who were not attached to universities. The approach and the level of analysis naturally varied according to the background of the writer. Among the works which fall within this category are the following:

P. M. Holt, A Modern History of the Sudan (London, 1961).

B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey (London, 1968).

P. Mansfield, Nasser's Egypt (Harmondsworth, rev. ed. 1969).

P. Seale, The Struggle for Syria : a study of post - war Arab politics, 1945 - 58 (London, 1965).

R. Stephens, Nasser : a political biography (Harmondsworth, 1970).

P. J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt (New York, 1969).

J. Wright, Libya (London, 1969).

ii **Specialist studies.** A further sub division is needed here, according to the area of specialisation. While substantial studies of this kind occurred in economic (see, for example, the works of P. O'Brien, P. R. Odell, E. T. Penrose and D. Warriner[3]) and geography (see P. Beaumont et al., J. I. Clarke and W. B. Fisher[4]), the two areas which merit most attention are those of modern history and social anthropology.

a) Modern history. The distinguished school of historians at the Middle East Centre, University of Oxford, probably constituted the kernel of this field of specialist study, although historians at the School of Oriental and African Studies (London) and elsewhere also made significant contributions. Most of the work was based on detailed archival research and thus generally dealt with events at least 30 years prior to the time of writing. In view of the amount of work conducted in this field - especially that emanating from Albert Hourani and his students - the works cited below only constitute a small sample:

D. Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843 - 1914: church and politics in the Near East (Oxford, 1969).

A. H. Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798 - 1939 (London, 1962).

E. Monroe, Britain's Moment in the Middle East, 1914 - 56 (London, 1963).

E. R. J. Owen, Cotton and the Egyptian Economy, 1820 - 1914: a study in trade and development (Oxford, 1969).

Mention should also be made of Eli Kedourie's contentious attempts to relieve British policy - makers of their undoubted responsibility for the train of events which led to the creation of the state of Israel:

E. Kedourie, England and the Middle East, 1914 - 21 (London, 1956).

b) Social anthropology. Although the research of social anthropologists related mainly to areas which aere geographically peripheral to the Middle East - concentrating mostly on Sudan,

[again], Newcastle, Reading, Sheffield, Surrey and Sussex).

Research institutes with a substantial interest in the Middle East, notwithstanding wider interests elsewhere, include the Royal Institute for International Affairs (London), the International Institute for Strategic Studies (London), the Oxford Institute for Energy Studies, and the Centre for Energy Economics (University of Surrey).

Two uninstitutionalised elements of the infrastructure also deserve a mention. First, the community of diplomats, colonial officials etc. with Middle Eastern exerience brought into being by Britain's erstwhile global role. A number of these have combined or followed their professional service with research and writing on the area, most notably Arthur Gaitskell, John Glubb, Richard Hill, Stephen Longrigg, Anthony Parsons, Humphrey Trevelyan, and John Trimmingham.[1] Second, analytically - minded journalists who have specialised on the Middle East. Among those who have published substantive studies on the ares are Michael Adams, Helena Cobban, David Gilmour, David Hirst, Peter Mangold, Peter Mansfield, Edward Mortimer, Anthony Nutting, Patrick Seale, and Robert Stephens[2].

The British Society for Middle Eastern Studies acts as a forum for contact and cooperation among the various individuals and organisations involved in Middle Eastern studies.

2. The Documentary and Library Infrastructure

The largest collections of books on the Middle East in Britain are those held by the British Library and by the School of Oriental and African Studies. Strong collections are also held by the university and associated institute or centre libraries at Cambridge, Durham, Exeter, Manchester and Oxford. Substantial contemporary documentation on the area is held by the Centre for Middle Eastern and Islamic Studies (Durham), by the Centre for Arab Gulf Studies (Exeter), by the Middle East Centre (Oxford), and by the School of Oriental and African Studies (London). The Oxford centre has been at the forefront in collecting private papers related to the Middle East, with the Cambridge Middle East Centre and Durham university library pursuing a similar path.

The British Public Records Office at Kew contains a wealth of archival material, as also on a more limited scale do the Foreign Office library and the India Office library (important for the Gulf). The press cuttings library of the Royal Institute for International Affairs offers a wellorganised ordering of material from the international press, while the library of the International Institute for Strategic Studies has extensive contemporary documentation on the armed forces of Middle Eastern states.

The Middle East Library Committee coordinates activities among the different libraries, arranging area specialisations and ensuring that lesserused materials (official gazettes, bank reports, newspapers etc.) are collected by one library or other.

3. The Development of Modern Middle Eastern Studies: 1950s to the mid 1970s

In this section I will seek to identify the deficiencies in British Middle Eastern studies as the field developed in the 1950s, 1960s and early 1970s - so as to set out the background against which new approaches emerged during the 1970s and early 1980s. My contention is that the value of these early studies was limited by the absence of a theoretically - based and integrated approach towards the area. The studies conducted stood on their own, often constituting valuable pieces of research in themselves but not contributing to an understanding of the underlying political, economic and social processes at work in the Middle East as a whole - or, at least, not contributing as much as they could have done if they had been linked into theories which facilitated comparison or explained contrast among the different societies and polities of the area. Even those works which covered the whole region consisted of individual and separate studies of each individual state, where each state was regarded as having distinct characteristics and dynamics. The unsystematic nature of some of the work, moreover, enabled assumptions (e.g. on Arab society and culture) to enter the analysis which were neither exposed nor justified.

A metaphor drawn from graphic art might be useful in describing the state of the art in British Middle Eastern studies prior to the 1970s. Practitioners were paint-

The State of the Art in British Middle Eastern Studies

Tim Niblock

Introduction

Two provisos are necessary at the outset of this paper. First, there is something slightly incongruous about the subject: where a field of syudy has become internationalised, as is the case with Middle Eastern studies, any national contribution can only be delineated with difficulty. The national contribution is inevitably dependent on, and characterised by, interaction with studies pursued elsewhere. I have chosen, moreover, to include within my definition of British Middle Eastern studies the works of some writers who, by virtue of their educational, cultural and publishing backgrounds, fit into the British scene but who are not in fact British and may be resident elsewhere. Should others claim them, I shall not protest.

Second, the focus will be on the social science disciplines and on modern history. Studies of language, religion and literature may be brought in as part of the infrastructure of Middle Eastern studies in Britain, but the significance of the research conducted in these fields will not be covered. Nor will I enter the debate on the baleful influence of the Orientalist tradition: sufficient has been written on this in recent years to render further comment unnecessary.

the paper proceeds through five sections. The first and second sections cover the institutional and documentary infrastucture supporting the framework of Middle Eastern studies in Britain. The third section examines the development of, and deficiencies in, these studies from the 1950s to the mid 1970. The fourth section focuses on those key areas where researchers, taking note of the deficiencies of the past, have developed more integrated and theoretically - grounded approaches to the study of the region. Such work has gathered pace since the mid - 1970s. The final section suggests a direction in which the field of Middle Eastern studies could now usefully develop, so as to give greater coherence to existing research.

1. the Institutional Infrastructure

The social scientific and modern historical study of the Middle East in Britain has been most actively advanced at four universities: Durham, Exeter, Oxford and the School of Oriental and African Studies (London). Each of these institutions possesses a broad range of Middle East specialists in the social sciences and modern history, together with substantial departments involved in the teaching of Arabic and Islamic studies. While the School of Oriental and African Studies has the greatest all'- round strength, Durham is particularly strong in geography, Exeter in politics and Oxford in modern history.

In other universities, some significant programmes of modern Middle Eastern study are also maintained, either as an adjunct to a more traditional Arabic and Islamic studies department (as at Cambridge, Edinburgh, Lancaster, Leeds, Manchester and St. Andrews) or as an integral part of social studies (as at Aberystwyth, Hull, the London School of Economics, Manchester

with normal human ambitions. Although poor they were skilful. They were people practicing normal human activities, in particular, trade, in which they had been involved for millenia. The only abnormal factor was the introduction of a foreign people whose aim was to dominate and exploit. The intruders were the forces of British imperialism who knew very well, and often testified, that the indigenous people of the Gulf were only interested in the peaceful pursuit of pearl diving and trade."

In addition to the academic dissertations on the Gulf region new centres of documentation and research appeared in the Gulf States and in the West.

The first centre was established in Abu Dhabi in 1968. In 1977 a secretariat general appeared to organise and encourage the activities of these centres. Documents from different parts of the world were gathered and indexed, manuscripts and books collected, and many journals on the Gulf region appeared, in particular those at the Universities of Kuwait and Basrah.

Many important western works have been translated by experts in these centres, particularly the Gazetteer of Lorimer by the centre in Qatar. The Ministry of Culture and National Heritage in Muscat started a series of translations of many important European works on Oman and the Gulf.

At the Centre for Documentation and Research in Abu Dhabi many publications were issued, chiefly:

Writings of Mr. Ali al - Tajir on the Phoenicians, Ibn Majid the Arab Navigator, and the Portuguese.

Dr. Frauke Heard's book "From Trucial States to United Arab Emirates, London, 1982.

Mr. Edward Henderson, "Adventures in Arabia" (1984). This is in the process of being printed.

Nevertheless, the Gulf Centres have to face the challenge of planning and executing massive academic works which need financial backing for the teams involved, either from a government source or an institution along the lines of the Curzon Committee and Lorimer's work.

These projects are:

1. Writing the history of the Gulf between 1905, when Lorimer ended his Gazetteer, up to the present date. In addition producing an academic comment on Lorimer's work which completely neglected the local data.
2. Producing an atlas of the Gulf.

The Government of Kuwait estabkished a committee to compile the history of Kuwait but this work has not yet been completed.

Also, the Centres are trying, as a cooperative project, to produce a Gulf Atlas and it is hoped that this will be completed in the near future by the University of Kuwait as a contribution to the Atlas of the Arab World.

Abdullah al - Uthimin

from Saudi Arabia wrote on Mohammed ibn Abdul Wahab and the Saudi dynasties.

The 1970's and 1980's saw the emergence of young Arab scholars from the Gulf States, particularly young girls. The main ones are:

Aisha al - Sayyar

"The Yariba Dynasty in Oman and East Africa". She received her Master's Degree from the Girl's College, Ain Shams University, Cairo in 1973. In 1984 she received her Ph.D. from the same university on "Historical Origins and Contemporary Developments of the Union Amongst the coast of Oman Emirates".

Amal Ibrahim el - Zayani

"Bahrein, From Protection to Independence", Master's Degree in Political Science from Cairo University in 1972.

Nura Mohammed al Qassimi

Obtained her Master's Degree on "Indian Misorities in the Gulf During the 19th Century", Girls College, Ain Shams University, Cairo, 1981.

Souad Ghaoriti

"Les Emirats Arabes Unis Vers Une Nouvelle Experience Féderative", these pour le Doctorat d'Etat Mention Droit, 1982, Université de Paris. Pantheon, Sorbonne, (2 vols.)

Sultan Mohammed al Qassimi

"Arab Piracy and the East India Company's Encroachment in the Gulf, 1797 - 1820", Ph.D. thesis, University of Exeter, 1985. Published under "The Myth of Arab piracy in the Gulf", London, 1985.

Abdullah Umran Taryam

"Political Developments of Gulf States & the Establishment of the United Arab Emirates, 1950 - 1985, Exeter University, 1986.

After the Second World War the approaches of the various scholars to their studies differ greatly. We find Kelly, who regrets the British withdrawal from the Gulf, viewing it in the introduction of his recent book "Arabia, the Gulf and the West", thus: "For all its gloss of recently acquired modernity, which so beguiles the foreign eye, the Gulf today is very much as it has always been - turbulent, backward, intrinsically unstable - and it is this instability which poses the greatest threat to Western interests in the region". In Landen's preface we see another picture of British imperialism in the Gulf. He says "During my research I reached the conclusion that the late nineteenth centuryespecially after the penetration of modern steamers and telegraphic communications into the persian Gulf beginning in 1862 - was the time of crisis when the region's ancient culture was changed irrevocably. It was also my conclusion that an understanding of this relatively unknown upheaval might illustrate that in some societies the process of modernisation can be more destructive than constructive in its effects". What the Arab historians introduced was another approach and explanation, influenced by new local data on the history of the modern Gulf. This new attitude was clearly exhibited by Shaikh Sultan Mohammed al Qassimi in the introduction to his book "The Myth of Arab Piracy in the Gulf", he said "For three quarters of a century, since Lorimer compiled his Magnun Opus, his deliberate misrepresentation of the History of the Arabian Peninsula and the Gulf has prevailed and has never been challenged. The fact that his work was commissioned by Lord Curzon, the Viceroy of India, as an apologia for the long history of British colonialism in the Gulf has been forgotten. As a civil servant in the British Imperial Government of India, Lorimer could not be expected to be an impartial student of the affairs of his government, indeed, with the authority derived from his access to the documents he was able to present falsehoods and rumours as irrefutable facts. His method of compilation was highly selective and so designed to serve his purpose as to render his work apochryphal.

"It is also curious that, in his study "Britain and the persian Gulf", Dr. Kelly includes Lorimer's work in his printed documentary sources, however, Kelly's purpose was to support rather than to challenge Lorimer's work. In a sense he was more royalist than the king, and his adoption of the imperialistic point of view was almost more unquestioning than that of the imperialist functionaries themselves".

Shaikh Sultan, after explaining the motives of the Qawasim in attacking British ships and denying British allegations of piracy against his ancestors, continues: "This kind of explanation only helps to emphasise the complete misunderstanding of the history of the area and thge factors involved. The indigenous people of the Gulf were normal people,

Before the Second World War many books of travel, memoirs and history. were written by Europeans and Arabs. Chief among these are the writings of Miles, Curzon, Lorimer, Wilson, philby and Dickenson. But the real renaissance in academic writing, and the establishment of centres of documentation and research, either in the west or in the Arab countries and the Gulf states had to remain until the Second World War period. Below are some examples (not inclusive) of the main studies written after 1945

During the late 1940's the main academic dissertations in the United States were achieved by:

George S. Rentz
"Muhammed ibn Abdul Wahab, 1703 - 1793", and "Beginning of the Unitarian Empire in Arabia". Unpublished dissertation Library of the University of California, Berkeley, 1948.

R. Bayly Winder
"A History of the Saudi State from 1817 - 1891". Unpublished doctoral dissertation, Princeton University Library, 1950. Published later under the title "Saudi Arabia in the Nineteenth Century", New York, 1965

During the 1950's Arab academic pioneers in Iraq and Egypt commenced contributions to scientific research with western scholars. The main studies during the decade were:

Mahmoud Al - Dawood
"The Gulf in International Conflicts", London University.

Salah al - Din Al Aqqad
"Mohammed ibn Abdul Wahab and the First Unitarian State", Sorbonne, Paris.

Kelly, J.B.
"British Policy in the persian Gulf, 1813 - 1843", London University, Ph.D. Thesis, 1956

Abdul Amir M. Amin
"Arab Maritime powers in the Gulf in the 18th Century" London University

Gamal Zakariyah Qasim
"Said bin Sultan, 1806 - 1856", Master's Degree, Ain Shams University, Cairo, 1959. Later obtained Ph.D. on "The History of the Gulf between 1840 - 1914" from same university.

The 1960's decade witnessed the advent of more Western, Asian and Arab scholars in the field. Chief among these are:

Linton Cooper Busch
"Britain and the persian Gulf, 1894 - 1914", a doctoral study at the University of California, Berkeley, 1964.

Ahmed Mustafa Abu Hakim
"History of Eastern Arabia, 1750 - 1800". Dr. Abu Hakim was a member of the Kuwaiti Committee which produced two volumes on the history of Kuwait.

Robert Geran Landen
"Oman since 1856", princeton, New jersey, 1967.

Kumar, R.
"India and the persian Gulf Region, 1858 - 1907, London University.

Bathurst, R.D.
"The Yaariba Dynasty, 1624 - 1740", Cambridge University, 1967.

Hussein M. al Baharna
"The Legal Status of the Arabian Gulf States", University of Manchester, 1968.

M. Morsy Abdullah
"The First Saudi Dynasty and Oman, 1793 and 1818", Master's Degree, Cairo University, 1965. Later obtained Ph.D. Cambridge University, 1974, with "The Trucial States in British Imperial Strategy between 1892 - 1939".

Wilkinson, J.C.
"Water and Tribal Settlement in South East Arabia", Oxford University, 1969.

Mustafa Abdul Qadir al Najjar
"Arabistan Emirate, 1897 - 1925", Master's Degree, Ain Shams University, Cairo. Later obtained Ph.D. from the same university on "The Modern History of the Gulf and Shatt al - Arab". Dr. al Najjar was Director of the Centre for Arabian Studies at Basrah University in 1973. This Centre enriched the Gulf with Many publications by Arab and Western scholars (on the Gulf). In 1977 he became Secretary - General of the Centres for Documentation and Research in the Gulf States. In 1984 he was also Secretary - General of the Arab Historians Union and, in addition, Adviser to the Gulf Centres.

Abdullah al - Ghunaim
From Kuwait on the geography of the Gulf. Dr. al - Ghunaim, as Chief Editor of the Journal for arabian Gulf and Arabian Peninsular Studies, and as Head of the Geography Department in the Faculty of Arts at Kuwait University has produced many academic works in the field of geography of the Gulf.

States of America stepped into the arena as rivals for oil concessions.

Many regional and local powers played important roles in the general history of the Gulf during modern times. Among them were the Ottomans in Iraq and al Hasa and the Safavid in Iran during 1500 and 1728. Religion played an important role in Gulf politics and the Wahabi Movement exercised great influence over Gulf history. The first Saudi state was established between 1745 and 1818 with Dariya as its capital; the second was between 1840 and 1891 with its capital at Riyadh and with limited dominance over Najd. Finally, between 1902 until the present, there arose the third Saudi state which expanded all over Arabia. In addition, in Oman, the yaariba rulers had succeeded in expelling the portuguese from Oman in 1650. They established their flourishing dynasty between 1624 and 1728. This was followed by the al Bu Said dynasty which commenced in Oman in 1741 and has governed the Sultanate of Muscat and Oman up to the present day.

At the beginning of the 18th century the collapse of the Safavid dynasty in Iran and the Yaariba dynasty in Oman created a political vacuum in the Gulf which attracted tribal Arab migration from inner Arabia and Oman towards the Gulf coast, both Arab and persian. Thus was created the new political map of the Arab Emirates in the Gulf region, Kuwait, Bahrain, Qatar and the seven Trucial States which today constitute the United Arab Emirates. The birth of independent Iraq in 1932 and the rise of Reza Shah introduced Arab and Iranian nationalism into the Gulf region.

Reviewing all these subjects, the economy, social life, politics, religion and nationalism, one finds a very rich period of historical events. In fact there is a wealth of material on the modern history of the Gulf from which the historian may choose. The difficulty is, however, that this valuable data is scattered and lies in the archives of the different European countries which played a role during this period. There are the portuguese documents in the Torre de Tombo in Lisbon and the National Archives in Goa, the Dutch records are kept in the Hague, the India Office Library and the public Records Office hold the British documents in London and there are the National Archives in New Delhi and Bombay. In Paris at the Quai d'Orsay are held the French documents, Bonn has the German documents at the Foreign Office archives. American documents are kept at the National Archives in Washington and the papers in the Russian archives in Moscow have not yet been explored. In addition to all of this official, historical data, there are the native Arab manuscripts on the local dynasties and movements, some of which were kept in European libraries such as the British Museum, the University of Cambridge Library, Oxford University Library, the Bibliotheque National in Paris, and Damascus and Cairo libraries. Among these important manuscripts and Arab writings are:

Sirhan ibn Said al - Azkawi	Kashf al - Ghummnah al - Jami Li Akhbar al - Ummah
Hussain ibn Ghannam	Rawdat al - Afkar was al - Afham Li Murtad Hal al - Imam
Uthman ibn Bishr Ibn Raziq	Unman al - Majd fi Tarikh Nejd Al - Fath al - Mubin fi Sirat al - Sada al - Bu Saidiyyin
Ibrahim ibn Salih ibn Isa	Iqd al - Durar Fima Waqa fi Nejd fi al - Qarn al Rabi Ashar
Abdula bin Humaid al - Salimi	Tuh fat al - Ayan bi Sirat Ahl Uman

MODERN HISTORY AND HISTORIOGRAPHY OF THE GULF

DR. M. MORSY ABDULLAH

CENTRE FOR DOCUMENTATION

ABU DHABI

With the arrival of the Portuguese in the Gulf in AD 1507, and the appearance of the Ottomans in Iraq in 1535, began the modern history of the Gulf region. A long period of economic deterioration started when the people of the Gulf lost their main source of income in transferring the Orient trade from India, the Far East and East Africa to the ports on the Mediterranean, a trade which brought great wealth throughout ancient and medieval times to the Gulf inhabitants. European rivalries for Gulf domination amongst the portuguese, Dutch, French and, Finally, the British, in addition to the introduction of steamships in the Gulf, hit Arab navigation, shipbuilding and the caravan trade through the fesert, between the Gulf and the Levant.

At the turn of the century, and before the First World War, pearl diving was the only source of income and livelihood for the Gulf's in habitants. The international economic crisis in the late 1920's, and the production of japanese cultured pearls both produced the last economic crisis the Gulf people then had to face in the long cycle of their decline in modern times. The discovery of oil changed fundamentally the economic and social life after 1945, and modernisation was accelerated and developed in the Gulf region.

Although many important European and Arab books and manuscripts were written during these long, five centuries, academic studies at universities in the West and the Arab world did not appear until the late 1940's.

The Gulf witnessed, during modern times, European rivalries for monopoly of the Eastern trade and to prevent the Arabs from sustaining their historical trade of transferring goods between East and West. This rivalry, which had continued in the Gulf, particularly after the discovery of oil, bears witness to the importance of the Gulf in world economics. The Portuguese dominated the Gulf between 1500 and 1650. The Dutch followed, up to 1750 - 65, and then arose the rivalry between the French and the British. British dominance in the Gulf, in the late 19th century, following their expedition of 1819 into the Gulf against the Qawasim of Ras al Khaimah, was faced with an international challenge from European newcomers, namely the Russians and the Germans, in addition to the French and the Ottomans. Between the two world wars the United

cause of the insistency of Ibn Hazm who denied the value of his theories, and might have declared:"My meditations in the inquiry of learning has more greatness than yours, whereas yours were elaborated by the candle-light of a night-watchman of the market!! To which Ibn Hazm might have retorted: "your words, far from being in your favour, condemns you, considering the position in which you were you did not try to educate yourself, except, in the hope of having a position similar to mine".

We do not know who won this discussion. The Fakirs Maliquitas all said - al-Baji; Ibn Hazm's friends said the latter. And the case is still to be decided.

What is known, however, is that, since then, al-Baji's prestige has risen by degrees and Ibn Hazm was expelled from Majorca and, much later, his works were burnt in Sevilha by the order of al-Mu'tadid ben Abbad, for containing heretical ideas.

In the opinion of the Arab Historians, al-Baji died in 1081 in Almeria (Gulf of Spain) and was buried in the "ribat" of that city near the sea. His son, Abu'l Qasim, to whom he left a document with his last instructions, prayed for him.

Al-Baji's ideas, in a large part constituted in the East, was spread in the West by his books and his followers.

Abu'l Walid al-Baji left an immense volume of his work in were : 5 books of Methodological Questions; 1 of Traditions; 15 of Law; % of Theology and % of various subjects.

Among his followers were: 1) Abu Umar Ibn Abd al-Bar who was the Qadi of Lisbon and Santarem in the time of al-Muzaffar Ibn al-Aitas of Badajoz and author of many works of traditions and Law as "Treatise of the complete knowledge of the Companions of the Prophet" and an explanation of the "al-Mu'atta" of Malik. 2) Abu Abd Allah al-Humaidi, the author of the "Ardent Ember". 3) Abu Bakr al-Turtusi, famous author of the "Lamp of the Princes" and of the "Book of Novelties and Innovations" which I studied with him in Saragoca (Spain).

The work of Abu'l Walid al-Baji at last merited some studies by the authorship of Abd'al Majid Turqi who seems to have started the publication of his books found or existent in various libraries in Europe and the Arab World.

The voyages of the Luso-Arabs to the East contributed towards a renovation and enrichment of the western arab culture. The same can be said, especially, regarding Iraq.

As Ziriabe brought the literary and musical customs of Baghdad to Cordova, so Amr Ibn Ismail of Santa Maria of the west (Faro) and Abu'l Walid al-Baji of Beja brought from Baghdad literary and doctrinal subjects which very much influenced the Andaluz.

That influence was discharged by two methods: through books and by the followers. We know that one of these two types started teaching and through the disciples spread Eastern ideas and doctrines.

The exact study of the cultural influence of Baghdad among the Luso-Arabs through the learned men who made the pilgrimage to Mecca is only now being noticed but promises very interesting results.

Before ending, we wish to call to mind two short Arab poems, one of Abu'l Walid al-Baji, of religious character, and the other, of Abd al-Muhsan al-Kasimi, Iraqi Poet, al-Afgani's companion, is of a Pan-Arabic character.

The first poem says :

> If I know from certain knowledge
> That all my life is like an hour
> Why not try in it
> To consegrate it to the benefit and obedience of God?

And the other :

> My beloved heart, remembers its loves
> And glowed in its flame, gone astray!
> On hearing Iraq, was bowed with nostalgia;
> And if one says Syria, sighs deeply.
> Its emotionally disturbed if it hears Hejaz
> And silent by wonder if one says Egypt.
> The soul is panting so that Iraq and all
> Find the happiness for which they yearn.
> All the Arab people will be worth the same
> On the day in which they are weighed and measured.
> And if we unite the souls there will not be
> Anxiety over the bodies
> Even though they are dispersed!

mean a return to the old Caliphate unity of the Omayyads, as was intended, in the same period, by the notable writer and philosopher Ibn Hazm, origin of Huelva, but, yes, of a new unity, moral and religious which brought together the Arab princes in a common front against the Christians, each time more powerful and threatening.

It happened, however, that while Al-Baji went to the Princes and flattered them to obtain their good favours and spiritual disposition, all welcomed him well and praised his virtudes and his personal qualities, but when he started to publicly proclaim the Islamic Unity, Andaluz and the necessity of being united against the common enemy, all, driven by their hatred and discords, saw him being detached and stopped by not giving any more attention to his words, each one doing as he thought more suitable, within the framework of their union and political oppositions.

Little by little, Abul Walid al-Baji saw that his political dreams with religious basis would not be easily realised and that displeased him a lot.

During this time, a tremendous tussle was going on in Andaluz in the various kingdoms of Taifas between the two schools of the Moslem Law and Theology, the Malaquita and the Zahirita. On the Maliquitas side, almost all were Fakirs and Ulemas; on Zahiritas side were various doctors like Ibn Hazm who attained great prestige as a man of literature and poet, jurist and philosopher and became noted for his defence of the Omayyads' cause.

Ibn Hazm, however, always lost his game and ended by being expelled from Cordova where he taught beside his friend and teacher Abul Hijar Mas'ud Ibn Sulaiman Ibn Muflit of Santarem.

In 1028, both had been forbidden, by a decision superior than that of Caliph al-Mutad to teach in Cordova or any other part of Andaluz because their doctrines were considered heretical. That occurred much before Al-Baji had left for the East.

Years later Ibn Muflit of Santarem died and the Fakris did not permit a religious funeral in spite of the great fame of sanctity shown towards him by the poor of Cordova whom he protected a lot.

Ibn Hazm had to seek refuge in Majorca in 1039. At that time the Governor there was Sulaiman, brother and successor of Aglab - a freed man of the Mujahid of Denia - but who had supreme intellectual authority, moral and juridical and, even, administrative; he was Qadi Abul Abbas Ahmad Ibn Rasiq, great doctor in the matter of Moslem doctrine.

Ibn Hazm sought the protection of Ibn Rasiq who, in his palace, organised literary assemblies in which the more diverse cultural problems were publicly discussed.

The fight between Maliquitas and Zahiritas also determined the formation of two parties on the Island of Majorca: one in favour of the Fakirs and the other for the notable philosopher. On the Fakir's side were the most illustrious Fakris of the Island and on the other side, Ibn Hazm, were his learned friends.

One of the Fakirs, when he saw some of his leading colleagues defeated, went to the continent (Spain), in search of some one who could fight against the terrible Zahirita.

Everyone suggested al-Baji who accepted the invitation and left for Majorca at once with the aim of challenging Ibn Hazm to a public discussion over themes of Law and Religion.

The discussion was held under the presidency of the famous Qadi Ibn Rasiq, but with the presence of a large number of doctors and men from the street. Great enthisiasm was aroused in classes of people. By that time, Ibn Hazm was in his sixties and al-Baji in his forties. They were adversaries worthy of each other.

We know little about the public discussion of al-Baji with Ibn Hazm in Majorca. Nevertheless, it is of consequence to try to reconstitute it, at least, in some parts with the few points at our disposal.

Right at the start of the debate it seemed that al-Baji spoke in favour of the "Asari" school, wondering at the strong emotion shown by Ibn Hazm in the utility of the Zahirita school which restricted a bit in a consistent fideism. Ibn Hazm replying violently attacked the "Asari" school trying to put al-Baji's research to the ridicule.

The question then passed to the main points of the debate, at which time the vast researches of the Moslem Law and Theology were discussed in their foundations and their consequences. In the animosity of the dispute, it seems that al-Baji might have passed to the field of personal attack, be-

2) We presume that Abdul al-Aziz Ben Hussain, from Tavira, known as Ibn Halalah, also studied in Iraq. Well, Ibn Naqat said that he died in Basra in 1220. Without doubt, he went there with cultural objectives and none other.

3) But, the most illustrious of the Luso-Arabs who studied in Iraq was Abdul Walid al-Baji, who we will mention particularly, because he showed us a trajectory which we think was followed by many others, although we do not have absolute proof of this.

The most notable of the Luso-Arabs who made the pilgrimage to Mecca and studied in Baghdad was, without doubt, Abdul Walid Suleiman Ibn Halaf, Ibn Sayid Ibn Ayub Ibn Warit al-Tujibf al-Baji, born in Beja and stayed with his grand parents and parents, a family originating from Badajoz, perhaps related to the Tujibbis, Lords of Saragoca.

Abul Walid al-Baji was a poet and scholar, jurist and theologist, wise in the science of the "Kalam". We dedicated to him a study published in 1960.

Ibn Hakan, notable anthologist of Arabic-Andaluzian poetry, made his recommendation in his book, "Qala'id al Iqyan (Collars of Gold), in the following terms: "Science, was his glowing full moon, as well as his saviour and fragrant rain, his powerful and counsellor Mount Tabir, with which his dark nights were illuminated. It was the Immam of Andaluz to whose lights all turned and whose virtues and zeal were very much sought."

From a poor family or a family reduced to poverty, Abdul Walid al-Baji in the early part of his life had to do manual labour.

From Beja he left for Badajoz and from there to Cordova where he lived with another branch of his family. In Cordova he was able to concentrate on his study and had notable men as his teachers.

By 1031/35 he left for the East. He was in Egypt, Arabia, Syria and Iraq. He made four pilgrimages to Mecca.

At first, he stayed three years in Mecca. Here he studied Traditions and Law with Abdul Darr al-Harawi, Sheikh of Haram, notable Maliquita sage. From Mecca Abul Walid al-Baji went to Baghdad where he studied with the best masters of the time. There, in order to continue with his studies, he worked as Night Watchman of the city's Battlements, according to what some say. In Baghdad, he stayed three years and studied with Abul Hasan Ibn Zauji, Abu Ali Ibn Taar, Abul Najil al-Armawi, Abu Bakr al-Hatib, Abul Fath al-Tanajiri and abu Ishaq al-Sirazi the author of the "Muhadab".

From Baghdad he went to Mosul where he stayed for a year with Abu Jafar al-Simmani, the Qadi of the city, with whom he also studied.

On his return to the West, Abu'l Walid al-Baji passed through Syria. He stayed in Damascus and fulfilled the duties of a Qadi in Aleppo and Homs.

In the East he also studied with famous doctors like Abu'l Qasim Ibn al-Tahir, Ali Ibn al-Sammari, al-Sakan Ibn Jami al-Saidawi and many others.

Thirteen years after having left for the East, Abu'l Walid al-Baji returned to Andaluz. In his bombastic style, Ibn Haqan writers: "The kingdoms offered him present and everywhere he went gentlemen and attendants went out to meet him. He passed through all the provinces and was received in every place with the best attention!!

The truth is that, on returning to Andaluz, Abul Walid al-Baji met with many difficulties. He was dedicated to teaching. He taught in Saragoca, Valencia, Murcia and Denia, but, as what he earned did not suffice to live on, in his free hours he again turned to manual labour.

It was thus that, in the Eastern part of Spain he beat golden thread for woven fabrics. Some of his students said that during class, deep marks were noticed on his hands because of using the hammer for beating the threads.

Nevertheless, little by little, his knowledge became known and his fame was elevated so that he started to undertake jobs of certain importance. He was nominated Notary and Qadi of small villages like Orihuela.

The revelation of his works of Law and Theology and his literary culture contributed for his change of lifewhich made him a celebrity.

By this time Abul Walid al-Baji embarked on a vibrant campaign for the unity of the Andaluz Islams. The Spanish Arab were then divided in many small kingdoms - the Kingdom of Taifas - which fought among themselves and, in the face of that desintegration which fought among themselves and, in the face of that desintegration which brought about the ruin, Abul Walid al-Baji publicly proclaimed the Union. It did not

milar way to that which, a century later, Santo Tomas de Aquino would have introduced in the University of Paris. That work of the notable intellectual Dr. Sahib Abu Janah was published in the "Al-Mawrid" magazine of Baghdad in 1977.

As such, we cannot forget the wounderful conference we heard in Madrid in the Spanish-Arab Institute of Culture of Dr. Salih Ahmad ben Ali about "the common bases of European and Arab Culture", "the part of the Arabs in the first Islamic period" and "The formation of the Arabs' intellectual movement", which texts I have conserved with veneration. Salih Ahmad ben Ali, one of the greatest specialists of Iraqi History, namely of Baghdad and Basrah, is Cathedratic professor of the Faculty of Literature in the Baghdad University.

Time seems to be drawing near when the Portuguese and Arab intellectuals should collaborate towards the realization of mutual interests of studies.

The Institute of Arab Studies of Algarve, of which I am the President of the Directive Counsel is vividly interested in such a cultural collaboration.

Coming to the theme of my discourse prepared for this cultural meeting, we have to say that many were the illustrious Luso-Arabs who went to Mecca on a pilgrimage, fulfilling as such a duty imposed by their Islamic religion.

Speaking of the Andaluzians who went on pilgrimage to Mecca, Levi-Provencal wrote in his "History of the Spanish Moslems until the fall of the Cordovan Caliphate"; In the majority of the cases, the pilgrims of the Iberica Peninsula who already possessed a basis of understanding of the religious science, took advantage of their journey to the East, in order to prolong, with frequency for some years, their stay in Arabia or, include, to go upto Iraq or to go even much further. Therefore, the journey had a double objective: the fulfilment of the "Haj" ritual and the search of learning "Talab al ilm".

Indeed, the Luso-Arabs who went on a pilgrimage to Mecca, took advantage of this journey to study. Where? In Cairo, in the Mahdiyah, In Mecca, in Medina, Yemen, Daamascus or Aleppo and in Iraq, specially in Baghdad, Basra and Mosul.

And they were not few! In a study which, sometime ago, we presented in the Centre of Overseas Historical Studies, of Junqueira, we noted: 2 from Ossonoba (Faro), 3 from Western Santa Maria (Faro), 2 from Tavira, 3 from Silves, 12 from Beja, 1 from Moura, 2 from Evora, 3 from Lisbon, 1 from Sintra, 2 from Santarem and 1 from Coimbra. In all 32 people who deserved, without doubt, our interest and whose biographies are well known.

The journey would have been made through North Africa, cities and deserted regions, or, by sea, leaving from the gates of Almeria, Valencia, Denia or from those of the Baleares.

We know that many studied on their trip to the East or on their return, or even during their stay in Arabia or any other region of the Near East.

As such, in the primitive times, VIII Century, there were many who studied with Malik ben Anas in Medina. In this case they were: 1) Muhammad ben Ibrahim ben Muzain al-Audi, Supreme Qadi of the Principal Mosque of Cordova, member of the important Banu Muzain family of Syrian-Palastinian origin, who would have been established in the province of Ossonoba (Algarve) and who, much later, inherited the titles of qadis and Princes of Silves in the Taifas period. 2) Muhammad ben Baxir ben Muhammad al-Mu'afiri of Beja who, in another time, also was Supreme Qadi of the Principal Mosque of Cordova. This Muhammad came from an illustrious family of Beja whose members were various Qadis of Cordova and of other cities of Andaluz. 3) Abdel Rahman Ben Abid Allah, celebrated scholar of the Lisbon area. 4) Dawud Ben Jaafar al-Sagir, Cordovan origin, who later became Qadi of Coimbra and author of valuable works on traditions.

But, let us speak, in particular, about those who studied in Iraq and, to be exact, in Baghdad.

1) In the first place, Amir Ben Ismail Ben Amir Ben Ismail al-Muqri, people of West Santa Maria (Faro), who studied the "Maqamat" of Hariri in Arabia and Quoranic Theology in Egypt. It seems that he was first in Baghdad and studied there with Hariri. He was Abu Bakr Ibn Hair's teacher, the celebrated Andulasian Bibliophilist who had relatives in Silves. He died in 1142.

The studies in Baghdad of the Luso–Arabs who went on pilgrimages to Mecca

ADiscourse presented by Dr. Prof. Jose D. Garcia Domingues in the "Casa da Imprensa" in Lisbon on the 11th of March, 1986, in a Cultural Session promoted by the Portugal–Iraq Friendship Association.

For me Iraq has various interests. In the first place, because it is the fatherland of the old mesopotamic civilization (Sumerians, Chaldeans, Assyrians, Neo–Babylonian Empire). Persians, Greeks, Parthians, and Sassanians occupied that territory later in a movement of expansion. Later on the arabs established there a Caliphate which lasted for about 500 years, since the fall of the Omayyads until the time of the Hulagu Mongols.

In the second place, because the palaces of Baghdad were always in the imaginations of the Luso–Arab poetry, namely of the poets who praised the "Qasr al–Sarajib" (Palace of the Verandahs) of Silves (Algarve). Also, because in the Middle Ages Baghdad played the role as a cultural centre to which the Luso–Arabs who went on a pilgrimage to Mecca took advantage of going there to study, later taking with them to the West the brilliant reflexes of the ideas of the people of Baghdad.

Even still, because, it was from Baghdad, from the "Encyclopedia of the Brothers of Fidelity" (Rasa'il Akwan al–Safa) that infused the very deep influence for the spiritual revolution, which was verified in Silves, in the XII Century, under the command of Ahmad Ibn Qasi, who created there his doctrinary school of the "Mawrideens" (Disciples), of the alghazalies' feature.

We cannot forget the names of the Iraqi poets which shine in today's Arabic literature with great splendour such as Nazik al–Mala'ika e Abd al–Wahab al–Bajati, some of which poems we had the occasion to translate during our studies in Madrid.

On the other hand, it was an Iraqi, Dr. Salah Halis, a notable intellectual, who published the "Diwan" of Ibn Ammar the most celebrated poet of Algarve, born in Silves, accompanied by a splendid biography.

That work, introduced in Sorbonne with a view for a doctorate, under the direction of Levi–Provencal, revealed to the world for the first time, the "Diwan" od Ibn Ammar, found in an old manuscript in the Library of the Karouin Mosque in Fez, in such a deteriorated state that, as Provencal told me, in some cases certain verses were only lines of black ink. Nevertheless, they served to evaluate how many verses were contained in certain poems, copied many time but, never, in the exact and complete form.

Also we cannot forget the interesting work of Dr. Sahib Abu Janah, about Ibn al–Sid Al–Bataliawsi a notable poet, philologist, & philosopher who was born in silves but left there at the age of seven and went to Badajoz and would have become the first great philosopher of Andaluz, preceding the best, theorist of the relations between philosophy and religion (reason and faith) of a si-

THE ARAB HISTORIAN

journal of the union of arab historians

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

Office of the General Secretary

Iraq – Baghdad – P.O.BOX 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad